

الشيخ فاضل

بتعريف حقوق المصطفى



تأليف

العلامة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي

(٤٧٦ - ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م)

دار ابن حزم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن خزيمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - صرّب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

الشِّفَا

بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو عيَّاض بن موسى بن عيَّاض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته.

ولد في مدينة سبتة بالأندلس سنة ٤٧٦هـ. وتربى في أحضان أسرة عربية أصيلة، فنشأ على الصلاح والتقوى، معرضاً عن اللهو، شغوفاً بالعلم، محباً للجهاد، حافظاً لكتاب الله تعالى أكثر من تلاوته.

وكان أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي القضاء بسبتة، ثم قضاء غرناطة فكان قاضياً عادلاً، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان إماماً بارعاً، متفنناً في علم الحديث، والفقه، واللغة والنحو، وعاصر دولتي المرابطين والموحدين.

من تصانيفه:

- «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» - وهو كتابنا هذا ..
- «الغنية» وهو في ذكر مشيخته.
- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك.
- «شرح صحيح مسلم».
- «مشارك الأنوار»، وهو في الحديث.
- «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» وهو في مصطلح الحديث.

- وكتاب في «التاريخ».

- «المقيدة».

- «مطامح الأفهام في شرح الأحكام». وغيرهم كثير.
توفي رحمه الله بمراكش سنة ٥٤٤هـ مسموماً؛ قيل: ستمه يهودي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه أتوكل

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل: عِيَاضُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضٍ
الْيَحْضَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَفَرِّدِ بِاسْمِهِ الْأَسْمَى، الْمُخْتَصَرِ
بِالْمُلْكِ الْأَعَزِّ الْأَحْمَى، الَّذِي لَيْسَ ذُوْنُهُ مُتْتَهَى، وَلَا وِرَاءَهُ مَزْمَى، الظَّاهِرِ لَا تَحِيلًا
وَوَهْمًا، وَالْبَاطِنِ تَقْدُسًا لَا عُدْمًا، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَسْبَغَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ
نِعَمًا عُمًا، وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، أَنْفَسَهُمْ غُزْبًا وَعُجْمًا، وَأَرْكَاهُمْ مَخْتَدًا
وَمُتَمِّيًا، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَجِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعَزْمًا،
وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَافَةً وَرُحْمًا، وَزَكَّاهُ رُوحًا وَجِسْمًا، وَحَاشَاةً عَيْنًا وَوَضْمًا؛ وَأَنَاهُ
حِكْمَةً وَحُكْمًا، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَقَلُوبًا غُلْفًا، وَأَذَانًا صُمًّا؛ فَأَمَّنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ،
وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْمًا، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آيَاتِهِ مَنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ﴾ [الإسراء: ٧٢]
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً تَنْمُو وَتَنْمَى، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ: أَشْرَقَ اللَّهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ، وَلَطَفَ لِي وَلَكَ بِمَا لَطَفَ بِهِ
لَأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ شَرَّفَهُمُ اللَّهُ بِثُرُلِ قُدْسِهِ، وَأَوْحَشَهُمُ مِنَ الْخَلِيقَةِ بِأَنْبِيِهِ،
وَخَصَّهُمُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَشَاهِدَةِ عَجَائِبِ مَلَكُوتِهِ، وَأَثَارِ قُدْرَتِهِ بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ حَبِيرَةً،
وَوَلَّاهُ عَقُولَهُمْ فِي عَظَمَتِهِ حَبِيرَةً؛ فَجَعَلُوا هَمَّهُمْ بِهِ وَاحِدًا، وَلَمْ يَرَوْا فِي الدَّارَيْنِ
غَيْرَهُ مُشَاهِدًا؛ فَهُمْ بِمَشَاهِدَةِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ يَتَنَعَّمُونَ، وَبَيْنَ أَثَارِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ
عَظَمَتِهِ يَتَرَدَّدُونَ، وَبِالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ يَتَعَزَّزُونَ، لَهْجِينَ بِصَادِقِ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ
اللَّهُ ثُمَّ دَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإنك كررت عليّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توفير وإكرام، وما حُكْم مَنْ لم يُوفَ واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلاماً ظُفر؛ وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينّه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم - رحمك الله - أنك حملتني من ذلك أمراً إمرأ، وأرهقتني فيما ندبنتني إليه عُسرأ، وأرقيتني بما كلفتني مُرتقى صغبأ، ملا قلبي رُعبأ؛ فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول، وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق، مما يجب للنبي ﷺ ويضاف إليه، أو يمتنع، أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرّسالة والنبوة، والمحبة والخلة، وخصائص هذه الدرجة العلية، وما هنا مهامه فيح تحار فيها القطأ، وتقصُر بها الخطأ؛ ومجاهل تضل فيها الأحلام - إن لم تهتد بعلم علم، ونظر سيد - ومداحض نزّل بها الأقدام، إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأيد.

لكني لما رجّوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب، بتعريف قدره الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق ﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آثَرُوا إِيَّانَا﴾ [المدثر: ٣١] المدثر ولما أخذ الله تعالى على الذين أوثوا الكتاب ليبيّننه للناس ولا يكتُمونه.

١ - ولما حدثنا به أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه - رحمه الله - بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر الثمري، حدثنا أبو محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر: محمد بن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [أبو داود (٣٦٥٨)، الترمذي (٢٦٤٩)، ابن ماجه (٢٦١)].

فبادرت إلى نُكَيْتِ مُسْفِرَةٍ عَنْ وَجْهِ الْعَرَضِ، مُؤْذِيّاً مِنْ ذَلِكَ الْحَقِّ الْمُفْتَرَضِ، اخْتَلَسْتُهَا عَلَى اسْتِعْجَالٍ، لِمَا الْمَرءُ بِصَدِّهِ مِنْ شُغْلِ الْبَدَنِ وَالْبَالِ، بِمَا طَوَّقَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَقَالِيدِ الْمِخْنَةِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا، فَكَادَتْ تَشْغُلَ عَنْ كُلِّ فَرْضٍ وَتَقْلَ، وَتَرَدَّ بَعْدَ حِصْنِ التَّقْوِيمِ إِلَى أَسْفَلِ سَفْلٍ؛ وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ خَيْراً لَجَعَلَ شُغْلَهُ وَهْمَهُ كُلَّهُ، فِيمَا يُخَمِّدُ غِداً أَوْ يَذِمُّ مَحَلَّهُ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ سِوَى خَضِرَةِ النَّعِيمِ، أَوْ

عذاب الجحيم، ولكان عليه بِخَوِصَّتِيهِ، واستنقاذ مُهْجَتِهِ، وعَمِلِ صالحٍ يستزيده،
وعِلْمُ نافعٍ يفيده، أو يستفيدُه.

جَبَر اللهُ صَدْعَ قُلُوبِنَا، وَعَقَرَ عَظِيمَ ذُنُوبِنَا، وجعل جميع استعدادنا لِمَعَادِنَا،
وتوفَّر دَوَاعِينَا فيما يُنْجِينَا، وَيُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ تَعَالَى زُلْفَى، وَيُخْطِئُنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ.
ولما نَوَيْتُ تَقْرِيبَهُ، وَدَرَجْتُ تَبْوِيئَهُ، وَمَهَّدْتُ تَأْصِيلَهُ، وَخَلَّصْتُ تَفْصِيلَهُ،
وَاتَّخِذْتُ حَضْرَهُ وَتَحْصِيلَهُ، تَرَجَّمْتُ بِهِ (الشُّفَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى) وَحَصَرْتُ
الكلام فيه في أقسام أربعة:

القسم الأول: في تعظيم العليِّ الأعلى لِقَدْرِ هذا النبي ﷺ قولاً وفِعْلاً،
وَتَوَجُّهَ الكلام فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تَعَالَى عليه، وإظهاره عَظِيمَ قَدْرِهِ لديه؛ وفيه عَشْرَةُ
فصول.

الباب الثاني: في تكميله تَعَالَى لَهُ المحاسِنَ، خَلْقاً وَخُلُقاً، وَقِرَانِهِ جميع
الفضائل الدينية والدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقاً؛ وفيه سبعةٌ وعشرون فصلاً.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعَظِيمِ قَدْرِهِ عند ربه
وَمُنْزَلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدارين مِنْ كَرَامَتِهِ؛ وفيه اثنا عشر فصلاً.

الباب الرابع: فيما أظهره الله تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ،
وَشَرَفَهُ بِهِ مِنَ الْخِصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ؛ وفيه ثلاثون فصلاً.

القسم الثاني: فيما يجب عَلَى الْأَنَامِ مِنْ حَقُوقِهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَيَتَرْتَّبُ الْقَوْلُ
فِيهِ فِي أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ:

الباب الأول: فِي فَرْضِ الْإِيمَانِ بِهِ وَوَجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ؛ وفيه خمسة
فصول.

الباب الثاني: فِي لَزُومِ مَحَبَّتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ؛ وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: فِي تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَلَزُومِ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ؛ وفيه سبعة فصول.

الباب الرابع: فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ، وَفَرْضِ ذَلِكَ، وَفَضِيلَتِهِ؛ وفيه
عشرة فصول.

القسم الثالث: فيما يستحيل فِي حَقِّهِ، وَمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شُرْعاً، وَمَا يَمْتَنَعُ
وَيَصِحُّ مِنَ الْأُمُورِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ.

وهذا القسم - أكرمك الله - هو سِرُّ الْكِتَابِ، وَلِبَابُ ثَمَرَةِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ، وَمَا
قَبْلَهُ لَهُ كَالْقَوَاعِدِ، وَالتَّمْهِيدَاتِ وَالِدَّلَائِلِ عَلَى مَا تُورِدُهُ فِيهِ مِنَ الثُّبُوتِ الْبَيِّنَاتِ، وَهُوَ

الحاكم على ما بعده، والمُنَجِّزُ مِنْ غَرَضِ هَذَا التَّأْلِيفِ وَغَدَهُ، وَعِنْدَ التَّقْصِي
لموعِدته، والتَّقْصِي عَنْ عَهْدِهِ، يَشْرِقُ صَدْرُ الْعَدُوِّ اللَّعِينِ، وَيُشْرِقُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ
بِالْيَقِينِ، وَتَمَلُّأُ أَنْوَارُهُ جَوَانِحَ صَدْرِهِ، وَيَقْدُرُ الْعَاقِلُ النَّبِيُّ حَقَّ قَدْرِهِ. وَيَتَحَرَّرُ
الْكَلَامُ فِيهِ فِي بَابَيْنِ:

الباب الأول: فيما يختص بالأمر الديني، ويتشَبَّثُ بِهِ الْقَوْلُ فِي الْعَصْمَةِ
وفيه ستة عشر فصلاً.

الباب الثاني: في أحواله الدنيويَّة، وما يجوز طُرُوءُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ
البشريَّة؛ وفيه تسعة فصول.

القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام على مَنْ تَنَقَّصَهُ أَوْ سَبَّهُ عَلَيْهِ
السلام، وينقسم الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: في بيان ما هو في حَقِّهِ سَبٌّ وَتَقْصُصٌ؛ مِنْ تَعْرِيزِ، أَوْ نَصٍّ؛
وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني: في حكم شأنه ومؤذيه ومُنْتَقِصِهِ، وَعَقُوبَتِهِ، وَذِكْرِ اسْتِنَابَتِهِ،
وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَوَرَاثَتِهِ؛ وفيه عشرة فصول.

وختمناه بباب ثالث جعلناه تكملة لهذه المسألة ووُضِلَتْ لِلْبَابَيْنِ اللَّذَيْنِ قَبْلَهُ
فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبِهِ؛ وَآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ.

وأختصر الكلام فيه في خمسة فصول، وبتمامها يَنْتَهِجُ الْكِتَابُ، وَتَتِمُّ الْأَقْسَامُ
وَالْأَبْوَابُ، وَيَلُوحُ فِي غُرَّةِ الْإِيمَانِ لُحْمَةٌ مَنِيرَةٌ، وَفِي تَاجِ التَّرَاجِمِ دُرَّةٌ خَطِيرَةٌ،
تُزِيحُ كُلَّ لَبْسٍ، وَتَوْضِحُ كُلَّ تَخْمِينٍ وَخُذْسٍ، وَيُشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُضَدِّعُ
بِالْحَقِّ، وَيَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ؛ وَبِاللَّهِ تَعَالَى - لَا إِلَهَ سِوَاهُ - أَسْتَغْنِي.




القسم الأول

فِي تَعْظِيمِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى لِقَدْرِ هَذَا النَّبِيِّ
الْمُصْطَفَى قَوْلًا وَفِعْلًا

قال الفقيه القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله:

لا خفاء على مَنْ مارس شَيْئاً من الْعِلْمِ، أو خُصَّ بأذْنِي لِمِحَّةٍ مِنْ فَهْمٍ، بتعظيم الله تعالى قَدْرَ نَبِيِّنا عليه الصلاة والسلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضب لزمان، وتنويهه مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ بما تَكَلُّ عنه الألسنة والأقلام.

فمنها: ما صَرَّحَ به تعالى في كتابه، ونَبَّهَ به على جليل نصابه، وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه، وحضَّ العبادَ على التزامه، وتَقَلُّدِ إيجابه؛ فكان - جلَّ جلاله - هو الذي تَفَضَّلَ وأوَّلَى، ثم طَهَّرَ وزَكَّى، ثم مَدَحَ بذلك وأثنى، ثم أَثَابَ عليه الجزاء الأَوْفَى، فله الفضلُ بَدْءاً وَعَوْداً، وله الحمد أَوَّلَى وأُخْرَى.

ومنها: ما أُبْرَزَهُ للعبان مِنْ خَلْقِهِ على أتمَّ وجوه الكمال والجلال، وتَخَصُّصِهِ بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة؛ وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البيِّنة التي شَاهَدَهَا مَنْ عاصَرَهُ، ورآها من أَدْرَكَه، وَعَلِمَهَا عِلْمٌ يَقِينٌ من جاء بعده، حتى انتهى عِلْمُ حَقِيقَةِ ذَلِكَ إلينا، وفاضَتْ أنواره علينا،  كثيراً.

٢ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله - قراءةً مِنِّي عليه؛ قال: حدثنا أبو الحسين: المبارك بن عبد الجبار، وأبو الفضل: أحمد بن خَيْرُون؛ قالوا: حدثنا أبو يَغْلَى البغدادي؛ قال: حدثنا أبو علي السَّنْجِي؛ قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب؛ قال: حدثنا أبو عيسى بن سَوْرَةَ

الحافظ؛ قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قَتَادَةَ، عن أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، مُلْجِماً مُسْرِجاً، فَاسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: أَيُّحَمْدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ. قال: فَارْقَضَ عَرَقاً. [الترمذي (٣١٣١)، أحمد (١٦٤/٣)].



الباب الأول

فِي ثَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ
وَإِظْهَارِهِ عَظِيمَ قَدْرِهِ لَدَيْهِ

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحةً بجميل ذكر المصطفى،
وعُدَّ مخاسنه، وتعظيم أمره، وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبأن
فُحِّوا، وجمعنا ذلك في عشرة فصول.

الفصل الأول

فيما جاء من ذلك مَجِيءَ المَدْحِ والثناء وتعداد المحاسن؛ كقوله تعالى:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال السَّمَرْقَنْدِيُّ: وقرأ بعضهم: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ - بفتح الفاء. وقراءة
الجمهور بالضم.

قال القاضي الإمام أبو الفضل - رحمه الله -: أَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، أو
العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، على اختلاف المفسرين: مَنْ المواجهة
بهذا الخطاب أنه بُعِثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه،
ويعلمون صدقه وأمانته؛ فلا يتهمون بالكذب، وتترك النصيحة لهم، لكونه منهم،
وأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة.

٣ - وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْبَيْنِ﴾
[الشورى: ٢٣] [البخاري (٤٨١٨)، الترمذي (٣٢٥١)] وكَوْنِهِ من أشرفهم، وأزفعهم،

وأفضلهم، على قراءة الفتح؛ وهذه نهاية المدح؛ ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة؛ من جزئه على هدايتهم، ورشدهم، وإسلامهم، وشدة ما يعتنهم، ويضرب بهم في دنياهم وأخراهم، وعزته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيه. قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف، رحيم.

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوبَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوبَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢). وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُكُوبَكُمْ وَنُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَنُفَصِّلُكُمُ الْأُمُورَ﴾ (البقرة: ١٥١).

٤ - وزوي عن علي بن أبي طالب، عنه - صلوات الله عليه - في قوله تعالى: ﴿يَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: «تسباً وصهراً وحسباً؛ ليس في آبائي من لدن آدم سيفاح، كلنا نكاح».

قال ابن الكلبي: كتبت للنبي ﷺ خمس مئة أم، فما وجدت فيهن سيفاحاً ولا شيئاً مما كان عليه الجاهلية.

٥ - وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّكُ فِي السَّجْدِ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبي إلى نبي، حتى أخرجك نبياً.

وقال جعفر بن محمد: علم الله عجز خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك؛ لكي يعلموا أنهم لا يتناولون الصفو من خدمته؛ فأقام بينهم وبينه مخلوقاً من جنسهم في الصورة، وألبسه من نغته الرأفة والرحمة، وأخرجته إلى الخلق سفيراً صادقاً، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال أبو بكر بن طاهر: رزى الله تعالى محمداً ﷺ بزيته الرحمة؛ فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق؛ فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب؛ ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فكانت حياته رحمة، ومماته رحمة.

٦ - كما قال عليه السلام: «خَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ».

٧ - وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً بِأُمَّةٍ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرْطاً وَضَلْفًا» [مسلم (٢٢٨٨)]. وقال السَّمَرَقَنْدِيُّ رحمه الله: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾: يعني للإنس والجن.

وقيل: لجميع الخلق؛ للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رحمة للمؤمنين وللكافرين؛ إذ عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة.

٨ - وحكي أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: «نعم؛ كنت أخشى العاقبة فأمنتُ لإناء الله عز وجل علي بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿٧﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِنٌ ﴿٨﴾» [التكوير: ٢٠، ٢١].

وروي عن جعفر بن محمد الصادق في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ آخِصِّ إِلَيْكَ﴾ [الواقعة: ٩١] أي بك؛ إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْفَ تَكُونُ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رَيْبُهَا يُبْصَرُ وَلَوْ لَمْ تَنْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال كعب، وابن جبير: المراد بالنور الثاني - هنا - محمد عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ أي: نور محمد ﷺ.

وقال سهل بن عبد الله: المعنى: الله هادي أهل السموات والأرض؛ ثم قال: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا؛ وأراد بالمصباح: قلبه، وبالزجاجة صدره؛ أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: من نور إبراهيم. وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يَكَادُ رَيْبُهَا يُبْصَرُ﴾ أي: تكاد نبوة محمد ﷺ تبين للناس قبل كلامه كهذا الزيت.

وقد قيل في هذه الآية غير هذا. والله أعلم. وقد سماه تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نوراً، وسراجاً منيراً؛ فقال

تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (٤٦) [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) وَوَضَعْنَا عَنَّا وَزْرَكَ (٢) أَلَيْسَ أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) [الشرح].

شَرَحَ: وَسَّعَ. والمراد بالصُّدْر هنا: القلب. قال ابن عباس: شرحه بالإسلام.

وقال سهل: بنور الرسالة.

وقال الحسن: مَلَأَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

وقيل: معناه ألم نُطهر قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس؟

﴿وَوَضَعْنَا عَنَّا وَزْرَكَ (١) أَلَيْسَ أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ (٢)﴾ قيل: ما سلف من ذنبك، يعني: قبل النبوة.

وقيل: أراد يُثْقَل أيام الجاهلية.

وقيل: أراد ما أثقل ظَهْرَهُ من الرسالة حتى بلغها. حكاه الماوردي والسلمي.

وقيل: عَصَمْنَاكَ، ولولا ذلك لَأَثَقَلَتِ الذُّنُوبُ ظَهْرَكَ؛ حكاه السمرقندي.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ قال يحيى بن آدم: بالنبوة وقيل: إذا ذُكِرَتْ ذُكِرَتْ معي، قَوْلُ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقيل: في الأذان.

قال الفقيه القاضي أبو الفضل رحمه الله: هذا تقرير من الله جلُّ اسمه لنبه عليه السلام على عَظِيمِ نعمه لَدَيْهِ، وَشَرِيفِ مَثَرَتِهِ عِنْدَهُ، وَكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ؛ بَأَن شَرَحَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ وَالْهَدَايَةِ، وَوَسَّعَهُ لِيَوْغِيَ الْعِلْمَ، وَحَمَلَ الْحِكْمَةَ، وَرَفَعَ عَنْهُ ثِقَلَ أُمُورِ الْجَاهِلِيَةِ عَلَيْهِ، وَبَعْضَهُ لِيَسِيرَهَا، وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِظُهُورِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَحَطَّ عَنْهُ عُهْدَةُ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ لِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَتَنْوِيهِهِ بِعَظِيمِ مَكَانِهِ، وَجَلِيلِ رُتْبَتِهِ، وَرَفَعَهُ ذِكْرَهُ، وَقَرَّانِهِ مَعَ اسْمِهِ اسْمَهُ.

قال قتادة: رفع الله ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مَشْهُدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

٩ - وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ

السلام، فقال: إن ربي وربك يقول: تَذِرِي كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: الله ورسوله أعلم. قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتُ معي.

قال ابن عطاء: جعلتُ تمام الإيمان بذكري معك.

وقال أيضاً: جعلتُك ذكراً من ذكري، فمن ذُكرتُ ذُكرني.

وقال جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا أذكرني بالربوبية.

وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة.

وبين ذكره معه تعالى أن قرن طاعته بطاعته واسمُه باسمه؛ فقال تعالى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. و ﴿مَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٧]؛

فجمع بينهما بواو العطف المُشْرَكة.

ولا يجوز جمعُ هذا الكلام في غير حقه عليه السلام.

١٠ - حدثنا الشيخ أبو علي: الحسين بن محمد الجبائي الحافظ فيما أجازنيه، وقرأته على الثقة عنه؛ قال: حدثنا أبو عُمَرَ الثُمَرِيُّ؛ قال: حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود السُجَزِيُّ، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن خديجة، عن النبي ﷺ: قال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» [أبو داود (٤٩٨٠)، أحمد (٣٨٤/٥)].

قال الخطابي. أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه، واختارها بـ «ثم» التي هي للنسب والتراخي، بخلاف «الواو» التي هي للاشتراك.

١١ - ومثله الحديث الآخر: إن خطيباً خطب عند النبي ﷺ، فقال: مَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَزِدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «بَشَنِّ خَطِيبُ الْقَوْمِ أَنْتَ! قُمْ» أو قال: «اذْهَبْ» [أبو داود (٤٩٨١)، النسائي (٩٠/٦)]. قال أبو سليمان: كَرَّةٌ مِنْهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَسْمَيْنِ بِخَرْفِ الْكِنَايَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْوِيَةِ. وَذَهَبَ غَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَهُ لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى «يَعْصِهِمَا».

١٢ - وقول أبي سليمان أَصَحُّ؛ لِمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى» [مسلم (٨٧٠)]، وَلَمْ يَذْكُرِ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِهِمَا».

وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؛ هل «يُصَلُّونَ» راجعة على الله تعالى والملائكة أم لا؟

فأجازهُ بعضهم، وَمَنَعَهُ آخَرُونَ، لِعِلَّةِ التشريك، وَخَصُّوا الضمير بالملائكة؛ وَقَدَّرُوا الْآيَةَ: إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّي، وملائكته يُصَلُّونَ.

١٣ - وقد روي عن عُمر رضي الله عنه أنه قال: مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ طَاعَتَكَ طَاعَتَهُ؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].
وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣: ٣٢] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

١٤ - وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ خَنَانًا كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى عِيسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] فَفَرَّقَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ رَغْمًا لَهُمْ.

١٤م - وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في أم الكتاب: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ [الفاتحة: ٦، ٧] فقال أبو العالية، والحسن البصري: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو رسول الله ﷺ، وخيار أهل بيته، وأصحابه؛ حكاه عنهما أبو الحسن الماوردي، وحكى مكي عنهما نحوه؛ وقال: هو رسول الله ﷺ وصاحبه: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وحكى أبو الليث السمرقندي مثله، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ قال: فبلغ ذلك الحسن؛ فقال: صدق واللّه! وَنَصَحَ.

وحكى الماوردي ذلك في تفسير: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، عن عبد الرحمن بن زيد.

وحكى أبو عبد الرحمن السلمى، عن بعضهم، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أنه محمد عليه السلام.

وقيل: الإسلام.

وقيل: شهادة التوحيد.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] قال: نعمته بمحمد عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [٣٣] لَمْ نَأْتِ بِشَأْنٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤].

أكثر المفسرين على أن الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ .

وقال بعضهم: وهو الذي صدق به .

وقرىء: صدق، بالتخفيف .

وقال غيرهم: الذي صدق به المؤمنون .

وقيل: أبو بكر . وقيل: علي . وقيل غير هذا من الأقوال .

١٥ - وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْصُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد: ٢٨] قال: بمحمد ﷺ وأصحابه .

الفصل الثاني

في وصفه له تعالى بالشهادة

وما يتعلق بها من الثناء والكرامة

قال الله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّبِيِّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُنِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥)

إِلَى اللَّهِ يُلَاقِيهِ. وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] .

جمع الله تعالى في هذه الآية ضرورياً من رُتب الأثرة، وجُملة أوصاف من
المدحة؛ فجعله شاهداً على أُمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة؛ وهي من خصائصه عليه
السلام ومبشراً لأهل طاعته؛ ونذيراً لأهل معصيته، وداعياً إلى توحيده وعبادته؛
وسراجاً مُنيراً يُهتدى به للحق .

١٦ - حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله قال: حدثنا أبو القاسم

حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسمي، حدثنا أبو زيد المزوزي، حدثنا أبو
عبدالله: محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا
فُليح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يسار، قال: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ
الْعَاصِ، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَجَلُ، وَاللَّهِ! إِنَّهُ
لَمَوْصُوفٌ فِي الثَّوَرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّبِيِّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا
وَمُنِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) [الأحزاب: ٤٥]، وَجَزْأُ لِّلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي،
سَمِيتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَقْطٍ، وَلَا غَلِيظَ، وَلَا ضَخَّابَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ
بِالسَّيَةِ السَّيِئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَفْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ،
بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُصْبًا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا.
[البخاري (٢١٢٥)].

١٧ - وَذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ [البخاري (٢١٢٥)].

١٨ - وَكَفِبِ الْأَحْبَارِ [أحمد (١٧٤/٢)].

١٩ - وفي بعض طُرُقِهِ عن ابن إسحاق: ولا صَخِبَ في الأسواق، ولا مُتَرَزِّينَ بالفُحْشِ، ولا قَوَالَ لِلْحَنَاءِ؛ أَسَدُّهُ لكل جميل، وَأَمَبٌ له كُلُّ خلقِ كريم، وأَجَعَلَ السَّكِينَةَ لِبَاسِهِ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالحِكْمَةَ مَقْفُولَهُ، وَالصدقَ وَالوفاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالعِفَّةَ وَالمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالهُدَى إِمَامَتَهُ، وَالإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدَى به بعد الضلالة، وَأَعْلَمَ به بعد الجهالة، وَأَرْفَعَ به بعد الخَمَالَةِ، وَأَسْمَى به بعد التُّكْرَةِ، وَأَكْثَرَ به بعد القِلَّةِ، وَأَغْنَى به بعد العَيْلَةِ، وَأَجْمَعَ به بعد الفُرْقَةِ، وَأَوَّلَفَ به بَيْنَ قُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَهْوَأَ مُتَشَتِّتَةً، وَأَمَمَ مُتَفَرِّقَةً، وَأَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

٢٠ - وفي حديث آخر: أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صِفَتِهِ فِي الثَّوْرَةِ: «عَبْدِي أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ، مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجِرُهُ بِالْمَدِينَةِ - أَوْ قَالَ: طَبِيبَةٌ - أُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الثَّوْرَةِ وَالْإِنْبِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوَفِّي بَالِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَّقُوا مِن حَوْلِكَ فَاعْلَمُوا عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأُمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال السَّمَرْقَنْدِيُّ: ذَكَرَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ، رَوْفًا لِبَنِي الْجَانِبِ، وَلَوْ كَانَ فَطًّا خَشِنًا فِي الْقَوْلِ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَمَحًا، سَهْلًا طَلْقًا بَرًّا لَطِيفًا.
هَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال أبو الحسن القابسي: أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَفَضْلَ أُمَّتِهِ بِهِذِهِ

الآية، وفي قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَفَيْكَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقوله تعالى: وَصَاطًا: أي غذلاً خياراً.

ومعنى هذه الآية: وكما هديتكم فكذلك خضضناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمة خياراً عدولاً؛ لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أمتهم، ويشهد لكم الرسول بالصدق.

٢١ - وقيل: إن الله جلّ جلاله إذا سأل الأنبياء: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم. فتقول أمتهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فتشهد أمة محمد ﷺ للأنبياء؛ ويؤكد لهم النبي ﷺ [الخاري (٣٣٩)].

وقيل: معنى الآية: إنكم حجة على كل من خالفكم، والرسول حجة عليكم. حكاة السمرقندي.

وقال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا الذِّكْرَ مَآثِرًا أَنَّهُ لَهْدٌ قَدَّمَ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

قال قتادة، والحسن، وزيد بن أسلم: ﴿قَدَّمَ صِدْقِي﴾: هو محمد ﷺ، يشفع لهم.

وعن الحسن أيضاً قال: هي مصيبتهم بنبيهم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: هي شفاعت نبيهم محمد ﷺ، هو شفيع صديقي عند ربهم.

وقال سهل بن عبد الله التستري: هي سابقة رحمة أودعها الله في محمد ﷺ.

وقال محمد بن علي الترمذي: هو إمام الصادقين والصدّيقين، الشفيع المطاع، والسائل المجاب، محمد ﷺ، حكاة عنه السلمي.

الفصل الثالث

فَيْضًا وَرَدَ فِي خُطَابِهِ إِتْيَاهُ مَوْرِدَ الْمَلَاطِفَةِ وَالضَّرَبَةِ

من ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال أبو محمد: مكّي: قيل: هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله. وقال غون بن عبد الله: أخبره بالغفو قبل أن يخبره بالذنب.

وحكى السمرقندي عن بعضهم أن معناه: عافاك الله، يا سليم القلب! لم أذنت لهم؟

قال: ولو بدأ النبي ﷺ بقوله: ﴿لَمْ أَذَنْ لَهُمْ﴾ لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبه هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عُذْرِهِ من الكاذب؟ وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب.

ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع - دون معرفة غايته - نياط القلب. قال نفطويه: ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ مُعَاتَبٌ بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان مُحْخِيراً فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لَقَعَدُوا لِنَفَاقِهِمْ، وأنه لا خرج عليه في الإذن لهم.

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: يجب على المسلم المجاهد نفسه، الرائض بزمَامِ الشريعة خُلُقَه، أن يتأدب بأدب القرآن في قوله وفعله، ومُعَاطَاةِ ومُخَاوَرَاةِ، فهو عُضْرُ المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رَبِّ الأرباب، المُنْعِم على الكل، المُسْتَغْنِي عن الجميع، وَيُسْتَشِيرُ ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب، إن كان ثم ذنب.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

قال بعض المتكلمين: عاتب الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بعد الزلات، وعاتب نبينا عليه السلام قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية.

ثم انظر كيف بدأ ببشايته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يزكن إليه، ففي أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ نَلِمَ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٢٢ - قال علي رضي الله عنه: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] [الترمذي (٣٠٦٤)].

٢٣ - ورؤي أن النبي ﷺ لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبريل عليه السلام

فقال: ما يُخزّنك؟ قال: «كَلْبِي قَوْمِي» فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله تعالى الآية.

ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ، من تسليته تعالى له عليه السلام، والطف به في القول، بأن قرّر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذّبين له، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يسمّونه - قبل النبوة - الأمين، فدفع بهذا التقرير ازتماض نفسه بسميّة الكذب، ثم جعل الدّم لهم بنسبهم جاحدين ظالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَيْتِ اللَّهِ يَحْذَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فحاشاه من الوضيم، وطوفهم بالمعادنة بنكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذ الجحذ إنما يكون ممن علم الشيء ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿وَحَذَرُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤].

ثم عزّاه وأنسه بما ذكره عن قُبله، ووعد الضر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُم نَصْرًا وَلَا مِرَدٍّ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَرْمَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

فمن قرأ ﴿لا يَكْلِبُونَكَ﴾ بالتحفيف، فمعناه لا يَجِدُونَكَ كاذباً. وقال القراء، والكسائي: لا يقولون إنك كاذب. وقيل: لا يَخْتَجُونَ على كذّيك، ولا يَنْتُونَهُ.

ومن قرأ بالتشديد فمعناه لا يَلْسُونَكَ إلى الكذب. وقيل: لا يعتقدون كذّبك. ومما ذكر من خصائصه، وبرّ الله تعالى به، أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى: يا آدم! يا نوح! يا إبراهيم! يا موسى! يا داود! يا عيسى! يا زكريا! يا يحيى! ولم يخاطب هو إلا: يا أيها الرسول! يا أيها النبي! يا أيها المرسل! يا أيها المدثر!

الفصل الرابع

في قسمه تعالى بعظيم قدره

قال الله تعالى: ﴿لَعَنَّا إِبْرَاهِيمَ لِي سَكَّرْتَهُمْ بَعْمُونُ﴾ [الحجر: ٧٧]. اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله - جلّ جلاله - بمدة حياة محمد ﷺ، وأضله ضم العين، من الغمر، ولكنها فُتحت لكثرة الاستعمال. ومعناه: وبقاتك يا محمد! وقيل: وعيشك! وقيل: وحياتك! وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس رضي الله

عنهما: ما خلق الله تعالى، وما ذرأ، وما برأ نفساً - أكرم عليه من محمد ﷺ،
وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره.
وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد ﷺ، لأنه أكرم
البرية عنده.

وقال تعالى: ﴿يَسَ ۝ وَالْقُرْآنَ الْمَكِيمَ ۝﴾... ﴿الآيات [يس: ١، ٢].
اختلف المفسرون في معنى ﴿يَسَ﴾ على أقوال:
٢٤ - فحكى أبو محمد، مكي: أنه زوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عند
رَبِّي عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ» ذكر أَنَّ منها: ﴿طه﴾ و ﴿يَسَ﴾، اسمان له.
وحكى أبو عبدالرحمن السلمي، عن جعفر الصادق - رحمه الله تعالى - أنه
أراد: يا سيِّداً مخاطبةً لنبيه ﷺ.

وعن ابن عباس ﴿يَسَ﴾ يا إنسان! أرادَ محمدًا ﷺ.
وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسماء الله تعالى.
وقال الزجاج: قيل: معناه يا محمد! وقيل: يا رَجُل! وقيل: يا إنسان!
وعن ابن الحنفية: ﴿يَسَ﴾: يا محمد!
وعن كعب: ﴿يَسَ﴾ قَسَمٌ أقسم الله تعالى به قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ بِالْقَنِيِّ عام: يا محمد! إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَكِيمَ ۝﴾
﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: ٢، ٣].

فإن قُدِّرَ أنه من أسمائه ﷺ، وَصَحَّ فيه أنه قَسَمٌ، كان فيه من التعظيم ما
تَقَدَّمَ، وَيُؤَكِّدُ فيه القَسَمُ عطفُ القَسَمِ الآخرِ عليه، وإن كان بمعنى النداء فقد جاء
قَسَمٌ آخر بعده لتحقيق رسالته، والشهادة بهدايته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ بُوْخِيهِ إِلَى عِبَادِهِ، وعلى صراطٍ مستقيم من إيمانه، أي طريق لا
اغْوِجَاجَ فيه، ولا عُدُولَ عن الحق.

قال النقاش: لم يُقَسِّمَ الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلا له،
وفيه مِن - تعظيمه وتَمَجِّيدِهِ - على تأويل مَنْ قال: أنه يا سيِّداً ما فيه.

٢٥ - وقد قال عليه السلام: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» [سلم (٢٧٧٨)].
وقال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد: ١، ٢].
قيل: لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خُرُوجِكَ منه، حكاة مكي.

وقيل: (لا) زائدة؛ أي أقسم به وأنت به يا محمد! حَلَالٌ. أو حِلٌّ لَكَ ما
فَعَلْتَ فيه على التفسيرين.

والمراد بالبلد عند هؤلاء: مكة.

وقال الواسطي: أي نخلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً، وبركتك ميتاً، يعني: المدينة.

والأول أصح؛ لأن السورة مكية، وما بعده يوضحه قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢].

ونحوه قول ابن عطاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ﴾ [النبي: ٣] قال: آمنها الله تعالى بمقامه فيها وكونه بها، فإن كونه أماناً حيث كان.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البقرة: ٣] ومن قال: أراد آدم فهو عام؛ ومن قال: هو إبراهيم وما ولد فهي - إن شاء الله - إشارة إلى محمد ﷺ، فتضمن السورة القسم به - عليه السلام - في موضعين.

قال تعالى: ﴿الْعَمَّ﴾ [البقرة: ١، ٢].

قال ابن عباس: هذه الحروف أقسام، أقسم الله تعالى بها. وعنه وعن غيره فيها غير ذلك.

وقال سهل بن عبد الله التستري: الألف: هو الله تعالى. واللام: جبريل. والميم: محمد عليهما السلام.

وحكى هذا القول السمرقندي، ولم ينسبه إلى سهل، وجعل معناه: الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا زين فيه، وعلى الوجه الأول يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا زين فيه، ثم فيه من فضيلته قرآن اسمه باسمه نحو ما تقدم.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [ق: ١]: أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لغلو حاله.

وقيل: هو اسم للقرآن. وقيل: هو اسم لله تعالى. وقيل: جبل محيط بالأرض. وقيل غير هذا.

وقال جعفر بن محمد في تفسير: ﴿وَالْجَبْرِ إِذَا هَوَى﴾ [الجم: ١]: إنه محمد ﷺ، وقال: ﴿وَالْجَبْرِ﴾: قلب محمد ﷺ، ﴿هَوَى﴾: انشرح من الأنوار. وقال: انقطع عن غير الله.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١، ٢] الفجر: محمد ﷺ لأن منه تفجر الإيمان.

الفصل الخامس

في قسمه - تعالى جدّه - له، ليحقق مكانته عنده

قال جلّ اسمه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَأْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١ - ١١] اختلف في سبب نزول هذه السورة.

٢٦ - فقيل: كان تزكّ النبي ﷺ قيام الليل لغدير نزل به، فتكلّمت امرأة في ذلك بكلام [البخاري (١١٢٥)، مسلم (١١٩٧/١١٥)].

٢٧ - وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي، فنزلت هذه السورة [الترمذي (٣٣٤٥)، البخاري (٢٨٠٢)].

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له، وتثويبه به، وتعظيمه إياه ستّة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾. أي وربّ الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ أي: ما تركك وما أبغضك. وقيل: ما أهملك بعد أن اضطفاك.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾؛ قال ابن إسحاق: أي مالك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أي ما أذخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشئات الإنعام في الدارين، والزيادة.

قال ابن إسحاق: يُرضيه بالفُلج في الدنيا، والثواب في الآخرة.

وقيل: يُعطيه الخوض والشفاعة.

٢٨ - وزوي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال: ليس آية في القرآن أرجى منها، ولا يرضى رسول الله ﷺ أن يذخل أحد من أمته النار.

الخامس: ما عده تعالى عليه من نعيمه، وقرره من آلائه قبله في بقية السورة؛ من هدايته إلى ما هدا له، أو هداية الناس به على اختلاف التفسير، ولا مال له؛ فأغناه الله بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، وبتيما فحبيب عليه عمه، وآواه إليه.

وقيل: آواه إلى الله. وقيل: بتيما: لا مثال لك فأواك إليه.

وقيل: المعنى: ألم يجدك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلاً، وآوى بك تيمماً، ذكرته بهذه الجنس، وأنه - على المعلوم من التفسير - لم يُهمل في حال صغره، وغيبته، ونشئه، وقبل معرفته به، ولا ودعه، ولا قلاه، فكيف بعد اختصاصه واصطفاه!

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه، وشكره ما شرفه به، بنشوره، وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَتِمُّكَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الصحى: ١١]؛ فإن من شكر النعمة الحديث بها؛ وهذا خاص له، عام لأمة.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا حَلَ سَاجِدُكُمْ وَمَا هَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِقُ رَبِّ الْمَوْتِ ۝٣ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْدَىٰ يُوْحَىٰ ۝٤ عَلَّمُوا سَدِيدَ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَمَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَنْشَىٰ النَّيْذِرَةَ مَا يَنْشَىٰ ۝١٦ مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [الحج: ١ - ١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقوالٍ معروفة، منها النجم على ظاهره، ومنها القرآن.

وعن جعفر بن محمد؛ أنه محمد عليه السلام؛ وقال: هو قلب محمد. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [التهم الثاني] [الطارق: ١ - ٣] إن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ؛ حكاه السلمي.

تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العبد ما يقف دونه الغد، وأقسم جل اسمه على هداية المصطفى، وتثريبه عن الهوى، وصدقه فيما تلا، وأنه وحي يوحى أوصله إليه - عن الله - جبريل عليه السلام وهو الشديد القوى.

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء، وانتهائه إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وتصديق بصره فيما رأى، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى. وقد نبه على مثل هذا تعالى في أول سورة الإسراء.

ولما كان ما كاشفهُ - عليه السلام - من ذلك الجَبَرُوتِ، وشاهدَهُ من عجائب المَلَكُوتِ لا تُحِيطُ به العبارات، ولا تستَقِلُّ بحَمْلِ سَمَاعِ أَدْنَاهُ العقولُ، رَمَزَ عنه تعالى بالإِيْماءِ والكناية الدالَّةُ على التعظيم؛ فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِيهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٦).

وهذا النوعُ من الكلام يُسمِّيهِ أهلُ النقد والبلاغة بالوَحْيِ والإشارة، وهو عندهم أبلغُ أبوابِ الإيجاز.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَابِئِكَ رَيْبَ الْكَذِبِ﴾ (١٨) انحسرت الأفهامُ عن تفصيل ما أُوْحِيَ، وتاهت الأحلامُ في تعيين تلك الآياتِ الكبرى.

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: اشتملت هذه الآياتُ على إعلامِ الله تعالى بِتَرْكِيبِ جُمْلَتِهِ عليه السلام، وَعِصْمَتِهَا مِنَ الْآفَاتِ في هذا الْمَسْرُوعِ، فَزَكَّى فَوَادِهِ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ:

فَزَكَّى قَلْبَهُ بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١١). وَلِسَانَهُ بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢). وَيَبْصَرَهُ بقوله: ﴿مَا رَأَىٰ عَنِ الْبَصَرِ وَمَا طَفَىٰ﴾ (٧).

وقال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١١) وَالْإِيلِ إِذَا عَسَسَ (٧) وَالضُّجُجِ إِذَا تَنَسَّ (٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٨) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (١١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِثِ الْهَيْنِ (١٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (١٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (١٥) [التكوير: ١٥ - ٢٥].

﴿فَلَا أَقِيمُ﴾: أي أقسم. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي كريم عند مرسله. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: على تبليغ ما حمله من الوحي، ﴿مَكِينٍ﴾: أي متمكن المنزلة من ربه، رَفِيع الْمَحَلِّ عنده، ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾: أي في السماء. ﴿أَمِينٍ﴾: على الوحي.

قال علي بن عيسى وغيره: الرسولُ الكريمُ - هنا - محمدٌ ﷺ. فجميعُ الأوصافِ بَعْدَ على هذا له.

وقال غيره: هو جبريل عليه السلام، فترجع الأوصافُ إليه. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾: يعني محمداً. قيل: رأى ربه. وقيل: رأى جبريل في صورته.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾، أي: يُمْتَهِمُ. ومن قرأه بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء به، والتذكير بحكمه ويعلمه، وهذه لمحمد عليه السلام باتفاق.

وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ أَلْقَامُهُ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ

لَا جُرْأَ عِزٍّ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ ﴿١﴾ فَسَتَصِيرُ وَتَصِيرُونَ ﴿٥﴾ يَا بَنِيَّكُمْ الْمَقْنُونُ ﴿٦﴾
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾
 وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَتَّافٌ مَّشَامَ يَسِيرٍ ﴿١١﴾ مَتَّاعٌ لِلْحَيِّ
 مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عُنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ رَيْبٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَرَحِيمٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا يَنْشَأُ
 قَالَ أَسْطِيطُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَيَسْمَعُ عَلَى الْمَرْطُورِ ﴿١٦﴾ [الفلم: ١ - ١٦].

أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم فسبحه على تنزيه المصطفى مما
 غمضته الكفرة به، ونكذبيهم له، وآتسه، وبسط أمله بقوله - محسناً خطابه -: ﴿مَا
 أَنْتَ بِمَعْتَدٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [الفلم: ٢].

وهذه نهاية المنبرة في المخاطبة، وأعلى درجات الآداب في المحاوراة؛ ثم
 أغلغمه بما له عنده من نعيم دائم، وثواب غير منقطع، لا يأخذه غد، ولا يفتن به
 عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا عِزٍّ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [الفلم: ٣].

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته، وهذا إليه، وأكد ذلك تميمًا للتمجيد،
 بحزفي التاكيد؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الفلم: ٤]. قيل:
 القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطنغ الكريم. وقيل: ليس لك همة إلا الله.

قال الواسطي: أثنى عليه بخسب قبوله لما أسداه إليه من نعمه، وفضله
 بذلك على غيره؛ لأنه جبله على ذلك الخلق فسبحان اللطيف الكريم، المحسن
 الجواد الحميد، الذي يسر للخير وهدي إليه، ثم أثنى على فاعله؛ وجازاه عليه؛
 سبحانه، ما أغمر نواله! وأوسع إفضاله! ثم سلأه عن قولهم بعد هذا بما وعده به
 من عقابهم، وتوعدهم بقوله ﴿فَسَتَصِيرُ وَتَصِيرُونَ ﴿٥﴾﴾ يَا بَنِيَّكُمْ الْمَقْنُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿٧﴾﴾ [الفلم: ٥ - ٧].

ثم عطف بعد مدحه على ذم غذوه، وذكر سوء خلقه، وغد معاييه، متولياً
 ذلك بفضله، ومقتصراً لنبيه؛ فذكر بضع عشرة خصلة من خصال الذم فيه بقوله:
 ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَتَّافٌ
 مَّشَامَ يَسِيرٍ ﴿١١﴾ مَتَّاعٌ لِلْحَيِّ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عُنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ رَيْبٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ
 وَرَحِيمٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا يَنْشَأُ قَالَ أَسْطِيطُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الفلم: ٨ - ١٥].

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق لتمام شقائه، وخاتمة نواره بقوله: ﴿سَيَسْمَعُ عَلَى
 الْمَرْطُورِ ﴿١٦﴾﴾ [الفلم: ١٦]. فكانت نضرة الله له أتم من نصرته لنفسه، وردّه تعالى على
 عدوه أبلغ من ردّه، وأثبت في ديوان منجده.

الفصل السادس

في ما وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي جِهَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْرِدَ الشَّفَقَةِ وَالْإِكْرَامِ

قال تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿طه: ١، ٢﴾.

قيل: ﴿طه﴾: اسم من أسمائه عليه السلام، وقيل: هو اسم الله، وقيل: معناه يا رجل! وقيل: يا إنسانا! وقيل: هي حروف مُقَطَّعة لِمَعَانٍ.

وقال الواسطي: أراد: يا طاهرا! يا هادي! وقيل: هو أمر من الوطء. والهاء كناية عن الأرض. أي: اعتمد على الأرض بقدميك، ولا تُثِيبْ نَفْسَكَ بِالاعْتِمَادِ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

نزلت الآية فيما كان النبي ﷺ يتكلمه من السَّهَرِ والتعب وقيام الليل.

٢٩ - أخبرنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عبد الرحمن، وعُيُزُّ واحد، عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة، ومن أضله نقلت؛ قال: حدثنا أبو ذَرِّ الحافظ، قال: حدثنا أبو محمد الحُمَوي، حدثنا إبراهيم بن خُزَيم الشَّاشي قال: حدثنا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الرِّبِيعِ بن أنس؛ قال: كان النبي ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ عَلَى رِجْلٍ وَاحِدَةٍ وَرَفَعَ الْأُخْرَى؛ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿طه﴾ يعني: طَا الْأَرْضَ، يا محمدا! ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ إِلَّا لَذِكْرِكَ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ﴿١﴾ [طه: ٢ - ٤].

ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة.

وإن جعلنا ﴿طه﴾ من أسمائه عليه السلام كما قيل، أو جُعِلَتْ قَسَمًا لِحَقِّ الْقَضَلُ بما قبله.

ومثل هذا من نَمَطِ الشَّفَقَةِ وَالْمَبَرَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَنتَ بَنِيَّ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] أي: قَاتِلْ نَفْسَكَ لذلِكَ غَضَبًا، أو غِيظًا، أو جَزَعًا.

ومثله قَوْلُهُ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿لَمَّا كَنتَ بَنِيَّ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

ثم قال: ﴿إِنْ لَمْ تُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا خَلُوعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ومن هذا الباب قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٩٥] إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالْأَيْدِي سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قال مكي: سلاه الله تعالى بما ذكر، وهون عليه ما يلقى من المشركين، وأعلمه أن من تهادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله. ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكْرِهَكَ فَفَذَّ كَذِبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى آلِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

عزاه الله تعالى بما أخبره به عن الأمم السالفة ومقاليها لأنبيائهم قبله، وميختهم بهم؛ وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيب نفسه، وأبان عذره بقوله تعالى ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤] أي: أغرض عنهم؛ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]؛ أي: في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك. سلاه الله تعالى بهذا في أي كثيرة من هذا المعنى.

الفضل السابع

في ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَوَعَدْتُكُمْ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَصْدَقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال أبو الحسن القاسبي: استخص الله تعالى محمدا ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمن به.

وقيل: أن يؤتاه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يؤمنوا لمن بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾: الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

٣٠ - قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ، لئِنْ بُعِثَ - وهو حي - ليؤمننَّ به ولينصُرَنَّهُ، ويأخذَ العهدَ بذلك على قومه.

ونحوه عن السدي وقَتادة، في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [١١٣] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [١١٤] ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [١١٥] ﴿لَئِنْ أَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُكُمُ الشَّهَادُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٦].

٣١ - وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَلَيْتَنَّ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣٢ - قال قتادة: إن النبي ﷺ قال: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ، وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ»، فلذلك وقع ذكره مقدماً هنا قبل نوح وغيره.

قال السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا - عليه السلام - لتخصيصه في الذكر قبلهم، وهو آخرهم.

المعنى: أخذ الله تعالى عليه الميثاق، إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذر. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْلَفُوا ﴿الفرقة: ٢٥٣﴾.

قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَقَعَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [الفرقة: ٢٥٣] محمداً ﷺ؛ لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود، وأجلت له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أعطي محمداً ﷺ مثلها.

قال بعضهم: ومن فضله أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه، فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾. وحكى السمرقندي عن الكلبي - في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣] - أن الهاء عائدة على محمد؛ أي إن من شيعه محمد لإبراهيم؛ أي على دينه ومنهجه. وأجازه الفراء، وحكاه عنه مكّي. وقيل: المراد منه نوح عليه السلام.

الفضل الثامن

في إغلام الله تعالى خلقه بصلاته عليه

وولايته له ورفع العذاب بسببه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِمُعَذِّبِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي: ما كنت بمكة. فلما خرج النبي ﷺ من مكة، وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وهذا مثل قوله: ﴿لَوْ نَزَّلْنَاهُ لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُتِّبِكُمْ مِنْهُمْ نَعْرَةً يَغِيْرُ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِمْ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥] فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهذا من أئبن ما يظهر مكانته ﷺ.

وذراً به العذاب عن أهل مكة بسبب كونه، ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. وفي الآية أيضاً تأويل آخر.

٣٣ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمه الله - بقراءتي عليه، قال:

حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، وأبو الحُسَيْن الصُّيُفِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو يَغْلَى ابْن رُوحِ الْحُرَّةِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِي السُّنْجِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبِ الْمَرْوَزِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ ثَمِيرٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ، عَنْ عَبْدِ بْنِ يَوْسُفَ، عَنْ أَبِي بُزْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لِأُمَّتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فَإِذَا مَضَتْ تَرَكْتُ فِيهِمُ الْإِسْتِغْفَارَ» [الترمذي (٣٠٨٢)].

وَنَحْوُ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمُتَلَمِّينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
٢٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَا أَمَانٌ لِأَصْحَابِي» [مسلم (٢٥٣١)]. قِيلَ: مِنْ الْبِدْعِ.

وقيل: مِنْ الْإِخْتِلَافِ وَالْفِتَنِ.
 قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْأَمَانُ الْأَعْظَمُ مَا عَاشَ، وَمَا دَامَتْ سُنَّتُهُ بَاقِيَةً فَهُوَ بَاقٍ، فَإِذَا أُمِيتَتْ سُنَّتُهُ فَانْتَظَرُوا الْبَلَاءَ وَالْفِتَنَ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلَ نَبِيِّهِ ﷺ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ بِصَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ.

٢٥ - وَقَدْ حَكَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ قُورْكَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَجَعَلْتُ قُرْءَةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [النسائي (٦١/٧)، أَحْمَدُ (١٢٨/٣)] عَلَى هَذَا؛ أَيِ فِي صَلَاةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ وَمَلَائِكَتِهِ وَأَمْرِهِ الْأُمَّةَ بِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالصَّلَاةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَثَلَهُ دُعَاءٌ، وَمِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَحْمَةٌ.

وقيل: يُصَلُّونَ: يُبَارِكُونَ.
 وَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ - حِينَ عَلَّمَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ - بَيْنَ لَفْظِ الصَّلَاةِ وَالْبَرَكَةِ. وَسَنَذَكُرُ حُكْمَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي تَفْسِيرِ حُرُوفِ ﴿كَهَيِّصَ﴾ [مريم: ١] أَنَّ الْكَافَ مِنْ (كَافٍ)، أَيِ كِفَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. وَالْهَاءُ: هِدَايَتُهُ لَهُ، قَالَ: ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] وَالْيَاءُ: تَأْيِيدُهُ لَهُ، قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِقُرْآنٍ مُنِيرٍ﴾ [الأنفال: ٦٢]. وَالْعَيْنُ: عِصْمَتُهُ لَهُ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وَالصَّادُ: صَلَاتُهُ عَلَيْهِ؛ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [النحریم: ٤] ﴿مَوْلَاهُ﴾ أي: وليه. ﴿وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الأنبياء. وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر، وعمر. وقيل: علي. وقيل: المؤمنون على ظاهره.

الفضل التاسع

فِي مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ الْفَتْحِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ سِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ③ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدَهُمْ يَمِينًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِيُنْزِلَ الْتَّوْبَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جُنَّتْ شَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَنُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّينَ وَالْمُتَنَفِّتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ عَلَى الْأَسْوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَمَسَّاتِ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُهَيَّيْرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُعَزِّدُوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨ إِنَّ الَّذِيكَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ بِدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١ - ١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه، ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتداً - جل جلاله - بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره، وغلبته على عدوه وغلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له، غير مؤاخذ بما كان وما يكون.

قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي: إنك مغفور لك. وقال مكِّي: جعل الله المنة سبباً للمغفرة، وكل من عنده، لا إله غيره، منة بعد منة، وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢] قيل: بخضوع من تكبر عليك. وقيل: بفتح مكة والطائف.

وقيل: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصر العزيز، ومثته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم بعد،

وَفَزَّرَهُمُ الْعَظِيمَ، وَالْعَفْوَ عَنْهُمْ، وَالسِّرَ لِلنَّبِيِّهِمْ، وَهَلَكَ عَدُوُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَعْنُهُمْ وَبَغْدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَسَوْءَ مُنْقَلَبِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ [الفتح: ٨، ٩] قَعْدٌ مُحَاسِنُهُ وَخَصَائِصُهُ مِنْ شَهَادَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ، بِتَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ لَهُمْ.

وَقِيلَ: شَهِيداً لَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَمُبَشِّراً لِأُمَّتِهِ بِالثَّوَابِ. وَقِيلَ: بِالمَغْفَرَةِ. وَمُنْذِيراً عَدُوَّهُ بِالْعَذَابِ.

وَقِيلَ: مُحَذِّراً مِنَ الضَّلَالَاتِ لِيُؤْمِنَ بِاللَّهِ، ثُمَّ بِهِ ﷺ مِنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى. وَيُعَزِّرُوهُ؛ أَيِ يُجِلُّونَهُ. وَقِيلَ: يَنْصُرُونَهُ. وَقِيلَ: يِيَالِفُونَ فِي تَعْظِيمِهِ. وَيُوَقِّرُوهُ؛ أَيِ يَعْظُمُوهُ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بِزَايَيْنٍ: مِنَ الْعِزِّ، وَالْأَكْثَرُ وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ فَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: جُمِعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نِعَمٌ مُخْتَلِفَةٌ؛ مِنَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الْإِجَابَةِ، وَالْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْمَحَبَّةِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْإِخْتِصَاصِ، وَالْهَدَايَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْوَلَايَةِ، فَالْمَغْفِرَةُ: تَبَرُّتُهُ مِنَ الْعُيُوبِ، وَتَمَامُ النِّعْمَةِ: إِبْلَاقُ الدَّرَجَةِ الْكَامِلَةِ، وَالْهَدَايَةُ: وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْمَشَاهِدَةِ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ أَنْ جَعَلَهُ حَيِّبَهُ، وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، وَنَسَخَ بِهِ شَرَائِعَ غَيْرِهِ، وَعَرَّجَ بِهِ إِلَى الْمَحَلِّ الْأَعْلَى، وَحَفِظَهُ فِي الْمَعْرَاجِ حَتَّى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، وَيَعِثُهُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، وَأَحْلَلَ لَهُ وَلَأَمَّتْهُ الْغَنَائِمُ، وَجَعَلَهُ شَفِيعاً مُشْفَعاً، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَرِضَاهُ بِرِضَاهُ، وَجَعَلَهُ أَحَدَ رُكْنَيْ التَّوْحِيدِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَعْنِي: بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ؛ أَيِ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاكَ.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَرِيدُ: عِنْدَ الْبَيْعَةِ. قِيلَ: قُوَّةُ اللَّهِ، وَقِيلَ: ثَوَابُهُ. وَقِيلَ: مِثْلُهُ. وَقِيلَ: عَقْدُهُ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ، وَتَجْنِيسٌ فِي الْكَلَامِ، وَتَأْكِيدٌ لِعَقْدِ بَيْعَتِهِمْ إِيَّاهُ. وَعِظَمُ شَأْنِ الْمُبَايَعِ ﷺ.

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ

إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ اللَّهُ رَحْمَةً [الأنفال: ١٧]؛ وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فِي بَابِ الْمَجَازِ، وَهَذَا فِي بَابِ الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ الْقَاتِلَ وَالرَّامِيَ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ، وَهُوَ خَالِقُ فِعْلِهِ وَزَمْنِهِ، وَقُدْرَتُهُ عَلَيْهِ وَمُسَبِّبُهُ، وَلَأنَّهُ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ تَوْصِيلُ تِلْكَ الرَّمِيَةِ حَيْثُ وَصَلَتْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَمَلَأْ عَيْنِيهِ، وَكَذَلِكَ قُتِلَ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ حَقِيقَةٌ. وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْآخَرَى: إِنَّهَا عَلَى الْمَجَازِ الْعَرَبِيِّ، وَمُقَابِلَةُ اللَّفْظِ وَمُنَاسِبَتُهُ؛ أَيْ: مَا قَتَلْتُمُوهُمْ، وَمَا زَمَيْتُهُمْ أَنْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَجُوهَهُمْ بِالْخُصْبَاءِ وَالتُّرَابِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى قُلُوبَهُمْ بِالْجَزَعِ، أَيْ إِنَّ مَنَفْعَةَ الرَّمْيِ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ الْقَاتِلُ وَالرَّامِيَ بِالْمَعْنَى وَأَنْتَ بِالْأَسْمِ.

الفصل العاشر

فِي مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْغَزِيرِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ
وَمَكَاتِبِهِ عِنْدَهُ وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ
سِوَى مَا انْتَضَمَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلَ

مِنْ ذَلِكَ مَا نَصَّهُ تَعَالَى مِنْ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ فِي سُورَةِ: ﴿سَبْحَانَ﴾ وَ ﴿النَّجْمِ﴾
وَمَا انطَوَتْ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ مِنْ عَظِيمِ مَنَزَلَتِهِ وَقُرْبِهِ وَمَشَاهِدَتِهِ مَا شَاهَدَ مِنَ الْعَجَائِبِ.
وَمِنْ ذَلِكَ عِصْمَتُهُ مِنَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيدِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].
وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا تَصْغُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزِلْ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِ لَمَّا نَزَّوْا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [النسبة: ٤٠]. وَمَا دَفَعَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ أَذَاهُمْ بَعْدَ تَحْزِينِهِمْ لَهُ لَكَ وَخُلُوصِهِمْ نَجِيًّا فِي أَمْرِهِ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، وَذَهُولِهِمْ عَنْ طَلَبِهِ فِي الْغَارِ، وَمَا ظَهَرَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَنَزُولِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِ.

٣٦ - وَقِصَّةُ سُرَاقَةِ بَنِ مَالِكٍ [البخاري (٣٩٠٦، ٣٩٠٨، ٣٩١١)، مُسْلِمٌ (٩١/٢٠٠٩)]، حَسَبَ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرِ.

٣٧ - فِي قِصَّةِ الْغَارِ [البخاري (٣٩٢٢)، مُسْلِمٌ (٢٣٨١)].

٣٨ - وحديث الهجرة [البخاري: (٣٩٠٥، ٣٩١١) مسلم (٢٠٠٩)].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ [الكوثر: ١-٣].

أعلمه الله عز وجل بما أعطاه. و ﴿الْكَوْثَرَ﴾: حوضه. وقيل: نهر في الجنة. وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة. وقيل: النبوة. وقيل: المعرفة.

ثم أجاب عنه عدوه، وردّ عليه قوله، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٤﴾؛ أي عدوك ومُبْغِضُكَ. و ﴿الْأَبْتَرُ﴾: الحقير الدليل، أو المفرد الوحيد، أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٥﴾ [الجحر: ٨٧].
قيل: السبع المثاني: السور الطوال الأول. ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾: أم القرآن. وقيل: السبع المثاني: ما في القرآن، من أمر، ونهي، وبشرى، وإنذار، وضرب مثل، وإعداد نعم، وآتيناك نبأ القرآن العظيم.

وقيل: سميت أم القرآن مثاني لأنها تُتلى في كل ركعة. وقيل: بل الله تعالى استثناهما لمحمد ﷺ، وادخرها له دون سائر الأنبياء.

وسُمي القرآن مثاني: لأن القصص تُتلى فيه.

وقيل: السبع المثاني: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَيِّنَاتٍ وَكَذِبُوا﴾ [سبا: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] قال الفقيه القاضي - رحمه الله -: فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فخصهم بقومهم، وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة.

٣٩ - كما قال عليه السلام: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» [مسلم (٥٢١)،

البخاري (٣٣٥)].

وقال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُنْهَلَتْ مِنْهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].
قال أهل التفسير: «أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أي: ما أنفذه فيهم من أمر
فهو ماضٍ عليهم كما يَمْضِي حكم السيد على عبده.

وقيل: اتباع أمره أُولَىٰ من اتباع رأي النفس.
﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُنْهَلَتْ مِنْهُمْ﴾ أي: هنَّ في الحرمة كالأمهات؛ حرَّم نكاحهنَّ عليهم
بَعْدَهُ؛ تَكْرِيمًا لَهُ وَخُصُوصِيَّةً، ولأنهنَّ له أزواجٌ في الآخرة.

٤٠ - وقد قرئ: وهو أب لهم. ولا يُقرأ به الآن لمخالفته المصحف.
وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ
تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

قيل: فَضْلُهُ الْعَظِيمُ بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزل. وأشار الواسطي
إلى أنها إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى، صلى الله عليهما.



الباب الثاني

فِي تَكْمِيلِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ الْمَحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا،
وَقِرَانِهِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقًا

اعلم أيها المحب! لهذا النبي الكريم ﷺ، الباحث عن تفاصيل جُمَلِ قَدْرِهِ الْعَظِيمِ
أَنَّ خِصَالَ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ فِي الْبَشَرِ نَوْعَانِ: ضَرْوَرِي دُنْيَوِي اقْتَضَتْهُ الْجِبِلَّةُ وَضَرْوَرَةُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَمُكْتَسَبٌ دِينِي؛ وَهُوَ مَا يُخَمِّدُ فَاعِلَهُ، وَيَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زُلْفَى.
ثُمَّ هِيَ عَلَى فَتْنَيْنِ أَيْضًا: مِنْهَا يَتَخَلَّصُ لِأَحَدِ الْوَصْفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا يَتِمَّازُجُ
وَيَتَدَاخَلُ.

فَأَمَّا الْضَرْوَرِي الْمَخْضُ: فَمَا لَيْسَ لِلْمَرْءِ فِيهِ اخْتِيَارٌ وَلَا اكْتِسَابٌ، مِثْلُ مَا
كَانَ فِي جِبِلَّتِهِ: مِنْ كِمَالِ خِلْقَتِهِ، وَجَمَالِ صَوْرَتِهِ، وَقُوَّةِ عَقْلِهِ، وَصِحَّةِ فِهْمِهِ،
وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِهِ وَأَعْضَائِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ، وَشَرَفِ نَسَبِهِ، وَعِزَّةِ
قَوْمِهِ، وَكَرَمِ أَرْضِهِ؛ وَيَلْحَقُ بِهِ مَا تَدْعُوهُ ضَرْوَرَةُ حَيَاتِهِ إِلَيْهِ، مِنْ غَذَائِهِ وَنَوْمِهِ،
وَمَلْبَسِهِ وَمَسْكَنِهِ، وَمَنْكَجِهِ، وَمَالِهِ وَجَاهِهِ.

وَقَدْ تَلَحَّقَ هَذِهِ الْخِصَالُ الْآخِرَةُ بِالْآخِرَةِ إِذَا قَصِدَ بِهَا التَّقْوَى وَمَعُونَةُ الْبَدَنِ
عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا، وَكَانَتْ عَلَى حُدُودِ الضَّرْوَرَةِ، وَقَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا الْمُكْتَسَبَةُ الْآخِرُورِيَّةُ: فَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ الْعَلِيَّةِ، وَالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ: مِنْ
الَّذِينَ، وَالْعِلْمِ، وَالْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ، وَالْعَدْلِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّوَاضُعِ،
وَالْعَفْوِ، وَالْعِفَّةِ، وَالْجُودِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْحَيَاءِ، وَالْمَرْوَةِ، وَالصَّنَةِ، وَالتَّؤَدَةِ،
وَالْوَقَارِ، وَالرَّحْمَةِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ، وَالْمَعَاشِرَةِ، وَأَخَوَاتِهَا، وَهِيَ الَّتِي جَمَاعُهَا
حُسْنُ الْخُلُقِ.

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة، وأصل الجيلة لبعض الناس. وبعضهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجيلة شعبة كما سئيت إن شاء الله تعالى.

ونكون هذه الأخلاق ذبوية إذا لم يزد بها وجه الله تعالى، والدار الآخرة؛ ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسننها وتفضيلها.

فصل

في اجتماع خصال الجلال والكمال في نبينا محمد ﷺ

إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يشرف بواحدة منها أو اثنتين - إن اتفقت له في كل عصر - إما من نسب، أو جمال، أو قوة، أو علم، أو جلم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظم قدره، ويضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثره وعظمته، وهو منذ عصور خوال، زمن بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد، ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة، والخلة والمحبة، والاصطفاء والإسراء والرؤية، والقرب، والدين، والوحي، والشفاعة، والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والندارة، والمكانة عند ذي العرش، والطاعة ثم، والأمانة والهداية، ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضا والسؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإتياء الحكمة، والكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلى الله، وضلالة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإضر والأغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات، والغنم، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، وزد الشمس، وقلب الأعبان، والنصر بالرعب، والاطلاع على

الغيب، وظلَّ العَمَام، وتسيح الحَصَا، وإبراء الآلام، والعِصْمَة من الناس، إلى ما لا يَخْوِيهِ مُخْتَلِلٌ، ولا يحيط بعلمه إلا ما يَحُكُّه ذلك ومُفَضِّلُهُ به، لا إله غيره، إلى ما أَعَدَّ له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القُدُس، ومراتب السعادة، والحُسْنَى، والزيادة التي تَقِفُ دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم.

فصل

في صفاته الخلقية

إِنْ قُلْتُ - أكرمكَ الله -: لا خفاء على القَطْع بالجملة أنه ﷺ أعلى الناس قَدْرًا، وأعظمهم مَحَلًّا، وأكرمهم وأكملهم محاسنَ وفضلًا، وقد ذهبَ في تفاصيلِ خصالِ الكمال مذهبًا جميلًا، شَوَّقَنِي إلى أَنْ أَقِفَ عليها من أوصافه ﷺ تفصيلًا.

فاعلم - بَوَّرَ الله قلبي وقلبك، وضاعفَ في هذا النبي الكريم حُبِّي وحبَّكَ - أَنَّكَ إِذَا نظَرْتَ إلى خصالِ الكمال، التي هي غَيْرُ مُكْتَسَبَةٍ، وفي جِبِلَّةِ الخَلْقَةِ وجَدْتَهُ حائِزًا لِجميعِها، مُحِيطًا بِشَتَاتِ محاسنها دونَ خلافٍ بين ثَقَلَةِ الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضها مَبْلَغَ القَطْع.

أما الصورةُ وجمالُها، وتناسُبُ أعضائه في حُسْنِها، فقد جاءت الآثارُ الصحيحةُ والمشهورةُ الكثيرةُ بذلك.

- ٤١ - من حديثِ علي [الترمذي (٣٦٣٧، ٣٦٣٨)، أحمد (٨٩/١)، ١٠١].
- ٤٢ - وأنس بن مالك [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].
- ٤٣ - وأبي هُرَيْرَةَ [الترمذي (٣٦٤٨)، أحمد (٣٥٠/٢)].
- ٤٤ - والبراء بن عازب [البخاري (٣٥٤٩)، ٣٥٥١)، مسلم (٢٣٣٧)].
- ٤٥ - وعائشة أم المؤمنين [أبو داود (٤١٨٧)، الترمذي (١٧٥٥)، ابن ماجه (٣٦٣٥)].

- ٤٦ - وابن أبي هَالَةَ [الترمذي (٣٢٩، ٣٤٤)].
- ٤٧ - وأبي جُحَيْفَةَ [البخاري (٣٥٤٤)، مسلم (٢٣٤٣)].
- ٤٨ - وجابر بن سَمُرَةَ [مسلم (٢٣٣٩)، الترمذي (٣٦٤٧)].
- ٤٩ - وأمّ مَعْبُدٍ.
- ٥٠ - وابن عباس [الترمذي (١٤)].
- ٥١ - ومُعَرِّضُ بن مُعَقِّيبٍ.

٥٢ - وأبي الطفيل [مسلم (٢٣٤٠)].

٥٣ - والعداء بن خالد.

٥٤ - وخزيم بن فاتك.

٥٥ - وحكيم بن حزام وغيرهم، من أنه ﷺ كان أزهر اللون، أذعج، أنجل، أشكل أهدب الأشفار، أبلج، أزج، أفتى، أفلج، مُدَوَّر الوجه، واسع الجبين، كث اللحية، تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخمة العظام، غلب العضدين والذراعين، والأسافل، رَحِب الكفَّين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد، ذقيق المسربة، رِيعَة القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد يُنسب إلى الطول إلا طأله ﷺ، رَجَل الشَّعر، إذا افترَّ ضاحكاً افترَّ عن مثل سنا البرقي، وعن مثل حَب الغمام، إذا تكلم رُئي كالنور يخرج من ثناباه، أحسن الناس عُنُقاً، ليس يَمُطُّهم ولا مَكَلُّهم مَماشيك البدن، ضَرَب اللحم.

٥٦ - قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي لَمَّة في حُلَّة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ [البخاري (٥٩٠١)، مسلم (٢٣٣٧)].

٥٧ - وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كان الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلأل في الجدر [الترمذي (٣٦٤٨) أحمد (٣٥٠/٢)].

٥٨ - وقال جابر بن سمرة - وقال له رجل -: كان وجهه ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر. وكان مستديراً [مسلم (١٠٩/٢٣٤٤)].

٥٩ - وقالت أم مَعْبِد - في بعض ما وصفته به -: أجمل الناس من بعيد، وأخلاه وأحسنه من قريب صلى الله عليه وسلم تسليماً كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

٦٠ - وفي حديث ابن أبي هالة: يتلأل وجهه تَلَأُو القمر ليلة البدر.

٦١ - وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: مَنْ رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

والأحاديث في بسط صفته مشهورة كثيرة، فلا نُطَوِّلُ بسردها.

وقد اختصرنا في وصفه نُكَّت ما جاء فيها، وجُمِلَة مما فيه الكفاية في القُضْدِ إلى المطلوب، وختمنا هذه الفصول بحديث جامع لذلك يَقِفُ عليه هنالك إن شاء الله تعالى.

فصل

فِي نَظَافَتِهِ ﷺ وَطَيْبِ رِيحِهِ وَغَرَقِهِ وَدَمِهِ

وأما نظافة جسمه، وطيب رِيحِهِ وَغَرَقِهِ، ونزاهته عن الأقدارِ وَعَوَزَاتِ الجَسَدِ فكان قد خَصَّهُ اللَّهُ في ذلك بخصائصٍ لم توجد في غيره، ثم تَمَّهَا بنظافة الشَّرْعِ، وَخِصَالِ الْفِطْرَةِ الْعَشْرِ [مسلم (٢٦١)].

٦٢ - وقال: «بَنِي الدِّينَ عَلَى النِّظَافَةِ».

٦٣ - حدثنا سُفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: مَا شَمَمْتُ عَثْرًا قَطُّ، وَلَا مِسْكَأً، وَلَا شَيْئًا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (٢٣٣٠)، البخاري (١٩٧٣)].

٦٤ - وعن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَنَّهُ ﷺ مَسَحَ خَدَّهُ؛ قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا وَرِيحًا، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُودَةِ عَطَّارٍ [مسلم (٢٣٢٩)].

قال غيره: مَسَّهَا بِطِيبٍ أَوْ لَمْ يَمَسَّهَا، يُصَافِحُ الْمُصَافِحَ فَيُظِلُّ يَوْمَهُ يَجِدُ رِيحَهَا؛ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ فَيُغْرِفُ مِنْ بَيْنِ الصَّبِيَّانِ بِرِيحِهَا.

٦٥ - وَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دَارِ أَنَسٍ عَلَى نِطْعٍ فَعَرِقَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ بِقَارُورَةٍ تَجْمَعُ فِيهَا غَرَقُهُ، فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: نَجَعَلُهُ فِي طِينِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ [مسلم (٢٣٣١)، البخاري (٦٢٨١)].

٦٦ - وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، عَنْ جَابِرٍ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ فِي طَرِيقٍ فَيَتَّبِعُهُ أَحَدٌ إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ سَلَكَ مِنْ طِيبِهِ.

وَذَكَرَ إِسْحَاقُ بْنُ زَاهَوِيٍّ أَنَّ تِلْكَ كَانَتْ رَاحَتَهُ بِلَا طِيبٍ، ﷺ.

٦٧ - وَرَوَى الْمُزْنِيُّ، عَنْ جَابِرٍ: أَرْدَفَنِي النَّبِيُّ ﷺ خَلْفَهُ، فَالْتَقَمْتُ خَاتَمَ النَّبُوَّةِ بِفَمِي، فَكَانَ يَشُجُّ عَلَيَّ مِسْكَأً.

٦٧م - وَقَدْ حَكَى بَعْضُ الْمُعْتَنِينَ بِأَخْبَارِهِ وَشَمَائِلِهِ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَغَوَّطَ انْشَقَّتْ الْأَرْضُ فَابْتَلَعَتْ غَائِطَهُ وَبَوَّلَهُ، وَفَاحَتْ لِذَلِكَ رَاحَةُ طِيبَةٍ ﷺ.

٦٨ - وَأَسْنَدَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ - كَاتِبُ الْوَاقِدِيِّ - فِي هَذَا خَبْرًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ تَأْتِي الْخَلَاءَ فَلَا يُرَى مِنْكَ شَيْءٌ مِنْ

الآذَى! فقال: «يا عائشة! أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء، فلا يرى منه شيء؟».

وهذا الخبر، وإن لم يكن مشهوراً، فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحديثين منه ﷺ. وهو قول بعض أصحاب الشافعي حكاه الإمام أبو نصر بن الضياع في «شامله».

وقد حكى القولين عن العلماء في ذلك أبو بكر بن صابق المالكي في كتابه: «البدیع في فروع المالكية، وتخریج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاریع الشافعية».

وشاهد هذا أنه ﷺ لم يكن منه شيء يكره، ولا غيّر طيب.

٦٩ - ومنه حديث علي رضي الله عنه: غسلت النبي ﷺ، فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئاً؛ فقلت: طبت حياً وميتاً [أس ماجه (١٤٦٧)] قال: وسطعت منه ريح طيبة لم تجذ مثلها قط.

٧٠ - ومثله قال أبو بكر رضي الله عنه حين قبل النبي ﷺ بعد موته [البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣)].

٧١ - ومنه شرب مالك بن سنان دمه يوم أخذ، ومضه إياه، وتسويغه ﷺ ذلك له، وقوله: «لن نصيبه النار».

٧٢ - ومثله شرب عبدالله بن الزبير دم جحاشته؛ فقال له عليه السلام: «وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ! وَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْكَ!» ولم ينكره عليه.

٧٣ - وقد روي نحو من هذا عنه في امرأة شربت بوله، فقال لها: «لن تشنكي وجع بطنك أبداً» [أبو داود (٢٤)، النسائي (٣١/١)]. ولم يأمر واحداً منهم بغسل فم، ولا نهاه عن غودة.

وحديث هذه المرأة التي شربت بوله صحيح ألزم الدارقطني مسلماً والبخاري إخرجه في الصحيح، واسم هذي المرأة بركة. واختلف في نسبها.

وقيل: هي أم أيمن؛ وكانت تخدم النبي ﷺ؛ قالت: وكان لرسول الله ﷺ قدح من عیدان يوضع تحت سريره فيقول فيه من الليل، فبال فيه ليلة، ثم افتقده، فلم يجد فيه شيئاً. فسأل بركة عنه؛ فقالت: قمّت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم.

روى حديثها ابن خريج وغيره.

٧٤ - وكان ﷺ قد وُلِدَ مَخْتُوناً مقطوع السرة.

٧٥ - ودوي عن أمِّه آمنه، أنها قالت: قد ولدته نظيفاً ما به قَدْر.

٧٦ - وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت فَرْجَ رسولِ اللَّهِ ﷺ قطُّ

[الترمذي (٣٥٢)، ابن ماجه (١٩٢٢)، أحمد (٦٣/٦)].

٧٧ - وعن علي رضي الله عنه: أوصاني النبي ﷺ لا يغسله غيري؛ فإنه

«لا يرى أحدٌ عَوْرَتِي إِلَّا طُمِسَتْ عَيْنَاهُ».

٧٨ - وفي حديث عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه ﷺ نامَ حتى

سَمِعَ لَهُ غَطِيطٌ، فقام فصلَّى ولم يتوضأ [أحمد (٢٤٤/١)، البخاري (١١٧)، مسلم

(١٨٤/٧٣)]، قال عِكْرَمَةُ: لأنه كان - ﷺ - محفوظاً.

فصل

فِي وَفُورِ عَقْلِهِ، وَذَكَاءِ لُبِّهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِهِ،

وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ ﷺ

وأما وَفُورُ عَقْلِهِ، وَذَكَاءُ لُبِّهِ، وَقُوَّةُ حَوَاسِهِ، وَفَصَاحَةُ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالُ

حَرَكَاتِهِ، وَحُسْنُ شَمَائِلِهِ فَلَا مِزِيَّةَ أَنَّهُ كَانَ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَذْكَاهُمْ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ تَدْبِيرَهُ أَمَرَ بِوَاطِنِ الْخَلْقِ وَظَوَاهِرِهِمْ، وَسِيَاسَةَ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ،

مَعَ عَجِيبِ شَمَائِلِهِ، وَبَدِيعِ سِيرِهِ، فَضْلاً عَمَّا أَفَاضَهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَقَرَّرَهُ مِنَ الشَّرْعِ

دُونَ تَعَلُّمِ سَبْقٍ، وَلَا مُمَارَسَةِ تَقَدُّمٍ، وَلَا مُطَالَعَةِ لِكُتُبٍ مِنْهُ، لَمْ يَمْتَرِ فِي

رُجْحَانِ عَقْلِهِ، وَثُقُوبِ فَهْمِهِ لِأَوَّلِ بَدْيِيَّةٍ؛ وَهَذَا مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْرِيرِهِ لِتَحْقِيقِهِ.

وَقَدْ قَالَ وَهْبُ بْنُ مُثَنَّى: قَرَأْتُ فِي أَحَدٍ وَسَبْعِينَ كِتَاباً، فَوُجِدْتُ فِي جَمِيعِهَا

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلاً، وَأَفْضَلُهُمْ رَأياً.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: فَوُجِدْتُ فِي جَمِيعِهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُعْطِ جَمِيعَ النَّاسِ

مِنْ بَدْءِ الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَائِهَا مِنَ الْعَقْلِ فِي جَنْبِ عَقْلِهِ ﷺ إِلَّا كَحَبَّةِ رَمَلٍ بَيْنَ رَمَالِ

الدُّنْيَا.

٧٩ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ يَرَى مَنْ خَلَفَهُ كَمَا يَرَى

مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَبِهِ قُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

٨١ - وَفِي الْمَوْطَأِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأُرَاقِمُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» [البخاري

(٤١٨)، مسلم (٤٢٤)].

٨٢ - وَنَحْوَهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ [البخاري (٧٤٢)، مسلم

(٤٢٥)].

٨٣ - وعن عائشة مثله؛ قالت: زيادة زاده الله إياها في حُجته.

٨٤ - وفي بعض الروايات: «إني لأنظر مَنْ ورائي كما أنظر إلى مَنْ بين يدي».

٨٥ - وفي أخرى: «إني لأبصر مَنْ قفائي كما أبصر مَنْ بين يدي» [مسلم (٤٢٣)].

٨٦ - وحكى بقيُّ بن مخلد، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يرى في الظلمة كما يرى في الضوء.

٨٧ - والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشیاطين [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١، ٥٤٢)].

٨٨ - ورفَّع النجاشي له حتى صلَّى عليه [البخاري (١٣١٧)، مسلم (٩٥٢، ٩٥٣)].

٨٩ - وبيت المقدس حين وصفه لقريش.

٩٠ - والكعبة حين بنى مسجده.

٩١ - وقد خكي عنه ﷺ أنه كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً.

وهذه كلها محمولة على رؤية العين، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره.

وزهد بعضهم إلى ردها إلى العلم، والظواهر تُخالِفُه، ولا إخالَة في ذلك، وهي من خواص الأنبياء وخصالهم.

٩٢ - كما أخبرنا أبو محمد: عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد الغذل من كتابه؛ حدثنا أبو

الحسن المقرئ الفرغاني حدثنا أُمُّ القاسم بنتُ أبي بكر، عن أبيها، حدثنا

الشریف أبو الحسن: علي بن محمد الحسنی، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد،

حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، حدثنا محمد بن محمد مرزوق، حدثنا همام

قال: حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبي هريرة، عن

النبي ﷺ؛ قال: «لما نَجَلَنِي اللَّهُ لِمُوسَى - عليه السلام - كان يُبْصِرُ النملة على

الصفاء، في الليلة الظلماء، فسيرة عُشْرَة فراسخ». ولا يبعد على هذا أن يختص

نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والخطوة بما رأى من آيات ربه

الكبرى.

٩٣ - وقد جاءت الأخبار بأنه صرَّح رُكَّانَةُ [أبو داود (٤٠٧٨)، الترمذي (١٧٨٤)]،

أشدَّ أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام.

٩٤ م - وصارعَ أبا رُكَّانَةَ في الجاهلية، وكان شديداً، وعاوده ثلاث مرات،

كلَّ ذلك يصرَّعه رسولُ الله ﷺ.

٩٤ - وقال أبو هريرة: ما رأيتُ أحداً أسرعَ مِنْ رسولِ الله ﷺ في مشيه، كأنما الأرضُ تُطوى له، إنا لنُجهدُ أنفسنا وهو غيرُ مُكترِب.

٩٥ - وفي صفته: أَنْ ضَجِكَهُ كَانَ تَبَسُّماً، إِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعاً، وَإِذَا مَشَى مَشَى تَقْلَعاً، كأنما يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ.

فصل

في فصاحةِ لِسَانِهِ، وَبَلَاغَةِ قَوْلِهِ ﷺ

وأما فصاحةُ اللسانِ، وبلاغةُ القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل والموضع الذي لا يُجهل، سلاسةً طَبِيعٍ، وَبَرَاعَةً مَنَزَعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةً لَفْظٍ، وَجَزَالَهُ قَوْلٍ، وَصِحَّةَ مَعَانٍ، وَقَلَّةَ تَكْلُفٍ، أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبِدَائِعِ الْحِكْمِ، وَعَلِمَ أَلْسِنَةَ الْعَرَبِ، يَخَاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْهَا بِلِسَانِهَا، وَيُحَاوِرُهَا بِلُغَتِهَا، وَيُبَارِيهَا فِي مَنَزَعِ بِلَاغَتِهَا، حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، عَنْ شَرْحِ كَلَامِهِ، وَتَفْسِيرِ قَوْلِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَدِيثَهُ وَسِيرَهُ عَلِمَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ؛ وَلَيْسَ كَلَامُهُ مَعَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ، وَأَهْلِ الْحِجَازِ، وَتَجْدٍ، كَكَلَامِهِ مَعَ ذِي الْمِشْعَارِ الْهَمْدَانِيِّ، وَطِهْفَةٍ الْتَهْدِيِّ، وَقَطْنِ بْنِ حَارِثَةَ الْعُلَيْمِيِّ، وَالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ، وَوَائِلِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقْبَالِ خَضِرَمَوْتٍ، وَمُلُوكِ الْيَمَنِ.

٩٦ - وَاَنْظُرْ كِتَابَهُ إِلَى هَمْدَانَ: «إِنْ لَكُمْ فِرَاعَهَا، وَوَهَاطَهَا، وَعَرَازَهَا، تَأْكُلُونَ عِلَاقَهَا وَتَزَعُونَ عَفَاءَهَا، لَنَا مِنْ دِفْثِهِمْ وَصِرَافِهِمْ مَا سَلَمُوا بِالْمِشَاقِ وَالْأَمَانَةِ، وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ: الثُّلُبُ، وَالنَّابُ، وَالْفَصِيلُ، وَالْفَارِضُ وَالذَّاجِنُ، وَالْكَبْشُ الْحَوْرِيُّ، وَعَلَيْهِمْ فِيهَا الصَّالِحُ، وَالْقَارِحُ».

٩٧ - وَقَوْلُهُ ﷺ لِنَهْدٍ: «اللَّهُمَّ! بَارِكْ لَهُمْ فِي مَخْضِهَا وَمَخْضِهَا، وَمَذْقِهَا، وَابْعَثْ رَاحِيَهَا فِي الدُّثُرِ، وَافْجُرْ لَهُ الثَّمَدَ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُخْسَنًا، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرِّكِ، وَوَضَائِعُ الْمَلِكِ، لَا تُلْطِطُ فِي الزَّكَاةِ، وَلَا تُلْجِدُ فِي الْحَيَاةِ، وَلَا تَتَأَقَّلُ عَنِ الصَّلَوَاتِ».

وَكُتِبَ لَهُمْ: «فِي الْوُظَيْفَةِ الْفَرِيضَةِ، وَلَكُمْ الْعَارِضُ، وَالْفَرِيشُ، وَذُو الْعَيْنِ الرَّكُوبُ، وَالْقَلْوُ الضَّبِّيُّ، لَا يُنْمَعُ سَرْحُكُمْ، وَلَا يُفْضَدُ طَلْحُكُمْ، وَلَا يُخْبَسُ

دُرُكُم، ما لم تُضْمِرُوا الرِّمَاقَ، وتَاكَلُوا الرِّمَاقَ، مَنْ أَقْرَ فَلَهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَاللِّمَّةُ، وَمَنْ أَيْبَى فَعَلَيْهِ الرِّبْوَةُ.

٩٨ - ومن كتابه لوائل بن خنجر:

«إلى الأقبال القبايلة، والأزواج المشاييب».

وفيه: «في النِّبَةِ شاةٌ، لا مَقْفُورَةُ الألباط، ولا ضَنَّاكٌ، وأنطوا التَّبَجَّةَ، وفي السُّبُوبِ الخُصْسُ. ومن رَئى مِنْ بَكْرٍ فاضقَعوه مِثَّةً، واستَوْضِوه عَاماً، وَمَنْ زَنى مِنْ ثَيْبٍ فَضَرْجُوهُ بالأَصَامِيمِ، ولا تَوْصِمِ فِي الذِّبْنِ، ولا غَمَّةً فِي فَرَاثِضِ اللَّهِ، وكلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». ووائل بن خنجر يَرْفُلُ عَلَى الأقبال.

٩٩ - أين هذا من كتابه لأنس، في الصدقة المشهورة؟ [الخاري (١٤٥٤)]
لَمَّا كَانَ كَلَامُ هَؤُلَاءِ عَلَى هَذَا الْحَذِّ، وَبَلَغَتْهُمْ عَلَى هَذَا الشَّمْطِ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِمْ هَذِهِ الْأَلْفَافِ اسْتَعْمَلَهَا مَعَهُمْ، لِيَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلِيَحْدِثَ النَّاسُ بِمَا يَعْلَمُونَ.

١٠٠ - وكفوله في حديث عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ: «فَإِنَّ الْبِدَّ الْعَلِيَا هِيَ الْمُنْطَبَةُ، وَالْبِدَّ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاةُ». قَالَ: فَكَلَّمْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَعْنَا.

١٠١ - وقوله في حديث العامري حين سأله، فقال له النبي ﷺ: «سَلْ عَنْكَ».

أي: سَلْ عَمَّا شِئْتَ، وَهِيَ لَعَةُ بَنِي عَامِرٍ.
وَأَمَّا كَلَامُهُ الْمَعْتَادُ، وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ، وَجَوَامِغُ كَلِمِهِ، وَجَكَمَةُ الْمَانُورَةِ فَقَدْ أَلَّفَ النَّاسَ فِيهَا الدَّوَاوِينَ وَجَمَعَتْ فِي أَلْفَافِهَا وَمَعَانِيهَا الْكُتُبَ، وَمِنْهَا مَا لَا يُوَارِثُ فَصَاحَةً، وَلَا يَبَارِئُ بِلَاغَةً.

١٠٢ - كفوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعني بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم» [أبو داود (٤٥٣٠، ٤٥٣١)، السائي (١٩/٨، ٢٠)].

١٠٣ - وقوله: «الناس كاسنان المشط».

١٠٤ - و «المزء مع من أحب» [الخاري (٦١٦٨، ٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤٠، ٢٦٤١)].

١٠٥ - و «لا خير في ضجة من لا يرى لك ما ترى له».

١٠٦ - و «الناس معادن» [الخاري (٣٤٩٦)، مسلم (٢٦٣٨/١٦٠)].

١٠٧ - و «ما هلك امرؤ عرف قدره».

١٠٨ - و «المستشار مؤتمن، وهو بالخيار ما لم يتكلم».

١٠٩ - و «رحم الله عبداً قال خيراً ففهم، أو سكت، فسلم».

١١٠ - وقوله: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (٢٩٤١)، مسلم (١٧٧٣)].

١١١ - و «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَحَابِسُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُؤَطَّوُونَ أَكْثَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ» [الترمذي (٢٠١٨)].

١١٢ - وقوله: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ، وَيَبْخُلُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ» [الترمذي (٢٣١٦)].

١١٣ - وقوله: «ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» [أبو داود (٤٨٧٣) البخاري (٧١٧٩)، مسلم (٢٥٢٦)].

١١٤ - ونَهْيُهُ عَنْ «قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَمَنْعِ وَهَاتِ، وَعُقُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ» [البخاري (٥٩٧٥)، مسلم (١٢/٥٩٣)].

١١٥ - وقوله: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَ تَمَحُّجَهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [الترمذي (١٩٨٧)].

١١٦ - وقوله: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا».

١١٧ - وقوله: «أَخِيْبُ حَبِيْبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُوْنَ بَغِيْضَكَ يَوْمًا مَا» [الترمذي (١٩٩٧)].

١١٨ - وقوله: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٢٤٤٧)، مسلم (٢٥٧٩)].

١١٩ - وقوله فِي بَعْضِ دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتُلْئِمُ بِهَا شَعْنِي، وَتُضِلُّعُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتَرْكِي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمْنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أَلْفَتِي، وَتَغْصِمْنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَوْرَ فِي الْقَضَاءِ، وَتُرْلَ الشَّهَادَةِ، وَعَيْنِ الشُّعْدَاءِ، وَالتَّضَرُّعِ عَلَى الْأَعْدَاءِ» [الترمذي (٣٤١٩)].

إِلَى مَا رَوَّاهُ الْكَافَّةُ عَنْ الْكَافَةِ مِنْ مَقَامَاتِهِ، وَمُحَاضِرَاتِهِ، وَخُطْبِهِ، وَأَذْعِيَّتِهِ، وَمَخَاطَبَاتِهِ، وَعَهْوَدِهِ، مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرْقَبَةٌ لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهَا سَبَقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ.

وَقَدْ جَمَعْتُ مِنْ كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا، وَلَا قَدَّرَ أَحَدٌ أَنْ يُفْرَغَ فِي قَالِبِهِ عَلَيْهَا.

١٢٠ - كَقَوْلِهِ: «أَحْيِي الْوُطَيْسَ» [مسلم (١٧٧٥)].

١٢١ - وَ «مَاتَ خَنْفَ أَنْفِهِ».

١٢٢ - وَ «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُخْرِ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (٦١٣٣)، مسلم (٢٩٩٨)].

١٢٣ - و «السعيد مَنْ وُعِظَ بغيره» [مسلم (٢٦٤٥)، ابن ماجه (٤٦)]. في أخواتها ما- يَذْرُكُ الناظر العجبُ في مُضْمِنِها، ويذهبُ به الفكرُ في أذاني حِكْمِها.

١٢٤ - وقد قال له أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك! فقال: «وما يمتنعني؟ وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين».

١٢٥ - وقال مرة أخرى: «أنا أفصح العرب بيند أني من قريش، ونشأت في بني سَفْد».

فَجُمِعَ له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة، وروثُ كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدَّه الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشري.

١٢٦ - وقالت أمّ معبد في وصفها له: حُلُو المنطق، فَضْل، لا نَزَر ولا مَذَر، كانَ منطقَه خَزَزات تُظْلَم.

وكان جَهِيز الصوت، حَسَن الثَّغْمَة ﷺ.

فصل

في شَرَف نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَم بَلَدِهِ وَمَنْشَبِهِ

وأما شَرَف نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَم بَلَدِهِ وَمَنْشَبُهُ فمما لا يحتاجُ إلى إقامة دليل عليه، ولا بَيان مُشْكِل، ولا خَفِيٍّ منه؛ فإنه نُخْبَة بني هاشم، وسُلالة قريش وَضَمِيمُها، وأشرف العرب، وأعزهم نَفَرًا من قَبْلِ أبيه وأمه، ومن أهل مكَّة، مِن أكرم بلادِ الله، على الله، وعلى عباده.

١٢٧ - حدثنا قاضي القضاة: حُسَيْن بن محمد الصَّدْفِي رحمه الله، قال: حدثنا القاضي أبو الوليد: سليمان بن خلف، حدثنا أبو ذَرٍّ: عبدُ بن أحمد، حدثنا أبو محمد السَّرْحَسِي، وأبو إسحاق وأبو الهيثم قالوا: حدثنا محمد بن يوسف قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا قُتَيْبَة بن سَعِيد قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو، عن سَعِيد المُقْبَرِي، عن أبي هريرة، أن رسولَ الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خير قُرُونِ بني آدم قُرْنَا فقرْنَا، حتى كُنْتُ من القرن الذي كُنْتُ مِنْهُ» [البخاري (٣٥٥٧)].

١٢٨ - وعن العباس، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فجعلني من خيرهم، من خير قُرُونِهِمْ، ثم تخيَّر القبائل فجعلني من خير قَبِيلَةٍ ثم تخيَّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً، وخيرهم بيتاً» [الترمذي (٣٦٠٧)].

١٢٩ - وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦)، الترمذي (٣٦٠٥)].

قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

١٣٠ - وفي حديث عن ابن عمر، رواه الطبري أنه ﷺ قال: «إن الله اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم، فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب، فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً، فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم فلم أزل خياراً من خيار، ألا من أحب العرب فيحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فيبغضني أبغضهم».

١٣١ - وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ كانت رُوحه نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام، يُسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله ﷺ: «فأبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصباب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط».

١٣١م - ويشهد لصحة هذا الخبر شغل العباس في مدح النبي ﷺ

المشهور.

فصل

فِيَمَا كَانَ التَّمَدُّحُ وَالْكَمَالُ بِقَلْبِهِ

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه فعلى ثلاثة ضروب: ضرب الفضل في قلبه، وضرب الفضل في كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه. فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقاً، وعلى كل حال، عادة وشريعة، كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتعاضد بقلتهما، وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشرب دليل على الثهم والجرح، والشرة، وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأذواء الجسد، وخسارة النفس، وامتناء الدماغ. وقلته دليل على القناعة، وملك النفس؛ وقمع الشهوة، مسبب للصحة، وصفاء خاطر، وحدة ذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة والضعف؛

وعدم الذكاء، والفطنة، مسبب للكسل، وعادة العجز، وتضييع الغنى في غير نفع، وقساوة القلب، وعقلته، وموته.

والشاهد على هذا ما يُعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، ويُثقل منواتراً من كلام الأمم المتقدمة، والحكماء السالقين، وأشعار العرب وأخبارها، وصحيح الحديث، وآثار من سلف وخلف، مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه وإنما تركنا ذكره هنا اختصاراً واقتصاراً على اشتها العلم به.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفئتين بالأقل.

هذا ما لا يُدفع من سبرته، وهو الذي أمر به، وخض عليه، لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.

١٣٢ - حدثنا أبو علي الصدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل الأصبهاني، حدثنا أبو نعيم الحافظ، حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدم بن مغدي كرت أن رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكالات يغمض ضلّبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» [الترمذي (٢٣٨٠)، ابن ماجه (٣٣٤٩)].

ولأن كثرة اليوم من كثرة الشرب والأكل.

قال سفيان الثوري: يقلت الطعام يُمْلَأ سهر الليل.

وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيراً، فنشربوا كثيراً، فترفدوا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

١٣٣ - وقد روي عنه ﷺ أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على صَفْب [الترمذي (١٣٨)]؛ أي كثرة الأيدي.

١٣٤ - وعن عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا ينشأه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

١٣٥ - ولا يغترض على هذا بحديث بريرة، وقوله: «لَمْ أَرِ الْبُرْمَةَ فِيهَا لَحْمٌ» [البخاري (٥٠٩٧)، مسلم (١٤/١٥٠٤)] إذ لعل ميت سؤاله طهه ﷺ اعتقادهم أنه لا يحل له؛ فأراد بيان سُنيّه، إذ رآهم لم يُقدّموه إليه، مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصدق عليهم طهه، ويثبت لهم ما جهلوه من أمره بقوله: «هو لها صدقة ولنا هديّة».

وفي حِكْمَةِ لُقْمَانَ: يَا بُنَيَّ! إِذَا امْتَلَأَتِ الْمَعِدَةُ نَامَتِ الْفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الْحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الْأَعْضَاءُ عَنِ الْعِبَادَةِ.

وَقَالَ سُخْنُونُ: لَا يَضِلُّح الْعِلْمُ لَمَنْ يَأْكُلُ حَتَّى يَشْبَعَ.

١٣٦ - وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَكِنًا» [البخاري

(٥٣٩٨)، الترمذي (١٨٣٠)].

وَالِاتِّكَاءُ: هُوَ التَّمَكُّنُ لِلْأَكْلِ، وَالتَّقَعُّدُ فِي الْجُلُوسِ لَهُ كَالْمُرْتَبِعِ، وَشِبْهُهُ مَنْ تَمَكَّنَ الْجُلُوسَاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُ فِيهَا الْجَالِسُ عَلَى مَا تَحْتَهُ، وَالْجَالِسُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ يَسْتَدْعِي الْأَكْلَ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُ.

١٣٧ - وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ جُلُوسُهُ لِلْأَكْلِ جُلُوسُ الْمُسْتَوْفِرِ مُقْبِعِيًا [مسلم

(٢٠٤٤)].

١٣٨ - وَيَقُولُ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ».

وَلَيْسَ مَعْنَى الْحَدِيثِ فِي الْإِتِّكَاءِ الْمِيلُ عَلَى شَيْءٍ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ.

وَكَذَلِكَ نَوْمُهُ ﷺ كَانَ قَلِيلًا، شَهِدَتْ بِذَلِكَ الْأَنَارُ الصَّحِيحَةُ.

١٣٩ - وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانُ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي» [البخاري

(١١٤٧)، مسلم (٧٣٨)].

١٤٠ - وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ [الترمذي (٣٣٩٩)، النسائي (٧٨٥)]

اسْتَظْهَارًا عَلَى قَلَّةِ النَّوْمِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ أَهْنًا، لِهَيْوَةِ الْقَلْبِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ الْبَاطِنَةِ حِينَئِذٍ، لَمَيِّلِهَا إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ؛ فَيَسْتَدْعِي ذَلِكَ الْاسْتِثْقَالَ فِيهِ وَالطُّوْلَ.

وَإِذَا نَامَ النَّائِمُ عَلَى الْأَيْمَنِ تَعَلَّقَ الْقَلْبُ وَقَلَبَ، فَاسْرَعَ الْإِفَاقَةُ وَلَمْ يَغْمَرْهُ

الْاسْتِغْرَاقُ.

فصل

فِيَمَا التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ

وَالضَّرْبُ الثَّانِي: هُوَ مَا يَتَّفِقُ التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ، وَالْفَخْرُ بِوُفُورِهِ، كَالنِّكَاحِ وَالْجَاهِ. فَأَمَّا النِّكَاحُ: فَمَتَّفَقٌ فِيهِ شَرْعًا وَعَادَةً؛ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْكَمَالِ، وَصَحَّةِ الذِّكْرِ، وَلَمْ يَزَلْ التَّفَاخُرُ بِكَثْرَتِهِ عَادَةً مَعْرُوفَةً، وَالتَّمَادُّحُ بِهِ سِيرَةٌ مَاضِيَةٌ.

١٤١ - وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَسُنَّةٌ مَأْثُورَةٌ؛ وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفْضَلُ هَذِهِ الْأَمَةِ

أَكْثَرُهَا نِسَاءً [البخاري (٥٠٦٩)]. مُشِيرًا إِلَيْهِ ﷺ.

١٤٢ - وقد قال عليه السلام: «تَنَاجَحُوا تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْيَوْمَ الْقِيَامَةَ».

١٤٣ - وَنَهَى عَنْ التَّبَثُلِ [الْخَارِي (٥٠٧٣)، مُسْلِم (١٤٠٢)] مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قَنَعِ الشَّهْوَةِ، وَغَضِّ الْبَصَرِ لِلَّذِينَ نَبَّهَ عَلَيْهِمَا ﷺ بِقَوْلِهِ:

١٤٤ - «مَنْ كَانَ ذَا طَوِيلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ» [الْخَارِي (٥٠٦٦)، مُسْلِم (١٤٠٠)] حَتَّى لَمْ يَرَهُ الْعُلَمَاءُ مِمَّا يَقْدَحُ فِي الزَّهْدِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَدْ حُبَّبَنِي إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَكَيْفَ يُزْهَدُ فِيهِنَّ؟ وَنَحْوَهُ لَابْنُ عُيَيْنَةَ.

وَقَدْ كَانَ زُهَادُ الصَّحَابَةِ كَثِيرِي الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِي، كَثِيرِي النِّكَاحِ. وَحُكِيَ فِي ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ، وَالْحَسَنِ، وَابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِهِمْ غَيْرُ شَيْءٍ. وَقَدْ كَرِهَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَبًا.

فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ يَكُونُ النِّكَاحُ وَكَثْرَتُهُ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَهَذَا يَنْحِيْنُ بْنُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ حُضُورًا؛ فَكَيْفَ يُثْنِي اللَّهُ بِالْعَجْزِ عَمَّا تُعَدُّهُ فَضِيلَةً؟

وَهَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَبَثَّلَ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا فَرَزْتُهُ لَنَكَحَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ ثَنَاءَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِأَنَّهُ حُضُورٌ لَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

إِنَّهُ كَانَ هَيُوبًا، أَوْ لَا ذَكَرَ لَهُ؛ بَلْ قَدْ أَنْكَرَ هَذَا حَدِّاقُ الْمَفْسَرِينَ وَنَقَّادُ الْعُلَمَاءِ، وَقَالُوا: هَذِهِ تَقْيِصَةٌ وَغَيْبٌ، وَلَا تَلِيْقُ بِالْأَنْبِيَاءِ.

وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ: أَيِ لَا يَأْتِيهَا، كَأَنَّهُ خُصِرَ عَنْهَا. وَقِيلَ: مَانَعَا نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

وَقِيلَ: لَيْسَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فِي النِّسَاءِ.

فَقَدْ بَانَ لَكَ مِنْ هَذَا أَنَّ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى النِّكَاحِ نَقْصٌ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِي كَوْنِهَا مَوْجُودَةً، ثُمَّ قَنَعَهَا؛ إِنَّمَا بِمُجَاهَدَةٍ، كَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْ بِكَفَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى، كِيَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَضِيلَةٌ رَائِدَةٌ لِكُونِهَا شَاعِلَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، حَاطَّةٌ إِلَى الدُّنْيَا.

ثُمَّ هِيَ فِي حَقِّ مَنْ أَقْدَرَ عَلَيْهَا وَمَلَكَهَا وَقَامَ بِالْوَاجِبِ فِيهَا، وَلَمْ تُشْغَلْ عَنْ رَبِّهِ دَرَجَةً غَلِيًّا، وَهِيَ دَرَجَةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي لَمْ تُشْغَلْ كَثَرَتُهُنَّ عَنْ عِبَادَةِ

ربه؛ بل زاده ذلك عبادة، لِتَحْصِينِهِنَّ، وقيامه بحقوقهنَّ، واكتسابه لهنَّ، وهدايته إياهنَّ؛ بل صرَّحَ أنها ليست من حظوظِ دُنْيَاهُ هو، وإنْ كَانَتْ من حظوظِ دُنْيَا غيره.

١٤٥ - فقال: «حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». فدلَّ على أَنَّ حُبَّهُ لِمَا ذَكَرَ من النساءِ والطِّيبِ اللَّذَيْنِ هما من أمرِ دُنْيَا غيره، واستعماله لذلك ليس لدُنْيَاهُ، بل لِآخِرَتِهِ؛ للفوائد التي ذكرناها في التزويج، ولللقاء الملائكة في الطِّيبِ؛ ولأنه أيضاً مما يَحْضُرُ على الجماع، ويُعِينُ عليه، ويحرِّكُ أسبابه.

وكان حُبُّهُ لهاتينِ الْخَصْلَتَيْنِ لِأَجْلِ غيره، وَقَمَعَ شَهْوَتَهُ؛ وكان حُبُّهُ الْحَقِيقِيُّ الْمُخْتَصُّ بِذاته في مشاهدة جَبْرُوتِ مَولاهُ ومناجاته؛ ولذلك مَيَّزَ بَيْنَ الْحُبِّينِ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ.

١٤٦ - فقال: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»؛ فقد ساوى يحيى وعيسى في كفاية فتنتهنَّ، وزادَ فَضِيلَةً بِالْقِيَامِ بِهِنَّ.

وكان ﷺ ممن أَقْدَرَ على القوة في هذا، وأُعْطِيَ الكثيرَ منه؛ ولهذا أُبِيحَ له من عَدَدِ الْحَرَائِرِ ما لم يَبِيحْ لغيره.

١٤٧ - وقد رَوَيْنَا عن أنس: أنه ﷺ كان يَدُورُ على نِسائه في الساعة من الليل والنهار، وهنَّ إحدى عَشْرَةَ. قال أنس: وكنا نتحدث أنه أُعْطِيَ قوة ثلاثين رجلاً [البخاري (٢٦٨، ٢٨٤)، مسلم (٣٠٩)، النسائي (٥٣/٦، ٥٤)].

١٤٨ - وروي نحوه عن أبي رافع [أبو داود (٢١٩)، ابن ماجه (٥٩٠)].

وعن طاووس: أُعْطِيَ عليه السلام قوة أربعين رجلاً في الْجَمَاعِ.

ومثله عن صَفْوَانَ بنِ سُلَيْمٍ.

١٤٩ - وقالت سَلْمَى مَولَاةُ: طاف النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً على نِسائه التسع، وتَطَهَّرَ من كل واحدة قبل أن يَأْتِيَ الْآخَرَى؛ وقال: «هذا أَطْيَبُ وَأَظْهَرُ».

١٥٠ - وقد قال سليمان - عليه السلام -: لأَطْوَفَنَّ اللَّيْلَةَ على مئة امرأة أو تسع وتسعين [البخاري (٢٨١٩)، مسلم (١٦٥٤)]. وأنه فَعَلَ ذلك.

١٥١ - قال ابنُ عباس: كان في ظَهِرِ سُلَيْمَانَ مَاءٌ مِثْلُ مِثَّةِ رَجُلٍ أو تسع وتسعين، وكانت له ثلاث مئة امرأة، وثلاث مئة سُرَّة.

١٥١م - وحكى النَّقَّاشُ وَغَيْرُهُ: سبع مئة امرأة، وثلاث مئة سُرَّة.

١٥١م - وقد كان لداود عليه السلام - على زُفْده، وأَكْلِهِ من عَمَلِ يده - تسع وتسعون امرأة، وتَمَّتْ بِزَوْجِ أَوْرِيَا مِثَّة.

وقد تَبَّه على ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَيْ لَمْ يَنْعَ وَفَعُولٌ قِيَمَةٌ﴾ [ص ٢٣].

١٥٢ - وفي حديث أنس عنه، عليه السلام: «فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ: بِالسَّخَاءِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَكَثْرَةِ الْجَمَاعِ، وَقُوَّةِ الْبَطْشِ».

وأما الحِجَةُ فمحمودٌ عند العقلاء عادةً، ويقدرُ جَاهُهُ عِظَمُهُ فِي الْقُلُوبِ. وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِئَها فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] لكن آفَاتُهُ كَثِيرَةٌ؛ فَهُوَ مُضِرٌّ بَعْضُ النَّاسِ لِعُقُوبِ الْآخِرَةِ، فَلِذَلِكَ ذَمُّهُ مِنْ ذَمِّهِ، وَمَدْحُ ضِدِّهِ.

وورد في الشَّرْعِ مَدْخُ الْخَمُولِ، وَذَمُّ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ. وكان ﷺ قد زُرِقَ مِنَ الْحِشْمَةِ، وَالْمَكَانَةِ فِي الْقُلُوبِ، وَالْعِظَمَةِ قَبْلَ النَّبَوَةِ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ وَبَعْدَهَا، وَهُمْ يَكْذِبُونَهُ وَيُؤْذِنُونَ أَصْحَابَهُ، وَيَقْصِدُونَ أَذَاهُ فِي نَفْسِهِ خُفْيَةً حَتَّى إِذَا وَاجَهُهُمْ أَغْطَمُوا أَمْرَهُ، وَقَصَرُوا حَاجَتَهُ.

وَأَخْبَارُهُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ سِبَاطِي بَعْضُهَا. وقد كَانَ يَنْهَتْ وَيُفَرِّقُ مِنْ رُؤْيَتِهِ مَنْ لَمْ يَرِهِ.

١٥٣ - كَمَا زَوَى عَنْ قَبِيلَةٍ أَنَّهَا لَمَّا رَأَتْهُ أَزْعَدَتْ مِنَ الْقَرْقِ؛ فَقَالَ: يَا مَسْكِينَةُ! عَلَيْكَ السَّكِينَةُ [البحاري (١١٨٣)، أبو داود (٤٨٤٧)، الترمذي (١١٩)].

١٥٤ - وفي حديث أبي مسعودٍ أَنَّ رَجُلًا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَزْعَدَ؛ فَقَالَ لَهُ ﷺ: «هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ...» [الحديث [ابن ماجه (٣٣١٢)].

فَأَمَّا عِظَمُ قُدْرِهِ بِالنَّبَوَةِ، وَشَرِيفُ مَنَزَلَتِهِ بِالرِّسَالَةِ، وَإِنَافَةُ زُنَيْتِهِ بِالْإِصْطِفَاءِ وَالْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا، فَأَمْرٌ هُوَ مَبْلَغُ الْهَابَةِ، ثُمَّ هُوَ فِي الْآخِرَةِ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ. وَعَلَى مَعْنَى هَذَا الْفَصْلِ نَظَمْنَا هَذَا الْقِسْمَ بِأَسْرِهِ.

فصل

فِي مَا تَخْتَلِفُ الْحَالَاتُ

فِي التَّمَدُّحِ بِهِ وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ

وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّالِثُ: فَهُوَ مَا تَخْتَلِفُ الْحَالَاتُ فِي التَّمَدُّحِ بِهِ وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ، وَالتَّقْضِيلِ لِأَخْلِهِ، كَكَثْرَةِ الْمَالِ. فَصَاحِبُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ مُعْظَمُ عِنْدَ الْعَامَةِ، لَا عِتْقَادَهَا نَوْضَلُهُ بِهِ إِلَى حَاجَاتِهِ، وَتَمَكُّنُ أَغْرَاضِهِ بِسَبَبِهِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ قُصْبِيَّةً فِي نَفْسِهِ، فَصَنَى كَانَ الْمَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَصَاحِبُهُ مُتَّقِياً لَهُ فِي مَهْمَاتِهِ وَمَهْمَاتٍ مِنْ

اعتراه، وأَمَلَهُ؛ وتصريفه في مواضعه، مُشْتَرِياً به المَعَالِي والثَّاءُ الحسن، والمنزلة من القلوب، كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا.

وإذا صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلةً عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه مُفْسِكاً له غير موجّه وجوهه، حريصاً على جَمْعِهِ، عاد كُثْرُهُ كَالْعَدَمِ، وكان مُنْقَصَةً في صاحبه، ولم يَقِفْ به على جَدَدِ السلامة؛ بل أوقعه في هَوَاةِ رذيلةِ البُخْلِ، ومَذْمَةِ التَّدَالَةِ؛ فإذا التَمَدُّحُ بالمال وفضيلته عند مُفْضِلِيهِ ليست لنفسه، وإنما هو للتوصّل به إلى غيره، وتصريفه في مُتَصَرِّفَاتِهِ، فجامعه إذا لم يَضَعْ مواضعه، ولا وَجْهَهُ وجوهه غَيْرَ مَلِيٍّ بالحقيقة، ولا غَنِيٍّ بالمعنى، ولا مُتَمَدِّحٍ عند أحدٍ من العقلاء؛ بل هو فقير أبداً، غَيْرُ واصلٍ إلى غَرَضٍ من أغراضه؛ إذ ما يَدُهُ من المال الموصّل لها لم يُسَلِّطْ عليه، فأشبهه خازن مال غيره، ولا مال له؛ فكأنه ليس في يده منه شيء.

والمُنْفِقُ مَلِيٌّ وغَنِيٌّ بتحصيله فوائد المال، وإن لم يَبْقَ في يده من المال شيء.

فانظُرْ سيرة نبينا ﷺ وخُلُقَهُ في المالِ تجذّه قد أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأحلّت له الغنائم، ولم تحلّ لنتي قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دأبني ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يُجَبِّي للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً؛ بل صرفه مصارفه، وأغنى به غَيْرَهُ، وقوى به المسلمين.

١٥٥ - وقال: «ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار، إلا ديناراً أُرْصِلُهُ لِلدِّينِ» [البخاري (٦٤٤٤)، مسلم (٣٢/٩٤)، (٩٩١)].

١٥٦ - وأتته دنانير مرةً فقسمها، وبقيت منها سِتَّةٌ؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذهُ نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن اشترِ خُثّاً».

١٥٧ - ومات ودرعهُ مرهونةً في ثَقَفَةِ عِيَالِهِ [البخاري (٤٤٦٧)، مسلم (١٦٠٣)]. واقتصر من ثَقَفَتِهِ ومَلْبَسِهِ ومسكنه على ما تدعوهُ ضرورته إليه.

وزهد فيما سِوَاهُ، فكان يلبس ما وجده؛ فيَلْبَسُ في الغالب الشَّمْلَةَ، والكساءَ الحَشيْن، والبُرْدَ الغليظ، ويُقَسِّمُ على مَنْ حضره أَقْبِيَّةَ الديباج المَحْصُوة بالذهب، ويرفَعُ لِمَنْ لم يحضره؛ إذ المَبَاهَاةُ في الملابس والتزيّن بها ليست من

خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء.

والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثليه، غير مُنقبط لمروءة جنسه، مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرقتين.

وقد ذمَّ الشرع ذلك؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال.

وكذلك التباهي بجودة المسكن، وسعة المنزل، وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته.

ومن ملك الأرض، وجبى إليه ما فيها، فترك ذلك زهداً وتنزهاً، فهو حائز لفضيلة المالية، ومالك للفخر بهذه الخصلة - إن كانت فضيلة - زائد عليها في الفخر، ومُعزق في المدح بإضرابه عنها، وزهده في فانيها، وبذليها في مظانها.

فصل

في حسن خلقه ﷺ

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصِف بالخلق الواحد منها، فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بغضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق؛ وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد ﷺ على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

١٥٨ - قالت عائشة - رضي الله عنها -: كان خلقه - ﷺ - القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه.

١٥٩ - وقال ﷺ: «يَبْتَغُ لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» [أحمد (٣٨١/٢)].

١٦٠ - قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً [البخاري (٦٢٠٣)،

مسلم (٢١٥٠)].

١٦١ - وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثله.

وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم

تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي، وخصوصية ربانية.
وهكذا لسائر الأنبياء والمرسلين، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم
حقق ذلك، كما عُرِف من حال عيسى، وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم،
عليهم السلام.

بل غُرِزَتْ فيهم هذه الأخلاق في الجبلة، وأودِعُوا العِلْمَ والحِكْمَةَ في
الفطرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَنَّهُ الْفُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

قال المفسرون: أُعْطِيَ يحيى العِلْمَ بكتاب الله تعالى في حال صباه.
١٦٢ - وقال مَعْمَرٌ: كان يحيى ابنَ ستين أو ثلاث، فقال له الصُّبيان: لِمَ
لا تلعب؟ فقال: أَلَلَّعِبِ خُلِقْتُ؟

وقيل في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صدق يحيى
بعيسى؛ وهو ابنُ ثلاث سنين، فشَهِدَ له أنه كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحِهِ.
وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أُمُّ يحيى تقولُ لمريم: إني أجد ما
في بطني يسجدُ لما في بطنك؛ نَجِيَّةً لَهُ.

وقد نَصَّ اللَّهُ تعالى على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿أَلَّا
تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤] على قراءة من قرأ: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] وعلى قول مَنْ
قال: إن المنادي عيسى عليه السلام.

ونَصَّ على كلامه في مَهْدِهِ، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾
[مريم: ٣٠].

وقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

١٦٣ - وقد ذُكِرَ من حِكْمِ سليمان وهو صبي يلعبُ في قصة المَرْجُومَةِ.

١٦٤ - وفي قصة الصبي [البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠)] ما اقتدى به داودُ أبوه.

وحكى الطبري أنَّ عُمَرُ كَانَ جِيْنًا أُوتِيَ الْمُلْكَ اثْنِي عَشَرَ عَامًا.

وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بِلَحِيَّتِهِ وهو طفل.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾

[الأنبياء: ٥١]؛ أَي هَدَيْنَاهُ صَغِيرًا؛ قاله مُجَاهِدٌ وغيره.

وقال ابنُ عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه.

وقال بعضهم: لَمَّا وُلِدَ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - بعثَ اللَّهُ تعالى إليه مَلَكًا

يأمره عن الله أَنْ يَعْرِفَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَذْكُرَهُ بِلِسَانِهِ؛ فقال: قد فعلتُ، ولم يَقُلْ: أفعَلْ؛

فذلك رُشْدُهُ.

وقيل: إن إلقاء إبراهيم - عليه السلام - في النار ومختنه كانت وهو ابنُ ستِّ عشرة سنة، وإن ابتلاء إسحاق بالدَّبح كان وهو ابنُ سبع سنين؛ وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمَر والشمس كان وهو ابنُ خمسة عشر شهراً.

وقيل: أوحى إلى يوسف وهو صبي عندما همَّ إخوته بإلفائه في الحب، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

إلى غير ذلك مما ذكر من أخبارهم.

١٦٤م - وقد حكى أهل السير أن أمّة بنت وَهَبٍ أخبرت أن نبيّنا محمداً ﷺ وُلد حين وُلد باسطاً يديه إلى الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء.

١٦٥ - وقال في حديثه ﷺ: «لَمَّا نَشَأْتُ بَغِضْتُ إِلَيَّ الْاَوْتَانُ». وبُغِضَ إِلَيَّ الشَّغَرُ.

١٦٦ - و «لَمْ أَهَمْ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، فَعَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ لَمْ أَغْذُ».

ثم يَتِمُّكَزْنَ الْأَمْرُ لَهُمْ، وَتَتَرَادَفُ نَفَحَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتُشْرِقُ أَنْوَارُ الْمَعَارِفِ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى يَصِلُوا الْعَايَةَ، وَيَبْلُغُوا - بِاصْطِفَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالنُّبُوَّةِ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْخِصَالِ الشَّرِيفَةِ - الْمَهَابَةَ ذُونَ مُمَارَسَةِ وَلَا رِيَاضَةٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقد تَجَذَّوْهُمُ بَطْعٍ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ ذُونَ جَمِيعِهَا، وَيُولَدُ عَلَيْهَا، فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ اكْتِسَابُ تَمَامِهَا عَنَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا نَشَاهِدُ مِنْ خَلْقِهِ بَعْضُ الصَّبِيَّانِ عَلَى خُسْنِ السُّنَنِ، أَوِ الشَّهَامَةِ، أَوِ صِدْقِ اللِّسَانِ، أَوِ السُّمَاحَةِ؛ وَكَمَا تَجَذَّوْهُمُ عَلَى ضِدِّهَا؛ فَبِالْاِكْتِسَابِ يَكْمُلُ تَأْفِضُهَا، وَبِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ يُسْتَجْلَبُ مَعْدُومُهَا، وَيَعْتَدَلُ مُنَحَرَفُهَا، وَبِاخْتِلَافِ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِيهَا.

١٦٦م - و «كُلُّ مَيْسَرٍ لَمَّا خُلِقَ لَهُ» [البخاري (٤٩٤٥)، مسلم (٧/٢٦٤٦)]. ولهذا ما قد اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جيلةٌ أو مُكْتَسَبَةٌ؟

فحكى الطبري عن بعض السلف أن الخلق الحسن جيلةٌ وغيرة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود، والحسن، وبه قال هو، والصواب ما أصْلَاهُ.

١٦٧ - وقد رَوَى سعدٌ عن النبي ﷺ، قال: «كُلُّ الْخِلَالِ يُطَبِّعُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ».

١٦٨ - وقال عُمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه: وَالْجُبْنَ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ.

وهذه الأخلاقُ المحمودة والخِصَالُ الجميلة كثيرةٌ، ولكننا نذكر أصولها، ونُشير إلى جميعها، ونَحَقِّقُ وَضْفَهُ ﷺ بها إن شاء الله تعالى.

فصل

فِي نَبَاهَةِ عَقْلِهِ ﷺ

أما أصلُ فروعها، وعُنْصُرُ بناييعها، ونُقْطَةُ دائرتها فالعقلُ الذي منه ينبعثُ العِلْمُ والمعرفة، ويتفرَّعُ عن هذا ثَقُوبُ الرأي، وجُودَةُ الفِطْنَةِ، والإِصَابَةُ، وَصِدْقُ الظَّنِّ، والنَظَرُ للعواقبِ ومصالحِ النفسِ، ومجاهدةُ الشهوةِ، وحسنُ السِّيَاسَةِ والتدبيرِ، واقتناءُ الفضائلِ، وتجنبُ الرذائلِ.

وقد أشرنا إلى مكانه منه ﷺ، وبلوغه منه، ومن العلمِ الغايةِ التي لم يبلغها بشرٌ سواه.

وَإِذْ جَلَالَةُ مَحَلِّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمِمَّا تَفَرَّعَ مِنْهُ مَتَحَقِّقٌ عِنْدَ مَنْ تَتَبَعَ مَجَارِيَ أَحْوَالِهِ، وَأَطْرَادَ سِيرِهِ، وَطَالَعَ جَوَامِعَ كَلَامِهِ، وَحَسَّنَ شَمَائِلَهُ، وَبَدَّاعَ سِيرِهِ، وَجَحَّمَ حَدِيثِهِ، وَعَلَّمَهُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ، وَجَحَّمَ الْحُكْمَاءَ، وَسَيَّرَ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ، وَأَيَّامَهَا، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، وَسِيَاسَاتِ الْأَنَامِ، وَتَقَرَّرَ الشَّرَائِعَ وَتَأَصَّلَ الْأَدَابَ النَّفْسِيَّةَ، وَالشَّيْمَ الْحَمِيدَةَ، إِلَى فَنُونِ الْعُلُومِ الَّتِي اتَّخَذَ أَهْلُهَا كَلَامَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيهَا قُدُوءَ، وَإِشَارَاتِهِ حُجَّةً؛ كَالْعِبَارَةِ، وَالطَّبِّ، وَالْحِسَابِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالنَّسَبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سُبِّيَّهُ فِي مَعْجَزَاتِهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - دُونَ تَعْلِيمِ، وَلَا مُدَارَسَةِ، وَلَا مَطَالَعَةِ كُتُبٍ مَنْ تَقَدَّمَ، وَلَا الْجُلُوسِ إِلَى عِلْمَائِهِمْ؛ بَلْ نَبِيٌّ أُمِّيٌّ لَمْ يُعْرِفْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صُدْرَهُ، وَأَبَانَ أَمْرَهُ، وَعَلَّمَهُ، وَأَقْرَأَهُ، يُعَلِّمُ ذَلِكَ بِالْمَطَالَعَةِ وَالْبَحْثِ: مِنْ حَالِهِ ضَرُورَةً، وَبِالْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ عَلَى نُبُوْتِهِ نَظَرًا؛ فَلَا تُطَوَّلُ بِسَرْدِ الْأَقَاصِيصِ، وَآحَادِ الْقَضَايَا؛ إِذْ مَجْمُوعُهَا مَا لَا يَأْخُذُهُ حَضَرٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ حِفْظٌ جَامِعٌ، وَبِحَسَبِ عَقْلِهِ كَانَتْ مَعَارِفُهُ ﷺ إِلَى سَائِرِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَظْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ، وَعَجَائِبُ قُدْرَتِهِ، وَعَظِيمُ مَلَكُوتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

حارَت العقولُ في تقدير فضله عليه، وخَرَسَت الألسنُ دونَ وصفِ يحيط بذلك أو ينتهي إليه.

فصل

في حلمه واختماله وعفوه وصبره ﷺ

وأما الحلم والاحتمال، والعفو مع القدرة، والصبر على ما يُكره؛ وتبين هذه الألقاب فرق، فإنَّ الحلم: حالة توفّر وثبات عند الأسباب المحرّكات. والاحتمال: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثلها الصبر، ومعانيها متقاربة. وأما العفو: فهو ترك المؤاخذه.

وهذا كله مما أذب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

١٦٩ - روي أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سال جبريل - عليه السلام - عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالم.

ثم ذهب فاتاه، فقال: «يا محمدا! إنَّ الله يأمرك أن تحبل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

وقال له: ﴿وَأَسِرْ عَنْ مَا أصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الفص: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَكِنْ صَبِرْ وَغْفِرْ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كلَّ حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه فقرة، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا جلماً.

١٧٠ - حدثنا القاضي أبو عبدالله: محمد بن علي الثعلبي وغيره، قالوا:

حدثنا محمد بن عتاب، حدثنا أبو بكر بن وafd القاضي وغيره، حدثنا أبو عيسى،

حدثنا عبيد الله قال: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن

عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما خيّر رسول الله ﷺ في أمرين قط

إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم

رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم لله بها [البخاري

(٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧)].

١٧١ - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وَشَجَّ وَجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ شَقًّا شَدِيدًا، وَقَالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ! فَقَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَنَاءَ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً. اللَّهُمَّ! اغْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [البخاري (٢٩٠٣)، مسلم (١٧٩٠)].

١٧٢ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: يَا أَبَتِ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ دَعَا نُوْحٌ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: ٢٦]. وَلَوْ دَعَوْتَ عَلَيْنَا مِثْلَهَا لَهْلَكْنَا مِنْ عِنْدَ آخِرِنَا، فَلَقَدْ وَطِئَ ظَهْرُكَ، وَأَذْمِي وَجْهَكَ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُكَ، فَايْتِ أَنْ تَقُولَ إِلَّا خَيْرًا، فَقُلْتُ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والجلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم، ورجمهم، ودعا وشفع لهم، فقال: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ» أو «اغْدِ» ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لِقَوْمِي» ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: «فإنهم لا يعلمون».

١٧٣ - وَلَمَّا قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: اغْدِلْ، فَإِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، لَمْ يَزِدْهُ فِي جَوَابِهِ أَنْ يَبَيِّنَ لَهُ مَا جَهِلَهُ.

ووعظ نفسه، وذكرها بما قال له، فقال: «وَنَحَكَ! فَمَنْ يَغْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ!» [البخاري (٣١٣٨)، مسلم (١٠٦٣)] ونهى من أراد من أصحابه قتله.

١٧٤ - وَلَمَّا تَصَدَّى لَهُ عُورَثُ بْنُ الْحَارِثِ لِيَفْتِكَ بِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَبِّدٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَخَذَهُ قَائِلًا، وَالنَّاسُ قَائِلُونَ، فِي غَزَاةٍ، فَلَمْ يَنْتَبِهْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَالسَّيْفُ صُلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقَالَ: «اللَّهُ» فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فَتَرَكَهُ وَعَفَا عَنْهُ. فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ [البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣)].

١٧٥ - وَمِنْ عَظِيمِ خَبَرِهِ فِي الْعَفْوِ عَفْوُهُ عَنِ الْيَهُودِيَةِ الَّتِي سَمَّتهَا فِي الشَّاةِ بَعْدَ اعْتِرَافِهَا [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)]، عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الرِّوَايَةِ.

١٧٦ - وَأَنَّهُ لَمْ يُوَاجِذْ لَيْدَ بْنَ الْأَعْصَمِ إِذْ سَحَرَهُ، وَقَدْ أَعْلَمَ بِهِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِشَرْحِ أَمْرِهِ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فَضْلًا عَنْ مَعَابِقَتِهِ [البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (٢١٨٩)].

١٧٧ - وكذلك لم يواجه عبد الله بن أبي، وأشباهه من المنافقين، بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولاً وفعلًا؛ بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه» [البخاري (٤٩٠٥)، مسلم (٦٣/٢٥٨٤)].

١٧٨ - وعن أنس رضي الله عنه: كنت مع النبي ﷺ، وعليه بُرْدٌ غليظ الحامضية، فجلبده الأعرابي بردائه خبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمداً احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك. فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده». ثم قال: «ويقاذ منك، يا أعرابي! ما فعلت بي». قال: لا.

قال: «لم؟» قال: لأنك لا تكافئ بالسينة السينة [البخاري (٣١٤٩)، مسلم (١٠٥٧)].

فضحك النبي ﷺ؛ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر. ١٧٩ - قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن خزيمة من محارم الله. وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما ضرب خادماً قط ولا امرأة [البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧، ٣٢٢٨) الترمذي (٣٤٢)].

١٨٠ - وجيء إليه برجل، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ: «لن ترع، لن ترع، ولو أردت ذلك لم تسلط علي» [أحمد (٤٧١/٣)].

١٨١ - وجاءه زيد بن سحنة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه، فجذب ثوبه عن منكبيه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم، يا بني عبدالمطلب! مظل، فانتهره عمر، وشدد له في القول، والنبي ﷺ يتبسّم. فقال رسول الله ﷺ: «أنا، وهو، كنا إلى غير هذا منك أخوج، يا عمرا تأمرني بخسن القضاء، وتأمره بخسن التقاضي».

ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث» وأمر عمر بفضبه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما روعه؛ فكان سبب إسلامه.

وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتُها في محمد إلا اثنين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل إلا حُلماً. فاخبره بهذا، فوجده كما وُصف.

والحديث عن جلّله عليه السلام وصبره وعَفْوِه عند المقدرة أَكْثَرُ من أَن نَأْتِي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنّفات الثابتة، إلى ما بلغ متواتراً مَبْلَغَ اليقين: مِنْ صبره على مُقاساة قريش، وأذى الجاهلية، ومُصَابَرتِه الشدائد الصعبة معهم إلى أَن أَظْفَرَه اللّهُ عليهم، وحكّمه فيهم، وهم لا يشكّون في استئصال شأفتهم، وإبادة خُضْرانهم؛ فما زاد على أَن عفا وصفح.

١٨٢ - وقال: «ما تقولون أَنِّي فاعِلٌ بكم؟» قالوا: خَيْرًا، أَخَ كريم، وابنُ أَخ كريم، فقال: «أقولُ كما قال أَخِي يوسف: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أَيَوْمَ يَأْتِيكَمُ الْيَوْمَ يَكْفُرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [يوسف: ٩٢] «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ» [الناسي (١٠/١٣٤)].

١٨٣ - وقال أَنس: هبط ثمانون رجلاً من التَّنْعِيم صلاة الصبح ليقْتُلُوا رسول الله ﷺ، فَأَخَذُوا، فَأَعْتَقَهُم رسولُ الله ﷺ؛ فَأَنْزَلَ اللّهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٨)].

١٨٤ - وقال لأبي سفيان - وقد سَبَقَ إليه بعد أَن جَلَبَ إليه الأحزاب، وقتل عَمَهُ وأصحابَه ومَثَلَ بهم، فعفا عنه، ولأطفَه في القول -: «وَيْحَكَ! يا أبا سفيان! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ؟» فقال: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، ما أَخْلَمَكَ وَأَوْصَلَكَ وأَكْرَمَكَ!

وكان رسولُ الله ﷺ أبعَدَ الناسِ غَضَبًا، وأسرَعهم رِضًا، ﷺ.

فصل

فِي جُودِهِ وَكَرَمِهِ وَسَخَائِهِ وَسَمَاحَتِهِ ﷺ

وأما الجودُ والكرمُ، والسَخَاءُ والسَمَاحَةُ، ومعانيها متقاربة؛ وقد فَرَّقَ بعضهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكَرَمَ: الإنفاقَ بطيبِ النفس فيما يعظم خَطَرُهُ ونَفْعُهُ، وَسَمُوهُ أَيْضًا حُرِّيَّةً، وهو ضدُّ التَّدَالَةِ.

والسَمَاحَةُ: التَّجَافِي عما يستحقُّه المرءُ عند غيره بطيبِ نفس، وهو ضدُّ الشُّكَاةِ.

والسَخَاءُ: سهولةُ الإنفاق، وَتَجَبُّ اكتسابِ ما لا يُحْمَدُ، وهو الجود، وهو ضدُّ التَّقْتِيرِ.

وكان ﷺ لا يُؤَاوِزِي في هذه الأخلاقِ الكريمةِ، ولا يُنَازِرِي، بهذا وصفهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ.

١٨٥ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الصَّدْفِي رحمه الله، حدثنا القاضي أبو الوليد الباجي، حدثنا أبو ذر الهَرَوِي، حدثنا أبو الهيثم الكُشْمِينِي، وأبو محمد السَّرْحَبِي، وأبو إسحاق البلخي؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله الفَرَبِي؛ حدثنا البخاري، قال حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن ابن المُكْدِر، سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: ما سُئِلَ النبي ﷺ عن شيء فقال: لا. [البخاري (٦٠٣٤)، مسلم (٢٣١١)].

١٨٦، ١٨٧ - وعن أنس وسَهْل بن سعد مثله [مسلم (٢٣١٢)].

١٨٨ - وقال ابنُ عباس: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لَقِيَه جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الرِّيح المُرسَلة [البخاري (٦)، مسلم (٢٣٠٨)].

١٨٩ - وعن أنس أنَّ رجلاً سألَه فأعطاه غَنماً بين جبَلَيْن، فرجع إلى بلده، وقال: أسلموا؛ فَإِنَّ محمداً يُعْطِي عطاءً مَنْ لا يَخْشَى فاقةً [مسلم (٢٣١٢)]. وأعطى غَيْرَ واحدٍ مئةً من الإبل.

١٩٠ - وأعطى صفوانَ مئةً، ثم مئةً، ثم مئةً [مسلم (٢٣١٣)]. وهذه كانت حاله ﷺ قبل أن يبعث.

١٩١ - وقد قال له وَرَقَةُ بن نوفل: إنك تحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١٩٢ - وردَّ على هَوَازِنَ سَبَايَاها، وكانوا ستَّة آلاف [البخاري (٢٣٠٧، ٢٣٠٨)].

١٩٣ - وأعطى العباسَ من الذهب ما لم يُطَقِ حَمَلُهُ [البخاري (٤٢١)].

١٩٤ - وحَمِلَ إليه تسعون ألفَ درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها يَتَسَمَّها، فما رَدَّ سائلاً حتى فرغَ منها.

١٩٥ - وجاءه رجلٌ، فسأله، فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قَضَيْنَاهُ...».

فقال له عُمر: ما كَلَّفَكَ اللَّهُ ما لا تُقدِر عليه.

فكرة النبي ﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أتُنْفِقُ ولا تَخَفُ من ذِي العرشِ إِفْلافاً.

فتبسّم ﷺ وعُرفَ البِشْرُ في وجهه، وقال: «بهذا أُمِرْتُ» [الترمذي (٣٤٨)]. ذكره الترمذي.

١٩٦ - وَذَكَرَ عن مُعَوِّذِ بن عَفْرَاءَ قال: أَتَيْتُ النبي ﷺ يَفْتِناعُ من رُطْبِ

- يريد: طَبَقاً - وأَجِرْ رُغْبٍ - يريد: قِتَاءً - فأعطاني مِلءَ كَفِّهِ حُلِيّاً وَذَهَباً [أحمد (٣٥٩/٦)، الترمذي (٢٠٣، ٢٠٤، ٣٤٩)].

١٩٧ - وقال أنس: كان النبي ﷺ لا يَدْخِرُ شيئاً لَعَدٍ [الترمذي (٢٣٦٢)].
والخَبَرُ بجوده وكرمه - ﷺ - كثير.

١٩٨ - وعن أبي هريرة: أتى رجلُ النبي ﷺ يسأله، فاستَسَلَفَ له رسولُ الله ﷺ نِصْفَ وَسْقٍ، فجاء الرجلُ يتقاضاه، فأعطاه وَسْقاً وقال: «نِصْفُهُ قَضَاءٌ، ونِصْفُهُ نَائِلٌ».

فصل فِي شَجَاعَتِهِ وَنَجْدَتِهِ

وأما الشجاعةُ والنجدةُ، فالشجاعةُ: فضيلةُ قوةِ الغضبِ وانقيادِها للعقلِ، والنَّجْدَةُ: ثَقَّةُ النفسِ عند استرسالها إلى الموتِ حيث يُحْمَدُ فعلُها دونَ خوفٍ.
فكان النبي ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجْهَلُ؛ قد حضر المواقِفَ الصعبةَ، وفرَّ الكُمأةَ والأبطالَ عنه غَيْرَ مرَّةٍ، وهو ثابتٌ لا يَنْزَحُ، ومُقْبِلٌ لا يُدْبِرُ ولا يتزحزح. وما شجاعٌ إلا وقد أُخْصِيَتْ له قُرَّةٌ، وحَفِظَتْ عنه جَوْلَةٌ، سِوَاهُ.

١٩٩ - حدثنا أبو علي الجبَّاني في ما كتب لي؛ قال: حدثنا القاضي سراج، حدثنا أبو محمد الأصيلي، قال: حدثنا أبو زَيْدٍ الفقيه، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا ابن بشار، حدثنا عُثْمَرُ، حدثنا شُعْبَةُ، عن أبي إسحاق: سَمِعَ الْبَرَاءَ - وسأله رجلٌ: أفرزْتُم يومَ حُتَيْنَ عن رسولِ الله ﷺ؟ - قال: لكن رسولَ الله ﷺ لم يَفِرَّ.

ثم قال: لقد رَأَيْتُهُ على بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وأبو سفيانٍ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، والنبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كَذِبٌ» وزاد غيره: «أنا ابنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» [البخاري (٤٣١٧)]، مسلم (٨٠/١٧٧٦).

قيل: فما رُئِيَ يومئذٍ أَحَدٌ كان أشدَّ منه.

وقال غَيْرُهُ [البخاري (٤٣١٧)]: نزل النبي ﷺ عن بَغْلَتِهِ.

٢٠٠ - وذكر مُسْلِمٌ، عن العباس، قال: فلما اتَّقَى المسلمون والكفارَ وَلَّى المسلمون مُذْبِرِينَ، فطَفِقَ رسولُ الله ﷺ يُرْكِضُ بَغْلَتَهُ نحو الكفارِ، وأنا آخِذٌ بِلِجَامِهَا أَكْفُهَا إِرَادَةً أَلَّا تُسْرِعَ، وأبو سفيانٍ آخِذٌ بِرُكَابِهِ، ثم نادى: يا لِمُسْلِمِينَ... الحديث [مسلم (١٧٧٥)].

٢٠١ - وقيل: وكان رسول الله ﷺ إذا غضب - ولا يَغضبُ إلا لله - لم يَغْمُ لغضبه شيء.

٢٠٢ - وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجع، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أزضى ولا أفضل من رسول الله ﷺ.

٢٠٣ - وقال علي رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمي البأس - ويرى: اشتد البأس - واحمرَّت الخدقُ اتَّقينا برسول الله ﷺ؛ فما يكون أحدُ أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتني يوم بذّر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً [أحمد (٨٦/١)، مسلم (١٧٧٦)].

٢٠٤ - وقيل: كان الشجاعُ هو الذي يقرُب منه ﷺ إذا ذنا العدو، لقربه منه.

٢٠٥ - وعن أنس: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس؛ لقد فرغ أهل المدينة ليلة، فانطلق ناسٌ قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرسٍ لأبي طلحة غزي، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تَرَاوُا» [البحاري (٢٩٠٨)، مسلم (٢٣٠٧)].

٢٠٦ - وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كُتبيةً إلا كان أول من يضرب.

٢٠٧ - ولما رآه أبي بن خلف يوم أخذ وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نَحَا!

وقد كان يقول للنبي ﷺ - حين اقتدى يوم بذّر -: عندي فرسٌ أعلفها كل يوم قرناً من دُرّة أقتلك عليها.

فقال له النبي ﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله».

فلما رآه يوم أخذ شدَّ أبي على فرسه على رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي ﷺ: «هكذا» أي: خلّوا طريقه، وتناول الحزنة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضةً، تطايروا عنه تطاير الشغراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ، فطعنه في عنقه طعنة تداداً منها عن فرسه مزاراً.

وقيل: بل كسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد! وهم يقولون: لا بأس بك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «أنا أقتلك»؟ والله! لو بضق علي زلفلنني. فمات بسرف في قفولهم إلى مكة.

فصل

فِي حَيَاتِهِ وَإِغْضَائِهِ ﷺ

وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رِقَّةٌ تَغْتَرِي وَجْهَ الْإِنْسَانِ عِنْدَ فِعْلٍ مَا يُتَوَقَّعُ كِرَاهَتُهُ، أَوْ مَا يَكُونُ تَرْكُهُ خَيْرًا مِنْ فِعْلِهِ.

والإغضاء: التغافل عما يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ بِطَبِيعَتِهِ.

وكان النبي ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، وَأَكْثَرَهُمْ عَنِ الْعَوْرَاتِ إِغْضَاءً؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجْ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجُ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الاحزاب: ٥٣].

٢٠٨ - وحدثنا أبو محمد بن عتاب - رحمه الله - بقراءة علي؛ حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسبي، حدثنا أبو زيد المَرْزُوزِيُّ، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبدان، أخبرنا عَبْدُ اللَّهِ، أخبرنا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ: مَوْلَى أَنَسٍ، يَحْدُثُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِذْرِهَا. وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ [البخاري (٦١٠٢)].

وكان ﷺ لَطِيفَ الْبَشَرَةِ، رَقِيقَ الظَّاهِرِ، لَا يَشَافُهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُهُ حَيَاءً وَكَرَمَ نَفْسٍ.

٢٠٩ - وعن عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ أَحَدٍ مَا يَكْرَهُهُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ كَذَا؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَصْنَعُونَ، أَوْ يَقُولُونَ كَذَا؟» [أبو داود (٤٧٨٨)] يَنْتَهِي عَنْهُ، وَلَا يُسَمِّي فَاعِلَهُ.

٢١٠ - وَرَوَى أَنَسٌ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئًا - وَكَانَ لَا يُوَاجِهُهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ - فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: «لَوْ قُلْتُمْ لَهُ: يَغْسِلُ هَذَا؟» وَيُرَوَّى: «يَتَرَعَّضُهَا» [أبو داود (٤١٨٢)، (٤٧٨٩)، الترمذي (٣٣٩)].

٢١١ - قَالَتْ عَائِشَةُ فِي الصَّحِيحِ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا سَخَابًا بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ [الترمذي (٢٠١٦)، أحمد (١٧٤/٦)].

٢١٢، ٢١٣ - وَقَدْ حُكِيَ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ التَّوْرَةِ، مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ.

٢١٤ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ حَيَاتِهِ لَا يُثْبِتُ بَصَرَهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ.

٢١٤م - وأنه كان يَكْنِي عما اضطره الكلام إليه مما يُكْرَهُ.
٢١٥ - وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ فَرْجَ رسولِ الله ﷺ قطُ.

فصل

فِي حُسْنِ عِشْرَتِهِ وَأَدَبِهِ وَبَسْطِ خُلُقِهِ ﷺ مَعَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ

وأما حُسْنُ عِشْرَتِهِ، وأَدَبِهِ، وَبَسْطُ خُلُقِهِ - ﷺ - مع أَصْنَافِ الْخَلْقِ فَبَحِثُ
انتشرت به الأخبارُ الصحيحةُ.

٢١٦ - قال علي رضي الله عنه في وَصْفِهِ ﷺ: كان أَوْسَعَ النَّاسِ صَدْرًا،
وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً.

٢١٧ - حدثنا أبو الحسن: علي بن مُشَرَّفِ الْأَنْمَاطِي فيما أَجَازَنِيهِ، وقرأته
على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحَبَّال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا
ابنُ الْأَعْرَابِي، حدثنا أبو دَاوُد، حدثنا هشام: أبو مَرْوَانَ، ومحمد بن المثنى قالَا:
حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الْأَوْزَاعِي، سمعت يحيى بن أبي كثير يقول:
حدثني محمد بن عبدالرحمن بن أسعد بن زُرَّارَةَ، عن قَيْسِ بن سعد، قال: زَارَنَا
رسولُ الله ﷺ - وذكر قصَّةً في آخرها: فلما أراد الانصرافَ قَرَّبَ له سعدُ
حمارًا، وَوَطَّأَ عليه بِقَطِيفَةٍ، فركب رسولُ الله ﷺ، ثم قال سَعْدُ: يا قيس!
اصْحَبْ رسولُ الله ﷺ.

قال قيس: فقال رسولُ الله ﷺ: «ارْكَبْ» فَأَبَيْتُ. فقال: «إِنَّمَا أَنْ تَرْكَبَ
وَإِنَّمَا أَنْ تَنْصَرِفَ»، فانصرفتُ [أبو داود (٥١٨٥)، أحمد (٤٢١/٣)، النسائي (٣٢٤، ٣٢٥)،
ابن ماجه (٤٦٦)].

وفي رواية أخرى: «ارْكَبْ أُمَامِي، فَصَاحِبُ الدَّابَّةِ أَوْلَى بِمُقَدِّمِهَا».

٢١٨ - وكان رسولُ الله ﷺ يُولِّفُهُمْ، وَلَا يُنْفَرُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ
وَيُوَلِّيهُ عَلَيْهِمْ، وَيُحَذِّرُ النَّاسَ، وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ
بِشْرَهُ، وَلَا خُلُقَهُ؛ يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ، وَيُعْطِي كُلَّ جَلْسَانِهِ نَصِيحَتَهُ، لَا يَخْسَبُ جَلِيسُهُ
أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ. مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ لِحَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ
الْمَنْصَرَفُ عَنْهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَزِدْهُ إِلَّا بِهَا، أَوْ يَمْسُورُ مِنَ الْقَوْلِ؛ قَدْ وَسِعَ
النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً. بهذا وصفه
ابن أبي هَالَةَ، قال: وكان دائمُ الْبِشْرِ، سَهْلُ الْخُلُقِ، لَيِّنُ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَطْطٍ وَلَا

غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٌ، وَلَا فَحَاشٌ وَلَا عَيَّابٌ، وَلَا مَذَاحٌ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي وَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ.

وقال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمُوا مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقُصُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي فِي أَحْسَنِ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

٢١٩ - وكان يُجِيب مَنْ دَعَاهُ.

٢٢٠ - ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعاً وَيُكَافِيُ عَلَيْهَا [البخاري (٢٥٨٥، ٢٥٦٨)].

٢٢١ - قال أنس: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أَفْ قَطُّ، وَمَا قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟ [البخاري (٢٧٦٨)، مسلم (٢٣٠٩)].

٢٢٢ - وعن عائشة رضي الله عنها: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا أَهْلَ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: «لَبَّيْكَ».

٢٢٣ - وقال جرير بن عبد الله: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ مِنْهُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَأَيْتِي إِلَّا تَبَسَّمَ [البخاري (٣٠٣٥)، مسلم (٢٤٧٥)].

وكان يُمَارِخُ أَصْحَابَهُ، وَيُخَالِطُهُمْ وَيُحَادِثُهُمْ، وَيُدَاعِبُ صِبْيَانَهُمْ، وَيُجْلِسُهُمْ فِي حَجَرِهِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ، وَالْأَمَةِ وَالْمَسْكِينِ، وَيَعُوذُ الْمَرْضَى فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ الْمُعْتَذِرِ.

٢٢٤ - قال أنس: مَا التَّقَمَّ أَحَدٌ أَذُنَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْحِي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنْحِي رَأْسَهُ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ بِيَدِهِ فَيُرْسِلُ يَدَهُ حَتَّى يُزِيلَهَا الْآخَرُ؛ وَلَمْ يَرِ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ [أبو داود (٤٧٩٤)، الترمذي (٢٤٩٠)، ابن ماجه (٣٧١٦)].

وكان يبدأ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَبْدَأُ أَصْحَابَهُ بِالْمُصَافَحَةِ، وَلَمْ يَرِ قَطُّ مَاذَا رَجَلِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ حَتَّى يُضَيِّقَ بِهِمَا عَلَى أَحَدٍ. يَكْرَمُ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَرَبِمَا بَسَطَ لَهُ ثَوْبَهُ، وَيُؤَثِّرُهُ بِالْوَسَادَةِ الَّتِي تَحْتَهُ، وَيَغْرِزُ عَلَيْهِ فِي الْجُلُوسِ عَلَيْهَا إِنْ أَبَى، وَيُكْنِي أَصْحَابَهُ، وَيَدْعُوهُمْ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَ فَيَقْطَعَهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ. وَيُرْوَى: بِاتِّهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ.

٢٢٥ - وروي أنه كان لَا يَجْلِسُ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ يُصَلِّي إِلَّا خَفَفَ صَلَاتَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَإِذَا فَرَغَ عَادَ إِلَى صَلَاتِهِ.

وكان أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم ينزل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب.

٢٢٦ - قال عبدالله بن الحارث: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ [الترمذي (٣٦٤١)، أحمد (١٩٠/٤)].

٢٢٧ - وعن أنس: كان خذم المدينة يأتون النبي ﷺ إذا صلى الغداة بآبنتهم فيها الماء، فما يؤثني بآنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة [مسلم (٢٣٢٤)] يريدون به التبرك.

فصل

في شفقتِهِ ورَحْمَتِهِ ﷺ ورَأْفَتِهِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال بعضهم: من فضله عليه السلام أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فؤزك.

٢٢٨ - حدثنا الفقيه أبو محمد: عبدالله بن محمد الخُسَني بقراءتي عليه، حدثنا إمام الحرمين: أبو علي الطبري، حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة، وذكر حنيناً، قال: فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مئة من النعم؛ ثم مئة، ثم مئة.

قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله! لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي [مسلم (٥٩/٢٣١٣)].

٢٢٩ - وروي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه؛ ثم قال: «أحسنْتُ إليك؟». قال الأعرابي: لا، ولا أجمَلْتُ.

فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم: أن كفُوا، ثم قام ودخل منزله،

وأرسل إليه، وزاده شيئاً، ثم قال: «أحسنْتُ إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال له النبي ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أخبِيتَ فقل بين أيديهم ما قُلْتَ بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك».

قال: نعم. فلما كان الغد - أو العشي - جاء، فقال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قال ما قال، فزِدْنَاهُ فزعم أنه رَضِيَ، أَكْذَلُكَ؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا، مَثَلُ رَجُلٍ، لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا تَفُوراً، فَناداهم صاحبها: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَزْفُقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَاخَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ لَفَقَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

٢٣٠ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرُ» [أبو داود (٤٨٦٠)، الترمذي (٣٨٩٦، ٣٩٩٧)].

٢٣١ - وَمِنْ شَفَقَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ ﷺ تَخْفِيفُهُ وَتَسْهِيلُهُ عَلَيْهِمْ، وَكَرَاهَتُهُ أَشْيَاءَ مَخَافَةٍ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسُّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ» [أحمد (٢٥٠/٢)].

٢٣٢ - وَخَبَرُ صَلَاةِ اللَّيْلِ [البخاري (١١٢٩)، مسلم (٧٦١)].

٢٣٣ - وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْوِصَالِ.

٢٣٤ - وَكَرَاهَتُهُ دُخُولَ الْكَعْبَةِ لئَلَّا يُعْنَتَ أُمَّتُهُ [أبو داود (٢٠٢٩)، الترمذي

(٨٧٣)، ابن ماجه (٣٠٦٤)].

٢٣٥ - وَرَغْبَتُهُ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ سَبَّهُ وَلَعْنَتَهُ لَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ.

٢٣٦ - وَأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِهِ [البخاري (٧٠٧)، (٧٠٩)،

مسلم (٤٧٠)].

٢٣٧ - وَمِنْ شَفَقَتِهِ ﷺ أَنْ دَعَا رَبَّهُ وَعَاهَدَهُ، فَقَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَّيْتُهُ - أَوْ

لَعْنَتُهُ - فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً، وَصَلَاةً وَطَهُوراً، وَفُزْنَةً تَقْرُبُهُ بَهَا إِلَيْكَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ» [البخاري (٦٣٦١)، مسلم (٢٦٠١)].

٢٣٨ - ولما كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَتَاهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاهُ مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ: مُزِنِي بِمَا شِئْتَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيعَ عَلَيْهِمُ الْآخِشِينَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ، مَنْ يَغْبِذُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥)].

٢٣٩ - وَرَوَى ابْنُ الْمُثَنِّدِ أَنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَنْ تُطِيعَكَ. فَقَالَ: «أَوْخِرْ عَنْ أُمَّتِي لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ».

٢٤٠ - قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا. ٢٤١ - وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا [البخاري (٦٨)، مسلم (٢٨٢١)].

٢٤٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا رَكِبَتْ بَعِيرًا وَفِيهِ صُعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ تَرُدُّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ» [مسلم (٧٩/٢٥٩٤)].

فصل

فِي خُلُقِهِ ﷺ فِي الْوَفَاءِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ

٢٤٣ - وَأَمَّا خُلُقُهُ ﷺ فِي الْوَفَاءِ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ - فَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَامِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَالُ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَيَّانٍ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ بُذَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمَّاسِ، قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ، فَتَسَيْتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ: «يَا فَتَى! لَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ، أَنَا هَا هُنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ» [أبو داود (٤٩٩٦)].

٢٤٤ - وَعَنْ أَنَسٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَيْ بِهَدِيَّةٍ قَالَ: «اذْهَبُوا بِهَا إِلَى بَيْتِ فُلَانَةٍ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةً لَخَدِيجَةَ، إِنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ خَدِيجَةَ».

٢٤٥ - وعن عائشة قالت: ما غَزَتْ على امرأة ما غَزَتْ على خديجة، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيَهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا [البخاري (٦٠٠٤)، مسلم (٧٥/٢٤٣٥)].

٢٤٦ - واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها [البخاري (٣٨٢١)، مسلم (٢٤٣٧)].

٢٤٧ - ودخلت عليه امرأة، فهش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان». ووصفه بعضهم، فقال: كَانَ يَصِلُ ذَوِي رَحْمَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْثِرَهُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ.

٢٤٨ - وقال ﷺ: «إِنْ آَلَ أَبِي فَلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ غَيْرَ أَنَّ لَهُمْ رَحِمًا سَأَلْتُهَا بِئَلَاءِهَا» [البخاري (٥٩٩٠)، مسلم (٢١٥)].

٢٤٩ - وقد صَلَّى - عليه السلام - بأمامة ابنة ابنته زينب - رضي الله عنها - يَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا [البخاري (٥١٦)، مسلم (٥٤٣)].

٢٥٠ - وعن أبي قتادة قال: وَقَدْ وَفَدَ لِلنَّجَاشِيِّ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْدُمُهُمْ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: نَكْفِيكَ. فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَكْفِيَهُمْ».

٢٥١ - ولما جِيءَ بِأَخْتِهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ: الشَّيْمَاءِ، فِي سَبَايَا هَوَازِنَ، وَتَعَرَّفَتْ لَهُ، بَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، وَقَالَ لَهَا: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَقْبَتِ عِنْدِي مُكْرَمَةً مُحَبَّةً، أَوْ مَتَّعْتُكَ وَرَجَعْتُ إِلَى قَوْمِكَ؟» فَاخْتَارَتْ قَوْمَهَا فَمَتَّعَهَا.

٢٥٢ - وقال أبو الطفَّيل: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ - وَأَنَا غُلَامٌ - إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَتْ مِنْهُ، فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ [أبو داود (٥١٤٤)].

٢٥٣ - وعن عُمر بن السائب، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَالِسًا يَوْمًا، فَأَقْبَلَ أَبُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَوَضَعَ لَهُ بَغْضَ ثَوْبِهِ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ فَوَضَعَ لَهَا شِيقَ ثَوْبِهِ مِنْ جَانِبِهِ الْآخِرِ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَخُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ [أبو داود (٥١٤٥)].

٢٥٤ - وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَى ثَوْبِيَّةَ - مَوْلَاةِ أَبِي لَهَبٍ - مُرْضِعَتِهِ بِصِلَةٍ وَكِسْفَةٍ، فَلَمَّا مَاتَتْ سَأَلَ: «مَنْ بَقِيَ مِنْ قَرَابَتِهَا؟» فَقِيلَ: لَا أَحَدٌ.

٢٥٥ - وَفِي حَدِيثٍ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ ﷺ: أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ

لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ [الحاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

فصل

فِي تَوَاضُعِهِ ﷺ

وَأَمَّا تَوَاضُعُهُ ﷺ، عَلَى عُلُوِّ مَنْصِبِهِ وَرَفْعَةِ رُتْبَتِهِ فَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعاً، وَأَقْلَهُمْ كِبَرًا.

٢٥٦ - وَحَسْبُكَ أَنَّهُ خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا [أحمد (٢٣١/٢)]، فَقَالَ لَهُ إِسْرَافِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ بِمَا تَوَاضَعْتَ لَهُ أَنَّكَ سَيِّدٌ وَلَدَ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ.

٢٥٧ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ الْعَوَّادِ الْفَقِيه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ بِقَرْطَبَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثُمَيْرٍ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ، عَنْ أَبِي الْعَدْنَسِ، عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَوَكِّنًا عَلَى عَصَا؛ فَقَمْنَا لَهُ. فَقَالَ: «لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعْظَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا» [مسلم (٤١٣)، أبو داود (٥٢٣٠)، ابن ماجة (٣٨٣٦)].

٢٥٨ - وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ». وَكَانَ يَرْكَبُ الْجِمَارَ، وَيُرْدِفُ خَلْقَهُ، وَيَعُوذُ الْمَسَاكِينَ، وَيُحَالِسُ الْفُقَرَاءَ، وَيُحِبُّ ذُعُوةَ الْعَبْدِ، وَيَجْلِسُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مُخْتَطِطًا بِهِمْ. حِينَمَا انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ جَلَسَ.

٢٥٩ - وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ عَنْهُ: «لَا تُفْزُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارِيُّ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [الحاري (٣٤٤٥)].

٢٦٠ - وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ جَاءَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: «اجْلِسِي، يَا أُمُّ فُلَانٍ! فِي أَيِّ طَرَفِ الْمَدِينَةِ شَبَّتَ أَجْلِسُ إِلَيْكَ حَتَّى أَقْضِيَ حَاجَتَكَ».

قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا حَتَّى فَرَعَتْ مِنْ حَاجَتِهَا [مسلم (٢٣٢٦)].

٢٦١ - قال أنس: كان رسول الله يركب الحمار، ويُجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قُرَيْظَةَ على حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلِ مِنْ لَيْفٍ، عَلَيْهِ إِكَافٌ [الترمذي (١٠١٧)، ابن ماجه (٤١٧٨)].

٢٦٢ - قال: وكان يُدْعَى إِلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ، وَالْإِهَالَةِ السَّنَخَةِ فَيُجِيبُ [البخاري (٢٠٦٩)].

٢٦٣ - قال: وَحَجَّ ﷺ عَلَى رَحْلِ رَثٍّ، وَعَلَيْهِ قُطَيْفَةٌ مَا تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دِرَاهِمٍ؛ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْهُ حَجًّا لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةً» [ابن ماجه (٢٨٩٠)].

٢٦٤ - هذا، وَقَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ، وَأَهْدَى فِي حَجِّهِ ذَلِكَ مِئَةً بَدَنَةً [مسلم (١٢١٨)].

٢٦٥ - وَلَمَّا فُتِحَتْ عَلَيْهِ مَكَّةُ، وَدَخَلَهَا بِجِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ، طَأْطَأَ عَلَى رَحْلِهِ رَأْسَهُ حَتَّى كَادَ يَمَسُّ قَادِمَتَهُ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى.

٢٦٦ - وَمِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ قَوْلُهُ: «لَا تُفْضِلُونِي عَلَى يُوْنُسَ بْنِ مَتَّى».

٢٦٧ - وَ «لَا تُفْضِلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» [البخاري (٣٤١٤)، مسلم (١٥٩/٢٣٧٣)].

٢٦٨ - وَ «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى» [البخاري (٢٤١١)، مسلم (١٦٠/٢٣٧٣)].

٢٦٩ - وَ «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْ لَبِثْتُ مَا لَبِثَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ» [البخاري (٣٣٧٢)، مسلم (١٥١)].

٢٧٠ - وَقَالَ - لِلَّذِي قَالَ لَهُ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ -: «ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ» [مسلم (٢٣٦٩)].

وسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ، وَالْحَسَنِ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمْ فِي

صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْضُهُمْ يَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ: كَانَ فِي بَيْتِهِ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِهِ: يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ، وَيَعْلِفُ نَاضِجَهُ، وَيَقْمُ الْبَيْتَ، وَيَحْقِلُ الْبَعِيرَ، وَيَأْكُلُ مَعَ الْخَادِمِ، وَيَغْجِنُ مَعَهَا، وَيَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ [البخاري (٦٧٦)].

٢٧٤ - وَعَنْ أَنَسٍ: إِنْ كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنْطَلِقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهَا [البخاري (٦٠٧٢)، أحمد (٩٨/٣)].

٢٧٥ - وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَأَصَابَتْهُ مِنْ هَيْبَتِهِ رَغْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ: «هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قَرِيشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

٢٧٦ - وعن أبي هريرة: دخلت السوق مع النبي ﷺ، فاشتري سراويل وقال للوزان: «زُنْ وَأَرْجِحْ» وذكر القصة، قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يُقبلها، فجذب يده، وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها؛ ولست بملك، إنما أنا رجل منكم». ثم أخذ السراويل، فذهبت لأخيمه، فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

فصل

في غزله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته

وأما غزله ﷺ وأمانته وعفته، وصدق لهجته - فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك مُحاذوهُ وعداؤه.

وكان يُسمَّى قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: كان يُسمَّى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١] أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ.

٢٧٧ - ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكُموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي ﷺ داخل، وذلك قبل نبوته؛ فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين قد رَضِينَا بِهِ [أحمد (٤٢٥/٣)].

٢٧٨ - وعن الربيع بن خثيم: كان يُتَحَاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام.

٢٧٩ - وقال ﷺ: «والله! إني لأمين في السماء أمين في الأرض».

٢٨٠ - حدثنا أبو علي الصَّدْفِي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، حدثنا أبو يَغْلَى بن زَوْج الحرَّة، حدثنا أبو علي السَّنْجِي، حدثنا محمد بن محبوب المزوَّزِي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن مفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نُكذِّبُكَ، ولكن نُكذِّبُ بما جِئْتَ به، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَابِعُونَ اللَّهَ بِجَحْدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وزَوَى غيره: لا نُكذِّبُكَ وما أَنتَ فِينَا بِمُكذِّبٍ.

٢٨١ - وقيل: إِنَّ الْأَخْنَسَ بنَ شَرِيْقٍ لَقِيَ أبا جهل يوم بَدْرٍ، فقال له: يا أبا

الحَكَم! ليس هنا غيري وَغَيْرَكَ يَسْمَعُ كلامنا، تخبرني عن محمد؛ صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله! إِنَّ محمداً لصادق، وما كَذَبَ محمدٌ قَطُّ.

٢٨٢ - وسأل هِرَقْلُ عنه أبا سفيان، فقال: هل كنتم تَتَّهِمُونَهُ بالكذب قبل أَنْ يقولَ ما قال؟ قال: لا [البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣)].

٢٨٣ - وقال التَّضَرُّ بْنُ الْحَارِثِ لَقُرَيْشٍ: قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثًا، أَرْضَاكُمْ فيكم، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً حتَّى إذا رأيْتُمْ في صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ، وجاءكم بما جاءكم به قاتم: ساجر. لا، والله! ما هو بساجر.

٢٨٤ - وفي الحديث عنه: ما لَمَسَتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ لا يملك رِقْها [البخاري (٧٢١٤)، مسلم (١٨٦٦)].

٢٨٥ - وفي حديث عليّ، في وصفه ﷺ: أَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً.

٢٨٦ - وقال في الصحيح: «وَنَحَكَ! فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ!».

٢٨٧ - قالت عائشة: ما خَيْرَ رَسولٍ اللهُ ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرَهُما ما لم يكن إثمًا، فَإِنْ كانَ آثِمًا كانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

قال أبو العباس المبرد: قَسَمَ كِسْرَى أَيْامَهُ؛ فقال: يَصْلُحُ يَوْمَ الرِّيحِ لِلنُّومِ، وَيَوْمَ الْغَيْمِ لِلصِّيدِ، وَيَوْمَ الْمَطَرِ لِلشُّرْبِ وَاللَّهْوِ، وَيَوْمَ الشَّمْسِ لِلْحَوَائِجِ.

قال ابنُ خَالَوَيْهِ: ما كان أعرفهم بسياسة دُنْيَاهُمْ! «يَطْلُمُونَ ظَهِيرًا مِنَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ مُرَغِفُونَ ﴿٧﴾» [الروم: ٧].

٢٨٨ - ولكن نبينا ﷺ جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «أَبْلِغُوا حَاجَةً مِنْ لا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاجِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ أْبْلَغَ حَاجَةً مِنْ لا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاجُهَا آمَنَهُ اللهُ يَوْمَ الْفِرَاقِ الْأَكْبَرِ».

٢٨٩ - وعن الحسن: كان رسولُ اللهِ ﷺ لا يأخذُ أحداً بِقَرْفٍ أحد، ولا يُصَدِّقُ أحداً على أحد.

٢٩٠ - وذكر أبو جعفر الطبري عن عليّ، عنه ﷺ: «ما هَمَمْتُ بشيءٍ مما كان أَهْلُ الجاهلية يعملون به غيرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يحولُ اللهُ بيني وبين ما أريدُ من ذلك، ثم ما هَمَمْتُ بسوءٍ حتَّى أكرمني اللهُ برسالته؛ قلت لبلّةٍ لِفَلامٍ كان يَزْعُمُ معي: لو أبصرت لي غَنَمِي حتَّى أدخُلَ مكةَ فَأَسْمُرَ بها كما يَسْمُرُ الشَّبَابُ. فخرجتُ كذلك حتَّى جئتُ أوَّلَ دارٍ من مكةَ سمعتُ عَزَافًا بِالذُّفُوفِ والمَرَامِيرِ

لفرس بعضهم. فجلست أنظر، فضرب على أذني فنبئت، فما أبقطني إلا مس الشمس، فرجعت ولم أقصر شيئاً. ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أقم بعد ذلك بسوء.

فصل

في وقاره ﷺ وصفته وتؤدته ومزوءته وخسن هذيه

٢٩١ - وأما وقاره ﷺ وصفته وتؤدته ومزوءته وخسن هذيه فحدثنا؛ أبو علي الجبائي الحافظ إجازة، وعارضت بكتابه؛ قال حدثنا أبو العباس الدلائي، أخبرنا أبو ذر الهروي، أخبرنا أبو عبد الله الوراق، حدثنا اللؤلؤي، حدثنا أبو داود، حدثنا عبد الرحمن بن سلام، حدثنا حجاج بن محمد، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عمر بن عبد العزيز بن وهيب، سمعت خارجة بن زيد يقول: كان النبي ﷺ أوفر الناس في مجلسه، لا يكاذ يخرج شيئاً من أطرافه.

٢٩٢ - ورؤى أبو سعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس اختبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه ﷺ مُحْتَبِياً [أبو داود (٤٨٤٦)].

٢٩٣ - وعن جابر بن مسفرة أنه ترفع [أبو داود (٤٨٥٠)].

٢٩٤ - وربما جلس القرفصاء، وهو في حديث قبله.

٢٩٥ - وكان كثير السكوت لا ينكلم في غير حاجة، يُغرض عن نكلم بغير جميل، وكان ضحكته تسماء، وكلامه فضلاً، لا فضول ولا تفصير، وكان ضحك أصحابه عنده التسم، توفيراً له، واقتداء به. مخلصه مجلس حلم وحياء، وخبر وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تؤتى فيه الخرم، إذا نكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير.

٢٩٦ - وفي صفته: يخطو تكفواً، ويمشي هوناً، كأنما يتخط من صيب.

٢٩٧ - وفي الحديث الآخر: إذا مشى مشى مجتمعاً، يغرف في مشيته أنه غير غرض ولا وكل. أي: غير ضجر ولا كسلان.

٢٩٨ - وقال عبد الله بن مسعود: إن أحسن الهذبي هذبي محمد ﷺ [البخاري

-(٦٠٩٨)]

٢٩٩ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان في كلام رسول الله ﷺ تَرْبِيلٌ أو تَرْبِيل [أبو داود (٤٨٣٨)].

٣٠٠ - قال ابن أبي هالة: كان سكوته على أربع: على الجِلْمِ، والحَذَرِ، والتقدير، والتفكير.

٣٠١ - قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ أخصاء [البخاري (٣٥٦٧)، مسلم (٧١/٢٤٩٣)].

وكان ﷺ يُحِبُّ الطَّيِّبَ والرائحةَ الحسنة، ويستعملهما كثيراً، ويحضُّ عليهما.

٣٠٢ - ويقول: «حُبِّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النساءُ والطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

٣٠٣ - ومن مروياته - ﷺ -: تَهَيَّءْ عَنِ التَّفْنِخِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ [أبو داود (٣٧٢٨)، الترمذي (١٨٨٨)، ابن ماجه (٣٤٢٨)].

٣٠٤ - وَالْأَمْرُ بِالْأَكْلِ مِمَّا يَلِي [البخاري (٥٣٧٦)، مسلم (٢٠٢٢)].

٣٠٥ - وَالْأَمْرُ بِالسَّوَاكِ.

٣٠٦ - وَإِنْقَاءُ الْبَرَاجِمِ وَالزَّوْاجِبِ، وَاسْتِعْمَالُ خِصَالِ الْفِطْرَةِ [مسلم (٢٦١)].

فصل

فِي زُهْدِهِ ﷺ فِي الدُّنْيَا

٣٠٧ - وَأَمَّا زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَخْبَارِ أَثْنَاءَ هَذِهِ السَّيْرَةِ مَا يَكْفِي. وَحَسْبُكَ مِنْ تَقْلِيلِهِ مِنْهَا، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ زَهْرَتَيْهَا؛ وَقَدْ سَيِّقْتُ إِلَيْهِ بِحَدَافِيرِهَا، وَتَرَادَفْتُ عَلَيْهِ فَتَوَحُّهَا إِلَى أَنْ تُوفِّي ﷺ وَدِزْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ [البخاري (٢٩١٦)، مسلم (١٦٠٣)].

٣٠٨ - وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا» [البخاري (٦٤٦٠)، مسلم (١٠٥٥)].

٣٠٩ - حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَالْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِي، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِي، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِي، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ: مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسَدِ، عَنْ عَائِشَةَ؛ قَالَتْ: مَا شَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَتَبَاعَا مِنْ خَيْرِ بَرٍّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ [مسلم (٢١/٢٩٧٠)].

٣١٠ - وفي رواية أخرى: من خبز شعير يومين متواليين، ولو شاء لأعطاه الله ما لا يحظر بهال [مسلم (٢٢/٢٩٧٠)].

٣١١ - وفي رواية أخرى: ما شبع آل رسول الله ﷺ من خبز بُر حتى لقي الله تعالى [الحارثي (٦٤٥٤)، مسلم (٢٠/٢٩٧٠)].

٣١٢ - وقالت عائشة: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة، ولا بعيراً [مسلم (١٦٣٥)].

٣١٣ - وفي حديث عمرو بن الحارث: ما ترك إلا سلاحه، ومغلقته، وأرضاً جعلها صدقة [الحارثي (٣٠٩٨)].

٣١٤ - قالت عائشة: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في زف لي [الحارثي (٣٠٩٧)، مسلم (٢٩٧٣)].

٣١٥ - وقال لي: «إني عرض علي أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً. فقلت: لا، يا رب! أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأنضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأخمدك وأتني عليك» [الترمذي (٢٣٤٧)، أحمد (٢٥٤/٥)].

٣١٦ - وفي حديث آخر: إن جبريل - عليه السلام - نزل عليه، فقال له: إن الله تعالى يفرئك السلام، ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً، وتكون معك حينما كنت؟ فأطرق ساعة، ثم قال: «يا جبريل! إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له» فقال له جبريل: تبتك الله يا محمداً بالقول الثابت.

٣١٧ - وعن عائشة قالت: إن كنا آل محمد لتنكث شهراً ما نستوفد ناراً؛ إن هو إلا التمر والماء [الحارثي (٦٤٥٨)، مسلم (٢٩٧٢)].

٣١٨ - وعن عبدالرحمن بن عوف: هلك رسول الله ﷺ، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير.

٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ - وعن عائشة، وأبي أمامة، وابن عباس نحوه [الترمذي (٢٣٥٩)، أحمد (٢٥٣/٥)].

٣٢٢ - قال ابن عباس: كان ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طواوياً لا يجدون عشاء.

٣٢٣ - وعن أنس: ما أكل رسول الله ﷺ على جوان ولا في سكرجة، ولا خبز له مرقق، ولا رأى شاة سمبسطاً قط.

٣٢٤ - وعن عائشة بنت أبي بكر: إنما كان فرّاش رسول الله ﷺ - الذي ينأى عليه آدمًا حشوه ليف [البخاري (٦٤٥٦)، مسلم (٢٠٨٢)].

٣٢٥ - وعن حفصة قالت: كان فرّاش رسول الله ﷺ في بيتي مسحاً ثنتين ثنتين، فينام عليه، فتثنيته ليلة بأربع، فلما أصبح قال: «ما فرشتُمولي الليلة؟» فذكرنا ذلك له، فقال: «رُدُّوه بحاله، فإن وطأته متعتني الليلة صلاتي».

٣٢٦ - وكان ﷺ ينام أحياناً على سرير مرْمُولٍ بشرِيط حتى يؤثّر في جنبه [البخاري (٥١٩١)].

٣٢٧ - وعن عائشة قالت: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، ولم يَبْتَ شكوى إلى أحدٍ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظَلُّ جائعاً يَلْتَوِي طولَ ليلته من الجوع فلا يَمْنَعُه صيامُ يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورَعَدَ عيشها، ولقد كنت أبكي رحمةً له مما أَرَى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نَفْسِي لك الْفِدَاءُ؛ لو تَبَلَّغْتَ من الدنيا بما يَقُوْثُكَ؟ فيقول: «يا عائشة! ما لي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرُّسُل صَبَرُوا على ما هو أشدُّ من هذا، فمَضُوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأَكْرَمَ مآبَهُمْ، وأَجَزَلَ ثَوَابَهُمْ، فأَجِدُنِي أَسْتَحْيِي إِنْ تَرَفَّهْتُ في معيشتي أَنْ يُقْصَرَ بي غداً دونَهُمْ، وما مِنْ شيءٍ هو أَحَبُّ إِلَيَّ من اللُّحُوقِ بإخواني وإخْلَافِي».

قالت: فما أقام بغدٍ إلا شهراً حتى تُوَفِّي ﷺ.

فصل

فِي خَوْفِهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ لَهُ، وَشِدَّةِ عِبَادَتِهِ

٣٢٨ - وأما خَوْفُهُ رَبَّهُ، وطاعته له؛ وشِدَّةُ عبادته، فعلى قَدْرِ عِلْمِهِ بِرَبِّهِ، ولذلك قال فيما حدثناه أبو محمد بن عثاب قراءةً مني عليه. قال: حدثنا أبو القاسم الطَّرَابُلْسِيُّ، حدثنا أبو الحسن القَابِسِيُّ، حدثنا أبو زيد المَرْوَزِيُّ، حدثنا أبو عَبْدِ اللَّهِ الْفَرَنْجِيُّ، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بُكَيْرٍ، عن الليث، عن عُقَيْلٍ، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب، أَنَّ أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً» [البخاري (٦٤٨٥)].

٣٢٩ - زاد في روايتنا، عن - أبي عيسى الترمذي - رَفَعَهُ إِلَى أَبِي ذَرٍّ: «إِنِّي

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَاسْمَعْ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَلَّ السَّمَاءُ وَخَقَّ لَهَا أَنْ تَنطَلِقَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ، وَاللَّهُ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرَشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّغَدَاتِ تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُغْضَدُ [الترمذي (٢٣١٢)، ابن ماجه (٤١٩٠)، أحمد (١٧٣/٥)].

رَوَى هَذَا الْكَلَامُ: «وَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُغْضَدُ» مِنْ قَوْلِ أَبِي ذَرٍّ نَفْسِهِ وَهُوَ أَصَحُّ.

٣٣٠ - وَفِي حَدِيثِ الْمَعْبَرَةِ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَحَتْ قَدَمَاهُ [مسلم (٢٨١٩)].

٣٣١ - وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ يُصَلِّي حَتَّى تَرَمَّ قَدَمَاهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكُلِفُ هَذَا وَفَدَّ غُفَرَ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأْخُرُ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» [البخاري (٤٨٣٧)، (٦٣٧١)، مسلم (٢٨١٩)، (٢٨٢٠/٨٠)].

٣٣٢، ٣٣٣ - وَلَحَوْهُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [الترمذي (٢٦٠)، ابن ماجه (١٤٢٠)].

٣٣٤ - وَفَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دِينَماً، وَأَيُّكُمْ يُطَبِّقُ مَا كَانَ يُطَبِّقُ؟ [البخاري (١٩٨٧)، مسلم (٧٨٣)].

٣٣٥ - وَفَالَتْ: كَانَ بِضُومٍ حَتَّى يَقُولَ: لَا يُفْطِرُ. وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولَ: لَا بِضُومٍ [مسلم (١٧٥/١٥٦)].

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨ - وَنَحْوُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَأَبِي [البخاري (١٩٧١)، مسلم (١٧٩/١١٥٧)، الترمذي (٧٣٦)، أَبُو دَاوُدَ (٢٣٣٦)، التَّيْسَانِيُّ (٢٠٠/٤)].

٣٣٩ - وَقَالَ: كُنْتُ لَا نِشَاءَ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّياً إِلَّا رَأَيْتَهُ مُصَلِّياً، وَلَا نَائِماً إِلَّا رَأَيْتَهُ نَائِماً [البخاري (١٩٧٢)].

٣٤٠ - وَقَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً فَاسْتَنَكَ ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَفُتِنْتُ مَعَهُ، فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ الْبِقَرَةَ، فَلَا يَمُرُّ بِأَيَّةٍ رَحِمَهُ إِلَّا وَقَفَ فَسَالَ، وَلَا يَمُرُّ بِأَيَّةٍ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّدَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَكُنْتُ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعِظَمَةِ» ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ ثُمَّ فَرَأَى آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةَ سُورَةٍ، بِفَعْلٍ مِثْلَ ذَلِكَ [أَبُو دَاوُدَ (٨٧٣)، التَّيْسَانِيُّ (١٩١/٢)].

٣٤١ - وَعَنْ خَدِيجَةَ مِثْلَهُ، وَقَالَ: سَجَدَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ

السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنْهُ، وَقَالَ: حَتَّى قَرَأَ الْبَقْرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءَ، وَالْمَائِدَةَ [أَبُو دَاوُدَ (٨٧٤)].

٣٤٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً [التِّرْمِذِيُّ (٤٤٨)].

٣٤٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي، وَلَجُوفُهُ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمِرْجَلِ [أَبُو دَاوُدَ (٩٠٤)، النَّسَائِيُّ (١٣/٣)].

٣٤٤ - وَقَالَ ابْنُ أَبِي هَالَةَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ.

٣٤٥ - وَقَالَ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِثْلَ مَرَّةٍ» [مُسْلِمَ (٢٧٠٢)].

٣٤٦ - وَرَوَى: «سَبْعِينَ مَرَّةً».

٣٤٧ - وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سُنَّتِهِ، فَقَالَ: «الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي، وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي، وَالْحُبُّ أَسَاسِي، وَالشُّوقُ مَرْكَبِي، وَذِكْرُ اللَّهِ أُنَيْسِي، وَالثِّقَةُ كَنْزِي، وَالْحُزْنُ رَفِيقِي، وَالْعِلْمُ سِلَاحِي، وَالصَّبْرُ رِدَائِي، وَالرِّضَا غَنِيمَتِي، وَالْفَقْرُ فَخْرِي، وَالزُّهْدُ جِرْفَتِي، وَالْيَقِينُ قُوَّتِي، وَالصَّدْقُ شَفِيعِي، وَالطَّاعَةُ حَسْبِي، وَالْجِهَادُ خُلُقِي، وَقُرْةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

٣٤٨ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَثَمَرَةُ فَوَادِي فِي ذِكْرِهِ، وَغَمِّي لِأَجْلِ أَمْنِي، وَشَوْقِي إِلَى رَبِّي».

فصل

فِي صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ كَمَالِ الْخُلُقِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَشَرَفِ النَّسَبِ

قال المؤلف رحمه الله:

اعلم، وفقنا الله وإيانا! أَنَّ صِفَاتِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مِنْ كَمَالِ الْخُلُقِ، وَحُسْنِ الصُّورَةِ، وَشَرَفِ النَّسَبِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَجَمِيعِ الْمَحَاسِنِ، هِيَ هَذِهِ الصِّفَةُ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْكَمَالِ، وَالْكَمَالُ وَالتَّمَامُ الْبَشَرِيُّ وَالْفَضْلُ الْجَمِيعُ لَهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ رُتِبَتْهُمْ أَشْرَفُ الرُّتَبِ، وَدَرَجَاتُهُمْ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَلَكِنْ فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

٢٤٩ - وقد قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى ضُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ». قال آخِرُ الْحَدِيثِ: «عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى ضُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ﷺ، طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» [البخاري (٢٣٢٧)، مسلم (١٥/٢٨٣٤)].

٢٥٠ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: «رَأَيْتُ مُوسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبُ رَجُلٍ، أَقْنَى، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ. وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ زَنْعَةٌ، كَثِيرُ خَبْلَانِ الْوَجْهِ، أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِينَعَاسٍ» [البخاري (٣٣٩٤)، مسلم (١٦٨)].

٢٥١ - وفي حديث آخَرٍ: «مُبْطُنٌ مِثْلُ السِّيفِ» [أحمد (٣٧٤/١)].

٢٥٢ - قال: «وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدَ إِبْرَاهِيمَ بِهِ».

٢٥٣ - وقال في حديث آخَرٍ فِي صِفَةِ مُوسَى: «كَأَحْسَنِ مَا أَتَتْ رَأْيَ مَنْ أَدَمَ الرُّجَالَ» [البخاري (٥٩٠٢)، مسلم (١٦٩)].

٢٥٤ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَغْدٍ لَوْطَ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٥٣٣/٢)].

٢٥٥ - وروى: «فِي ذُرْوَةٍ» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٣٣٢/٢)] أَي: كَثْرَةُ وَمُنْعَةٍ.

٢٥٦، ٢٥٧ - وحكى الترمذي، عَنْ قَتَادَةَ. وَرَوَاهُ الدَّارِقُطَنِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَلَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الصَّوْتِ، وَكَانَ سَيِّئًا ﷺ أَحْسَنَهُمْ وَخَهَا، وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتًا.

٢٥٨ - وفي حديث هِرَظْلٍ: وَسَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرِّسْلُ تَبَعَتْ فِي أَنْسَابِ قَوْمِهَا.

وقال تعالى - فِي أَنْبَاءٍ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُلَيِّقًا يُقِمُّ الْعَبْدَ لَهُ أَثَرًا﴾ [ص: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَبْنِي بَنِيَّ لِيُكَلِّمَهُ الْبَقَرُ وَمَا كَلَّمَ الْخَلْقَ صَبِيًّا ﴿١٦﴾ وَحَسَنًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٧﴾ وَسِرًّا يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ بِكُنٍّ جَارًا عَصِيًّا ﴿١٨﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٢-١٥].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِخَيْرٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُونًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمَكَلِّحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْلَقُ نَادِمٍ وَثَوْبًا وَمَالَ إِسْرَافِيَةٍ وَمَالَ عِزْرَةَ عَلَى الْفَالِغِينَ ﴿٣٢﴾ ذُرِّيَّةً نَعَصَهَا مِنْ نَعَصِثٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقال - فِي تَوْحِيدٍ: ﴿إِنَّهُ كَأَن كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ السَّيِّئُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ

الْمُتَّقِينَ ﴿٥٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٦﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مریم: ٣٠، ٣١].

وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

٣٥٩ - وقال النبي ﷺ: «كَانَ مُوسَى رَجُلًا حَيًّا، سَتِيرًا، مَا يَرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَا» الحديث. [البخاري (٣٤٠٤)، مسلم (١٥٦/٣٣٩)].

وقال تعالى - عنه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال في وَضْعِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧].

وقال: ﴿إِنِّي خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَعَارَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينَ﴾ [القصاص: ٢٦].

وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ

عَنهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ

فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتُهُمْ أَقْصَدُ

[الأنعام: ٨٤ - ٩٠].

فوصفهم بأوصاف جَمَّةٍ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْهُدَى وَالاجْتِبَاءِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ.

وقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعُلَمٍ﴾ [الصفات: ١٠١] عليم، وحليم.

وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَن أَذْوَا إِلَيَّ

عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

وقال - في إسماعيل: ﴿إِنَّكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ بِأَمْرٍ

أَهْلُهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مریم: ٥٤، ٥٥].

وقال - في موسى: ﴿إِنَّكَ كَانَ مُخْلِصًا﴾ [مریم: ٥١].

وفي سليمان: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْرَأُونَ أُولَىٰ الْآيِنِ وَالْأَنْصَرِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ ۚ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَلَهُمْ عِندَنَا لَبَنٌ أَلْمَطْلَقِ الْأَخْبَارِ ۖ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿ص: ٤٥ - ٤٧﴾.
وفي داود: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿ص: ١٧﴾.

ثم قال: ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُوتَهُ وَمَا بَقِيَ الْحِكْمَةُ وَقَصَلْ لِلطَّابِ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿ص: ٢٠﴾.
وقال - عن يوسف: ﴿أَعْطَيْتَنِي عَلَىٰ خَرَائِبِ الْأَرْضِ إِنِّي حَبِيْطٌ عَلَيْهِ﴾ ﴿يوسف: ٥٥﴾.
وفي موسى: ﴿سَنَجِدُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ ﴿الكهف: ٦٩﴾.
وقال تعالى - عن شعب عليه السلام: ﴿سَنَجِدُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿القصر: ٢٧﴾.

وقال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلَاقِيَكُمْ إِنِّي مَا أَتَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا أَتَيْتُكُمْ﴾ ﴿هود: ٨٨﴾.

وقال: ﴿وَلَوْ طَا مَا بَقِيَ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ﴿الأنبياء: ٧٤﴾.
وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَبْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَبًّا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعُونَ﴾ ﴿الأنبياء: ٩٠﴾.
قال سفيان: هو الخزن الدائم.

في أي كثيرة، ذكر فيها من خصالهم ومخاسن أخلافهم الدالة على كمالهم.
٣٦٠ - وجاء من ذلك في الأحاديث كثير، كقوله: «إنما الكريم ابن الكريم ابن نبي ابن نبي ابن نبي» البخاري (٣٣٩٠)، الترمذي (٣١١٦).

٣٦١ - وفي حديث أنس: «وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم» البخاري (٣٥٧٠)، مسلم (٢٦٢/١٦٢).

٣٦٢ - وزوي أن سليمان كان - مع ما أعطي من الملك - لا يرفع بصره إلى السماء تخشعاً وتواضعاً لله تعالى.

٣٦٣ - وكان يطعم الناس لداث الأطعمة ويأكل خبز الشعير.
وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين! وأنت مخجأة الزاهدين.
وكانت العجوز تغترضه - وهو على الربيع في حنوده - فيأمر الريح فتنفث فينظر في حاجتها وينضي.

وقبل ليوسف: ما لك تجوع وأنت على خرائب الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأئسى الجائع.

٣٦٤ - وروى أبو هريرة عنه ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر

بدوايته، فُتْسِرَج، فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرَج، ولا يأكل إلا من عمل يده» [البخاري (٣٤١٧)].

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاسُ لَهُ الْعَدِيدُ ۝١٧﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَعِيْدَتِي وَقَدَّرَ فِي السَّرِيَّةِ ﴿سبأ: ١٠، ١١﴾.

وكان سأل رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ عَمَلًا يَدِهِ يُغْنِيهِ عَنِ نَيْبِ الْمَالِ.

٣٦٤ - وقال ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا» [البخاري (١١٣١)، مسلم (١١٨٩/١١٥٩)].

٣٦٥ - وكان يَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَفْتَرِشُ الشَّعْرَ، وَيَأْكُلُ خُبْزَ الشَّعِيرِ بِالْمِلْحِ وَالرَّمَادِ، وَيَمْزُجُ شَرَابَهُ بِالدَّمْعِ، وَلَمْ يَرْضَاحَكَ بَعْدَ الْخَطِيئَةِ.

٣٦٥ م - وَلَا شَاخِصًا يَبْصُرُهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَزَلْ بَاكِيًا حَيَاتَهُ كُلَّهَا.

٣٦٦ - وَقِيلَ: بَكَى حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دَمْعِهِ، وَحَتَّى اتَّخَذَتِ الدَّمْعُ فِي خَدِّهِ أَخْدُودًا.

وَقِيلَ: كَانَ يَخْرُجُ مَتَنَكِّرًا يَتَعَرَّفُ سِيرَتَهُ، فَيَسْتَمِعُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، فَيَزِدُّهُ تَوَاضُعًا.

٣٦٧ - وَقِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ اتَّخَذْتَ حِمَارًا؟ قَالَ: أَنَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَشْغَلَنِي بِحِمَارٍ.

٣٦٨ - وَكَانَ يَلْبَسُ الشَّعْرَ، وَيَأْكُلُ الشَّجَرِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتٌ، أَيْنَمَا أَدْرَكَهُ النَّوْمُ نَامَ.

٣٦٩ - وَكَانَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مُشْكِينٌ.

٣٧٠ - وَقِيلَ: إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ تُرَى خُضْرَةُ الْبَقْلِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَزَالِ.

٣٧١ - وَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ وَالْقَمَلِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْهِمْ».

وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِخُزَيْرٍ لَقِيَهُ: أَذْهَبَ بِسَلَامٍ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَعُوذَ لِسَانِي الْمُنْطَقُ بِسَوْءٍ.

٣٧٢ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ طَعَامُ يَحْيَى الْعُشْبِ.

وكَانَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى اتَّخَذَ الدَّمْعُ مَجْرَى فِي خَدِّهِ.

٣٧٣ - وَكَانَ يَأْكُلُ مَعَ الْوَحْشِ لَثْلًا يُخَالِطُ النَّاسَ.

وحكى الطبري، عن وهب، أن موسى كان يستظل بغريش، ويأكل في نقرة من خجر، ويكرع فيها إذا أراد أن يشرب كما تكرع الدابة، تواضعاً لله بما أكرمه الله به من كلامه.

وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق، وحسن الصور والشمال معروفة مشهورة؛ فلا نطول بها، ولا نلتفت إلى ما نجده في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا.

فصل

في حديث هند بن أبي هالة وعلي بن أبي طالب

في شمائله

قال المؤلف - رحمه الله - :

قد أتيناك - أكرمك الله - من ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة، وأزيناك صحتها له ﷺ، وخلصنا من الآثار ما فيه مفتح، والأمز أوسع؛ فمجال هذا الباب في حقه ﷺ مُنْتَدٍ، تَنْقَطِعُ دُونَ ثَقَايِهِ الْأَدْلَاءُ، وَيَخْرُ عِلْمُ خَصَائِصِهِ زَاخِرٌ لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ، وَلَكِنَّا أَتَيْنَا فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ، مِمَّا أَكْثَرَهُ فِي الصَّحِيحِ وَالْمَشْهُورِ مِنَ الْمَصْنُفَاتِ؛ وَاقْتَصَرْنَا فِي ذَلِكَ بِقُلٍّ مِنْ كُلِّ، وَغَبِضَ مِنْ قَيْضٍ، وَرَأَيْنَا أَنْ نَخْتِمَ هَذِهِ الْفُصُولَ بِحَدِيثِ الْحَسَنِ، عَنْ ابْنِ أَبِي هَالَةَ، لَجْمَعِهِ مِنْ شَمَائِلِهِ وَأَوْصَافِهِ كَثِيرًا، وَإِذْمَاجِهِ جُمْلَةً كَافِيَةً مِنْ سِيرِهِ وَفَضَائِلِهِ، وَنُصِلَهُ بِتَبْيِيهِ لَطِيفٍ عَلَى غَرِيبِهِ وَمُشْكَلِهِ.

٣٧٤ - حدثنا القاضي أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله -

بقراءتي عليه سنة ثمان وخمس مئة، قال: حدثنا الإمام أبو القاسم: عبد الله بن طاهر التميمي، قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر: محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابوري، والشيخ الفقيه أبو عبد الله: محمد بن أحمد بن الحسن المحمدي، والقاضي أبو علي: الحسن بن علي بن جعفر الوخشي؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم: علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي، قال: أخبرنا أبو سعيد: الهيثم بن كليب الشاشي، قال: أخبرنا أبو عيسى: محمد بن سورة الحافظ؛ قال: حدثنا سُفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ، حدثنا جُمَيْعُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعِجْلِيُّ إملاءً من كتابه؛ قال: حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة: زوج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبد الله، عن ابن أبي هالة، عن

الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال: سألت خالي هِندَ بن أبي هالة.

١/٣٧٤ - قال القاضي أبو علي - رحمه الله -: وقرأت على الشيخ أبي الطاهر: أحمد بن الحسن بن أحمد بن خُذَّاداذ الكَرَجِيّ الباقِلَاني؛ قال: وأجاز لنا الشيخ الأجلّ أبو الفضل: أحمد بن الحسين بن خَيْرُون؛ قال: أخبرنا أبو علي: الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذَّان بن حَزْب بن مِهْران الفارسي قراءة عليه، فأقرَّ به، قال: أخبرنا أبو محمد: الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: حدثني علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أخيه موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: محمد بن علي، عن علي بن الحسين، قال: قال الحسن بن علي - واللفظ لهذا السند - سألت خالي هِندَ بن أبي هالة عن جلية رسول الله ﷺ - وكان وصافاً - وأنا أزجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلّق به، قال: كان رسول الله ﷺ فَحْمًا مُفَحَّمًا، يتلأأ وجهه تَلَأُو القمر ليلة البدر، أطول من المَرْبُوع، وأقصر من المشدّب، عظيم الهامة، رَجَل الشَّعْرِ؛ إن انفردت عقيقته فَرَق، وإلا فلا يجاوزُ شعره شَحْمَة أُذُنَيْهِ، إذا هو وفَرَه، أزهَر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب، سوابغ، من غير قَرْن، بينهما عِزْق يُدِرُّه الغَضَبُ، أفتى العزنيين، له نُورٌ يَغْلُوهُ، ويَحْسِبُه مَنْ لم يتأمله أَشَمُّ، كَثَّ اللِّحْيَة، أَدْعَج، سَهْل الخدين، ضليع الفم، أَشَنَّب، مُفْلَج الأسنان، دَقِيق المَسْرُبَة، كَأَنَّ عُنُقَه جِدُّ دُمِيَة، في صفاء الفِضَة، مُعْتَدِل الخَلْق، بادِنًا، مُتَمَاسِكًا، سَوَاء البَطْن والصُّدْر، مُشِيح الصُّدْر، بَعِيد ما بين المَنكِبَيْن، ضَخَم الكَرَادِيس، أَنَوَّر المُتَجَرِّد، موصول ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بِشَعْرٍ يَخْرِي كالخَطِّ، عَارِي الثَّيْبَيْن ما سِوَى ذلك، أَشَعَرَ الذَّرَاعَيْن والمَنكِبَيْن وأَعَالِي الصدر، طَوِيل الرُّنْدَيْن، رَحْب الرَّاخَة، شَتَّى الكَفَّيْن والقَدَمَيْن، سائل الأطراف، سَبَط القَصَب، خُمَصَان الأَخْمَصَيْن، مَسِيح القدمَيْن، يَتَّبُو عنهما الماء، إذا زال زال تَقْلَعًا، ويخطو تَكْفُؤًا، ويمشي هَوْنًا، ذَرِيع المِشْيَة، إذا مشى كأنما يَتَحَطُّ من صَبَب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافِض الطَّرْف، نَظَرُه إلى الأرض أطول مِنْ نَظَرِه إلى السماء، جُلُّ نَظَرِه المَلاحِظَة، يسوقُ أصحابه، ويبدأ مَنْ لَقِيَه بالسَّلام.

قلت: صف لي منطقة.

قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فضلاً، لا فضول فيه ولا تفصير، ذمناً، لبس بالجافي ولا المهيمن، يعظم النعمة وإن دثت، لا يذم شيئاً، ولم يكن يذم ذواً، ولا يمدحه، ولا يقام لعضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها، فضرب يانهاقه اليمين راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غص طرفه، جل ضحكته التسم، ويفتر عن مثل حب العمام.

قال الحسن: فكتمتها الحسين بن علي زماناً، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ؟ فقال:

كان دخوله لنفسه، مأدواً له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله تعالى، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزءاً بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يذخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إتيار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين؛ منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاعل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة، من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم؛ ويقول: «البلغ الشاهد منكم الغائب»، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة. لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقل من أحد غيره.

وقال - في حديث سفيان بن وكيع -: يدخلون زواداً، ولا يتفرقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة، يعني: فقهاء.

قلت: فأخبرني عن مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟

قال: كان رسول الله ﷺ يخرج لسانه إلا فيما يخبرهم، ويؤلفهم ولا يفرقهم؛ يكرم كريم كل قوم، ويؤلفه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشرة وحلقه، ويتفق أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصونه، ويفتح الفبيح ويوفقه، معتدل الأمر غير

مختلف، لا يَغْفُل مخافة أن يغفلوا أو يَمْلُوا، لكل حالٍ عنده عَتَاد، لا يَقْصُرُ عن الحق، ولا يجاوزُهُ إلى غيره، الذين يَلَوْنُهُ من الناس خِيَارُهُمْ، وأفضلُهُمْ عنده أَعْمُهُمْ نصيحة؛ وأعظمُهُمْ عنده منزلة أحسنُهُمْ مواساةً وموازرةً. فسألته عن مَجْلِسِهِ: عَمَّا كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟

فقال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا يجلس ولا يَقُومُ إِلَّا على ذِكْرٍ، ولا يُوطِنُ الْأَمَاكِنَ، وَيَنْتَهِي عن إِيْطَانِهَا، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث يَنْتَهِي به المجلس، وَيَأْمُرُ بذلك، وَيُعْطِي كُلَّ جُلُوسَانِهِ نَصِيحَةً حتى لا يَخْسَبَ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ، أو قَاوَمَهُ لِحَاجَةٍ، صَابِرُهُ حتى يَكُونَ هو الْمُتَصَرِّفُ عنه. مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لم يردَّه إِلَّا بها، أو بِمَنْسُورٍ من القول. قد وَسَّعَ النَّاسُ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ؛ فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عَنْده فِي الْحَقِّ سَوَاءً مُتَقَارِبِينَ مُتَفَاضِلِينَ فِيهِ بِالتَّقْوَى.

وفي الرواية الأخرى: صَارُوا عَنْده فِي الْحَقِّ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ جَلَمٍ وَحِيَاءٍ، وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ؛ لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْنَسُ فِيهِ الْحَرَمُ، وَلَا تُنْشَى قُلَّتَاتُهُ، وهذه الكلمة، من غير الروایتين. يتعاطفون فِيهِ بِالتَّقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ، يُؤَقِّرُونَ فِيهِ الْكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيَزِيدُونَ ذَا الْحَاجَةِ، وَيَرْحَمُونَ الْغَرِيبَ. فسألته عن سيرته ﷺ فِي جُلُوسَاتِهِ؟

فقال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ يَفْظُ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٌ، وَلَا فَحَّاشٌ، وَلَا عِيَابٌ وَلَا مَدَاحٌ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤْيِسُ مِنْهُ، قد ترك نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الرِّيَاءَ، وَالْإِكْثَارَ، وَمَا لَا يَغْنِيهِ؛ وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا، وَلَا يُعَيِّرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلُوسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلَا يَتَنَازَعُونَ عَنْده الْحَدِيثَ. مَنْ تَكَلَّمَ عَنْده أَنْصَثُوا لَهُ حتى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَتَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي الْمَنْطِقِ، وَيَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُمْ صَاحِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَارْزُقُوهُ» وَلَا يَطْلُبُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حتى يَتَجَوَّزَهُ فَيَقْطَعُهُ بِانْتِهَائِهِ أو قِيَامِهِ.

هنا انتهى حديثُ سفيان بن وكيع. وزاد الآخر: قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟

قال: كان سكوته على أربع: على الجلم، والحذر، والتقدير، والتفكير، فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع من الناس، وأما تفكره ففيما يتقن ويتقن. وجميع له الجلم في الصبر، فكان لا يغضب به شيء يستفزّه، وجميع له في الحذر أربع: أخذّه بالحسن ليفتدي به، وتركه القبيح لينتهي عنه، واجتهاد الرأي بما أصلح أمته، والقيام لهم بما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة. انتهى الوصف بحمد الله وغونه تعالى.

فصل

في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله

قوله: المشدّب: أي البائن الطول في نحافة. ٣٧٥ - وهو مثل قوله في الحديث الآخر: «ليس بالطويل الممّيط». والشعر الرجل: الذي كأنه مشيط فتكسر قليلاً؛ ليس بسبط ولا جعد. والغبقة: شعر الرأس، أراد: إن انفردت من ذات نفسها فرقها، وإلا تركها مغفوفة. ويؤوى: «عقيضته». وأزهر اللون: نيره. وقيل: أزهري: حسن. ومنه زهرة الحياة الدنيا، أي زينتها.

٣٧٦ - وهذا كما قال في الحديث الآخر: ليس بالأبيض الأنهق، ولا بالآدم [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].

والأنهق: هو الناصع البياض. والآدم: الأسمر اللون.

٣٧٧ - ومثله في الحديث الآخر: أبيض مشرب. أي فيه خمرة.

والحاجب الأزعج: المقوس الطويل الوافر الشعر.

والأقنى: السائل الأنف، المرتفع وسطه.

والأشم: الطويل قسبة الأنف.

والقرن: اتصال شعر الحاجبين. وضده البلج.

٣٧٨ - ووقع في حديث أم مغيرة وصفه بالقرن.

والأدعج: الشديد سواد الحذقة.

٣٧٩ - وفي الحديث الآخر: «أشكل الغني» [مسلم (٢٣٣٩)] و«أسجّر الغني».

وهو الذي في بياضها خمرة.

والضليع: الواسع.

وَالشَّئْبُ: رَوَتْهُ الْأَسْنَانُ، وَمَاؤُهَا.

وقيل: رِقَّتْهَا وَتَحْزِيزٌ فِيهَا كَمَا يُوجَدُ فِي أَسْنَانِ الشَّبَابِ.

وَالفَّلَجُ: فَرْقٌ بَيْنَ الثَّنَايَا.

وَدَقِيقُ الْمَسْرُوبَةِ: خِيطُ الشَّعْرِ الَّذِي بَيْنَ الصَّدْرِ وَالشَّرَّةِ.

بَايْنُ: ذُو لَحْمٍ.

وَمَتَمَاسِكٌ: مَعْتَدِلُ الْخَلْقِ، يَمْسِكُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

٣٨٠ - مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ، وَلَا بِالْمُكَلَّمِ» أَيِ

لَيْسَ بِمُسْتَرْخِي اللَّحْمِ.

وَالْمُكَلَّمُ: الْقَصِيرُ الذَّقْنِ.

وَسَوَاءُ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ: أَيِ مُسْتَوِيهِمَا.

وَمُشِيحُ الصَّدْرِ: إِنَّ صَحْتَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَتَكُونُ مِنَ الْإِقْبَالِ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِي

«أَشَاح»؛ أَيِ أَنَّهُ كَانَ بَادِي الصَّدْرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي صَدْرِهِ قَعَسٌ، وَهُوَ تَطَاثُرٌ فِيهِ،

وَبِهِ يَتَضَحُّ قَوْلُهُ قَبْلَ: «سَوَاءُ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ» أَيِ لَيْسَ بِمُتَقَاعَسِ الصَّدْرِ، وَلَا

مُقَاضِي الْبَطْنِ.

وَلَعَلَّ اللَّفْظَةَ: مَسِيحٌ - بِالسَّيْنِ - وَفَتْحُ الْمِيمِ، بِمَعْنَى عَرِيضٍ، كَمَا وَقَعَ فِي

الرَّوَايَةِ الْآخَرَى. وَحِكَاةُ ابْنِ دُرَيْدٍ.

وَالكَرَادِيسُ: رُؤُوسُ الْعِظَامِ.

٣٨١ - وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتْدِ.

وَالْمُشَاشُ: رُؤُوسُ الْمَنَاقِبِ. وَالْكَتْدُ: مَجْتَمَعُ الْكَتْفَيْنِ.

وَشُشُّ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ: لَجِيْمُهُمَا.

وَالزُّنْدَانُ: عَظْمَا الذَّرَاعَيْنِ.

وَسَائِلُ الْأَطْرَافِ: أَيِ طَوِيلُ الْأَصَابِعِ.

وَذَكَرَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ أَنَّهُ رَوَى: سَائِلُ الْأَطْرَافِ؛ وَقَالَ: سَايِنٌ - بِالنُّونِ؛ قَالَ:

وَهُمَا بِمَعْنَى، تُبَدَّلُ اللَّامُ مِنَ النَّونِ، إِنَّ صَحْتَ الرَّوَايَةَ لَهَا.

وَأَمَّا الرَّوَايَةُ الْآخَرَى: «وَسَائِرُ الْأَطْرَافِ» فإِشَارَةٌ إِلَى فَخَامَةِ جَوَارِحِهِ، كَمَا

وَقَعَتْ مُفَصَّلَةً فِي الْحَدِيثِ.

وَرَخِبُ الرَّاحَةِ: أَيِ وَاسِعُهَا. وَقِيلَ: كَثَى بِهِ عَنْ سَعَةِ الْعَطَاءِ وَالْجُودِ.

وَحُمْصَانُ الْأَحْمَصَيْنِ: أَيِ مُتَجَاوِي أَحْمَصِ الْقَدَمِ؛ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي لَا

تَنَالُهُ الْأَرْضُ مِنْ وَسْطِ الْقَدَمِ.

مَسِيحِ الْقَدَمِينَ: أَي أَمْلِسْهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ: يَنْثَبُ عَنْهُمَا الْمَاءُ.

٣٨٢ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ خِلَافُ هَذَا؛ قَالَ فِيهِ: إِذَا وَطِئَ بِقَدَمِهِ وَطِئَ بِكُلِّهَا، لَيْسَ لَهُ أَخْمَصُ.

وَهَذَا يُوَافِقُ مَعْنَى قَوْلِهِ: مَسِيحِ الْقَدَمِينَ، وَبِهِ قَالُوا: سُمِّيَ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أَي إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْمَصُ.

وَقِيلَ: مَسِيحٌ: لَا لَحْمَ عَلَيْهِمَا.

وَهَذَا أَيْضاً يَخَالِفُ قَوْلَهُ: شُئْنُ الْقَدَمِينَ.

وَالْتَقَلُّعُ: هُوَ رَفْعُ الرَّجْلَيْنِ بِقُوَّةٍ.

وَالْتَكْفُؤُ: الْمِيلُ إِلَى سَنَنِ الْمَشْيِ، وَقَضْدُهُ.

وَالْهَوْنُ: الرَّفَقُ وَالْوَفَارُ.

وَالذَّرْبُ: الْوَاسِعُ الْخَطْوُ؛ أَي: إِنَّ مَشْيَهُ كَانَ يَرْفَعُ فِيهِ رَجْلَيْهِ بِسُرْعَةٍ، وَيَمْدُ

خَطْوَهُ، خِلَافَ مَشْيَةِ الْمُخْتَالِ، وَيَقْصِدُ سَمْتَهُ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ يَرْفَعُ وَيَثْبُتُ دُونَ عَجَلَةٍ، كَمَا قَالَ: «كَأَنَّمَا يَنْخَطُّ مِنْ ضَبِّ».

وَقَوْلُهُ: يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ: أَي لِسَعَةٍ فِيهِ. وَالْعَرَبُ تَتِمَادَحُ بِهِذَا وَتَذُمُّ بِصِغَرِ الْفَمِ.

وَأَشَاحَ: مَالٌ وَانْقَبَضَ.

وَحَبَّ الْغَنَامِ: الْبَزْدُ.

وَقَوْلُهُ: فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالْخَاصَّةِ عَلَى الْعَامَةِ؛ أَي جَعَلَ مِنْ جُزْءِ نَفْسِهِ مَا يُوَصَّلُ

الْخَاصَّةَ إِلَيْهِ فَتَوَصَّلَ عَنْهُ لِلْعَاقَةِ.

وَقِيلَ: يَجْعَلُ مِنْهُ لِلْخَاصَّةِ، ثُمَّ يُبَدِّلُهَا فِي جُزْءٍ آخَرَ بِالْعَامَةِ.

وَيَدْخُلُونَ رُؤُوداً: أَي مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، وَطَالِبِينَ لِمَا عِنْدَهُ.

وَلَا يَتَفَرَّقُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ: قِيلَ: عَنْ عِلْمٍ يَتَعَلَّمُونَهُ؛ وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى

ظَاهِرِهِ، أَي فِي الْغَالِبِ وَالْأَكْثَرِ.

وَالْعَنَادُ: الْعُدَّةُ، وَالشَّيْءُ الْحَاضِرُ الْمُغْدُ.

وَالْمُؤَاوَزَةُ: الْمَعَاوَنَةُ.

وَقَوْلُهُ: لَا يُؤْطِنُ الْأَمَاكِنَ: أَي لَا يَتَّخِذُ لِمُضْلَاهُ مَوْضِعاً مَعْلوماً.

٣٨٣ - وَقَدْ وَرَدَ نَهْيُهُ عَنْ هَذَا مَقْسُراً فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ [أَبُو دَاوُدَ (٨٦٢)،

السَّانِي (٢/٢١٤)، ابْنُ مَاجَهَ (١٤٢٩)، أَحْمَدُ (٥/٤٤٧)].

وَصَابِرُهُ: أَي حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ صَاحِبُهُ.

ولا تُؤَيِّن فِيهِ الْحَرَمَ: أَي لَا يُذَكَّرَنَّ فِيهِ بِسُوءٍ.
وَلَا تُنْثَى فَلَتَاتِهِ: أَي لَا يُتَحَدَّثُ بِهَا؛ أَي لَمْ تَكُن فِيهِ فَلَتَةً، وَإِنْ كَانَ مِنْ
أَحَدٍ سَيَّرَتْ.

وَيَرْفُدُونَ: يُعِينُونَ.

وَالسَّحَابُ: الْكَثِيرُ الصِّيَاحِ.

وَقَوْلُهُ: وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ. قِيلَ: مُقْتَصِدٌ فِي ثَنَائِهِ وَمَدْحِهِ.

وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُسْلِمٍ.

وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ عَلَى يَدِ سَبَقَتِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ.

وَيَسْتَفِرُّهُ: يَسْتَخْفُهُ.

٣٨٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي وَصْفِهِ: «مَنْهُوسَ الْعَقِبِ» [مُسْلِمٌ (٢٣٣٩)؛ أَي

قَلِيلٌ لَخَمِهَا.

٣٨٤م - وَأَهْدَبَ الْأَشْفَارَ: أَي طَوِيلَ شَعْرَهَا. انْتَهَى وَاللَّهُ حَسْبُنَا.



الباب الثالث

فِيمَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَمَشْهُورِهَا
بِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَمَنْزِلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ
فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لا خلاف أنه أكرمُ البشر، وسيدُ وَلَدِ آدَمَ، وأفضلُ الخلقِ عند الله وأعلامهم
ذُرْجَةً، وأقربهم زُلْفَى.
واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، وقد اقتصرنا منها على
صحيحها ومُتَشَبِّهها، وخَصَرْنَا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول

فِيمَا وَرَدَ بِذِكْرِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْإِضْطِفَاءِ، وَرَفْعَةِ الذِّكْرِ
والتَّفْضِيلِ وَسَيَادَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا
مِنْ مَرَايَا الرُّتَبِ وَبَرَكَاتِهِ اسْمِهِ الطَّيِّبِ

٣٨٥ - أخبرنا الشيخ أبو محمد: عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد العَدْلُ إِذْنًا بلفظه؛ قال:
حدثنا أبو الْحَسَنِ الْفَرْغَانِي، حدثنا أُمُّ الْقَاسِمِ بنت أبي بكر بن يعقوب، عن أبيها
قال: حدثنا حاتم، وهو: ابن عَقِيل، عن يحيى، هو: ابن إِسْمَاعِيل، عن يحيى
الْجَمَّانِي، حدثنا قيس، عن الْأَعْمَش، عن عُبَايَةَ بن رِيعِي، عن ابن عباس؛ قال:
قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْخَلْقَ قِسْمَيْنِ، فجعلني من خيرهم قِسْماً؛
لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخْضَبُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَخْضَبُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٤١].
فأنا من أصحاب اليمين؛ وأنا خيرُ أصحاب اليمين».

ثم جعل القسمين أثلاثاً؛ فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ
الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ۝۸ وَأَصْحَبُ الشَّقَةِ مَا أَصْحَبُ الشَّقَةِ ۝۹ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۝۱۰﴾
[الواقعة: ٨ - ١٠]. فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل؛
فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].
فأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر.

ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٣٨٦ - وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله! متى
وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [الترمذي (٣٦٠٩)].

٣٨٧ - وعن وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
مَنْ وَلَدَ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ. وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ
بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشَ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

٣٨٨ - ومن حديث أنس: «أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي، وَلَا فَخْرَ».

٣٨٩ - وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ،
وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣٦١٦)].

٣٩٠ - وعن عائشة، عنه عليه السلام: «أتاني جبريل، فقال: قَلْبُكَ مُشَارِقُ
الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا فَلَمْ أَرْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَمْ أَرْ بَنِي أَبِ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

٣٩١ - وعن أنس: أن النبي ﷺ أُتِيَ بِالْبَرَّاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، فَاسْتَضَعَبَ
عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: بِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ،
فَارْفُضْ عِرْقًا.

٣٩٢ - وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَهْبَطَنِي فِي صُلْبِهِ إِلَى
الْأَرْضِ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوْحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقَذَفَ بِي فِي النَّارِ فِي صُلْبِ
إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَنْقُلْنِي فِي الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى
أَخْرَجَنِي بَيْنَ أَبَوَيْ لَمْ يَلْقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطْ».

٣٩٣ - وإلى هذا أشار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه بقوله:

مِنْ قَبْلِهَا طُبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتُ الْبِلَادَ لَا بَشَرَ أُنْ تَ وَلَا مُضَعَّةً وَلَا عُلُقَ

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينِ، وَقَدْ أَلَّ
جَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْغَرْقُ
ثِقُلٌ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَجِمٍ
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيِّجُ مِنْ
خَنِيفٍ عَلَيَّاءَ تَحْتَهَا الشُّطُ
وَأَنْتَ لَمَّا وَلَدْتَ أَشْرَقْتَ الـ
أَرْضُ وَضَاءَتْ بِثُورِكَ الْأَقْ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي الثُّورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْرُقُ
فِي آيَاتٍ أُخَرَ.

٣٩٤ - وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَبُو ذَرٍّ [أحمد (١٤٨/٥)، أبو داود (٤٨٩)].

٣٩٥ - وابن عمر.

٣٩٦ - وابن عباس [أحمد (٣٠١/١)].

٣٩٧ - وأبو هريرة [مسلم (٥٢٣)].

٣٩٨ - وجابر بن عبد الله - أنه قال: «أُعْطِيتَ خَمْسًا - وفي بعضها: سِتًّا - لَمْ يَغْطِهَا نَبِيٌّ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِنَبِيِّ قَبْلِي، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتَ الشَّفَاعَةَ» [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

٣٩٩ - وفي رواية بدل هذه الكلمة: «وَقِيلَ لِي: سَلْ تُغْطَى».

٤٠٠ - وفي رواية أخرى: «وَعُرِضَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخَفْ عَلَيَّ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ».

٤٠١ - وفي رواية: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ».

وقيل: السود: العرب؛ لأنَّ الغالب على ألوانهم الأذمة؛ فهم من السود. والخمر: العجم. وقيل: البيض: السود من الأمم. وقيل: الخمر: الإنس. والسود: الجن.

٤٠٢ - وفي الحديث الآخر، عن أبي هريرة: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُوْتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيَّنَّا أَنَا نَائِمٌ إِذْ جِيءَ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي» [البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٧/٥٢٣)].

٤٠٣ - وفي رواية عنه: «وُخِّتَ بِي النَّبِيُّونَ» [مسلم (٥/٥٢٣)].

٤٠٤ - وعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ. وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْتَظِرُ إِلَى خَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» [البخاري (١٣٤٤)، مسلم (٢٢٩٦)].

٤٠٥ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمُهُ، وَعِلْمُتْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحِمْلَةُ الْعَرْشِ» [أحمد (١٧٢/٢)].

٤٠٦ - وعن ابن عمر: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ» [أحمد (٥٠/٢)].

٤٠٧ - ومن رواية ابن وَهَبٍ - أَنَّهُ ﷺ - قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: سَلِّ، يَا مُحَمَّدًا فَقُلْتُ: مَا أَسْأَلُ؟ يَا رَبِّ! اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمْتُ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَصْطَفَيْتُ نُوحًا، وَأَعْطَيْتُ سُلَيْمَانَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا أَعْطَيْتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؛ أَعْطَيْتُكَ الْكَوْثَرَ، وَجَعَلْتُ اسْمَكَ مَعَ اسْمِي، يُنَادَى بِهِ فِي جُوفِ السَّمَاءِ، وَجَعَلْتُ الْأَرْضَ طَهْرًا لَكَ وَلَأَمْتِكَ، وَغَفَرْتُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَأَنْتَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَغْفُورًا لَكَ، وَلَمْ أَضْعَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ قَبْلِكَ، وَجَعَلْتُ قُلُوبَ أَمَتِكَ مَصَاحِفَهَا، وَخَبَأْتُ لَكَ شَفَاعَتَكَ، وَلَمْ أَخْبَأَهَا لِنَبِيٍّ غَيْرِكَ».

٤٠٨ - وفي حديث آخر، رواه حذيفة: «بَشَّرَنِي - يَعْنِي: رَبِّي - أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَعِيَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ؛ وَأَعْطَانِي الْأُتُوجُوعَ أُمَّتِي وَلَا تُغْلَبُ، وَأَعْطَانِي النَّصْرَ، وَالْعِزَّةَ، وَالرُّغْبَ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيِ أُمَّتِي شَهْرًا، وَطِيبَ لِي وَلَأُمَّتِي الْمِغَانِمَ، وَأَحْلَلَ لَنَا كَثِيرًا مِمَّا شَدَّدَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [أحمد (٣٩٣/٥)].

٤٠٩ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَخِيًّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٤٩٨١)، مسلم (١٥٢)].

معنى هذا عند المحققين: بقاء معجزاته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليها قَرْنٌ بَعْدَ قَرْنٍ عَيْنَانَا لَا خَبْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وفيه كلام يطول، هذا نُخْبَتُهُ. وقد بسطنا القول فيه، وفيما ذُكِرَ فِيهِ سِوَى هَذَا آخِرَ بَابِ الْمَعْجَزَاتِ.

٤١٠ - وعن علي رضي الله عنه: كُلُّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نَجِيَاءٍ مِنْ أُمَّتِهِ، وَأَعْطِيَ نَبِيَّكُمْ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ نَجِيًّا، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَعُمَارُ [أحمد (٨٨/١)، ١٤٢، ١٤٩، الترمذي (٣٧٨٥)].

٤١١ - وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ

والمؤمنين؛ وإنها لم تجل لأحد بعدي، وإنما أجلت لي ساعة من نهار» [البخاري (١١٢)، مسلم (١٣٥٥)].

٤١٢ - وعن العرياض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبدالله وخاتم النبيين؛ وإن آدم لمنجدل في طيبته، وعدة أبي: إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم» [أحمد (١٢٧/٤)].

٤١٣ - وعن ابن عباس: قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء، وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهَ مِنْ دُونِهِ فَلْيُكَلِّمْهُمْ فَسَمِعُوا مِنْهُمْ هَمْزًا مُنْقَلَبًا مَعْشُورًا فَذَلِكَ تَجْزِيَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِي الْأَعْلَامِينَ ﴿٧٩﴾» [الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد ﷺ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١، ٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ...» الآية [إبراهيم: ٤].

وقال لمحمد: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...» [سبا: ٢٨].

٤١٤ وحتى ٤١٧ - وعن خالد بن معدان: أن تقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ - وقد روي نحوه عن أبي ذر وشداد بن أوس، وأنس بن مالك..

فقال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم - يعني قوله: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» [البقرة: ١٢٩] - وبشرى عيسى. ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي، خلف بيوتنا، نزعى بهما لنا، إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض».

٤١٨ - وفي حديث آخر: «ثلاثة رجال» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)] - «يُطَسَّبُ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلَاثًا، فَأَخَذَانِي فَشَقَا بَطْنِي».

٤١٩ - قال في غير هذا الحديث: «من تخري إلى مرقا بطني» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (٢٦٥/١٦٣)] - ثم استخرجا منه قلبي، فشققاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسل قلبي وبطني بذلك الثلج حتى ألقياه».

٤٢٠ - قال في حديث آخر: «ثم تناول أحدهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من

نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي، فامتلاً إيماناً وحكمةً، ثم أعاده مكانه، وأمر الآخر يده على مفترق صدري فالتأم.

٤٢١ - وفي رواية: «إن جبريل قال: قَلْبٌ وَكِيعٌ - أي شديد - فيه عينان تُبَصِّرَانِ، وأذنان تُسْمَعَانِ» ثم قال أحدهما لصاحبه: «زَنُهُ بِعَشْرَةِ مِنْ أُمْتِهِ، فَوَزَنِي فَرَجَحْتُهُمْ، ثم قال: زَنُهُ بِمِئَةِ مِنْ أُمْتِهِ، فَوَزَنِي بِهِمْ فَوَزَنْتُهُمْ؛ ثم قال: زَنُهُ بِالْفِ مِنْ أُمْتِهِ، فَوَزَنِي بِهِمْ فَوَزَنْتُهُمْ؛ ثم قال: دَعُهُ عَنْكَ، فَلَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمْتِهِ لَوَزَنَهَا ﷺ».

٤٢٢ - قال في الحديث الآخر: «ثُمَّ ضَمُّونِي إِلَى صَدُورِهِمْ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي، وَمَا بَيْنَ عَيْنَيَّ، ثُمَّ قَالُوا: يَا حَبِيبُ! لِمَ تُرْعُ، إِنَّكَ لَوْ تَذَرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ».

٤٢٣ - وفي بقية هذا الحديث من قولهم: «مَا أَكْرَمَكَ عَلَى اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ».

٤٢٤ - قال في حديث أبي ذر: «فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّيَا عَنِّي، فَكَانَمَا أَرَى الْأَمْرَ مُعَايَنَةً».

٤٢٥ - وحكى أبو محمد: مَكِّيٌّ، وأبو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ وغيرهما - أَنَّ آدَمَ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ! بِحَقِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي.

وَيُرَوَّى: تَقَبَّلْ تَوْبَتِي. فقال له الله: مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا؟ قَالَ: رَأَيْتُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْجَنَّةِ مَكْتُوبًا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ - وَيُرَوَّى: مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي - فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَكْرَمُ خَلْقِكَ عَلَيْكَ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَغَفَرَ لَهُ. وهذا عند قائله تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحْ آدَمَ مِنْ رَّبِّهِ فَكَانَ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

[البقرة: ٣٧]

وفي رواية الأَجْرِيِّ قَالَ: فَقَالَ آدَمُ: لَمَّا خَلَقْتَنِي، رَفَعْتَ رَأْسِي إِلَى عَرْشِكَ فَإِذَا مَكْتُوبٌ فِيهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَكَ مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! إِنَّهُ لِأَخْرُ النَّبِيِّينَ مِنْ دُرِّتِكَ وَلَوْلَا مَا خَلَقْتَكَ.

٤٢٦ - قَالَ: وَكَانَ آدَمُ يُكْنَى بِأَبِي مُحَمَّدٍ.

وقيل: بِأَبِي الْبَشَرِ.

وَرَوَى عَنْ سُرَيْجِ بْنِ يُونُسَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ عِبَادَتُهَا كُلِّ دَارٍ فِيهَا أَحْمَدٌ، أَوْ مُحَمَّدٌ، إِكْرَامًا مِنْهُمْ لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

٤٢٧ - وَرَوَى ابْنُ قَانِعٍ الْقَاضِي، عَنْ أَبِي الْحَمَرَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَمَّا أَسْرَى بِي إِلَى السَّمَاءِ إِذَا عَلَى الْعَرْشِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أُيِّدَتْهُ بَعْلِي».

٤٢٨ - وفي التفسير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: عَجِبْتُ لِمَنْ أُيِّقُنَ بِالْقَدَرِ، كَيْفَ يَنْضَبُ؟ عَجَباً لِمَنْ أُيِّقُنَ بِالنَّارِ كَيْفَ يَضْحَكُ؟ عَجَباً لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقْلِبُهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؟ أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي.

وعن ابن عباس: عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبٌ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، لَا أَعَذَّبُ مَنْ قَالَهَا.

وَذُكِرَ أَنَّهُ وَجَدَ عَلَى الْجِجَارَةِ الْقَدِيمَةِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ نَقِيُّ مَصْلَحٍ، وَسَيِّدُ أَمِينٍ.

وَذَكَرَ السُّمَنْطَارِيُّ أَنَّهُ شَاهَدَ فِي بَعْضِ بِلَادِ خُرَاسَانَ مَوْلوداً وَلَدَ عَلَى أَحَدِ جَنَّتَيْهِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَعَلَى الْآخَرِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَذَكَرَ الْإِخْبَارِيُّونَ: أَنَّ بِلَادَ الْهِنْدِ زُرْدًا أَحْمَرَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ بِالْأَبْيَضِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَرَوَى عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا لِيَقُمَ مِنْ اسْمِهِ مُحَمَّدٌ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ لِكِرَامَةِ اسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ فِي سَمَاعِهِ، وَابْنُ وَهْبٍ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَهْلَ مَكَّةَ يَقُولُونَ: مَا مِنْ بَيْتٍ فِيهِ اسْمُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا نُمَّا وَرَزِقُوا.

٤٢٩ - وعنه عليه السلام: «مَا ضُرَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدَانِ وَثَلَاثَةٌ».

٤٣٠ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاخْتَارَ مِنْهَا قَلْبَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ [أحمد (٣٧٩/١)].

٤٣١ - وَحَكَى النُّقَاشُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاحَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] - قَامَ خَطِيئًا، فَقَالَ: «يَا مَغْشَرُ أَهْلِ الْإِيمَانِ! إِنَّ اللَّهَ

تَعَالَى فَضَّلَنِي عَلَيْكُمْ تَفْضِيلًا، وَفَضَّلَ نَسَائِي عَلَى نَسَائِكُمْ تَفْضِيلًا...»
الحديث.

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَرَامَةُ الْإِسْرَاءِ مِنَ الْمُنَاجَاةِ وَالرُّؤْيَا
وَأِمَامَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُرُوجِ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى

ومن خصائصه ﷺ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة وما
تَبَّه عليه الكتاب العزيز، وشرحته صيحاخ الأخبار؛ قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي
أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ
الْأَيْنَاءِ إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ① مَا مَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ② وَمَا يَبْطِئُ عَنِ
الْمَوْتِ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ④ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَى ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ⑥ وَهُوَ
بِالْأُنْجِيِّ الْأَعْلَى ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ⑨ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا
أَوْحَى ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ⑪ أَفَتَزِيدُكُمْ عَلَى مَا بَرَأَ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى
⑬ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ⑭ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ⑮ إِذْ يَفْشَى الْيَدْرَةُ مَا يَفْشَى ⑯ مَا زَاغَ
الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ⑰ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ⑱﴾ [النجم: ١ - ١٨].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ، إذ هو نص القرآن،
وجاء بتفصيله، وشرح عجائبه، وخَوَاصُّ نبينا محمد ﷺ، فيه أحاديث كثيرة
متشعبة، رأينا أن نقدم أكملها، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها.

٤٣٢ - حدثنا القاضي الشهيد: أبو علي، والفقير أبو بخر بسماعي عليهما،
والقاضي أبو عبد الله التميمي، وغير واحد من شيوخنا؛ قالوا: حدثنا أبو العباس
العُدري، حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن
سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شَيْبَانُ بْنُ قُرُوحٍ، حدثنا حماد بن
سَلَمَةَ، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله
قال: «أُبَيِّتُ بِالْبُرَاقِ، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع
حافره عند منتهى طرفه - قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة
التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت،
فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل:
اخترت الفطرة.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل.

قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم ﷺ، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستَفْتَحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل. قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بِأَنِّي الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما؛ فرحَّبَا بي، ودعَوَا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بِإِدْرِيسَ، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة: فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مُسَبِّحاً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، فإذا ورَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وإذا ثَمَرُهَا كَالْقُلَالِ، قال: فلما غَشِيَهَا من أمر الله ما غَشِيَتْ تَغْيِيرَتْ، فما أَخَذَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَعِتَهَا مِنْ حُسْنِهَا؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، ففَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فنَزَلْتُ إلى موسى، فقال: ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْتِكَ؟ قلت: خَمْسِينَ صَلَاةً. قال: ارجع إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ.

قال: فرجعتُ إلى رَبِّي، فقلت: يا رَبِّ! خَفِّفْ عَنِّي أَمْتِي. فحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فرجعتُ إلى موسى، فقلت: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قال: إِنَّ أَمْتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فارجع إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ. قال: فلم أزلُ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فتلك خَمْسُونَ صَلَاةً؛ وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف».

قال رسول الله ﷺ: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استخيت منه».

قال المؤلف: جَوَّدَ ثَابِتٌ - رحمه الله - هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحدٌ عنه بأصوب من هذا.

٤٣٣ - وقد خلطَ فيه غيره عن أنس تخلیطاً كثيراً، لا سيما من رواية شريك بن أبي نجر [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/٢٦٢)]؛ فقد ذكر في أوله مجيء الملك له، -وَشَقَّ بَطْنُهُ، وَغَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ؛ وهذا إنما كان وهو صبيّ، وقُبِلَ الوحي-

وقد قال شريك في حديثه: وذلك «قبل أن يُوحَى إليه» وذكر قصة الإسراء. ولا خلاف أنها كانت بعد الوحي.

وقد قال غير واحد: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل هذا.

٤٣٤ - وقد رَوَى ثابت عن أنس - من رواية حماد بن سلمة [مسلم (٢٦١/١٦٢)] - أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره، وَشَقَّ قَلْبَهُ تِلْكَ الْقِصَّةَ مَفْرَدَةً من حديث الإسراء كما رواه الناس، فجَوَّدَ في القصتين، وفي أَنَّ الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، فأزاح كل إشكال أوهمه غيره.

٤٣٥ - وقد رَوَى يونس، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: كان أبو ذرٍّ يحدثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «فَرَجَ سَفْقُ بَيْتِي، وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَنْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ...» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)] فذكر القصة.

٤٣٦ - وروى قَتَادَةُ الْحَدِيثَ، بِمِثْلِهِ، عن أنس، عن مالك بن صَعْصَعَةَ [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)]، وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص، وخلافٌ في ترتيب الأنبياء في السموات.

وحديث ثابت، عن أنس، أتقن وأجود.

وقد وقعت في حديث الإسراء، زيادات تُذكر منها نكتة مفيدة في غرضنا:

٤٣٧ - منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قولُ كل نبيٍّ له: «مرحباً بالنبي

الصالح، والأخ الصالح» إلا آدم وإبراهيم فإنهما قالا له: «والابن الصالح».

٤٣٨ - وفيه، من طريق ابن عباس: «ثم عَرَجَ بي حتى ظهرْتُ لمستوى أسمع فيه صريرَ الأقلام» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)].

٤٣٩ - وعن أنس: «ثم انطلق بي حتى أُتيتُ سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، ففُشِيهَا ألوانٌ لا أدري ما هي؟ قال: ثم أَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣/٢٦٣)].

٤٤٠ - وفي حديث مالك بن صُفْصَعَةَ: «فلما جاوزته - يعني: موسى - بكى، فتودى: ما يُبْكِيكَ؟ قال: رب! هذا غلامٌ بعثته بَعْدِي يَدْخُلُ من أَمَةِ الْجَنَّةِ أَكْثَرَ ممَّا يَدْخُلُ من أمتي».

٤٤١ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فحانت الصلاة، فأَمْنَتْهُمْ، فقال قائل: يا مُحَمَّدُ! هذا مالِكُ خازِنُ النار، فسَلِمَ فالتفتُ فبداني بالسلام» [مسلم (١٧٢)].

٤٤١م - وفي حديث أبي هريرة: ثم سار حتى أتى إلى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، فصلّى مع الملائكة، فلما قُضِيَت الصلاة قالوا: يا جبريل! مَنْ هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله، خاتم النبيين. قالوا: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَخَلِيفَةٍ، فَنِعَمَ الْأَخُ وَنِعَمَ الْخَلِيفَةُ! ثم لَفُوا أرواحَ الأنبياءِ فَأَتَوْا على رَبِّهِمْ، وذكر كلام كل واحد منهم، وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، ودَّاد، وسُلَيْمان.

ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: «وإنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَتْنِي على رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فقال: «كلِّم أُنْتِ على رَبِّهِ، وأنا أُنْتِ على رَبِّي: الحمد لله الذي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً للعالمين، وكافَّةً للناسِ بشيراً وَنَذِيراً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيهِ تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ. وجعل أمتي خَيْرَ أمةٍ، وجعل أمتي أمةً وَسْطاً، وجعل أمتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صُدْرِي، ووضَعَ عَنِي وَزْرِي، ورفع لي ذِكْرِي، وجعلني فاتحاً وخاتماً».

فقال إبراهيم: بهذا فَضَّلَكُم مُحَمَّدٌ.

ثم ذكر أنه عَرَجَ به إلى السماء الدنيا، ومن سماءٍ إلى سماءٍ، نحو ما تقدم. ٤٤٢ - وفي حديث ابن مسعود: «وَأَنْتَهِيَ بي إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنْتَهِي ما يُعْرَجُ به من الأرض فيقبضُ منها، وإليها يَنْتَهِي ما يَنْهَبُ من فوقها فيقبضُ منها؛ قال: ﴿إِذْ يَنْتَهِى السِّدْرَةُ مَا يَنْتَهِى﴾ [النجم: ١٦]. قال: «فَرَأَيْتُ مِنْ ذَهَبٍ» [مسلم (١٧٣)].

٤٤٣ - وفي رواية أبي هريرة، من طريق الربيع بن أنس. «ف قيل لي: هذه السُدْرَةُ الْمُنتَهَى يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِكَ خَلَا عَلَى سَبِيلِكَ، وَهِيَ السُدْرَةُ الْمُنتَهَى، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَسَلٍ مُصَفًّى، وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَاماً، وَإِنَّ وَرْقَةً مِنْهَا مُظِلَّةٌ الْخَلْقَ، فَغَشِيَهَا نُورٌ، وَغَشِيَهَا الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَفْشَى الْيَدْرَةُ مَا يَفْشَى﴾ [النجم: ١٦].

فقال الله تبارك وتعالى له: سَلْ. فقال: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكاً عَظِيماً. وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكاً عَظِيماً، وَأَلَّيْتَ لَهُ الْحَدِيدَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكاً عَظِيماً، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجُرَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَأَعْذَنَّهُ وَأَمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ.

فقال له ربُّه تعالى: قَدْ اتَّخَذْتُكَ خَلِيلاً. فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: مُحَمَّدٌ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ، وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ، وَهُمْ الْآخِرُونَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا تَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقاً، وَآخِرَهُمْ بَعْثاً، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي، وَلَمْ أُعْطِهَا نَبِيّاً قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَثَرِ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيّاً قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُكَ فَاتِحاً وَخَاتِماً».

٤٤٤ - وفي الرواية الأخرى قال: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثاً: أُعْطِيَ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغَيْرَ - لَمْ يَكُنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً مِنْ أُمَّتِهِ - الْمُقْحِمَاتِ [مسلم (١٧٣)].

٤٤٥ - وقال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ عَلَىٰ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]،

[١٢]: رَأَى جَبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتٌّ مِثْلُ جَنَاحِ [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (١٧٤)].

٤٤٦ - وفي حديث شريك: أَنَّهُ رَأَى مُوسَى فِي السَّابِعَةِ، قَالَ: بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ.

قال: ثُمَّ عَلَا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَالَ مُوسَى: لَمْ أَظُنْ أَنَّ يُزْفَعُ عَلَيَّ أَحَدٌ.

٤٤٧ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ صَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ بَبْنِيتِ الْمَقْدَسِ [البخاري (٢٠٨/٧)، مسلم (١٧٢)].

٤٤٨ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل جبريل عليه السلام، فوَكَّزَ بين كَتِفَيَّ، فقمْتُ إلى شجرة فيها مثلُ ونحري الطائر، فقمعد في واحدة وقعدت في الأخرى، فثمُت حتى سُدَّت الخافقين. ولو شئتُ لمَسَسْتُ السماء، وأنا أَقْلُبُ طَرْفِي، ونظرتُ جبريلَ كأنه جَلَسَ لاطيء، فعرفتُ فضلَ علمه بالله عليّ، وفتح لي بابَ السماء، ورأيتُ النورَ الأعظم، وإذا دوني الحجاب، وفَرَجَهُ الدُّرُّ والياقوت، ثم أوحى الله إلي ما شاء أن يُوحِي».

٤٤٩ - وذكر البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أراد الله تعالى أن يُعَلِّمَ رسوله الأذان جاء جبريل بدأية يقال لها البراق، فذهب يركبها، فاستصعبت عليه، فقال لها جبريل: اسكني، فوالله! ما ركبك عبدٌ أكرمَ على الله من محمد ﷺ؛ فركبها حتى أتى بها إلى الحجاب الذي يلي الرحمن تعالى، فبينما هو كذلك إذ خرج ملكٌ من الحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل! من هذا؟».

قال: والذي بعثك بالحق! إنني لأقرب الخلق مكاناً، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خُلِقْتُ قبل ساعتِي هذه. فقال الملك: الله أكبر. الله أكبر فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر. أنا أكبر.

ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله. فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا الله لا إله إلا أنا.

وذكر مثل هذا في بقية الأذان، إلا أنه لم يذكر جواباً عن قوله: حي على الصلاة، حي على الفلاح.

وقال: ثم أخذ الملك بيد محمد، فقدمه، فأَمَّ أهل السماء، فيهم آدم ونوح.

قال أبو جعفر: محمد بن علي بن الحسين، راويه: أكمل الله تعالى لمحمد ﷺ الشرف على أهل السموات والأرض.

قال المؤلف رحمه الله: ما في هذا الحديث من دُخْرِ الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون، والباري جل اسمه منزّه عما يَخْجِبُه، إذ الحجب إنما تُحِيطُ بمقدَرِ محسوس، ولكن حُجِبَ على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء، ومتى شاء، كقوله تعالى: ﴿كَأَلَّا يَهْتَمُّ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُحْجُوبِينَ﴾ [المطففين: ١٥].

فقوله في هذا الحديث: «الحجاب»، و «إذ خرج مَلَكٌ من الحجاب» يجب أن يقال: إنه حجابٌ حَجَبَ به مَنْ وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سُلْطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجَبْروته.

ويدلُّ عليه من الحديث - قولُ جبريل - عن الملك الذي خرج من وراءه: «إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا رَأَيْتَهُ مِنْذُ خُلِقْتَ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ».

فدلَّ على أَنَّ هذا الحجابَ لم يختصَّ بالذات.

ويدلُّ عليه قولُ كعب في تفسير: «سِدْرَةُ الْمُتَنَهَى» قال: إليها ينتهي عِلْمُ الملائكة، وعندها يجدون أَمَرَ اللَّهِ، لا يجاوزها عِلْمُهُم.

وأما قوله: «الذي يلي الرحمن» فيُحْمَلُ على حَذْفِ المضاف، أي يلي عَرْشَ الرحمن، أو أَمْرًا ما، من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه، مما هو أعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها.

وقوله: ف قيل من وراء الحجاب «صدق عَبْدِي، أنا أكبر» فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلامَ الله، ولكن مِنْ وراء حجاب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُحْكِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؛ أي: وهو لا يراه، حَجَبَ بصره عن رؤيته.

فإن صَحَّ القولُ بأنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه عزَّ وجلَّ فيُحْتَمَلُ أنه في غير هذا المَوْطِنِ. بعدَ هذا أو قبله، رُفِعَ الحجابُ عن بصره حتى رآه. والله أعلم.

فصل

فِي حَقِيقَةِ الْإِسْرَاءِ، هَلْ كَانَ بِالرُّوحِ أَمْ بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ

ثم اختلف السلف والعلماء: هل كان أسري برُّوحه أو جسده؟ على ثلاث مقالات: فذهب طائفة إلى أنه إسرائ بالروح، وأنه رُؤيا منام، مع اتفاقهم أنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ ووحي، وإلى هذا ذهب معاوية.

وحُكي عن الحسن، والمشهور عنه خلافه، وإليه أشار محمد بن إسحاق، وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

٤٥٠ - وما حَكَّوْا عن عائشة أنها قالت: ما فقدتُ جسدَ رسولِ الله ﷺ.

٤٥١ - وقوله: «بيننا أنا نائم».

٤٥٢ - وقول أنس: وهو نائم في المسجد الحرام.. وذكر القصة، ثم قال

في آخرها: «فاستيقظتُ وأنا بالمسجد الحرام» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)].

وذهب مُعْظَمُ السُّلَفِ والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي البقطة، وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبي هريرة، ومالك بن صفصعة، وأبي خبزة البذري، وابن مسعود، والضحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيب، وابن شهاب، وابن زيد، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، وهو دليل قول عائشة، وهو قول الطبري، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وقالت طائفة: كان الإسرائ بالجسد بقطة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، فجعل ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ غاية الإسرائ الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي محمد ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسرائ إليه.

قال هؤلاء: ولو كان الإسرائ بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره؛ فيكون أبلغ في المدح.

ثم اختلفت هذه الفرقان: هل صلى بيت المقدس، أم لا؟

٤٥٣ - ففي حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته فيه.

٤٥٤ - وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان، وقال: والله! ما زالا عن ظهر البراق

حتى رجعا [الترمذي (٣١٤٧)، أحمد (٢٨٧/٥)].

قال المؤلف: والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسرائ بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه ندل الآية، وصحيح الأخبار، والاعتبار، ولا يغدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسرائ بجسده وحال يقظته استحالة؛ إذ لو كان مناماً لقال: بزوح غيبه، ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْقَصْرَ وَمَا كَانَ مِثْلَهُ﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم، وافتتوا به؛ إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر؛ بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس - أو في السماء على ما زوى غيره - وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء؛ فيقال: من معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء

فيها، وخَبَرَهُمْ معه، وَتَرْجِيهِمْ بِهِ، وَشَأْنُهُ فِي قَرْضِ الصَّلَاةِ وَمَرَاجَعَتِهِ مَعَ مُوسَى فِي ذَلِكَ.

٤٥٥ - وفي بعض هذه الأخبار: «فأخذ - يعني جبريل - بيدي فَعَرَجَ بي إلى السماء...»

٤٥٥م - إلى قوله: «ثم عَرَجَ بي حتى ظهرت بمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ» وأنه وصل إلى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى، وأنه دخل الجنة، ورأى فيها ما ذكره.

٤٥٦ - قال ابن عباس: هي رُؤْيَا عَيْنِ رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ لَا رُؤْيَا مَنَامٍ [البخاري: ٣٨٨٨].

٤٥٧ - وعن الحسن فيه: «بينما أنا نائم في الحِجْر إِذْ جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَهَمَزَنِي بِعَقِيهِ، فَقُمْتُ فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرْ شَيْئاً، فَعُدْتُ لِمَضْجَعِي» - فذكر ذلك ثلاثاً - فقال في الثالثة: «فأخذ بعَضْلِي فَجَرَّنِي إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَإِذَا بِدَابَّةٍ». وذكر خبر البراق.

٤٥٨ - وعن أمِّ هانئ: ما أُسْرِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ فِي بَيْتِي، تِلْكَ اللَّيْلَةُ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، وَنَامَ بَيْنَنَا، فَلَمَّا كَانَ قُبَيْلَ الْفَجْرِ أَهْبَتَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ وَصَلَيْنَا قَالَ: «يَا أُمَّ هَانِئُ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتَ بِهَذَا الْوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ الْغَدَاةَ مَعَكُمْ الْآنَ كَمَا تَرَوْنَ». وهذا يَبَيِّنُ فِي أَنَّهُ بِجَسَمِهِ.

٤٥٩ - وعن أبي بكر - من رواية شَذَادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ: طَلَبْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْبَارِحَةَ فِي مَكَانِكَ فَلَمْ أَجِدْكَ. فَأَجَابَهُ: إِنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَمَلَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

٤٦٠ - وعن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَّيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي فِي مَقْدَمِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ دَخَلْتُ الصَّخْرَةَ فَإِذَا بِمَلَكٍ قَائِمٍ مَعَهُ آتِيَةٌ ثَلَاثٌ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وهذه التصريحات ظاهرة غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ، فَتَحَمَّلْ عَلَى ظَاهِرِهَا.

٤٦١ - وعن أبي ذَرٍّ، عَنْهُ ﷺ: «فَرَجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ، فَفَرَشَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ زَمْزَمٍ...» إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي».

٤٦٢ - وعن أنس: «أَتَيْتُ فَاَنْطَلَقُوا بِي إِلَى زَمَزَمَ، فَشَرَحَ عَن صَدْرِي» [مسلم (٢٦٠/١٦٢)].

٤٦٣ - وعن أبي هريرة: «لَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي الْجَنَّةِ، وَقَرِيشٌ تَسْأَلُنِي عَن مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَن أَشْيَاءَ لَمْ أَتِبْنَهَا، فَكُتِبَتْ كَرِيماً مَا كُتِبَتْ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ» [مسلم (١٧٢)].

٤٦٤ - ونحوه عن جابر [البخاري (٣٨٨٦)، مسلم (١٧٠)].

٤٦٥ - وقد رَوَى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ وَمَا تَحَوَّلْتُ عَنْ جَانِبِهَا».

فصل

فِي إِنْطَالِ خُجُجٍ مَن قَالَ: إِنَّهَا نَوْمٌ

احتجُّوا بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا آلَافَ أَرْبَابَك إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» [الإسراء: ٦٠]، فسماها رؤيا.

قلنا: قوله سبحانه وتعالى: «أَلَيْدِي أَسْرَى يَعْبُدُونَهُ» [الإسراء: ١] يرذُّه؛ لأنه لا يُقال في النوم: أسرى.

وقوله: «فِتْنَةً لِلنَّاسِ». يؤيِّد أنها رؤيا غيب، وإسراء شخص؛ إذ ليس في الحلم فتنة. ولا يكذب به أحد؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة.

على أنَّ المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية؛ فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قُضِيَّةِ الخُدْيَةِ، وما وقع في نفوس الناس من ذلك. وقيل غير هذا. وأما قولهم: إنه قد سماها في الحديث مناماً.

٤٦٦ - وقوله في حديث آخر: «بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)].

٤٦٧ - وقوله أيضاً: وهو نائم. وقوله: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ» فلا حجة فيه؛ إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم، أو أن أول حلمه والإسراء به وهو نائم، وليس في الحديث أنه كان نائماً في القُضِيَّةِ كلها إلا ما يدل عليه قوله: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» فلعل قوله: «اسْتَيْقَظْتُ» بمعنى أُصْبَحْتُ، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته.

ويدل عليه أن مسرَّاه لم يكن طويلاً ليله، وإنما كان في بعضه.

وقد يكون قوله: «استيقظت وأنا في المسجد الحرام» لِمَا كَانَ غَمَرَهُ مِنْ عَجَائِبِ مَا طَالَعَ مِنْ مُلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخَامَرَ بَاطِنَهُ مِنْ مُشَاهِدَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، فَلَمْ يَسْتَقِفْ وَيَرْجِعْ إِلَى حَالِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ: أَنَّ يَكُونُ نَوْمُهُ وَاسْتِيقَازُهُ حَقِيقَةً عَلَى مَقْتَضَى لَفْظِهِ، وَلَكِنَّهُ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ وَقَلْبُهُ حَاضِرٌ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ.

وَقَدْ مَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْإِشَارَاتِ إِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا. قَالَ: تَغْمِضُ عَيْنِيهِ لئَلَّا يَشْغَلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا يَصِحُّ هَذَا أَنَّ يَكُونَ فِي وَقْتِ صَلَاتِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَلَعَلَّهُ كَانَتْ لَهُ فِي هَذَا الْإِسْرَاءِ حَالَاتٌ.

وَوَجْهٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّ يَعْبُرَ بِالنَّوْمِ هَا هُنَا عَنْ هَيْئَةِ النَّائِمِ مِنَ الْاضْطِجَاعِ. ٤٦٨ - وَيُقَوِّيه قَوْلُهُ فِي رَوَايَةِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ هَمَّامٍ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ وَرَبُّنَا قَالَ: «مُضْطَجِعٌ».

٤٦٩ - وَفِي رَوَايَةِ هُذَيْبَةَ، عَنْهُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحَطِيمِ» وَرَبُّنَا قَالَ: «فِي الْجَبْرِ مُضْطَجِعٌ» [البخاري (٣٨٨٧)].

٤٧٠ - وَقَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ». فَيَكُونُ سَمَّى هَيْئَتَهُ بِالنَّوْمِ لِمَا كَانَتْ هَيْئَةُ النَّائِمِ غَالِبًا. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَاتُ: مِنَ النَّوْمِ، وَذِكْرُ شَقِّ الْبَطْنِ، وَدُثُو الرِّبِّ عَزَّ وَجَلَّ الْوَاقِعَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ رَوَايَةِ شَرِيكَ، عَنْ أَنَسٍ، فَهِيَ مُنْكَرَةٌ مِنْ رَوَايَتِهِ؛ إِذْ شَقُّ الْبَطْنِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِنَّمَا كَانَ فِي صَغَرِهِ ﷺ وَقَبْلَ النَّبُوَّةِ؛ وَلَأنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: «قَبْلَ أَنْ يُنْعَثَ»، وَالْإِسْرَاءُ بِإِجْمَاعٍ كَانَ بَعْدَ الْمَبْعَثِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ يُؤْهِنُ مَا وَقَعَ فِي رَوَايَةِ أَنَسٍ، مَعَ أَنَّ أَنَسًا قَدْ بَيَّنَّ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ أَنَّهُ إِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ مَرَّةً: عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَفِي كِتَابِ مُسْلِمٍ: لَعَلَّهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، عَلَى الشَّكِّ. وَقَالَ مَرَّةً: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يَحْدُثُ.

٤٧١ - وَأَمَّا قَوْلُ عَائِشَةَ: مَا فَقَدَ جَسَدَهُ؛ فَعَائِشَةُ لَمْ تَحْدُثْ بِهِ عَنْ مُشَاهَدَةٍ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ حَاضِرَةً زَوْجَهُ، وَلَا فِي مِيقَانٍ مِنْ يَضْبُطُ، وَلَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ وَلَدَتْ بَعْدُ، عَلَى الْخِلَافِ فِي الْإِسْرَاءِ مَتَى كَانَ؟ فَإِنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى قَوْلِ

الزُّهري ومن وافقه بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

وقد قيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة. وقيل: قبل الهجرة بعام. والأشبه إنه لخمس.

والحجة لذلك تطول، وليست من غرضنا، فإذا لم تشاهد ذلك عائشة، دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها؛ وغيرها يقول خلافه مما وقع نصاً في حديث أم هانئ وغيره.

وأيضاً فليس حديث عائشة رضي الله عنها بالثابت، والأحاديث الأخر أثبت، ولنا نغني حديث أم هانئ، وما ذكرت فيه خديجة.

وأيضاً فقد روي في حديث عائشة: «ما فقدت». ولم يدخل بها النبي ﷺ إلا بالمدينة.

وكل هذا يوهنه؛ بل الذي يدل عليه صحيح قولها. أنه بجسده، لإنكارها أن تكون رؤياه لربه رؤياً عين. ولو كان عندها مناماً لم تنكره.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] فقد جعل ما رآه للقلب، وهنا يدل على أنه رؤياً نوم ووَخِي، لا مشاهدة عين وحس. قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْعَصْرَ وَمَا كَانَ﴾ [النجم: ١٧] فقد أضاف الأمر للبصر.

وقد قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] أي لم يوهم القلب العين غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها. وقيل: ما أنكر قلبه ما رآه عينه.

فصل

في رؤيته ﷺ لربه عز وجل واختلاف السلف فيها

وأما رؤيته ﷺ - لربه جل وعز - فاختلف السلف فيها؛ فأنكرته عائشة.

٤٧٢ - أخبرنا أبو الحسين: سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه؛ قال: حدثني أبي، وأبو عبدالله بن عتاب الفقيه؛ قالوا: حدثنا القاضي يونس بن مغيث، قال: حدثنا أبو الفضل الصفلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده؛ قالوا: حدثنا عبدالله بن علي قال: حدثنا محمود بن آدم، حدثنا وكيع، عن ابن أبي خالد، عن عامر، عن مسروق، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أم

المؤمنين! هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شغري مما قلت. ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وذكر الحديث [البخاري (٧٣٨٠)، مسلم (٢٨٩/١٧٧)].

فقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها.

٤٧٣، ٤٧٤ - وهو المشهور عن ابن مسعود، ومثله عن أبي هريرة، أنه قال: إنما رأى جبريل [البخاري (٤٨٥٧)، مسلم (١٧٤)]. واختلف عنه. وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين، والفقهاء والمتكلمين.

٤٧٥ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه رآه بعينه [أحمد (٣٧٠/١)].

٤٧٦ - وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه [مسلم (٢٨٤/١٧٦)].

٤٧٧ - وعن أبي العالية، عنه: رآه بفؤاده مرتين [مسلم (٢٨٥/١٧٦)].

٤٧٨ - وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

٤٧٩ - والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، روي ذلك عنه من طريقي، وقال: إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمداً بالرؤية.

وحجته قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [التكوير: ١١] ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ [٧] وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿[النجم: ١١-١٣].

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى، ومحمد ﷺ فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

وحكى أبو الفتح الرازي، وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب.

٤٨٠ - وروى عبد الله بن الحارث، قال: اجتمع ابن عباس وكعب؛ فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إن محمداً قد رأى ربه مرتين؛ فكبر كعب حتى جاوزته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى؛ فكلمه موسى، ورآه محمد بقلبه [الترمذي (٣٢٧٨)].

٤٨١ - وروى شريك، عن أبي ذر رضي الله عنه في تفسير الآية؛ قال: رأى النبي ﷺ ربه.

٤٨٢ - وحكى السمرقندي، عن محمد بن كعب القرظي، وزبيد بن أنس، أن النبي ﷺ سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت بفؤادي، ولم أره بعيني».

٤٨٣ - وروى مالك بن يخامر، عن معاذ، عن النبي ﷺ؛ قال: «رأيت

رَبِّي... وذكر كلمة، فقال: يا محمد! فيم يختصم المَلَأُ الأعلى؟ [أحمد
(٢٤٣/٥)، الترمذي (٣٢٣٥)] الحديث.

وحكى عبد الرزاق أنَّ الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمدَ رَبِّه.
وحكاه أبو عُمَرَ الطَّلُمُكِيُّ عن عكرمة.

وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

وحكى ابن إسحاق: أنَّ مروان سأل أبا هريرة: هل رأى محمد رَبِّه؟ فقال:

نعم.

وحكى النقاش، عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس
بعينه رآه - حتى انقطع نَفْسُهُ، يعني: نفس أحمد.

وقال أبو عُمَرَ: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجبَّ عن القول برؤيته في
الدنيا بالأبصار.

وقال سعيد بن خبير: لا أقول: رآه، ولا لم يره.

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وابن
مسعود؛ فحكى عن ابن عباس وعكرمة: رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود:
رأى جبريل.

وحكى عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، أنه قال: رآه.

وعن ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾ [الإنشراح: ١]
قال: شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام.

وقال أبو الحسن، علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من
أصحابه: إنه رأى الله تعالى ببصره وعيني زأبه، وقال: كُلُّ آية أوتيتها نبي من
الأنبياء عليهم السلام فقد أوتيتي مثلها تبيناً، وخُصَّ من بينهم بتفصيل الرؤية.

ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح؛ ولكنه جائز
أن يكون.

قال المؤلف: والحق الذي لا اغترأه فيه، أنَّ رؤيته تعالى في الدنيا جائزة
عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها.

والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى - عليه السلام - لها. ومحال أن
يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه؛ بل لم يسأل إلا جائزاً غير
مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا مَنْ علَّمه الله،
فقال له الله تعالى: ﴿لَنْ رَوَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ أي: لن تُطبق، ولا تحتمل

رُؤْيِي؛ ثم ضرب له مثلاً ممّا هو أقوى مِنْ بِنْيَةِ موسى وأُثْبِت، وهو الجبل.
وكلّ هذا ليس فيه ما يُحِيل رُؤْيَتَهُ في الدنيا؛ بل فيه جَوَازُهَا على الجملة؛
وليس في الشرع دليلٌ قاطع على استحالتها ولا امتناعها؛ إذ كل موجود فرُؤْيَتُهُ
جائزَةٌ غَيْرُ مستحيلة.

ولا حجة لمن استدَلَّ على مَنعها بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾
[الأنعام: ١٠٣]؛ لاختلاف التأويلات في الآية، وإذ ليس يقتضي قول مَنْ قال في
الدنيا الاستحالة.

وقد استدَلَّ بعضهم بهذه الآية نفْسِهَا على جواز الرؤية وعدم استحالتها على
الجملة.

وقد قيل: لا تدركه أبصار الكفار. وقيل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ لا تحيط
به، وهو قول ابن عباس. وقد قيل: لا تدركه الأبصار، وإنما يدركه المُبْصِرُونَ.
وكلّ هذه التأويلات لا تقتضي مَنع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِيَهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقوله:
﴿بَيِّنَتْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. لِمَا قَدَمْنَاهُ؛ ولأنّها ليست على العموم؛ ولأنّ من
قال: معناها: لن تَرَانِي في الدنيا، إنما هو تأويل.

وأيضاً ليس فيه نَصُّ الامتناع، وإنما جاءت في حق موسى؛ وحيث تنطرقُ
التأويلات وتتسلطُ الاحتمالات، فليس للقطع إليه سبيل.

وقوله: ﴿بَيِّنَتْ إِلَيْكَ﴾. أي: مِنْ سؤالي ما لم تُقَدِّرْهُ لي.
وقد قال أبو بكر الهذلي في قوله: ﴿لَنْ تَرِيَهُ﴾: أي ليس ليَبْشِرَ أَنْ يُطِيقَ أَنْ
يَنْظَرَ إِلَيَّ في الدنيا، وإنَّه مِنْ نظر إليّ مات.

وقد رأيتُ لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: إن رُؤْيَتَهُ تعالى في الدنيا
مُمتَنِعَةٌ، لضعف تركيب أهل الدنيا، وقواهم، وكونها متغيرة غرضاً للآفات
والفناء، فلم يكن لهم قوة على الرؤية؛ فإذا كان في الآخرة ورزقوا تركيباً
آخر، ورزقوا قُوًى ثابتةً باقيةً، وأتمّ أنوار أبصارهم وقلوبهم قُووا بها على
الرؤية.

وقد رأيتُ نحو هذا لمالك بن أنس رحمه الله؛ قال: لم يُرَ في الدنيا؛ لأنه
باقٍ، ولا يُرَى الباقي بالفاني؛ فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقيةً رُئي الباقي
بالباقِي.

وهذا كلامٌ حسنٌ مَليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيثُ ضَعْفُ

القدرة؛ فإذا قَوَّى اللَّهُ تعالى مَنْ شاءَ مِنْ عِباده، وأفادته على خَمْلِ أعباءِ الرؤية لم تُمنع في حقّه.

وقد تقدّم ما ذُكر في قوة بَصَرِ موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية مُنحاهما لإدراك ما أدركاه، ورؤية ما رآياه. والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر - في أثناء أجوبته عن الآيتين - ما معناه: إن موسى - عليه السلام - رأى الله؛ فليدركَ خَرَّ صَبَقاً، وإن الجبل رأى ربه فصار ذكاً بإدراك خلقه الله له. واستنبط ذلك - والله أعلم - من قوله: ﴿وَلَكِنْ أَقْطَرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيهِ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وتَجَلَّى للجبل هو ظهوره له حتى رآه، على هذا القول.

وقال جعفر بن محمد: شَغَلَهُ بالجبل حتى تجلّى، ولولا ذلك لَمَات صَبَقاً بلا إفاقة.

وقوله هذا يدلُّ على أَنَّ موسى رآه.

وقد وقع لبعض المفسرين في «الجبل» أنه رآه، وبرؤية الجبل له استدُلَّ مِنْ قال بروية محمد نبينا له؛ إذ جعله دليلاً على الجواز.

ولا مزية في الجواز؛ إذ ليس في الآيات نصٌّ بالمنع.

وأما وجوبه لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نصٌّ؛ إذ المَعْنَى فيه على آيتي «النجم» والتنازعُ فيهما مأثور، والاحتمالُ لهما مُمكن، ولا أثر قاطع مُتواتر عن النبي ﷺ بذلك.

٤٨٤ - وحديث ابن عباس خبرٌ عن اعتقاده لم يُسنَّه إلى النبي ﷺ؛ فيجب العملُ باعتقادِ مُضْمِنِهِ.

٤٨٥ - ومثله حديث أبي ذرٍّ في تفسير الآية.

٤٨٦ - وحديث معاذ محتملٌ للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمُتَن.

٤٨٧ - وحديث أبي ذرٍّ الآخر مختلفٌ محتملٌ مُشْكِك. فروي: «نورٌ أُنِّي

أراه؟» [مسلم (٢٩١/١٧٨)].

وحكى بعضُ شيوخنا أنه زوي: «نورانيُّ أراه».

٤٨٨ - وفي حديثه الآخر: سألتُه، فقال: «رأيتُ نوراً» [مسلم (٢٩٢/١٧٨)]،

وليس يمكن الاحتجاجُ بواحدٍ منها على صحة الرؤية؛ فإن كان الصحيح: «رأيتُ

نوراً فهو قد أخبر أنه لم يرَ الله؛ وإنما رأى نوراً منه وحجبه عن رؤية الله. وإلى هذا يرجع قوله: «ثَوَّرَ أَتَى أَرَاهُ؟» أي: كيف أراه مع حجابِ الثور المَعْشَى للبصر؟

٤٨٩ - وهذا مثل ما في الحديث الآخر: «حجابه الثور» [مسلم (١٧٩)].

٤٩٠ - وفي الحديث الآخر: «لم أره بعيني، وإنما رأيته بقلبي مرتين» وتلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، واللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الإدراك الذي في البَصَرِ في القلب، أو كيف شاء، لا إِلَهَ غيره. فإنَّ وَرَدَ حديثٌ نصٌّ بَيِّنٌ في الباب اعتقِدْ ووجب المَصِيرُ إليه؛ إذ لا استِحَالَةٌ فيه، ولا مانع قطعي يردُّه، والله الموفق تعالى.

فصل

فِي مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ مِنْ مُنَاجَاتِهِ ﷺ لِلَّهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ مَعَهُ

وأما ما وَرَدَ في هذه القصة مِنْ مُنَاجَاتِهِ ﷻ لله تعالى وكلامِهِ معه بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] إلى ما تَضَمَّنَتْهُ الأحاديثُ، فأكثرُ المفسرين على أَنَّ المَوْحِيَّ اللَّهُ عز وجلَّ إلى جبريل، وجبريلُ إلى محمد ﷺ، إلا شذوذاً منهم؛ فذكر عن جعفر بن محمد الصادق، قال: أَوْحَىٰ إِلَيْهِ بلا واسطة، ونحوه عن الراسطي؛ وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين، أَنَّ محمداً ﷺ كلَّم رَبَّهُ في الإسراء.

وحكي عن الأشعري، وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس؛ وأنكره آخرون.

٤٩١ - وذكر النقاش، عن ابن عباس، في قصة الإسراء، عنه ﷺ في قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]. قال: «فَارْقَنِي جِبْرِيلُ، وانقطعت الأصوات عني، فسمعتُ كلامَ ربي وهو يقول: لِيَهْدَأْ رَوْعَكَ يَا مُحَمَّدًا اذْنُ، اذْنُ».

٤٩٢ - وفي حديث أنس في الإسراء نحو منه.

وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛ فقالوا: هي ثلاثة أقسام: من وراء حجابٍ كتكليم موسى؛ وبارسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ. الثالث: قوله: ﴿وَحَيًّا﴾ ولم يبقَ من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة.

وقد قيل: الوُحْيُ - هنا - هو ما يُلقِيه في قلب النبي دون واسطة.

٤٩٣ - وقد ذكر أبو بكر البزَّاز، عن علي في حديث الإسراء، ما هو أوضح في سماع النبي ﷺ لكلام الله من الآية: فذكر فيه: «فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر، فقبل لي من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر، أنا أكبر». وقال في سائر كلمات الأذان مثل ذلك.

ويجيء الكلام في مُشكل هذين الحديثين في الفصل بعد هذا مع ما يُشبهه، وفي أول فصل من الباب منه.

وكلام الله تعالى لمحمد ﷺ، ومن اختصه من أنبيائه، جائزٌ غير ممتنع غفلاً، ولا ورد في الشَّرْع قاطعٌ يمنعه، فإنَّ صَحَّ في ذلك خبر احتُمل عليه، وكلامه تعالى لموسى كائنٌ حقٌّ مقطوعٌ به، نصٌّ ذلك في الكتاب، وأكَّده بالمصدر دلالةٌ على الحقيقة.

٤٩٤ - وزُفِع مكانه على ما ورد في الحديث: في السماء السابعة بسبب كلامه. وزُفِع محمداً فوق هذا كله حتى بلغ مُستوى، وضمَّع ضريف الأَقلام؛ فكيف يستحيل في حق هذا أو يَنغَد سماع الكلام؟ فسبحان من خَصَّ مَنْ شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعضٍ درجاتاً!

فصل

فِي مَا وَرَدَ مِنَ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ

وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر الآية: من الدُّنُوِّ والقُرْبِ من قوله تعالى: ﴿دَنَا قَدْكَ﴾ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ [النجم: ٨، ٩]. فأكثرُ المفسرين أنَّ الدُّنُوَّ والتدليَّ مُتَقَبِمٌ ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختصٌّ بأحدهما من الآخر، أو من سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ.

قال الرازي: وقال ابن عباس: هو محمد، دنا فتدلى من ربه.

وقيل: معنى دنا: قُرب. وتدلى: زاد في القرب. وقيل: هما بمعنى واحد. أي: قرب وحكى مكِّيَّ والماورِديَّ، عن ابن عباس: هو الرُّبُّ دنا من محمد ﷺ، فتدلى إليه؛ أي: أمره وحُكْمه.

وحكى النقاش عن الحسن، قال: ﴿دَنَا﴾ من عبده محمد ﷺ، ﴿قَدْكَ﴾ فقُرب منه، فأراه ما شاء أن يُريه من قُدْرته وعظَمته.

٤٩٥ - قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر: تدلَّى الرَّفْرُفُ لمحمد ﷺ ليلة المِعْرَاج، فجلس عليه، ثم رُفِعَ فدنا من ربِّه.
قال: «فَارْقَنِي جبريلُ، وانقطعت عني الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربي عز وجل».

٤٩٦ - وعن أنس في الصحيح: «عَرَجَ بي جبريلُ إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ودنا الجِبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ، فتدلَّى حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة...» وذكر حديث الإسراء.

وعن محمد بن كُفَيْبٍ: هو محمدٌ، دنا من ربِّه، فكان قَابَ قَوْسَيْنِ.
قال: وقال جعفر بن محمد: أذناه ربُّه منه حتى كان منه كَقَابِ قَوْسَيْنِ.
وقال جعفر بن محمد: والدنوُّ من الله لا حدَّ له، ومن العباد بالحدود.
وقال أيضاً: انقطعت الكَيْفِيَّةُ عن الدنو، ألا ترى كيف حَجَبَ جبريلُ عن دَنُوهِ، ودنا محمد ﷺ إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلَّى يسكون قلبه إلى ما أذناه، وزال عن قلبه الشكُّ والارتياب.

قال المؤلف رحمه الله: اعلم أنَّ ما وقع من إضافة الدنو والقُرب - هنا - من الله، أو إلى الله، فليس بدنو مكان، ولا قُرب مدى؛ بل كما ذكرناه عن جعفر الصادق: ليس بدنو حدٌّ، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه وقُربه منه إبانةٌ عظيم منزلة، وتشريفٌ رُتبتِه، وإشراقٌ أنوار معرفته، ومشاهدةٌ أسرار غَيْبِه وقدرته، ومن اللّهِ تعالى له مَبَرَّةٌ وتأنيسٌ، وبَسْطٌ، وإكرامٌ.

٤٩٧ - وَيَتَأَوَّلُ فيه ما يَتَأَوَّلُ في قوله: «يَنزُلُ رُئُنا إلى سماء الدنيا» [البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)] على أحد الوجوه: نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان.
قال الواسطي: مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَنَا، جعل ثَمَّ مسافة، بَلْ كلما دنا بنفسه من الحق تدلَّى بُعْداً، يَغْنِي: عن دَرَكَ حقيقته؛ إذ لا دُنُوٌ للحق ولا بُعْدٌ.

وقوله: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فَمَنْ جعل الضمير عائداً إلى الله تعالى، لا إلى جبريل على هذا كان عبارةً عن نهاية القُرب، ولُطْفِ المحلِّ، واتّضح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التَّحَقُّقِ، وإنافَةِ المنزل والمرتبة من الله له.

٤٩٨ - وَيَتَأَوَّلُ فيه ما يَتَأَوَّلُ في قوله: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥)، (٢٦٨٧)] قُربٌ بالإجابة والقبول، وإتيانٌ بالإحسان وتَعْجِيلِ المأمول.

فصل

في ذكر تفضيله يوم القيامة بخصوص الكرامة

٤٩٩ - قال القاضي أبو علي: حدثنا أبو الفضل، وأبو الحسين؛ قالاً: حدثنا أبو يعلى، حدثنا السنجي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن أبي ثب، عن الربيع بن أنس، عن أنس رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعِثُوا، وأنا خطيئهم إذا وفدوا، وأنا مبشَرُهُمْ إذا أُبْسُوا؛ لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» [الترمذي (٣٦١٠)].

٥٠٠ - وفي رواية ابن زحر، عن الربيع بن أنس، في لفظ هذا الحديث: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعِثُوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيئهم إذا أنصتوا، وأنا شفيغهم إذا خُسُوا، وأنا مبشَرُهُمْ إذا أُبْسُوا؛ لواء الكرم بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر؛ ويطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون».

٥٠١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «وأُكْسِي خَلْعَةً من خلل الجنة، ثم أقوم من يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري» [الترمذي (٣٦١١)].

٥٠٢ - وعن أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبي يَوْمئِذٍ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي؛ وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» [الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، ابن ماجه (٤٣٠٨)].

٥٠٣ - وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع» [مسلم (٢٢٧٨)].

٥٠٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر؛ وأنا أول من يحرك حلقة الجنة، فيفتح لي فيدخلها معي فقراء المؤمنين، ولا فخر؛ وأنا أكرم الأولين والآخرين، ولا فخر».

٥٠٥ - وعن أنس: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الناس تبعاً» [مسلم (١٩٦)].

٥٠٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «أنا سيد الناس يوم

القيامة؛ وتَذَرُونَ بِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ [البخاري (٤٤٧٦، ٤٧١٢)، مسلم (١٩٣، ١٩٤)] وَذَكَرَ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ.

٥٠٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَجْراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

٥٠٨ - وفي حديث آخر: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ وَعِيسَى فِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» ثم قال: «إِنَّهُمَا فِي أُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَمَا إِبْرَاهِيمُ فَيَقُولُ: أَنْتَ دَعَوْتِي وَذُرِّيَّتِي، فَاجْعَلْنِي مِنْ أُمَّتِكَ. وَأَمَا عِيسَى فَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ بَنُو عِلَاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى؛ وَإِنَّ عِيسَى أَخِي لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ» [البخاري (٣٤٤٣)، مسلم (٢٣٦٥)، أبو داود (٤٦٧٥)].

قوله: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: هو سَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَكِنْ أَشَارَ ﷺ لِانْفِرَادِهِ فِيهِ بِالسُّؤْدَدِ وَالشَّفَاعَةِ دُونَ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَجَأَ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَجِدُوا سِوَاهُ.

وَالسَّيِّدُ: هُوَ الَّذِي يَلْجَأُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ؛ فَكَانَ حِينَئِذٍ سَيِّداً مُتَّفَرِّداً بَيْنَ الْبَشَرِ، لَمْ يُزَاجِمْهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلَا ادَّعَاهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنِي الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وَالْمُلْكُ لَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ انْقَطَعَتْ دَعْوَى الْمُدَّعِي لِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا.

وَكَذَلِكَ لَجَأٌ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ جَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّفَاعَةِ؛ فَكَانَ سَيِّدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ دُونَ دَعْوَى.

٥٠٩ - وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاسْتَفْتَحْ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بَكَ أَمِزْتُ لَا أَفْتَحْ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» [مسلم (١٩٧)].

٥١٠ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سِوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرَقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْكِ، وَكَيْزَانُهُ كَنَجْمِ السَّمَاءِ؛ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً» [البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٢٩٢)].

٥١١ - وعن أَبِي ذَرٍّ نَحْوَهُ؛ وَقَالَ: «طَوْلُهُ مَا بَيْنَ عُمَانَ إِلَى أَيْلَةَ، يَشْحَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ» [مسلم (٢٣٠٠)].

٥١٢ - وعن ثَوْبَانَ مِثْلَهُ؛ وَقَالَ: «أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ» [مسلم (٢٣٠١)].

٥١٣ - وفي رواية حارثة بن وهب: «كما بين المدينة وضنعاء» [البخاري (٦٥٩١)، مسلم (٥١٣)].

٥١٤ - وعن أنس: «أيلة وضنعاء» [البخاري (٦٥٨٠)، مسلم (٢٣٠٣)].

٥١٥ - وعن ابن عمر: «كما بين الكوفة والحجر الأسود» [البخاري (٦٥٧٧)، مسلم (٢٢٩٩)].

٥١٦ وحتى ٥٤٢ - وزوى حديث الخوض أيضاً: أنس، وجابر، وسمرة، وابن عمر، وعقبة بن عامر، وحارثة بن وهب الخزازي، والمستورد، وأبو بزة الأسلمي، وحذيفة بن اليمان، وأبو أمامة، وزيد بن أرقم، وابن مسعود، وعبدالله بن زيد، وسهل بن سعد، وسويد بن جبلة، وأبو بكر، وعمر بن الخطاب، وابن بريدة، وأبو سعيد الخدري، وعبدالله الصنابحي، وأبو هريرة، والبراء، وجندب، وعائشة وأسماء ابنتا أبي بكر، وأبو بكر، وخولة بنت قيس، [مسلم (٢٣٠٥)، الترمذي (٢٤٤٣) البخاري (٦٥٩٠) وغيرهم].

فصل

في تفضيله بالمحبة والخلة

جاءت بذلك الأخبار الصحيحة، واختص - ﷺ - على السنة المسلمين بحبيب الله.

٥٤٣ - أخبرنا أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره، عن كريمة بنت محمد، حدثنا أبو الهيثم (ح) وحدثنا حسين بن محمد الحافظ سمعاً عليه، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا عبد بن أحمد، حدثنا أبو الهيثم، حدثنا أبو عبدالله: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا قلنج، حدثنا أبو النضر، عن بسر بن سعيد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لو كنت متخذاً خليلاً - غير ربي - لاتخذت أبا بكر» [البخاري (٣٦٥٤)، مسلم (٢٣٨٢)].

٥٤٤ - وفي حديث آخر: «إن صاحبكم خليل الله» [مسلم (٧/٢٣٨٣)، الترمذي (٣٦٥٩)].

٥٤٥ - ومن طريق عبد الله بن مسعود: «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» [مسلم (٣/٢٣٨٣)].

٥٤٦ - وعن ابن عباس، قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ

ينتظرونه؛ قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون؛ فسمع خديثهم، فقال بعضهم: عجباً! إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً.

وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمة الله تكليماً.

وقال آخر: فيعسى كلمة الله وروحه.

وقال آخر: وأدم اصطفاؤه الله.

فخرج عليهم فسلم، وقال: «قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجَبْتُكُمْ؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَأَدَمُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَحْرُكُ خَلْقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَيَدْخُلْنِيهَا وَمَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلَا فَخْرَ».

٥٤٧ - وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - من قول الله تعالى لَنِيهِ ﷻ: «إِنِّي اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا، فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: أَسْبَحْ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ». قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اختلف في تفسير الخلّة، وأصل اشتقاقها؛ فقيل: الخليل: المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال.

وقيل: الخليل: المختص، واختار هذا القول غير واحد.

وقال بعضهم: أصل الخلّة الاستصفاء؛ وسُمِّي إبراهيم خليل الله؛ لأنه يُوالي فيه ويُعادي فيه؛ وخلّة الله له: نصرته، وجعله إماماً لمن بعده.

وقيل: الخليل: أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلّة وهي الحاجة؛ فسُمِّي بها إبراهيم، لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قبل غيره.

٥٤٨ - إذ جاءه جبريل عليه السلام وهو في المنجنيق، ليُزَمِّي به في النار، قال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا.

وقال أبو بكر بن قُوزك: الخلّة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار.

وقال بعضهم: أصل الخلّة: المحبة؛ ومعناها: الإسعاف والإلطف، والترفع، والتشفيع؛ وقد بين ذلك تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ فَلَمَّ يَعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَمِرُّ لَمَن

يَنَاءُ وَيَعِزُّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾
[المائدة: ١٨].

فأوجب للمحبوب ألا يؤاخذ بذنوبه.

قال: هذا، والخلة أقوى من البتوة؛ لأن البتوة قد يكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَكُ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة؛ فإذا تسمية إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالخلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه، والانقطاع عمن دونه، والإضراب عن الوسائط والأسباب؛ أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفي الطافه عندهما، وما خال بواطنهما من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستبصافيه لهما، واستبصاف قلوبهما عمن سواه، حتى لم يُخال لهما حبٌ لغيره؛ ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه.

٥٤٩ - وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «ولو كنت متخذاً خليلاً لانتخذت أبا بكر خليلاً؛ لكن أخوة الإسلام».

واختلف العلماء وأرباب القلوب: أيهما أرفع درجة: الخلة، أو درجة المحبة؟ فجعلهما بعضهم سواء؛ فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخلة، ومحمداً بالمحبة.

٥٥٠ - وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع؛ واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل» فلم يتخذ.

وقد أطلق المحبة ﷺ لفاطمة، وابنتها، وأسماء، وغيرهم.

واكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة؛ لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم.

وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب؛ ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق؛ وهي ذرعة المخلوق؛ فأما الخالق - جل جلاله - فمتنزه عن الأغراض؛ فمحبه لغيبه تمكينه من سعاده، وعظمته وتوفيقه وتهيته أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه؛ وقصاها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه بينصيرته.

٥٥١ - فيكون كما قال في الحديث: «إذا أحببتك كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به» [البخاري (٦٥٠٢)].

ولا ينبغي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ هَذَا سَوَى التَّجَرُّدِ لِلَّهِ، وَالانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ،
وَالْإِعْرَاضِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ، وَصِفَاءِ الْقَلْبِ لِلَّهِ، وَإِخْلَاصِ الْحَرَكَاتِ لِلَّهِ.

٥٥٢ - كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؛ بِرِضَاهُ يَرْضَى،
وَبِسُخْطِهِ يَسْخَطُ؛ وَمِنْ هَذَا غَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنِ الْخُلَّةِ بِقَوْلِهِ:

قَدْ تَخَلَّلْتُ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا
فَإِذَا مَا نَطَقْتُ كُنْتُ حَدِيثِي وَإِذَا مَا سَكَتُ كُنْتُ الْغَلِيلَا

فَإِذَا مَزِيَّةُ الْخُلَّةِ وَخُصُوصِيَّةُ الْمَحَبَّةِ حَاصِلَةٌ لِنَبِينَا ﷺ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ
الصَّحِيحَةُ الْمُنْتَشِرَةُ، الْمَتَلَقَّةُ بِالْقَبُولِ مِنَ الْأُمَّةِ، وَكَفَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

حَكَى أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ الْكَفَّارُ: إِنَّمَا يَرِيدُ مُحَمَّدٌ أَنْ
تَتَّخِذَهُ خَنَانًا كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ، غَيْظًا لَهُمْ، وَرَغْمًا
عَلَى مَقَالَتِهِمْ، هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فَزَادَهُ شَرَفًا
بِأَمْرِهِمْ بِطَاعَتِهِ، وَقَرَّنَهَا بِطَاعَتِهِ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى التَّوَلَّى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وَقَدْ نَقَلَ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ فُوزَّكَ عَنْ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ كَلَامًا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ
الْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ يَطُولُ، جَمْلَةً إِشَارَاتِهِ إِلَى تَفْضِيلِ مَقَامِ الْمَحَبَّةِ عَلَى الْخُلَّةِ؛ وَنَحْنُ
نَذْكُرُ مِنْهُ طَرَفًا يَهْدِي إِلَى مَا بَعْدَهُ.

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: الْخَلِيلُ يَصِلُ بِالْوَاسِطَةِ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىٰ
إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُتَوَقِّينَ﴾ (٧٥) [الأنعام: ٧٥].

وَالْحَبِيبُ يَصِلُ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَكَانَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (٩) [النجم: ٩].
وَقِيلَ: الْخَلِيلُ: الَّذِي تَكُونُ مَغْفِرَتُهُ فِي حُدِّ الطَّمَعِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٧) [الشعراء: ٨٧].

وَالْحَبِيبُ الَّذِي مَغْفِرَتُهُ فِي حُدِّ الْيَقِينِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ وَعْدَهُ عَلَيْكَ وَهَدْيِكَ مِرطًا مُسْقِيًا﴾ (٢) [الفتح: ٢].

وَالْخَلِيلُ قَالَ: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُعْتَذَرُونَ﴾ (٨٧) [الشعراء: ٨٧].
وَالْحَبِيبُ قِيلَ لَهُ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحریم: ٨]؛ فَابْتَدَىءَ بِالْإِشَارَةِ
قَبْلَ السَّوَالِ.

وَالْخَلِيلُ قَالَ فِي الْمِخْنَةِ: حَسْبِيَ اللَّهُ.

والحبيب قيل له: ﴿يَتَأْتِيَا أَلَيْسَ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والخليل قال: ﴿وَجَعَلْ لِي إِسَدًا صِدْقِي فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

والحبيب قيل له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الأنشراح: ٤] أُعْطِيَ بلا سؤال.

والخليل قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والحبيب قيل له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

[الأحزاب: ٣٣].

وفيما ذكرناه تنبيه على مقصِد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال؛ و ﴿كُلُّ بَعْلٍ عَلَى شَاكِلِيهِ قَرِينٌ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِالشَّفَاعَةِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ

قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

٥٥٣ - أخبرنا الشيخ أبو علي الغساني الجبائي فيما كتب به إليّ بخطه، حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا أبو زيد، وأبو أحمد؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف؛ قال: حدثنا محمد بن إسماعيل؛ قال: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي؛ قال: سمعتُ ابنَ عمر يقول: إنَّ الناسَ يصيرون يوم القيامة جثًّا، كلُّ أمةٍ تتبع نبيها، يقولون: يا فلان! اشفع لنا؛ يا فلان! اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود [البخاري (٤٧١٨)].

٥٥٤ - وعن أبي هريرة: سُئِلَ عنها رسول الله ﷺ، يعني قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فقال: «هي الشفاعة» [الترمذي (٣١٣٧)، أحمد (٤٤٤/٢)].

٥٥٥ - وروى كعب بن مالك، عنه عليه السلام: «يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمِّي عَلَى تَلٍّ، وَيَكُونُنِي رَبِّي حُلَّةٌ خَضِرَاءُ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ؛ فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ» [أحمد (٤٥٦/٣)].

٥٥٦ - وعن ابن عمر رضي الله عنه - وذكر حديث الشفاعة - قال: فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة، فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده.

٥٥٧ - وعن ابن مسعود، عنه عليه السلام: إنه قيامه عن يمين العرش مقاماً لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون.

وَنَحْوَهُ عَنْ كُفَيْبٍ، وَالْحَسَنِ.

٥٥٨ - وفي رواية: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لِأُمْتِي فِيهِ» [أحمد (٤٤١/٢)، (٥٢٨)].

٥٥٩ - وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لِقَائِمُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ» قيل: وما هو؟ قال: «ذَلِكَ يَوْمٌ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ...» الحديث.

٥٦٠ - وعن أبي موسى - رضي الله عنه - عنه ﷺ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نَصْفُ أُمْتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ؛ أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ» [ابن ماجه (٤٣١١)].

٥٦١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! ماذا وَرَدَ عَلَيْكَ فِي الشَّفَاعَةِ؟ فقال: «شَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، يَصْدُقُ لِسَانُهُ قَلْبُهُ» [أحمد (٣٠٧/٢)].

٥٦٢ - وعن أم حَبِيبَةَ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُرِيتُ مَا تَلْقَى أُمْتِي مِنْ بَغْدِي، وَسَفَكَ بَعْضُهُمْ دَمَاءَ بَعْضٍ، وَسَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا سَبَقَ لِلْأُمَمِ قَبْلَهُمْ؛ فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُؤْتِيَنِي شَفَاعَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيهِمْ، فَفَعَلَ» [أحمد (٤٢٧/٦)، (٤٢٨)].

٥٦٣ - وقال حذيفة: يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، حَيْثُ يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ، وَيَنْقُذُهُمُ الْبَصْرُ، حُفَاةَ غُرَاةٍ كَمَا خَلَقُوا، سَكُوتًا لَا تَكَلُّمَ نَفْسٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَيُنَادِي: مُحَمَّدًا! فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمُهْتَدِي مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجِيَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبِّ الْبَيْتِ، قال: فذلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٦٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَتَبَقَّى آخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَآخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ النَّارِ؛ فَتَقُولُ زُمْرَةُ النَّارِ لَزُمْرَةِ الْجَنَّةِ: مَا نَفَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ، فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَيَضْجُونَ، فَيَسْمَعُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَيَسْأَلُونَ آدَمَ وَغَيْرَهُ بَعْدَهُ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ؛ فَكُلٌّ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَأْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَشْفَعُ لَهُمْ، فَذلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

٥٦٥ - ونحوه عن ابن مسعود أيضاً، ومجاهد.

٥٦٦ - وذكره علي بن الحسين عن النبي ﷺ.

٥٦٧ - وقال جابر بن عبد الله لِيَزِيدَ الْفَقِيرِ: سَمِعْتُ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ؟ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ.

قال: نعم. قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يُخْرِجُ اللَّهُ به مَنْ يُخْرِجُ - يعني من النار - وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنميين [مسلم (١٩١/٣٢٠)].

٥٦٨ - وعن أنس نحوه [البخاري (٤٤)، مسلم (١٩٣)]، وقال: فهذا المقام المحمود الذي وُعدّه [أحمد (٣/٢٤٤-٢٤٥)].

٥٦٩ - وعن سلمان: المقام المحمود هو الشفاعة في أمته يوم القيامة.

٥٧٠ - ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال قتادة: كان أهل العلم يزورن المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة. وعلى أن المقام المحمود مقامه - عليه الصلاة والسلام - للشفاعة مذاهب السلف من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين. وبذلك جاءت الشفاعة مُفسّرة في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام. وجاءت مقالة في تفسيرها شاذة عن بعض السلف، يجب ألا تثبت، إذا لم يعضدها صحيح أثر، ولا سند نظر.

ولو صحّت لكان لها تأويل غير مستنكر؛ لكن ما فسرّه النبي ﷺ في صحيح الآثار يرده؛ فلا يجب أن يلتفت إليه، مع أنه لم يأت في كتاب ولا سنة، ولا اتفق على المقال أمة؛ وفي إطلاق ظاهره مُنكر من القول وشبهة.

٥٧١ - وفي رواية أنس وأبي هريرة وغيرهما - دخل حديث بعضهم على بعض - قال ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهنّثون - أو قال: فيلهنّون - فيقولون: لو استشفّعنا إلى ربنا» [البخاري (٤٤) مسلم (٣٢٢/١٩٣)].

٥٧٢ - ومن طريق آخر عنه: «ماج الناس بعضهم في بعض» [البخاري (٧٥١٠) مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٧٣ - وعن أبي هريرة: «وتذنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم ما لا يطبقون ولا يحتملون؛ فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم فيقولون - زاد بعضهم -: أنت آدم أبو البشر، خلقتك الله بينه، ونفخ فيك من روجه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء. اشفع لنا عند ربك حتى يرمحنا من مكاننا؛ ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نهاني عن الشجرة فعصيت؛ نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غبري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً

شُكُورًا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فيقول: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي، [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٤ - قال - في رواية أنس: «ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم» [البخاري (٧٤٤٠)، مسلم (١٩٣)].

٥٧٥ - وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله. فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا - وذكر مثله - ويذكر ثلاث كلمات كَذَبْنَهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، لست لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنه خليل الله» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٦ - وفي رواية: «فإنه عبد آتاه الله التوراة، وكلمه وقربه نحيًا» [البخاري (٧٤٤٠)، أحمد (٢٤٤/٣)].

٥٧٧ - قال: «فيأتون موسى؛ فيقول: لست لها، ويذكر خطيئته التي أصاب، وقتله النفس، نفسي، نفسي، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى؛ فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فأوتى، فأقول: أنا لها.

فأنتليق، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجدًا» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٧٨ - وفي رواية: «فأتي تحت العرش، فأجر ساجدًا» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٧٩ - وفي رواية: «فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يُلهمنيها الله» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٠ - وفي رواية: «يفتح الله علي من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه علي أحد قبلي».

قال - في رواية أبي هريرة -: «فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل ثغطة،

وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُمْتِي؛ يَا رَبِّ! أُمْتِي. فيقول: أَدْخِلْ مِنْ أَمْتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْيَمِينِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا يَمُوتُ ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٨١ - ولم يذكر في رواية أنس هذا الفضل، وقال مكانه: «ثم أُخِرُ ساجداً؛ فيقال لي: يا محمدا! ارفع رأسك، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُمْتِي، أُمْتِي. فيقال: انطلق، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأُخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

ثم أرجع إلى ربي، فَأُخَمِّدُهُ بِتِلْكَ الْمُحَامِدِ...» وذكر مثل الأول؛ وقال فيه: «مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ. قال: فَأَفْعَلُ، ثم أرجع...» وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ؛ فَأَفْعَلُ». وذكر في المرة الرابعة: «فيقال لي: ازفع رأسك، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى.

فيقول: «يَا رَبِّ! أَتَدْنُ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قال: ليس ذلك إليك.

ولكن وعِزَّتِي! وكبريائي! وعظمتي! وجبريائي! لأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٢ - وفي رواية قتادة عنه؛ قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة: «فأقول: يَا رَبِّ! مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» [البخاري (٤٤٧٦)، مسلم (٣٢٢/١٩٣)] أي وجب عليه الخلود.

٥٨٣ وحتى ٥٨٦ - وعن أبي بكر، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد [الترمذي (٣١٤٨)]، وَحَدِيثُهُ مِثْلُهُ [مسلم (١٩٥)]؛ قال: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتَأْتِي الْأَمَانَةُ وَالرَّجْمُ فَتَقُومَانِ جَبَّتِي الصِّرَاطَ.

وذكر في رواية أبي مالك عن حذيفة: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيُشْفَعُ؛ فَيَضْرِبُ الصِّرَاطَ، فَيَمْرُونَ: أَوْلَهُمْ كَالْبَزْقِ، ثم كالزَّيْعِ، وَالطَّيْرِ، وَشَدَّ الرِّجَالِ، وَنَبِيَّكُمْ ﷺ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ. وَذَكَرَ آخِرَهُمْ جَوَازاً...» الحديث.

٥٨٧ - وفي رواية أبي هريرة: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُعْجِزُ» [البخاري (٨٠٦)، مسلم (١٨٢)].

٥٨٨ - وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «يُوضَعُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا،

وَيَبْقَى مِثْبَرِي لَا أَجْلِس عَلَيْهِ، قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّي مُنْتَصِبًا، فيقول الله تبارك وتعالى: مَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأَمْرِكَ؟ فأقول: يَا رَبِّ! عَجِّلْ حَسَابَهُمْ، فَيُذْعَى بِهِمْ، فَيَحَاسِبُونَ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي، وَلَا أزال أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطِيَ صِكَاكًا بِرِجَالٍ قَدْ أَمَرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، حَتَّى إِنَّ خَاوِزَ النَّارِ لَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ! مَا تَرَكْتَ لِغَضَبِ رَبِّكَ فِي أَمْتِكَ مِنْ نِقْمَةٍ.

٥٨٩ - وَمِنْ طَرِيقِ زِيَادِ الثَّمِيرِيِّ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَفْلِقُ الْأَرْضَ عَنْ جُمُجْمَتِهِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَمَعِيَ لَوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَفْتَحُ لَهُ الْجَنَّةَ وَلَا فَخْرَ، فَأَتِي فَأَخَذَ بِحُلْقَةِ الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ؛ فَيَفْتَحُ لِي، فَيَسْتَقْبِلُنِي الْجَبَّارُ تَعَالَى، فَأَخِزُّ لَهُ سَاجِدًا...» [أحمد (١٤٤/٣)] وذكر نحو ما تقدّم.

٥٩٠ - وَمِنْ رِوَايَةِ أَتْنِسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَأَشْفَعَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَشَجَرٍ» [أحمد (٣٤٧/٥)].

فَقَدْ اجْتَمَعَ مِنْ اخْتِلَافِ أَفَاضِ هَذِهِ الْأَثَارِ أَنَّ شَفَاعَتَهُ - ﷺ - وَمَقَامَهُ الْمَحْمُودَ مِنْ أَوَّلِ الشَّفَاعَاتِ إِلَى آخِرِهَا، مِنْ حِينَ يَجْتَمِعُ النَّاسُ لِلْحَشْرِ، وَتَضِيقُ بِهِمُ الْحَنَاجِرُ، وَيَبْلُغُ مِنْهُمْ الْعَرَقُ وَالشَّمْسُ وَالْوُقُوفُ مَبْلَغَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْحِسَابِ، فَيَشْفَعُ حَيْثُ لِلْإِرَاحَةِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْقِفِ، ثُمَّ يُوضَعُ الصُّرَاطُ، وَيَحَاسَبُ النَّاسُ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَخُذِيفَةَ - وَهَذَا الْحَدِيثُ أَثَقَرُ. فَيَشْفَعُ فِي تَعْجِيلِ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْتِهِ إِلَى الْجَنَّةِ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ - ثُمَّ يَشْفَعُ فِيمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَدَخَلَ النَّارَ مِنْهُمْ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ثُمَّ فَيَمْنُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَلَيْسَ هَذَا لِسِوَاهُ ﷺ.

٥٩١ - وَفِي الْحَدِيثِ الْمُنْتَشَرِ الصَّحِيحِ: «الْكَلَّ نَبِيٌّ دَعَا يَدْعُو بِهَا، وَاخْتَبَأَتْ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: مَعْنَاهُ دَعْوَةٌ أَعْلِمَ أَنَّهَا تُسْتَجَابُ لَهُمْ، وَيَبْلُغُ فِيهَا مَرْغُوبُهُمْ، وَإِلَّا فَكَمْ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، وَلِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْهَا مَا لَا يُعَدُّ؛ لَكِنْ حَالُهُمْ عِنْدَ الدَّعَاءِ بِهَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَضُمِنَتْ لَهُمْ إِجَابَةُ دَعْوَةٍ فَيَمْنُ شَاوِوَهُ، يَدْعُونَ بِهَا عَلَى يَقِينٍ مِنَ الْإِجَابَةِ.

٥٩٢ - وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ، وَأَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «الْكَلَّ نَبِيٌّ دَعَا يَدْعُو بِهَا فِي أَمْتِهِ، فَاسْتَجِيبَ لَهُ؛ وَأَنَا أَرِيدُ أَنْ

أَوْخَرُ، ذَهَبَتْ شِفَاعَةُ لَأْمَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ [مسلم (٣٤٠/١٩٩)، البخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)].
٥٩٣ - وفي رواية أبي صالح: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي
دعوته» [مسلم (٣٣٨/١٩٩)].

٥٩٤ - ونحوه في رواية أبي رَزَعَةَ عن أبي هريرة [مسلم (٣٣٩/١٩٩)].
٥٩٥ - وعن أنس [البخاري (٦٣٠٥)، مسلم (٢٠٠)] مثل رواية ابن زياد، عن
أبي هريرة.

فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة؛ مضمونة الإجابة؛ وإلا فقد
أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا أعطي بعضها، ومنع
بعضها، واذخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقية، وخاتمة المِخْن، وعظيم السؤال
والرغبة.

جزأه الله أحسن ما جزى نبياً عن أمته، وصلى الله عليه وسلم كثيراً.

فصل

في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكثرة والفضيلة

٥٩٦ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عيسى التميمي، والفقيه أبو
الوليد: هشام بن أحمد، بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا أبو علي الغساني، حدثنا
الثُمَرِيُّ، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر الثمار، حدثنا أبو داود، حدثنا
محمد بن سلمة، حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، وخيوثة، وسعيد بن أبي أيوب،
عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص،
أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا
علي؛ فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً؛ ثُمَّ سَلُوا الله تعالى لي الوسيلة؛
فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله؛ وأرجو أن أكون أنا هو، فمن
سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» [مسلم (٣٨٤)، أبو داود (٥٢٣)].

٥٩٧ - وفي حديث آخر، عن أبي هريرة: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة»
[الترمذي (٣٦١٢)].

٥٩٨ - وعن أنس: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا أمير في الجنة إذ عرض
لي نهر حائطه قباب اللؤلؤ.

قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله. قال: ثم ضرب

بيده إلى طينته، فاستخرج مِنْكَ» [البخاري (٦٥٨١)، مسلم (٤٠٠)، الترمذي (٣٣٦٠)].
٥٩٩، ٦٠٠ - وعن عائشة [البخاري (٤٩٦٥)] وعبدالله بن عمر مثله. قال:
 «ومَجَرَاهُ عَلَى الذَّرِّ والْيَاقُوتِ، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج» [الترمذي
 (٣٣٦١)، ابن ماجه (٤٣٣٤)، أحمد (١١٢/٢)].

٦٠١ - وفي رواية، عنه: «إِذَا هُوَ يَجْرِي، وَلَمْ يَشُقَّ شَقًّا، عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ
 عَلَيْهِ أُمَّتِي...» [أحمد (٢٤٧/٣)]، وذكر حديثَ الْحَوْضِ.

٦٠٢ - ونحوه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.
٦٠٣ - وعن ابن عباس أيضاً، قال: الكَوْثَرُ: الخير الذي أعطاه الله إِيَّاهُ
 [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٤ - وقال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: والنهرُ الذي في الجنة من الخير الذي
 أعطاه الله [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٥ - وعن حُذَيْفَةَ، فيما ذَكَرَهُ - عليه السلام - عن رَبِّهِ: «وَأَعْطَانِي الْكَوْثَرَ،
 وَهُوَ نَهْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، يَسِيلُ فِي حَوْضِي».

٦٠٦ - وعن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ﴿٥﴾
 [الضحى: ٥]؛ قال: أَلْفُ قَصْرِ مِنْ لُؤْلُؤٍ، تُرَابُهُنَّ الْمِسْكُ، وفيه ما يُصْلِحُهُنَّ. وفي
 رواية أخرى: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم.

فصل

فِي مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِتَنْهِيهِ ﷺ عَنْ تَفْضِيلِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ

٦٠٧ - فَإِنْ قُلْتُ: إِذَا تَقَرَّرَ مِنْ دَلِيلِ الْقُرْآنِ، وَصَحِيحِ الْأَثَرِ، وَاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ
 - كَوْنُهُ أَكْرَمَ الْبَشَرِ، وَأَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ - فَمَا مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِتَنْهِيهِ عَنْ
 التَّفْضِيلِ؟ كَقَوْلِهِ - فيما حدثنا الْأَسَدِيُّ - قال: حدثنا السَّمَرَقَنْدِيُّ، حدثنا الْفَارَسِيُّ،
 حدثنا الْجُلُودِيُّ، حدثنا ابْنُ سَفِيَّانٍ، حدثنا مُسْلِمٌ، حدثنا ابْنُ مُثَنَّى، حدثنا
 مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حدثنا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ يَقُولُ: حَدَّثَنِي ابْنُ
 عَمٍّ نَبِيِّكُمْ ﷺ - يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ
 يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [مسلم (٢٣٧٧)، البخاري (٣٤١٣)].

٦٠٨ - وفي غير هذا الطريق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال
 - يَعْنِي اللَّهَ -: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ...» الحديث [مسلم (٢٣٧٦)، البخاري (٣٤١٦)].

٦٠٩ - وفي حديث أبي هريرة، في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر! فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «لا تفضلوا بين الأنبياء».

٦١٠ - وفي رواية: «لا تخيروني على موسى» فذكر الحديث.

٦١١ - وفيه: «ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى» [البخاري (٣٤١٥)، مسلم (١٥٩/٢٤٧٣)].

٦١٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» [البخاري (٤٦٠٤، ٤٨٠٥)].

٦١٣ - وعن ابن مسعود: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى» [البخاري (٣٤١٢)].

٦١٤ - وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجل، فقال له: يا خير البرية! فقال: «ذاك إبراهيم» [مسلم (٢٣٦٩)].

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات: أحدها: أن نفيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم؛ فنهى عن التفضيل؛ إذ يحتاج إلى توقف؛ وأن من فضل بلا علم فقد كذب.

٦١٥ - وكذلك قوله: «لا أقول إن أحداً أفضل منه» لا يقتضي تفضيله هو؛ وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قاله ﷺ على طريق التواضع، ونفي التكبر والعجب. وهذا لا ينسلم من الاعتراض.

الوجه الثالث: ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم، أو الغرض منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام؛ إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غشاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة؛ إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]، ﴿إِذْ دَهَبَ مُفْنِنًا فَلَمْ يَأْنِ أَنْ يُنْقَذَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فربما يخيل لمن لا علم عنده خطيئته، بذلك.

الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة؛ فإن الأنبياء فيها على حد واحد؛ إذ هي شيء واحد لا يتفاضل؛ وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطف؛ وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل؛ وإنما التفاضل بأمور آخر زائدة عليها؛ ولذلك منهم رسل، ومنهم أولو عزم من

الرسول؛ ومنهم مَنْ رُفِعَ مكاناً عليّاً؛ ومنهم مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ صَبِيّاً؛ وَأُوتِيَ بَعْضُهُم الزُّبُرَ، وَبَعْضُهُم الْبَيِّنَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ؛ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنصُرُنَا دَاوُدُ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمْ فِي هَذَا حَقَّ حَقٍّ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: والتفصيل المرادُ لهم هنا في الدنيا؛ وذلك بثلاثة أحوال: أن تكونَ آيَاتُهُ وَمُعْجَزَاتُهُ أَبْهَرَ، وَأَشْهَرَ؛ أو تكونَ أُمَّتُهُ أَزْكَى وَأَكْثَرَ؛ أو يكونَ في ذاته أَفْضَلُ وَأَطْهَرُ، وَفَضْلُهُ في ذاته راجِعٌ إلى ما خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَاخْتِصَاصِهِ مِنْ كَلَامٍ، أو خُلُقٍ، أو رُؤْيَةٍ، أو ما شاءَ اللَّهُ مِنَ الطَّائِفَةِ، وَتَحَفٍّ وَلايَةٍ، وَاخْتِصَاصِهِ.

٦١٦ - وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ لِلنَّبِیَّةِ أَثْقَالَ؛ وَإِنَّ یُونُسَ تَفَسَّخَ مِنْهَا تَفَسَّخَ الرَّبْعِ» فَحَفِظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْضِعَ الْفِتْنَةِ، مِنْ أَوْهَامٍ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بِسَبَبِهَا جَزَخَ فِي نُبُوتِهِ، أو قَذَخَ فِي اضْطِغَائِهِ، وَخَطَّ مِنْ رُتْبَتِهِ، وَوَهَنَ فِي عَصَمَتِهِ، شَفَقَةً مِنْهُ - ﷺ - عَلَى أُمَّتِهِ.

وقد يتوجَّه - على هذا الترتيب - وَجْهٌ خَامِسٌ؛ وهو أن يكونَ «أَنَا» رَاجِعاً إلى القائلِ نَفْسِهِ؛ أي لا يَظُنُّ أَحَدٌ - وإن بلغَ مِنَ الذِّكَاةِ وَالْعِصْمَةِ وَالطَّهَارَةِ، ما بلغَ - أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ یُونُسَ، لِأَجْلِ ما حَكَّى اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ دَرَجَةَ النَّبِیَّةِ أَفْضَلُ وَأَعْلَى، وَإِنَّ تِلْكَ الْأَقْدَارَ لَمْ تَحْطَ، عَنْهَا حَبَّةٌ خَزْدَلٍ وَلَا أَذْنَى.

وسنزيد في القسم الثالث من هذا بياناً. إن شاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فقد بانَ لَكَ الْغَرَضُ، وسقطَ بما حَرَزْنَاهُ شُبُهَةَ الْمُغْتَرِضِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ، وهو الْمُسْتَعَانُ، لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

فصل

فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا تَصَمَّنَتْهُ مِنْ تَفْضِيلِهِ

٦١٧ - حدثنا أبو عمران: موسى بن أبي تليد الفقيه؛ قال: حدثنا أبو عمرو الحافظ، حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ» [البخاري (٣٥٣٢)، مسلم (١٢٥٠/٢٣٥٤)].

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً، وأحمد.

فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه؛ وطوى أثناء ذكره عظيم شكره.

فأما اسمه أحمد: فافعل، مبالغة من صفة الحمد.

ومحمد: مفعّل، مبالغة من كثرة الحمد؛ فهو - ﷺ - أجل من حمد وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمداً؛ فهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لبوء الحمد يوم القيامة ليتّم له كمال الحمد، ويتشهر في تلك الغرضات بصفة الحمد، ويبعثه ربّه هناك مقاماً محموداً كما وعده؛ يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم.

٦١٨ - ويفتح عليه فيه من المحامد - كما قال ﷺ - ما لم يغطّ غيره.

٦١٨م - وسُمّي أمته في كتب أنبيائه بالحمّادين؛ فحقيق أن يسمّى محمداً وأحمد.

ثم في هذه الاسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته - فنّ آخر؛ وهو أن الله جلّ اسمه حمى أن يسمّى بهما أحد قبل زمانه.

وأما أحمد الذي أتى في الكتب ونشرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمّى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك.

وكذلك محمد أيضاً لم يسمّ به أحد من العرب، ولا غيرهم، إلى أن شاع قبيل وجوده - ﷺ - وميلاده أن نبأ يبعث اسمه محمد؛ فسُمّي قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك؛ وجاء أن يكون أحدهم هو. والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ وهم: محمد بن أخينة بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن بزء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي، لا سابع لهم.

ويقال: أول من تسمّى بمحمد محمد بن سفيان. واليمن تقول: بل محمد بن اليخمد، من الأزد.

ثم حمى الله كل من تسمّى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت السماتان له ﷺ، ولم ينازع فيهما.

وأما قوله ﷺ: «وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرة» ففسّر في الحديث.

ويكون مَخَوُ الْكُفْرِ إِمَّا مِنْ مَكَّةَ وَبِلَادِ الْعَرَبِ؛ وَمَا رُويَ لَهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَوُعِدَ أَنَّهُ يَبْلُغُهُ مُلْكُ أُمَتِهِ؛ أَوْ يَكُونُ الْمَخَوُ عَامًّا، بِمَعْنَى الظُّهُورِ وَالْعَلْبَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٣].

٦١٩ - وقد ورد تفسيره في الحديث: أَنَّهُ الَّذِي مُجِيتَ بِهِ سِنِثَاتُ مَنْ أَتْبَعَهُ. وقوله: «وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي» أَي عَلَى زَمَانِي وَعَهْدِي؛ أَي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَاعَدُ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب: ٤٠]. وَسُمِّيَ عَاقِبًا؛ لِأَنَّهُ عَقَبَ - عَلَيْهِ السَّلَام - غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. ٦٢٠ - وفي الصحيح: «أَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ» [مسلم: ١٢٥٠/٢٣٥٤].

وقيل: معنى «عَلَى قَدَمِي» أَي: يُخَشِّرُ النَّاسَ بِمُشَاهَدَتِي؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَكُونَنَّ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: «عَلَى قَدَمِي» عَلَى سَابِقَتِي؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وقيل: «عَلَى قَدَمِي» أَي قُدَّامِي، وَخَوَلِي؛ أَي يَجْتَمِعُونَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقيل: «عَلَى قَدَمِي» عَلَى سُنَّتِي. ومعنى قوله: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ» قِيلَ: إِنَّهَا مُوجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَعِنْدَ أَوَّلِي الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ٦٢١ - وقد رُويَ عَنْهُ ﷺ: «لِي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ» وَذَكَرَ مِنْهَا: ﴿طِه﴾ ① و ﴿يَس﴾ ②؛ خُكَاةً مَكِّيًّا.

وقد قيل في بعض تفاسير ﴿طِه﴾ ①: «إِنَّهُ يَا طَاهِرُ! يَا هَادِي! وَفِي ﴿يَس﴾ ②: «يَا سَيِّدَا حِكَاةِ السُّلَمِيِّ عَنِ الْوَاسِطِيِّ، وَجَعَفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ. ٦٢٢ - وَذَكَرَ غَيْرُهُ: «لِي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ» فَذَكَرَ الْخَمْسَةَ الَّتِي فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ؛ قَالَ: «وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ، وَرَسُولُ الرَّاحَةِ، وَرَسُولُ الْمَلَاخِمِ». ٦٢٢ م - «وَأَنَا الْمُقَفِّي، قَفَّيْتُ النَّبِيِّينَ».

٦٢٣ - «وَأَنَا قَيِّمٌ وَالْقَيِّمُ: الْجَامِعُ الْكَامِلُ؛ كَذَا وَجَدْتُهُ، وَلَمْ أَزِرْهُ. وَأَرَى أَنَّ صَوَابَهُ قُتِّمَ - بِالشَّاءِ - كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَعْدَ عَنِ الْحَرَبِيِّ؛ وَهُوَ أَشْبَهُهُ بِالتَّقْسِيرِ.

وقد وقع أيضاً في كتب الأنبياء: قَالَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ! ابْعَثْ لَنَا مُحَمَّدًا قَيِّمَ السَّنَةِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْقَيِّمُ بِمَعْنَاهُ.

٦٢٤ - وروى النقاش عنه ﷺ : «لي في القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد، ويسر، وطه، والمدثر، والمزمل، وعبدالله».

٦٢٥ - وفي حديث عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: «وهي ست: محمد، وأحمد، وخاتم، وعاقب، وحاشر، وماج».

٦٢٦ - وفي حديث أبي موسى الأشعري، أنه كان ﷺ يُسمي لنا نفسه أسماء، فيقول: «أنا محمد، وأحمد، والمُقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، ونبي الرحمة» [مسلم (٢٣٥٥)].

ويروى: «المرحمة» و «الراحة».

وكل صحيح إن شاء الله.

ومعنى «المُقفي» معنى «العاقب».

وأما نبي الرحمة، والتوبة، والمرحمة، والراحة فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكما وصفه بأنه يركبهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. ويهديهم إلى صراط مستقيم. و ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَءَوْكُمْ رَجِئًا﴾ [التوبة: ١٢٨].

٦٢٧ - وقد قال في صفة أمته إنها: «أمة مرحومة» [ابو داود (٤٢٧٨)].

وقال الله تعالى فيهم: ﴿وَوَاصُوا بِاَصْفِرٍ وَوَاصُوا بِاَلْمَرْمَةِ﴾ [البلد: ١٧] أي يرحم بعضهم بعضاً؛ فبعثه - ﷺ - ربّه تعالى رحمةً لأمته، ورحمةً للعالمين، ورحيماً بهم، ومُفرحاً ومستغفراً لهم، وجعل أمته مرحومة، ووصفها بالرحمة.

٦٢٨ - وأمرها ﷺ بالتراحم، وأثنى عليه؛ فقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَابَدَهُ الرَّحْمَاءُ» [الحارثي (٧٤٤٨)، مسلم (٩٢٣)].

٦٢٩ - وقال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» [أبو داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤)، أحمد (١٦٠٢)].

وأما رواية «نبي الملحمة» فإشارة إلى ما نعت به من القتال والسيف ﷺ؛ وهي صحيحة.

٦٣٠ - وعن خديجة مثل حديث أبي موسى، وفيه: «ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم».

٦٣١ - وروى الحزبي في حديثه عليه السلام أنه ﷺ قال: «أَتَانِي مَلَكٌ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ قَسَمٌ» أي مُجتمع. قال: والقسم: الجامع للخير؛ وهذا اسم هو في أهل بيته عليه السلام معلوم.

وقد جاءت من ألقابه - ﷺ - وسماته في القرآن عدة كثيرة سيوى ما ذكرناه؛ كالشور، والسرّاج المنير، والمُنذِر، والتّذير، والمبشّر، والبشير، والشاهد، والشهيد، والحقّ المُبين، وخاتم النبيّين، والرؤوف الرّحيم، والأمين، وقَدَم الصّدق، ورّحمة العالمين، ونعمة اللّهِ، والعروة الوثقى، والصّراط المستقيم، والتّجَم الثّاقب، والكريم، والنبيّ الأمّي، وذاعِي اللّهِ، في أوصاف كثيرة، وسمات جليّة.

وجرى منها في كُتب اللّهِ المتقدّمة، وكُتب أنبيائه، وأحاديث رسوله، وإطلاقِ الأمة جملةً شافية؛ كتسميته بالمُضطّقى، والمُجتبى، وأبي القاسم، والحبيب، ورسول ربّ العالمين، والشفيع المُشفّع، والمُتقي، والمُصلِح، والطاهر، والمُهَيّمين، والصادق، والمصدّق، والهادي، وسيد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المُحجّلين، وحبيب اللّهِ وخليلِ الرّحمن وصاحبِ الحَوْضِ المورود، والشفاعة، والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة، والفضيلة، والدّرجة الرفيعة، وصاحب التّاج، والمِعراج، واللواء، والقضيب، وراكب البراق؛ والناقة، والتّجيب، وصاحبِ الحُجّة والسلطان، والخاتم، والعلامة، والبُرّهان، وصاحبِ الهراوة والتّغليّن.

ومن أسمائه في الكُتب: المتوكّل، والمختار، ومُقيم السنّة، والمُقدّس، وروح القدس وروح الحق؛ وهو معنى البارّقُليط في الإنجيل. وقال ثعلب: البارّقُليط: الذي يفرّق بين الحقّ والباطل.

ومن أسمائه في الكتب السالفة؛ ما ذمّه؛ ومعناه طيّب، طيّب، وخمطايا، والخاتم، والحاتم؛ حكاه كعب الأحبار.

قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم الله به الأنبياء. والحاتم: أحسن الأنبياء خلقاً وخلقاً.

ويسمى بالسريانية: مُشَقَّح، والمُنَحِمًا؛ واسمه أيضاً في التوراة أُحِيد. روي ذلك عن ابن سيرين.

ومعنى صاحب القضيب؛ أي السيف؛ وقع ذلك مفسّراً في الإنجيل؛ قال: معه قُضيب من حَدِيد يقاتلُ به، وأُمته كذلك.

وقد يحتملُ على أنه القضيب الممشوق الذي كان يُمسِكُه ﷺ؛ وهو الآن عند الخلفاء.

٦٢٢ - وأما الهزاوة التي وُصِفَ بها فهي - في اللغة - العضا؛ وأراها - والله أعلم - العضا المذكورة في حديث الخوض: «أذود الناس عنه بغضاي، لأهل اليمن» [مسلم (٢٣٠١)].

وأما التاج فالمراد به العمامة، ولم تكن حينئذ إلا للعرب، والعمائم تيجان العرب.

وأوصافه، وألقابه، وسماته في الكتب كثيرة؛ وفيما ذكرناه منها مفتح إن شاء الله. وكانت كُنْيته المشهورة أبا القاسم.

٦٢٣ - وزوي عن أنس: أنه لما وُلِدَ له إبراهيم جاءه جبريل فقال له: «السلام عليك يا أبا إبراهيم».

فصل

فِي تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْخُسْنَى وَوُصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْغَلَا

قال المؤلف: ما أحرى هذا الفصل بفصول الباب الأول! لانخراطه في سلك مضمونها، وامتزاجه بغذب معينها؛ لكن لم يشرح الله الضدز للهداية إلى استنباطه، ولا أناز الفكر لاستخراج جوهره والتقاطه إلا عند الخوض في الفصل الذي قبله؛ فراينا أن نُضيفه إليه، ونجمع به شمله.

فاعلم أن الله تعالى خص كثيراً من أنبيائه بكرامة خلعها عليهم من أسمائه؛ كتسمية إسحاق، وإسماعيل بـ «عليم» و «حليم»، وإبراهيم بـ «حليم» ونوح بـ «شكور» وعيسى ويحيى بـ «بز» وموسى بـ «كريم» و «قوي» ويوسف بـ «حفيظ» وإليهم وأيوب بـ «صابر» وإسماعيل بـ «صادق الوعد» كما نطق بذلك الكتاب العزيز في مواضع ذكرهم. صلى الله وسلم على جميعهم.

وقضل محمداً نبينا ﷺ: بأن خلاه منها في كتابه العزيز، وعلى السنة أنبيائه بعدة كثيرة. اجتمع لنا منها جملة بعد إعمال الفكر، وإحضار الذكر، إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين، ولا من تفرغ فيها لتأليف فضلين.

وحزنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين اسماً؛ ولعل الله تعالى - كما ألهم إلى ما علم منها وحققه - يثم النعم بإبانة ما لم يظهره لنا الآن، ويفتح غلقه.

فمن أسمائه تعالى: «الحميد» ومعناه المحمود؛ لأنه خجد نفسه، وخمده

عباده، ويكون أيضاً بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات.

وسمى الله تعالى النبي ﷺ محمداً، وأحمد؛ فـ «محمّد» بمعنى محمود، وكذا وقع اسمه في زبور داود.

و «أحمد» بمعنى أكبر من حمد؛ وأجل من حمد، وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وَشَقُّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِجِلُّهُ قَدْوَ الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

ومن أسمائه تعالى: «الرؤوف الرحيم» وهما بمعنى متقارب.

وقد سماه في كتابه بذلك؛ فقال: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَهَوْا رَجِيمًا﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: «الحق المبين» ومعنى الحق: الموجود، والمتحقق أمره، وكذلك المبين؛ أي البين أمره وإلهيته.

«بان» و «أبان» بمعنى واحد ويكون بمعنى المبين لعباده أمر دينهم ومعادهم.

وسمى النبي - ﷺ - بذلك في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿حَقَّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولُهُ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨].

وقال تعالى ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥]؛ قيل: محمداً. وقيل القرآن. ومعناه ههنا ضد الباطل، والمتحقق صدقه وأمره، وهو بمعنى الأول.

و «المبين»: البين أمره ورسالته، أو المبين عن الله ما بعثه به؛ كما قال تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أسمائه تعالى: «الثور» ومعناه ذو الثور، أي خالقه، أو منور السموات والأرض بالأنوار، ومنور قلوب المؤمنين بالهداية.

وسماه نوراً؛ فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]؛ قيل: محمداً. وقيل: القرآن.

وقال فيه: ﴿وَمَرْجَا مُبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، سمي بذلك لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتبوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى: «الشهيد» ومعناه: العالم. وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وَسَمَاءَ شَهِيداً وَشَاهِداً؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وهو بمعنى الأول.

ومن أسمائه تعالى: «الكريم» ومعناه: الكثير الخير.

وقيل: المفضل. وقيل: الغفور. وقيل: الغلي.

٦٢٤ - وفي الحديث المزوي في أسمائه تعالى: «الأكرم».

وسمّاه تعالى كريماً بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]؛ قيل:

محمد. وقيل: جبريل.

٦٢٥ - وقال عليه السلام: «أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ».

ومعاني الأسماء صحيحة في حقّه ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: «العظيم» ومعناه: الجليل الشأن، الذي كل شيء دونه.

وقال في النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤].

ووقع في أول سفر من التوراة، عن إسماعيل: وستلد عظيماً، لأمة عظيمة؛

فهو عظيم، وعلى خلق عظيم.

ومن أسمائه تعالى: «الجبار» ومعناه: المصلح، وقيل: القاهر. وقيل: الغلي

العظيم الشأن. وقيل: المتكبر.

وسمّي النبي ﷺ في كتاب داود بخبار؛ فقال: ثَقُلْتُ أَيُّهَا الْجَبَّارُ سَيْفُكَ؛

فإن نأفوسك وشرائعك مقرونة بهيئة يمينك.

ومعناه في حق النبي ﷺ: إما لإصلاحه الأمة بالهداية والتعليم، أو لبقائه

أعداءه، أو لعلو منزلته على البشر، وعظيم خطره.

ونفى تعالى عنه - في القرآن - جبرية التكبر التي لا تليق به؛ فقال: ﴿وَمَا

أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

ومن أسمائه تعالى: «الخبير» ومعناه: المطلع بكنه الشيء، العالم بحقيقته.

وقيل: معناه المخبر.

وقال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرِيهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

قال القاضي بخر بن العلاء: المأمور بالسؤال غير النبي عليه السلام

والمسؤول الخبير هو المصطفى ﷺ.

وقال غيره: بل السائل النبي ﷺ. والمسؤول هو الله تعالى؛ فالنبي خبير

بالوجهين المذكورين؛ قيل: لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من

مَكُونِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ مَعْرِفَتِهِ، مُخْبِرِ لَأَمْتِهِ بِمَا أُذِنَ لَهُ فِي إِعْلَامِهِمْ بِهِ.
وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْفَاتِحُ» وَمَعْنَاهُ: الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، أَوْ فَاتِحُ أَبْوَابِ
الرِّزْقِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْمُتَغَلِّقُ مِنْ أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ أَوْ يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ لِمَعْرِفَةِ
الْحَقِّ؛ وَيَكُونُ أَيْضاً بِمَعْنَى النَّاصِرِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ
الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]؛ أَي: إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصْرُ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ
مُبْتَدِئُ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ.

٦٣٦ - وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ بِـ «الْفَاتِحِ» فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ
الطَوِيلِ مِنْ رَوَايَةِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنْسَ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ؛ وَفِيهِ: مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَاكَ فَاتِحاً وَخَاتِماً».
وَفِيهِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ثَنَائِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَتَعْدِيدِ مَرَاتِبِهِ: «وَرَفَعَ لِي
ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحاً وَخَاتِماً»؛ فَيَكُونُ الْفَاتِحُ - هُنَا - بِمَعْنَى الْحَاكِمِ، أَوْ الْفَاتِحِ
لِأَبْوَابِ الرَّحْمَةِ عَلَى أُمَّتِهِ، أَوْ الْفَاتِحِ لِبَصَائِرِهِمْ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ أَوْ
الْناصرِ لِلْحَقِّ، أَوْ الْمُبْتَدِئِ بِهَدَايَةِ الْأُمَمِ، أَوْ الْمُبْدَأُ الْمُقَدَّمُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْخَاتِمُ
لَهُمْ.

٦٣٧ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ، وَأَخِيرَهُمْ فِي
الْبَقَاءِ».

٦٣٧ م - وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ: «الشُّكُورُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُثِيبُ عَلَى
الْعَمَلِ الْقَلِيلِ. وَقِيلَ: الْمُثْنِي عَلَى الْمُطِيعِينَ؛ وَوَصَفَ بِذَلِكَ نَبِيَّهٖ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ
فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٦٣٨ - وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ نَفْسَهُ فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»
أَي مُغْتَرِفًا بِنِعَمِ رَبِّي، عَارِفًا بِقُدْرِ ذَلِكَ، مُثْنِياً عَلَيْهِ، مُجْهَدًا نَفْسِي فِي الزِّيَادَةِ مِنْ
ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: الْعَلِيمُ، وَالْعَلَامُ. وَعَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.
وَوَصَفَهُ نَبِيَّهٖ ﷺ بِالْعِلْمِ؛ وَخَصَّهُ بِمَرْيَةِ مِنْهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَالَ: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].
وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ» وَمَعْنَاهُمَا: السَّابِقُ لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ
وُجُودِهَا، وَالْبَاقِي بَعْدَ فَنَائِهَا.

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ.

٦٣٩ - وقال ﷺ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ؛ وَأَخْرَجْتُهُمْ فِي الْبَغْتِ». وَفُسِّرَ بِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الاحزاب: ٢٧] فَقَدَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وقد أشار إلى نُحُوٍّ مِنْهُ عُمرُ بْنُ الْحَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦٤٠ - وَمِنْهُ قَوْلُهُ: «نَحْنُ الْآخَرُونَ السَّابِقُونَ» [البحاري (٨٧٦)، مسلم (٨٥٥)].

٦٤١ - وَقَوْلُهُ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ» [مسلم (٢٢٧٨)] وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَجَزُ الرُّسُلِ ﷺ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْقَوِيُّ»، وَ «ذُو الْقُوَّةِ الْعَتِيقِ» وَمَعْنَاهُ: الْقَادِرُ.

وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِيدٍ﴾ [التكوير: ٢٠]؛ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. وَقِيلَ: جَبْرِيلُ.

٦٤١ م - وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الصَّادِقُ» فِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ.

٦٤٢ - وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَيْضًا اسْمُهُ ﷺ بِ «الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ» [البحاري (٣٢٠٨)، مسلم (٢٦٤٣)].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْوَلِيُّ» وَ «الْمَوْلَى» وَمَعْنَاهُمَا: التَّائَصُّرُ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥].

٦٤٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَا وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ» [أحمد (٣٧١/٣)، البخاري (٢٢٩٨)، مسلم (١٦١٩)].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنْفُسِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٦].

٦٤٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاَهُ فَعَلَيْهِ مَوْلَاةٌ».

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْعَفْوُ» وَمَعْنَاهُ: الصَّفُوحُ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا نَبِيَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي التَّوْرَةِ، وَأَمْرُهُ بِالْعَفْوِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وَقَالَ: ﴿فَاعْفُ عَنَّهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

٦٤٥ - وَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ قَالَ: «أَنْ تَغْفُوَ عَنْ ظُلْمِكَ».

٦٤٦ - وَقَالَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، فِي صِفَتِهِ: «لَيْسَ بَقَطٌّ، وَلَا غَلِيظٌ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيُصْفَحُ».

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْهَادِي» وَهُوَ بِمَعْنَى تَوْفِيقِ اللَّهِ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُمْعِنُ الدَّلَالََةَ وَالِدُعَاءَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ كَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ

يَرْطِبُ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٥﴾ [يونس: ٢٥] وَأَصْلُ الْجَمِيعِ مِنَ الْمَيْلِ. وَقِيلَ: مِنَ التَّقْدِيمِ.

وقيل في تفسير ﴿طه ١٥﴾: إنه: يا طاهرا يا هادي! يعني النبي ﷺ. وقال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فَاللَّهُ تَعَالَى مُخْتَصَّ بِالْمَعْنَى الْأُولَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وبمعنى الدلالة يَنْطَلِقُ عَلَى غَيْرِهِ تَعَالَى.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيِّمُن» قِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ؛ فَمَعْنَى الْمُؤْمِنِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى: الْمُصَدِّقُ وَغَدَهُ عِبَادَهُ، وَالْمُصَدِّقُ قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَالْمُصَدِّقُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُسُلِهِ. وَقِيلَ: الْمُوَحِّدُ نَفْسَهُ. وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُ عِبَادَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمِهِ، وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهِ.

وقيل: الْمُهَيِّمُن بِمَعْنَى الْأَمِينِ، مُصْغَرٌّ مِنْهُ، فَقُلِّبَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُمْ فِي الدُّعَاءِ: آمِينَ، إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ.

وقيل: الْمُهَيِّمُن بِمَعْنَى الشَّاهِدِ وَالْحَافِظِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَمِينٌ، وَمُهَيِّمُنٌ، وَمُؤْمِنٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمِينًا؛ فَقَالَ: ﴿مُطَاعٍ ثُمَّ آمِينَ﴾ [التكوير: ٢١].

٦٤٧ - وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُغَرِّفُ بِالْأَمِينِ، وَشَهَرَ بِهِ قَبْلَ النَّبَوَّةِ وَبَعْدَهَا.

٦٤٨ - وَسَمَّاهُ الْعَبَّاسُ، فِي شِعْرِهِ مُهَيِّمًا فِي قَوْلِهِ:

ثُمَّ احْتَوَى بِبَيْتِكَ الْمُهَيِّمِينَ مِنْ خَنْدِيفٍ عَلَيَاءَ تَحْتَهَا السُّطُوقُ

قِيلَ: الْمُرَادُ: يَا أَيُّهَا الْمُهَيِّمُنُ! قَالَه الْقُتَيْبِيُّ، وَالْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الشُّشَيْرِيُّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]؛ أَيُّ: يَصَدِّقُ.

٦٤٩ - وَقَالَ ﷺ: «أَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي»، فَهَذَا بِمَعْنَى الْمُؤْمِنِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْقُدُّوسُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُنَزَّاهُ عَنِ النِّقَاصِ الْمَطْهُرُ مِنْ

سِمَاتِ الْحَدَثِ؛ وَسُمِّيَ «بَيْتَ الْمُقَدَّسِ» لِأَنَّهُ يُطَهَّرُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ وَمِنْهُ: الْوَادِي الْمَقْدَسُ، وَرُوحُ الْقُدُسِ.

وَوَقَعَ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «الْمَقْدَسُ» أَيُّ: الْمَطْهُرُ مِنْ

الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

أو الذي يُنْظَرُ به من الذنوب، ويُتَزَه بِاتِّبَاعِهِ عنها، كما قال ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].
أو يكون مقدماً بمعنى مطهراً، من الأخلاق الدميمة. والأوصاف الدينية.
ومن أسمائه تعالى: «العزیز» ومعناه: المُمْتَنِع، الغالب، أو الذي لا يُظْهِرُ
له، أو المُعْزَلُ لغيره؛ وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨] أي:
الامتناع وخلافة القدر.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والندارة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَبِرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١].
وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِسَخِيٍّ مُّضِلًّا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] و ﴿يَكْفُرُوا
مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسماه الله تعالى مُبَشِّراً، وتُدَبِّراً وشبِّيراً: أي مُبَشِّراً لأهل طاعته، وتُدَبِّراً
لأهل معصيته.

ومن أسمائه تعالى فيما ذكره بعض المفسرين: ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ و ﴿س﴾
وقد ذكر بعضهم أيضاً أنهما من أسماء محمد ﷺ وشرف وكرم.

فصل

فِي أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ ذَوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ،

وَصِفَاتِهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: وما أنا أذكرُ نُكْتَةً أَذْبَلُ بها هذا
القَصْلُ، وأَحْتِمُ بها هذا القسم، وأزِيحُ الإشْكَالَ بها فيما تقدم عن كل ضعيف
الوهم، سَفِيفِ الفهم، تَخْلُصُهُ من مَهَاوِي التشبيه، وتَرْحِزُهُ عن شُبُهَةِ التَمْوِيهِ؛ وهو
أَن يَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّ اسْمُهُ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَمَلَكُوتِهِ، وَخَشَى أَسْمَاءَهُ،
وَعَلَيْهِ صِفَاتِهِ، لَا يُشَبِّهُ شَيْئاً من مخلوقاته، وَلَا يَشَبُّهُ بِهِ؛ وَأَنَّ مَا جَاءَ مما أَطْلَقَهُ
السُّرْعُ عَلَى الْخَالِي وَعَلَى الْمَخْلُوقِ؛ فَلَا تَشَابُهَ بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ؛ إِذْ
صِفَاتُ الْقَدِيمِ بخلاف صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ؛ فَكَمَا أَنَّ ذَاتَهُ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ الذَوَاتِ،
كَذَلِكَ صِفَاتُهُ لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ إِذْ صِفَاتُهُمْ لَا تُثَقِّلُ عن الْأَعْرَاضِ
وَالْأَعْرَاضِ؛ وَهُوَ تَعَالَى - مُتَزَهٌ عن ذلك؛ بَلْ لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَاءِهِ، وَكَفَى فِي
هَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [النور: ١١].

وللَّهِ دُرٌّ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ الْمُحَقِّقِينَ: التَّوْحِيدُ إِبْثَاتٌ ذَاتِ غَيْرِ مُشَبَّهَةٍ لِلذَّوَاتِ، وَلَا مُعْطَلَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ.

وزاد هذه النكتة الواسطي - رحمه الله - بياناً؛ وهي مقصودنا؛ فقال: ليس كذاته ذاتٌ، ولا كاسمِهِ اسْمٌ، ولا كفِعْلِهِ فِعْلٌ، ولا كصِفَتِهِ صِفَةٌ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُوَافَقَةِ اللَّفْظِ اللَّفْظُ؛ وَجَلَّتِ الذَّاتُ الْقَدِيمَةُ أَنْ يَكُونَ لَهَا صِفَةٌ حَدِيثَةٌ، كَمَا اسْتِحَالُ أَنْ يَكُونَ لِلذَّاتِ الْمُخْدَتَةِ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ.

وهذا كُلُّهُ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقد قَسَرَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَوْلَهُ هَذَا، لِيَزِيدَهُ بَيَاناً؛ فَقَالَ: هَذِهِ الْحِكَايَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى جَوَامِعِ مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَكَيْفِ تَشْبِيهِ ذَاتِهِ ذَاتِ الْمُخْدَتَاتِ؛ وَهِيَ بَوُجُودُهَا مُسْتَغْنِيَةٌ؟ وَكَيْفِ يُشَبِّهُ فِعْلُهُ فِعْلَ الْخَلْقِ، وَهُوَ لَغَيْرِ جَلْبِ أَنْسٍ، أَوْ دَفْعِ نَقْصٍ، حَصَلَ، وَلَا لَخَوَاطِرَ وَأَغْرَاضٍ، وَجَدَ، وَلَا بِمُبَاشَرَةٍ وَمُعَالَجَةٍ، ظَهَرَ؟ وَفِعْلُ الْخَلْقِ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ. وقال آخر، مِنْ مَشَايِخِنَا: مَا تَوَهَّمْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ، أَوْ أَذْرَكْتُمُوهُ بِعُقُولِكُمْ فَهُوَ مُخْدَتٌ مِثْلَكُمْ.

وقال الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي الْجَوْنِيُّ: مَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى مَوْجُودٍ انْتَهَى إِلَيْهِ فِكْرُهُ؛ فَهُوَ مُشَبَّهٌ، وَمَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى الثَّقِيِّ الْمَخْضُ فَهُوَ مُعْطَلٌ، وَإِنْ قَطَعَ بِمَوْجُودٍ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ ذَلِكَ حَقِيقَتَهُ فَهُوَ مُوَخَّدٌ.

وما أَحْسَنَ قَوْلَ ذِي الثَّنُونِ الْمَصْرِيِّ: حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَشْيَاءِ بِلَا عِلَاجٍ، وَصُنْعُهُ لَهَا بِلَا مِزَاجٍ، وَعِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، وَلَا عِلَّةَ لَصُنْعِهِ، وَمَا تُصَوِّرُ فِي وَهْمِكَ فَاللَّهُ بِخِلَافِهِ.

وهذا كَلَامٌ عَجِيبٌ نَفِيسٌ مُحَقَّقٌ، وَالْفَضْلُ الْآخِرُ، تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثَّانِي: تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].
والثَّالِثُ: تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

[النحل: ٤٠].

تُبَيِّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِبْثَاتِ، وَالتَّنْزِيهِ، وَجَنَّبْنَا طَرَفِي الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ بِمَنْهُ وَرَحْمَتِهِ.



الباب الرابع

فِيمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ
وَشَرَفَهُ بِهِ مِنَ الْخُصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ

قال المؤلف رحمه الله: حَسْبُ المتأمل أن يُحَقِّق أن كتابنا هذا لم نجمله
لَمُنْكَرِ نبوة نبينا ﷺ ولا لطاعين في معجزاته فحتاج إلى نَصْبِ البراهين عليها،
ونخصين خوزنتها، حتى لا يتوَضَّل المطاعن إليها، ونذكر شروط المعجز والتحذي
وحذره، وفساد قول من أبطل نسخ الشرائع، وردّه؛ بل ألقناه لأهل ملته، الملبّين
لدغوته، المصدِّقين لنبوته؛ ليكون تأكيداً في محبتهم له، ومُثَمَّةً لأعمالهم؛
وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ونبتنا أن ثبت في هذا الباب أمهات معجزاته، ومشاهير آياته؛ لتدل على
عظم قدره عند ربه. وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد؛ وأكثره مما بلغ
القطع، أو كاد؛ وأصغنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كتب الأئمة.

وإذا تأمل المتأمل المُنْصِف ما قدمناه من جميل أثره، وخميد سيره، وبراعة
علمه، ورخابة عقله وحلمه، وخملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله،
وصواب مقالته، لم يمتري في صحة نبوته، وصدق دغوته.
وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه، والإيمان به.

٦٥٠ - فزونا عن الترمذي، وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم، أن عبد الله بن
سلام؛ قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جثته لأُنْظَر إليه؛ فلما استبشَّت وجهه
عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

حدثنا به الفاضل الشهيد أبو علي رحمه الله؛ قال: حدثنا أبو الحسين

الصَّيرَفِي، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ خَيْرُونَ، عَنْ أَبِي يَغْلَى الْبَغْدَادِي، عَنْ أَبِي عَلِي السَّنَجِي، عَنْ ابْنِ مَحْبُوب، عَنْ التَّرْمِذِي؛ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابُ الثَّقَفِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عَوْفِ بْنِ أَبِي جَمِيلَةَ الْأَعْرَابِيِّ، عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ... الْحَدِيثُ [التِّرْمِذِي (٢٤٨٥)، ابْنُ مَاجَه (١٣٣٤)، أَحْمَد (٤٥١/٥)].

٦٥١ - وَعَنْ أَبِي رَمْثَةَ التَّيْمِيِّ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَعِيَ ابْنُ لِي، فَأَرَيْتُهُ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قُلْتُ: هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ.

٦٥٢ - وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ ضَمَادًا لَمَّا وَقَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ؛ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ لَهُ: أَعِذْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَلَقَدْ بَلَغَنَ قَامُوسَ الْبَحْرِ، هَاتِ يَذْكُ أَبَايُكَ [مُسْلِم (٨٦٨)].

٦٥٣ - وَقَالَ جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ: كَانَ رَجُلٌ مَنَا يُقَالُ لَهُ طَارِقُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ شَيْءٌ تَبِيعُونَهُ؟» قُلْنَا: هَذَا الْبَعِيرُ. قَالَ: «يَكُمُ؟» قُلْنَا: بَكْذَا وَكَذَا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ؛ فَأَخَذَ بِخَطَامِهِ، وَسَارَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَقُلْنَا: يَغْنَا مِنْ رَجُلٍ لَا نَذْرِي مَنْ هُوَ؛ وَمَعَنَا ظُعَيْتُهُ، فَقَالَتْ: أَنَا خَاصِمَةٌ لِثَمَنِ الْبَعِيرِ؛ رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ لَا يَخِيسُ بِكُمْ.

فَأَصْبَحْنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ بِتَمْرٍ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذَا الثَّمَرِ، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا. فَقَعَلْنَا.

٦٥٤ - وَفِي خَبَرِ الْجُلَنْدِيِّ، مَلِكِ عُمَانَ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ - قَالَ الْجُلَنْدِيُّ: وَاللَّهِ! لَقَدْ دَلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّي أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ أَخِذٍ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَيْطَرُ، وَيُغْلِبُ فَلَا يَضْجَرُ، وَيَقِي بِالْعَهْدِ، وَيُجِزُّ الْمَوْعُودَ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

وَقَالَ يَفْطُونُهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَكَادُ رَيْثُهَا يُضَيُّ وَلَوْ لَمْ تَسْسَهُ نَارٌ» [النور: ٣٥] هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ يَقُولُ: يَكَادُ مَنْظَرُهُ يَدُلُّ عَلَى نَبَوْتِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَلَّ قُرْآنًا كَمَا قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَّةٌ لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ
وَقَدْ آنَ أَنْ تَأْخُذَ فِي ذِكْرِ النَّبَوَّةِ وَالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَبَعْدَهُ فِي مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ.

فصل

فِي النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ اسْمُهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْمَعْرِفَةِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَالْعِلْمِ بِذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَمِيعِ تَكْلِيفَاتِهِ ابْتِدَاءً، دُونَ وَاسِطَةٍ، لَوْ شَاءَ؛ كَمَا حُكِيَ عَنْ سُنَّتِهِ فِي بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وَجَائِزٌ أَنْ يُوَصَّلَ إِلَيْهِمْ جَمِيعُ ذَلِكَ بِوَاسِطَةِ تَبَلُّغِهِمْ كَلَامَهُ، وَتَكُونُ تِلْكَ الْوَاسِطَةُ؛ إِمَّا مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ، كَالْمَلَائِكَةِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؛ أَوْ مِنْ جَنْسِهِمْ، كَالْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْأُمَمِ، وَلَا مَانِعٌ لِهَذَا مِنْ ذَلِيلِ الْعَقْلِ.

وَإِذَا جَازَ هَذَا وَلَمْ يَسْتَجَلْ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ بِمَا ذُلَّ عَلَى صِدْقِهِمْ مِنْ مُعْجَزَاتِهِمْ وَجِبَ تَصْدِيقُهُمْ فِي جَمِيعِ مَا آتَوْا بِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْجِزَ مَعَ التَّحْدِي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَائِمٌ مَقَامَ قَوْلِ اللَّهِ: صَدَقَ عَبْدِي فَأَطِيعُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَشَاهِدٌ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَقُولُهُ؛ وَهَذَا كَافٍ. وَالتَّطَوِيلُ فِيهِ خَارِجٌ عَنِ الْغَرَضِ فَمَنْ أَرَادَ تَتَبُّعَهُ وَجَدَهُ مُسْتَوْفَى فِي مَصْنُوعَاتِ أَثْمَنَاتِ رَحْمَتِهِ اللَّهُ.

فَالنُّبُوَّةُ فِي لُغَةٍ مِنْ هَمْزٍ - مَأْخُودَةٌ مِنَ النَّبَأِ، وَهُوَ الْخَبَرُ، وَقَدْ لَا تُهْمَزُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَسْهِيلاً.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَعَهُ عَلَى غَيْبِهِ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؛ فَيَكُونُ نَبِيٌّ مُنْبَأً، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛ أَوْ يَكُونُ مُخْبِراً عَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَمُنْبَأً بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ؛ وَيَكُونُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَهْجُزْهُ مِنَ النُّبُوَّةِ؛ وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ؛ وَمَعْنَاهُ أَنَّ لَهُ رُتْبَةً شَرِيفَةً، وَمَكَانَةً نَبِيَّهُةً عِنْدَ مَوْلَاهُ مُنِيفَةً؛ فَالْوَصْفَانِ فِي حَقِّهِ مُؤْتَلِفَانِ.

وَأَمَّا الرِّسُولُ فَهُوَ الْمُرْسَلُ، وَلَمْ يَأْتِ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ فِي اللُّغَةِ إِلَّا نَادِراً. وَإِرْسَالُهُ: أَمْرُ اللَّهِ - تَعَالَى - لَهُ بِالْإِبْلَاحِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ؛ وَاسْتِثْقَاةً مِنَ التَّتَابُعِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَاءَ النَّاسُ أَرْسَالاً، إِذَا تَبَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ فَكَانَ أَلَزَمَ تَكْرِيرَ التَّبْلِيغِ، أَوْ أَلَزَمَتْ الْأُمَّةُ اتِّبَاعَهُ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلِ النَّبِيُّ وَالرِّسُولُ بِمَعْنَى، أَوْ بِمَعْنِيَيْنِ؟ فَقِيلَ: هُمَا سَوَاءٌ، وَأَضْلَهُ مِنَ الْإِنْبَاءِ وَهُوَ الْإِعْلَامُ؛ وَاسْتَدْلُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ [الحج: ٥٢]؛ فقد أثبتَ لهما معاً الإرسال، قال: ولا يكون النبي إلا رسولاً؛ ولا الرسول إلا نبياً.

وقيل: هما مُفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ؛ إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الإطلاعُ على الغيب، والإعلامُ بخواصِّ النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك، وَخَوُزِ دَرَجَتُهَا؛ وافترقا في زيادة الرسالة للرسول، وهو الأمرُ بالإنذار والإعلام كما قلنا.

وحجَّتْهُم من الآية نَفْسُهَا التفرُّقُ بين الاسمين، ولو كانا شيئاً واحداً لما حَسُنَ تَكَرُّرُهُمَا في الكلام البليغ، قالوا: والمعنى: وما أرسلنا من رسول إلى أمة، أو نبي ليس بمُرْسَلٍ إلى أحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أَنَّ الرسولَ مَنْ جاء بشرِّعٍ مبتدأ، وَمَنْ لم يأت به نبيٌّ غَيْرُ رسولٍ، وإنَّ أَمْرَ بالإبلاغ والإنذار.

والصحيح، والذي عليه الجَمَاءُ الغفير، أَنَّ كُلَّ رسولٍ نبي، وليس كُلُّ نبي رسولاً. وأوَّلُ الرسلِ آدم، وآخِرُهُم محمد ﷺ.

٦٥٥ - وفي حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أَنَّ الأنبياءَ مئةُ ألفٍ وأربعةَ وعشرون ألفَ نَبِيٍّ، وَذَكَرَ أَنَّ الرسلَ، منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر؛ أولهم آدم عليه السلام.

فقد بَانَ لَكَ معنى النبوة والرسالة، وليستا عند المحققين ذاتاً للنبي، ولا وَصْفَ ذاتٍ، خلافاً للكَرَامِيَّة، في تطويلٍ لهما، وتَهْوِيلٍ، ليس عليه تَعْوِيل.

وأما الْوَحْيُ: فأصلُهُ الإسراعُ، فلما كان النبي يتلقَّى ما يأتِيهِ من ربه بِعَجَلٍ سُمِّيَ وَحْيًا، وَسُمِّيَتْ أنواعُ الإلهاماتِ وَحْيًا، تشبهاً بِالْوَحْيِ إلى النبي، وَسُمِّيَ الْخَطُّ وَحْيًا، لِسُرْعَةِ حَرَكَةِ يَدِ كَاتِبِهِ؛ وَوَحْيِ الْحَاجِبِ وَاللَّخْطِ: سُرْعَةُ إِشَارَتِهِمَا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَخِّجُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي: أَوْمَأَ وَرَمَزَ. وقيل: كتب؛ ومنه قولهم: الْوَحَا، الْوَحَا؛ أي السُرْعَةُ.

وقيل: أصلُ الْوَحْيِ السِّرُّ والإخفاء، ومنه سُمِّيَ الإلهامُ وَحْيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي يُوَسْوِسُونَ في صدورهم؛ ومنه قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾ [القصص: ٧] أي أَلْقَيْنَا في قلبها.

وقد قِيلَ ذَلِكَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] أي ما يُلقِيهِ في قلبه دُونَ وَاسِطَةٍ.

فصل

فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجَزَةِ

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها؛ وهي على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر؛ فعجزوا عنه، فتعجزهم عنه فعل الله دل على صدق نبية، كضربهم عن تمني الموت. وتعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم، ونحوه.

وضرب هو خارج عن قدرتهم؛ فلم يقدروا على الإتيان بمثله؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حبة، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد، إلا الله؛ فكون ذلك على يد النبي ﷺ، من فعل الله تعالى، وتحذيه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبيتنا ﷺ ودلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معاً. وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم بزمناً؛ كما سئيت؛ وهي - في كثرتها - لا يحيط بها ضبط؛ فإن واحداً منها - وهو القرآن - لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين، ولا أكثر، لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجز عنها.

قال أهل العلم: وأقصر السور: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١] فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة؛ ثم فيها نفسها معجزات على ما ستفصله فيما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قسم منها علم قطعاً، ونقل إلينا متواتراً كالقرآن؛ فلا مزية، ولا خلاف؛ بمجيء النبي به، وظهوره من قبله؛ واستدلاله بحجته؛ وإن أنكر هذا مُعَانِدٌ جاحدٌ، فهو كإنكاره وجود محمد ﷺ في الدنيا.

وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به؛ فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة.

ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظراً، كما سترحه.

قال بعض أئمتنا: ويجري هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه - عليه السلام - آيات وخوارق عادات، إن لم يبلغ واحد منها معينا القطع، فيبلغه جميعها؛ فلا مزية في جريان معانيها على يديه؛ ولا يختلف مؤمن ولا كافر، أنه جرت على يديه عجائب؛ وإنما خلاف المُعَانِدِ في كونها من قبل الله.

وقد قَدَّمْنَا كَوْنَهَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَنَابَةِ قَوْلِهِ: صَدَقَتْ.

فقد عَلِمَ وَقَوَّعَ مِثْلَ هَذَا أَيْضاً مِنْ نِيَّتِنَا ضَرُورَةَ لَاتَّفَاقِ مَعَانِيهَا، كَمَا يُعْلَمُ ضَرُورَةُ جُودِ حَاتِمٍ، وَشَجَاعَةِ عَثْرَةٍ، وَجِلْمٍ أَخْتَفَ، لَاتَّفَاقِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى كَرَمِ هَذَا، وَشَجَاعَةِ هَذَا، وَجِلْمِ هَذَا، وَإِنْ كَانَ كُلُّ خَبَرٍ بِنَفْسِهِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ، وَلَا يَقْطَعُ بِصَحَّتِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: مَا لَمْ يَتْلُغْ مَبْلَغُ الضَّرُورَةِ وَالْقَطْعِ؛ وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ مُشْتَهَرٌ مُتَشِيرٌ، رَوَاهُ الْعَدَدُ، وَشَاعَ الْخَبَرُ بِهِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَالرُّوَاةِ وَنَقَلَهُ السَّيْرُ وَالْأَخْبَارُ؛ كَتَبِيعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ، وَتَكَثِيرِ الطَّعَامِ.

وَنَوْعٌ مِنْهُ اخْتَصَّ بِهِ الْوَاحِدُ أَوْ الْإِثْنَانِ؛ وَرَوَاهُ الْعَدَدُ الْيَسِيرُ، وَلَمْ يَشْتَهَرَ اشْتِهَارَ غَيْرِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا جُمِعَ إِلَى مِثْلِهِ اتَّفَقَا فِي الْمَعْنَى، وَاجْتَمَعَا عَلَى الْإِتْيَانِ بِالْمُعْجِزِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَنَا أَقُولُ - صَدْعاً بِالْحَقِّ -: إِنَّ كَثِيراً مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُ ﷺ مَعْلُومَةٌ بِالْقَطْعِ.

أَمَّا انْتِشَاقُ الْقَمَرِ فَالْقُرْآنُ نَصٌّ بِوُقُوعِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ وَجُودِهِ، وَلَا يُعْدَلُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، وَجَاءَ بِرَفْعِ احْتِمَالِهِ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ، وَلَا يُوهِنُ عَزْمَنَا خِلَافَ أَخَرَقٍ مُنْخَلِّ عَرَى الدِّينِ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى سَخَافَةِ مُبْتَدِعٍ، يُلْقِي الشَّكَّ عَلَى قُلُوبِ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؛ بَلْ تُزْغَمُ بِهِذَا آتِفُهُ، وَتُنْبِذُ بِالْعَرَاءِ سُخْفُهُ.

وَكَذَلِكَ قِصَّةُ تَبِيعِ الْمَاءِ، وَتَكَثِيرِ الطَّعَامِ، رَوَاهَا الثَّقَاتُ وَالْعَدَدُ الْكَثِيرُ، عَنْ الْجَمَّاءِ الْغَفِيرِ، عَنْ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ مُتَّصِلاً عَنْ حَدِّثِهَا بِهَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ وَإِخْبَارِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَوْطِنِ اجْتِمَاعِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ، وَفِي غَزْوَةِ بُوَاطٍ، وَغُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَغَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَمْثَالِهَا مِنْ مُحَافِلِ الْمُسْلِمِينَ وَمَجْمَعِ الْعَسَاكِرِ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مُخَالَفَةٌ لِلرَّوَايِ فِيهَا حِكَاةً، وَلَا إِنْكَاراً لِمَا ذُكِرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ كَمَا رَأَاهُ، فَسَكَوَتْ السَّاكِتِ مِنْهُمْ كُنْطَقِ النَّاطِقِ؛ إِذْ هُمْ الْمَنْزَهُونَ عَنِ السَّكُوتِ عَلَى بَاطِلٍ، وَالْمَدَاهِنَةِ فِي كَذِبٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رَغْبَةٌ وَلَا رَهْبَةٌ تَمْنَعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ مُتَكَرراً عَنْدهُمْ وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ لَا تُكْرَهُهُ، كَمَا أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ أَشْيَاءِ رَوَاهَا مِنَ السُّنَنِ وَالسَّيْرِ وَحُرُوفِ الْقُرْآنِ. وَخَطَأً بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَوَقَّعَهُ فِي ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ؛ فَهَذَا النَّوْعُ كُلُّهُ يَلْحَقُ بِالْقَطْعِيِّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ لَمَّا بَيَّنَّاهُ.

وأيضاً فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها، وثبتت على باطل، لا بُدَّ من مرور الأزمان، وتداول الناس، وأهل البحث من انكشاف ضعفها، وخمول ذكرها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأزاجيف الطارئة. وأعلام نبينا هذه الواردة من طريق الأحاد لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهوراً، ومع تداول الفرق، وكثرة طغى العدو، وجزصه على توهينها، وتضعيف أصلها، واجتهاد الملجِد على إطفاء نورها إلا قوة وقبولاً، وللطاعن عليها إلا حسرة وغليلاً. وكذلك إخباره عن الغيوب، وإنباؤه بما يكون وكان، معلوم من آياته على الجملة بالضرورة.

وهذا حتى لا غطاء عليه؛ وقد قال به من أئمتنا: القاضي، والأستاذ أبو بكر وغيرهما، رجمهم الله؛ وما عندي أوجب قول القائل: إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد، إلا قلة مطالعته للأخبار وروايتها، وشغله بغير ذلك من المعارف؛ وإلا فمن اعتنى بطرق الثقل، وطالع الأحاديث، والسير، لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه.

ولا يتعد أن يحصل العلم بالتواتر عند واحد ولا يحصل عند آخر؛ فإن أكثر الناس يعلمون - بالخبر - كون بغداد موجودة؛ وأنها مدينة عظيمة، ودار الإمارة والخلافة، وأحد من الناس لا يعلمون اسمها؛ فضلاً عن وصفها؛ وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر الثقل عنه، أن مذهبه إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام، وإجزاء النية في أول ليلة من رمضان عما سواه؛ وأن الشافعي يرى تجديد النية كل ليلة؛ والاقتصار في المنح على بغض الرأس، وأن مذهبهما القصاص في القتل بالمحدد وغيره، وإيجاب النية في الوضوء، واشترائ الولي في النكاح؛ وأن أبا حنيفة يخالفهما في هذه المسائل؛ وغيرهم ممن لم يشتغل بمذاهبهم ولا زوى أقوالهم لا يعرف هذا من مذاهبهم، فضلاً عن سواه.

وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بياناً إن شاء الله تعالى.

فصل

في إعجاز القرآن

قال المؤلف: اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب الله العزيز منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حُسْنُ تَأْلِيْفِهِ، وَالتَّيْنَامُ كَلِمَهُ، وَفَصَاحَتُهُ، وَوَجُوهُ إِيجَاذِهِ، وَبِلَاغَتُهُ الْخَارِقَةُ عَادَةُ الْعَرَبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَابَ هَذَا الشَّأْنِ، وَقُرَّسَانَ الْكَلَامِ؛ قَدْ خُصُّوا مِنَ الْبِلَاغَةِ وَالْحِكْمِ بِمَا لَمْ يُخَصَّ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَوْتُوا مِنْ ذَرَابَةِ اللِّسَانِ مَا لَمْ يُؤْتَ إِنْسَانٌ، وَمِنْ فَضْلِ الْخَطَابِ مَا يُقَيِّدُ الْأَلْبَابَ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ طَبْعاً وَخِلْقَةً، وَفِيهِمْ غَرِيزَةٌ وَقُوَّةٌ، يَأْتُونَ مِنْهُ عَلَى الْبَدِيْهِهِ بِالْعَجَبِ، وَيَذُلُّونَ بِهِ إِلَى كُلِّ سَبَبٍ؛ فَيَخْطُبُونَ بَدِيْهاً فِي الْمَقَامَاتِ، وَشَدِيدَ الْخَطْبِ، وَيَرْتَجِزُونَ بِهِ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَيَمْدَحُونَ وَيَقْدَحُونَ، وَيَتَوَسَّلُونَ وَيَتَوَصَّلُونَ، وَيَرْفَعُونَ وَيَضَعُونَ، فَيَأْتُونَ مِنْ ذَلِكَ بِالسَّخْرِ الْحَلَالِ، وَيَطْوِقُونَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ أَجْمَلَ مِنْ سِنِّطِ اللَّأْلِ، فَيَخْذَعُونَ الْأَلْبَابَ، وَيَذَلُّونَ الصَّعَابَ وَيَذْهَبُونَ الْإَحْنَ، وَيُهَيِّجُونَ الدَّمْنَ، وَيَجْرَثُونَ الْجَبَانَ، وَيَسْطَوْنَ يَدَ الْجَعْدِ الْبَنَانِ، وَيُصَيِّرُونَ النَاقِصَ كَامِلاً، وَيَتْرَكُونَ التَّيْبَةَ خَامِلاً.

مِنْهُمْ الْبَدَوِيُّ ذُو اللَّفْظِ الْجَزْلِ، وَالْقَوْلِ الْفَضْلِ، وَالْكَلَامِ الْفَخْمِ، وَالطَّبْعِ الْجَوْهَرِيِّ، وَالْمَنْزَعِ الْقَوِيِّ.

وَمِنْهُمْ الْحَضَرِيُّ ذُو الْبِلَاغَةِ الْبَارِعَةِ، وَالْأَلْفَاظِ النَّاصِعَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْجَامِعَةِ، وَالطَّبْعِ السَّهْلِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الْقَوْلِ الْقَلِيلِ الْكُلْفَةِ، الْكَثِيرِ الرُّونِقِ، الرَّقِيقِ الْحَاشِيَةِ.

وَكِلَا الْبَابَيْنِ فَلَهُمَا فِي الْبِلَاغَةِ الْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْقُوَّةُ الدَّامِغَةُ، وَالْقِدْحُ الْفَالِجُ، وَالْمَهْيَعُ النَّاهِجُ، لَا يَشْكُونَ أَنَّ الْكَلَامَ طَوُّعٌ مُرَادِهِمْ، وَالْبِلَاغَةَ مِلْكٌ قِيَادِهِمْ، قَدْ حَوَّا فَنَوْنَهَا، وَاسْتَنْبَطُوا عُيُونَهَا، وَدَخَلُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَعَلَوْا صَرَخاً لِبَلُوغِ أَسْبَابِهَا؛ فَقَالُوا فِي الْخَطِيرِ وَالْمَهْمِ، وَتَفَتَّشُوا فِي الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَتَقَاوَلُوا فِي الْقُلِّ وَالْكَثْرِ، وَتَسَاجَلُوا فِي النِّظْمِ وَالتَّنْثَرِ؛ فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا رَسُولُ كَرِيمٍ، بَكْتَابٍ عَزِيزٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؛ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ، وَفُضِّلَتْ كَلِمَاتُهُ، وَبَهَّرَتْ بِلَاغَتُهُ الْعُقُولَ، وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ، وَتَضَافَرُ إِيجَاذُهُ وَإِعْجَازُهُ، وَتَظَاهَرَتْ حَقِيقَتُهُ وَمِجَازُهُ، وَتَبَارَتْ فِي الْحُسْنِ مَطَالِغُهُ وَمَقَاطِعُهُ، وَحَوَتْ كُلَّ الْبَيَانِ جَوَامِعُهُ وَبِدَائِعُهُ، وَاعْتَدَلَ مَعَ إِيجَاذِهِ حُسْنُ نَظْمِهِ، وَانْطَبَقَ عَلَى كَثْرَةِ فَوَائِدِهِ مَخْتَارُ لَفْظِهِ، وَهُمْ أَفْسَحُ مَا كَانُوا فِي هَذَا الْبَابِ مَجَالاً، وَأَشْهَرُ فِي الْخُطَابَةِ رَجَالاً، وَأَكْثَرُ فِي السَّجْعِ وَالشَّعْرِ ارْتَجَالاً، وَأَوْسَعُ فِي الْغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقَالاً؛ بَلَّغْتَهُمُ الَّتِي بِهَا يَتَحَاوَرُونَ، وَمَنَازِعَهُمُ الَّتِي عَنْهَا يَتَنَاضَلُونَ، صَارِخاً بِهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمُقَرَّعاً لَهُمْ بِضِعَا عَشْرِينَ عَاماً

على رؤوس الملائكة أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا زَكَّيْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٩] ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].
و ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَعْنِي ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

و ﴿قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣] وذلك أَنَّ الْمُفْتَرِيَّ أَسْهَلُ، وَوَضَعَ الْبَاطِلَ وَالْمُخْتَلَقَ عَلَى الْاِخْتِيَارِ أَقْرَبُ، وَاللَّفْظُ إِذَا تَبَعَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ كَانَ أَضْعَبُ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: فَلَانِ يَكْتُبُ كَمَا يَقَالُ لَهُ، وَفَلَانِ يَكْتُبُ كَمَا يُرِيدُ.

وللأول على الثاني فَضْلٌ، وَبَيْنَهُمَا شَأْوٌ بَعِيدٌ.

فَلَمْ يَزَلْ يُفَرِّغُهُمْ - ﷻ - أَشَدَّ التَّفْرِيعِ، وَيُؤَيِّخُهُمْ غَايَةَ التَّوْبِيخِ، وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ، وَيَخْطُ أَعْلَامَهُمْ، وَيَشْتَتُ نِظَامَهُمْ، وَيَذُمُّ آلِهَتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ، وَيَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِضُونَ عَنْ مَعَارَضَتِهِ، مُنْجِمُونَ عَنْ مِمَّا نَلَتْهُ، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ بِالتَّكْذِيبِ، وَالْاِغْتِرَاءِ بِالْاِفْتِرَاءِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ مُؤْتَرٌّ﴾ [المدثر: ٢٤] و ﴿يَحْمَرُّ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] و ﴿إِنَّا أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ [الفرقان: ٤] و ﴿أَسْتَظِلُّ الْآوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وَالْمَبَاهِطَةِ وَالرِّضَا بِالدُّنْيَا؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُونَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

و ﴿فِي أَكْثَرِ مِمَّا دَعَوْنَا إِلَيْهِ وَفِي مَا دَانَا وَفَرُّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [نصفت: ٥]. و ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَأَتْلُوهُ قَلِيلًا﴾ [نصفت: ٢٦].

وَالْاِدْعَاءُ مَعَ الْعَجْزِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وَقَدْ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا. وَمَنْ نَعَاطَى ذَلِكَ مِنْ سُخْفَانِهِمْ - كُمُسْلِمَةٍ - كَشَفَ اللَّهُ عَوَازَهُ لَجْمِيعِهِمْ، وَسَلَبَهُمُ اللَّهَ مَا أَلْفَوْهُ، مِنْ فَصِيحِ كَلَامِهِمْ، وَالْأَفْلَمُ يَخْفُفُ عَلَى أَهْلِ الْمَيِّزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ فَصَاحَتِهِمْ، وَلَا جِنْسِ بِلَاغَتِهِمْ؛ بَلْ وَلَوْ عَنْهُ مُذَبِّرِينَ، وَأَتَوْا مُذْعَنِينَ مِنْ بَيْنِ مُهْتَدٍ وَبَيْنِ مُفْتُونٍ.

٦٥٦ - وَلِهَذَا لَمَّا سَبَّحَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] قَالَ: وَاللَّهِ! إِنَّ لَهُ لِحِلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ

لَطْلَاوَةً، وَإِنْ أَسْفَلَهُ لَمُعْدِقٌ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، مَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ.
وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَأَصْنَعْ يَمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخر رجلاً يَقْرَأُ: ﴿قَلَمًا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ حَكْصُوا نَحِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]
فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقلد على مثل هذا الكلام.

وَحُكِّيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَوْمًا نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا هُوَ
بِقَائِمٍ عَلَى رَأْسِهِ يَتَشَهَّدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ؛ وَاسْتَحْبِرَهُ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ مِنْ بَطَارِقَةِ الرُّومِ مِمَّنْ يُحْسِنُ
كَلَامَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا، وَأَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِكُمْ فَتَأْمَلْتُمُهَا،
فَإِذَا هِيَ قَدْ جُمِعَ فِيهَا مَا أُتْرِلَ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَطْمَعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَفِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وَحَكَّى الْأَصْمَعِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ جَارِيَةٍ، فَقَالَ لَهَا: قَاتِلِي اللَّهَ! مَا أَفْصَحَكَ!
فَقَالَتْ: أَوْ يُعَذِّبُ هَذَا فَصَاحَةً بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُبِينًا أَنِ ارْضِعِي
إِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصاص: ١٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين، وَنَهْيَيْنِ، وَخَبَرَيْنِ،
وَبِشَارَتَيْنِ. فَهَذَا نَوْعٌ مِنْ إِعْجَازِهِ مُتَّفَرِّدٌ بِذَاتِهِ، غَيْرٌ مُضَافٍ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى التَّحْقِيقِ
وَالصَّحِيحِ مِنَ الْقَوْلَيْنِ.

وَكُونُ الْقُرْآنِ مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ أَتَى بِهِ، مَعْلُومٌ ضَرُورَةٌ، وَكُونُهُ - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - مُتَّحِدِيًّا بِهِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةٌ، وَعَجْزُ الْعَرَبِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةٌ،
وَكَوْنُهُ فِي فَصَاحَتِهِ خَارِقًا لِلْعَادَةِ، مَعْلُومٌ ضَرُورَةٌ لِلْعَالَمِينَ بِالْفَصَاحَةِ وَوُجُوهِ
الْبَلَاغَةِ؛ وَسَبِيلُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا عِلْمٌ ذَلِكَ بِعَجْزِ الْمُنْكَرِينَ مِنْ أَهْلِهَا عَنْ
مُعَارَضَتِهِ، وَاعْتِرَافِ الْمُقَرِّينَ بِإِعْجَازِ بِلَاغَتِهِ.

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].
وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَعُوْا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبا: ٥١].
وقوله: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْفِيهِ إِلَى أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
[فصلت: ٣٤].

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَكْرَهُ أَلَيْسَ لِمَاءِكَ وَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ أَلْمَاءِ وَفِي الْأَمْرِ
وَأَسَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] وقوله: ﴿وَكُلًّا أَخَذْنَا
بِذِيئِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنِ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا
بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأشباهها من الآي، بل أكثر القرآن حَقَّقَتْ ما يَبَيِّنُهُ من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلماتها، وأنْ تُخْتِ كُلُّ لفظة منها جُمْلًا كثيرة؛ وفصولاً جَمَّة، وعلومًا زواجر، مُلِثَتِ الدواوينُ مِنْ بَعْضِ ما استُفيد منها، وكثُرَتِ المقالاتُ في المستنبطات عنها.

ثم هو في سَرْدِ القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف، التي يضعفُ في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان، آيةً لمتأمله؛ مِنْ رَبط الكلام ببعضه ببعض، والتام سرده، وتناصف وجوهه؛ كقصّة يوسف على طولها.

ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكادُ كل واحدة تُنسي في البيان صاحبها، وتناصف في الحُسن وجه مُقابلتها، ولا نفور للنفوس مِنْ ترددها، ولا مُعاذة لمُعَادِها.

فصل

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نُظْمه العَجيب، والأسلوب الغريب المخالف لآساليب كلام العرب ومناهج نُظْمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آية، وانتهت فواصل كلماته إليه؛ ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدُ مُماثلة شيء منه؛ بل حازت فيه عقولهم، وتذهلت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر.

٦٥٧ - ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن - رَقَّ؛ فجاءه أبو جهل مُتَكَبِّراً عليه - قال: والله! ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله! ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئاً مِنْ هذا.

٦٥٨ - وفي خبره الآخر حين جمع قُريشاً عند حضور المُوسم، وقال: إن وفود العرب تردُّ فأجبعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً؛ فقالوا: نقول: كاهن. قال: واللّه! ما هو بكاهن. ما هو بزَمَزَمَةٍ ولا سَجِجَةٍ.

قالوا: مجنون. قال: ما هو بِمَجْنُون، ولا بِخَنَقَةٍ ولا وَسْوَسة. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر. قد عرفنا الشُعْرَ كُلَّهُ، رَجَزَهُ، وهَزَجَهُ، وقَرِيضَهُ، ومَبْسُوطَهُ، ومَقْبُوضَهُ، ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نَفْثَةٍ ولا عَفْده. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين مِنْ هذا شيئاً، إلا وأنا أعرف أنه

باطل، وإنَّ أقربَ القولِ أنه ساحر؛ فإنه سِحْرٌ يفرِّقُ به بين المرءِ وأبيه، والمرءِ وأخيه، والمرءِ وزوجِهِ، والمرءِ وعشيرته.

فتفرَّقوا وجلسوا على السَّيْلِ يحذِّرونَ الناسَ؛ فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرَفَ وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَيَبِينَ شُهُوكًا ۝ وَمَهَّدْتَ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝ سَاءَ هُفْمُ صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ ۝ ثُمَّ أَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝﴾ [المدثر: ١١-٢٤].

٦٥٩ - وقال عُتْبَةُ بن ربيعة حين سَمِعَ القرآن: يا قوم! قد علمتُم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته؛ واللَّهُ! لقد سمعتُ قولاً، واللَّهُ! ما سمعتُ مثله قط؛ وما هو بالشَّعرِ، ولا بالسَّحْرِ، ولا بالكَهانة.

٦٥٩م - وقال النَّضْرُ بن الحارث نحوه.

٦٦٠ - وفي حديث إسلام أبي ذر - وَوَصَفَ أَخَاهُ أَنْبَسًا -، فقال: واللَّهُ! ما سمعتُ بأشعر من أخي أنبَسٍ، لقد ناقَضَ اثني عشر شاعراً في الجاهلية، أنا أحدُهم، وإنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبي ذر بخبرِ النبي ﷺ. قلت: فما يقولُ الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعتُ قولَ الكَهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقرء الشُّعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شِعْر؛ وإنه لصادقٌ، وإنهم لكاذِبُونَ [مسلم (٢٤٧٣)، البخاري (٣٨٦١)].

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة.

والإعجازُ بكل واحدٍ من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها؛ أو الأسلوب الغريب بذاته، كلُّ واحدٍ منهما نوعٌ إعجازٍ على التحقيق، لم تُقَدِّرِ العربُ على الإتيانِ بواحدٍ منهما؛ إذ كلُّ واحدٍ خارجٌ عن قُدْرَتِها، مبينٌ لِفَصَاحَتِها وكلامِها؛ وإلى هذا ذهب غيرُ واحدٍ من أئمةِ المُحَقِّقين.

وذهب بعضُ المحققين المُتَتَدِي بهم إلى أنَّ الإعجازَ في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقولٍ تمجُّه الأسماعُ، وتنفِّرُ منه القلوبُ.

والصحيحُ ما قدمناه، والعلمُ بهذا كله ضرورةٌ وقطعاً.

وَمَنْ تَفَتَّنَ في علومِ البلاغةِ، وأرهفَ خاطِرَه ولسانَه أدبَ هذه الصناعة لم يخفَ عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئمةُ أهلِ السُنَّةِ في وَجِهٍ عَجَزَهم عنه؛ فأكثرُهم يقول: إنه ما

جُمِعَ في قوَّةِ جَزَالَتِهِ، وَنَصَاعَةِ الْفَاطِلَةِ، وَحُسْنِ نَظْمِهِ، وَإِيجَازِهِ، وَيَدِيعِ تَأْلِيْفِهِ وَأَسْلُوْبِهِ لَا يَصْحُحُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخَوَارِقِ الْمُمْتَنِعَةِ عَنْ إِقْدَارِ الْخَلْقِ عَلَيْهَا؛ كَأَحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَقُلُوبِ الْغُصَا، وَتَسْبِيحِ الْخَصَى.

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه ممَّا يمكنُ أن يدخلَ مثلهُ تحتَ مقدورِ البشرِ، ويُقدِّرهم الله عليه؛ ولكنه لم يكن هذا ولا يكون؛ فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه.

وقال به جماعة من أصحابه.

وعلى الطريقينِ فَعَجَزُ العرب عنه ثابتٌ، وإقامةُ الحجةِ عليهم بما يصح أن يكونَ في مقدورِ البشرِ، وتحذِيبهم بأن يأتوا بمثله، قاطعٌ؛ وهو أبلغُ في التعجيزِ، وأحرى بالتقريعِ، والاحتجاجِ بمجيءِ بشرٍ مثلهم بشيءٍ ليس من قدرةِ البشرِ لازمٌ؛ وهو أبهرُ آيةٍ، وأقنعُ دلالةٍ.

وعلى كلِّ حالٍ، فما أتوا في ذلك بمقالٍ؛ بل صَبَرُوا على الجلاءِ، والقَتْلِ، وتَجَرَّعُوا كَاسَاتِ الصَّغَارِ وَالذَّلِّ؛ وكانوا من شُمُوحِ الْآتِفِ، وَإِبَائَةِ الضَّيْمِ، بحيث لا يُؤْثِرُونَ ذلك اختياراً، ولا يَرْضُونَهُ إِلَّا اضْطِرَّاراً، وإلا فالمعارضةُ - لو كانت من قُدْرَتِهِمْ - وَالشُّغْلُ بها أهونٌ عليهم، وأسرعُ بالُنْجَحِ، وقَطْعُ الْعُذْرِ، وإفحامُ الْخُصَمِ لديهم، وهم من هم، قُدْرَةُ على الكلامِ، وقُدُوةٌ في المعرفةِ به لجميعِ الأنامِ؛ وما منهم إِلَّا مَنْ جَهَدَ جَهْدَهُ، واستنقذ ما عنده في إخفاءِ ظُهورِهِ، وإطفاءِ نُورِهِ، فما جَلَّوْا في ذلك خَبِيْثَةً مِنْ بَنَاتِ شِفَاهِهِمْ، وَلَا أَتَوْا بِنُطْفَةٍ مِنْ مَعِينِ مِيَاهِهِمْ، مع طُولِ الْأَمَدِ، وكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وتَظَاهُرِ الْوَالِدِ وما وَلَدَ؛ بل أَنْبَسُوا فما نَبَسُوا، وَمُنِمُوا فانْقَطَعُوا؛ فهذان نوعان من إعجازه.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبيات، وما لم يكن ولم يَقَعْ؛ فَوُجِدَ؛ كما وردَ، وعلى الوجه الذي أخبر به كقوله تعالى: ﴿لَتَنخَلْنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَآيْمَتَيْنِ﴾ [الفن: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُسَيِّئُونَ﴾ [الروم: ٣].

وقوله: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَرَفَهُمْ أَنَّنَا يَتَّبِدُونَنِي لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾ [النصر: ١-٣]
فكان جميع هذا، كما قال؛ فغلبت الروم فارس في بضعة سنين، ودخل الناس في
الإسلام أفواجا؛ فما مات عليه السلام وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله
الإسلام.

٦٦١ - واستخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن لهم فيها دينهم،
وملأهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب؛ كما قال عليه السلام:
«رُؤِيتَ لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسينبئُ ملكٌ أمتي ما رُويَ لي
منها» [مسلم (٢٨٨٩)].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ① [الحجر: ٩]؛ فكان
كذلك، لا يكاد يُعَدُّ مَنْ سَعَى فِي تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِ مُحْكَمِهِ مِنَ الْمُلْحَدَةِ وَالْمُعْطَلَةِ،
لا سيما القرامطة؛ فأجمعوا كَيْدَهُمْ وَحَوْلَهُمْ وَقَوْتَهُمْ، اليومَ نَيْفًا عَلَى خَمْسِ مِائَةِ
عَامٍ، فما قَدَرُوا عَلَى إطفاءِ شَيْءٍ مِنْ نُورِهِ، ولا تَغْيِيرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، ولا
تَشْكِيكِ الْمُسْلِمِينَ فِي خَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ، والحمد لله.

ومنه قوله: ﴿سَيَبْرُهُمْ لِقَمْعٌ وَيُرْوَلُونَ الذُّبُرَ﴾ ② [الفر: ٤٥].

وقوله: ﴿فَتَلَوْتُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَكْشِفُ سُدُورَهُمْ
قُورَهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ③ [التوبة: ١٤].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ④ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا آذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا
يَصْرُوكُ﴾ ⑤ [آل عمران: ١١١] فكان كل ذلك.

وما فيه مِنْ كَشْفِ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ، ومَقَالِهِمْ وَكَيْدِهِمْ فِي خَلْفِهِمْ،
وتَقْرِيعِهِمْ بِذَلِكَ؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].
وقوله: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل

عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَطَّعُوا لِلْكَذِيبِ سَطَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوا بِحَرْفٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ بَدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيُوَيْهِمْ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَادْعِنَا لَيْتَ بِالْأَسْنَنِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْيَيْنِ﴾ [النساء: ٤٦] وقد قال مُبْدِياً، ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِزِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

ولما نزلت، بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم؛ وكان المستهزون نفراً بمكة، ينفرون الناس عنه، ويؤذونه، فهلكوا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فكان كذلك على كثرة من رام ضره، وقصد قتله؛ والأخبار بذلك معروفة صحيحة.

فصل

الوجه الرابع: ما أنبا به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفد من أخبار أهل الكتاب الذي قطع غمره في تعلم ذلك؛ فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نضه؛ فيعترف العالم منهم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم يتله بتعليم. وقد علموا أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدرسة ولا منافقة، ولم يغيب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه ﷺ - عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً؛ كقصص الأنبياء مع قوهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذو القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء والقصص وبذ الخلق، وما في التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى؛ مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقبلوا على تكذيب ما ذكر منها؛ بل أدعوا لذلك، فمن موثق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معانيد حاسد؛ ومع هذا فلم يخك عن واحد من - النصرى واليهود - على شدة عداوتهم له، وجرصهم على تكذيبه، وطول احتجاجه عليهم بما في

كُتِبَهُمْ، وَتَقْرِيبَهُمْ بِمَا انطَوَتْ عَلَيْهِ مَصَاحِفُهُمْ، وَكَثْرَةُ سَوَالِهِمْ لَهُ ﷺ، وَتَغْنِيَتَهُمْ
إِيَّاهُ عَنْ أَخْبَارِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَسْرَارِ عُلُومِهِمْ، وَمُسْتَوْدَعَاتِ سِيرِهِمْ، وَإِعْلَامِهِ لَهُمْ
بِمَكْتُومِ شَرَائِعِهِمْ، وَمُضْمَنَاتِ كُتِبِهِمْ؛ مِثْلُ سَوَالِهِمْ عَنِ الرُّوحِ، وَذِي الْقُرْنَيْنِ،
وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعِيسَى، وَحُكْمِ الرَّجْمِ وَمَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَمَا
حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَمِنْ طَيِّبَاتِ كَانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ فَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ يَبْغِيهِمْ.
وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْجٍ أَخْرَجَ سَطَفَةَ فَكَارَهُ
فَاسْتَفَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَصِبَهُمْ الْكَفَّارُ﴾ [الفتح: ٢٩].

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن؛ فأجابهم وعرفهم بما أوحى
إليه من ذلك، أنه أنكر ذلك أو كذبه؛ بل أكثرهم صرح بصحة نبوته، وصدق
مقالاته، واعترف بعنايه وحسدهم إياه؛ كأهل نَجْرَانَ، وابنِ صُورِيَا [البخاري (٦٨٤١)،
مسلم (١٦٩٩)]، وابْنِي أَخْطَبَ وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بغض المباحة، وأدعى أن فيما عندهم من ذلك لما
حكاه مخالفة، دُعي إلى إقامه حُجَّتِهِ، وكشف دعوته؛ ف قيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ
فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤) [آل عمران: ٩٣، ٩٤].

فقرع ورنح، ودعا إلى إحضار ممكن غير مُنتفع؛ فمن مُعترف بما جحدته،
ومتوابع يلقي على فضيحته من كتابه يده [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)].
ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً
من صحفه؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ
وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٥) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ مِثْلُ نُورٍ الظُّلُمَاتِ إِنْ أَنُورٍ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١١) [المائدة: ١٥، ١٦].

فصل

فِي آيَاتِ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ
لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مزية.
ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه آتي وردت بتعجيز قوم
في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدرُوا على ذلك؛ كقوله

لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]. قال أبو إسحاق الزَّجَّاجُ: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دَلَالَةٍ على صحة الرسالة؛ لأنه قال: ﴿فَتَمْنُوا الْوَتَّ﴾؛ وأعلمهم أنهم لن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، فلم يَتَمَنَّه واحد منهم.

٦٦٢ - وعن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها رجلٌ منهم إلا غُصَّ بريقه» [أحمد (٢٤٨/١)] يعني: يموت فكاكه.

فصرفهم الله عن تمنيه، وجزعهم؛ ليظهر صدق رسوله، وصحة ما أوجي إليه، إذ لم يتمنه أحدٌ منهم؛ وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا؛ ولكن الله يفعل ما يريد؛ فظهرت بذلك معجزته، وبانت حُجَّتُهُ.

وقال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعة، ولا واحد، من يوم أمر الله بذلك نبيه، يُقدِّم عليه، ولا يُجيب إليه.

وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم.

٦٦٣ - وكذلك آية المَبَاهِلَةِ مِنْ هذا المعنى، حيث وفد عليه أساقفة نجران، وأبوا الإسلام؛ فأنزل الله [تعالى] عليه آية المَبَاهِلَةِ بقوله: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيمَا مِنْ بَيْنَ مَا جَاءَكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١١) [آل عمران: ٦١] [البخاري (٤٣٨٠)، مسلم (٢٤٢٠)].

فامتنعوا منها، ورضوا بأداء الجزية؛ وذلك أن «العاقب» عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبي، وأنه ما لا عن قوماً نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم.

ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٢) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فأخبرهم أنهم لا يفعلون؛ كما كان.

وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب، ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

فصل

فِي الرُّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْئَةِ الَّتِي تَغْتَرِيهِمْ عِنْدَ تَلَاوْتِهِ

ومنها الرُّوْعَةُ الَّتِي تَلْحَقُ قُلُوبَ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْئَةُ الَّتِي تَغْتَرِيهِمْ عِنْدَ تَلَاوْتِهِ لِقُوَّةِ حَالِهِ، وَإِنَافَةِ خَطَرِهِ؛ وهي على المكذِبِينَ به أعظم، حتى

كَانُوا يَسْتَفْقِلُونَ سَمَاعَهُ، وَيَزِيدُهُمْ نَفُورًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى؛ وَيَوْدُونَ انْقِطَاعَهُ لِكِرَاهَتِهِمْ لَهُ.

٦٦٤ - ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ صَغَبٌ مُسْتَضَعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ؛ وَهُوَ الْحَكْمُ» وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلَا تَزَالُ رَوْعَتُهُ بِهِ، وَهَيْئَتُهُ إِيَّاهُ، مَعَ تِلَاوَتِهِ، ثُلُوبِهِ انْجِدَابًا، وَتَكْسِبُهُ هَشَاشَةٌ، لَمِيلِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقِهِ بِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَقْسِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال: «لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَوْشًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الحشر: ٢١].

ويدل على أن هذا شيء خُصَّ به، أنه يَغْتَرِي مَنْ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، وَلَا يَعْلَمُ تَفَاسِيرَهُ، كَمَا رَوَيْ عَنْ نَضْرَانِي، أَنَّهُ مَرَّ بِقَارِيءٍ، فَوَقَفَ يَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ: مِمَّ بَكَيتَ؟ قَالَ: لِلشُّجَا وَالنَّظَمِ.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده؛ فمنهم من أسلم لها لأول وهلة، وآمن به، ومنهم من كفر.

٦٦٥ - فحكى في الصحيح، عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ (٢٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُضْطَرُّونَ (٢٧) [الطور: ٣٥-٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَظِيرَ [البخاري (٤٨٥٤)]، مُسْلِم (٤٦٣).

٦٦٦ - وفي رواية: وذلك أول ما وَرَّ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي [البخاري (٤٠٢٣)].

٦٦٧ - وعن عُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ أَنَّهُ كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِ قَوْمِهِ، فَتَلَا عَلَيْهِمْ ﴿حَرِّمْنَا نَزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) كَتَبْتُ فَصِلْتُ عَيْنَتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٣) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي مَا نَدِينَا وَفَرَّ مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ جَحَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ (٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا (٥) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَتَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَعْمَلُونَ لَهُ أَشَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسَيْنِ مِنْ قَوْفَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَنَّ إِلَى السَّعَاءِ وَهِيَ كُنَانٌ فَقَالَ لَهَا

وَلَذَرْنَاهُمْ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالُوا أَأَتَيْنَا طَاعِينَ ﴿١٣﴾ فَفَضَّلْنَاهُنَّ سَبْعَ سَنَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزَيْنًا السَّمَاءَ الَّتِي يُصَنَّبُحُ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤﴾ فَإِذَا أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٥﴾ [أفصلت: ١- ١٣] فَامْسِكْ عُتْبَةَ يَدَيْهِ عَلَىٰ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وناشدته الرِّجْمَ أَنْ يَكْفَ.

٦٦٨ - وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعُتْبَةُ مُضْغٍ مُلْقٍ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِمَا، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَى السَّجْدَةِ؛ فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَامَ عُتْبَةُ لَا يَذِرِي بِمَا يُرَاجِعُهُ، وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قَوْمِهِ حَتَّىٰ أَتَوْهُ؛ فَاعْتَذَرَ لَهُمْ، وَقَالَ: وَاللَّهِ! لَقَدْ كَلَّمَنِي بِكَلَامٍ. وَاللَّهِ! مَا سَمِعْتُ أَذْنَائِي بِمِثْلِهِ قَطُّ، فَمَا ذَرَيْتُ مَا أَقُولُ لَهُ.

وقد حُكِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ رَامٍ مُعَارَضَتِهِ أَنَّهُ اعْتَرَفَتْهُ رَوْعَةٌ وَهَيْبَةٌ كَفَّ بِهَا عَنْ ذَلِكَ.

فَحُكِيَ أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ طَلَبَ ذَلِكَ وَرَاقَهُ، وَشَرَعَ فِيهِ؛ فَمَرَّ بِضَبِّي يَقْرَأُ: ﴿رَبِّهِ يَتَّارُضُ أَتَيْتُ مَلَكًا﴾ [عود: ٤٤] فَرَجَعَ وَمَحَا مَا عَمِلَ؛ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَا يُعَارِضُ، وَمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ؛ وَكَانَ مِنْ أَفْصَحِ أَهْلِ وَقْتِهِ. وَكَانَ يَحْيَىٰ بْنُ خُكَيْمٍ الْغَزَالِ بَلِغُ الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَانِهِ؛ فَحُكِيَ أَنَّهُ رَامَ شَيْئًا مِنْ هَذَا، فَنَظَرَ فِي سُورَةِ الْإِحْلَاصِ لِيَتَّخِذَ عَلَى مِثَالِهَا، وَيُنَسِّجَ - بِزَعْمِهِ - عَلَى مِثَالِهَا - قَالَ: فَاعْتَرَفَنِي خَشْيَةٌ وَرِفَّةٌ، حَمَلَتْهُ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ.

فصل

فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ

وَمِنْ وَجْهِهِ إِعْجَازُهُ الْمَعْدُودَةُ كَوْنُهُ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجر: ٩]. وَقَالَ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [أفصلت: ٤٢].

وَسَاتَرَتْ مُعْجَزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ انْقَضَتْ بِانْقِضَاءِ أَوْقَاتِهَا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا خَبَرُهَا؛ وَالْقُرْآنُ الْعَزِيزُ، الْبَاهِرَةُ آيَاتُهُ، الظَّاهِرَةُ مُعْجَزَاتُهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، مَدَّةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ وَخَمْسِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً لِأَوَّلِ نَزُولِهِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا، حُجَّتُهُ قَاهِرَةٌ، وَمُعَارَضَتُهُ مُتَنَبِّغَةٌ، وَالْأَعْيَارُ كُلُّهَا طَافِحَةٌ بِأَهْلِ الْبَيَانِ، وَخَمَلَةٌ عِلْمِ اللِّسَانِ، وَائِمَّةُ الْبَلَاغَةِ،

وَفُزَّانِ الْكَلَامِ، وَجَهَابِذِ الْبِرَاعَةِ؛ وَالْمُلْجِدُ فِيهِمْ كَثِيرٌ، وَالْمُعَادِي لِلشَّرْعِ عَتِيدٌ؛ فَمَا مِنْهُمْ مَنْ أَتَى بِشَيْءٍ يُؤْثَرُ فِي مُعَارَضَتِهِ، وَلَا أَلْفَ كَلِمَتَيْنِ فِي مَنَاقَضَتِهِ، وَلَا قَدَّرَ فِيهِ عَلَى مَطْعَنِ صَحِيحٍ، وَلَا قَدَحَ الْمَتَكَلِّفُ مِنْ ذَهَبِهِ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَزْنِدٍ شَحِيحٍ؛ بَلِ الْمَأْثُورُ عَنْ كُلِّ مَنْ رَامَ ذَلِكَ إِلْقَاؤُهُ فِي الْعَجْزِ بِيَدَيْهِ، وَالنَّكَوْصُ عَلَى عَقِيَّتِهِ.

فصل

فِي وَجْهِهِ أُخْرَى فِي إِعْجَازِهِ مِنْهَا: لَا يَمْلَهُ قَارِنُهُ

وَقَدْ عَدَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَثَمَةِ وَمُقَلِّدِي الْأَمَةِ فِي إِعْجَازِهِ وَجْهًا كَثِيرًا.

مِنْهَا: أَنْ قَارِنَهُ لَا يَمْلَهُ، وَسَامِعُهُ لَا يَمُجُّهُ؛ بَلِ الْإِكْبَابُ عَلَى تَلَاوَتِهِ يَزِيدُهُ حِلَاوَةً، وَتَرْذِيدُهُ يُوْجِبُ لَهُ مَحَبَّةً؛ لَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا، وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَلَامِ - وَلَوْ بَلَغَ فِي الْحُسْنِ وَالْبَلَاغَةِ مَبْلَغَهُ - يُمَلُّ مَعَ التَّرْدِيدِ، وَيُعَادَى إِذَا أُعِيدَ؛ وَكُتَابُنَا يُسْتَلَذُّ بِهِ فِي الْخُلُوتِ، وَيُؤْنَسُ بِتَلَاوَتِهِ فِي الْأَزْمَاتِ؛ وَسِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ذَلِكَ؛ حَتَّى أَحْدَثَ أَصْحَابُهَا لَهَا لَحُونًا وَطُرُقًا يَسْتَجْلِبُونَ بِتِلْكَ اللَّحُونِ تَنْشِيطَهُمْ عَلَى قِرَائَتِهَا.

٦٦٩ - وَلِهَذَا وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ: «لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثَرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عِزَّهُ، وَلَا تَفْنِي عَجَابَتَهُ؛ هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ؛ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾» [الجن: ١، ٢] [الترمذي (٢٩٠٦)].

وَمِنْهَا: جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَمْ تَعْهَدِ الْعَرَبُ عَامَةً وَلَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ خَاصَّةً، بِمَعْرِفَتِهَا، وَلَا الْقِيَامَ بِهَا؛ وَلَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنَ عُلَمَاءِ الْأُمَمِ، وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِهِمْ؛ فَجُمِعَ فِيهِ مِنْ بَيَانِ عِلْمِ الشَّرَائِعِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى طُرُقِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّاتِ، وَالرَّدِّ عَلَى فِرْقِ الْأُمَمِ؛ بِبَرَاهِينٍ قَوِيَّةٍ، وَأَدْلَةٍ بَيِّنَةٍ، سَهْلَةٍ الْأَفَاطِ، مُوجِزَةٍ الْمَقَاصِدِ، رَامَ الْمُتَحَذِّلِقُونَ بَعْدَ أَنْ يَنْصَبُوا أَدْلَةً مِثْلَهَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» [يس: ٨١].

و «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» [يس: ٧٩].

و «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» [الأنبياء: ٢٢].

إلى ما خواه من علوم السِّر، وأنباء الأمم، والمواعظ، والحكم، وأخبار
الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم.

قال الله - جلَّ اسمه - : ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

و ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

و ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٦٧٠ - وقال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَمْرًا وَزَجْرًا، وَسُنَّةً خَالِيَةً،
وَمَثَلًا مَضْرُوبًا، فِيهِ نُبُوكُمْ، وَخَبَرُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا
بَيْنَكُمْ، لَا يُخْلِفُهُ طَوْلُ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ؛ هُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ؛ مَنْ قَالَ
بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ قَلَجَ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ أَقْسَطَ، وَمَنْ
عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْ
غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ؛ وَمَنْ حَكَمَ بغيره فَضَمَهُ اللَّهُ؛ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ،
وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَخَبَلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ،
وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَفْجُؤُكَ فَيَفْجُؤُومُ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَغْتَبُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ،
وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ».

٦٧١ - ونحوه عن ابن مسعود؛ وقال فيه: «ولا يختلف، ولا يتشأن، فيه نبأ
الأولين والآخرين».

٦٧٢ - وفي الحديث: «قال الله تعالى لمحمد ﷺ : إني منزل عليك توراة
حديثة، تفتح بها أعيناً غُمياً، وأذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً، فيها ينابيع العلم وفهم
الحكمة، وزبج القلوب».

وعن كعب: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقول، ونور الحكمة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿هَذَا يَكُنُّ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فجمع فيه - مع وجازة ألفاظه، وجوامع كليمه - أضعاف ما في الكتب قبله،
التي ألفاظها على الضعف منه مرات.

ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومذلوله؛ وذلك أنه احتج بنظم القرآن، وحسن
رضيه وإيجازه وبلاغته؛ وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيته، ووعدته ووعيده؛ فالتالي له
يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد، وسورة منفردة.

ومنها: أَنْ جَعَلَهُ فِي حَيْزِ المنظوم الذي لم يُعْهَدْ، ولم يكن في حَيْزِ المنشور؛ لأنَّ المنظوم أسهل على النفوس، وأَوْعَى للقلوب، وأَسْمَح في الأذان، وأَحلى على الأفهام، فالنَّاسُ إليه أَمِيلٌ، والأهواءُ إليه أَسْرَعُ.

ومنها: تيسيره تعالى حِفْظَهُ لِمُتَعَلِّمِيهِ، وتَقْرِيبَهُ على مِتَحَفِّظِيهِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وسائرُ الأُمَمِ لا يَحْفَظُ كَتَبَهَا الواحدُ منهم، فكيف الجَماءُ على مُرورِ السنينِ عليهم. والقرآنُ ميسرٌ حِفْظُهُ لِلْعِلْمَانِ في أَقْرَبِ مَدَّةٍ.

ومنها: مُشَاكَلَةُ بَعْضِ أَجْزَائِهِ بَعْضًا، وَحُسْنُ اتِّتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَالتَّيَّامُ أَقْسَامُهَا؛ وَحُسْنُ التَّخْلِصِ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى، وَالخُرُوجُ مِنْ بَابٍ إِلَى غَيْرِهِ على اخْتِلَافِ مَعَانِيهِ، وَانْقِسَامُ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى أَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَخَبَرٍ وَاسْتِخْبَارٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَإِثْبَاتِ ثُبُوتٍ، وَتَوْحِيدِ وَتَقْرِيرٍ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ، إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِنْ فَوَائِدِهِ، دُونَ خَلَلٍ يَتَخَلَّلُ فَضُولَهُ.

والكلامُ الفَصِيحُ إذا اغْتَوَرَهُ مِثْلُ هَذَا ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَلَانَتْ جَزَالَتُهُ، وَقِلَ رَوْنُفُهُ، وَتَقَلَّقَتْ أَلْفَاظُهُ.

فتأملُ أَوَّلَ ﴿مَنْ﴾ وما جُمِعَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارِ الْكُفَّارِ وَشِقَاقِيهِمْ وَتَقْرِيبِهِمْ بِإِهْلَاكِ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وما ذُكِرَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَعْجِيبِهِمْ مِمَّا آتَى بِهِ وَالْخَبَرُ عَنْ اجْتِمَاعِ مَلَنَّهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وما ظَهَرَ مِنَ الْحَسَدِ فِي كَلَامِهِمْ، وَتَعْجِيزِهِمْ وَتَوَهِينِهِمْ، وَوَعِيدِهِمْ بِخِزْيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَكْذِيبِ الْأَمَمِ قَبْلَهُمْ، وَإِفْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ، وَوَعِيدِ هَؤُلَاءِ بِمِثْلِ مُصَابِهِمْ، وَتَضْيِيرِ النَّبِيِّ عَلَى أَدَائِهِمْ، وَتَسْلِيَتِهِ بِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ ثُمَّ أَخَذَ فِي ذِكْرِ دَاوُدَ وَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ؛ كُلُّ هَذَا فِي أَوْجَزِ كَلَامٍ وَأَحْسَنِ نِظَامٍ.

ومنه: الْجُمْلَةُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي انْطَوَتْ عَلَيْهَا الْكَلِمَاتُ الْقَلِيلَةُ؛ وَهَذَا كُلُّهُ وَكَثِيرٌ مِمَّا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ ذُكِرَ فِي إعْجَازِ الْقُرْآنِ، إِلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ، ذَكَرَهَا الْأَثَمَةُ لَمْ نَذْكُرْهَا؛ إِذَا أَكْثَرَهَا دَاخِلٌ فِي بَابِ بَلَاغَتِهِ؛ فَلَا يَجِبُ أَنْ يُعَدَّ فَتًا مُنْفَرَدًا فِي إعْجَازِهِ، إِلَّا فِي بَابِ تَفْصِيلِ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ عَنْهُمْ، يُعَدُّ فِي خَوَاصِهِ وَفَضَائِلِهِ، لَا إعْجَازَهُ.

وحَقِيقَةُ الإعْجَازِ الْوُجُوهُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي ذَكَّرْنَا؛ فَلْيُعْتَمَدْ عَلَيْهَا، وَمَا بَعْدَهَا مِنْ خَوَاصِّ الْقُرْآنِ وَعَجَائِبِهِ الَّتِي لَا تَنْقُضِي. وبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل

في انشقاق القمر وخبس الشفص

قال الله تعالى: ﴿ أَفَتَرَى السَّاعَةَ وَاتَّقَى الْفَعْرَ ۖ وَإِنْ بَرَوْا مَا بَعْدَ بَرِّهِمْ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِجٌ ۖ ﴾ [القمر: ١، ٢].

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته؛ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.

٦٧٣ - أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه، حدثنا القاضي سراج بن عبد الله، حدثنا الأصيلي، حدثنا المزوري، حدثنا القرنبي، حدثنا البخاري، حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن شعبة، وسفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» [البخاري (٤٨٦٤)، مسلم (٢٨٠٠)].

٦٧٤ - وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبي ﷺ.

٦٧٤ م - وفي بعض طرق الأعمش: ونحن بمى [البخاري (٣٨٦٩)، مسلم (٤٤٢/٢٨٠٠)].

٦٧٥ - ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - الأسود، وقال: حتى رأيت الجبل بين فرجني القمر [أحمد (٤١٣/١)].

٦٧٦ - ورواه عنه مسروق، أنه كان بمكة، ورأى فقال كفار قريش: سحرهم ابن أبي كبشة [البخاري (٣٨٦٩)].

فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن ينسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا، فسألوهم فاجبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وحكى السمرقندي عن الضحّاك، نحوه، وقال: فقال أبو جهل: هذا سحر، فابحثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا: أراؤا ذلك أم لا؟ فأحبر أهل الآفاق أنهم رأوه مُشَقَّقًا؛ فقالوا: يغني الكفار - هذا سحر مستمر.

٦٧٧ - ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - علقمة؛ فهؤلاء أربعة عن عبد الله.

٦٧٨ - ٦٨٣ - وقد رواه غير ابن مسعود، كما رواه ابن مسعود؛ منهم:

أنس [البخاري (٣٦٣٧)، مسلم (٢٨٠٢)]، وابن عباس [البخاري (٣٦٣٨)، مسلم (٢٨٠٣)]،

وابنُ عمر [مسلم (٢٨٠١)]، وحُذِيفَةُ، وعلي، وجُبَيْر بن مُطْعِم [الترمذي (٣٢٨٩)]؛ فقال عليّ - من رواية أبي حذيفة الأزحبي: لانشق القمر ونَحْنُ مع النبي ﷺ .
وعن أنس: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يُريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا جِراءَ بينهما. رواه عن أنس قتادة.

وفي رواية مَعْمَر وغيره، عن قتادة، عنه: أراهم القمرَ مرتين انشقاقه، فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ﴾ [القمر: ١].

ورواه عن جُبَيْر بن مُطْعِم ابنه محمد، وابنُ ابنه جُبَيْر بن محمد.
ورواه عن ابن عباس عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.
ورواه عن ابن عمر مُجاهد، ورواه عن حُذِيفَةَ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ ومسلم بن أبي عمران الأزدي.

وأكثرُ طرقِ هذه الأحاديث صحيحة؛ والآية مُصَرِّحَةٌ، ولا يلتفتُ إلى اعتراض مخذول، بأنه لو كان هذا لم يخفَ على أهل الأرض؛ إذ هو شيء ظاهرٌ لجميعهم؛ إذ لم يُنْقَلْ لنا عن أهل الأرض أنهم رصّوه تلك الليلة فلم يروْهُ انشق؛ ولو نُقِلَ إلينا عمّن لا يجوزُ تَمَالُؤُهُم - لكثرتهم - على الكذب، لَمَّا كانت علينا به حجة؛ إذ ليس القمرُ في حدٍّ واحدٍ لجميع أهل الأرض؛ فقد يطلعُ على قوم قبل أن يطلعَ على آخرين، وقد يكون من قوم بضدِّ ما هو من مُقَابِلِهِمْ من أقطار الأرض، أو يَحُولُ بين قوم وبينه سحابٌ أو جبالٌ؛ ولهذا نجدُ الكسوفات في بعض البلاد دونَ بَعْضٍ، وفي بعضها جُزئية، وفي بعضها كُلّية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المُدْعَوْنَ لِعَلْمِهَا؛ ذلك تقديرُ العزيز العليم.

وآية القمر كانت ليلاً، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب، وقطع التصرف، ولا يكاد يَعْرِفُ من أمور السماء شيئاً، إلّا مَنْ رَصَدَ ذلك، واهْتَبَلَ به. وكذلك ما يكونُ الكسوفُ القَمَرِي كثيراً في البلاد، وأكثرُهُمْ لا يعلمُ به حتى يُخْبَرَ، وكثيراً ما يحدثُ الثقاتُ بعجائب يشاهدونها من أنوارٍ ونجومٍ طَوَّالِعَ عَظَامَ تَظْهَرُ في الأحيان بالليل في السماء، ولا عِلْمٌ عند أحد منها.

٦٨٤ - وخَرَجَ الطحاوي في مشكل الحديث، عن أسماء بنت عُمَيْسٍ، من طريقين، أن النبي ﷺ كان يُوحَى إليه، ورأسه في حجر عليّ، فلم يصلَّ العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسول الله ﷺ: «أصليت؟ يا علي!» قال: لا.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم! إنه كان في طاعتك، وطاعة رسولك، فازدّد عليه الشمس».

قالت أسماء: فرأيتها غُرِثَتْ، ثم رأيتها طَلَعَتْ بعد ما غُرِثَتْ، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصُّهْناءِ في خَيْبَرٍ.
قال: وهذان الحديثان ثابتان وزواتهما ثقات.

وحكى الطُّخَاوي أَنَّ أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن كان سبيلُهُ العلمَ التخلُّفَ عن حفظ حديث أسماء؛ لأنه من أجلِّ علامات النبوة.

٦٨٥ - ورَوَى يونس بن بُكَيْرٍ في زيادة المغازي في روايته عن ابن إسحاق: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ، وأخبر قومه بالرِّقَّةِ والعلامة التي في العير قالوا: متى نجيء؟ قال: «يوم الأربعاء» فلما كان ذلك اليوم أشرفت فُريش ينظرون وقد ولى النهار ولم تَجِءْ؛ فدعا رسول الله ﷺ، فزید له في النهار ساعة، وحُبِسَتْ عليه الشمس.

فصل

فِي نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكَثِيرِهِ بِتَرَكْتِهِ

قال المؤلف رحمه الله: أمَّا الأحاديث في هذا فكثيرة جداً.

رَوَى حديث نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ جماعة من الصحابة؛ منهم أنس، وجابر، وابن مسعود:

٦٨٦ - حدثنا أبو إسحاق: إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا القاضي عيسى بن سهل، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو عُمَرَ بن الْفَخَّار، حدثنا أبو عيسى، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طَلْحَةَ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ، وحائث صلاة العَصْرِ؛ فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه.

قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم [البخاري (١٦٩)، مسلم (٥/٢٢٧٩)].

٦٨٧ - ورواه أيضاً - عن أنس - قتادة، وقال: بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمر. قال: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلاث مئة [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٧/٢٢٧٩)].

٦٨٨ - وفي رواية عنه: وهم بالروزاء عند السوق [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٦/٢٢٧٩)].

ورواه أيضاً حَمِيدٌ، وثابتٌ، والحَسَنُ، عن أنسٍ.

٦٨٩ - وفي رواية حَمِيدٌ: قلتُ: كم كانوا؟ قال: ثمانين [البخاري (٣٥٧٥)].

٦٩٠ - ونحوه عن ثابت عنه [البخاري (٢٠٠)، مسلم (٤/٢٢٧٩)].

٦٩١ - وعنه أيضاً: وهم نحو من سبعين رجلاً [البخاري (٣٥٧٤)].

٦٩٢ - وأما ابنُ مسعود ففي الصحيح عنه - من رواية علقمة -: بينما نحن

مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا منْ معه فَضْلُ ماءٍ»، فَأَتَيْتُ بِماءٍ فَصَبَّهُ في إِناءٍ، ثم وَضَعَ كَفَّهُ فيه، فجعل الماءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصابعِ رسول الله ﷺ [البخاري (٣٥٧٩)].

٦٩٣ - وفي الصحيح، عن سالم بن أبي الجَعْفِدِ، عن جابر رضي الله عنه:

عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ورسول الله ﷺ بين يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فتوضأ منها، وأقبل النَّاسُ نَحْوَهُ؛ وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في رَكْوَتِكَ؛ فوضع النبي ﷺ يَدَهُ في الرَكْوَةِ فجعل الماءُ يَفُورُ من بين أصابعه كأمثالِ العُيُونِ.

وفيه: فَقُلْتُ: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مِئَةَ أَلْفٍ لَكُنّا؛ كُنّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً

[البخاري (٤١٥٢)، مسلم (٧٢/١٨٥٦)].

٦٩٤ - ورُوي مثله عن أنس، عن جابر؛ وفيه أنه كان بالحُدَيْبِيَةِ.

٦٩٥ - وفي رواية عُبادة بن الوليد بن عُبادة بن الصامت عنه، في حديث

مُسلم الطويل في ذِكْرِ غَزْوَةِ بُوَاطٍ قال:

قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر! نادِ، الوُضوء...» وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قَطْرَةً في غَزْلاءٍ شَجَبَ؛ فَأَتَيْتُ به النبي ﷺ، فَعَمَزَهُ وتكلّم بشيء لا أدري ما هو؟ وقال: «نادِ بِجَفْنَةِ الرُّكْبِ»، فَأَتَيْتُ بِهَا، فوضعتها بين يَدَيْهِ، وذَكَرَ أَنَّ النبي ﷺ بسط يَدَهُ في الجَفْنَةِ، وفزق أصابعه، وصَبَّ جابرٌ عليه؛ وقال: باسمِ الله كما أَمَرَهُ ﷺ قال: فرأيتُ الماءَ يَفُورُ من بين أصابعه، ثم فارتِ الجَفْنَةُ واستدارت حتى امتلأت، وأمر النَّاسُ بالاسْتِقاء، فاستَقَوْا حتى رَوَوْا.

فقلت: هل بَقِيَ أحدٌ له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يَدَهُ من الجَفْنَةِ وهي

مَلَأَتْ [مسلم (٣٠١٣)].

٦٩٦ - وعن الشَّعْبِيِّ: أَتَى النبي ﷺ في بعض أسفاره بِإِدَاوَةِ ماءٍ، وقيل: ما

مَعْنَا، يا رسولَ الله! ماءٌ غَيْرُهَا، فسكبها في رَكْوَةٍ، ووضع إصبعه وسطها، وغَمَسَهَا في الماءِ، وجعل النَّاسُ يَجِثُونَ ويتوضَّؤون ثم يقومون.

٦٩٧ - قال التِّرْمِذِيُّ: وفي الباب، عن عمران بن حُصَيْنٍ.

ومثل هذا في هذه المواطن الخفلة، والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لما جُبلت عليه النفوس من ذلك؛ ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل؛ فهؤلاء قد زووا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم يُنكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوا وشاهدوا، فصار كصديق جميعهم له.

فصل

فِي تَفْجِيرِ الْمَاءِ بِبِرْكَتِهِ ﷺ، وَانْبِعَاثِهِ بِضَمِّهِ وَدَعْوَتِهِ

٦٩٨ - ومما يُشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته، وانبعائه بمنه ودعوته فيما روى مالك في «الموطأ» عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي قِصَّةِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّهُمْ وَرَدُوا الْعَيْنَ وَهِيَ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءِ مِثْلِ الشَّرَاكِ، فَعَزَّوْا مِنَ الْعَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ غَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَأَعَادَهُ فِيهَا. فَجَزَتْ بِمَاءٍ كَثِيرٍ، فَاسْتَقَى النَّاسُ.

٦٩٩ - قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ما له جس كجس الصواعق.

ثم قال: «يوشك، يا مُعَاذُ! إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مَلِئَ جَنَانًا» [مسلم (١٠٧٠٦)].

٧٠٠، ٧٠١ - وفي حديث البراء، وسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ - وحديثه أتم - في قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهُمْ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِثَّةً، وَبَثَرُهَا لَا تَزِيدُ خَمْسِينَ شَاةً، فَتَزَخَّنَاهَا فَلَمْ تَزَلْ فِيهَا فُطْرَةٌ، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَاهَا.

قال البراء: وَأَتَيْتُ بِذَلْوٍ مِنْهَا، فَبَضَقْتُ، فِدَعَا - وَقَالَ سَلَمَةُ: فَإِنَّمَا دَعَا، وَإِنَّمَا بَضَقَ فِيهَا - فَجَاشَتْ؛ فَارْزَوْا أَنْفُسَهُمْ وَرَكَابَهُمْ [البخاري (٣٥٧٧) مسلم (١٧٢٩)].

وفي غير هذه الروايتين في هذه القصة من طريق ابن شهاب في الحُدَيْبِيَّةِ: فَأَخْرَجَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَوَضَعَ فِي قَعْرِ قَلِيبٍ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، فَرَزَوِي النَّاسُ حَتَّى ضَرَبُوا بِعُطْنٍ.

٧٠٢ - وعن أبي قتادة، وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العَطَشَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فِدَعَا بِالْبَيْضَاءِ، فَجَعَلَهَا فِي ضَبْتِهِ، ثُمَّ التَّمَّمَ فَمَهَا، فَالَّهْ أَعْلَمُ - نَفَثَ فِيهَا أَمْ لَا - فَشَرِبَ النَّاسُ حَتَّى زَوَّاءَ، وَمَلَّوْا كُلَّ إِنَاءٍ مَعَهُمْ؛ فَخَبِلَ إِلَيَّ

أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً [مسلم (٦٨١)].

٧٠٣ - وَرَوَى مِثْلَهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ.

وذكر الطبري حديث أبي قتادة على غير ما ذكره أهل الصحيح، وأن النبي ﷺ خرج بهم مُمِدًّا لأهل مُؤْتَةَ عندما بلغه قَتْلُ الأمراء.

وذكر حديثاً طويلاً فيه مُعْجَزَاتُ وآيَاتُ للنبي ﷺ؛ وفيه إعلَامُهُم أنهم يفقدون الماء في غَدٍ.

وذكر حديث المِيضَاءِ؛ قال: والقَوْمُ رُهَاءُ ثلاث مئة.

٧٠٤ - وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قَتَادَةَ: «احْفَظْ عَلَيَّ مِيضَانِكَ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهَا نَبَأٌ» وذكر نحوه [مسلم (٦٨١)].

٧٠٥ - ومن ذلك حديث عِمْرَانِ بْنِ حُصَيْنٍ حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطشٌ في بعض أسفارهم؛ فَوَجَّهَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ، وأعلمهما أنهما يجِدَانِ امرأةً بمكانٍ كذا معها بَعِيرٌ عليه مَرَاتَانِ... الحديث؛ فوجداهما وأتيا بها إلى النبي ﷺ؛ فجعل في إناءٍ مِنْ مَرَاتِنِهَا، وقال فيه ما شاء الله أن يقول؛ ثم أعاد الماء في المَرَاتَيْنِ، ثم فَتَحَتْ عَزَائِهِمَا؛ وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يَدْعُوا شيئاً إلا ملؤوه.

قال عِمْرَانُ: وَتَحَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَمْ تَزِدَا إِلَّا امْتَلَاءً، ثم أمر فُجِعَ للمرأة من الأزوادِ حتى ملأ ثوبها. وقال: «اذهبي؛ فَإِنَّا لَمْ نَأْخُذْ مِنْ مَائِكَ شيئاً؛ ولكن الله سقانا...» الحديث بطوله [البخاري (٣٤٤)، مسلم (٦٨٢)].

٧٠٦ - وعن سلمة بن الأكوع: قال نبي الله ﷺ: «هَلْ مِنْ وَضوءٍ؟» فجاء رجلٌ يَأْذَاوَةً فيها نُطْقَةٌ فأفرغها في قَدَحٍ، فتوضأنا كُلُّنا نُدْغِفُهُ دَغْفَقَةً، أربعَ عَشْرَةَ مِئَةً [مسلم (١٧٢٩)].... الحديث بطوله.

٧٠٧ - وفي حديث عُمر، في جَيْشِ العُسْرَةِ: وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إنَّ الرجلَ لَيَنْخَرُ بِبَعِيرِهِ، فيغصر قَرْنَهُ فيشربُه؛ فرغب أبو بكر إلى النبي ﷺ في الدعاء، فرفع يَدَيْهِ، فلم يَزْجِعْهُمَا حتى قالت السماء، فانسكبت؛ فملؤوا ما معهم من آتِيَةٍ، ولم تجاوز العسكر.

٧٠٨ - وعن عمرو بن شعيب، أنَّ أبا طالب قال للنبي ﷺ، وهو رَدِيفُهُ بذي المَجَازِ: عَطِشْتُ وليس عندي ماء؛ فنزل النبي ﷺ، وضربَ بِقَدَمِهِ الأَرْضَ، فخرج الماء، فقال: «اشرب».

والحديث في هذا الباب كَثِيرٌ؛ ومنه الإجابةُ بدعاء الاستسقاء وما جَانَسَهُ.

فصل

وَمِنْ مُفْجَزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِتَرْكِهِ وَدُعَايِهِ

٧٠٩ - أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا العُدري، حدثنا الرازي، حدثنا الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا الحسن بن أغثين، حدثنا مفضل، عن أبي الزبير، عن جابر، أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ، فأطعمه شطرَ شَعِيرٍ؛ فما زال يأكل منه وامراته وضيافته حتى كاله، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: «لو لم تَكَلِّهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ وَلَقَامَ بِكُمْ» [مسلم (٢٢٨١)].

٧١٠ - ومن ذلك حديثُ أبي طَلْحَةَ المشهور، وإطعمته ﷺ ثمانين - أو سبعين - رجلاً من أقراصٍ مِنْ شَعِيرٍ جاء بها أنس تحت يده - أي إبطه - فأمر بها ففُتَّتْ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول [الحارثي (٣٥٧٨)، مسلم (٢٠٤٠)].

٧١١ - وحديثُ جابر في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجلٍ من صاع شَعِيرٍ، وَعَنَاقٍ.

وقال جابر: فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنْ بُزِمْنَا لَتَغْطُ كَمَا هِيَ، وَإِنْ عَجِينَا لَتُخْبِزُ.

وكان رسول الله ﷺ يَصُقُّ فِي الْعَجِينِ وَالْبُرْمَةِ، وَبَارِكُ.

رواه عن جابرٍ سعيد بن ميناء، وأَيْمَنُ [البخاري (٤١٠٢)، مسلم (٢٠٣٩)].

٧١٢ - وعن ثابتٍ، مثله، عن رجلٍ من الأنصار وامراته، ولم يسمهما؛ قال: وَجِيءَ بِمِثْلِ الْكَفِّ، فجعل رسول الله ﷺ يَسْتَطْعِمُهَا فِي الْإِنَاءِ، ويقولُ ما شاء الله، فأكل منه مَنْ فِي الْبَيْتِ وَالْخُجْرَةِ وَالْدَّارِ؛ وكان ذلك قد امتلأ مِنْ قَدِيمٍ مَعَهُ ﷺ لذلك؛ وبقي بعدما شَبِعُوا مِثْلَ مَا كَانَ فِي الْإِنَاءِ.

٧١٣ - وحديثُ أبي أيوب: أَنَّهُ صَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَأَبِي بَكْرٍ مِنَ الطَّعَامِ زُهَاءً مَا يَكْفِيهِمَا؛ فقال له النبي ﷺ: «ادْعُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَشْرَافِ الْأَنْصَارِ» فدعاهم، فأكلوا حتى تركوا؛ ثم قال: «ادْعُ سِتِينَ» فكان مِثْلَ ذَلِكَ؛ ثم قال: «ادْعُ سَبْعِينَ» فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أَحَدٌ حَتَّى أَسْلَمَ وَبَانَعَ.

قال أبو أيوب: فَأَكَلَ مِنْ طَعَامِي مِثْلُ ثَمَانُونَ رَجُلًا.

٧١٤ - وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِقَصْعَةٍ فِيهَا لَحْمٌ، فَتَعَاقَبُوهَا مِنْ غَدَاةٍ حَتَّى اللَّيْلِ؛ يَقُومُ قَوْمٌ وَيَقْعُدُ آخَرُونَ [الترمذي (٣٦٢٥)].

٧١٥ - ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن أبي بكر: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثِينَ وَمِئَةً؛ وَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ عَجِنَ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، وَصُنَعَتْ شَاةٌ، فَشَوِيَ سَوَادُ بَطْنِهَا ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّمُ اللَّهُ! مَا مِنْ الثَّلَاثِينَ وَمِئَةً إِلَّا وَقَدْ حَزَّ لَهُ حُزَّةٌ مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا قُضْعَتَيْنِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُمَا أَجْمَعُونَ، وَفَضَلَ فِي الْقُضْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى الْبَيْعِ [البخاري (٢٦١٨)، مسلم (٢٠٩٦)].

٧١٦ حتى ٧١٩ - ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن أبي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ [أحمد (٤١٧/٣، ٤١٨)، مسلم (١٧٢٩)]، عَنْ أَبِيهِ، وَمِثْلُهُ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ [البخاري (٢٤٨٤)، مسلم (١٧٢٩)]، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم (٢٧)]، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَكَرُوا مَخْمَصَةً أَصَابَتْ النَّاسَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَدَعَا بِبَقِيَّةِ الْأَزْوَادِ، فَجَاءَ الرَّجُلُ بِالْحَنِيَّةِ مِنَ الطَّعَامِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ؛ وَأَعْلَاهُمْ الَّذِي أَتَى بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ؛ فَجَمَعَهُ عَلَى نِطْعٍ - قَالَ سَلَمَةُ: فَحَزَزْتُهُ كَرْنِصَةِ الْعَنْزِ - ثُمَّ دَعَا النَّاسَ بِأَوْعِيَتِهِمْ، فَمَا بَقِيَ فِي الْجَيْشِ وَعَاءٌ إِلَّا مَلُؤُوهُ وَبَقِيَ مِنْهُ.

٧٢٠ - وعن أبي هريرة: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَدْعُو لَهُ أَهْلَ الصُّفَّةِ، فَتَبِعْتُهُمْ حَتَّى جَمَعْتُهُمْ، فَوَضَعْتُ بَيْنَ أَيْدِينَا صَحْفَةً، فَأَكَلْنَا مَا شِئْنَا، وَفَرَعْنَا وَهِيَ مِثْلُهَا حِينَ وُضِعَتْ إِلَّا أَنَّ فِيهَا أَثَرَ الْأَصَابِعِ.

٧٢١ - وعن علي بن أبي طالب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ، مِنْهُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجَدْعَةَ، وَيَشْرَبُونَ الْفَرْقَ؛ فَصَنَعَ لَهُمْ مَذًّا مِنْ طَعَامٍ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ كَمَا هُوَ؛ ثُمَّ دَعَا بِعُسٍّ، فَشَرِبُوا حَتَّى رَوُّوا، وَبَقِيَ كَأَنَّهُ لَمْ يُشْرَبْ مِنْهُ [أحمد (١٥٩/١)].

٧٢٢ - وعن أنس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ ابْتَنَى بَزْتَبَ، أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُو لَهُ قَوْمًا سَمَاهُمْ، وَكُلٌّ مِنْ لَقِيَتْ، حَتَّى امْتَلَأَ الْبَيْتَ وَالْحِجْرَةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ تَوْرًا، فِيهِ قُدْرٌ مُدٌّ مِنْ تَمَرٍ، جُعِلَ حَنِيسًا، فَوَضَعَهُ قُدَّامَهُ، وَغَمَسَ ثَلَاثَ أَصَابِعِهِ، وَجَعَلَ الْقَوْمَ يَتَغَدَّوْنَ وَيَخْرُجُونَ، وَبَقِيَ التَّوْرُ نَحْوًا مِمَّا كَانَ، وَكَانَ الْقَوْمُ أَحَدًا - أَوْ قَالَ - اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ [مسلم (٩٥/١٤٢٨)، البخاري (٥١٧٠)].

٧٢٣ - وفي رواية أخرى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَوْ مِثْلِهَا إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا زُهَاءً ثَلَاثَ مِئَةٍ وَأَنَّهُمْ أَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. وَقَالَ لِي: «ارْفَعْ»، فَلَا أَذْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرُ أَمْ حِينَ رَفَعْتُ [مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

٧٢٤ - وفي رواية جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فَاطِمَةَ طَبَخَتْ قُدْرًا لَعْدَائِهَا وَوَجَّهَتْ عَلِيًّا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَتَغَدَّى مَعَهَا، فَأَمَرَهَا

فَقَرَعَتْ مِنْهَا لِجَمِيعِ نِسَائِهِ صَحْفَةً، صَحْفَةً ثُمَّ لَهَا، وَلِعَلِّي، ثُمَّ لَهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ الْقِنْدَرُ، وَإِنَّا لَنَقِيضُ، قَالَتْ: فَأَكَلْنَا مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ.

٧٢٥، ٧٢٦ - وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنْ يَزُودَ أَرْبَعَ مِثْقَ رَاكِبٍ مِنْ أَخْمَسٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هِيَ إِلَّا أَضْرُوعٌ. قَالَ: «اذْقَبْ»، فَذَهَبَ فَزَوَّدَهُمْ مِنْهُ، وَكَانَ قَدَرُ الْقَصِيلِ الرَّابِضِ، مِنَ التَّمْرِ، وَبَقِيَ بِحَالِهِ.

مِنْ رِوَايَةِ ذُكَيْنِ الْأَخْمَسِيِّ [أَحْمَد (١٧٤/٤)]، وَمِنْ رِوَايَةِ جَرِيرٍ ٧٢٧ - وَمِثْلُهُ مِنْ رِوَايَةِ الثُّغَمَانِ بْنِ مَقْرَنٍ الْحَرَبِيِّ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعَ مِثْقَ رَاكِبٍ مِنْ مُزِينَةٍ [أَحْمَد (٤٤٥/٥)].

٧٢٨ - وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثٌ حَابِرٌ فِي ذَيْنِ أَبِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَقَدْ كَانَ يَذَلُّ لِعُرْمَانِ أَبِيهِ أَضَلَّ مَالَهُ، فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نَحْوِهَا سِتِينَ كِفَافَ ذَيْنِهِمْ، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ بِجَذْعِهَا، وَجَعَلَهَا يَبَادِرُ فِي أَصُولِهَا، فَمَضَى فِيهَا وَدَعَا، فَأَوْقَى مِنْهُ جَابِرُ عُرْمَانَ أَبِيهِ، وَفَضَّلَ مِثْلَ مَا كَانُوا يَحْدُثُونَ كُلَّ سَنَةٍ [الْخَارِجِي (٢١٢٧)].

١/٧٢٨ - وَفِي رِوَايَةٍ: مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ [الْخَارِجِي (٣٥٨٠)]؛ قَالَ: وَكَانَ الْعُرْمَانُ يَهُودٌ؛ فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ.

٧٢٩ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصَابَ النَّاسَ مَخْمَصَةٌ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَهْلٌ مِنْ شَيْءٍ؟» قُلْتُ: نَعَمْ؛ شَيْءٌ مِنَ التَّمْرِ فِي الْمَزُودِ. قَالَ: «فَأَتْنِي بِهِ» فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَأَخْرَجَ قِنْصَةً، فَبَسَطَهَا وَدَعَا بِالْبُرْكَ؛ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ عَشْرَةَ» فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ عَشْرَةَ كَذَلِكَ، حَتَّى أَطْعَمَ الْجَيْشَ كُلَّهُمْ وَشَبِعُوا. قَالَ: «تُخَذُ مَا جِئْتُ بِهِ، وَأَدْخُلُ بِذَلِكَ، وَأَقْبِضُ مِنْهُ وَلَا نَكْبَةَ»، فَقَبِضْتُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا جِئْتُ بِهِ؛ فَأَكَلْتُ مِنْهُ، وَأَطْعَمْتُ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَغُمَرَ، إِلَى أَنْ قُتِلَ عُمَانٌ، فَاتَّهَبْتُ مِنِّي، فَذَهَبَ.

٧٣٠ - وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَمِنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [التِّرْمِذِيُّ (٣٨٣٩)، أَحْمَد (٣٥٢/٢)].

٧٣١ - وَذُكِرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّ التَّمْرَ كَانَ يَضَعُ عَشْرَةَ نَجْرَةٍ [مُسْلِم (٤٥/٢٧)].

٧٣٢ - وَمِنْهُ أَيْضاً حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حِينَ أَصَابَهُ الْجَوْعُ، فَاسْتَبَعَةَ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ فَدَّاهُ أَهْلِي إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ أَهْلَ الصُّنَّةِ.

قَالَ: قُلْتُ: مَا هَذَا اللَّبَنُ فِيهِمْ؟ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ شَرِّهِ أَنْقَوَى بِهَا. فَدَعَوْتُهُمْ.

وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يزوي، ثم يأخذه الآخر حتى يزوي جميعهم.

قال: فأخذ النبي ﷺ القَدَحَ، وقال: «بقيت أنا وأنت، أقعد فاشرب» فشربت، ثم قال: «اشرب» وما زال يقولها واشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق! ما أجد له مسلماً؛ فأخذ القَدَحَ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة [البخاري (٦٤٥٢)].

٧٢٣ - وفي حديث خالد بن عبد العزى أنه أجزر النبي ﷺ شاةً وكان عيال خالد كثيراً، يذبح الشاة فلا تُبد عياله، عَظْماً عَظْماً؛ وإن النبي ﷺ أكل من هذه الشاة، وجعل فضلتها في ذلِّ خالد، ودعا له بالبركة، فنثر ذلك لعياله، فأكلوا وأفضلوا، ذكر خبره الدُّولابي.

٧٢٤ - وفي حديث الأجرى في إنكاح النبي ﷺ لعلی فاطمة، أن النبي ﷺ أمر بلالاً بقضعة من أربعة أمداد أو خمسة، ويذبح جزوراً لوليبتها قال: فأتيته بذلك، فطعن في رأسها، ثم أدخل الناس رُقعة رُقعة، يأكلون منها حتى قرعوا، وبقيت منها فضلة؛ فبرك فيها، وأمر بحملها إلى أزواجه؛ وقال: «كُلْنِ وَأَطِعْنِ مَنْ عَشِيَكُنَّ».

٧٢٥ - وفي حديث أنس: تزوج رسول الله ﷺ، فصنعت أُمِّي: أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْساً، فجعلته في تَوْرٍ، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: «ضَعْنِي، واذع لي فلاناً وفلاناً، ومن لقيت».

فدعوتهم، ولم أذع أحداً لقيته إلا دعوته؛ وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاث مئة حتى ملؤوا الصُفَّةَ والحُجْرَةَ، فقال لهم النبي ﷺ: «تَحَلَّقُوا عَشْرَةَ عَشْرَةَ»، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول؛ فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: «ارفع» فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت [البخاري (٥١٦٣)، مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح. وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا يتعد بعدهم.

وأكثرها في قصص مشهورة، ومجامع مشهودة؛ ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها.

فصل

فِي كَلَامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ

٧٣٦ - أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ غُلْبُونٍ، الشَّيْخُ الصَّالِحُ، فِيمَا أَجَازَنِيهِ، عَنْ أَبِي عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْمُهَنْدَسِ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْبَغَوِيِّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِمْرَانَ الْأَخْنَسِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو حَبِيبٍ النَّيْمِيُّ - وَكَانَ صَدُوقاً - عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَدَنَا مِنْهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «يَا أَعْرَابِيُّ! أَيْنَ تَرِيدُ؟» قَالَ: إِلَى أَهْلِي. قَالَ: «هَلْ لَكَ إِلَى خَيْرٍ؟» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ: السَّمُرَةُ، وَهِيَ بِشَاطِئِ الْوَادِي، وَادْعَهَا فَإِنَّهَا تُجِيبُكَ».

فَأَقْبَلْتُ تَخَذُ الْأَرْضَ حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثًا، فَشَهِدَتْ أَنَّهُ كَمَا قَالَ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا.

٧٣٧ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ: سَأَلَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَقَالَ لَهُ: «قُلْ لِّلشَّجَرَةِ: رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَدْعُوْكَ».

قَالَ: فَمَالَتِ الشَّجَرَةُ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا وَبَيْنَ يَدَيْهَا وَخَلْفَهَا، فَتَقَطَّعَتْ عُرُوفُهَا، ثُمَّ جَاءَتْ تَخَذُ الْأَرْضَ تَجْرُ عُرُوقُهَا مُغْبِرَةً، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: مُرَّهَا فَلْتَرْجِعْ إِلَى مَثْبِتِهَا، فَرَجَعَتْ، فَدَلَّتْ عُرُوقُهَا فِي ذَلِكَ فَاسْتَوَتْ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: ائْذَنْ لِي أَسْجُدَ لَكَ.

قَالَ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِرُؤُوسِهَا».

قَالَ: فَأَذَّنَ لِي أَنْ أَقْبَلَ يَدَيْكَ وَرِجْلَيْكَ، فَأَذَّنَ لَهُ.

٧٣٨ - وَفِي الصَّحِيحِ - فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، الطَّوِيلِ: ذَهَبَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْضِي حَاجَتَهُ، فَلَمْ يَزِ شَيْئًا يَسْتَبِرُّ بِهِ، فَإِذَا بِشَجَرَتَيْنِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَاَنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بَعْضَ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «إِنِّي بِإِذْنِ اللَّهِ» فَاَنْقَازَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُضَانِعُ قَائِدَهُ.

وَذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَ بِالْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمُنْصَبِ بَيْنَهُمَا قَالَ:

«التَّيْمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ» فالتَّيْمَا - وفي رواية أخرى: فقال: «يا جابرًا قُلْ لهذه الشجرة: يقول لك رسول الله ﷺ: الْحَقِّي بِصَاحِبَتِكَ حَتَّى أَجْلِسَ خَلْفَكُمَا» ففعلتُ، فزحفتُ حتى لَجِعتُ بِصَاحِبَتِهَا فجلستُ خَلْفَهُمَا - فخرجتُ أَحْضِرُ، وجلستُ أَحَدْتُ نَفْسِي، فالتفتُ فإذا برسول الله ﷺ مُقْبِلًا والشجرتان قد افتترقتا، فقامت كُلُّ واحدةٍ منهما على ساقٍ، فوقفَ رسول الله ﷺ وَقَفَةً، فقال برأسه هكذا يميناً وشمالاً [مسلم (٣٠١٢)].

٧٣٩ - وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ نَحْوَهُ، قال: قال لي رسول الله ﷺ في بعض مَغَازِيهِ: «هل؟» يعني مكاناً لحاجة رسول الله ﷺ، فقلت: إن الوادي ما فيه موضعٌ بالناس، فقال: «هل ترى من تُخَلُّ أو حجارة؟» قلت: أرى نخلاتٍ متقاربات. قال: «انطلق وقلْ لَهُنَّ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْتِينَ لِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وقلْ للحجارةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ».

فقلتُ ذَلِكَ لَهُنَّ، فوالذي بعثه بالحق! لقد رأيتُ النخلاتِ يتقاربن حتى اجتمعنَ، والحجارةُ يتعاقذنَ حتى صِرْنَ رُكَّامًا، فجلستُ خَلْفَهُنَّ. فلما قضى حاجته قال لي: «قلْ لَهُنَّ يَفْتَرِقْنَ» فوالذي نَفْسِي بيده! لראيتُهُنَّ والحجارةُ يفترقن حتى عُدْنَ إلى مواضعهن.

٧٤٠ - وقال يَغْلَى بْنُ سَيَابَةَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ... وذكر نحواً من هذين الحديثين، وذكر: فأمر وَدَيْتَيْنِ فَأَنْضَمَّتَا [أحمد (١٧٢/٤)].

٧٤١ - وفي رواية: أَشَاءَتَيْنِ.

٧٤٢ - وعن غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ مِثْلَهُ، فِي شَجَرَتَيْنِ.

٧٤٣ - وعن ابن مسعود، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مِثْلَهُ، فِي غَزَاةِ حُتَيْنِ.

٧٤٤ - وعن يَغْلَى بْنِ مُرَّةٍ - وَهُوَ ابْنُ سَيَابَةَ - أَيْضًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ رَأَاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّ طَلْحَةَ - أَوْ سُمُرَةَ - جَاءَتْ فَأُطَافَتْ بِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَثَبَتِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنهَا اسْتَأْذَنْتُ أَنْ تَسْلَمَ عَلَيَّ» [أحمد (١٧٣/٤)].

٧٤٥ - وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَذْنَتِ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنِّ، لَيْلَةً اسْتَمَعُوا لَهُ، شَجَرَةٌ [البخاري (٣٨٥٩)، مسلم (٤٥٠)].

٧٤٦ - وعن مجاهد، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْجَنِّ قَالُوا: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ قَالَ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ، تَعَالَنِي يَا شَجَرَةُ!»، فَجَاءَتْ تَجِرُّ عُرْوَقَهَا لَهَا فَعَاقِبَ.

وذكر مِثْلَ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَوْ نَحْوَهُ.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا ابنُ عُمَرَ، وُزَيْدَةُ، وجَابِرٌ، وابن مسعود،
وَيَغْلَى بن مُرَّة، وأَسَامَةُ بن زيد، وأنس بن مالك. وعلي بن أبي طالب، وابنُ
عباس، وغيرهم قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها.

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم، فصارت في انتشارها من القوة حيث
هي.

وذكر ابن فوزك أنه ﷺ سار في غزوة الطائف ليلاً، وهو وسن، فاعترضته
سبذرة، فانفرجت له نصفين حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا،
وهي هناك معروفة مُعْظَمَة.

٧٤٧ - ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه: أن جبريل عليه السلام قال
للنبي ﷺ - ورأه خزيناً -: «أُتِجِبُ أن أريك آية؟» قال: «نعم» فنظر رسول الله ﷺ
إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة، فجاءت تمشي حتى قامت
بين يديه.

قال: مرها فلترجع، فعادت إلى مكانها [أحمد (١١٣٣)، ابن ماجه (٤٠٢٨)].
٧٤٨ - وعن علي بن نحو هذا، ولم يذكر فيها جبريل، قال: «اللهم! أرني آية
لا أبالي من كذبي بعدها» فدعا شجرة... وذكر مثله. وحُزْنَةُ ﷺ لنكذيب
قومه، وطلبه الآية لهم، لا لهُ.

٧٤٩ - وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ أَرَى رُكَّانَةً بِمِثْلِ هذه الآية في شجرة
وعاها فأتت حتى وقفت بين يديه، ثم قال: «ارجعي» فزجعت.

٧٥٠ - وعن الحسن أنه - عليه السلام - شكَا إلى رَبِّهِ من قَوْمِهِ وأنهم
يخوفونه، وسأله آية يعلم بها أن لا مخافة عليه، فأوحى الله إليه: أن ائت وادي
كذا، فيه شجرة، فاذهغ غصناً منها يأتك. ففعل، فجاء يخط الأرض خطأ حتى
انتصب بين يديه، فحبسه ما شاء الله، ثم قال له: «ارجع كما جئت» فرجع،
فقال: «يا رب! علمت أن لا مخافة علي».

٧٥١ - ونحو منه عن عُمَرَ، وقال فيه: «أرني آية لا أبالي من كذبي
بعدها...» وذكر نحوه.

٧٥٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لأعرابي: «أرايت إن
دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم، فدعاه فجعل
يتفر، حتى أتاه. فقال: «ارجع» فعاد إلى مكانه [الترمذي (٣٦٢٨)].

وخزجه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح.

فصل

فِي قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذَعِ

٧٥٣ وحتى ٧٦٢ - وَيَعْضُدُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ حَدِيثُ حَنِينِ الْجَذَعِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشْهُورٌ مُنْتَشَرٌ، وَالْخَبَرُ بِهِ مُتَوَاتِرٌ، قَدْ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ [البخاري (٣٧٧)، مسلم (٥٤٤)]، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بَضْعَةُ عَشَرَ، مِنْهُمْ: أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَبُرَيْدَةُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ، كُلُّهُمْ يُحَدِّثُ بِمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ [ابن ماجه (١٤١٤)، أحمد (١٣٧/٥) البخاري (٩١٨)].

قال الترمذي: وحديث أنس صحيح.

٧٦٣ - قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار.

٧٦٤ - وفي رواية أنس: حتى ارتج المسجد بخواره.

٧٦٥ - وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به.

٧٦٦ - وفي رواية المطلب، وأبي: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت.

٧٦٧ - زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ» [أحمد (٣٠٠/٣)].

٧٦٨ - وَزَادَ غَيْرُهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْزِناً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدُفِنَ تَحْتَ الْمَنْبَرِ.

كذا في حديث المطلب، وسهل بن سعد، وإسحاق عن أنس.

٧٦٩ - وفي بعض الروايات عن سهل: فَدُفِنَتْ تَحْتَ مَنْبَرِهِ، أَوْ جُعِلَتْ فِي السَّقْفِ.

٧٧٠ - وفي حديث أبي: فكان إذا صلى النبي ﷺ صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض، وعاد زفاتاً.

وذكر الإسفراييني أن النبي ﷺ دعاه إلى نفسه، فجاء يخرق الأرض، فالتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه.

٧٧١ - وفي حديث بُرَيْدَةَ: فَقَالَ - يَغْنِي: النَّبِيُّ ﷺ -: «إِنْ شِئْتَ أَرُدَّكَ إِلَى

الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروفتك، وتكمل خلقك، ويجدد لك حوض
وثمره، وإن شئت أغرسك في الجنة، فياكل أولياء الله من ثمرك». ثم أصغى له
النبي ﷺ يستمع ما يقول.

فقال: بل تغرسني في الجنة، فياكل مني أولياء الله، وأكون في مكان لا
أبلى فيه.

فسمعه من يلية.

فقال النبي ﷺ: «قد فعلت» ثم قال: «اختار دار البقاء على دار الفناء».

٧٧٢ - فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله! الخشبة تجن
إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشاقبوا إلى لقائه.

رواه عن جابر: حفص بن غبيد الله - ويقال: غبيد الله بن حفص - وأيمن،
وأبو نضرة، وابن المسيب، وسعيد بن أبي كرب، وكزيب، وأبو صالح.
ورواه عن أنس بن مالك: الحسن، وثابت، وإسحاق بن أبي طلحة.
ورواه عن ابن عمر: نافع، وأبو حية.

ورواه أبو نضرة، وأبو الوداك، عن أبي سعيد.

وعمار بن أبي عمار، عن ابن عباس.

وأبو حازم، وعباس بن سهل بن سعد، عن سهل بن سعد.

وكثير بن زيد عن المطلب.

وعبد الله بن بريدة عن أبيه.

والطفيل بن أبي، عن أبيه.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: فهذا حديث كما تراه خرجه أهل الصحة،

ورواه من الصحابة من ذكرنا، وغيرهم من التابعين ضعفهم، إلى من لم نذكره، ومن
دون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب. والله المثبت على الصواب.

فصل

في معجزات أخرى للنبي ﷺ في سائر الجمادات كتسبيح الطعام وتسليم الخبز

ومثل هذا في سائر الجمادات:

٧٧٣ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عيسى التميمي، حدثنا القاضي

أبو عبد الله: محمد بن المرباط، حدثنا المهلب: أبو القاسم، حدثنا أبو الحسن

القائسي، حدثنا المَرْوَزِيُّ، حدثنا الْقُرَيْبِيُّ، حدثنا الْبُخَارِيُّ، حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيُّ، حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عَنْ عَلْقَمَةَ، عن عبدالله بن مسعود قال: لقد كنا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ [البخاري (٣٥٧٩)].

٧٧٤ - وفي غير هذه الرواية، عن ابن مسعود: كُنَّا نَأْكُلُ مع رسول الله ﷺ الطَّعَامَ ونَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ [الترمذي (٣٦٣٣)].

٧٧٥ - وقال أنس: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ كَفًّا مِنْ حَصَى، فَسَبَّخَنَ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ، ثُمَّ صَبَّهْنُ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَبَّخَنَ، ثُمَّ فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّخَنَ.

٧٧٦ - وَرَوَى مِثْلَهُ أَبُو ذَرٍّ، وَذَكَرَ أَنَّهُنَّ سَبَّخَنَ فِي كَفِّ عُمَرُ وَعُثْمَانُ.

٧٧٧ - وقال علي: كُنَّا بِمَكَّةَ مع رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرَةٌ وَلَا جَبَلٌ إِلَّا قَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! [الترمذي (٣٦٢٦)].

٧٧٨ - وعن جابر بن سَمُرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يَسْلُمُ عَلَيَّ» [مسلم (٢٢٧٧)]. قِيلَ: إِنَّهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ.

٧٧٩ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا اسْتَقْبَلَنِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرَّسَالَةِ جَعَلْتُ لَا أَمْرَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ!».

٧٨٠ - وعن جابر بن عبدالله: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَجَدَ لَهُ.

٧٨١ - وفي حديث العباس، إِذْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى بَنِيهِ، بِمَلَأَةٍ، وَدَعَا لَهُمُ بِالسَّخْرِ مِنَ النَّارِ كَسْتَرَهُ لِإِيَاهُمْ بِمَلَأَتِهِ، فَأَمْنَتْ أَسْكُفَةُ الْبَابِ وَحَوَائِطُ الْبَيْتِ: آمِينَ، آمِينَ.

٧٨٢ - وعن جعفر بن محمد، عَنْ أَبِيهِ: مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِطَبَقٍ فِيهِ رُمَانٌ وَعِثْبٌ، فَأَكَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَبَّخَ.

٧٨٣ - وعن أنس: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، أَخَذُوا فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ: «أَتَيْتُ أَخَذُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ» [البخاري (٣٦٧٥)].

٧٨٤ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي جِرَاءٍ، وَزَادَ: مَعَهُ عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَقَالَ: «إِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ» [مسلم (٢٤١٧)].

٧٨٥ - والخبر في جزاء أيضاً عن عثمان، قال: ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم.

وزاد: عبد الرحمن، وسعداً، قال: ونسيت الاثنين [الترمذي (٣٦٩٩)، النسائي (٢٣٦/٦)].

٧٨٦ - وفي حديث سعيد بن زيد أيضاً مثله، وذكر عشرة، وزاد نفسه [ابو داود (٤٦٤٨، ٤٦٤٩، ٤٦٥٠)، الترمذي (٣٧٥٧)، ابن ماجه (١٣٤)].

٧٨٧ - وقد روي أنه حين طلبته قريش قال له فبيز: اهبط يا رسول الله! فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فبعدني الله. فقال له جزاء: إلي يا رسول الله!

٧٨٨ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ: قرأ على الجبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: «يُجَدُّ الجبار نفسه، أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الكبير المتعال»، فرجف الجبر حتى قلنا: لينزل عنه [أحمد (٧٢/٢)، البخاري (٧٤١٢)، مسلم (٢٥/٢٧٨٨)].

٧٨٩ - وعن ابن عباس: كان حول البيت ستون وثلاث مئة صنم مذبذبة الأرجل بالرصاص في الحجارة، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسه، ويقول: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم.

٧٩٠ - ومثله في حديث ابن مسعود، وقال: فجعل يقطعها ويقول: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سأ: ٤٩] [البخاري (٤٢٨٧)، مسلم (١٧٨١)].

٧٩١ - ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره [الترمذي (٣٦٢٠)]، إذ خرج تاجراً مع عمه، وكان الراهب لا يخرج لأحد، فخرج وجعل يتخللهم، حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، ينفعه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً له، ولا يسجد إلا لبي. وذكر القصة، ثم قال: وأقبل ﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم، وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس، مال الفتيء إليه.

فصل

فِي الْآيَاتِ فِي ضُرُوبِ الْحَيَوَانَاتِ

٧٩٢ - حدثنا سراج بن عبد الملك: أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبي، حدثنا القاضي يونس، قال حدثنا أبو الفضل الصُّقْلِيُّ، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده، قالوا: حدثنا أبو العلاء: أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو، حدثنا مُجاهد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا ذاجِرٌ، فإذا كان عندنا رسولُ الله ﷺ قرَّ وثبت مكانه، فلم يجرى ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب [أحمد (١١٢/٦)، ١٥٠، (٢٠٩)].

٧٩٣ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي مَخْفِلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ قَدْ صَادَ صَبِيًّا، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: نَبِيُّ اللَّهِ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لَا آمَنْتُ بِكَ أَوْ يُؤْمِنُ بِكَ هَذَا الضُّبُّ، وَطَرَحَهُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا ضُبُّ!»، فَأَجَابَهُ بِلِسَانٍ مُبِينٍ يَسْمَعُهُ الْقَوْمُ جَمِيعًا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا زَيْنَ مَنْ وَافَى الْقِيَامَةَ.

قال: «مَنْ تَغْبِذُ؟» قال: الذي في السماء عَرْشُهُ، وفي الأرضِ سُلْطَانُهُ، وفي البحرِ سَيْلُهُ، وفي الجنةِ رَحْمَتُهُ، وفي النارِ عِقَابُهُ.

قال: «فَمَنْ أَنَا؟» قال: رسولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَخَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ صَدَّقَكَ، وَخَابَ مَنْ كَذَّبَكَ، فَاسْلَمْ الْأَعْرَابِيُّ.

٧٩٤ - وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ كَلَامِ الذُّبِّ الْمَشْهُورَةِ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ: بَيْنَمَا رَاعٍ يَزْعُمُ غَنَمًا لَهُ، عَرَضَ الذُّبُّ لَشَاةٍ مِنْهَا، فَأَخَذَهَا الرَّاعِي مِنْهُ، فَأَقْعَى الذُّبُّ، وَقَالَ لِلرَّاعِي: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ! حُلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ رِزْقِي!

قال الرَّاعِي: الْعَجَبُ مِنْ ذَنْبٍ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْإِنْسِ! فَقَالَ الذُّبُّ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ يَحْدِثُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ.

فَأَتَى الرَّاعِي النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُمْ فَحَدِّثْهُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ» [أحمد (٨٣/٣)، (٨٤)].

والحديث فيه قصة، وفي بعضه طول.

٧٩٥ - وَرَوَى حَدِيثُ الذُّبِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وفي بعض الطُّرُق عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: فَقَالَ الذُّبُّ: أَنْتَ أَعْجَبُ وَاقِفًا عَلَى غَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ نَبِيًّا لَمْ يَنْبَغِ اللَّهُ قَطُّ نَبِيًّا أَعْظَمَ مِنْهُ عِنْدَهُ قَدْرًا، قَدْ

فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَأَشْرَفَ أَهْلُهَا عَلَى أَصْحَابِهِ، يَنْظُرُونَ قِتَالَهُمْ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَّا هَذَا الشَّعْبُ، فَتَصْبِرُ فِي جُنُودِ اللَّهِ!

قال الراعي: مَنْ لِي بِغَنَمِي؟ قال الذئب: أنا أُرْعَاهَا حَتَّى تَرْجِعَ. فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ غَنَمَهُ وَمَضَى.

وَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَإِسْلَامَهُ وَوُجُودَهُ النَّبِيِّ ﷺ يُقَاتِلُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عُدْ إِلَى غَنَمِكَ تَجِدْهَا بِوَفَرِهَا».

فَوَجَدَهَا كَذَلِكَ، وَذَبَحَ لِلذَّئْبِ شَاةً مِنْهَا [أحمد (٣٠٦/٢)].

٧٩٦ - وَعَنْ أَهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ: وَأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالْمَحْدُثِ بِهَا، وَمَكَلَّمَ الذئبَ.

٧٩٧ - وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَكْوَعِ: أَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَيْضًا، وَسَبَّبَ إِسْلَامَهُ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

٧٩٨ - وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ مِثْلَ هَذَا أَنَّهُ جَرَى لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، مَعَ ذئبٍ وَجَدَاهُ أَخَذَ ظَبْيًا، فَدَخَلَ الظَّبْيُ الْحَرَمَ، فَانصَرَفَ الذئبُ، فَعَجِبَا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ الذئبُ: أَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بِالْمَدِينَةِ، يَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَتَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لَنْ ذَكَّرْتُ هَذَا بِمَكَّةَ لَتَرَكْتُهَا خُلُوفًا.

وَقَدْ رَوَى مِثْلَ هَذَا الْخَبَرِ، وَأَنَّهُ جَرَى لِأَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ.

٧٩٩ - وَعَنْ عَبَّاسِ بْنِ مِرْزَاسٍ: لَمَّا تَعَجَّبَ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ: ضَمِيمِهِ، وَإِنْشَادِهِ الشَّعْرَ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فِإِذَا طَائِرٌ سَقَطَ، فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ! أَتَعْجَبُ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ، وَلَا تَعْجَبُ مِنْ نَفْسِكَ؟ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَنْتَ جَالِسٌ؟ فَكَانَ سَبَبَ إِسْلَامِهِ.

٨٠٠ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَجُلٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَأَمَّنَ بِهِ وَهُوَ عَلَى بَعْضِ حَصُونِ خَيْبَرَ، وَكَانَ فِي غَنَمٍ يَرْعَاهَا لَهُمْ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ بِالْغَنَمِ؟ قَالَ: «اخْصَبْ وَجُوهَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤْذِي عَنْكَ أَمَانَتَكَ، وَيُرُدُّهَا إِلَى أَهْلِهَا».

فَفَعَلَ، فَسَارَتْ كُلُّ شَاةٍ حَتَّى دَخَلَتْ إِلَى أَهْلِهَا.

٨٠١ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطَ أَنْصَارِيٍّ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَفِي الْحَائِطِ غَنَمٌ فَسَجَدَتْ لَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ لَكَ مِنْهَا... الْحَدِيثُ [أحمد (١٥٨/٣) - (١٥٩)].

٨٠٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ حائطاً، فجاء بعير فسجد له، وذكر مثله.

٨٠٣ وحتى ٨٠٦ - ومثله في الجمل، عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبد الله [أحمد (٣١٠/٣)]، ويعلی بن مرة [أحمد (١٧٠/٤) - ١٧٢]، وعبد الله بن جعفر [أحمد (٣١٠/٣)]، أبو داود (٢٥٤٩)، قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه، فوضع مشفره، على الأرض، وبَرَكَ بين يديه، فخطمه، وقال: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا يَفْلَحُنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَاصِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ».

٨٠٧ - ومثله عن عبد الله بن أبي أوفى.

٨٠٧ م - وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه.

وفي رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: «إِنَّ شَكَا كَثْرَةِ الْعَمَلِ، وَقِلَّةِ الْعَلَفِ».

وفي رواية: «أَنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنْكُمْ أَرَدْتُمْ ذَبْحَهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَعْمَلْتُمُوهُ فِي شَأْنِ الْعَمَلِ مِنْ صَفَرِهِ» فقالوا: نعم.

٨٠٨ - وقد روي في قصة العُضْبَاءِ وكلامها النبي ﷺ، وتعريفها له بنفسها، ومبادرة العُشْبِ إليها في الرُّغْيِ، وتجنُّبِ الوحوش عنها، وندائهم لها: إِنَّكَ لِمُحَمَّدٍ، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتَّى مَاتَتْ. ذكره الإسفراييني.

٨٠٩ - وروى ابنُ وَهْبٍ، أَنَّ حَمَامَ مَكَّةَ أَظَلَّتْ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِهَا، فدعا لها بالبركة.

٨١٠ - وزوي عن أنس، وزيد بن أَرْقَمَ، والمغيرة بن شعبة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: ليلة الغارِ أمر الله شجرةً، فنبتت ثُجَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فسُتِرَتْ، وأمر حمامَتَيْنِ فَوَقَفَتَا بِقَمِ الْغَارِ.

٨١٠ م - وفي حديث آخر: وَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ نَسَجَتْ عَلَى بَابِهِ [أحمد (٣٤٨/١)]، فلما أتى الطالبون له، ورواوا ذلك، قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان يبابه، والنبي ﷺ يَسْمَعُ كلامهم، فانصرفوا.

٨١١ - وعن عبد الله بن قُزَاطٍ: قُرِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدَنَاتٌ خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ، لِيُنَحَّرَهَا يَوْمَ عِيدٍ، فَأَزْدَلَفْنَ إِلَيْهِ بَأْتِيَهُنَّ يَبْدَأُ [أبو داود (١٧٦٥)]، أحمد (٣٥٠/٤).

٨١٢ - وعن أمِّ سَلَمَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَحْرَاءٍ، فَنَادَتْهُ ظَبْيَةٌ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا حَاجَتُكَ؟» قَالَتْ: صَادَنِي هَذَا الْأَعْرَابِيُّ، وَلِي خِشْفَانٍ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَأُطْلِقْنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَرْضِعَهُمَا وَأَرْجِعَ.

قال: «وتفعلين؟» قالت: نعم. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله! ألك حاجة؟ قال: «تطلق هذه الظبية» فأطلقها فخرجت تغدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

٨١٣ - وفي هذا الباب ما زوي من تسخير الأسد لسفينة: مولى رسول الله ﷺ، إذ وجهه إلى مغاذ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهنهم وتنخى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك.

٨١٤ - وفي رواية أخرى عنه: أن سفينة تكسرت به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، فقلت له: أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق.

٨١٥ - وأخذ - عليه السلام - بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصبعيه، ثم خلاها فصار لها مينماً، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بغد.

٨١٦ - وما زوي عن إبراهيم بن حماد بسنده من كلام الجمار الذي أصابه بخير، وقال له: اسمي يزيد بن شهاب..

فسماه النبي ﷺ يغفوراً، وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه، فيضرب عليهم الباب برأيه، ويستدعيهم، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر، جزعاً وخزناً، فمات.

٨١٧ - وحديث الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها، وأنها ملكه.

٨١٨ - وفي حديث العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أصابهم غطش، ونزلوا على غير ماء، وهم زهاء ثلاث مئة فحلبها رسول الله ﷺ، فأزوى الجند، ثم قال لرافع: «أملكها وما أراك» فربطها فوجدها قد انطلقت.

رواه ابن قانع وغيره، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها».

٨١٩ - وقال لفرسه، عليه السلام - وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره -: «لا تبرخ، بارك الله فيك، حتى تفرغ من صلاتنا» وجعله قبلته، فما حرك عضواً منه حتى صلى ﷺ.

٨٢٠ - ويلتحق بهذا ما رواه الواقدي: أن النبي ﷺ لما وجه رسله إلى

الملوك، فخرج ستة نفرٍ منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجلٍ منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم.

والحديث في هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور من ذلك وما وقع منه في كُتُب الأئمة.

فصل

فِي إِخْيَاءِ الْمَوْتَى وَكَلَامِهِمْ، وَكَلَامِ الصُّبْيَانِ وَالْمَرَضِ وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالنَّبُوءَةِ ﷺ

٨٢١ - حدثنا أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، والقاضي أبو الوليد: محمد بن رُشد، والقاضي أبو عبدالله: محمد بن عيسى التميمي، وغير واحدٍ سماعاً وإذناً، قالوا: حدثنا أبو علي الحافظ قال: حدثنا أبو عُمر الحافظ، حدثنا أبو زيد: عبدالرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن الأعرابي، حدثنا أبو داود، حدثنا وهب بن بَقِيَّة، عن خالد - هو الطحان - عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أَنَّ يَهُودِيَّةً أَهْدَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَخِيرَ شاةٍ مَضْلِيَّةً سَمَنَتْهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ». فمات بِشَرِّ بْنِ الْبَرَاءِ.

وقال لليهودية: «ما حملك على ما صَنَعْتَ؟» وقالت: إِنَّ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. قال: فأمر بها فُقِّلت [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٢ - وقد رَوَى هذا الحديث أنس، وفيه: قالت: أَرَدْتُ قَتْلَكَ. فقال: «ما كان اللَّهُ لِيَسْلُطَكَ عَلَى ذَلِكَ». فقالوا: نَقَلْهَا؟

قال: «لا» [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)].

٨٢٣ - وكذلك رَوَى عن أبي هريرة - من حديث غير وَهْبٍ - قال: فما عَرَضَ لَهَا [البخاري (٤٢٤٩)، أبو داود (٤٥٠٩)].

٨٢٤ - ورواه أيضاً جابر بن عبدالله، وفيه: «أَخْبَرَتْنِي بِهِ هَذِهِ الدَّرْءُ» قال: ولم يعاقبها [أبو داود (٤٥١٠)].

٨٢٥ - وفي رواية الحسن: «أَنَّ فِجْذَهَا تَكَلَّمَنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ».

٨٢٦ - وفي رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن قالت: «إِنِّي مَسْمُومَةٌ» [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٧ - وكذلك ذكر الخبَر ابنُ إسحاق، وقال فيه: فتجاوز عنها.

٨٢٨ - وفي الحديث الآخر، عن أنس أنه قال: فما زلتُ أعرِفُها في لهَوَاتِ رسول الله ﷺ.

٨٢٩ - وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في وَجَعِهِ الذي مات فيه: «مَا زَالَتْ أَكَلَتْهُ خَنِيْزٌ تُعَادُنِي، فَلَا أَنْ أَوَّلَانِ قَطَعْتَ أَبْهَرِي» [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٣٠ - وحكى ابن إسحاق: إن كان المسلمون لَيُرَوْنَ أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة.

وقال ابنُ سَخْنُون: أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتلَ اليهودية التي سَمَتْهُ.

وقد ذكرنا اختلاف الروايات في ذلك عن أبي هريرة، وأنس، وجابر.

٨٣١ - وفي رواية ابنِ عباس - رضي الله عنهما - أنه دَفَعَهَا لِأَوْلِيَاءِ بَشَرِ بْنِ الْبَرَاءِ فقتلوها.

وكذلك قد اختلف في قَتْلِهِ لِلَّذِي سَحَرَهُ، قال الواقدي: وعَفُوهُ عنه أثبت عندنا وروي عنه أنه قتله.

٨٣٢ - وروى الحديث البَزْازُ، عن أبي سعيد، فذكر مثله، إلا أنه قال في آخره: فبسط يده وقال: «كَلُّوْا، بِاسْمِ اللَّهِ» فَأَكَلْنَا، وذكر اسم الله، فلم تضرْ منا أحداً.

قال القاضي أبو الفضل: وقد خرَّج حديث الشاةِ المسمومة أهل الصحيح، وخرَّجه الأئمة، وهو حديثٌ مشهُورٌ.

واختلف أئمة أهل النظر في هذا الباب، فمَن قائل يقول: هو كلامٌ يخلقه الله تعالى في الشاةِ الميتة، أو الحجر أو الشجر، وحروف وأصوات يحدنها الله تعالى فيها ويُسمعها منها دونَ تغيير أشكالها، ونَقْلِها عن هَيْتِها.

وهو مَذْهَبُ الشيخ أبي الحسن، والقاضي أبي بكر رحمهما الله.

وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة بها أولاً، ثم الكلام بعده.

وحكي هذا أيضاً عن شيخنا أبي الحسن، وكلٌّ محتمل، والله أعلم، إذ لم نجعل الحياة شرطاً لوجود الحروف والأصوات، إذ لا يستحيل وجودها مع عدم الحياة بمجردها.

فأما إذا كانت عبارة عن الكلام النفسي فلا بد من شرط الحياة لها، إذ لا يوجد كلام النفس إلا مِنْ حَيٍّ، خلافاً للجَبَائِثِ من بين سائر متكلمي الفِرَق في

إِحَالَتِهِ وَجُودَ الْكَلَامِ اللَّفْظِيِّ وَالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ مَرْكَبٌ عَلَى تَرْكِيبٍ مَنْ يَصِخُّ مِنْهُ النَّطْقُ بِالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ.

والتزم ذلك في الحصص، والجذع، والنزع، وقال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِيهَا حَيَاةً، وَخَرَقَ لَهَا فَمَاءً، وَلِسَانًا، وَأَلَّةً أَمَكْنَهَا بِهَا مِنَ الْكَلَامِ.

وهذا لو كان، لَكَانَ نَفْلُهُ وَالتَّهْمُ بِهِ أَكْثَرُ مِنَ التَّهْمِ بِثَقُلِ تَسْيِيحِهِ أَوْ خَيْبِهِ، وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّيْرِ وَالرَّوَايَةِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَدَلَّ عَلَى سَقُوطِ دَعْوَاهُ، مَعَ أَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ فِي النَّظَرِ، وَالْمَوْفُوقِ اللَّهِ.

٨٣٣ - وَرَوَى وَكِيعٌ، رَفَعَهُ، عَنْ فَهْدِ بْنِ عَطِيَّةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِصَبِيٍّ قَدْ شَبَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ، فَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟» فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ.

٨٣٤ - وَرَوَى عَنْ مُعَرَّضِ بْنِ مُعَيْقِبٍ: رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَجَبًا، جِيءَ بِصَبِيٍّ يَوْمَ وُلِدَ... فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وهو حديثٌ مُبَارَكُ الْيَمَامَةِ، وَيُعْرَفُ بِحَدِيثِ شَاصُونَةَ: اسْمُ رَاوِيهِ، وَفِيهِ: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقْتَ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ».

ثُمَّ إِنَّ الْغَلَامَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بَعْدَهَا حَتَّى شَبَّ، فَكَانَ يَسْمَى مُبَارَكُ الْيَمَامَةِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِمَكَّةَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ.

٨٣٥ - وَعَنْ الْحَسَنِ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّهُ طَرَحَ بُيَّةً لَهُ فِي وَادِي كَذَا، فَانْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى الْوَادِي، وَنَادَاهَا بِاسْمِهَا: «يَا فُلَانَةُ! أَجِيبِي بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى» فَخَرَجَتْ وَهِيَ تَقُولُ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ! فَقَالَ لَهَا: «إِنَّ أَبَوَيْكَ قَدْ أَسْلَمَا، فَإِنْ أَخْبَيْتِ أَنْ أَرَدَكَ عَلَيْهِمَا؟» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِمَا، وَجَذْتُ اللَّهَ خَيْرًا لِي مِنْهُمَا.

٨٣٦ - وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ شَابِتًا مِنَ الْأَنْصَارِ تُوْفِّي وَلَهُ أُمٌّ عَجُوزٌ عَمِيَاءُ، فَسَجَّيْنَاهُ، وَعَزَيْنَاهُ، فَقَالَتْ: مَاتَ ابْنِي؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَتْ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي هَاجَرْتُ إِلَيْكَ وَإِلَى نَبِيِّكَ رَجَاءً أَنْ تَعِينَنِي عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ فَلَا تَخْلِنَنَّ عَلَيَّ هَذِهِ الْمَصِيَّةَ.

فَمَا بَرَحْنَا أَنْ كَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَطَعِمَ وَطَعِمْنَا.

٨٣٧ - وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ: كُنْتُ فِيمَنْ دَفَنَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَكَانَ قَتْلَ الْيَمَامَةِ، فَسَمِعْنَاهُ حِينَ أَدْخَلْنَاهُ الْقَبْرَ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، عُمَرُ الشَّهِيدُ، عِثْمَانُ الْبَرُّ الرَّحِيمُ، فَتَنْظَرْنَا فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ.

٨٣٨ - وَرَوَى عَنْ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ زَيْدَ بْنَ خَارِجَةَ خَرَّ مَيِّتًا فِي بَعْضِ

أَرْقَةَ الْمَدِينَةِ، فَرَفَعَ وَسَجَّى إِذْ سَمِعُوهُ بَيْنَ الْعَشَاءَيْنِ وَالنِّسَاءِ يَصْرُخُنَّ حَوْلَهُ يَقُولُ: أَنْصِتُوا، أَنْصِتُوا، فَحَسَرَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ، صَدَقَ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ عَادَ مِثْلَ مَا كَانَ.

فصل

فِي إِنْزَاءِ الْمَرْضَى وَذَوِي الْقَاهَاتِ

٨٣٩ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ مُشَرَّفٍ، فِيمَا أَجَازَنِيهِ، وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَالِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْوَرْدِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ ابْنِ هِشَامٍ، عَنِ زِيَادِ الْبَكَّائِيِّ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ شَهَابٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَجَمَاعَةٌ ذَكَرَهُمْ بِقَضِيَةِ أُحُدٍ بِطُولِهَا، قَالَ: وَقَالُوا: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيَتَاوَلَنِي السَّهْمَ لَا تَضِلَّ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَزِمْ بِهِ» [البخاري (٤٠٥٥)، مسلم (٢٤١٢)].

٨٤٠ - وَقَدْ رَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى انْدَقَتْ، وَأَصِيبُ يَوْمَئِذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ - يَعْنِي ابْنَ النُّعْمَانِ - حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَرَزَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْتِهِ.

وَرَوَى قِصَّةَ قَتَادَةَ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَيَزِيدُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ.

٨٤١ - وَرَوَاهَا أَبُو سَعِيدٍ الْخَذَرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ.

٨٤٢ - وَيَصُقُّ عَلَى أَثَرِ سَهْمٍ فِي وَجْهِ أَبِي قَتَادَةَ فِي يَوْمِ ذِي قَرْدٍ، قَالَ: فَمَا ضَرَبَ عَلَيَّ وَلَا قَاحَ.

٨٤٣ - وَرَوَى التَّسَائِيُّ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُثَيْفٍ: أَنَّ أَعْمَى قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي.

قَالَ: «فَانْطَلِقْ، فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنِّي بَصَرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْنِي فِيَّ».

قَالَ: فَرَجَعَ وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصَرِهِ [الترمذي (٣٥٧٨)، ابن ماجه (١٣٨٥)، أحمد (١٣٨/٤)].

٨٤٤ - وَرَوَى أَنَّ ابْنَ مُلَاعِبِ الْأَيْمَنِ أَصَابَهُ اسْتِسْقَاءٌ، فَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ يَبْدَهُ حَفْوَةً مِنَ الْأَرْضِ، فَتَفَلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطَاهَا رَسُولَهُ، فَأَخَذَهَا مَتَعَجِّبًا، يُرَى أَنَّ قَدْ هَزِيَ بِهِ، فَأَتَاهَا بِهَا، وَهُوَ عَلَى شَفَا، فَشَرِبَهَا، فَشَفَاهُ اللَّهُ.

٨٤٥ - وَذَكَرَ الْعُقَيْلِيُّ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ قُذَيْكٍ - وَيُقَالُ: قُوزِكٌ - أَنَّ أَبَاهُ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ، فَكَانَ لَا يُبْصِرُ بِهِمَا شَيْئًا، فَنفثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، فَأَبْصَرَ، فَرَأَيْتُهُ يُدْخِلُ الْخَيْطَ فِي الْإِزْرَةِ، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ.

٨٤٦ - وَرَبِي كُلْثُومُ بْنُ الْحُصَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي نَحْرِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ، فَبَرِيءٌ.

٨٤٧ - وَتَقَلَّ عَلَى شَجَّةٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَيْسٍ فَلَمْ تُمِدَّ.

٨٤٨ - وَتَقَلَّ فِي عَيْنِي عَلِيٌّ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَكَانَ زَيْدًا، فَأَصْبَحَ بَارئًا [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].

٨٤٩ - وَنفثَ عَلَى ضَرْبَةٍ بِسَاقِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ يَوْمَ خَيْبَرَ فَبَرِثَ [البخاري (٤٢٠٦)].

٨٥٠ - وَفِي رَجُلٍ زَيْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ أَصَابَهَا السَّيْفُ إِلَى الْكَعْبِ، حِينَ قُتِلَ ابْنُ الْأَشْرَفِ، فَبَرِثَ.

٨٥١ - وَعَلَى سَاقِ عَلِيٍّ بْنِ الْحَكَمِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ إِذْ انْكَسَرَتْ، فَبَرِيءٌ مَكَانَهُ، وَمَا نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ.

٨٥٢ - وَاشْتَكَى عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَجَعَلَ يَدْعُو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ! اشْفِهِ، أَوْ عَافِهِ» ثُمَّ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، فَمَا اشْتَكَى ذَلِكَ الْوَجَعَ بَعْدَ [الترمذي (٣٥٦٤)].

٨٥٣ - وَقَطَعَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، فَجَاءَ يَحْمِلُ يَدَهُ، فَبَصَقَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَلَصَقَهَا فَلَصِقَتْ. رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ.

٨٥٤ - وَمِنْ رَوَايَتِهِ أَيْضًا: أَنَّ حُبَيْبَ بْنَ يَسَافٍ أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبَةٍ عَلَى عَاتِقِهِ حَتَّى مَالَ شِقُّهُ، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنفثَ عَلَيْهِ حَتَّى صَحَّ.

٨٥٥ - وَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمٍ، مَعَهَا صَبِيٌّ بِهِ بِلَاءٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَأَتَى بِمَاءٍ فَمَضْمَضَ فَاؤَهُ، وَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَأَمَرَهَا بِسُقْيِهِ وَمَسَّهُ بِهِ، فَبَرِيءٌ الْغُلَامُ، وَعَقَلَ عَقْلًا يَفْضُلُ عَقُولَ النَّاسِ.

٨٥٦ - وعن ابن عباس: جاءت امرأة بابت لها به جئون، فمسخ صدره، فثغ ثغمة، فخرج من جوفه مثل الجزو الأسود، فشفي [أحمد (٢٥٤/١)].

٨٥٧ - وانكفأت البذر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل، فمسخ عليه ودعا له، وثقل فيه قبرىء لجينه [أحمد (٤١٨/٣)].

٨٥٨ - وكانت في كف شرخبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها، ولم يبق لها أثر.

٨٥٩ - وسألته جارية طعاماً، وهو يأكل، فناولها من بين يديه، وكانت قليلة الحياء، فقالت: إنما أريد من الذي في فيك، فناولها ما في فيه، ولم يكن يسأل شيئاً فيمنعه.

فلما استقر في جوفها ألقي عليها من الحياء ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياة منها.

فصل

في إجابة دعائه ﷺ

وهذا باب واسع جداً وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة.

٨٦٠ - وقد جاء في حديث حذيفة: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أذكرت الدعوة ولده وولد ولده [أحمد (٣٨٥/٥) - (٣٨٦)].

٨٦١ - حدثنا أبو محمد العتابي بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسي، حدثنا أبو زيد المزوزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا خرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، قال: قالت أُمِّي: يا رسول الله! خادمك أنس، ادع الله له. قال: «اللهم! أكبر ماله وولده، وبارك له فيما آتيته» [البخاري (٦٣٤٤)، مسلم (١٤٢/٢٤٨١)].

٨٦٢ - ومن رواية بكرمة: قال أنس: فوالله! إن مالي لكثير؛ وإن ولدي وولد ولدي ليغادون اليوم على نحو المئة [مسلم (١٤٣/٢٤٨١)].

٨٦٣ - وفي رواية: وما أعلم أحداً أصاب من زخاء العيش ما أصبت، ولقد دفت بيدي هاتين مئة من ولدي، لا أقول سقظاً ولا ولد ولد.

٨٦٤ - ومنه دعاؤه لعبدالرحمن بن عَوْف بالبركة [البخاري (٥١٥٥)، مسلم (١٤٢٧)]، قال عبدالرحمن: فلو رفعتُ حجراً لرجوتُ أَنْ أُصِيبَ تحته ذهباً، وفتح الله عليه، ومات فحقيق الذهبُ من تركته بالفؤوس حتى مَجَلَّتْ فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفاً، وكُنْ أربعاً، وقيل: مئة ألف.

وقيل: بل صولحت إحداهن، لأنه طلقها في مَرَضه على ثَيْف وثمانين ألفاً، وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه العظيمة: أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وتصدق مرةً بغير فيها سبع مئة بغير، وردت عليه تخيل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها، وبأقنابها وأخلاصها.

٨٦٥ - ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد، فقال الخلافة.

٨٦٦ - ولسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أَنْ يَجِيبَ اللهُ دعوته، فما دعا على أحدٍ إلّا استجيب له [الترمذي (٣٧٥١)].

٨٦٧ - ودعا بعز الإسلام بعمر رضي الله عنه، أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر [الترمذي (٣٦٨١)، أحمد (٩٥/٢)].

٨٦٨ - قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر [البخاري (٣٦٨٤)].

٨٦٩ - وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فسأله عُمَرُ الدعاء، فدعا، فجاءت سحابة، فسقتهم حاجتهم، ثم أفلتت.

٨٧٠ - ودعا في الاستسقاء، فسقوا، ثم شكّوا إليه المطر، فدعا، فصَحّوا [البخاري (١٠١٦)، مسلم (٨٩٧)].

٨٧١ - وقال لأبي قتادة: «أَفْلَحَ وَجْهكَ، اللهم! باركْ له في شعره وبشره»، فمات وهو ابن سبعين سنة، وكأنه ابن خمس عشرة سنة.

٨٧٢ - وقال للتابغة: «لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالَكُ» فما سقطت له سن.

وفي رواية: فكان أحسن الناس ثغراً، إذا سقطت له سنٌ بَثَّتْ له أخرى، وعاش عشرين ومئة سنة، وقيل: أكثر من هذا.

٨٧٣ - ودعا لابن عباس: «اللهم! فقهه في الدين، وعلمه التأويل» [أحمد (٢٦٦/١)، ٣١٤، ٣٢٨، البخاري (١٤٣)، مسلم (٢٤٧٧)] فسُمِّيَ بَعْدَ الْحَبَرِ، وتزجّمان القرآن.

٨٧٤ - ودعا لعبدالله بن جعفر بالبركة في صَفَقَةِ يَمِينه، فما اشترى شيئاً إلّا ربح فيه.

٨٧٥ - ودعا لِلْمِقْدَادِ بِالْبِرْكَه، فكانت عنده غَرَارٌ من المالِ.

٨٧٦ - ودعا بمثله لَعَزُوه بن أبي الجَعْد [البخاري (٣٦٤٢)]، فقال فلقد كنتُ أقومُ بالكُنَاسَةِ، فما أَرَجع حتى أَرَبِحَ أربعين ألفاً.

وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى الترابَ رِبْحَ فيه [البخاري (٣٦٤٢)].

٨٧٧ - وَرَوِي مِثْلُ هذا لِعَرْقَدَةَ أيضاً.

٨٧٨ - وَنَدَّتْ لَهُ نَاقَةٌ، فدعا فجاءهُ بها إعصارُ رِيحٍ، حتى رَدَّها عليه.

٨٧٩ - ودعا لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأَسْلَمَتْ [مسلم (٢٤٩١)].

٨٨٠ - ودعا لعلبي أن يُكْفِيَ الحرَّ والقرَّ، فكان يلبسُ في الشتاء ثيابَ

الصيف، وفي الصيف ثيابَ الشتاء، ولا يصيبه حرٌّ ولا بَرَدٌ [ابن ماجه (١١٧)].

٨٨١ - ودعا لفاطمة ابنته اللّهُ أَلَّا يُجِيعَهَا، قالت: فما جُعْتُ بعد.

٨٨٢ - وسأله الطُّفَيْلُ بن عَمْرٍو آيَةَ لقومه، فقال: «اللّهُمَّ! نُوْزْ لَهُ» فسَطَعَ

نورٌ بين عَيْنَيْهِ، فقال: يا رب! أخاف أن يقولوا: مُثَلَّةٌ، فتحول إلى طَرَفِ سَوْبِهِ، فكان يُضِيءُ في الليلة المظلمة، فسُمِّيَ ذا النور.

٨٨٣ - ودعا على مُضَرٍّ فَأَقْبَطُوا، حتى اسْتَعْطَفْتَهُ قُرَيْشٌ، فدعا لهم فسَقُوا

[البخاري (٤٨٢١)]، مسلم (٤٠/٢٧٩٨).

٨٨٤ - ودعا على كِسْرَى حين مرَّقَ كتابه أن يمزَّقَ اللّهُ مُلْكَهُ [البخاري (٦٤)]،

فلم تَبْقَ له باقية، ولا بَقِيَتْ لِفَارَسٍ رِياسَةٌ في أقطار الدنيا.

٨٨٥ - ودعا على صَبِيٍّ، قطع عليه الصلاة، أن يقطعَ الله أثره، فأُقْعِدَ [أبو

داود (٧٠٧)].

٨٨٦ - وقال لرجل رآه يأكل بِشِمَالِهِ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» فقال: لا أَسْتَطِيعُ.

فقال: «لا اسْتَطَعْتَ» فلم يرفعها إلى فيه [مسلم (٢٠٢١)].

٨٨٧ - ودعا على عُتْبَةَ بن أبي لَهَبٍ: «اللّهُمَّ! سَلِّطْ عليه كَلْباً من كلابِكَ»،

فأكَلَهُ الأَسَدُ.

٨٨٨ - وقال لامرأةٍ: «أَكَلِكِ الأَسَدُ» فأكلها.

٨٨٩ - وحديثه المشهور، من رواية عَبْدِاللّهِ بن مسعود رضي الله عنه في

دعائه على قُرَيْشٍ حين وَضَعُوا السَّلَا على رَقَبَتِهِ وهو ساجدٌ مع القُرْثِ والدم،

وسمّاهم، قال: فلقد رأيتُهم قُتِلُوا يومَ بَدْرٍ [البخاري (٢٤٠)]، مسلم (١٧٩٤).

٨٩٠ - ودعا على الحَكَمِ بن أبي العاصِ، وكان يَخْتَلِجُ بوجهه، ويغِيرُ عند

النبي ﷺ، أي: لا، فرآه، فقال: «كَذَلِكَ كُنْ» فلم يَزَلْ يَخْتَلِجُ إلى أن مات.

٨٩١ - ودعا على مُحَلِّم بن جَثَامَة فمات لَسْبَع، فلفظَتْهُ الأرض، ثم وُورِي، فلفظَتْهُ مَرَاتٍ، فَأَلْفَوْهُ بَيْنَ صُدَيْن، وَرَضُّوْهُ عَلَيْهِ بِالْحَجَارَةِ. وَالصُّدَّ: جَانِبُ الْوَادِي.

٨٩٢ - وَجَعَلَهُ رَجُلٌ بَيْعَ فَرَسٍ - وَهِيَ الَّتِي شَهِدَ فِيهَا خُزَيْمَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ - فَرَدَّ الْفَرَسَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَا تَبَارِكْ لَهُ فِيهَا» [أَبُو دَاوُدَ (٣٦٠٧)، النَّسَائِي (٣٠١/٧ - ٣٠٢)] فَأَصْبَحَتْ شَاصِيَةً بِرَجْلِهَا، أَيْ: رَافِعَةً.

وَهَذَا الْبَابُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ.

فصل

فِي كَرَامَاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ وَانْقِلَابِ الْأَغْيَانِ لَهُ فِيمَا لَمَسَهُ أَوْ بَاشَرَهُ

٨٩٣ - أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ، إِجَازَةً. وَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ سَمَاعًا، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرُهُمَا، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ الْقَاضِي، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَأَبُو الْهَيْثَمِ، قَالُوا: حَدَّثَنَا الْقَرْنَبِيُّ، حَدَّثَنَا الْبَخَارِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْأَعْلَى بْنُ حَمَادٍ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرَّغُوا مَرَّةً، فَرَكَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَسًا لِأَبِي طَلْحَةَ كَانَ يَقْطُفُ - أَوْ بِهِ قِطَافٌ - وَقَالَ غَيْرُهُ: يُبْطَأُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ: «وَجَدْنَا فَرَسَكَ بَخْرًا» فَكَانَ بَعْدُ لَا يُجَازَى [الْبَخَارِيُّ (٢٨٦٧)، مُسْلِمَ (٣٣٠٧)].

٨٩٤ - وَنَحَسَ جَمَلُ جَابِرٍ، وَكَانَ قَدْ أَغْيَا، فَتَشَيَّطَ حَتَّى كَانَ مَا يَمْلِكُ زِمَامَهُ [الْبَخَارِيُّ (٢٧١٨)].

٨٩٥ - وَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ بِفَرَسٍ لَجُجَعِيلِ الْأَشْجَعِيِّ، خَفَقَهَا بِمِخْفَقَةٍ مَعَهُ، وَبَرَكَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَمْلِكْ رَأْسَهَا تَشَاطُطًا، وَبَاعَ مِنْ بَطْنِهَا بَاطِنِي عَشْرِ أَلْفًا.

٨٩٦ - وَرَكِبَ حِمَارًا قُطُوفًا لِسَعْدِ بْنِ عَبْدِ فَرْدَةَ هِمْلَجًا لَا يُسَايِرُ.

٨٩٧ - وَكَانَتْ شَعْرَاتٌ مِنْ شَعْرِهِ فِي قَلَنْشُورَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَلَمْ يَشْهَدْ بِهَا قِتَالًا إِلَّا زُرِقَ النَّصْرُ.

٨٩٨ - وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا

أخرجت جُبَّةً طَيَّالَةً، وقالت: كان رسول الله ﷺ يَلْبَسُهَا، فنحن نَغْسِلُهَا للمرضى نَسْتَشْفِي بِهَا [مسلم (٢٠٦٩)].

وحدثنا القاضي أبو علي، عن شَيْخِهِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ الْمَأمُونِ، قال: كانت عندنا قُضْعَةٌ من قِصَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنَّا نَجْعَلُ فِيهَا الْمَاءَ لِلْمَرْضَى، فَيَسْتَشْفُونَ بِهَا.

٨٩٩ - وَأَخَذَ جَهَنجَاهُ الْغِفَّارِيُّ الْقُضَيْبَ مِنْ يَدِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَكْسِرَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ، فَصَاحَ النَّاسُ بِهِ، فَأَخَذَتْهُ فِيهَا الْآكِلَةُ، فَقَطَعَهَا، وَمَاتَ قَبْلَ الْخَوْلِ.

٩٠٠ - وَسَكَبَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئِهِ فِي بَثْرِ قُبَاءٍ فَمَا تَزَفَّتْ بَعْدَ.

٩٠١ - وَبَزَقَ فِي بَثْرِ كَانَتْ فِي دَارِ أَنْسٍ، فَلَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ أَعْذَبَ مِنْهَا.

٩٠٢ - وَمَرَّ عَلَى مَاءٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: اسْمُهُ بَيْسَانَ، وَمَاؤُهُ يُلْحُحُ، فَقَالَ: «بَلْ هُوَ نَعْمَانُ وَمَاؤُهُ طَيِّبٌ» فَطَابَ.

٩٠٣ - وَأَتَيْيَ بَذْلُو مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَمَجَّ فِيهِ، فَصَارَ أَطْيَبَ مِنَ الْمِسْكِ [ابن ماجه (٦٥٩)، أحمد (٣١٥/٤)].

٩٠٤ - وَأَعْطَى الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ لِسَانَهُ فَمَضَاهُ، وَكَانَا يَكْيَانُ غَطْشًا، فَسَكَنَا.

٩٠٥ - وَكَانَ لِأُمِّ مَالِكٍ عُكَّةٌ تُهْدِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ سَمْنًا فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا تَغْصِرْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ مَمْلُوءَةٌ سَمْنًا، فَيَأْتِيهَا بِئُورُهَا يَسْأَلُونَهَا الْأَذَمَ، وَلَيْسَ عَنْدهُمْ شَيْءٌ فَتَغْبِئُهَا إِلَيْهَا. فَتَجِدُ فِيهَا سَمْنًا، فَكَانَتْ تُقِيمُ أَذَمَهَا حَتَّى غَصَرَتْهَا [مسلم (٢٢٨٠)].

٩٠٦ - وَكَانَ يَنْتَقِلُ فِي أَفْوَاهِ الصَّيَّانِ الْمَرَضِيعِ فَيَجْزِيهِمْ رِيْقَهُ إِلَى اللَّيْلِ.

٩٠٧ - وَمِنْ ذَلِكَ: بَرَكَهُ يَدُهُ فِيمَا لَمَسَهُ وَغَرَسَهُ لِسْلَمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ كَاتَبَهُ مَوَالِيَهُ عَلَى ثَلَاثِ مِئَةِ وَدِيَّةٍ يَغْرِسُهَا لَهُمْ، كُلُّهَا تَعْلَقُ وَتُطْعِمُ، وَعَلَى أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَرَسَهَا لَهُ بِيَدِهِ إِلَّا وَاحِدَةً غَرَسَهَا غَيْرُهُ، فَأَخَذَتْ كُلُّهَا إِلَّا تِلْكَ الْوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَرَدَّهَا، فَأَخَذَتْ.

وَفِي كِتَابِ الْبَزَارِ: فَأَطْعَمَ التَّنْخُلَ مِنْ عَامِهِ إِلَّا الْوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَغَرَسَهَا فَأَطْعَمَتْ مِنْ عَامِهَا.

وَأَعْطَاهُ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ بَعْدَ أَنْ أَدَارَاهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَوَزَنَ مِنْهَا لِمَوَالِيهِ أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً، وَبَقِيَ عَنْهُ بِمِثْلِ مَا أَعْطَاهُمْ [أحمد (٤٤١/٥) - (٤٤٤)].

٩٠٨ - وَفِي حَدِيثِ خُنَيْسِ بْنِ عَقِيلٍ: سَقَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرْبَةً مِنْ سَوِيقٍ

شَرِبَ أَوَّلَهَا وَشَرِبَتْ آخِرَهَا، فَمَا بَرَحْتُ أَجِدُ شِبَعَهَا إِذَا جُعْتُ، وَرَبِّهَا إِذَا عَطِشْتُ، وَتَرَدَّهَا إِذَا ظَمِئْتُ.

٩٠٩ - وَأَعْطَى قَتَادَةَ بْنُ النُّعْمَانِ - وَصَلَّى مَعَهُ الْعِشَاءَ فِي لَيْلَةِ مُظْلِمَةٍ مَطِيرَةٍ - عُرْجُونًا، وَقَالَ: «انْطَلِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيُضِيحُ» لَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ عَشْرًا وَمِنْ خَلْفِكَ عَشْرًا، فَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَتَرِي سَوَادًا فَاضِرِيهِ حَتَّى يَخْرُجَ، فَإِنَّهُ الشَّيْطَانُ». فَاَنْطَلَقَ فَأَضَاءَ لَهُ الْعُرْجُونُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَوَجَدَ السَّوَادَ فَضَرِبَهُ حَتَّى خَرَجَ [أحمد (٦٥/٣)].

٩١٠ - وَمِنْهَا: دَفَعَهُ لِعُكَّاشَةِ جَذَلٍ حَطَبٍ، وَقَالَ: «اضْرِبْ بِهِ» حِينَ انْكَسَرَ سَيْفُهُ يَوْمَ بَذَرٍ، فَعَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا صَارِمًا، طَوِيلَ الْقَامَةِ، أَيْبَضَ، شَدِيدُ الْمَثَنِ، فَقَاتَلَ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَشْهَدُ بِهِ الْمَوَاقِفَ إِلَى أَنْ اسْتَشْهَدَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَةِ. وَكَانَ هَذَا السَّيْفُ يُسَمَّى الْعَوْنُ.

٩١١ - وَدَفَعَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ - وَقَدْ ذَهَبَ سَيْفُهُ - عَسِيبَ نَخْلٍ، فَرَجَعَ فِي يَدِهِ سَيْفًا.

٩١٢ - وَمِنْهُ: بَرَكَتُهُ فِي دُورِ الشَّيَاطِينِ الْخَوَائِلِ بِاللَّبَنِ الْكَثِيرِ، كَقِصَّةِ شَاةٍ أُمِّ مَغْبِيَةٍ.

٩١٣ - وَأَغْتَرَّ مَعَاوِيَةَ بْنُ ثَوْرٍ.

٩١٤ - وَشَاةٍ أُنْسٍ.

٩١٥ - وَغَنَمٍ حَلِيمَةٍ: مُرْضِعَتِهِ، وَشَارِفَهَا.

٩١٦ - وَشَاةٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ [أحمد (٣٧٩/١)]، وَكَانَتْ لَمْ يَتَزَّ عَلَيْهَا فُحْلٌ.

٩١٧ - وَشَاةٍ الْمُقَدَّادِ [مسلم (٢٠٥٥)].

٩١٨ - وَمِنْ ذَلِكَ تَرْوِيدُهُ أَصْحَابَهُ سِقَاءَ مَاءٍ بَعْدَ أَنْ أَوَكَّاهُ، وَدَعَا فِيهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُمْ الصَّلَاةُ نَزَلُوا فَحَلَّوْهُ، فَلِذَا بِهِ لَبَنٌ طَيِّبٌ وَزُبْدَةٌ فِي فَمِهِ - مِنْ رِوَايَةِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ.

٩١٩ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَبَرَكَ، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ، فَمَا

شَابَ.

٩٢٠، ٩٢١ - وَرُويَ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَصِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، مِنْهُمْ: السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ [البخاري (٣٥٤٠)، مسلم (٢٣٤٥)]، وَمَذْلُوكٌ.

٩٢٢ - وَكَانَ يَوْجَدُ لِعُثْبَةَ بْنِ قَرْظَدٍ طَيِّبٌ يَغْلِبُ طَيِّبَ نِسَائِهِ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى بَطْنِهِ وَظَهَرِهِ.

٩٢٣ - وَسَلَّتِ الدَّمُ عَنْ وَجْهِ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَ جُرْحُ يَوْمِ حُتَيْنَ، وَدَعَا لَهُ، فَكَانَتْ لَهُ غُرَّةٌ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ.

٩٢٤ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ قَيْسِ بْنِ زَيْدِ الْجَذَامِيِّ، وَدَعَا لَهُ، فَهَلَكَ وَهُوَ ابْنُ مِثَةِ سَنَةٍ، وَرَأْسُهُ أَبْيَضُ، وَمَوْضِعُ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا مَرَّتْ يَدُهُ عَلَيْهِ مِنْ شَعْرِهِ أَسْوَدُ، فَكَانَ يُدْعَى الْأَغْرُ.

٩٢٥ - وَرَوَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ لِعَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ الْجُهَنِيِّ.

٩٢٦ - وَمَسَحَ وَجْهَ آخَرَ، فَمَا زَالَ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ.

٩٢٧ - وَمَسَحَ وَجْهَ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانَ، فَكَانَ لَوَجْهِهِ تَبْرِيقٌ حَتَّى كَانَ يُنْظَرُ فِي وَجْهِهِ كَمَا يُنْظَرُ فِي الْمَرْأَةِ [أحمد (٢٨/٥) - (٢٩)].

٩٢٨ - وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ حَنْظَلَةَ بْنِ جَذِيمٍ، وَبَرَكَ عَلَيْهِ، فَكَانَ حَنْظَلَةُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ قَدْ وَرِمَ وَجْهَهُ، وَالشَّاةُ قَدْ وَرِمَ صُرْعُهَا، فَيُوضَعُ عَلَى مَوْضِعِ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ فَيَذْهَبُ لِلْوَرَمِ [أحمد (٦٨/٥)].

٩٢٩ - وَنَضَحَ فِي وَجْهِ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ نَضْحَةً مِنْ مَاءٍ، فَمَا يُعْرِفُ كَانَ فِي وَجْهِ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَمَالِ مَا بِهَا.

٩٣٠ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ بِهِ عَاهَةٌ، فَبَرِيءَ وَاسْتَوَى شَعْرُهُ. وَعَلَى غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّبْيَانِ وَالْمَرْضَى وَالْمَجَانِينِ، فَبَرَوْا.

٩٣١ - وَمِثْلُهُ رَوَى فِي خَبَرِ الْمُهَلَّبِ بْنِ قَبَالَةَ.

٩٣٢ - وَأَنَّهُ رَجُلٌ أَذْرَةً، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْضَحَهَا بِمَاءٍ، مِنْ عَيْنٍ مَجٍ فِيهَا، فَفَعَلَ، فَبَرِيَءَ.

٩٣٣ - وَعَنْ طَاوُوسٍ: لَمْ يُؤْتَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَحَدٍ بِهِ مَسٌّ، فَصَلَّتْ فِي صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ.

وَالْمَسُّ: الْجَنُونُ.

٩٣٤ - وَمَجٌّ فِي ذَلْوٍ مِنْ بَثَرٍ، ثُمَّ صَبَّ فِيهَا، فَفَاحَ مِنْهَا رِيحُ الْمِسْكِ.

٩٣٥ - وَأَخَذَ قُبْضَةً مِنْ تُرَابِ يَوْمِ حُتَيْنَ، وَزَمَى بِهَا فِي وَجْهِهِ الْكَفَّارَ، وَقَالَ: «شَاهَبَتِ الْوُجُوهُ» فَانصَرَفُوا يَمْسَحُونَ الْقَذَى عَنْ أَعْيُنِهِمْ [مسلم (١٧٧٧)].

٩٣٦ - وَشَكَاَ إِلَيْهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّسِيَّانَ، فَأَمَرَهُ بِبَسْطِ ثَوْبِهِ، وَغَرَفَ بِيَدِهِ فِيهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِضَمِّهِ، فَفَعَلَ، فَمَا تَبَيَّنَ شَيْئاً بَعْدَ [البخاري (١١٩)]، مُسْلِمٌ.

[[٢٤٩٢]].

وَمَا يُرَوَى عَنْهُ فِي هَذَا كَثِيرٌ.

٩٣٧ - وضرب صَدْرَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، ودَعَا لَهُ، وَكَانَ ذُكْرُ لَهُ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ، فَصَارَ مِنْ أَفْرَسِ الْعَرَبِ وَأَثْبَتَهُمْ [البخاري (٣٠٣٦)، مسلم (١٣٥/٢٤٧٥)].

٩٣٨ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَكَانَ دَمِيمًا، وَدَعَا لَهُ بِالْبِرْكَ، فَفَرَّغَ الرِّجَالَ، طَوْلًا وَتَمَامًا.

فصل

فِي مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ وَمَا يَكُونُ. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ بَحْرٌ لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَلَا يُتَرَفُّ غَمْرُهُ.

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواياتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب.

٩٣٩ - حَدَّثَنَا الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ: مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْفَهْرِيُّ إِجَازَةً، وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ التُّسْتَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الْهَاشِمِيُّ، حَدَّثَنَا اللَّؤْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عِثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا، فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ، حَفِظَهُ مِنْ حَفِظِهِ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَأَعْرِفُهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ [البخاري (٦٦٠٤)، مسلم (٢٣/٢٨٩١)، أَبُو دَاوُدَ (٤٢٤٠)].

٩٤٠ - ثُمَّ قَالَ حُذَيْفَةُ: مَا أَدْرِي، أَنْسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ؟ وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدٍ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَ مِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاهُ لَنَا بِاسْمِهِ، وَاسْمُ أَبِيهِ، وَقَبِيلَتُهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٢٤٣)].

٩٤١ - وَقَالَ أَبُو دَرَّ: لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يَحْرُكُ طَائِرُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ، إِلَّا ذَكَّرْنَا مِنْهُ عِلْمًا.

٩٤٢ - وَقَدْ خَرَجَ أَهْلُ الصَّحِيحِ وَالْأَثْمَةُ مَا أَعْلَمَ بِهِ أَصْحَابَهُ ﷺ مِمَّا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى أَعْدَائِهِ [البخاري (٣٨٥٢)].

٩٤٣ - وَفَتِحَ مَكَّةُ [البخاري (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)].

٩٤٤ - وَبَيَّتَ الْمَقْدِسُ [البخاري (٣١٧٦)].

- ٩٤٥ - واليمن، والشام، والعراق [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].
- ٩٤٦ - وظهور الأمن، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله [البخاري (٣٥٩٥)].
- ٩٤٧ - وأن المدينة ستغرى [البخاري (١٨٧٤)، مسلم (١٣٨٩)].
- ٩٤٨ - وتفتح خيبر على يدي علي في غد يومه [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].
- ٩٤٩ - وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤنزون من زهرتها [البخاري (١٤٦٥)، مسلم (١٠٥٢)].
- ٩٥٠ - وقسمتهم كنوز كسرى وقبصر [البخاري (٣١٢١)، مسلم (٢٩١٩)].
- ٩٥١ - وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء.
- ٩٥٢ - وسلوك سبيل من قبلهم [البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩)].
- ٩٥٣ - وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الساجية منها واحدة [أحمد (٣٣٢/٢)، أبو داود (٤٥٩٦)، الترمذي (٢٦٤٠)، ابن ماجه (٣٩٩١)].
- ٩٥٤ - وأنها ستكون لهم أنماط [البخاري (٣٦٣١)، مسلم (٢٠٨٣)].
- ٩٥٥ - ويغذو أحدهم في خلقة، ويروخ في أخرى، وتوضع بين يديه ضخفة وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة.
- ثم قال آخر الحديث: «وأنتم اليوم خير منكم يومئذ» [الترمذي (٢٤٧٦)].
- ٩٥٦ - وأنهم إذا مشوا المطيطة وخدمتهم بنات فارس والروم رذ الله بأنهم بينهم، وسلط شراهم على خيارهم [الترمذي (٢٢٦١)].
- ٩٥٧ - وقتالهم الترك [البخاري (٢٩٢٨)، مسلم (٦٥/٢٩١٢)].
- ٩٥٨ - والخزر [البخاري (٣٥٩٠)، والروم].
- ٩٥٩ - وذهب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهب قيصر حتى لا قبصر بعده [البخاري (٣١٢٠)، مسلم (٢٠١٨)].
- ٩٦٠ - وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر.
- ٩٦١ - وبذهب الأمثل فالأمثل من الناس [البخاري (٦٤٣٤)].
- ٩٦٢ - وتفايز الزمان، وقبض العلم، وظهور الفتن، والهزج [البخاري (١٠٣٦)، مسلم (١١/١٥٧)].
- ٩٦٣ - وقال: «ويل للعرب من شرٍ قد اقترب» [البخاري (٣٣٤٦)، مسلم (٢٨٨٠)].

٩٦٤ - وأنه رُوِيَ له الأرض فَأَرِي مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسِيلُكَ مُلْكُ أُمَّتِهِ مَا رُوِيَ لَهُ مِنْهَا [مسلم (٢٨٨٩)].

فكذلك كان، امتدَّت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أَقْصَى الْمَشْرِقِ إِلَى بَحْرِ طَنْجَة حَيْث لَا عِمَارَة وَرَاءَهُ، وَذَلِكَ مَا لَمْ تَمْلِكْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَمْ تَمْتَدَّ فِي الْجَنُوبِ وَلَا فِي الشَّمَالِ مِثْلَ ذَلِكَ.

٩٦٥ - وقوله: «لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» [مسلم (١٩٢٥)] - ذهب ابن المَدِينِي إِلَى أَنَّهُم الْعَرَبُ، لِأَنَّهُمْ الْمُخْتَصِمُونَ بِالسُّقْيِ بِالْغَرْبِ - وَهِيَ الدَّلْوُ - وَغَيْرُهُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُم أَهْلُ الْمَغْرِبِ، وَقَدْ وَرَدَ الْمَغْرِبُ كَذَا فِي الْحَدِيثِ بِمَعْنَاهُ.

٩٦٦ - وفي حديث آخر، مِنْ رَوَايَةِ أَبِي أُمَامَةَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، قَاهِرِينَ لِعُلُوِّهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

٩٦٧ - وَأَخْبَرَ بِمُلْكِ بَنِي أُمِيَّةٍ.

٩٦٨ - وَوَلَايَةِ مُعَاوِيَةَ، وَوَصَّاهُ [أحمد (١٠١/٤)].

٩٦٩ - وَاتِّخَاذِ بَنِي أُمِيَّةٍ مَالِ اللَّهِ ذُؤْلًا.

٩٧٠ - وَخُرُوجِ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بِالرَّايَاتِ السُّودِ [ابن ماجه (٤٠٨٤)].

٩٧١ - وَمُلْكِهِمْ أَضْعَافَ مَا مَلَكَوْا.

٩٧٢ - وَخُرُوجِ الْمَهْدِيِّ.

٩٧٣ - وَمَا يَنَالُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَتَقْتِيلِهِمْ وَتَشْرِيدَهُمْ.

٩٧٤ - وَقَتْلِ عَلِيٍّ، وَأَنَّ أَشْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ، أَيِ لَحِيَّتِهِ مِنْ

رَأْسِهِ.

٩٧٥ - وَأَنَّهُ قَسَمُ النَّارِ، يَدْخُلُ أَوْلِيَائُوهُ الْجَنَّةَ، وَأَعْدَاؤُهُ النَّارَ، فَكَانَ فِيمَنْ

عَادَاهُ الْخَوَارِجُ وَالنَّاصِبَةُ، وَطَائِفَةٌ يَمُنُّ بِنِسْبِ إِلَيْهِ مِنَ الرُّوَافِضِ كَقُرُوه.

٩٧٦ - وَقَالَ: «يُقْتَلُ عِثْمَانُ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ» [الترمذي (٣٧٠٨)].

٩٧٧ - وَأَنَّ اللَّهَ عَسَى أَنْ يُلْبِسَهُ قَمِيصًا، وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ خَلْعَهُ [الترمذي

(٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)].

٩٧٨ - وَأَنَّهُ سَيَقْطُرُ دَمَهُ عَلَى قَوْلِهِ: «نَبِّئِكُمْ اللَّهُ» [البقرة: ١٣٧].

٩٧٩ - وَأَنَّ الْفِتْنَ لَا تَظْهَرُ مَا دَامَ عُمَرُ حَيًّا [البخاري (٧٠٩٦)، مسلم (٧٤٤)].

٩٨٠ - وَبِمُحَارَبَةِ الزُّبَيْرِ لِعَلِيٍّ وَهُوَ ظَالِمٌ لَهُ.

- ٩٨١ - ونباح كلاب الخوَاب على بعض أزواجه [أحمد (٥٢/٦)].
- ٩٨١م - وأنه يُقتل حولها قتلى كثير، وتنبؤ بعد ما كادت، فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة.
- ٩٨٢ - وأن عماراً تقتله الفئة الباغية [مسلم (٢٩١٥)]، فقتله أصحاب معاوية.
- ٩٨٣ - وقال لعبدالله بن الزبير: «ويل للناس منك! وويل لك من الناس».
- ٩٨٤ - وقال في قُزَمان - وقد أبلى مع المسلمين -: «إنه من أهل النار» [البخاري (٢٨٩٨)، مسلم (١١٢)] فقتل نفسه.
- ٩٨٥ - وقال في جماعة فيهم أبو هريرة، وسُمُرَةُ بن جُنْدُب، وحذيفة: «أخرجكم موتاً في النار» فكان بعضهم يسأل عن بعض فكان سُمُرَةُ آخرهم موتاً، فمِرم وخُرف، فاصطلى بالنار فاحترق فيها.
- ٩٨٦ - وقال في خنْظَلَةُ الغَسِيل: «سلوا زوجته عنه فيأتي رأيث الملائكة تغسله» فسألوها فقالت: إنه خرج جُنْباً، وأعجله الحال عن الغسل.
- قال أبو سعيد رضي الله عنه: وجدنا رأسه يَقْطُر ماءً.
- ٩٨٧ - وقال: «الخلافة في قُريش» [أحمد (١٨٥/٤)].
- ٩٨٨ - «ولن يزال هذا الأمر في قُريش ما أقاموا الدين» [البخاري (٣٥٠٠)].
- ٩٨٩ - وقال عليه الصلاة والسلام: «يكون في ثقب كَذَابٍ ومُبِيرٍ» [مسلم (٢٥٤٥)] فَرَأَوْهُمَا: الحُجَّاج، والمُخْتَار.
- ٩٩٠ - وأن مُسَيْلِمَةَ يعقره الله [البخاري (٣٦٢٠)، مسلم (٢٢٧٣)].
- ٩٩١ - وأن فاطمة أولُ أهلِه لحوقاً به [البخاري (٣٦٢٦)، مسلم (٢٤٥٠)].
- ٩٩٢ - وأنذر بالردة [مسلم (١٩٢٠)].
- ٩٩٣ - وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكاً [أبو داود (٤٦٤٦)، الترمذي (٢٢٢٦)]، فكانت كذلك بمدة الحسن بن علي.
- ٩٩٤ - وقال: «إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون مُلكاً غُضُوضاً، ثم يكون غُتُوراً وجبروتاً وفساداً في الأمة».
- ٩٩٥ - وأخبر بشأن أُوَيسِ القرَني [مسلم (٢٥٤٢)].
- ٩٩٦ - وبأمرء يؤخرون الصلاة عن وقتها [مسلم (٥٣٤)].
- ٩٩٧ - وسيكون في أمته ثلاثون كذاباً، فيهم أربع نسوة [أحمد (٣٩٦/٥)].
- ٩٩٨ - وفي حديث آخر: «ثلاثون دجالاً كذاباً أخذهم الدجال الكذاب، كلهم يَكْذِبُ على الله ورسوله» [أبو داود (٤٣٣٤)، البخاري (٧١٢١)، مسلم (٨٤/١٥٧)].

٩٩٩ - وقال: «يوشك أن يكثر فيكم العجم، يأكلون فينكّم، ويضربون رقابكم».

١٠٠٠ - ر «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان» [البخاري (٣٥١٧)، مسلم (٢٩١٠)].

١٠٠١ - وقال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويثلبون ولا يؤفون ويظهر فيهم السمن» [البخاري (٢٦٥١)، مسلم (٢٥٣٥)].

١٠٠٢ - وقال: «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه» [البخاري (٧٠٦٨)].

١٠٠٣ - وقال: «هلاك أمي على يدي أغيلمة من قريش». قال أبو هريرة رايه: لو شئت سميتهم لكم: بنو فلان، وبنو فلان [البخاري (٣٦٠٥)، مسلم (٢٩١٧)].

١٠٠٤ - وأخبر بظهور القدرية [أبو داود (٤٦١٣)، أحمد (٩٠/٢)].

١٠٠٥ - والرافضة.

١٠٠٦ - وسب آخر هذه الأمة أولها [الترمذي (٢٢١٠)، (٢٢١١)].

١٠٠٧ - وقلة الأنصار حتى يكونوا كالمِلح في الطعام [البخاري (٣٨٠٠)، فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة].

١٠٠٨ - وأنهم سيلقون بعده أثره [البخاري (٣١٤٧)، مسلم (١٠٥٩)].

١٠٠٩ - وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم، والمُخَدِّج الذي فيهم، وأن سيماهم التخليق.

١٠١٠ - ويؤري رعاء الغنم رؤوس الناس، والعراة الحفأة يتبارزون في البثيان.

وأن تلد الأمة ربتها [البخاري (٥٠)، مسلم (٩)، (١٠)].

١٠١١ - وأن قريشاً والأحزاب لا يغزونه أبداً، وأنه هو يغزوهم [البخاري (٤١١٠)].

١٠١٢ - وأخبر بالموتان الذي يكون بعد فتح بيت المقدس [البخاري (٣١٧٦)].

١٠١٣ - وما وعد من سكتى البصرة [أبو داود (٤٣٠٧)].

١٠١٤ - وأنهم يغزون في البحر كالمُلوِك على الأسيرة [البخاري (٢٨٠٠)، مسلم (١٩١٢)].

١٠١٥ - وأن الذين لو كان منوطاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس [البخاري (٤٨٩٧)، مسلم (٢٥٤٦)].

١٠١٦ - وهاجرت ريح في غزاته فقال: «هاجرت لموت منافق» [مسلم (٢٧٨٢)]، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك.

١٠١٧ - وقال لقوم من جلسائه: «ضرس أحدكم في النار أعظم من أخذ». قال أبو هريرة: فذهب القوم - يعني: ماتوا - وبقيت أنا ورجل، فقتل مرتدًا يوم البمامة.

١٠١٨ - وأعلم بالذي غل خرزاً من خرز يهود، فوجدت في رخله [أبو داود (٢٧١٠)]، النسائي (٦٤/٤)، ابن ماجه (٢٨٤٨).

١٠١٩ - وبالذي غل الشفلة، وحيث هي [البخاري (٤٢٣٤)]، مسلم (١١٥).

١٠٢٠ - وناقته حين ضلت، وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها.

١٠٢١ - ويشأن كتاب خاطب إلى أهل مكة [البخاري (٣٠٠٧)]، مسلم (٢٤٩٤).

١٠٢٢ - وبقيصة غمير مع صفوان حين ساره وشارطه على قتل النبي ﷺ.

فلما جاء غمير للنبي ﷺ قاصداً لقتله، وأطلععه رسول الله ﷺ على الأمر والسر أسلم.

١٠٢٣ - وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل بعد أن كتبه، فقال: ما علمه غيري وغيرها، فأسلم [أحمد (٣٥٣/١)].

١٠٢٤ - وأعلم بأنه سيقتل أبي بن خلف.

١٠٢٥ - وفي عتبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب من كلاب الله.

١٠٢٦ - وعن مضارع أهل بذر، فكان كما قال [مسلم (١٧٧٩)].

١٠٢٧ - وقال في الحسن: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» [البخاري (٢٧٠٤)].

١٠٢٨ - ولسغيد: «الملك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون» [البخاري (٤٤٠٩)]، مسلم (١٦٢٨).

١٠٢٩ - وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد [البخاري (١٧٤٦)].

١٠٣٠ - وبموت النجاشي يوم مات وهو بأرضه [البخاري (١٢٤٥)]، مسلم (٩٥١).

١٠٣١ - وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقق فيروز القصة أسلم.

١٠٣٢ - وأخبر أبا ذر رضي الله عنه بتطريده كما كان، ووجده في المسجد

نائماً، فقال له: «كيف بك إذا أُخْرِجْتَ منه؟» قال: أسْكِنَ المسجدَ الحرام. قال: «فإذا أُخْرِجْتَ منه...» الحديث.

١٠٣٣ - وَيَعِيشُهُ وَخَدَهُ، وَمَوْتُهُ وَخَدَهُ.

١٠٣٤ - وَأَخْبِرَ أَنَّ أَسْرَعَ أَزْوَاجِهِ بِهِ لِحَوْقاً أَطْوَلُهُنَّ يَدَا [البخاري (١٤٢٠)، مسلم

(٢٤٥٢)]، فَكَانَتْ زَيْنَبُ لَطُولَ يَدَيْهَا بِالْصَدَقَةِ.

١٠٣٥ - وَأَخْبِرَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بِالطُّفِّ، وَأَخْرَجَ بِيَدِهِ تُزْبَةً، وَقَالَ: «فِيهَا

مَضْجَعُهُ».

١٠٣٦ - وَقَالَ فِي زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ: «يَسْبِقُهُ عُضْوٌ مِنْهُ إِلَى الْجَنَّةِ» فَقَطَّعَتْ

يَدَهُ فِي الْجِهَادِ.

١٠٣٧ - وَقَالَ فِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى جِرَاءٍ: «أَثْبُتْ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ

وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ»، فَقَتِلَ عَلِيٌّ، وَعُمَرُ، وَعِثْمَانُ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَطَعِنَ سَعْدُ.

١٠٣٨ - وَقَالَ لِسُرَّاقَةٍ: «كَيْفَ بَكَ إِذَا أَلْبَسْتَ سُوَارِي كِسْرَى؟» فَلَمَّا أَتَى

بِهَا عُمَرُ أَلْبَسَهَا إِيَّاهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهَا كِسْرَى وَأَلْبَسَهَا سُورَةً.

١٠٣٩ - وَقَالَ: «تَبَنَّى مَدِينَةً بَيْنَ دِجْلَةَ وَدُجَيْلٍ وَقُطْرُبُلٍ وَالصَّرَاةِ تُجَبِّي إِلَيْهَا

خَزَائِنُ الْأَرْضِ، يُخَسَفُ بِهَا»، يَعْنِي بِغَدَادِ.

١٠٤٠ - وَقَالَ: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ: الْوَلِيدُ، هُوَ شَرُّ لَهَذِهِ

الْأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ» [أحمد (١٨/١)].

١٠٤١ - وَقَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ دَعَاوَاهُمَا وَاحِدَةٌ» [البخاري

(٣٦٠٨)، مسلم (١٧/١٥٧)].

١٠٤٢ - وَقَالَ لِعُمَرَ فِي سَهْلِ بْنِ عَمْرِو: «عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَاماً يَسْرُكَ يَا

عُمَرُ!» فَكَانَ كَذَلِكَ، قَامَ بِمَكَّةَ مَقَامَ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَلَّغَهُمْ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَطَبَ

بِنَحْوِ خُطْبَيْتِهِ، وَثَبَّتَهُمْ وَقَوَّى بِصَانِهِمْ.

١٠٤٣ - وَقَالَ لَخَالِدٍ حِينَ وَجَّهَهُ لِأَكْبِيدِرَ: «إِنَّكَ تَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَرَ» فَوُجِدَتْ

هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ جُلَسَاءَهُ مِنْ أَسْرَارِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ

الْمُنَافِقِينَ وَكُفْرِهِمْ، وَقَوْلُهُمْ فِيهِ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَيَقُولُ

لصَاحِبِهِ: اسْكُتْ، فَوَاللَّهِ! لَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ لِأَخْبَرْتُهُ حِجَارَةُ

الْبَطْحَاءِ.

١٠٤٤ - وَإِعْلَامُهُ بِصِفَةِ السِّحْرِ الَّذِي سَحَرَهُ بِهِ لَيْيَدُ بْنُ الْأَغْصَمِ، وَكَوْنُهُ فِي

مِسْطٍ وَمُشَاقَّةٍ، فِي جُفٍ طَلَعَ نَخْلَةٌ ذَكْرٍ، وَانْه أَلْقَى فِي بئرِ دُرَّوَانٍ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَوُجِدَ عَلَى تِلْكَ الصَّفَةِ.

١٠٤٥ - وَإِعْلَامُهُ قُرَيْشًا بِأَكْلِ الْأَرْضِ مَا فِي صَحِيفَتِهِمُ الَّتِي تَظَاهَرُوا بِهَا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ، وَقَطَعُوا بِهَا رَجْمَهُمْ، وَأَنَّهُ أَبْقَتْ فِيهَا كُلَّ اسْمٍ لِلَّهِ، فَوَجَدُوهَا كَمَا قَالَ.

١٠٤٦ - وَوَضَعَهُ لِكُفَارِ قُرَيْشِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ حِينَ كَذَّبُوهُ فِي خَبَرِ الْإِسْرَاءِ، وَنَعْتَهُ إِيَّاهُ نَعْتٌ مِنْ عِرْقِهِ.

١٠٤٧ - وَإِعْلَامُهُمْ بِعَبِيرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَإِنْدَارُهُمْ بِوَقْتِ وَصُولِهَا، فَكَانَ كُلُّهُ كَمَا قَالَ ﷺ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَكُونُ وَلَمْ يَأْتِ بَعْدُ، مِنْهَا مَا ظَهَرَ مُقَدِّمَاتُهَا.

١٠٤٨ - كَقَوْلِهِ: «عُمَرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرُبُ، وَخَرَابٌ يَثْرُبُ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٢٩٤)، أَحْمَدُ (٢٣٢/٥)].

وَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ آيَاتُ حُلُولِهَا، وَذِكْرُ النَّشْرِ وَالْخَشْرِ، وَأَخْبَارُ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَرَضَاتُ الْقِيَامَةِ.

وَيَحْسَبُ هَذَا الْفَصْلُ أَنْ يَكُونَ دِيْوَانًا مُفْرَدًا يَشْتَمِلُ عَلَى أَجْزَاءِ وَخَذَةٍ، وَفِيمَا أَشْرَنَّا إِلَيْهِ مِنْ ثَلَاثَةِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا كِفَايَةً، وَأَكْثَرُهَا فِي الصَّحِيحِ، وَعِنْدَ الْأُئِمَّةِ.

فصل

فِي عِصْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ وَكِفَايَتِهِ مِنْ آذَانِهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمِيرٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

قِيلَ: بِكَافٍ مُحَمَّدًا ﷺ أَعْدَاءَهُ الْمُشْرِكِينَ. وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا.

وَقَالَ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ [الجن: ٩٥].

وَقَالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ

وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١٠٤٩ - أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي الصّدفي بقراءتي عليه، والفقهاء الحافظ

أبو بكر: محمد بن عبد الله المَعافري، قالوا: حدثنا أبو الحسين الصّيرفي، قال: حدثنا أبو يعلّى البَغدادي، حدثنا أبو علي السّنجي، حدثنا أبو العباس المَروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا عبد بن حُميد، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيد، عن سَعِيد الجُريري، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُخَرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبّة، فقال لهم: «يا أيّها النّاس! انصَرِفُوا، فقد عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» [الترمذي (٣٠٤٦)].

١٠٥٠ - وَرَوَى أَن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا نَزَلَ مَنَزَلًا اخْتَارَ لَهُ أَصْحَابَهُ شَجَرَةً يَقِيلُ تَحْتَهَا، فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مَنِي؟ فَقَالَ: «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» فَأَرَعَدَتْ يَدُ الْأَعْرَابِيِّ، وَسَقَطَ سَيْفُهُ، وَضَرَبَ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى سَالَ دِمَاغُهُ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ.

١٠٥١ - وَقَدْ رُوِيَ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي الصَّحِيحِ، وَأَنَّ عُورَثَ بْنَ الْحَارِثِ صَاحِبُ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَفَا عَنْهُ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ [البخاري (٤١٣٥)، (٤١٣٦)، مسلم (٨٤٣)].

١٠٥٢ - وَقَدْ حُكِيَ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ، وَأَنَّهَا جَرَتْ لَهُ يَوْمَ بَذْرِ، وَقَدْ انْفَرَدَ مِنْ أَصْحَابِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ، فَتَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ... وَذَكَرَ مِثْلَهُ.

١٠٥٣ - وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ مِثْلُهَا فِي غَزْوَةِ عَطْفَانَ بِذِي أَمْرَ، مَعَ رَجُلٍ اسْمُهُ دُعْثُورُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ أَسْلَمَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ الَّذِينَ أَغْرَوْهُ - وَكَانَ سَيِّدَهُمْ وَأَشَجَعُهُمْ - قَالُوا لَهُ: أَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ، وَقَدْ أَمَكْنَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أَبْيَضَ طَوِيلَ دَفْعٍ فِي صَدْرِي، فَوَقَعْتُ لظَهْرِي، وَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَأَسْلَمْتُ.

قِيلَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ هُمْ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٤ - وَفِي رِوَايَةِ الْخَطَّابِيِّ أَنَّ عُورَثَ بْنَ الْحَارِثِ الْمُحَارِبِي أَرَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ مُتَضَيًّا سَيْفَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ»، فَانْكَبَّ مِنْ وَجْهِهِ مِنْ زُلْخَةٍ زُلْخَهَا بَيْنَ كَتْفَيْهِ، وَنَدَرَ سَيْفَهُ مِنْ يَدِهِ. الزُّلْخَةُ: وَجَعُ الظَّهْرِ.

وقيل في قصته غير هذا، وذكر أن فيه نزلت: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْيَتِيمِ الْمَالُ إِذْ ذُكِّرُوا بِمَا كَانُوا يُعَذِّبُونَ آلَهُمْ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٥ - وقيل: كان رسول الله ﷺ يخاف قريشاً، فلما نزلت هذه الآية استلقى، ثم قال: «مَنْ شَاءَ فَلْيُخَذِلْنِي».

١٠٥٦ - وذكر عبد بن حميد، قال: كانت حمالة الحطب تضع العضاء وهي جُمَرٌ - على طريق رسول الله ﷺ فكانما يطؤها كثيباً أهبل.

١٠٥٧ - وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١]، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فِهْرٌ من حجارة.

فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى يبصرها عن نبيه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله! لو وجدته لضربت بهذا الفِهْرِ فاه.

١٠٥٨ - وعن الحكم بن أبي العاص: تواعدنا على النبي ﷺ حتى إذا رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا ما ظننا أنه بقي بهتامة أحد، فوقعنا مغشياً علينا، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله.

ثم تواعدنا ليلة أخرى، فاجتمعنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمزودة، فحالت بيننا وبينه.

١٠٥٩ - وعن عمر رضي الله عنه: تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله ﷺ، فاجتمعنا له فافتتح وقرأ الفاتحة، وقرأ ﴿لَمَّا أَتَى ١﴾ مَا الْفَأَقَّةُ ٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَمَّا أَتَى ٣﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ وَهَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤﴾ فَلَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّايِبَةِ ٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَمْلِكُوا بِرَبِيعِ صَنْعَةِ ٦﴾ مَسَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَمَّعَ ٧﴾ لِبَالٍ وَتَغْيِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ ٨﴾ هَذَا تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ٩﴾﴾ [الحاقة: ١-٨].

فضرب أبو جهم على غضد عمر، وقال: انج، وقرأ هاريتين، فكانت من مقدمات إسلام عمر رضي الله عنه [أحمد (١٧/١)].

١٠٦٠ - ومنه العجزة المشهورة، والكفاية النامة عندما أخافته قريش، وأجمعت على قتله وبيئته، فخرج عليهم من بيته، فقام على رؤوسهم، وقد

ضرب الله تعالى على أبصارهم، وذرّ التراب على رؤوسهم، وخلص منهم.
١٠٦١ - وحمايته عن رؤيتهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات، ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أمية بن خلف - حين قالوا: ندخل الغار -: ما أزيكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه من قبل أن يولد محمد؟
 وَوَقَفَتْ حَمَاتَانِ عَلَى فَمِ الْغَارِ، فَقَالَتْ قَرِيشُ: لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام.

١٠٦٢ - وقصته مع سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم حين الهجرة، وقد جعلت قُرَيْشُ فيه وفي أبي بكر الجعائل، فأُنذِر به، فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبي ﷺ، فساخت قوائمه فَرَسِهِ، فخر عنها، واستَقَسَم بالأزلام، فخرج له ما يكره.

ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت فقال للنبي ﷺ: أتينا. فقال: ﴿لَا تَخْرُجَنَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فساخت ثانية إلى رُكبتها، وخر عنها، فزجرها فهضت ولقوائمها مثل الدخان، فناداهم بالأمان، فكتب له النبي ﷺ أماناً، كتبه ابن فهيرة، وقيل: أبو بكر، وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبي ﷺ ألا يترك أحداً يلحق بهم.
 فانصرف يقول للناس: كُفِّيمُ ما ها هنا.

وقيل: بل قال لهما: أراكما دعوتما عليّ، فاذعوا لي [البخاري (٣٩٠٦)، (٣٩٠٨)، مسلم (٧٥/٢٠٠٩)].

فنجاء، ووقع في نفسه ظُهورُ النبي ﷺ.
١٠٦٢ م - وفي خبر آخر: أن راعياً عرفَ خَبرَهما، فخرج يشتدّ، يُعلم قريشاً، فلما ورد على مكة ضرب على قلبه، فما يدري ما يَضَع، وأنسي ما خرج له، حتى رجع إلى موضعه.

١٠٦٣ - وجاءه - فيما ذكر ابنُ إسحاق وغيره - أبو جهل، بصخرة وهو ساجد، وقريش ينظرون، ليَطْرَحَها عليه، فلزقت بيده، وبست يده إلى عنقه، وأقبل يرجع القَهْقَرى إلى خلفه، ثم سألَه أن يدعوه له، ففعل، فانطلقت يده، وكان قد تواعد مع قُريش بذلك، وحلف لئن رآه ليدمغنه، فسأله عن شأنه؟ فذكر أنه عَرَضَ لي دونه فحلّ، ما رأيْتُ مثله قط، هم بي أن يأكلني.
 فقال النبي ﷺ: «ذاك جنبريل، لو دنا لأخذَه» [البخاري (٤٩٥٨)].

١٠٦٤ - وذكر السمرقندي أن رجلاً من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله،

فطمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه ولم يرمهم حتى نادوه.

وذكر أن في هاتين القصتين، نزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ مَكْنًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩﴾ [يس: ٨، ٩].

١٠٦٥ - ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق، وغيره في قصته، إذ خرج إلى بني قريظة، في أصحابه، فجلس إلى جدار بغض أطابهم، فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرخ عليه زحى، فقام النبي ﷺ فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقتلهم.

وقد قيل إن قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ [المائدة: ١١]. في هذه القصة نزلت.

١٠٦٦ - وحكى السمرقندي أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عقل الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية، فقال له خبي بن أخطب: اجلس، يا أبا القاسم! حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا.

فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وثوامر خبي معهم على قتله، فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة.

١٠٦٧ - وذكر أهل التفسير والحديث، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن أبا جهل وعد قريشاً لئن رأى محمداً يصلي ليطأن رقبته.

فلما صلى النبي ﷺ أغلّموه، فأقبل، فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبيه، متقياً بيديه، فسئل، فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء ناراً كذت أهوي فيه، وأبصرت هولاً عظيماً، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض. فقال ﷺ: «تلك الملائكة، لو دنا لاختطفته عضواً عضواً».

ثم أنزل على النبي ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا ١﴾ أَنْ رَوَاهُ اسْتَفْحَقَ ٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَبْعُ ٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْكُنْفَةِ ٦﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ رَوَىٰ ٩﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَسَمِعْنَا بِالِإِسْيَةِ ١٠﴾ نَامِيهِ كَذِبٍ خَالِفٍ ١١﴾ فَلَيْدَغٌ نَادِيهِ ١٢﴾ سَدَّعَ الزَّانِيَةَ ١٣﴾ كَلَّا لَا تُلَظُمُهُ ١٤﴾ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ١٥﴾ [العلق: ٦- ١٩] [مسلم (٢٧٩٧)].

١٠٦٨ - ويروى أَنَّ رجلاً يعرف بـ: شَيْبَةَ بنِ عَثْمَانَ الْحَجَبِيِّ أدركه يوم حُتَيْنَ، وكان حمزُهُ قد قَتَلَ أَبَاهُ وَعَمَّهُ، فقال: اليومَ أدركُ ثأري من مُحَمَّدٍ.

فلما اختلط الناسُ أَتَاهُ من خَلْفِهِ، ورفع سيفَهُ لِيَضْبَهُ عَلَيْهِ، قال: فلما دنوتُ منه ارتفع إليّ شَواطِءُ من نارٍ أسرعُ من البرقِ، فولَّيتُ هارباً، وأَحْسَنَ بي النبي ﷺ فدَعَانِي، فوضع يَدَهُ على صَدْرِي، وهو أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فما رفعها إلا وهو أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وقال لي: «إِذْ فَقَاتِلْ» فتقدمتُ أَمَامَهُ أَضْرَبُ بِسَيْفِي وَأَقْبَهُ بِنَفْسِي، ولو لَقِيتُ أَبِي تِلْكَ السَّاعَةَ لَأَوْقَعْتُ بِهِ دُونَهُ.

١٠٦٩ - وعن فَضَالَةَ بنِ عَمْرٍو: أَرَدْتُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ، وهو يطوفُ بالبَيْتِ، فلما دنوتُ منه قال: «يَا فَضَالَةُ!» قلتُ: نعم. قال: «ما كنتُ تَحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟» قلتُ: لا شيءَ، فَضَحِكَ وَاسْتَغْفَرَ لِي، ووضَعَ يَدَهُ على صَدْرِي، فسكن قلبي. فوالله! ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أَحَبَّ إِلَيَّ منه.

١٠٧٠ - ومن مشهور ذلك خَبَرُ عَامِرِ بنِ الطُّفَيْلِ، وَأَزِيدِ بنِ قَيْسٍ - حينَ وَقَدَا على النَّبِيِّ ﷺ -، وكان عامرٌ قال له: أنا أَشْغَلُ عَنْكَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فَاضْرِبْهُ أَنْتَ. فلم يَرَهُ فَعَلَ شيئاً، فلما كَلَّمَهُ فِي ذلك، قال له: واللَّهِ! ما هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَهُ إِلَّا وَجَدْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ؟

ومن عصمته له تعالى أن كثيراً من اليهود والكهنة، أُنْذِرُوا به، وَعَيَّنُوهُ لِقْرِيشٍ، وأخبروهم بِسَطَوَاتِهِ بِهِمْ، وحضُّوهم على قَتْلِهِ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ تعالى حتى بلغ فيه أَمْرُهُ.

١٠٧١ - ومن ذلك نُصْرُهُ بِالرُّغْبِ أَمَامَهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ، كما قال عليه السلام [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

فصل

فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ

فِيمَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ

ومن معجزاته الباهرة ما جَمَعَهُ اللَّهُ له من المعارف والعلوم، وخصه به من الإطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفة أمور شرائعه، وقوانين دينه، وسياسة عبادِهِ، ومصالح أُمَّتِهِ، وما كان في الأُمَمِ قَبْلَهُ، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة والقرون الماضية من لَدُنْ آدَمَ إلى زَمَنِهِ، وحفظ شرائعهم وكتبهم، وَوَعْيِ سِيرِهِمْ، وسرد أنبيائهم، وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم، واختلاف آرائهم،

والمعرفة بمدبهم وأعمارهم، وجكم حكمائهم، ومُخَاجَة كُلِّ أُمَةٍ مِنَ الْكُفَرَةِ، ومُغَارَضَة كُلِّ فِرْقَةٍ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ، وإِعْلَامُهُمْ بِأَسْرَارِهَا وَمُخَبَّاتِ عُلُومِهَا، وإِخْبَارُهُمْ بِمَا كَتَبُوهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ.

إِلَى الْإِحْتَوَاءِ عَلَى لُغَاتِ الْغَرْبِ، وَغَرِيبِ الْفَافِظِ فِرْقِهَا، وَالْإِحَاطَةِ بِضُرُوبِ فَصَاحَتِهَا، وَالْجَفْظِ لِأَثَابِهَا وَأَمَثَالِهَا، وَجَكْمِهَا وَمَعَانِي أَشْعَارِهَا، وَالتَّخْصِصِ بِخَوَاصِ كُلِّهَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ الصَّحِيحَةِ، وَالْجَكْمِ الْبَيِّنَةِ لِتَقْرِيبِ التَّفْهِيمِ لِلْغَامِضِ، وَالتَّنْبِيهِ لِلْمُشْكَلِ، إِلَى تَنْهِيدِ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الَّذِي لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا تَخَادُلَ، مَعَ اشْتِمَالِ شَرِيعَتِهِ عَلَى مُحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَمُخَامِدِ الْأَدَابِ، وَكُلِّ شَيْءٍ مُسْتَحْسَنٍ مُفْضَلٍ، لَمْ يَنْبَكِرْ مِنْهُ مُلْجِدٌ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ شَيْئاً إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْخِذْلَانِ.

بَلْ كُلُّ جَاحِدٍ لَهُ، وَكَافِرٍ مِنَ الْجَاهِلِيَةِ بِهِ إِذَا سَمِعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ضَوْبِهِ، وَاسْتَحْسَنَهُ دُونَ طَلَبِ إِقَامَةِ بَرْهَانٍ عَلَيْهِ.

ثُمَّ مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الطُّيَّاتِ، وَحَزَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَبَائِثِ، وَصَانَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ مِنَ الْمُعَاقِبَاتِ وَالْحُدُودِ عَاجِلاً، وَالتَّخْوِيفِ بِالنَّارِ آجِلاً مِمَّا لَا يَعْلَمُ عِلْمَهُ، وَلَا يَقُومُ بِهِ، إِلَّا مِنْ مَارَسِ الدَّرْسِ، وَالْعَكُوفِ عَلَى الْكُتُبِ، وَمُتَافَتَةِ بَعْضِ هَذَا.

إِلَى الْإِحْتَوَاءِ عَلَى ضُرُوبِ الْعُلُومِ، وَفُنُونِ الْمَعَارِفِ، كَالطَّبِّ، وَالْعِبَارَةِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالْحِسَابِ، وَالنَّسَبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ مِمَّا اتَّخَذَ أَهْلُ هَذِهِ الْمَعَارِفِ كَلَامَهُ ﷺ فِيهَا قُدُوءَ وَأَصُولاً فِي عِلْمِهِمْ.

١٠٧٢ - وَقَوْلُهُ: «الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ غَابِرٍ» [ابن ماجه (٣٩١٥)].

١٠٧٣ - وَهِيَ «عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ» [أَبُو دَاوُدَ (٥٠٢٠)، التِّرْمِذِيُّ (٢٢٧٨)، ابْنُ مَاجَهَ (٣٩١٤)].

١٠٧٤ - وَقَوْلُهُ: «الرُّؤْيَا ثَلَاثُ: رُؤْيَا حَقٌّ، وَرُؤْيَا يَحْدُثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تُخْزِنُ مِنَ الشَّيْطَانِ» [مُسْلِمٌ (٢٢٦٣)، الْبُخَارِيُّ (٧٠١٧)].

١٠٧٥ - وَقَوْلُهُ: «إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكُذْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تُكْذِبُ» [السَّخَرِيُّ (٧٠١٧)، مُسْلِمٌ (٢٢٦٣)].

١٠٧٦ - وَقَوْلُهُ: «أَضَلَّ كُلُّ دَاءٍ الْبَزْدَةَ».

١٠٧٧ - وَمَا رَوَى عَنْهُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: «الْمَمْنَةُ خَوْضُ الْبَدَنِ، وَالْعُرُوقُ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ»، وَإِنْ كَانَ هَذَا حَدِيثاً لَا نَصْحُحُهُ لَضَعْفِهِ وَكَوْنِهِ مَوْضُوعاً تَكَلَّمَ عَلَيْهِ الدَّارِقُطَنِيُّ.

١٠٧٨ - وقوله: «خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السَّعُوطُ، وَاللَّدُوْدُ، وَالْحَبَامَةُ، وَالْمَشْيُ» [الترمذي (٢٠٤٧، ٢٠٤٨، ٢٠٥٣)].

١٠٧٩ - ر «خَيْرُ الْحَبَامَةِ يَوْمَ سَبْعِ عَشْرَةَ، وَتِسْعِ عَشْرَةَ، وَإِحْدَى وَعَشْرِينَ» [الترمذي (٢٠٥٣)].

١٠٨٠ - «وَفِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ» [البخاري (٥٧١٣)، مسلم (٢٢١٤)].

١٠٨١ - وقوله: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، فَإِنْ كَانَ لَا يَدَ، فَتِلْكَ لِلطَّعَامِ، وَتِلْكَ لِلشَّرَابِ، وَتِلْكَ لِلنَّفْسِ».

١٠٨٢ - وقوله - وقد سُئِلَ عَنْ سَبَا - أَرَجُلٌ هُوَ أَمُ امْرَأَةٍ، أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: «رَجُلٌ، وَلَدَ عَشْرَةَ: ثِيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ...» [الترمذي (٣٢٢٢)، أبو داود (٣٩٨٨)] الحديث بطوله.

١٠٨٣ - وكذلك جوابه فِي نَسَبِ قُضَاعَةَ [أحمد (١٥٦٧)]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا اضْطَرَّتِ الْعَرَبُ عَلَى شُغْلِهَا بِالنَّسَبِ إِلَى سُؤَالِهِ عَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ.

١٠٨٤ - وقوله: «حَمِيرُ رَأْسِ الْعَرَبِ وَنَابِهَا، وَمَذْجُ هَامِثُهَا وَغُلَصَمَتُهَا. وَالْأَزْدُ كَاهِلُهَا وَجُمُحُمَتُهَا، وَهَمْدَانُ غَارِبُهَا وَذُرُوتُهَا».

١٠٨٥ - وقوله: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [البخاري (٣١٩٧)، مسلم (١٦٧٩)].

١٠٨٦ - وقوله فِي الْحَوْضِ: «زَوَايَاهُ سَوَاءٌ».

١٠٨٧ - وقوله - فِي حَدِيثِ الذَّكْرِ -: «وَأَنَّ الْحَسَنَةَ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا فَتِلْكَ مِثْلُ وَخَمْسُونَ عَلَى اللِّسَانِ، وَالْفُ وَخَمْسُ مِثْلٍ فِي الْمِيزَانِ» [أبو داود (٥٠٦٥)، الترمذي (٣٤١٠)، النسائي (٧٤/٣)، ابن ماجه (٩٢٦)].

١٠٨٨ - وقوله وَهُوَ بِمَوْضِعٍ: «نِعْمَ مَوْضِعُ الْحَمَامِ هَذَا».

١٠٨٩ - وقوله: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ» [الترمذي (٣٤٤)، ابن ماجه (١٠١١)].

١٠٩٠ - وَقَوْلُهُ لُعَيْنَتَهُ، أَوْ الْأَقْرَعُ: «أَنَا أَفْرَسٌ بِالْخَيْلِ مِنْكَ» [أحمد (٣٨٧/٤)].

١٠٩١ - وقوله لِكَاتِبِهِ: «ضَعِ الْقَلَمَ عَلَى أَذْنِكَ، فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لِلْمِمْلُ» [الترمذي (٢٧١٤)].

هذا مع أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَكْتُبُ، وَلَكِنَّهُ أُوتِيَ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى قَدْ وَرَدَتْ أَنَاذَرُ بِمَعْرِفَتِهِ حُرُوفَ الْخَطِّ وَحُسْنَ تَصْوِيرِهَا.

١٠٩٢ - كَقَوْلِهِ: «لَا تَمْلُؤُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رَوَاهُ ابْنُ شُعْبَانَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

١٠٩٢ - وقوله في الحديث الآخر - الذي يُزَوَّى عن مُعاوية - أنه كان يكتُب بين يديه عليه السلام فقال له: «أَلْقِ الدُّوَاةَ، وَخَرِّفِ الْقَلَمَ، وَأَقِمِ الْبَاءَ، وَفَرِّقِ السِّينَ، وَلَا تَغُورِ الْمِيمَ، وَحَسِّنِ اللَّهَ، وَمُدِّ الرَّحْمَنَ، وَجُودِ الرَّحِيمَ».

وهذا، وإن لم تصح الرواية أنه عليه السلام كتَب فلا يبعد أن يُرزق عِلْمُ هذا ويُمنع الكتابة والقراءة.

وأما عِلْمُهُ عليه السلام بلغات العرب، وجَفَظُهُ معاني أشعارها، فأمرُ مشهور، قد نَبَّهْنَا على بعضه أول الكتاب.

وكذلك حَفَظُهُ لكثيرٍ من لغات الأمم.

١٠٩٤ - كقوله في الحديث: «صَنَّةٌ، صَنَّةٌ» [البخاري (٣٨٧٤)] وهي حَسَنَةٌ بالحبشية.

١٠٩٥ - وقوله: «ويكثر الهزج» وهو القتل بها.

١٠٩٦ - وقوله - في حديث أبي هريرة -: «أَشْكَنْتُ دُونَ؟» [ابن ماجه (٣٤٥٨)] أي وَجَعُ الْبَطْنِ بالفارسية.

إلى غير ذلك مما لا يعلمُ بَغْضَ هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا مَنْ مَارَسَ الدَّرْسَ والعُكُوفَ على الكُتُبِ ومُثَاقَفَةَ أهلها عُمُرَهُ.

وهو رجلٌ - كما قال الله تعالى - أُمِّيٌّ، لم يكتب ولم يقرأ، ولا عُرِفَ بِصُخْبَةٍ مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، ولا نشأ بين قَوْمٍ لَهُمْ عِلْمٌ ولا قِرَاءَةٌ لشيءٍ من هذه الأمور، ولا عُرِفَ هو قَبْلُ بشيءٍ منها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ يَمِينِي﴾ إِنْ أَلَّا تَرْتَابَ الْمُتَبِيلُونَ ﴿١٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إنما كانت غايةُ معارف العربِ النسبِ وأخبارِ أوائلها، والشعرِ، والبيانِ، وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرُّغِ لِعِلْمِ ذلك، والاشتغالِ بطلبِهِ، ومباحثةِ أهلِهِ عنه.

وهذا الفنُ نُقْطَةٌ من بَخرِ عِلْمِهِ ﷺ.

ولا سبيل إلى جحدِ المُلْجِدِ لشيءٍ مما ذكرناه، ولا وجدِ الكُفْرَةِ جيلةً في دفعِ ما نَصَصْنَاهُ إِلَّا قولُهُمْ: «أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ» [الأنعام: ٢٥] و «إِنَّمَا يَعْلَمُ بَشَرٌ» [النحل: ١٠٣].

فردَ اللَّهُ قولَهُمْ بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَزُ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم ما قالوه مكابرة العيان، فإن الذي نسبوا تعليمه إليه إما سلمان الفارسي،

أو العبد الرُّومِي، وسَلَمَان إنما عرفه بعد الهِجْرَةِ، ونزول الكثير من القرآن، وظهور ما لا يَنُغَدُّ من الآيات.

وأما الرُّومِي فكان أسلم وكان يقرأ على النبي ﷺ، واختلف في اسمه. وقيل: بل كان النبي ﷺ يجلسُ عنده عند المَرْوَةِ، وكلاهما أعجمي اللسان، وهم الفصحاء اللُّدُّ، والخطباء اللُّسُنُ، قد عجزوا عن مُعارضَةِ ما أتى به، والإثْنانِ بمثله بل عن فَهْم رَضِفِهِ، وَصُورَةِ تَأْلِيفِهِ وَنَظْمِهِ، فكيف بأعجمي أَلَكْنَ! نَعَمْ، وقد كان سَلَمَانُ، أو بَلْعَامُ الرومي، أو يَعِيشُ، أو جَبْر، أو يَسَار - على اختلافهم في اسمه - بين أظهرهم يكلمونهم مَدَى أعمارهم، فهل حُكِيَ عن واحدٍ منهم شيء مِن مثَل ما كان يجيء به مُحَمَّدٌ عليه السلام؟ وهل عُرِفَ واحدٌ منهم بمعرفة شيء من ذلك؟ وما منع العدو حَيْثُذُ - على كَثْرَةِ عَدِيدِهِ وَذُؤُوبِ طَلَبِهِ، وَقُوَّةِ حَسَدِهِ - أن يجلسَ إلى هذا فيأخذ عنه أيضاً ما يُعارضُ به، ويتعلَّمُ منه ما يَخْتَجُّ به على شيعته كِفْعَلِ النَّضْرِ بن الحارث بما كان يُمَخِّرُ به من أخبار كُتُبِهِ؟

ولا غاب النبي ﷺ عن قَوْمِهِ، ولا كَثُرَتْ اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب، فيقال له: استمدَّ منهم، بل لم يَزَلْ بين أظهرهم يَزْعَى في صِغَرِهِ وَشَبَابِهِ، على عادة أبنائهم، ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سَفَرَةٍ أو سَفَرَتَيْنِ لم يَطل فيهما مُكُتَبُهُ مَدَّةً يُحْتَمَلُ فيها تعليمُ القليل، فكيف الكثير!

بل كان في سَفَرِهِ في صُحْبَةِ قَوْمِهِ، وَرَفَاقَةِ عَشِيرَتِهِ، لم يَغِبْ عنهم، ولا خالف حالَهُ مَدَّةً مُقَامِهِ بِمَكَّةَ من تعليم، واختلاف إلى حَبْر، أو قَس، أو مَنْجُم، أو كاهن.

بل لو كان هذا بعدُ كُلُّهُ لَكَانَ مَجِيءُ ما أتى به في مُعْجَزِ الْقُرْآنِ قاطعاً لكل عُذْرٍ، ومُدْحِضاً لكل حُجَّةٍ، ومُجْلِباً لكل أمر.

فصل

فِي أَخْبَارِهِ ﷺ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَرُؤْيَا كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ

ومن خصائصه - عليه السلام - وكراماته، وباهر آياته أنبأؤه مع الملائكة والجنِّ، وإمْدَادُ اللَّهِ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَطَاعَةُ الْجِنِّ لَهُ، وَرُؤْيَا كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَلَّهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُوتُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤].

وقال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا إِلَيَّ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال: ﴿إِذْ تَسْتَخِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مَرْبُوتَةٍ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ١٩، ١٠].

وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩].

١٠٩٧ - حدثنا سفيان بن العاصي الفقيه، بسماعي عليه، حدثنا أبو الليث السمرقندي، قال: حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا غبيذ الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن سليمان الشيباني، سمع زر بن حبيش، عن عبد الله، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِن مَّائَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]. قال: رأى جبريل عليه السلام في صورته، له ست مئة جناح [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (٢٨٢/١٧٤)].

١٠٩٨ - والخبر في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور.

١٠٩٩ - وقد رآهم بخضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة، فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان [البخاري (٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١١٠٠، ١١٠١ - ورأى ابن عباس، وأسماء بن زيد، وغيرهما عنده جبريل في صورة دخية.

١١٠٢ - ورأى سعد بن يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين عليهما ثياب بيض [البخاري (٤٠٥٤)، مسلم (٢٣٠٦)].

ومثله عن غير واحد.

١١٠٣ - وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر [مسلم (١٧٦٣)].

١١٠٤ - وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار، ولا يرون الضارب [أحمد (٤٥٠/٥)].

١١٠٥ - ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذ رجلاً بيضاً على خيل بلقي بين السماء والأرض، ما يقوم لها شيء.

١١٠٦ - وقد كانت الملائكة تصافح عمران بن الحصين [مسلم (١٦٧/١٢٢٦)].

١١٠٧ - وأرأى النبي ﷺ لحمزة جبريل في الكعبة، فخر مغشياً عليه.

١١٠٨ - ورأى عبدالله بن مسعود الجَنُّ ليلة الجَنِّ، وسمع كلامهم، وشبههم برجال الزُّط [مسلم (٤٥٠)].

١١٠٩ - وذكر ابنُ سعيدٍ أَنَّ مُضْعَبَ بنَ عُميرٍ لما قُتِلَ يومَ أحدٍ أخذَ الرأيةَ مَلَكٌ على صورته، فكان النبي ﷺ يقول له: «تَقَدَّمْ، يا مُضْعَبُ!» فقال له المَلَكُ: لَسْتُ بِمُضْعَبٍ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مَلَكٌ.

١١١٠ - وقد ذكرَ غَيْرُ واحدٍ من المصنِّفين عن عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أَنَّهُ قال: بينا نحن جلوسٌ مع النبي ﷺ إذ أَقْبَلَ شيخٌ بيده عصا، فسَلَّمَ على النبي ﷺ، فردَّ عليه، وقال ﷺ: «نِعْمَةُ الجَنِّ! مَنْ أَنْتَ؟» قال أنا هامةُ بن الهيثم بن لاقس بن إبليس، فذكر أَنَّهُ لَقِيَ نوحاً وَمَنْ بَعْدَهُ... في حديث طويل، وَأَنَّ النبي ﷺ علَّمَهُ سُوراً من القرآن.

١١١١ - وذكر الواقدي رحمه الله قتل خالدٍ عند هَذْمَةِ العُزَيِّ للسوداء التي خَرَجَتْ له نَاشِيرةٌ شَعْرَها عُزَيَّانةٌ، فجزَّلها بسيفه، وأعلم النبي ﷺ، فقال له: «تلك العُزَيُّ».

١١١٢ - وقال عليه السلام: «إِنَّ شَيْطَاناً تَفَلَّتُ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنَتِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَهْوَةَ أَخِي سَلِيمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِثُنِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِلَّا أَنْتَ الرَّهَابُ﴾ [ص: ٣٥] فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئاً» [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١)]. وهذا بابٌ واسعٌ.

فصل

فِي إِخْبَارِ الرُّهْبَانِ وَالْأَخْبَارِ وَعُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبارُ عن الرهبان والأخبارِ وعلماء أهل الكتاب، من صفته وصفة أُمته واسميه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كَتْفَيْهِ، وما وُجِدَ من ذلك في أشعار الموحِّدين المتقدمين، من شِعْرِ ثُبُعٍ، والأَوْسِ بنِ حارثة، وكعب بن لؤي، وسُفْيَانِ بنِ مُجَاشَعٍ، وقُتَيْبِ بنِ ساعدة، وما ذُكِرَ عن سَيْفِ بنِ ذِي يَزْدَ وغيرهم.

وما عُرِفَ به من أمره زَيْدُ بنِ عَمْرٍو بنِ نُفَيْلٍ، وَوَرَقَةُ بنُ نُوْفَلٍ، وَعُثْكُلَانُ الجَمْعِيَّيْنِ، وعلماء يَهُودٍ، وشامولُ عالِمُهُم صاحبُ ثُبُعٍ، مِنْ صِفَتِهِ وَخَبَرِهِ. وما أُلْقِيَ مِنْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِمَّا قَدْ جَمَعَهُ الْعُلَمَاءُ وَبَيَّنُّوهُ، ونقله

عنهما بقاء من أسلم منهم، مثل ابن سلام، وبنو سغية، وابن يامين، ومخيريق، وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود.

ونجيرا [الترمذي (٣٦٢٠)]، ونسطور الحبشة، وصاحب بصرى، وضغاطر، وأسقف الشام، والجارود، وسلمان وتميم، والنجاشي، ونصاري من الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى.

وقد اعترف بذلك هرقل، وصاحب زومة عالم النصارى، ورئيساهم، ومقوقس: صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن ضوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسد والثفاة على الغاء على الشفاوة، والأخبار في هذا كثيرة لا تحصر.

وقد قرع أسماع يهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحتهم، ودتهم بتحريف ذلك وكنمائه، ولهم المستهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المبالغة على الكاذب، فما منهم إلا من نقر عن معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره.

ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من نذل النفوس والأموال وتخريب الديار وتبذ القتال، وقد قال لهم: ﴿قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِن كُنتُمْ مُّكِيدِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

إلى ما أئذ به الكهان، مثل: شافع بن كلب، وشق، وسطيح، وسواد بن قارب، وخنافر، وأفعى نجران، وجذل بن جذل الكندي، وابن خلصة الذوسي، وسعدى بنت كزير، وفاطمة بنت العمان، ومن لا يتعد كثرة.

إلى ما ظهر على ألسنة الأصنام من نبوته، وخلول وقت رسالته، وسمع من هواتف الجان، ومن ذبائح النصب، وأجواف الصور، وما وجد من اسم النبي ﷺ والشهادة له بالرسالة مكتوباً في الحجارة والقبور بالخط القديم، ما أكثره مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور.

فصل

في الآيات التي ظهرت عند مولده ﷺ

ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولده، وما حكته أمه ومن حضره من العجائب.

١١١٣ - وكونه رافعاً رأسه عندما وضعته، شاخصاً بصره إلى السماء.

١١١٣م - وما رَأَتْهُ من الثَّور الذي خرج معه عند ولادته.

١١١٤ - وما رَأَتْهُ إِذْ ذَاكَ أُمُّ عِشْمَانَ بنِ أَبِي العَاصِ مِنْ تَدَلِّي النجوم، وظهورِ الثَّور عند ولادته، حَتَّى ما تَنْظُرُ إِلَّا الثَّور.

١١١٥ - وَقَوْلِ الشَّعَاءِ، أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ: لَمَّا سَقَطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يَدَيَّ وَاسْتَهَلَّ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ، وَأَضَاءَ لِي مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى قُصُورِ الرُّومِ.

١١١٦ - وما تَعَرَّفْتُ بِهِ حَلِيمَةً وَرَزَّجَهَا - ظَهْرَاءَ - مِنْ بَرَكْتِهِ، وَدُورِ لَبْنِهَا لَهُ، وَلَبَنِ شَارِفِهَا وَخِضْبِ غَنَمِهَا، وَسُرْعَةِ شَبَابِهِ، وَحُسْنِ نَشَأَتِهِ.

١١١٧ - وما جَرَى مِنَ العَجَانِبِ لَيْلَةَ مَوْلَدِهِ، مِنْ ارْتِجَاجِ إِيوَانَ كَسْرَى، وَسُقُوطِ شُرَفَاتِهِ، وَغَيْضِ بَحِيرَةِ طَبْرِتِهِ، وَخَمُودِ نَارِ فَارَسٍ، وَكَانَ لَهَا أَلْفُ عَامٍ لَمْ تَخْمُدْ.

١١١٨ - وَأَنَّهُ كَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِذَا أَكَلَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِهِ - وَهُوَ صَغِيرٌ - شَبُّوا وَرَوَّوْا، فَإِذَا غَابَ فَأَكَلُوا فِي غَيْبِهِ لَمْ يَشَبُّوا. وَكَانَ سَائِرُ وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ يُصْبِحُونَ شُغْنًا وَيُضْبِحُ هُوَ ﷺ صَقِيلًا ذَهَبًا كَجِيلًا.

١١١٩ - قَالَتْ أُمُّ أَيْمَنٍ حَاضِنَتُهُ: مَا رَأَيْتُهُ ﷺ شَكَا جُوعًا قَطُّ وَلَا عَطْشًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا.

وَمِنْ ذَلِكَ حِرَاسَةُ السَّمَاءِ بِالشُّهْبِ، وَقَطْعُ رَصَدِ الشَّيَاطِينِ، وَمَنْعُهُمْ اسْتِزَاقَ السَّمْعِ.

١١٢٠ - وما نَشَأَ عَلَيْهِ مِنْ بَغْضِ الْأَصْنَامِ.

١١٢٠م - وَالْعَقَّةُ عَنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ.

١١٢٠م - وما خَصَّه اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ وَحَمَاهُ حَتَّى فِي سِتْرِهِ فِي الْخَبْرِ الْمَشْهُورِ عِنْدَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَخَذَ إِزَارَهُ لِيَجْعَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، لِيَحْمَلَ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ وَتَعْرَى، فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ حَتَّى رَدَّ إِزَارَهُ عَلَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ: مَا بِأَلَاكَ؟ قَالَ: «إِنِّي قَدْ نُهِيتُ عَنْ التَّعْرِي» [البخاري (٣٦٤)، مسلم (٣٤٠)].

١١٢١ - وَمِنْ ذَلِكَ إِظْلَالُ اللَّهِ لَهُ بِالْعَمَامِ فِي سَفَرِهِ.

١١٢٢ - وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ خَدِيجَةَ وَنِسَاءَهَا رَأَيْنَهُ لَمَّا قَدِيمٌ، وَمَلَكَانِ يُظْلَتَانِ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَمَيْسَرَةَ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ مِنْذُ خَرَجَ مَعَهُ فِي سَفَرِهِ.

١١٢٣ - وَقَدْ رُوي أَنَّ حَلِيمَةَ رَأَتْ غَمَامَةً تُظِلُّهُ، وَهُوَ عِنْدَهَا.

١١٢٣ م - وَرُوي ذلك عن أخيه من الرُّضاعة.

١١٢٤ - ومن ذلك أنه نَزَلَ في بعض أسفاره قبل مَبْعَثِهِ تحت شجرة يابسة، فَاغْمُوسَبَ ما حولها وأَيْتَعَتْ هي فَأَشْرَقَتْ وتَدَلَّتْ عليه أغصانها بِمَخْضَرٍ مَنْ رَأَاهُ.

١١٢٥ - وميل في الشجرة إليه في الْخَبَرِ الآخر حتى أَظْلَنَتْهُ.

١١٢٦ - وما ذُكِرَ مِنْ أنه كان لا ظِلَّ لِشَخْصِهِ في شمسٍ ولا قَمَرٍ، لأنه كان نُوراً.

١١٢٧ - وأن الدُّبَابَ كان لا يَقَعُ على جَسَدِهِ ولا ثِيَابِهِ.

١١٢٨ - ومن ذلك: تَخْيِيبُ الْخُلُوفِ إليه حتى أَوْجِيَ إليه [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١١٢٩ - ثم إعلامه بموته وذُنُوبُ أَجَلِهِ [البخاري (٦١٨٦)، مسلم (٢٤٥٠)].

١١٣٠ - وَأَنْ قَبْرَهُ بالمدينة.

١١٣١ - وفي بَيْتِهِ.

١١٣٢ - وَأَنْ بَيْنَ بَيْتِهِ وَبَيْنَ مِثْبَرِهِ رَوْضَةٌ من رياض الجنة.

١١٣٣ - وَتَخْيِيرُ اللَّهِ له عند مَوْتِهِ [البخاري (٤٦٦، ٦٣٤٨)، مسلم (٢٤٤٤)].

١١٣٤ - وما اشتمل عليه حديثُ الْوَفَاءِ من كراماته، وتُشْرِيفِهِ، وصلاة الملائكةِ على جَسَدِهِ على ما رَوَيْنَاهُ في بعضها.

واستِئْذَانُ مَلَكِ الْمَوْتِ عليه، ولم يَسْتَأْذِنْ على غيره قَبْلَهُ.

١١٣٥ - وندائهم الذي سمعوه أَلَّا يَنْزِعُوا الْقَمِيصَ عنه عند غُسْلِهِ [أبو داود (٣١٤٠)].

١١٣٦ - وما رُوي من تَغْزِيَةِ الْخَضِرِ وَالْمَلَائِكَةِ أَهْلَ بَيْتِهِ عند موته.

إلى ما ظهر على أصحابه من كراماته وبركته في حياته وموته.

١١٣٧ - كاستِسْقَاءِ عُمَرُ بَعْمَهُ [البخاري (١٠١٠)]، وتَبَرُّكِ غَيْرِ وَاحِدٍ بِذُرِّيَّتِهِ.

فصل

فِي أَنَّ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَظْهَرَ

مِنْ سَائِرِ مُعْجَزَاتِ الرُّسُلِ

قال القاضي أبو الفضل: قد أتينا في هذا الباب على نُكَبٍ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ وَاضِحَةٍ، وَجُمَلٍ من علامات نُبُوَّتِهِ مُقْبَعَةٍ، في واحدٍ منها الكفاية والغنية، وتركنا الكثير سِوَى ما ذَكَّرْنَا، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على غَيْنِ الْغَرَضِ، وَقَصَّ

المَقْصِد، ومن كثير الأحاديثِ وَغَرِيبها على ما صَحَّ واشتهر إلا يسيراً من غريبه مما ذكره مشاهير الأئمة، وحذفنا الإسناد في جمهورها، طلباً للاختصار.
ويحسب هذا الباب لو تَقْصِي أن يكونَ ديواناً جامعاً يشتمل على مُجلدات عدة.

ومعجزاتُ نبيِّنا ﷺ أظهرُ من سائر معجزات الرسل بوجهين:
أحدهما: كَثْرَتُها، وأنه لم يؤت نبيُّ معجزةٍ إلا وعند نبيِّنا مثْلُها، أو ما هو أبلغُ منها.

وقد نبّه الناسُ على ذلك، فإن أَرَدْتَه فتأملْ فصول هذا الباب، ومعجزات مَنْ تقدّم من الأنبياء، تَقِفْ على ذلك إن شاء الله تعالى.
وأما كونُها كثيرة فهذا القرآن، وكلُّهُ مُعْجَزٌ، وأقلُّ ما يَقَعُ الإعجازُ فيه عند بعض أئمة المحققين سورة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١]، أو آيةٌ في قَدْرها.

وذهب بعضهم إلى أن كلَّ آيةٍ منه - كيف كانت - معجزة.
وزاد آخرون إلى أن كلَّ جملةٍ مُنْتَظِمةٍ منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

والحقُّ ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا إِشْرَكَ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهو أقلُّ ما تحدّأهم به، مع ما ينصّر هذا من نَظَرٍ وتحقيقٍ يطولُ بَسْطُهُ.
وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو من سبعةٍ وسبعين ألفَ كلمةٍ ونَيِّفَ على عدد بعضهم، وعددُ كلمات: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١] عَشْرُ كلمات، فَتَجَزُّوُ القرآنَ على نسبةٍ عددٍ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١] أزيد من سبعة آلاف جزء، كلُّ واحدٍ منها مُعْجَزٌ في نفسه.

ثم إعجازه - كما تقدّم - بوجهين: طريقِ بلاغته، وطريقِ نَظْمِهِ، فصار في كلِّ جزءٍ من هذا العدد مُعْجَزَتان، فتضاعف العددُ من هذا الوجهِ.
ثم فيه وجوهٌ إعجازٍ آخر من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكونُ في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخَبَرُ عن أشياء من الغيب، كلُّ خَبَرٍ منها بنفسه مُعْجَزٌ فيتضاعف العددُ كَرَّةً أخرى.

ثم وجوهٌ الإعجازِ الأخر التي ذكرناها توجبُ التضعيفَ، هذا في حقِّ القرآن، فلا يَكادُ يَأْخُذُ العدُّ معجزاته، ولا يَخْوي الحَضْرُ بَرَاهِينَهُ.
ثم الأحاديثُ الواردة، والأخبارُ الصادرةُ عنه - عليه السلام - في هذه

الأبواب وعما دلّ على أمره مما أشرنا إلى جُمْلِهِ تَبْلُغُ نحواً من هذا.
الوجه الثاني: وضوح معجزاته ﷺ، فإنّ معجزات الرُّسُلِ كَانَتْ بِقَدْرِ هِمَمِ
أهل زمانهم، وبحسب الفن الذي سما فيه قُرْنَه.

فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السُّخْر، بُعث إليهم موسى بمعجزة
تُشْبِه ما يدعون قُدْرَتَهُمْ عليه، فجاءهم منها ما خرق عاداتهم، ولم يكن في
قُدْرَتِهِمْ، وأَبْطَلَ سِخْرَهُمْ.

وكذلك زمنُ عيسى أَغْنَى ما كان الطبُّ، وأوفر ما كان أهله، فجاءهم أمرٌ
لا يقدرُون عليه، وأنّاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص
دون معالجة ولا طب.

وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

ثم إنّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ، وجملته معارف العرب وعلومها أربعة:
البلاغة، والشعر، والخبر، والكهانة، فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة
فصول من الفصاحة، والإيجاز، والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم، ومن النظم
الغريب، والأسلوب العجيب الذي لم يَهْتَدُوا في المنظوم إلى طريقه، ولا علموا
في أساليب الأوزان منهجه، ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار
والمُخْبَنَات والضمائر، فتوجد على ما كانت، ويعترف المُخْبِر عنها بصحة ذلك
وصدقه، وإن كان أغذى العدو.

فأبطل الكهانة التي تصدق مرةً وتكذب عُشراً، ثم اجتثها من أصلها برجم
الشُّهْب، ورَضِيَ النجوم.

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة وأنبياء الأنبياء، والأمم البائدة،
والحوادث الماضية، ما يَفْعَزُ مَنْ تفرغ لهذا العلم عن بعضه، على الوجوه التي
بسطناها، وبيّنا المُعْجَزَ فيها.

ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلى الفصول الآخر التي ذكرناها
في معجزات القرآن ثابتة إلى يوم القيامة، بينة الحجة لكل أمة تأتي، لا يخفى
وجوه ذلك على مَنْ نظر فيه، وتأمل وجوه إعجازه.

إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل، فلا يمرَّ عَصْر ولا زمن إلا
ويظهر فيه صدقه بظهور مُخْبِرِه على ما أخبر، فيتجدد الإيمان، ويتظاهر البرهان،
وليس الخبر كالعيان كما قيل، وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشد طمأنينة

إلى عَيْنَ اليقين منها إلى علم اليقين وإن كان كلُّ عندها حقاً.

وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعُدِمَت بَعْدَمَ ذَوَاتِهَا، ومعجزة نبينا ﷺ لا تَبِيدُ ولا تَنْقُطُ، وآيَاتُهُ تَتَجَلَّدُ ولا تَضْمَحَلُ.

١١٣٨ - ولهذا أشار - عليه السلام - بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو علي، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهيثم، قالوا: حدثنا القُرْبَرِيُّ، حدثنا البخاري، حدثنا عبدالعزيز بن عبد الله، حدثنا الليث، عن سَعِيدٍ، عن أَبِيهِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمَرَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَ وَخِيّاً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٧٢٧٤)].

هذا معنى الحديث عند بعضهم، وهو الظاهر، والصحيح، إن شاء الله.

وذهب غيرُ واحدٍ من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا - عليه السلام - إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وَخِيّاً وكلاماً لا يمكن التخيلُ فيه، ولا التحيلُ عليه، ولا التشبيه، فإنَّ غيرها من معجزات الرسل قد زَامَ المعاندون لها بأشياء طِمَعُوا في التخيل بها على الضعفاء كإلقاء السَّحَرَةِ جِبَالَهُمْ وعصيتهم وشبه هذا مما يخيِّله السَّاحِرُ، أو يتحِيلُ فيه.

والقرآنُ كلامٌ ليس للحيلة ولا للسحر في التخيل فيه عملٌ، فكان من هذا الوجه عندهم أظهر من غيره من المعجزات، كما لا يتمُّ لشاعرٍ ولا لخطيب أن يكون شاعراً أو خطيباً بضرب من الحِيلِ والتَمْوِيهِ.

والتأويلُ الأولُ أخْلَصُ وأَرْضَى.

وفي هذا التأويل الثاني ما يُعَمَّضُ الجَفَنُ عليه ويُغْضَى.

ووجهُ ثالث على مذهب مَنْ قال بالَصَّرْفَةِ، وَأَنَّ المعارضة كانت في مقدور البشر، فَصَرَّفُوا عنها، أو على أَحَدِ مَذْهَبِي أَهْلِ السَّنَةِ من أَنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ مِنْ جِنْسٍ مَقْدُورُهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ قَبْلَ، وَلَا يَكُونُ بَعْدَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْدِرْهُمْ، وَلَا يَقْدِرْهُمْ عَلَيْهِ.

وبين المذهبين فرقٌ بَيِّنٌ، وعليهما جميعاً، فَتَرَكُ الْعَرَبُ الْإِتْيَانَ بِمَا فِي مَقْدُورِهِمْ، أَوْ مَا هُوَ مِنْ جِنْسٍ مَقْدُورُهُمْ، وَرِضَاهُمْ بِالْبَلَاءِ، وَالْجَلَاءِ، وَالسُّبَاءِ، وَالْإِذْلَالِ، وَتَغْيِيرِ الْحَالِ، وَسَلْبِ النَفُوسِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالتَّقْرِيعِ، وَالتَّوْبِيخِ،

والتعجيز، والتهديد، والوعيد - أبين آيةً للعجز عن الإتيان بمثله، والنكول عن معارضته، وأنهم مُنعوا عن شيء هو من جنس مقدورهم.

والى هذا ذهب الإمام أبو المعالي: الجويني، وغيره، قال: وهذا عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها، كقلب العصا حيةً ونحوها، فإنه قد يسبق إلى بال الناظر بداراً أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك الفن، وفضل علم إلى أن يرد ذلك صحيح النظر.

وأما التحدي للخلائق في مئين من السنين بكلام من جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا، فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عذمها إلا منع الله الخلق عنها بمثابة ما لو قال نبي: آتني أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم عليه، وارتفاع الزمانية عنهم، فكان ذلك، وعجزهم الله تعالى عن القيام، لكان ذلك من أبهر آية، وأظهر دلالة. وبالله التوفيق.

وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء، حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهام العرب، وذكاء ألبابها، وفور عقولها، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم، وجاءهم من ذلك بحسب إدراكهم، وغيرهم من القبط وبنو إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل، بل كانوا من العباوة، وقلة الفطنة، بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم، وجوز عليهم السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم، وعبدوا المسيح مع إجماعهم على ضلبه: ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَّوهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلط أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ولم يصبروا على المن والسلوى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والعرب - على جاهليتها - أكثرها يعترف بالصانع، وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله رُفَى.

ومنهم من آمن بالله وخذ من قبل الرسول ﷺ بدليل عقله، وصفاء لبه.

ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته، وتبينوا - بفضل إدراكهم لأول وهلة - معجزته، فآمنوا به، وازدادوا كل يوم إيماناً، ورَفَضُوا الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي صَحْبَتِهِ، وَهَجَرُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَقَتَلُوا آبَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ فِي نُصْرَتِهِ، وَأَتَى فِي مَعْنَى هَذَا بِمَا يَلُوحُّ لَهُ زَوْنٌ، وَيُعْجَبُ مِنْهُ زَبْرَجٌ لَوْ اِحْتِجَّ إِلَيْهِ وَحَقٌّ، لَكُنَّا قَدَمْنَا

مِنْ بَيَانِ مَعْجَزَةِ نَبِينَا ﷺ وَظَهْرِهَا مَا يُغْنِي عَنْ رُكُوبِ بَطُونِ هَذِهِ الْمَسَالِكِ
وَبِاللَّهِ أَسْتَعِينُ وَهُوَ خَسِي، وَنَعَمْ الْوَكِيلُ.

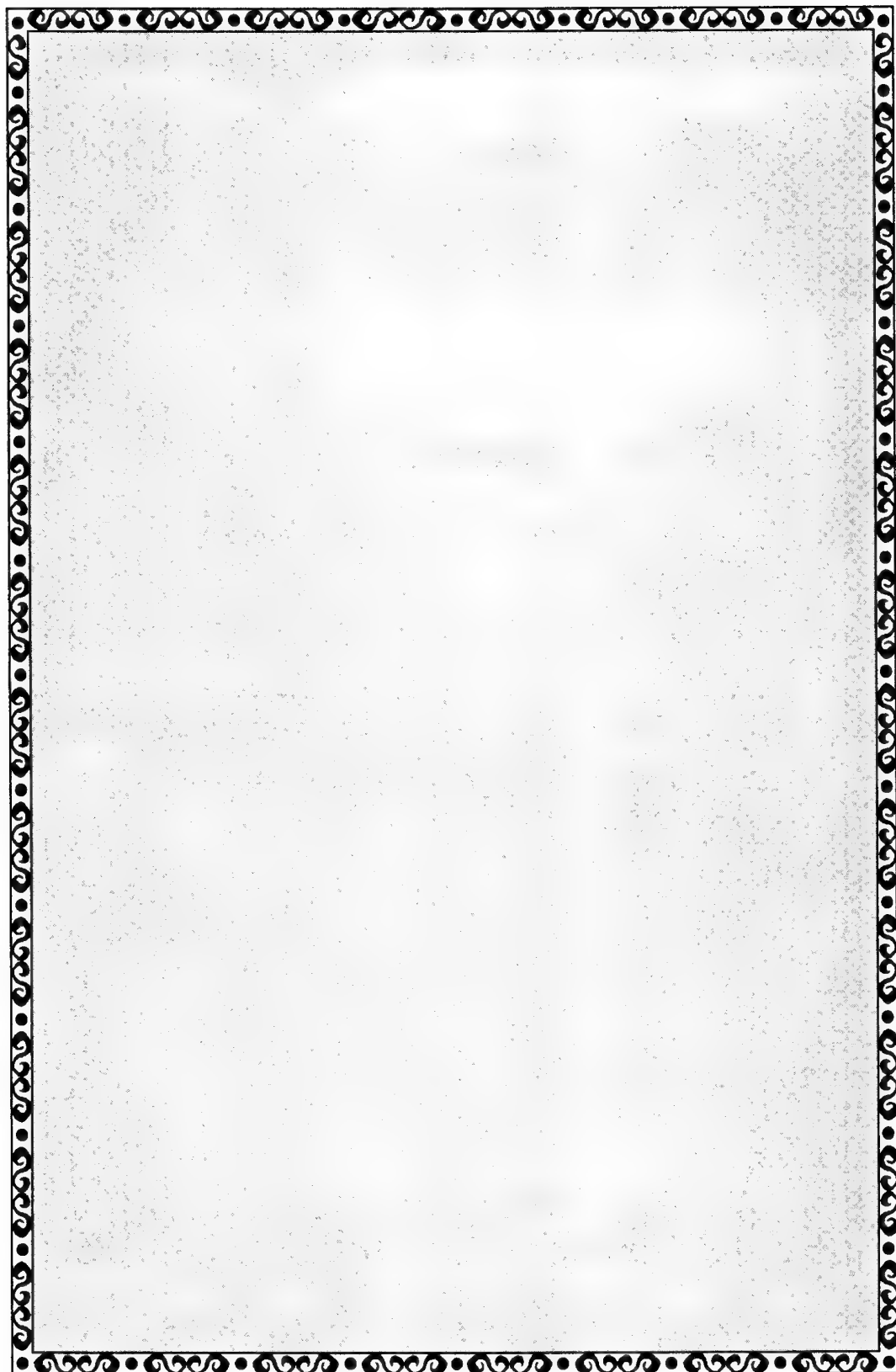


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وهذا قِسْمٌ لَخَصْنَا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه في أول الكتاب، ومجموعها في وجوب تصديقه وأتباعه في سُنَّته وطاعته، ومحَبَّته ومُناصحته، وتوقيره، وبرّه، وحُكْم الصلاة عليه، والتسليم، وزيارة قبره ﷺ



الباب الأول

في فَرْضِ الْإِيمَانِ بِهِ وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ

إذا تقرر بما قَدَّمْنَاهُ ثُبُوتُ نُبُوَّتِهِ وَصَحَّةُ رِسَالَتِهِ، وجب الإِيمانُ به وتصديقه
 فيما أنى به؛ قال الله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورِ الَّتِي أُنْزِلَتْ﴾ [التغابن: ٨].
 وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. [الفتح: ٨، ٩].

وقال: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].
 فالإيمانُ بالنبيِّ محمد - عليه السلام - واجبٌ مُتَعَيِّنٌ لا يتمُّ الإِيمانُ إلا به،
 ولا يصحُّ إسلامٌ إلا معه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

١١٣٩ - حدثنا أبو محمد الحُصَيْنِيُّ الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا الإمام أبو
 علي الطبري، حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا ابن عَمْرٍو، حدثنا ابنُ سَفْيَانَ،
 حدثنا أبو الحُسَيْن، حدثنا أُمَيَّةُ بنُ بَسْطَامٍ، حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ، حدثنا رَوْحٌ، عن
 العلاء بن عبدالرحمن بن يعقوب، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن
 رسول الله ﷺ؛ قال: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
 وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا
 بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [البخاري (١٣٩٩)].

قال القاضي أبو الفضل:

والإيمانُ به - عليه السلام - هو تصديقُ نُبُوَّتِهِ ورسالةِ اللَّهِ له، وتصديقه في
 جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقةُ تصديقِ القلبِ بذلك شهادةَ اللسانِ بأنه

رسول الله؛ فإذا اجتمع التصديق به بالقلب، والنطق بالشهادة بذلك باللسان.

١١٤٠ - ثم الإيمان به والتصديق له. كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَمِزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» [البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢)].

١١٤١ - وقد زادة وضوحاً في حديث جبريل؛ إذ قال: أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...» وذكر أركان الإسلام. ثم سأله عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...» الحديث.

فقد قرّر أن الإيمان به محتاج إلى العقْدِ بِالْجَنَانِ، والإسلام به مضطرٌّ إلى النطق باللسان.

وهذه الحالُ المحمودَةُ التامةُ.

وأما الحالة المذمومةُ فالشهادةُ باللسان دونَ تصديق بالقلب، وهذا هو الشُّفَاق؛ قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]؛ أي كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم، وهم لَا يَغْتَفِدُونَهُ؛ فلَمَّا لم تُصَدِّقْ ذَلِكَ ضَمَائِرُهُمْ لَمْ يَنْفَعُهُمْ أَنْ يَقُولُوا بِالسُّتْهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ؛ فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم في الآخرة حُكْمُهُ؛ إذ لم يكن معهم إيمان، وَلَحِقُوا بِالْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وبقي عليهم حُكْمُ الْإِسْلَامِ، بإظهار شهادة اللسان، في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر، بما أظهرت من علامة الإسلام؛ إذ لم يُجْعَلْ للبشر سبيلٌ إلى السرائر، وَلَا أُمِرُوا بِالْبَحْثِ عَنْهَا؛ بَلْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ التَّحَكُّمِ عَلَيْهَا؛ وَذَمَّ ذَلِكَ.

١١٤٢ - وقال: «هَلَا شَقَّقَتْ عَنْ قَلْبِهِ» [مسلم (٩٦)، البخاري (٦٨٧٢)].

وللفرق بين القول والعقد ما جُعِلَ في حديث جبريل: الشَّهَادَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَالتَّصْدِيقُ مِنَ الْإِيمَانِ.

وبيت حالتان أُخْرَيَانِ بَيْنَ هَذَيْنِ:

١١٤٣ - إحداهما: أَنْ يُصَدِّقَ بِقَلْبِهِ ثُمَّ يُخْتَرَمَ قَبْلَ اتِّسَاعِ وَقْتِ الشَّهَادَةِ بِلِسَانِهِ؛ فَاخْتَلَفَ فِيهِ؛ فَشَرَطَ بَعْضُهُمْ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ الْقَوْلَ وَالشَّهَادَةَ بِهِ؛ وَرَأَى بَعْضُهُمْ مُؤْمِنًا مُسْتَوْجِبًا لِلْجَنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ» [الترمذي (٢٥٩٨)]؛ فَلَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَا فِي الْقَلْبِ.

وهذا مؤمنٌ بقلبه، غيرٌ عاصٍ ولا مفرطٌ بترك غيره.

وهذا هو الصحيح في هذا الوجه.

الثانية: أن يصدق بقلبه ويُطوّل مهلةً، وعلم ما يلزمه من الشهادة؛ فلم ينطق بها جملة ولا استشهد في عمره ولا مرة واحدة؛ فهذا اختلف فيه أيضاً؛ فقبل: هو مؤمن؛ لأنه مصدق، والشهادة من جملة الأعمال؛ فهو عاصٍ بتركها غير مخلّب في النار.

وقيل: ليس بمؤمن حتى يقارن عقده شهادة اللسان؛ إذ الشهادة إنشاء عقْد، والتزام إيمان؛ وهي مرتبطة مع العقد، ولا ينتم التصديق مع المهلة إلا بها. وهذا هو الصحيح.

وهذه نبذةٌ تفضي إلى مُتنع من الكلام في الإسلام والإيمان وأبوابهما، وفي الزيادة فيهما والنقصان، وهذا التجزي مُتنع على مجرد التصديق لا يصح فيه جملة؛ وإنما يرجع إلى ما رآه عليه من عمل، وقد يعرض فيه لاختلاف صفاته، وتباين حالاته؛ من قوة يقين، ونصميم اعتقاد، ووضوح مغرفة، ودوام حالة، وحضور قلب.

وفي بسط هذا خروجٌ عن غرض التأليف؛ وفيما ذكرنا غيبة فيما قصدنا إن شاء الله.

فصل

في وجوب طاعته ﷺ

وأما وجوب طاعته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به؛ قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَسْنُورًا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال: ﴿وَلَا تَطِيعُوا نَهْتِدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَا أَلَيْنَاكَ الرَّسُولَ بِحَدِيثِهِ وَمَا نَهَلْنَاكَ عَنْهُ فَأَتَيْتَهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب؛ وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه. قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به. وقالوا: وما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه. وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه. وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام؛ فقال: ﴿وَمَا أَمَّاكُمْ الرَّسُولُ فَحُذُّوه﴾ [الحشر: ٧].

وقال السمرقندي: يقال: أطيعوا الله في فرائضه، والرسول في سنته. وقيل: أطيعوا الله فيما حرم عليكم، والرسول فيما بلغكم. ويقال: أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية، والنبى بالشهادة له بالنبوة. ١١٤٤ - حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراعتي عليه، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن: علي بن محمد بن خلف، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي» [البخاري (٧١٣٧)، مسلم (١٨٣٥)].

فطاعة الرسول من طاعة الله؛ إذ الله أمر بطاعته؛ فطاعته امتثال لما أمر الله به، وطاعة له.

وقد حكى الله عن الكفار في ذركات جهنم: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَلَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الاحزاب: ٦٦]؛ فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

١١٤٥ - وقال عليه السلام: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» [البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧)].

١١٤٦ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه عليه السلام: «كُلُّ أَمْنِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى».

قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» [البخاري (٧٢٨٠)].

١١٤٧ - وفي الحديث الآخر الصحيح، عنه عليه السلام: «مِثْلِي وَمِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمُ! إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي، وَإِنِّي أَنَا التَّدْبِيرُ الْغَرِيبَانِ، فَالْتَجَاءُ؛ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَتَنَجُوا؛ وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَمْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ؛ فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَطَاعَنِي، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمِثْلُ مَنْ غَضَّانِي وَكَذَبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» [البخاري (٧٢٨٣)، مسلم (٢٢٨٣)].

١١٤٨ - وفي الحديث الآخر في مثله: «كَمِثْلِ مَنْ بَنَى ذَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدِبَةً، وَبَعَثَ ذَاعِيًّا؛ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدِبَةِ؛ وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدِبَةِ؛ فَالِدَارُ: الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِيَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ؛ وَمُحَمَّدٌ فَرَقَ بَيْنَ النَّاسِ» [البخاري (٧٢٨١)].

فصل

فِي وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَامْتِنَالِ سُنَّتِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ

وأما وجوب اتِّبَاعِهِ وَامْتِنَالِ سُنَّتِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].
وقال: ﴿فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الَّذِي آتَيْنِي الَّذِي يَوْمُتُ بِاللَّهِ وَكَانَ نَبِيًّا وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُحْكَمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي ينفقون لحكمك؛ يقال: سلم، واستسلم، وأسلم؛ إذا انقاد.

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الاحزاب: ٢١].

قال محمد بن علي الثرمذي: الأسوة في الرسول الاقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل.

وقال غير واحد من المفسرين بمعناه.

وقيل: هو عتاب للمتخلفين عنه.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

قال: بمتابعة السنة؛ فأمرهم تعالى بذلك، ووعدهم الاهتداء باتباعه؛ لأن الله

تعالى أرسله بالهدى ودين الحق لِيُزَكِّيَهُمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى وَمَغْفِرَتِهِ إِذَا أَتَبَعُوهُ، وَأَثَرُوهُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَمَا تَجَنَّحُوا إِلَيْهِ نَفْسُهُمْ؛ وَأَنَّ صِحَّةَ إِيْمَانِهِمْ بَانْقِيَادِهِمْ لَهُ، وَرِضَاهُمْ بِحُكْمِهِ، وَتَرْكُ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ.

١١٤٩ - وَرَوَى عَنْ الْحَسَنِ أَنَّ أَقْوَامًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا نَحِبُّ اللَّهَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَرَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي كُفْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ؛ وَنَحْنُ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

وَقَالَ الرَّجُلُ: مَعْنَاهُ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ - إِنْ تَقْصِدُوا طَاعَتَهُ - فَافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ؛ إِذْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ: طَاعَتُهُ لِهَئَا، وَرِضَاهُ بِمَا أَمَرَ؛ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُمْ عَفْوُهُ عَنْهُمْ، وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ.

وَيُقَالُ: الْحُبُّ مِنَ اللَّهِ عَصْمَةٌ وَتَوْفِيقٌ؛ وَمِنْ الْعِبَادِ طَاعَةٌ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: تَغْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظَاهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَا طُغْفَاءَ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ وَيُقَالُ: مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعْظِيمُهُ لَهُ وَهَيْبَتُهُ مِنْهُ؛ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُ رَحْمَتُهُ لَهُ، وَإِرَادَتُهُ الْجَمِيلَ لَهُ؛ وَتَكُونُ بِمَعْنَى مَدْحِهِ وَثَنَانِهِ عَلَيْهِ.

قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: فَإِذَا كَانَ بِمَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَدْحِ كَانَ مِنْ صِفَاتِ الْذَاتِ. وَسَيَأْتِي بَعْدَ فِي ذِكْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ غَيْرُ هَذَا بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

١١٥٠ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرِ الْفَقِيهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَصْبَغِ: عِيسَى بْنُ مَهْلٍ، وَحَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: يُونُسُ بْنُ مُغِيثِ الْفَقِيهِ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَفْصِ الْجُهَنِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْأَجْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الْجَوْزِيُّ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ، وَخُجْرٍ الْكَلَاعِيِّ، عَنْ الْعِزْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ فِي حَدِيثِهِ فِي مَوْعِظَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَمُخَدَّنَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُخَدَّنَةٍ بِذَعَةٍ وَكُلُّ بِذَعَةٍ ضَلَالَةٌ» [ابن داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢)، (٤٣)].

١١٥١ - زاد في حديث جابر بمعناه: «وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» [مسلم (٨٦٧)].

السائي (١٨٩/٣) ..

١١٥٢ - وفي حديث أبي رافع عنه عليه السلام: «لَا أَلْفَبِيَّ أَحَدَكُمْ مَثَكُنًا عَلَى أَرِيكْتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَتَبَغْتَاهُ» [أبو داود (٤٦٠٥)، الترمذي (٢٦٦٣)، ابن ماجه (١٣)، أحمد (٨/٦)].

١١٥٣ - وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «صَغَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا تَرَخَّصَ فِيهِ، فَتَرَهُ عَنْهُ قَوْمٌ، فَيُلَاحِظُونَ ذَلِكَ الشَّيْءَ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ قَوْمٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟ فَوَاللَّهِ إِنْني لَأَغْلِبُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» [البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦)].

١١٥٤ - وزوي عنه عليه السلام أنه قال: «الْقُرْآنُ صَغْبٌ مُسْتَضْعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ، وَهُوَ الْحَكْمُ؛ فَمَنْ اسْتَمْسَكَ بِحَدِيثِي وَفَهِمَهُ وَحَفِظَهُ جَاءَ مَعَ الْقُرْآنِ؛ وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْقُرْآنِ وَحَدِيثِي خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، أَمَرْتُ أُمَّتِي أَنْ يَأْخُذُوا بِقَوْلِي، وَيَنْطَبِغُوا بِأَمْرِي، وَيَتَّبِعُوا سُنَّتِي؛ فَمَنْ رَضِيَ بِقَوْلِي فَقَدْ رَضِيَ بِالْقُرْآنِ» قال الله تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

١١٥٥ - وقال عليه السلام: «مَنْ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

١١٥٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كِتَابَ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيَ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَدَّنَاتُهَا» [مسلم (٨٦٧)، ابن ماجه (٤٥)].

١١٥٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، فَمَا سَوَّى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ فَحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» [أبو داود (٢٨٨٥)، ابن ماجه (٥٤)].

١١٥٨ - وعن الحسن بن أبي الحسن رضي الله عنه: قال عليه السلام: «عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ».

١١٥٩ - وقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخُلُ الْعَبْدَ الْجَنَّةَ بِالسُّنَّةِ تَمَسُّكَ بِهَا».

١١٦٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «الْمُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فُسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مِثَّةٍ شَهِيدٍ».

١١٦١ - وقال عليه السلام: «إِنَّ بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّةً؛ وَإِنَّ أُمَّتِي تَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قالوا: وَمَنْ هُمْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي» [الترمذي (٢٦٤١)].

١١٦٢ - وعن أنس: قال عليه السلام: «مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ».

١١٦٣ - وعن عُمَرُو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لبلال بن الحارث: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أَمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْآخِرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً؛ وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا تَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئاً» [الترمذي (٢٦٧٧)، ابن ماجه (٢١٠)].

فصل

فِي مَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ

مِنْ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وَسِيرَتِهِ ﷺ

١١٦٤ - وأما ما ورد عن السَّلَفِ والأئمة من اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ والاقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وَسِيرَتِهِ، فَحَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو عِمْرَانَ: مُوسَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي تَلِيدٍ الْفَقِيهُ سَمَاعاً عَلَيْهِ: قال: حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الْحَافِظُ، قال: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ نَصْرٍ، حَدَّثَنَا قَاسِمُ بْنُ أَضْبَغٍ، وَوَهْبُ بْنُ مَسْرُةٍ؛ قالوا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ - أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنَّا نَجِدُ صَلَاةَ الْخَوْفِ، وَصَلَاةَ الْحُضُرِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا نَجِدُ صَلَاةَ السَّفَرِ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: يَا بَنَ أَخِي! إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَلَا نَعْلَمُ شَيْئاً؛ فَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَاهُ يَفْعَلُ [ابن ماجه (١٠٦٦)، النسائي (١١٦-١١٧)].

١١٦٥ - وقال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَلَاةُ الْأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَّتاً، الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ بكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتِعْمَالُ لُطَاةِ اللَّهِ، وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا التَّنْظُرُ فِي رَأْيٍ مَنْ خَالَفَهَا؛ مَنْ اقْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُتَهَيِّدٌ، وَمَنْ انْتَصَرَ بِهَا مِنْصُورٌ، وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاَهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى، وَأَضْلَاهُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

١١٦٦ - وقال الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةِ خَيْرٍ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ.

١١٦٧ - وقال ابنُ شِهَاب: بلغنا عن رجالٍ من أهلِ العلم، قالوا: الاعتصامُ بالسنةِ نِجاةٌ.

١١٦٨ - وكتبَ عُمَرُ بن الخطاب إلى عُمَالِهِ بتعلِّمِ السنةِ والفرائضِ واللُّحْنِ. أي: اللغة.

١١٦٩ - وقال: إِنَّ نَاساً يَجَادِلُونَكُمْ - يعني: بالقرآن - فخذوهم بالسُّنَنِ؛ فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ.

١١٧٠ - وفي خبره حينَ صلَّى بذي الحُلَيْفَةِ رُكْعَتَيْنِ، فقال: أَصْنَعُ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ [مسلم (٦٩٢)].

١١٧١ - وعن عليٍّ - حينَ قرَأَ - فقال له عُثْمَانُ: تَرَى أَنِي أَنْتَهَيْتُ النَّاسَ عَنْهُ وَتَفْعَلُهُ؟ قال: لَمْ أَكُنْ أَذْعُ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ [البخاري (١٥٦٣)، مسلم (١٢٢٣)].

١١٧٢ - وعنه: أَلَا إِنِّي لَسْتُ بِنَبِيٍّ وَلَا يُوحَى إِلَيَّ، وَلَكِنْ أَعْمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا اسْتَطَعْتُ.

١١٧٣ - وكان ابنُ مسعود يقول: القَصْدُ في السنةِ خيرٌ من الاجتهادِ في البدعة.

١١٧٤ - وقال ابنُ عُمَرَ: صلاةُ السفرِ ركعتان؛ مَنْ خالفَ السنةَ كَفَرَ.

١١٧٥ - وقال أبيُّ بن كَعْبٍ: عليكم بالسَّيْلِ والسُّنَّةِ؛ فَإِنَّهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّيْلِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ ففَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خُشْيَةِ رَبِّهِ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ أَبَدًا؛ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّيْلِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ فَاقْشَعَرَ جِلْدُهُ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ قَدْ يَبَسَ وَرَقُهَا؛ فَهِيَ كَذَلِكَ، إِذْ أَصَابَتْهَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَتَحَاتَّ عَنْهَا وَرَقُهَا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا؛ فَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سَبِيلِ وَسْئَةٍ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلِ وَسْئَةٍ، وَمُوَافَقَةٌ بِدْعَةٍ، وَانظُرُوا أَنْ يَكُونَ عَمَلُكُمْ - إِنْ كَانَ اجْتِهَادًا وَاقْتِصَادًا - أَنْ يَكُونَ عَلَى مِثْلِ هَاجِ الْأَنْبِيَاءِ وَسُتْتِهِمْ.

١١٧٦ - وكتبَ بعضُ عُمَالِ عُمَرَ بن عبد العزيز إلى عُمَرَ بِحَالِ بَلَدِهِ، وَكَثْرَةِ لُصُوصِهِ؛ هَلْ يَأْخُذُهُم بِالظُّلْمَةِ، أَوْ يَخْمِلُهُمْ عَلَى الْبَيِّنَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ؟

فكتبَ إليه عُمَرُ: خُذْهُمْ بِالْبَيِّنَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ؛ فَإِنْ لَمْ يُصْلِحْهُمْ الْحَقُّ فَلَا أَصْلِحْهُمْ اللَّهُ.

١١٧٧ - وعن عطاء، في قوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

١١٧٨ - وقال الشافعي: ليس في سنة رسول الله ﷺ إلا اتباعها.

١١٧٩ - وقال عمر - ونظر إلى الحجر الأسود -: والله! إنك حجر لا تنفع ولا تضر؛ ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلُك ما قبلْتُك [البخاري (١٥٩٧)، مسلم (١٢٧٠)]؛ ثم قبله.

١١٨٠ - ورئي عبد الله بن عمر يُدير ناقته في مكان، فسُئل عنه، فقال: لا أدري؟ إلا أنني رأيت رسول الله ﷺ فعله، ففعلته [أحمد (١٢٨)].

١١٨١ - وقال أبو عثمان الجيري: مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بِالْبُذْعَةِ.

١١٨٢ - وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.

١١٨٣ - وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُمْ﴾ [فاطر: ١٠] - إنه الاقتداء برسول الله ﷺ.

١١٨٤ - وحكي عن أحمد بن حنبل؛ قال: كُنْتُ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ تَجَرَّدُوا وَدَخَلُوا الْمَاءَ، فَاسْتَعْمَلْتُ الْحَدِيثَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْخُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِيَمْنٍ» [الترمذي (٢٨٠٢)، النسائي (١٩٨/١)] ولم أتجرّد؛ فَرَأَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَائِلًا لِي: يَا أَحْمَدُ! أَبَشِّرْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ بِاسْتِعْمَالِكَ السُّنَّةِ، وَجَعَلَكَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِكَ.

قلت: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل.

فصل

فِي أَنْ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ ﷺ وَتَبْدِيلُ سُنَّتِهِ ضَلَالٌ وَبِذْعَةٌ

ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلالٌ وبيذعةٌ متوعد من الله تعالى عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا قَوْلَى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

١١٨٥ - حدثنا أبو محمد: عبد الله بن أبي جعفر، وعبد الرحمن بن عتاب

بقراءتي عليهما؛ قالاً: حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسبي، حدثنا أبو الحسن بن مسرور الدبائع، حدثنا أحمد بن أبي سليمان، حدثنا سُخْنُون بن سعيد، حدثنا ابن القاسم، حدثنا مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خرج إلى المقبرة... وذكر الحديث في صفة أمته؛ وفيه: «فَلْيَذْأَبْ رَجُلٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يَذْأَبُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمُّ! أَلَا هَلُمُّ!»

فيقال: إنهم قد بذلوا بغيرك. فأقول: فُسْخَقًا، فُسْخَقًا، فُسْخَقًا [البخاري (١٣٦)، مسلم (٢٤٩)].

١١٨٦ - وَرَوَى أَنَسُ بْنُ النَّبِيِّ ﷺ قال: «من رغب عن سُنتي فليس مني» [البخاري (٥٠٦٣)، مسلم (١٤٠١)].

١١٨٧ - وقال: «من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ» [البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨)].

١١٨٨ - وَرَوَى ابْنُ أَبِي رَافِعٍ، عن أبيه، عن النبي ﷺ؛ قال: «لَا أَلْفَبِيٌّ أَحَدُكُمْ مَتَكُنًا عَلَى أُرْسِيكِهِ بِأَنَّهُ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَفْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبِعْنَاهُ».

١١٨٩ - زَادَ فِي حَدِيثِ الْمَقْدَامِ: «أَلَا وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» [الترمذي (٢٦٦٤)، ابن ماجه (١٢)].

١١٩٠ - وقال عليه السلام - وحياً بكتاب في كَتَبٍ - «كَفَى بِقَوْمٍ خُنْفًا - أَوْ قَالَ: ضَلَالًا - أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَى غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، أَوْ كِتَابٍ غَيْرِ كِتَابِهِمْ، فَتَرَلْتُ: «أَوَّلَهُ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَمَرْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُنِيَ عَلَيْهِمْ لَكَ فِي ذَلِكَ لَرْحَمَةً وَلِكَرْهٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» ﴿٢١﴾ [العنكبوت: ٥١].

١١٩١ - وقال عليه السلام: «هَلَكَ الْمُتَنَطِفُونَ» [مسلم (٢٦٧٠)].

١١٩٢ - وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لَسْتُ نَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ؛ إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ [البخاري (٣٠٩٣)، مسلم (٥٤/١٧٥٩)].



الباب الثاني

في لزوم محبته عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنَوْنَ فِيهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فكفى بهذا حرصاً وتنبهاً ودلالةً وحجةً على إلزام محبته، ووجوب قرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها عليه السلام. إذ قرع تعالى مَنْ كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى ﴿فَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ...﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله. ١١٩٣ - أخبرنا أبو علي الغساني الحافظ فيما أجازنيه، وهو مما قرأته على غير واحد؛ قال: حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا أبو عبد الله: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن عبدالعزيز بن ضهيب، عن أنس رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [البخاري (١٥)، مسلم (٤٤)].

١١٩٤ - وعن أبي هريرة نحوه [البخاري (١٤)].

١١٩٥ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ» [البخاري (١٦)،

مسلم (٤٣)].

١١٩٦ - وعن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ.
فقال النبي ﷺ : «لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ».
فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ.

فقال له النبي ﷺ : «الآن، يَا عُمَرَا» [البخاري (٦٦٣٢)].
١١٩٧ - قال سَهْلٌ: مَنْ لَمْ يَزِ وَلَايَةَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَبَرَى نَفْسَهُ فِي مِلْكِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَا يَذُوقُ حِلَاوَةَ سُنَّتِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ...» الحديث.

فصل

فِي ثَوَابِ مَحَبَّتِهِ ﷺ

١١٩٨ - حدثنا أبو محمد بن عَتَّابٍ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ خُلْفٍ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ الْمَزْرُوزِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَنَسٍ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا أَغْدِثُ لَهَا؟» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْيَتْ» [البخاري (٦١٧١)، مسلم (١٦٤٤/٢٦٣٩)].

١١٩٩ - وعن صَفْوَانَ بْنِ قُدَامَةَ: هَاجَرْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَاولْنِي يَدَكَ أَبَايَعُكَ. فَنَاولَنِي يَدَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَحْبَبُكَ. قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

١٢٠٠ - وَرَوَى هَذَا اللَّفْظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ [البخاري (٦١٦٨)، مسلم (٢٦٤٠)].

١٢٠١ - وَأَبُو مُوسَى [البخاري (٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤١)].

١٢٠٢ - وَأَنَسُ [أَبُو دَاوُدَ (٥١٢٧)، التِّرْمِذِيُّ (٢٣٨٥)].

١٢٠٣ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ بِمَعْنَاهُ [أَبُو دَاوُدَ (٥١٢٦)].

١٢٠٤ - وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ حَسَنِ وَحُسَيْنٍ، فَقَالَ: «مَنْ

أَحْبَنِي وَأَحَبُّ هَذَيْنِ وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي ذَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ [الترمذي (٣٧٣٣)، أحمد (٧٧/١)].

١٢٠٥ - وَرَوِي أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي؛ وَإِنِّي لَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى أَجِيءَ فَنَنْظُرَ إِلَيْكَ؛ وَإِنِّي ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتِكَ، فَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتُهَا لَا أَرَاكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فَدَعَا بِهِ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ.

١٢٠٦ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: كَانَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَطْرِفُ، فَقَالَ: «مَا بِكَ؟» قَالَ: بِأَبِي وَأُمِّي! أَتَمَتُّعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعَكَ اللَّهُ بِتَفْضِيلِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

١٢٠٧ - وَفِي حَدِيثٍ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ».

فصل

فِيمَا رَوَى عَنِ السَّلَفِ وَالْأَيَمَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَشَوْقِهِمْ لَهُ

١٢٠٨ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي الشَّهِيدُ، حَدَّثَنَا الْعُذْرِيُّ، حَدَّثَنَا الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَشَدَّ أُمْتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي؛ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ» [مسلم (٢٨٣٢)].

١٢٠٩ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ [أحمد (١٥٦/٥)].
١٢١٠ - وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الصَّحَابَةِ فِي مِثْلِهِ.

١٢١١ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (١٢١)].

١٢١٢ - وَعَنْ عَبْدِ بَنَتِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ؛ قَالَتْ: مَا كَانَ خَالِدٌ يَأْوِي إِلَيَّ

فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يستبهم ويقول: هم أضلي وفضلي، واليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب! قبضي إليك، حتى يغلبه النوم.

١٢١٣ - وزوي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه - يعني: أباه أبا قحافة - وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك.

١٢١٤ - ونحوه عن عمر بن الخطاب؛ قاله للعباس: أن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب؛ لأن ذلك أحب إلى رسول الله ﷺ.

١٢١٥ - وعن ابن إسحاق: أن امرأة من الأنصار قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُدٍ مع رسول الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بخمد الله كما تحبين. قالت: أرونيهِ حتى أنظر إليه. فلما رآته قالت: كل مُصيبة تغذك جلل.

١٢١٦ - وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان حُبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله! أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظما.

١٢١٧ - وعن زيد بن أسلم: خرج عمر رضي الله عنه ليلة يحرس الناس، فرأى مضباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفّس صوّفاً، وتقول:

علني محمد صلاة الأبرار
صلني عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بك بالأسحار
يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل نجم مني وخبيبي السداز؟

تعني: النبي ﷺ.

فجلس عمر رضي الله عنه يبكي؛ وفي الحكاية طول.

١٢١٨ - وزوي أن عبد الله بن عمر خُبرَ رجله، فقيل له: اذكر أحب الناس إليك يزل عنك.

فصاح: يا محمداه! فانتشرت [الحاري (٩٦٧)].

١٢١٩ - ولما احتضر بلال رضي الله عنه نادى امرأته: واخرناها! فقال: واظرباها! غداً ألقى الأجنة، محمداً وحزبه.

١٢٢٠م - ومثله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

١٢٢٠ - وَيُرَوَّى أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اكْشِفِي لِي قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَكَشَفَتْ لَهَا، فَبَكَتْ حَتَّى مَاتَتْ.

١٢٢١ - وَلَمَّا أَخْرَجَ أَهْلُ مَكَّةَ زَيْدَ بْنَ الدَّثَنَةَ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، قَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ خَزِيمٍ: أَتَشُدُّكَ بِاللَّهِ يَا زَيْدُ! أَتُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ عِنْدَنَا مَكَانَكَ تُضْرَبُ عُنُقُهُ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ؟

فَقَالَ زَيْدٌ: وَاللَّهِ! مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي.

فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ.

١٢٢٢ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا آتَى النَّبِيَّ ﷺ حَلَفَهَا بِاللَّهِ: مَا خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ زَوْجٍ وَلَا رَغْبَةٍ بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ؛ وَمَا خَرَجْتُ إِلَّا حَبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

١٢٢٣ - وَوَقَفَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَ قَتْلِهِ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَقَالَ: كُنْتُ، وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ - صَوَامًا قَوَامًا تُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ.

فصل

فِي عِلَامَةِ مَحَبَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اعْلَمَنَّ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا آثَرَهُ، وَآثَرُ مُوَافَقَتِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي حُبِّهِ، وَكَانَ مُدْعِيًا. فَالصَّادِقُ فِي حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ تَظَهَّرَ عِلَامَاتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَأَوَّلُهَا: الْإِقْتِدَاءُ بِهِ وَاسْتِعْمَالُ سُنَّتِهِ، وَاتِّبَاعُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَالتَّأْدُّبُ بِآدَابِهِ فِي غُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَمُنَشِطُهُ وَمَكْرَهُهُ، وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَيُثَارُ مَا شَرَعَهُ وَخَصَّ عَلَيْهِ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ، وَمُوَافَقَةُ شَهْوَتِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وَاسْتِخَاطُ الْعِبَادِ فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

١٢٢٤ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ خَيْرُونَ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو يَغْلَى الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السُّنَجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا

محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب؛ قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني! إن قذرت علي أن تضيق وتضيي ليس في قلبك غش لأحد فافعل».

ثم قال لي: «يا بني! وذلك من سنتي، ومن أخيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة» [الترمذي (٢٦٧٨)].

فمن أنصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن حالقها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها.

١٢٢٥ - ودليله قوله عليه السلام للذي حذو في الحمر فلغنه بعضهم، وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلغنه، فإنه يحب الله ورسوله» [البخاري (٦٧٨٠)].

ومن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره له؛ فمن أحب شيئاً أكثر ذكره.

ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه؛ فكل حبيب يحب لقاء حبيه.

١٢٢٦ - وفي حديث الأشعرين عند قدومهم المدينة: أنهم كانوا يرتجزون: غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه.

١٢٢٧ - وتقدم قول بلال.

١٢٢٨ - ومثله قال عمار قبل قتله.

١٢٢٩ - وما ذكرناه من قصة خالد بن معدان.

ومن علاماته - مع كثرة ذكره - تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه.

قال إسحاق النجيب: كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقتضرت جلودهم وبكوا.

وكذلك كثير من التابعين. منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقاً إليه؛ ومنهم من يفعله تهيباً ونوفيراً.

ومنها محبته لمن أحب النبي ﷺ، ومن هو بسببه من أهل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار؛ وعداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم؛ فمن أحب شيئاً أحب من يحب.

١٢٣٠ - وقد قال - عليه السلام - في الحسن والحسين: «اللهم! إني أحبهما فأحبهما» [الترمذي (٣٧٨٢)].

١٢٣١ - وفي رواية، في الحسن: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحْبَبُهُ فَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ» [البخاري (٢١٢٢)، مسلم (٢٤٢١)].

١٢٣٢ - وقال: «مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ» [ابن ماجه (١٤٣)].

١٢٣٣ - وقال: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَخَذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ» [الترمذي (٣٨٦٢)، أحمد (٨٧/٤)].

١٢٣٤ - وقال في فاطمة رضي الله عنها: «إِنهَا بِضْعَةٌ مِنِّي، يُغْضِبُنِي مَا أَغْضَبَهَا» [البخاري (٣٧١٤)، مسلم (٢٤٤٩)].

١٢٣٥ - وقال لعائشة - في أسامة بن زيد -: «أَحْبِبْهُ فَإِنِّي أَحْبَبُهُ» [الترمذي (٣٨١٨)].

١٢٣٦ - وقال: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ؛ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُهُمْ» [البخاري (١٧)، مسلم (٧٤)].

١٢٣٧ - وفي حديث ابن عمر: «مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ».

فبالحقيقة، مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَحَبَّ كُلَّ شَيْءٍ يَحِبُّهُ. وهذه سيرة السلف حتى في المباحات وشهوات النفس.

١٢٣٨ - وقد قال أنس - حين رأى النبي ﷺ يتتبع الدُّبَاءَ من حَوَالِي الْقُصْعَةِ: «فَمَا زِلْتُ أَحِبُّ الدُّبَاءَ مِنْ يَوْمَئِذٍ» [البخاري (٢٠٩٢)، مسلم (٢٠٤١)].

١٢٣٩ - وهذا الحسن بن علي، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن جعفر أتوا سلمى، وسألوها أَنْ تَصْنَعَ لَهُمْ طَعَامًا مِمَّا كَانَ يُعْجِبُ النَّبِيَّ ﷺ.

١٢٤٠ - وكان ابنُ عمر يلبسُ النَّعَالَ السَّبْيِيَّةَ، وَيَضْبَعُ بِالْصُّفْرَةِ؛ إِذْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَقْعَلُ نَحْوَ ذَلِكَ [البخاري (٥٨٥١)، مسلم (١١٨٧)].

ومنها: بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، وَمَجَانِبَةُ مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ وَابْتَدَعَ فِي دِينِهِ، وَاسْتِقَالُ كُلِّ أَمْرٍ يَخَالِفُ شَرِيعَتَهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْدُ قَوْمًا يُمُوتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء أصحابه - عليه السلام - قد قتلوا أجيالهم في مرضاته، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم.

١٢٤١ - وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي: لو شئت لأتيك برأسيه، يعني أباه.

١٢٤٢ - ومنها أن يُحب القرآن الذي أتى به - عليه السلام - وهذنى به واعتدنى، وتخلق به حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» وحبه للقرآن: تلاوته، والعمل به وتفهمه.

ويحب سنته، ويقف عند حدودها.

قال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن؛ وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يدخر منها إلا زاداً ويُلغى إلى الآخرة.

١٢٤٣ - وقال ابن مسعود: لا يسأل أحد عن نفسه إلا القرآن؛ فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله.

ومن علامة حبه للنبي ﷺ: شقيقته على أمته، وتوضحه لهم، وسعيه في فضالهم، ورفع المضار عنهم؛ كما كان - عليه السلام - بالمؤمنين رؤوفاً رجيماً.

ومن علامة تمام محبته: زهد مذعبيها في الدنيا، وإثارة الفقر واتصافه به.

١٢٤٤ - وقد قال - عليه السلام - لأبي سعيد الخدري: «إن الفقر إلى من يحبني منكم، أسرع من السبل من أعلى الوادي - أو الجبل - إلى أسفله» [أحمد (٤٢/٣)].

١٢٤٥ - وفي حديث عبد الله بن مفضل: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله! إني أحبك. فقال: «انظر ما تقول». فقال: والله! إني أحبك، ثلاث مرات. قال: «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافاً» [الترمذي (٢٣٥٠)].

ثم ذكر نحو حديث أبي سعيد بمعناه.

فصل

في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ، وكثرت عباراتهم في كل رواية وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال.

فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول عليه السلام. كأنه التفت إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[آل عمران: ٣١].

وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقادُ نضرته، والدُّبُّ عن سُنَّته، والانقياد لها، وهيبة مخالفتها.

وقال بعضهم: المحبة: دوام الذكر للمحجوب.

وقال آخر: إيثار المحجوب.

وقال بعضهم: المحبة الشوق إلى المحجوب.

وقال بعضهم: المحبة مواطاة القلب لِمِرَادِ الرَّبِّ؛ يُحِبُّ مَا أَحَبَّ، وَيَكْرَهُ مَا كَرِهَ.

وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له.

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.

وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إمّا لاستلذاذه بإدراكه؛ كحُبِّ الصُّورة الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأشباهاها ممّا كُلُّ طَبِيعٍ سليم مائل إليها لموافقته، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة؛ كحُبِّ الصالحين، والعلماء، وأهل المعروف، والمأثور عنهم السَّيَرِ الجميلة، والأفعال الحسنة؛ فإنَّ طَبِيعَ الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى بلغ التعصبُ بقوم لقوم، والتشيعُ من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان، وهتك الحرم، واخترام النفوس.

أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه؛ فقد جُبلت النفوس على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا.

فإذا تقررَ لك هذا، نظرْتَ هذه الأسباب كلها في حقِّه عليه السلام فعلمت أنه عليه السلام جامعٌ لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

أما جمال الصورة والظاهر، وكمال الأخلاق والباطن، فقد قررنا منها قبل فيما مرَّ من الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مرَّ منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم، ورَحْمَتِهِ لهم، وهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَاسْتِقْذَاهُمْ بِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وَمُبَشِّرٌ وَنَذِيرٌ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فأي إحسانٍ أجلُّ قَدْرًا، وأعظمُ خَطَرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟ وأيُّ إفضالٍ أعظمُ منفعةً، وأكثرُ فائدةً من إنعامه على كافة المسلمين؟ إذ كان ذَرِيعَتَهُم إلى الهداية، ومُنْقِذَهُم من الغمابة، وداعِيَهُم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلَتَهُم إلى رَبِّهِم، وشفيعَهُم، والمتكَلِّم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السَرْمَد.

فقد استبان لك أنه عليه السلام مستوجبٌ للمحبة الحقيقية شرعاً بما قدمناه من صحيح الآثار، وعادةً وجبلةً بما ذكرناه آنفاً، لإفاضته الإحسان، وعمومه الإجمال؛ فإذا كان الإنسانُ يحبُّ مَنْ مَنَحَهُ في ذُنياه - مرةً أو مرتين - معروفاً، أو استنقذه من هَلَكَةٍ أو مَضَرَّةٍ مَذَّة، التأذي بها قليلٌ منقطع، فمَنْ منحه ما لا يبيدُ من النعيم، ووقاه ما لا يقنى من عذاب الجحيم أولى بالحب.

وإذا كان يُحِبُّ بالطَّبع مِلْكٌ لِحُسْن سيرته، أو حاكمٌ لما يؤثر من قَوامِ طريقته، أو قاضٍ بعيدُ الدار لما يُشاد مِنْ عِلْمه، أو كرم شيمته، فمَنْ جمع هذه الخصال على غايةٍ مراتب الكمال أحقُّ بالحب، وأولى بالميل.

١٢٤٦ - وقد قال عليّ رضي الله عنه في صفته ﷺ: مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ.

١٢٤٧ - وَذَكَرَ لَنَا عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَنْهُ مَحَبَّةً فِيهِ.

فصل

فِي وَجُوبِ مُنَاصَحَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].
قال أهل التفسير: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إِذَا كَانُوا مُخْلِصِينَ مُسْلِمِينَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ.

١٢٤٨ - حدثنا القاضي الفقيه أبو الوليد بقراءتي عليه، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا يوسف بن عبد الله، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، قال: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن عطاء بن يزيد، عن تميم الداري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ» ثلاث مرات. قالوا:

لَمَنْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»
[أبو داود (٤٩٤٤)، مسلم (٥٥)].

قال الأئمة رحمهم الله: النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة: كلمة يُعْبَرُ بها عن جُفْلَةٍ إرادة الخير للمنصوح له؛ وليس يمكن أن يُعْبَرُ عنها بكلمة واحدة تحضرها. ومعناها في اللغة الإخلاص؛ من قولهم: نصحت العسل، إذا خلصته من شمعته.
وقال أبو بكر بن أبي إسحاق الخفاف: التَّضَحُّ فَعْلُ الشَّيْءِ الَّذِي بِهِ الصُّلَاحُ والملاءمة، مأخوذ من النَّصَاح؛ وهو الخيط الذي يُخَاطُ به الثوب.
وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه.

فنصيحة الله تعالى: صِحَّةُ الاعتقاد له بالوحدانية، ووضفه بما هو أهله، وتزنيته عما لا يجوز عليه، والرغبة في محابه، والبُعدُ من مساخطه، والإخلاص في عبادته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده، والتعظيم له، وتفهمه والتفقه فيه، والذب عنه من تأويل الغالين، وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه؛
قاله أبو سليمان.

وقال أبو بكر: وموازرتة ونُصْرَتُهُ وَجَمَائَتُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وإحياء سُنَّتِهِ بالطلب، والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة.

وقال أبو إبراهيم: إسحاق الثجبي: نصيحة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته، ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله، وكتابه ولرسوله، وإليها، وإلى العمل بها.

وقال أحمد بن محمد: من مفروضات القلوب اعتقاد النصيحة لرسول الله ﷺ.
قال أبو بكر الأجزري وغيره: النصح له يَقْتَضِي نُصْحِينَ؛ نُصْحًا فِي حَيَاتِهِ، وَنُصْحًا بَعْدَ مَمَاتِهِ؛ ففي حياته نُصْحُ أَصْحَابِهِ لَهُ بِالنُّصْرِ وَالْمُحَامَاةِ عَنْهُ وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ، وَبَذْلُ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ دُونَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَاهِدُوا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيمَنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَةً وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوفير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته، والتفقه في شريعته؛ ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته، وانحرف عنها، ويغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك. فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة، وعلامة من علاماتها كما قدمنا.

١٢٤٩ - وحكى الإمام أبو القاسم القشيري أن عمرو بن الليث - أحد ملوك خراسان، ومشاهير الثوار، المعروف: بالصفار - مات، فرثي في النوم؛ فقبل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقبل: بماذا؟ قال: سعدت ذروة جبل يوماً فأشرقت على جنودي فأعجبني كثرتهم، فتمنيت أني حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته؛ فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فطاعتهم في الحق، ومعونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه وتبيينهم على ما غفلوا عنه، وكتم عنهم، من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم. والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتبيين غافلهم، وتبصير جاهلهم، وزفد محتاجهم، وستر غوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم.



الباب الثالث

في تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَوُجُوبِ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾

[الأحزاب: ٤٥].

﴿لَتَتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

و: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْمَجْرَتِ أَكْثَرُهمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٢ - ٤].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب الله تعالى تَغْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ، وألزم إكرامه وتعظيمه.

قال ابن عباس: تُعَزِّرُوهُ: أي تُجِلُّوهُ. وقال المبرد: تُعَزِّرُوهُ: تبالغوا في

تعظيمه.

وقال الأخفش: تَنْصُرُونَهُ. وقال الطبري: تُعِينُونَهُ.

وَقُرِئَ: تُعَزِّرُوهُ - بزايين - من العز.

وَنَهَى عن التقدُّم بين يديه بالقول؛ وسوء الأدب بسبقه بالكلام، على قول ابن عباس وغيره؛ وهو اختيار ثعلب.

قال سهل بن عبد الله: لَا تُقُولُوا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ؛ وإذا قَالَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا.

وَنَهَى عن التقدُّم والتعجُّل بِقَضَاءِ أَمْرِ قَبْلَ قَضَائِهِ فِيهِ؛ وَأَنْ يَفْتَاتُوا بِشَيْءٍ فِي

ذلك مِنْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا يَسْبِقُوهُ بِهِ.

وَالِىَ هَذَا يَرْجِعُ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَمَجَاهِدٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ، وَالثَّوْرِيِّ.

ثُمَّ وَعَظَّمَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ مَخَالَفَةَ ذَلِكَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] قَالَ الْمَاوَزْدِيُّ: اتَّقُوا: يَعْنِي فِي التَّقَدُّمِ.

وَقَالَ السُّلَمِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي إِهْمَالِ حَقِّهِ وَتَضْيِيعِ حُرْمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِكُمْ، عَلِيمٌ بِفَعْلِكُمْ.

ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ زَفْعِ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ، وَالْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ.

وَقِيلَ: كَمَا يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِاسْمِهِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: مَكِّيٌّ: أَنِّي لَا تُسَابِقُوهُ بِالْكَلَامِ، وَتُغْلِظُوا لَهُ بِالْخِطَابِ وَلَا تُنَادُوهُ بِاسْمِهِ نِدَاءً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَلَكِنْ عَظَمُوهُ وَوَقَرُوهُ وَنَادَوْهُ بِأَشْرَفِ مَا يَحِبُّ أَنْ يُنَادَى بِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا نَبِيَّ اللَّهِ!

وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] عَلَى أَحَدِ الثَّوِيلِينَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: لَا تَخَاطِبُوهُ إِلَّا مُسْتَفْهِمِينَ.

ثُمَّ خَوَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِخَبْطِ أَعْمَالِهِمْ إِنْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْهُ.

١٢٥٠ - وَقِيلَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي وَفْدٍ مِنْ بَنِي - تَمِيمٍ - وَقِيلَ: فِي غَيْرِهِمْ؛ أَتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَنَادَوْهُ: يَا مُحَمَّدًا! يَا مُحَمَّدًا! أَخْرَجَ إِلَيْنَا. فَذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجَهْلِ، وَوَصَفَهُمْ بِأَنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَغْفِلُونَ.

١٢٥١ - وَقِيلَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي مُحَاوَرَةٍ كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتِلَافٍ جَرَى بَيْنَهُمَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصَوَاتُهُمَا [البخاري (٤٣٦٧)].

١٢٥٢ - وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي ثَابِتٍ بِنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ خَطِيبِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَفَاخِرَةِ بَنِي تَمِيمٍ، وَكَانَ فِي أَذُنَيْهِ صَمَمٌ؛ فَكَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ؛ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَقَامَ فِي مَنْزِلِهِ، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ خَبِطَ عَمَلُهُ؛ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ هَلَكْتُ؛ نَهَانَا اللَّهُ أَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ، وَأَنَا أَمْرٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا ثَابِتُ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخَلَ الْجَنَّةَ؟» [البخاري (٢٦١٣)، مسلم (١١٩)] فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ.

١٢٥٣ - وَزُيَّيَ أَنْ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا أَكَلِّمُكَ بَعْدَهَا إِلَّا كَأَخِي السَّرَارِ.

١٢٥٤ - وَأَنَّ عُمَرَ كَانَ إِذَا حَدَّثَهُ حَدَّثَهُ كَأَخِي السَّرَارِ؛ مَا كَانَ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ [البخاري (٧٣٠٢)].

١٢٥٥ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُلُونَ آصَوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣].

وقيل: نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ...﴾ [الحجرات: ٤] في غير بني تميم؛ نادوه باسمه.

١٢٥٦ - وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي سَفَرٍ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ: أَيَا مُحَمَّدًا! أَيَا مُحَمَّدًا! فَقُلْنَا لَهُ: اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ؛ فَإِنَّكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ [الترمذي (٢٣٨٧)].

وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا...﴾ [البقرة: ١٠٤]. قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار؛ نُهَوُا عَنْ قَوْلِهَا تَعْظِيماً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَبْجِيلاً لَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا: ازْعَنَّا نَزْعَكَ فُتْهُوا عَنْ قَوْلِهَا؛ إِذْ مُقْتَضَاهَا، كَأَنَّهُمْ لَا يَرْعَوْنَ إِلَّا بِرِعَايَتِهِ لَهُمْ؛ بَلْ حَقُّهُ أَنْ يُزْعَى عَلَى كُلِّ حَالٍ. وقيل: كانت اليهود تُعَرِّضُ بِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالرُّعُونَةِ؛ فَتُهَيِّ الْمُسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا؛ قَطْعاً لِلذَّرِيعَةِ، وَمَنْعاً لِلتَّشْبِيهِ بِهِمْ فِي قَوْلِهَا، لِمَشَارَكَةِ اللَّفْظِ. وقيل غَيْرُ هَذَا.

فصل

فِي عَادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعْظِيمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِجْلَالِهِ وَتَوْقِيرِهِ

١٢٥٧ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الصَّدْفِيُّ، وَأَبُو بَخْرٍ الْأَسَدِيُّ بِسْمَاعِيٍّ عَلَيْهِمَا فِي آخَرِينَ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَأَبُو مَعْنٍ الرَّقَاشِيُّ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا حَنِيوَةُ بْنُ شَرِيحٍ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ؛ قَالَ: خَضَرْنَا عَمْرُوَ بْنَ الْعَاصِ...

فَذَكَرَ حَدِيثاً طَوِيلاً فِيهِ عَنْ عَمْرُو، قَالَ: وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أَطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالاً

له؛ ولو سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لَأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ [مسلم (١٢١)].

١٢٥٨ - وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَهُمْ جُلُوسٌ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ؛ فَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَصَرَهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؛ فَإِنَّهُمَا كَانَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا، وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ، وَيَتَبَسَّمُ إِلَيْهِمَا [التِّرْمِذِيُّ (٣٦٦٨)، أَحْمَد (١٥٠/٣)].

١٢٥٩ - وَرَوَى أُسَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ؛ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ [أَبُو دَاوُدَ (٣٨٥٥)].

١٢٦٠ - وَفِي حَدِيثٍ صَفِيٍّ: إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جِلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

١٢٦١ - وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ وَجَّهَتْهُ قُرَيْشٌ عَامَ الْقَضِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَى مِنْ تَعْظِيمِ أَصْحَابِهِ لَهُ مَا رَأَى، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ، وَكَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا، وَلَا يَنْخُمُ نُخَامَةً إِلَّا تَلَفَّوْهَا بِأَكْفِهِمْ فَذَلَّكُوا بِهَا وُجُوهَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ؛ وَلَا تَسْقُطُ مِنْهُ شَعْرَةٌ إِلَّا ابْتَدَرُوهَا؛ وَإِذَا أَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ؛ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنِّي جِئْتُ بِمَسْرُئِي فِي مُلْكِهِ، وَقَيَّصَرُ فِي مُلْكِهِ، وَالتَّجَاشِي فِي مُلْكِهِ؛ وَإِنِّي، وَاللَّهِ! مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ [الْبُخَارِيُّ (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)].

وَفِي رَوَايَةٍ: إِنَّ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ مُحَمَّدًا أَصْحَابُهُ. وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسَلِّمُونَهُ أَبَدًا.

١٢٦٢ - وَعَنْ أَنَسٍ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْحَلَاقُ يَحْلُقُهُ، وَقَدْ أَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ [مسلم (٢٣٢٥)].

١٢٦٣ - وَمِنْ هَذَا لَمَّا أَذِنَتْ قُرَيْشٌ لِعُثْمَانَ فِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ حِينَ وَجَّهَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَبِي، وَقَالَ: مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٢٦٤ - وَفِي حَدِيثٍ طَلَحَةٍ: إِنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِأَعْرَابِي جَاهِلٍ: سَلُهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ - وَكَانُوا يَهَابُونَهُ وَيَوْقِرُونَهُ - فَسَأَلَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، إِذْ طَلَعَ طَلَحَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ» [التِّرْمِذِيُّ (٣٧٤٢)].

١٢٦٥ - وفي حديث قَيْلَةَ: فلما رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ جالِساَ القُرْصَاءَ أَرَعَدْتُ مِنَ الْفَرْقِ. وذلك هَيْبَةً لَهُ وَتَعْظِيماً.

١٢٦٦ - وفي حديث المغيرة: كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَفْرَعُونَ بَابَهُ بِالْأَظْفِيرِ.

١٢٦٧ - وقال البراء بن عازب: لقد كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ رسولَ الله ﷺ عن الأمرِ فَأَوْخَرَهُ سِنِينَ مِنْ هَيْبَتِهِ.

فصل

فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ

واعلم أَنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَتَوْقِيرَهُ وَتَعْظِيمَهُ، لَازِمٌ كَمَا كَانَ فِي حَالِ حَيَاتِهِ؛ وَذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَذِكْرِ حَدِيثِهِ وَسُنَّتِهِ، وَسَمَاعِ اسْمِهِ وَسِيرَتِهِ، وَمُعَامَلَةِ آلِهِ وَعِثْرَتِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ.

وقال أبو إبراهيم: إِسْحَاقُ التَّحِيْبِي: وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مَتَى ذَكَرَهُ - أَوْ ذَكَرَ عَنْدهُ - أَنْ يَخْضَعَ وَيَخْشَعَ، وَيَتَوَقَّرَ وَيَسْكُنَ مِنْ حَرَكَتِهِ، وَيَأْخُذَ فِي هَيْبَتِهِ وَإِجْلَالِهِ بِمَا كَانَ يَأْخُذُ بِهِ نَفْسُهُ لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ وَيَتَأَدَّبُ بِمَا أَدَّبَنَا اللَّهُ بِهِ.

قال القاضي أبو الفضل: وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضي الله عنهم أجمعين.

١٢٦٨ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عبد الرحمن الأشعري، وأبو القاسم: أحمد بن بقيّ الحاكم، وغير واحد، فيما أجازونيهِ؛ قالوا: حدثنا أبو العباس: أحمد بن عمر بن دِلْهَات قال: حدثنا أبو الحسن: علي بن فهر، حدثنا أبو بكر: محمد بن أحمد بن الفَرَج، حدثنا أبو الحسن: عبد الله بن المُنْتَاب، حدثنا يعقوب بن إِسْحَاق بن أَبِي إِسْرَائِيل، حدثنا ابْنُ حُمَيْدٍ؛ قال: ناظرَ أبو جَعْفَرٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكاً فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذَبَ قَوْماً فَقَالَ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وذم قوماً فقال: ﴿إِنَّ أَلَدِيكَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾
[الحجرات: ٤] وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مِثْلَ حُرْمَتِهِ حَيًّا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله! أأستقبل القِبْلَةَ وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم - عليه السلام - إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعه الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال مالك - وقد سئل عن أيوب السخيتاني -: إني ما حدثكم عن أحدٍ إلا وأيوب أفضل منه.

قال: وحج جحنتين، فكنت أزمقه ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرخمه!

فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه.

وقال مضعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه ويتحني حتى يضعب ذلك على جلسائه؛ فقل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم علي ما تزون؛ ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر - وكان سيد القراء - لا يكاد يسأله أحد عن حديث أبداً إلا يئكي حتى ترخمه.

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق، وكان كثير الدُعابة والتبسم؛ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ أضفر. وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة. وقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً؛ وإما يقرأ القرآن؛ ولا يتكلم فيما لا يغنيه؛ وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل.

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم، ولقد جف لسانه في فمه هيئة لرسول الله ﷺ.

ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينه دموع.

ولقد رأيت الزهري، وكان من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكانه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين؛ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

وَرُوي عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الْحَدِيثَ أَخَذَهُ الْعَوِيلُ وَالزَّوِيلُ.
ولما كَثُرَ عَلَى مَالِكٍ النَّاسُ قِيلَ لَهُ: لَوْ جَعَلْتَ مُسْتَمْلِيًا يُسْمِعُهُمْ؟ فَقَالَ:
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].
وَحُزِمَتْهُ حَيًّا وَمَيِّتًا سِوَاهُ.

وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ رُبَّمَا يَضْحَكُ؛ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ خَشَعَ.
وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ إِذَا قَرَأَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ أَمَرَهُمُ بِالسَّكُوتِ؛
وَقَالَ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] وَيَتَأَوَّلُ أَنَّهُ يَجِبُ لَهُ مِنَ
الْإِنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ حَدِيثِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عِنْدَ سَمَاعِ قَوْلِهِ.

فصل

فِي سِيرَةِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ

١٢٦٩ - حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْفَضْلِ بْنُ خَيْرُونَ،
حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْبَرْقَانِيُّ، وَغَيْرُهُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ الدَّارِقُطَنِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ
مُبَشَّرٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَيَّانٍ الْقَطَّانُ، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا
الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ؛ قَالَ: اخْتَلَفْتُ إِلَى ابْنِ
مَسْعُودٍ سَنَةً؛ فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَّا أَنَّهُ حَدَّثَ يَوْمًا فَجَرِي
عَلَى لِسَانِهِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ عَلَاةَ كَرْبٍ، حَتَّى رَأَيْتُ الْعَرَقَ يَتَحَدَّرُ عَنْ
جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ فَوْقَ ذَا، أَوْ مَا دُونَ ذَا، أَوْ مَا هُوَ
قَرِيبٌ مِنْ ذَا.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَرَبَّدَ وَجْهَهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ تَغَرَّغَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرَيْمٍ الْأَنْصَارِيُّ، قَاضِي الْمَدِينَةِ: مَرَّ مَالِكُ بْنُ
أَنْسَ عَلَى أَبِي حَازِمٍ، وَهُوَ يَحْدُثُ، فَجَازَهُ، وَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا أَجْلِسُ
فِيهِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَخْذَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا قَائِمٌ.

وَقَالَ مَالِكُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ الْمُسَيَّبِ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ،
فَجَلَسَ وَحَدَّثَهُ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فَقَالَ: إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ
أُحَدِّثَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ.

وَرُوي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ يَضْحَكُ، إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ حَدِيثُ
النَّبِيِّ ﷺ خَشَعَ.

وقال أبو مُضْعَب: كان مالك بن أنس لا يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وهو على وُضوءٍ، إجلالاً له.

وحكى مالك ذلك عن جعفر بن محمد الصادق.

وقال مُضْعَب بن عبد الله: كان مالك بن أنس إذا حَدَّثَ عن رسولِ الله ﷺ تَوْضُأً وَتَهَيَّأً، وَلَبَسَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ يَحْدُثُ.

قال مُضْعَب: فَسُئِلَ عن ذلك، فقال: إنه حديثُ رسولِ الله ﷺ.

قال مُطَرِّف: كان إذا أتى الناسُ مالِكاً خَرَجَتْ إليهم الجاريةُ وتقول لهم: يقولُ لكم الشيخُ: تُريدون الحديثَ أو المسائلَ؟ فَإِنْ قالوا: المسائلُ خرج إليهم، وَإِنْ قالوا: الحديثُ، دخل مُغْتَسِلُهُ، فاغتسل وتطَيَّبَ، ولبس ثياباً جُوداً، ولبس ساجه وتعمَّم، ووضع على رأسه رداءه، وتلقَّى له مِنَصَّةً، فيخرج فيجلسُ عليها، وعليه الخشوع، ولا يزالُ يُبَخِّرُ بالعودِ حتى يَفْرُغَ مِنْ حديثِ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

قال غَيْرُهُ: ولم يكن يجلسُ على تلك المِنَصَّةِ إِلَّا إذا حَدَّثَ عن رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ أبي أُوَيْسٍ: فقيِلَ لمالك في ذلك، فقال: أُحِبُّ أَنْ أعْظِمَ حديثَ رسولِ الله ﷺ، ولا أُحَدِّثُ به إِلَّا على طهارةٍ مُتَمَكِّنًا.

قال: وكان يكرهُ أَنْ يَحْدُثَ في الطريق، أو وهو قائم، أو مُسْتَعْجِل.

وقال: أُحِبُّ أَنْ أَفْهَمَ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

قال ضَرَّازُ بن مُرَّة: كانوا يكرهون أَنْ يَحْدُثُوا بِحَدِيثِ على غير وُضوءٍ. وَنَحْوُهُ عن قَتَادَةَ.

وكان الأعمشُ إذا أَحَبَّ أَنْ يَحْدُثَ وهو على غير وُضوءٍ تَيْمَمَ.

وكان قَتَادَةُ لا يَحْدُثُ إِلَّا على طهارةٍ، ولا يقرأُ حديثَ النبي ﷺ إِلَّا على وُضوءٍ.

قال عبد الله بن المبارك: كنتُ عند مالك، وهو يَحْدُثُنا، فلدغته غُفْرَبٌ سِتْ عَشْرَةَ مَرَّةً، وهو يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَضْفَرُ ولا يَقْطَعُ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

فلما فرغ من المجلس، وتفرَّقَ عنه الناسُ قلتُ له: يا أبا عبد الله! لقد رأيتُ منك اليومَ عَجَباً؟ قال: نَعَمْ لَدَغَتْني عقرب سِتْ عَشْرَةَ مَرَّةً، وأنا صابرٌ في جميع ذلك؛ وإنما صَبِرْتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ مهدي: مشيت يوماً مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديثٍ،

فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجل من أن تسألني عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقبل له: إنه قاض! قال: القاضي أحق من أدب.

وذكر أن هشام بن الغازي سأل مالكا عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطاً، ثم أشفق عليه فحدثه عشرين حديثاً؛ فقال هشام: وددت لو زادني سيطاً ويزيدني حديثاً.

قال عبد الله بن صالح: كان مالك والليث لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران.

وكان قتادة يستحب ألا يقرأ أحاديث النبي ﷺ إلا على وضوء، ولا يحدث به إلا على طهارة.

وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم.

فصل

ومن توقيره ﷺ وبزه، برأيه وذريته

وأهبات المؤمنين: أزواجه، كما حض عليه ﷺ،

وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَتْمَمَ لَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

١٢٧٠ - أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العذلي من كتابه، وكتبني من أصله، حدثنا أبو الحسن المقرئ القرطبي، حدثني أم القاسم بنت الشيخ أبي بكر الخفاف، قالت: حدثني أبي، حدثنا حاتم - وهو ابن عقيل -، حدثنا يحيى: هو ابن إسماعيل، حدثنا يحيى: هو الجعاني، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حبان، عن زيد بن أرقم؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدكم الله في أهل بيتي...» ثلاثاً.

قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل علي بن أبي طالب، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس [مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧١ - وقال عليه السلام: «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما» [الترمذي (٣٧٨٨)، مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧٢ - وقال عليه السلام: «معرفة آل محمد ﷺ براءة من النار، وحُب آل محمد ﷺ - جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب».

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي ﷺ، وإذا عرفتهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

١٢٧٣ - وعن عمر بن أبي سلمة: لما نزلت: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» [الأحزاب: ٣٣] - وذلك في بيت أم سلمة - دعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء، وعليّ خلف ظهره فجلله بكساء، ثم قال: «اللَّهُمَّ! هؤلاء أهل بيتي؛ فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً» [الترمذي (٣٧٨٧)].

١٢٧٤ - وعن سعد بن أبي وقاص: لما نزلت آية المباينة دعا النبي ﷺ عليّاً وحسناً وحسيناً وفاطمة، وقال: «اللَّهُمَّ! هؤلاء أهلي» [مسلم (٣٢/٢٤٠٤)].

١٢٧٥ - وقال النبي ﷺ في عليّ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ؛ اللَّهُمَّ! وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ».

١٢٧٦ - وقال فيه: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا ينفضك إلا منافق» [مسلم (٧٨)].

١٢٧٧ - وقال للعباس: «والذي نفسي بيده! لا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي؛ وَإِنَّمَا عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ» [الترمذي (٣٧٥٨)].

١٢٧٨ - وقال للعباس: «اغْذِ عَلِيَّ يَا عَمَّ! مَعَ وَلَدِكَ» فجمعهم وجللهم بملاءتبه، ثم قال: «هَذَا عَمِّي وَصِنُو أَبِي؛ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَاسْتَرْهَمِ اللَّهُمَّ! مِنَ النَّارِ كَسْتَرِي إِيَّاهُمْ» فَأَمَّتْ أَسْكُفَةُ الْبَابَ وَحَوَّاطُ الْبَيْتِ: آمِينَ. آمِينَ.

١٢٧٩ - وكان يأخذ أسامة بن زيد، والحسن؛ ويقول: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحْبَبُهُمَا فَأَجِبْهُمَا» [البخاري (٣٧٣٥)].

١٢٨٠ - وقال أبو بكر: ازُقُّوا محمداً في أهل بيته [البخاري (٣٧١٣)].

١٢٨١ - وقال أيضاً: والذي نفسي بيده! لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي [البخاري (٣٧١٢)، مسلم (١٧٥٩)].

١٢٨٢ - وقال ﷺ: «أَحَبُّ إِلَهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا» [الترمذي (٣٧٧٥)، ابن ماجه (١٤٤)].

١٢٨٣ - وقال: «من أحبني وأحب هذين - وأشار إلى حسن وحسين وأباهما وأُمهما - كان معي في درجتي يوم القيامة».

١٢٨٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ أَهَانَ قُرَيْشاً أَهَانَهُ اللَّهُ» [أحمد (٦٤/١)].

١٢٨٥ - وقال ﷺ: «قَدِّمُوا قُرَيْشاً وَلَا تَقْدِّمُوها».

١٢٨٦ - وقال عليه السلام لَأُمِّ سَلَمَةَ: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ» [البخاري

(٢٥٨١)، مسلم (٢٤٤٢)].

١٢٨٧ - وعن عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ: رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ جَعَلَ

الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ: بِأَبِي شَيْبَةَ النَّبِيِّ، لَيْسَ شَيْبَةً بَعْلِي، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضْحَكُ [البخاري (٣٧٥٠)].

١٢٨٨ - وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ، قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ

- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَاجَةٍ، فَقَالَ لِي: إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَأَرْسِلْ إِلَيَّ أَوْ اكْتُبْ؛ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَاكَ عَلَيَّ بَابِي.

١٢٨٩ - وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: صَلَّى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى جَنَازَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ قُرِّبَتْ لَهُ

بَغْلَتُهُ لِيَرْكَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ؛ فَقَالَ زَيْدٌ: خَلِّ عَنْهُ، يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: هَكَذَا نَفْعَلُ بِالْعُلَمَاءِ. فَقَبِلَ زَيْدٌ يَدَ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا.

١٢٩٠ - وَرَأَى ابْنُ عُمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ؛ فَقَالَ: لَيْتَ هَذَا عَبْدِي؛

فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَسَامَةَ. فَقَطَّاعًا ابْنُ عُمَرَ رَأْسَهُ، وَنَقَرَ يَدَهُ الْأَرْضَ، وَقَالَ: لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَخْبَهُ [البخاري (٣٧٣٤)].

١٢٩١ - وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: دَخَلْتُ بَيْتَ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - صَاحِبِ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَعَهَا مَوْلى لَهَا يُنْسِكُ بِيَدِهَا، فَقَامَ لَهَا عُمَرُ، وَمَشَى إِلَيْهَا حَتَّى جَعَلَ يَدَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَدَاهُ فِي ثِيَابِهِ، وَمَشَى بِهَا حَتَّى أَجْلَسَهَا عَلَى مَجْلِسِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا تَرَكَ لَهَا مِنْ حَاجَةٍ إِلَّا قَضَاهَا.

١٢٩٢ - وَلَمَّا قَرَضَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ،

وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِ مِئَةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَبِيهِ: لِمَ فَضَّلْتَهُ؟ فَوَاللَّهِ! مَا سَبَقَنِي إِلَيْهِ مَشْهَدٌ. فَقَالَ لَهُ: لِأَنَّ زَيْدًا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبِييكَ، وَأَسَامَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْكَ؛ فَأَثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حُبِّي [الترمذي (٣٨١٣)].

١٢٩٣ - وَبَلَغَ معاوية: أَنَّ كَابِسَ بْنَ زَيْبَةَ يُشَبِّهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَمَّا دَخَلَ

عليه من باب الدار قام عن سريرته، وتلقاه، وقبل بين عينيه، وأقطعته المِرْغَابَ لِشَبْهِهِ بِصُورَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢٩٤ - وَرَوَى أَنْ مَالِكاً - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا ضَرَبَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَنَالَ مِنْهُ مَا نَالَ، وَحُمِلَ مُغْشًى عَلَيْهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ ضَارِي فِي جِلِّ.

فَسُئِلَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: جِئْتُ أَنْ أَمُوتَ، فَأَلْفَى النَّبِيَّ ﷺ، فَاسْتَجَى مِنْهُ أَنْ يَدْخُلَ يَغْضُ أَلِي بِسَبِي النَّارِ.

١٢٩٥ - وَقِيلَ: إِنَّ الْمَنْصُورَ أَقَادَهُ مِنْ جَعْفَرٍ، فَقَالَ لَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ! وَاللَّهِ! مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا سِوْطٌ عَنْ جَسَمِي إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُهُ فِي جِلِّ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢٩٦ - وَقَالَ أَبُو بَكْرُ بْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ أَنَّنِي عَلِي وَعُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ لَبَدَأْتُ بِحَاجَةِ عَلِي قَبْلَهُمَا؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلَأَنْ أُخْرِجَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقَدِّمَهُ عَلَيْهِمَا.

١٢٩٧ - وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَاتَتْ فُلَانَةٌ - لِبَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ - فَسَجَدَ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَتَسْجُدُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمْ آيَةً فَاسْجُدُوا»، وَأَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَهَابِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ؟ [أَبُو دَاوُدَ (١١٩٧)، التِّرْمِذِيُّ (٣٨٩١)].

١٢٩٨ - وَكَانَ أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ يَزُورَانِ أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولَانِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا [مُسْلِمَ (٢٤٥٤)].

١٢٩٩ - وَلَمَّا وَرَدَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَسَطَ لَهَا رِدَاعَهُ وَقَضَى حَاجَتَهَا.

فَلَمَّا تَوَقَّفِي وَفَدْتِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَصَنَعَا بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ.

فصل

وَمِنْ تَوْفِيرِهِ وَبِرِّهِ ﷺ تَوْفِيرُ أَصْحَابِهِ وَبِرُّهُمْ وَمَعْرِفَةُ حَقِّهِمْ، وَالِاتِّقَاءُ بِهِمْ، وَحَسَنُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَالِإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَمُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُمْ، وَالِإِضْرَابُ عَنْ أَخْبَارِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَجَهْلَةُ الرُّوَاةِ، وَضَلَالُ الشَّيْخَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ الْقَادِحَةِ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ وَأَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ - فِيمَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ - فِيمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفِتَنِ - أَحْسَنُ التَّأْوِيلَاتِ، وَيُخْرِجَ لَهُمْ أَضَوُّبَ الْمَخَارِجِ. إِذْ هُمْ أَهْلُ ذَلِكَ، وَلَا يُذَكَّرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسُوءٍ، وَلَا يُغْتَضَّ

عليه أمره، بل يُذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم، وتُسكت عما ورأه ذلك.

١٣٠٠ - كما قال عليه السلام: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا».

قال الله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَقْتَضُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِنْهُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُكَ فِي الْإِغْيَالِ كَرَجٍ أَخْرَجَ شَطَقُهُمْ أَقَارِدُ فَأَسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِضْوَانًا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].
وقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بِبَيْلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٣٠١ - حدثنا القاضي أبو علي، حدثنا أبو الحسين، وأبو الفضل؛ قالوا: حدثنا أبو يعلى، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسن بن الصباح، حدثنا سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربيعة بن جراش، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَقْتُلُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ» [الترمذي (٣٨٠٤)، ابن ماجه (٩٧)، أحمد (٢٨٥/٥)].

١٣٠٢ - وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

١٣٠٣ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أَصْحَابِي كَمَثَلِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ؛ وَلَا يَصْلُحُ الطَّعَامُ إِلَّا بِهِ».

١٣٠٤ - وقال: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي؛ لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي؛ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبْغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يَوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

١٣٠٥ - وقال: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَذَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» [البخاري (٣٦٧٣)، مسلم (٢٥٤)، (٢٥٤١)].

١٣٠٦ - وقال: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

١٣٠٧ - وقال: «إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابِي فَأَنْصِبُوا».

١٣٠٨ - وقال في حديث جابر: «إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَاخْتَارَ لِي مِنْهُمْ أَرْبَعَةً: أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا؛ فَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أَصْحَابِي، وَفِي أَصْحَابِي كُلِّهِمْ خَيْرٌ».

١٣٠٩ - وقال: «مَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي».

١٣١٠ - وقال مالك بن أنس، وغيره: مَنْ أَبْغَضَ الصَّحَابَةَ وَسَبَّهِمْ فَلَيْسَ لَهُ فِي فِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ حَقٌّ، وَنُزِعَ بَابُ الْحَشْرِ: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْبِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا هَانَتْكُمْ الْأَرْسُلُ فَخَذُّوهُ وَمَا تَنْهَكُمْ عَنْهُ فَأْتُوهُ وَأَتَّفِقُوا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ②﴾ إِلَى قَوْلِهِ نَعَالِي: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ③﴾ [الحشر: ٦ - ١٠].

١٣١١ - وقال: مَنْ غَاظَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ كَافِرٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيَغِيظَهُمُ الْكُفَّارُ﴾ [الفتح: ٢٩].

١٣١٢ - وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: خَضَلْتَانِ مَنْ كَانَتْ فِيهِ نَجَا: الصَّدُوقُ، وَحُبُّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٣١٣ - وقال أيوب السُّخْتِيَانِي: مَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَوْضَحَ السَّبِيلَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُثْمَانَ فَقَدْ اسْتَضَاءَ بِنُورِ اللَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالْعَزْوَةِ الْوُفْقَى، وَمَنْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ - فَقَدْ بَرِيَ مِنَ النِّفَاقِ، وَمَنْ انْتَقَضَ مِنْهُمْ أَحَدًا فَهُوَ مُبْتَدِعٌ مُخَالِفُ السُّنَّةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ؛ وَأَخَافُ أَلَّا يَضَعِدَ لَهُ عَمَلٌ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يَحْتَبِمَ جَمِيعًا، وَيَكُونَ قَلْبُهُ سَلِيمًا.

١٣١٤ - وفي حديث خالد بن سعيد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَاضٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فَاعْرِفُوا لَهُ ذَلِكَ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَاضٍ عَنْ عُمَرَ، وَعَنْ

علي، وعن عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وأبي عبيدة؛ فاعرفوا لهم ذلك.

أيها الناس! إن الله غفر لأهل بذر والحديثة. أيها الناس! احفظوني في أصحابي وأضهاري وأختاني، لا يطالبنكم أحد منهم بمظلمة؛ فإنها مظلمة لا توجب في القيامة غداً.

١٣١٥ - وقال رجل للمعافى بن عمران: أين عمر بن عبدالعزيز من معاوية؟ فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد، معاوية صاحبه وصهره، وكاتبه وأمينه على وحي الله.

١٣١٦ - وأبي النبي ﷺ بجنازة رجل فلم يصل عليه، وقال: «كان يبغي عثمان، فأبغضه الله» [الترمذي (٣٧٠٩)].

١٣١٧ - وقال عليه السلام في الأنصار: «اغفوا عن مسيئتهم، واقبلوا من محبتهم» [البخاري (٣٧٩٩)، (٣٨٠٠)، مسلم (٢٥١٠)].

١٣١٨ - وقال: «احفظوني في أصحابي وأضهاري؛ فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله منه، ومن تخلى الله منه يوشك أن يأخذه».

١٣١٩ - وقال عليه السلام: «من حفظني في أصحابي كنت له حافظاً يوم القيامة».

١٣٢٠ - وقال: «من حفظني في أصحابي ورد علي الحوض، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرد علي الحوض، ولم يرني إلا من بعيد».

١٣٢١ - وقال مالك - رحمه الله -: هذا النبي مؤدب الخلق الذي هدانا الله به، وجعله رحمة للعالمين، يخرج في جوف الليل إلى البقيع [مسلم (٩٧٤)] فيدعو لهم ويستغفر كالمودع لهم؛ وبذلك أمره الله، وأمر النبي بحبتهم، وموالاتهم، ومعاداة من عاداهم.

١٣٢٢ - وروي عن كعب: ليس أحد من أصحاب محمد ﷺ إلا وله شفاعة يوم القيامة.

١٣٢٣ - وطلب من المغيرة بن نوقل أن يشفع له يوم القيامة.

١٣٢٤ - قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرسول من لم يؤقر أصحابه، ولم يعز أوامره.

فصل

ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أنسابه،
وأكرام مشاهديه وأمكنته من مكة والمدينة،
ومعاهديه، وما نصته عليه السلام أو عرف به.

١٣٢٥ - ورؤي عن صفية بنت نخدة؛ قالت: كان لأبي مخذوزة فصة في
مقدم رأسه، إذا قعد وأرسلها أصابت الأرض. فقيل له: ألا تحلقها؟ فقال: لم
أكن بالذي أحلقها، وقد مسحها رسول الله ﷺ بيده.

١٣٢٦ - وكانت في قلنسوة خالد بن الوليد شغرات من شجر
رسول الله ﷺ، فسقطت قلنسوته في بغض حروبه، فشد عليها شدة أنكر
عليه أصحاب النبي ﷺ كثرة من قبل فيها؛ فقال: لم أفعلها بسبب
القلنسوة؛ بل لما تفضت من شجره - عليه السلام - لئلا أسلب بركتها وتقع
في أيدي المشركين.

١٣٢٧ - ورؤي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر، ثم
وضعها على وجهه.

١٣٢٨ - ولهذا كان مالك - رحمه الله - لا يركب بالمدينة دابة؛ وكان
يقول: أستجي من الله أن أطأ ترية فيها رسول الله بحافر دابة.

١٣٢٩ - ورؤي عنه أنه وهب للشافعي كراعاً كثيراً كان عنده؛ فقال له
الشافعي: أمسك منها دابة. فأجابته بمثل هذا الجواب.

١٣٣٠ - وقد حكى أبو عبد الرحمن السلمي عن أحمد بن فضلويه الزاهد
- وكان من الغزاة الرماة - أنه قال: ما مسست القوس بيدي إلا على طهارة منذ
بلغني أن النبي ﷺ أخذ القوس بيده.

١٣٣١ - وقد أفتى مالك فيمن قال: - ترية المدينة زينة - يضرب ثلاثين
درّة، وأمر بخبسه، وكان له قدر؛ وقال: ما أخوجه إلى ضرب عنقه! ترية دفن
فيها خير البشر: النبي ﷺ، يزعم أنها غير طيبة!!

١٣٣٢ - وفي الصحيح أنه قال - عليه السلام - في المدينة: «من أحدث
فيها خدناً أو آوى مخبئاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ لا يقبل الله
منه صرفاً ولا عدلاً» [بخاري (١٨٧٠)، مسلم (١٣٧٠)].

١٣٣٣ - وحكي أن جهنجاهم البخاري أخذ قضيب النبي ﷺ من يد عثمان

رضي الله عنه وتناوله ليكسره على ركبته، فصاح به الناس، فأخذته الأكلة في ركبته فقطعها، ومات قبل الحول.

١٣٣٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَنْبَرِي كَاذِبًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» [أبو داود (٣٢٤٦)، ابن ماجه (٢٣٢٥)].

١٣٣٥ - وَحَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيَّ لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا، وَقَرَّبَ مِنْ بَيْوتِهَا تَرَجَّلَ وَمَشَى بَاكِيًا، يُنْشِدُ:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ لَنَا فَوَادًا لِعَرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لَبَا
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ تُلِمَّ بِهِ رُكْبَا

١٣٣٦ - وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُزِيدِينَ أَنَّهُ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَشَدَ يَقُولُ مِثْلًا:

رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاخَ لِنَظَرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دَوْنَهُ الْأَوْهَامُ
وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَّغُنْ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرِينَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

١٣٣٦ م - وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمَشَائِخِ أَنَّهُ حَجَّ مَاشِيًا؛ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ: الْعَبْدُ الْآبِقُ لَا يَأْتِي إِلَى بَيْتِ مَوْلَاهُ رَاكِبًا، لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى رَأْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى قَدَمَيَّ.

١٣٣٦ م - قَالَ الْقَاضِي: وَجَدِيرٌ لِمَوَاطِنَ عُمِّرَتْ بِالْوَحْيِ وَالتَّزْوِيلِ، وَتَرَدَّدَ بِهَا جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَعَرَجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ، وَضَجَّتْ عَرَصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ، وَاشْتَمَلَتْ تُرْنَتُهَا عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَانْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسَيِّدِ رَسُولِهِ ﷺ مَا انْتَشَرَ، مَدَارِسُ آيَاتٍ، وَمَسَاجِدُ صَلَوَاتٍ، وَمَشَاهِدُ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ، وَمَعَاهِدُ الْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَمُتَّبِعُوا خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - ﷺ وَعَلَى عَتْرَتِهِ أَجْمَعِينَ - حَيْثُ انْفَجَرَتْ النَّبُوءَةُ، وَأَيْنَ فَاضَ غُبَابُهَا؛ وَمَوَاطِنُ مَهْبِطِ الرِّسَالَةِ؛ وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِ الْمُصْطَفَى تُرَابُهَا، أَنَّ تُعْظَمَ عَرَصَاتُهَا، وَتُنْتَسَمَ نَفَحَاتُهَا، وَتُقْبَلَ رُبُوعُهَا وَجُذُرَانِهَا:

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ هُدًى الْأَنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ
عِنْدِي لِأَخْلِكَ لَوْعَةً وَصَبَابَةً وَتَشْوِيقَ مُتَوَقِّدِ الْجَمَرَاتِ
وَعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلَأْتُ مُحَاجِرِي مِنْ تِلْكَ الْجُذُرَانِ وَالْعَرَصَاتِ

لَأَعْفِرَنَّ مَضُوءَ شَيْبِي بَيْنَهَا
لَوْلَا الْعَوَادِي، وَالْأَعَادِي زُرْتُهَا
لَكِن سَأْفِدِي مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتِي
أَزْكَى مِنْ الْمِسْكِ الْمُفْتَقِي نَفْحَةَ
وَتَخْطُهُ بِزَوَاكِي الصَّلَوَاتِ
مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ وَالرَّشَفَاتِ
أَبَدًا وَلَوْ سَخِبًا عَلَى الْوَجَنَاتِ
لِقَطِينِ تِلْكَ الدَّارِ وَالْحُجَرَاتِ
تَغْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرَاتِ
وَنَوَامِي التَّمْلِيمِ وَالْبَرَكَاتِ



الباب الرابع

فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ وَفَرْضِ ذَلِكَ وَفَضِيلَتِهِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

١٣٣٧ - قال ابن عباس: معناه: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُبَارِكُونَ عَلَى النَّبِيِّ.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ يَتَرَحَّمُ عَلَى النَّبِيِّ، وَمَلَائِكَتُهُ يَدْعُونَ لَهُ.

قال الثَّيْبِيُّ: وَأَصْلُ الصَّلَاةِ التَّرَحُّمُ، فَهِيَ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ، وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ رِقَّةٌ وَاسْتِدْعَاءٌ لِلرَّحْمَةِ مِنَ اللَّهِ.

١٣٣٨ - وقد ورد في الحديث صِفَةُ صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَنْ جَلَسَ يَنْتَظِرُ

الصَّلَاةَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ» [البخاري (٦٥٩)، مسلم (٢٧٢/٦٤٩)] فهذا دُعَاءٌ.

١٣٣٩ - وقال بَكْرُ الْقُشَيْرِيِّ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ

رَحْمَةً، وَلِلنَّبِيِّ ﷺ تَشْرِيفٌ وَزِيَادَةٌ تَكْرِمَةً.

١٣٤٠ - وقال أبو العالية: صَلَاةُ اللَّهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ

الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ.

١٣٤١ - قال القاضي أبو الفضل: وقد فُرِّقَ النَّبِيُّ ﷺ - فِي حَدِيثِ تَعْلِيمِ

الصَّلَاةِ عَلَيْهِ - بَيْنَ لَفْظِ الصَّلَاةِ وَلَفْظِ الْبَرَكَةِ؛ فَدَلَّ أَنْهُمَا بِمَعْنَيْنِ.

١٣٤٢ - وَأَمَّا التَّسْلِيمُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عِبَادَهُ فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ

بُكَيْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْلُمُوا عَلَيْهِ؛

وَكَذَلِكَ مَنْ بَعْدَهُمْ أَمُرُوا أَنْ يَسْلُمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ حُضُورِهِمْ قَبْرَهُ، وَعِنْدَ

ذِكْرِهِ.

وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:
أحدها: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مفسداً كاللذاذ واللذاذة.
الثاني: أي السلام على جفطك وبرغابتك فتقول له، وكفيل به، ويكون - هنا -
السلام: اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد؛ كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فصل

فِي خُتْمِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

واعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة، غير محدد بوقت، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - أن مخفل الآية عنده على الثذب؛ وأدعى فيه الإجماع؛ ولعله فيما زاد على مرة؛ والواجب منه الذي ينفط به الخرج وماتم ترك الفرض مرة؛ كالشهادة له بالتوبة؛ وما عدا ذلك مندوب مرغّب فيه، من سنن الإسلام وشعائر أهله.

قال القاضي أبو الحسن بن الفضا: المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من ذفره مع القدرة على ذلك.

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلّوا على نبيه ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم؛ فالواجب أن يكثر المرء منها، ولا يغفل عنها.

قال القاضي أبو محمد بن نصر: الصلاة على النبي ﷺ واجبة في الجملة.
قال القاضي أبو عبد الله: محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض بالجملة بعقد الإيمان، لا تتعين فيه الصلاة، وأن من صلّى عليه مرة واحدة في عمره سقط الفرض عنه.

وقال أصحاب الشافعي: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورؤوه عليه السلام هو في الصلاة.

وقالوا: وأما في غيرها فلا خلاف أنها غير واجبة.

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري، والطحاوي وغيرهما إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد غير واجبة.

وشد الشافعي في ذلك؛ فقال: «مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَعْدِ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ وَقَبْلَ السَّلَامِ فَصَلَاتُهُ بَاطِلَةٌ فَاسِدَةٌ، وَإِنْ صَلَّى عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ تَجْزِهِ» وَلَا سَلَفَ لَهُ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَلَا سَنَّةٌ يَتَّبِعُهَا.

وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه - لمخالفته فيها مَنْ تقدّمه - جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبري، والقشيري، وغير واحد.

وقال أبو بكر بن المنذر: يستحبُّ أَلَّا يُصَلِّيَ أَحَدٌ صَلَاةً إِلَّا صَلَّى فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَارَكَ فَصَلَاتُهُ مُجْزِئَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّأْيِ وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ قَوْلُ جَمَلِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَحَكَى عَنْ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ أَنَّهَا فِي التَّشَهُّدِ الْآخِرِ مُسْتَحَبَّةٌ، وَأَنَّ تَارِكَهَا فِي التَّشَهُّدِ مُسِيءٌ.

وشد الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة؛ وأوجب إسحاق أيضاً الإعادة مع تعمّد تركها دون الشّيان.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْد، عَنْ - مُحَمَّدِ بْنِ الْمَوَازِ - أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرِيضَةٌ.

قال أبو محمد: يريدُ ليست مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ؛ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَغَيْرُهُ.

وحكى ابنُ الْقَضَّارِ وَعَبْدُ الْوَهَّابِ - أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمَوَازِ - يَرَاهَا فَرِيضَةً فِي الصَّلَاةِ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ.

وَحَكَى أَبُو يَغْلَى الْعَبْدِيُّ الْمَالِكِيُّ عَنِ الْمَذْهَبِ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي الصَّلَاةِ: الرَّجُوبُ، وَالنَّدْبُ، وَالسَّنَةُ.

وقد خالف الخطّابي - مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ - وَغَيْرُهُ الشَّافِعِيَّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ فِي الصَّلَاةِ؛ وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةِ الْفُقَهَاءِ إِلَّا الشَّافِعِيَّ؛ وَلَا أَعْلَمُ لَهُ فِيهَا قَدْوَةٌ.

والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عملُ السَّلَفِ الصَّالِحِ قَبْلَ الشَّافِعِيِّ، وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَيْهِ.

وقد شئع الناس عليه في هذه المسألة جداً.

١٣٤٣ - وهذا تشهد ابن مسعود [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)] الذي اختاره الشافعي، وهو الذي علمه له النبي ﷺ، ليس فيه الصلاة على النبي ﷺ.

١٣٤٤ حتى ١٣٥٠ - وكذلك كل من يزوي التشهد عن النبي ﷺ، كأبي هريرة، وابن عباس [مسلم (٤٠٣)]، وجابر [النسائي (٣٤٣/٢)]، وابن عمر [أبو داود (٩٧١)]، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري [مسلم (٤٠٤)]، وعبد الله بن الزبير لم يذكروا فيه صلاة على النبي ﷺ.

١٣٥١، ١٣٥٢ - وقد قال ابن عباس، وجابر: كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن [مسلم (٤٠٣)].

١٣٥٣ - ونحوه عن أبي سعيد.

١٣٥٤ - وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما يعلمون الصبيان في الكتاب.

١٣٥٥ - وعلمه أيضاً على المنبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١٣٥٦ - وفي الحديث: «لا صلاة لمن لم يضل علي» [ابن ماجه (٤٠٠)].

قال ابن القصار: معناه: كاملة؛ أو لمن لم يضل علي مرة في عمره. وضعف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث.

١٣٥٧ - وفي حديث أبي جعفر، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ: «من صلى صلاة لم يضل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه».

١٣٥٨ - قال الدارقطني: الصواب أنه من قول أبي جعفر: محمد بن علي بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها علي النبي ﷺ ولا علي أهل بيته لرأيت أنها لا تتم.

فصل

في المواطن التي ينتحب فيها الصلاة والسلام

على النبي ﷺ ويزعب

من ذلك في تشهد الصلاة كما قدمناه؛ وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء.

١٣٥٩ - حدثنا أبو علي القاضي بقراءتي عليه - رحمه الله - قال: حدثنا الإمام أبو القاسم البلخي قال: حدثنا الفارسي، عن أبي القاسم الخزاعي، عن أبي سعيد: الهيثم بن كليب، عن أبي عيسى الحافظ قال: حدثنا محمود بن غيلان،

حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة بن شريح، حدثني أبو هانيء الخولاني أن عمرو بن مالك الجني، أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمع النبي ﷺ رجلاً يذعو في صلاته، فلم يَصَلْ على النبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: «عَجَلْ هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ ثُمَّ لِيَذْعُ بَعْدَ مَا شَاءَ» [الترمذي (٣٤٧٧)، أبو داود (١٤٨١)، النسائي (٤٤/٣)].

ويروى من غير هذا السند: «بتحميد الله» وهو أَصَحُّ.

١٣٦٠ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض؛ فلا يصعد إلى الله منه شيء حتى يَصَلِّيَ على النبي ﷺ [الترمذي (٤٨٦)].

١٣٦١ - وعن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ بمعناه؛ وقال: وعلى آل محمد.

١٣٦٢ - وروى أن الدعاء محجوب حتى يَصَلِّيَ الداعي على النبي ﷺ.

١٣٦٣ - وعن ابن مسعود: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً فليبدأ بمَدْحِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بما هو أهله؛ ثم يَصَلِّيَ على النبي ﷺ؛ ثم ليسأل؛ فإنه أجدر أن يَنْجَحَ.

١٣٦٤ - وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كَقَدَحِ الرَّائِبِ؛ فَإِنَّ الرَّائِبَ يَمْلَأُ قَدَحَهُ ثُمَّ يَضَعُهُ، ويرفع مَتَاعَهُ؛ فَإِنْ احتاج إلى شراب شربه، أو الوضوء توضأ، وإلا هَرَقَهُ؛ ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره».

١٣٦٥ - وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات؛ فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواعيته فاز، وإن وافق أسبابه أُنْجَحَ؛ فأركانه: حضور القلب، والرقعة، والاستكانة والخشوع، وتعلق القلب بالله، وقطعه من الأسباب، وأجنحته: الصدق. ومواعيته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على محمد ﷺ.

١٣٦٦ - وفي الحديث: «الدعاء بين الصلاتين علي لا يُرَدُّ».

١٣٦٧ - وفي حديث آخر: «كُلُّ دُعَاءٍ محجوبٌ دون السماء، فإذا جاءت الصلاة علي صعد الدعاء».

١٣٦٨ - وفي دعاء ابن عباس الذي رواه عنه حنّس؛ فقال في آخره:

واستجب دُعائي، ثم يبدأ بالصلاة على النبي ﷺ فيقول: اللهم! إني أسألك أن تُصَلِّيَ على محمدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ أَفْضَلَ مَا صَلَّيْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَجْمَعِينَ آمِينَ.

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ: عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَسَمَاعِ اسْمِهِ، أَوْ حَدِيثِهِ، أَوْ عِنْدَ الْأَذَانِ. ١٣٦٩ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصَلِّ عَلَيَّ» [الترمذي (٣٥٤٥)].

وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبِيبٍ ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الذَّنْبِ. وَكَرِهَ سُخُونُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ وَقَالَ: لَا يَصَلُّى عَلَيْهِ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ الْإِحْتِسَابِ، وَطَلَبِ الثَّوَابِ.

قَالَ أَضْبَغُ، عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ: مَوْطِنَانِ لَا يُذْكَرُ فِيهِمَا إِلَّا اللَّهُ: الذَّبِيحَةُ، وَالْعُطَّاسُ؛ فَلَا تَقُلْ فِيهِمَا بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وَلَوْ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ لَمْ يَكُنْ تَسْمِيَةً لَهُ مَعَ اللَّهِ.

وَقَالَ أَشْهَبُ؛ قَالَ: وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ اسْتِثْنَاءً. ١٣٧٠ - وَزَوَى النَّسَائِيُّ، عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: الْأَمْرُ بِالْإِكْتِفَارِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ [النسائي (٩١/٣ - ٩٢)، أَبُو دَاوُدَ (١٠٤٧)، ابْنُ مَاجَهَ (١٠٨٥)].

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ دُخُولُ الْمَسْجِدِ:

١٣٧١ - قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ شُعْبَانَ: وَيَنْبَغِي لِمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَى آلِهِ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَيُبَارِكُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَيَسْلِمُ تَسْلِيمًا؛ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». وَإِذَا خَرَجَ فَعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ، وَجْعَلْ مَوْضِعَ «رَحْمَتِكَ» «فَضْلِكَ».

١٣٧٢ - وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى -: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» [النور: ٦١] - قَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

١٣٧٣ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَرَادُ بِالْبُيُوتِ - هَهُنَا - الْمَسَاجِدُ.

١٣٧٤ - وَقَالَ الثَّخَفِيُّ: إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

١٣٧٥ - وعن عَلْقَمَةَ: إِذَا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ أَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ.

١٣٧٦ - وَنَحْوُهُ عَنْ كَعْبٍ: إِذَا دَخَلَ، وَإِذَا خَرَجَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّلَاةَ.

١٣٧٧ - وَاحْتِجَّ ابْنُ شُعْبَانَ - لَمَّا ذَكَرَهُ - بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَفْعَلُهُ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ [الترمذي (٣١٤)، ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٢٨٢/٦)].

١٣٧٨ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ. وَذَكَرَ السَّلَامَ وَالرَّحْمَةَ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْحَدِيثَ آخِرَ الْقِسْمِ، وَالْاِخْتِلَافَ فِي أَلْفَاظِهِ.

١٣٧٩ - وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَيْضاً عِنْدَ الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَائِزِ.

وَذَكَرَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهَا مِنَ السَّنَةِ [النسائي (٧٥/٤)].

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ الَّتِي مَضَى عَلَيْهَا عَمَلُ الْأُمَةِ، وَلَمْ تُتَكَرَّهْ: الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى آلِهِ فِي الرِّسَالَتِ، وَمَا يُكْتَبُ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ؛ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ؛ وَأُخِذَتْ عِنْدَ وِلَايَةِ بَنِي هَاشِمٍ، فَمَضَى بِهِ عَمَلُ النَّاسِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْتِمُ بِهِ أَيْضاً الْكُتُبَ.

١٣٨٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ

تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ».

وَمِنْ مَوَاطِنِ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تَشَهُدُ الصَّلَاةَ.

١٣٨١ - حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: خَلْفَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَقْرِيءِ الْخَطِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ،

وغيره قال: حَدَّثَنِي كَرِيمَةُ بِنْتُ أَحْمَدَ؛ قَالَتْ: حَدَّثَنَا أَبُو الْهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ

يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ

شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «إِذَا صَلَّى

أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَيُّهَا النَّبِيُّ!

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا قَلْتُمُوهَا

أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)].

هَذَا أَحَدُ مَوَاطِنِ التَّسْلِيمِ عَلَيْهِ؛ وَسَنَنُهُ أَوَّلُ التَّشَهُدِ.

١٣٨٢ - وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ عُمرَ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ

تَشَهُدِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ.

وَاسْتَحَبَّ مَالِكٌ فِي «الْمَبْسُوطِ» أَنْ يُسَلِّمَ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَبْلَ السَّلَامِ.

١٣٨٣ - قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ: أَرَادَ مَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عُمرَ أَنَّهُمَا كَانَا

يَقُولَانِ عِنْدَ سَلَامِهِمَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَيْنَا
وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.
وَاسْتَحَبَّ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنْ يَتَوَيَّحُوا الْإِنْسَانَ حِينَ سَلَامِهِ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَبَنِي آدَمَ وَالْجِنِّ.
قَالَ مَالِكٌ فِي «الْمَجْمُوعَةِ»: وَأَجِبْ لِلْمَأْمُومِ إِذَا سَلَّمَ إِمَامُهُ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ
عَلَى النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. السَّلَامُ
عَلَيْكُمْ.

فصل

فِي كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ

١٣٨٤ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ الْفَقِيهَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا
الْقَاضِي أَبُو الْأَصْبَغِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَثَابٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ وَافِدٍ وَغَيْرُهُ،
قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا غُنَيْدُ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خَزَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ غَمْرٍو بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرْقِيِّ أَنَّهُ
قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو حَمِيدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟
قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ
إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ
حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [البخاري (٣٣٦٩)، مسلم (٤٠٧)].

١٣٨٥ - وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ؛ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ
صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى
آلِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ
عَلَّمْتُمْ» [مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٦ - وَفِي رِوَايَةِ كَعْبِ بْنِ عُخْرَةَ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ،
كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ،
إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [البخاري (٦٣٥٧)، مسلم (٤٠٦)].

١٣٨٧ - وَعَنْ عُفْبَةَ بْنِ غَمْرٍو فِي حَدِيثِهِ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ
الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» [أبو داود (٩٨١)، مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٨ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ
وَرَسُولِكَ...» [البخاري (٦٣٥٨)].

١٣٨٩ - حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي سماعاً عليه، وأبو علي:

الحسن بن طريف النخوي بقراءتي عليه؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله بن سعدون
الفيهي، حدثنا أبو بكر المطوعي، حدثنا أبو عبد الله الحاكم، عن أبي بكر بن أبي
دارم الحافظ، عن علي بن أحمد العجلي، عن حزم بن الحسن، عن يحيى بن
المساور، عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه علي، عن أبيه
الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب؛ قال: عدُّهُنَّ في يدي رسول الله ﷺ،
وقال: «عدُّهُنَّ في يدي جبريل»، وقال: هكذا نزلت من عند رب العزة؛ اللهم!
صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم،
إنك حميد مجيد، اللهم! بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على
إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم وتَرَحَّمْ على محمد، وعلى
آل محمد، كما تَرَحَّمْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم! وتَحَنَّنْ على محمد، وعلى آل محمد، كما تَحَنَّنْتَ على إبراهيم،
وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم! وَسَلِّمْ على محمد، وعلى آل محمد،
كما سلمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

١٣٩٠ - وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَنَالَ بِالْمَكْنَالِ
الْأَوْفَى إِذَا صَلَّى عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! صَلِّ على محمد، النبي، وأزواجه
أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد
مجيد» [أبو داود (٩٨٢)].

١٣٩١ - وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري: سألت النبي ﷺ: كيف
نُصَلِّي عليك؟

فقال: «صَلُّوا عَلَيَّ واجتهدوا في الدعاء، ثم قولوا: اللَّهُمَّ! بارِكْ على
محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» [النسائي
(٤٩٣)، أحمد (١٩٩/١)].

١٣٩٢ - وعن سلامة الكندي: كان علي - رضي الله عنه - يعلمنا الصلوة
على النبي ﷺ فيقول: اللهم! داجي المَدْحَوَاتِ، وباريء المَسْمُوكَاتِ، اجْعَلْ
شرائف صلواتك، وتوابع بركاتك، ورأفة تحننك على محمد، عبدك ورسولك،
الفتاح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمُعْلِنُ الحقَّ بالحق، والدامغ لجيشات
الباطيل، كما حُمِّلَ، فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مَرْضَاتِكَ، وإعياً
لِوَحْيِكَ، حافظاً لعهدك، ماضياً على نَقَاذِ أَمْرِكَ، حتى أَوْزَى قَبْساً لِقَابِسِ، آلاءَ الله

تُصَلُّ بِأَهْلِهِ أَسْبَابَهُ. بِهِ هُدِيَتْ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْإِثْمِ، وَأُبْهِجَ مُوَضِّحَاتِ الْأَعْلَامِ، وَنَائِرَاتِ الْأَحْكَامِ، وَمُنِيرَاتِ الْإِسْلَامِ؛ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً؛ اللَّهُمَّ! افْسَحْ لِي فِي عَذْبِكَ، وَاجْزِهِ مَضَاعِفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، مُهْتَابَ لِي غَيْرَ مُكَدَّرَاتٍ، مِنْ فَوْزِ ثَوَابِكَ الْمَحْلُولِ، وَجَزِيلِ عَطَائِكَ الْمَعْلُولِ.

اللَّهُمَّ! أَغْلِي عَلَى بِنَاءِ النَّاسِ بِنَاءً، وَأَكْرِمِ مَثْوَاهُ لَدَيْكَ وَنُزْلَهُ، وَأَيْتَمِّ لِي نَوْزَهُ، وَاجْزِهِ مِنْ ابْتِعَانِكَ لِي مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ، وَمَرْضِي الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقِي عَذْلٍ، وَخُطَّةٍ فَضْلٍ، وَبُرْهَانٍ عَظِيمٍ.

١٣٩٢ - وعنه أيضاً في الصلاة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

لَيْتَكَ اللَّهُمَّ! رَبِّي وَسَعْدَنِيكَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ الْبَرِّ الرَّحِيمِ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَالنَّبِيِّينَ وَالصُّدُوقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَمَا سُبَّحَ لَكَ مِنْ شَيْءٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ! عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ الشَّاهِدِ الْبَشِيرِ، الدَّاعِي إِلَيْكَ بِإِذْنِكَ، وَالسَّرَاجِ الْمُنِيرِ؛ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٣٩٤ - وعن عبدالله بن مسعود: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ؛ إِمَامِ الْخَيْرِ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ.

اللَّهُمَّ! ابْنَعْنَهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغْبِطُهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ خَمِيدٌ مُجِيدٌ؛ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ خَمِيدٌ مُجِيدٌ [ابن ماجه (٩٠٦)].

١٣٩٥ - وكان الحسن البصري يقول: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَشْرَبَ بِالْكَأْسِ الْأَوْفَى مِنْ خَوْضِ الْمُضْطَفَى فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَأَوْلَادِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَصْهَارِهِ، وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَمُحِبِّيهِ وَأَيْتِهِ؛ وَعَلَيْنَا، مَعَهُمْ أَجْمَعِينَ. يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!

١٣٩٦ - وعن طاووس، عن ابن عباس. أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! تَقَبَّلْ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِيِّ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ الْعُلْيَا، وَآتِهِ سُؤْلَهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، كَمَا آتَيْتَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

١٣٩٧ - وعن وهيب بن الورد أنه كان يقول في دُعائه: اللهم! أعْطِ محمداً أفضلَ ما سألَكَ لنفسه، وأعْطِ محمداً أفضلَ ما سألَكَ له أحدٌ من خَلْقِكَ، وأعْطِ محمداً أفضلَ ما أنتَ مسؤولٌ له إلى يومِ القيامةِ.

١٣٩٨ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عنه أنه كان يقول: إذا صَلَّيْتُمْ على النبيِّ - عليه السلام - فأخِشُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لا تَذُرُونَ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُغَرِّضُ عليه؛ وقولوا: اللهم! اجْعَلْ صلواتِكَ ورَحْمَتَكَ وبركاتِكَ على سَيِّدِ المرسلين، وإمامِ المتقين، وخاتمِ النبيين، محمدِ عَبْدِكَ ورسولِكَ، إمامِ الخير، وقائدِ الخير، ورسولِ الرحمة.

اللهم! ابعثه مقاماً محموداً، يَغِيظُهُ فيه الأولون والآخرون؛ اللهم! صَلِّ على محمد، وعلى آلِ محمد، كما صَلَّيْتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم، إِنَّكَ حَمِيدٌ مجيدٌ.

اللهم! بارِكْ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ محمد، كما بارَكْتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مجيدٌ.

وما يُؤَثِّرُ في تطويل الصلاة، وتكثير الثناء على أهل البيت، وغيرهم، كثير. ١٣٩٩ - وقوله: «والسلامُ كما قد عَلِمْتُمْ» [مسلم (٤٠٥)] هو ما عَلَّمَهُم اللهُ في التَّشَهُّدِ من قوله: «السلامُ عليك أَيُّها النبي! وَرَحْمَةُ اللهِ وبركاته، السلام علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين».

١٤٠٠ - وفي تشهُّدِ عليّ - رضي اللهُ عنه -: السلامُ على نبيِّ اللهِ - ﷺ - السلامُ على أنبياءِ اللهِ ورُسُلِهِ، السلامُ على رسولِ اللهِ، السلامُ على محمد بن عبدِالله، السلام علينا، وعلى المؤمنين والمؤمنات، مَنْ غابَ منهم ومن شَهِدَ. اللهم! اغْفِرْ لمحمدٍ، وتَقَبَّلْ شفاعته، واغْفِرْ لأهلِ بَيْتِهِ، واغْفِرْ لي ولوالدي وما وَلَدَا، وارحهما.

السلامُ علينا وعلى عِبَادِ اللهِ الصالحين، السلامُ عليك، أَيُّها النبي! وَرَحْمَةُ اللهِ وبركاته.

جاء في هذا الحديث عن عليّ - رضي اللهُ عنه -: الدعاءُ للنبيِّ ﷺ بالغفران.

وفي حديث الصلاةِ عليه أيضاً قَبْلُ: الدعاءُ له بالرحمة؛ ولم يَأْتِ في غيره من الأحاديث المرفوعة المعروفة.

وقد ذهب أبو عُمَرَ بنُ عبدِالبرِّ، وغيرُهُ إلى أنه لا يُدْعَى للنبي - ﷺ -

بالرحمة؛ وإنما يُدْعَى له بالصلاة والبركة التي تختص به، ويدْعَى لغيره بالرحمة والمغفرة.

١٤٠١ - وقد ذكر أبو محمد بن أبي زَيْد في الصلاة على النبي ﷺ :
اللهم! ارحم محمداً، وآل محمد، كما ترخمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم.
ولم يأت هذا في حديث صحيح. وحجته قوله في السلام: «السلام عليك
أيها النبي! ورحمة الله وبركاته».

فصل

في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ والتسليم عليه والدعاء له

١٤٠٢ - أخبرنا أحمد بن محمد الشيخ الصالح من كتابه، حدثنا القاضي
يونس بن مغيث، حدثنا أبو بكر بن معاوية، حدثنا النسائي، حدثنا سويد بن
نصر، حدثنا عبد الله، عن حبة بن شريح؛ قال: أخبرني كعب بن علقمة أنه
سمع عبدالرحمن بن جبير: مولى نافع، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلوا علي؛ فإنه
من صلي علي مرة واحدة صلي الله عليه بها عشراً؛ ثم سلوا الله لي الوسيلة،
فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي، إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛
فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» [السنائي (٢٥/٢)، مسلم (٣٨٤)].

١٤٠٣ - وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «من صلي علي صلاة،
صلي الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات»
[السنائي (٥٠/٣)].

١٤٠٤ - وفي رواية: «وكتب له عشر حسنات» [أحمد (٢٦٢/٢)، الترمذي
(٤٨٤)].

١٤٠٥ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «إن جبريل ناداني، فقال: من صلي
عليك صلاة صلي الله عليه عشراً، ورفع له عشر درجات».

١٤٠٦ - وفي رواية عبدالرحمن بن عوف، عنه عليه السلام: «لقبت جبريل
فقال لي: إني أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلم عليك سلمت عليه، ومن
صلي عليك صليت عليه» [أحمد (١٩١/١)].

١٤٠٧ - ونحوه من رواية أبي هريرة [مسلم (٤٠٨)].

١٤٠٨ - ومالك بن أوس بن الحَدَثَانِ.

١٤٠٩ - وعُيِدَ اللَّهُ بِنِ أَبِي طَلْحَةَ [النسائي (٤٤/٣)، (٥٠)].

١٤١٠ - وعن زَيْدِ بْنِ الْحُبَابِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَنْزِلْهُ الْمُنْزِلَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي» [أحمد (١٠٨/٤)].

١٤١١ - وعن ابن مسعود: «أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً» [الترمذي (٤٨٤)].

١٤١٢ - وعن أَبِي مُرَيْرَةَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا بَقِيَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ».

١٤١٣ - وعن عامر بن ربيعة: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيُقِلِّلْ مِنْ ذَلِكَ عَبْدٌ أَوْ فُلَيْكُيْرٌ» [ابن ماجه (٩٠٧)، أحمد (٤٤٥/٣)].

١٤١٤ - وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ رُبْعُ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

فَقَالَ أَبُو بِنِ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟

قَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: الرَّبْعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ».

قَالَ: الثَّلَاثُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ».

قَالَ: النِّصْفُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ».

قَالَ: الثَّلَاثِينَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَأَجْعَلُ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ؟ قَالَ: «إِذَا تُكْفِيَ وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ» [الترمذي (٢٤٥٧)].

١٤١٥ - وعن أَبِي طَلْحَةَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ مِنْ بَشَرِهِ وَطَلَّاقَتِهِ مَا لَمْ أَرَهُ قَطُّ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «وَمَا يَمْتَنِعُنِي؟» وَقَدْ خَرَجَ جَبْرِيلُ أَنْفًا، فَأَتَانِي بِبَشَارَةِ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بِعِثْنِي إِلَيْكَ أَبْشُرُكَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ يَصَلِّي عَلَيْكَ مَرَّةً إِلَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَلَائِكَتُهُ بِهَا عَشْرًا».

١٤١٦ - وعن جابر بن عبد الله: قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ! رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَةُ! وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتَى مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ

وَالْفَضِيلَةَ، وَابْتِغَاءَ مَقَامٍ مَحْمُودٍ الَّذِي وَعَدْتَهُ، خَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [البخاري (٦١٤)].

١٤١٧ - وعن سعد بن أبي وقاص: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ - أَوْ الْمُؤَذِّنَ -:
وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيَ اللَّهُ
بِاللَّهِ رَبِّنا، وَبِالْإِسْلَامِ دِيننا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيَّنا، غُفِرَ لَهُ» [مسلم (٣٨٦)].

١٤١٨ - وروى ابنُ وَهْبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ عَشْرًا فَكَانَنا
أَعْتَقَ رَقَبَةً».

١٤١٩ - وفي بَعْضِ الْأَثَرِ: «لَيَبْرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ مَا أَعْرِفُهُمْ إِلَّا بِكَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ
عَلَيَّ».

١٤٢٠ - وفي آخَرٍ: «إِنْ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَمْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ
عَلَيَّ صَلَاةً».

١٤٢١ - وعن أبي بكر رضي الله عنه: الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمْحَقُ
لِلذُّنُوبِ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ لِلنَّارِ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الرِّقَابِ.

فصل

فِي ذِمَّةِ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِثْمِهِ

١٤٢٢ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا أبو الفضل بن
خَيْرُونَ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ الصُّنَيْفِيُّ؛ قَالَا: أَخْبَرَنَا أَبُو يَغْلَى، أَخْبَرَنَا السُّنْجِيُّ، حدثنا
محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا أحمد [الترمذي (٣٥٤٥)] بن إبراهيم
الدُّورقي، حدثنا رُبَيْعُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي
سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانَ
ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يَدْخُلْهُ
الْبَجَنَةَ».

قال عبد الرحمن: وأظنه قال: «أو أحدهما» [الترمذي (٣٥٤٥)].

١٤٢٣ - وفي حديث آخر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِثْبَرُ فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ
صَعِدَ، فَقَالَ: «آمِينَ» ثُمَّ صَعِدَ فَقَالَ: «آمِينَ»، فَسَأَلَهُ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَنْ ذَلِكَ،
فَقَالَ: «إِنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَتَانِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مَنْ سُمِّيَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمْ
يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ؛ قُلْ: آمِينَ؛ فَقُلْتُ: آمِينَ».

وقال فيمن أدرك رمضان فلم يُقبل منه فمات مثل ذلك.

ومن أدرك أبويه - أو أحدهما - فلم يبرهما فمات مثله.

١٤٢٤ - وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عنه عليه السلام، أنه قال: «البخيل - كُلُّ البخيل - الذي ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ».

١٤٢٥ - وعن جعفر بن محمد، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ أخطيء به طريق الجنة» [ابن ماجه (٩٠٨)].

١٤٢٦ - وعن علي بن أبي طالب، عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «لَنْ البخيل - كُلُّ البخيل - مَنْ ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ».

١٤٢٧ - وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ - «أَيُّمَا قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِساً ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ، وَيُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ اللَّهِ بَرَةٌ، إِنْ شَاءَ عَذِّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ عَفَّرَ لَهُمْ» [الترمذي (٣٣٨٠)، أحمد (٤٤٦/٢)].

١٤٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَى نَسِي طَرِيقِ الْجَنَّةِ».

١٤٢٩ - وعن قتادة، عنه - عليه السلام -: «مِنْ الْجَفَاءِ أَنْ أَدَّكَرَ عِنْدَ الرَّجُلِ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ».

١٤٣٠ - وعن جابر، عنه - عليه السلام -: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَلَى غَيْرِ صَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ أَثْنَيْنِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ».

١٤٣١ - وعن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: «لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِساً لَا يَصَلُّونَ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ - وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ - لَمَّا يَرَوْنَ مِنَ الثَّوَابِ» [الترمذي (٣٣٨٠)، النسائي (٤١٠)].

١٤٣٢ - وحكى أبو عيسى الترمذي، عن بَغْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ قال: إِذَا صَلَّى الرَّجُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً فِي الْمَجْلِسِ أَجْزَأَ عَنْهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ.

فصل

فِي تَخْصِيصِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِتَبْلِيغِ صَلَاةٍ

مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنَ الْأَتَامِ

١٤٣٣ - حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا ابن داسمة، حدثنا أبو داود، حدثنا ابن عوف، حدثنا المقرئ، حدثنا خيوذة، عن أبي صخر: حميد بن زياد،

عن يزيد بن عبد الله بن قسب، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أزد عليه السلام» (أبو داود (٢٠٤١)، أحمد (٥٢٧/٢)).

١٤٣٤ - وذكر أبو بكر بن أبي شينة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي عند قبري سمعته؛ ومن صلى علي نائبا بلغته».

١٤٣٥ - وعن ابن مسعود: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمني السلام» (السنائي (٤٣/٣)).

١٤٣٦ - ونحوه عن أبي هريرة (أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٣٦٧/٢)).

١٤٣٧ - وعن ابن عمر: «أكثرُوا من السلام على نبيكم كل جمعة؛ فإنه يؤتى به منكم في كل جمعة».

١٤٣٨ - وفي رواية: «فإن أحدا لا يصلي علي إلا عرضت صلاته علي حين يفرغ منها» (ابن ماجه (١٦٣٧)).

١٤٣٩ - وعن الحسن بن علي، عنه ﷺ: «حيثما كنتم فصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني».

١٤٤٠ - وعن ابن عباس: ليس أحد من أمة محمد يسلم عليه ويصلي عليه إلا بلغه.

١٤٤١ - وذكر بعضهم أن العبد إذا صلى على النبي ﷺ غرض عليه اسمه.

١٤٤٢ - وعن الحسن بن علي: «إذا دخلت المسجد فسلم على النبي ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا بيدي عيدا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا، وصلوا علي حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم».

١٤٤٣ - وفي حديث أوس: «أكثرُوا علي من الصلاة يوم الجمعة؛ فإن صلاتكم مغروضة علي».

١٤٤٤ - وعن سليمان بن شعيب: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله! هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك، أتفقهم سلامهم؟ فقال: نعم، وأزد عليهم.

١٤٤٥ - وعن ابن شهاب: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «أكثرُوا من الصلاة علي في الليلة الزهراء، واليوم الأزهري؛ فإنهما يؤذيان عنكم، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء؛ وما من مسلم يصلي علي إلا حملها ملك حتى يؤذيها إلي، ونسفيه، حتى إنه ليقول: إن فلانا يقول كذا وكذا».

فصل

فِي الْاِخْتِلَافِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

قال القاضي - وفقه الله -: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ.

١٤٤٦ - ورؤي عن ابن عباس أنه قال: لا تجوز الصلاة على غير النبي ﷺ.

١٤٤٧ - ورؤي عنه: لا يتبني الصلاة على أحد إلا النبيين.

١٤٤٨ - وقال سُفْيَانُ: يُكْرَهُ أَنْ يُصَلَّى إِلَّا عَلَى نَبِيٍّ.

١٤٤٩ - ووجدت بخط بغض شيوخي: مذهب مالك أنه لا يجوز أن يصلّى

على أحد من الأنبياء سوى محمد ﷺ، وهذا غير معروف من مذهبه؛ وقد قال مالك في «المبسوط» ليحيى بن إسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرونا به.

١٤٥٠ - وقال يحيى بن يحيى: لست آخذ بقوله؛ لا بأس بالصلاة على

الأنبياء كلهم وعلى غيرهم؛ واحتج بحديث ابن عمر.

١٤٥١ - وبما جاء في حديث تعليم النبي ﷺ الصلاة عليه وفيه: «وعلى

آله، وعلى أزواجه».

وقد وجدت معلقاً عن أبي عمران الفاسي: رؤي عن ابن عباس رضي الله

عنهما كراهة الصلاة على غير النبي ﷺ؛ قال: وبه نقول. ولم تكن تُستعمل فيما مضى.

١٤٥٢ - وقد روى عبدالرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال

رسول الله ﷺ: «صلُّوا على أنبياء الله ورسله؛ فإنه بعثهم كما بعثني».

قالوا: والأسانيد عن ابن عباس ليثّة، والصلاة في لسان العرب بمعنى

الترحم والدعاء؛ وذلك على الإطلاق حتى يمتنع منه حديث صحيح أو إجماع.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ

لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ...﴾ [البقرة: ١٥٧].

١٤٥٣ - وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى». وكان إذا أتاه قومٌ بصدتهم قال: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ» [البخاري (١٤٩٧)، مسلم (١٠٧٨)].

١٤٥٤ - وفي حديث الصلاة: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ».

١٤٥٥ - وفي حديث آخر: «وعلى آل محمد»: قيل: أتباعه، وقيل: آل بيته، وقيل: أمته. وقيل: الأتباع، والرُّفط، والعشيرة. وقيل: آل الرجل: قومه. وقيل: ولده. وقيل: أفعله الذين حُرِّمَتْ عليهم الصدقة.

١٤٥٦ - وفي رواية أنس: سئل النبي ﷺ: مَنْ آلُ مُحَمَّدٍ؟ قال: «كُلُّ نَفْقَةٍ».

١٤٥٧ - ونجىء على مذهب الحسن أن المراد بآل محمد: مُحَمَّدٌ نَفْسُهُ؛ فإنه كان يَقُولُ في صلاته على النبي ﷺ: اللهم! اجعل صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، يريد: نَفْسُهُ؛ لأنه كان لا يُخَلُّ بِالْفَرَضِ، وَيَأْتِي بِالنُّفْلِ؛ لِأَنَّ الْفَرَضَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ هُوَ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَفْسِهِ.

١٤٥٨ - وهذا مِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» [البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٢٣٦/٧٩٣)]، يريد: مِنْ مِزَامِيرِ دَاوُدَ.

١٤٥٩ - وفي حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ».

١٤٦٠ - وفي حديث ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى الْأَنْدَلِسِيِّ.

١٤٦١ - وَالصَّحِيحُ مِنْ رِوَايَةِ غَيْرِهِ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

١٤٦٢ - وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: كُنَّا نَدْعُو لِأَصْحَابِنَا بِالْغَيْبِ؛ فَتَقُولُ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ مِنْكَ عَلَى فُلَانٍ صَلَوَاتٍ قَوْمِ أَرْبَارٍ، الَّذِينَ يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ، وَيَصُومُونَ بِالنَّهَارِ.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحققون، وأميل إليه، ما قاله مالك وصفيان رحمهما الله وروى عن ابن عباس؛ واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِهِمْ؛ بَلْ هُوَ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، تَوْقِيراً لَهُمْ وَتَعْزِيزاً، كَمَا يُخَصُّ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِهِ بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَا يَشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، كَذَلِكَ يَجِبُ تَخْصِيصُ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ

بالصلاة والتسليم ولا يشارِكهم فيه سيّوَاهم، كما أمرَ اللهُ به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وَيُذَكَّرُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَنْثَمَةِ وَغَيْرِهِم بِالْعُقْرَانِ وَالرَّضَا؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا وَلَا تُخَازِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ...﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأيضاً فهو أمرٌ لم يَكُنْ معروفاً في الصُّدْرِ الأول؛ كما قال أبو عَمْرٍاء؛ وإنما أحدثته الرافضة والمتشعبة في بعض الأنثمة؛ فشازكوهم عند الذِّكْرِ لهم بالصلاة، وساوَوْهم بالنبي ﷺ في ذلك.

وأيضاً فإنَّ التشبُّه بأهلِ البِدْعِ منهيٌّ عنه؛ فتَجِبُ مُخَالَفَتُهُمْ فيما التزموه من ذلك.

وذَكَرُ الصلاة على الآلِ والأزواج مع النبي ﷺ بِحُكْمِ التَّبَعِ والإضافة إليه لا على التخصيص.

قالوا: وصلاة النبي ﷺ على مَنْ صَلَّى عليه مُجْرَاهَا مُجْرَى الدَّعَاءِ والمُواجهَةِ، ليس مِنْهَا معنى التعظيم والتوقير.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وكذلك يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الدَّعَاءُ لَهُ مُخَالَفاً لدُعَاءِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وهذا اختيارُ الإمام أبي المظفر الإسفراييني أحد شيوخنا، وبه قال ابنُ عَبدِ البرِّ.

فصل

فِي حُكْمِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَضِيلَةِ مَنْ زَارَهُ
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُسَلِّمُ وَيَدْعُو لَهُ

وزيارَةُ قَبْرِه - عليه السلام - سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُسْلِمِينَ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا، وَفَضِيلَةٌ مُرَغَّبٌ فِيهَا، رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤٦٣ - حدثنا القاضي أبو علي؛ قال: حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون؛ قال: حدثنا الحَسَنُ بن جَعْفَرٍ؛ قال: حدثنا أبو الحَسَنِ: علي بن عُمَرَ الدَارَقُطْنِي؛ قال:

حدثنا القاضي المحاملي؛ قال: حدثنا محمد بن عبد الرزاق؛ قال: حدثنا موسى بن هلال، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي».

١٤٦٤ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَارَنِي فِي الْمَدِينَةِ مُخْتَبِئاً كَانَ فِي جَوَارِي، وَكَنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٤٦٥ - وفي حديث آخر: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي».

١٤٦٦ - وكَرِهَ مالِكُ أَنْ يُقَالَ: زُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ.

١٤٦٧ - وقد اختلف في معنى ذلك؛ فقيل: كراهة الاسم؛ لِمَا وَرَدَ مِنْ

قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَعَنَ اللَّهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ» [أحمد (٣٣٧/٢)، الترمذي (١٠٥٦)، ابن ماجه (١٥٧٦)].

١٤٦٨ - وهذا يرُدُّهُ قَوْلُهُ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا» [مسلم (٩٧٧)].

١٤٦٩ - وقوله: «مَنْ زَارَ قَبْرِي» فقد أُطْلِقَ اسْمُ الرِّيَاةِ.

وقيل: إِنْ ذَلِكَ لِمَا قِيلَ: إِنْ الزَّائِرَ أَفْضَلَ مِنَ الْمُرُورِ.

١٤٧٠ - وهذا أيضاً ليس بشيء؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ زَائِرٍ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَيْسَ

عَمُوماً؛ وقد وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: رِيَاةُ لِرَبِّهِمْ [الترمذي (٢٥٤٩)، ابن ماجه (٤٣٣٦)]؛ وَلَمْ يَمْتَنِعْ هَذَا اللَّفْظُ فِي حَقِّهِ نَعَالِي.

وقال أبو عمران - رحمه الله - : إِنَّمَا كَرِهَ مَالِكٌ أَنْ يُقَالَ: طَوَافُ الزِّيَارَةِ، وَزُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ لَا اسْتِعْمَالَ النَّاسِ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ فَكَرِهَ تَسْوِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ النَّاسِ بِهَذَا اللَّفْظِ؛ وَأَحَبُّ أَنْ يُحْصَى بِأَنْ يُقَالَ: سَلَّمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وأيضاً فَإِنَّ الرِّيَاةَ مُبَاحَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَوَاجِبٌ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى قَبْرِهِ ﷺ؛ يَرِيدُ بِالْوُجُوبِ هُنَا وَجُوبَ تَذَبُّبٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَأْكِيدٍ، لَا وَجُوبَ قَرَصٍ.

١٤٧١ - وَالْأَوَّلَى عِنْدِي أَنْ مَنَعَهُ وَكَرَاهَةُ مَالِكٍ لَهُ لِإِضَاقَتِهِ إِلَى قَبْرِ

النَّبِيِّ ﷺ؛ وَأَنَّهُ لَوْ قَالَ: زُرْنَا النَّبِيَّ لَمْ يَكْرَهْهُ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ! لَا تَجْعَلَ قَبْرِي وَثْناً يُغْبَذُ بَعْدِي، اسْتَنْدَ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

فَحُمِيَ إِضَافَةُ هَذَا اللَّفْظِ إِلَى الْقَبْرِ، وَالتَّشْبِيهُ بِفِعْلِ أَوْلَئِكَ؛ فَطَعُماً لِلدَّرِيعَةِ، وَحُسْماً لِلْيَابِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: وَمِمَّا لَمْ يَزَلْ مِنْ شَأْنِ مَنْ حَجَّ الْمَرْوَةَ

بالمدينة، والقصدُ إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، والتبرُّك برؤية روضته وميبره وقبره، ومجلسه، وملابس يديه، ومواطىء قدميه، والعمود الذي كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، ويمن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

وقال ابن أبي قُذَيْك: سمعتُ بعضَ مَنْ أذركتُ يقول: بلغنا أنه مَنْ وقف عند قُبر النبي ﷺ فتلاً هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم قال: صلى الله عليك، يا محمداً! مَنْ يَقُولُهَا سبعين مرةً ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان! ولم تنقط له حاجة.

١٤٧٢ - وعن يزيد بن أبي سَعِيد المَهْرِي: قدمتُ على عُمر بن عبد العزيز، فلما ودَّعته قال لي: إليك حاجة؛ قلت: ما هي؟ قال: إذا أتيت المدينة سترى قُبر النبي ﷺ، فأقره مني السلام.

وقال غيره: وكان يتردُّ إليه البريدُ من الشام.
١٤٧٣ - قال بعضهم: رايتُ أنس بن مالك أتى قُبر النبي ﷺ؛ فوقف، ورفع يَدَيْهِ، حتى ظننتُ أنه افتتح الصلاة، فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف.

١٤٧٤ - وقال مالك - في رواية ابن وهب - في الرجل إذا سلَّم على النبي ﷺ ودَّعَا: يقفُ ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، ويدنو، ويسلم، ولا يمسُّ القُبر بيده.

١٤٧٥ - وقال في «المبسوط»: لا أرى أن يقفَ عند قُبر النبي ﷺ يَدْعُو، ولكن يسلم وينفضي.

١٤٧٦ - قال ابن أبي مُلَيْكَةَ: مَنْ أحبَّ أن يقومَ وجَّاه النبي ﷺ فليجعل القنديل الذي في القبلة عند القُبر على رأسه.

١٤٧٧ - وقال نافع: كان ابنُ عُمر يسلمُ على القُبر؛ رأيتُه مئة مرةً وأكثر، يجيء إلى القبر فيقول: السلامُ على النبي ﷺ، السلامُ على أبي بكر، السلامُ على أبي، ثم ينصرف.

١٤٧٨ - ورئي ابنُ عُمر واضعاً يَدَهُ على مَقْعَد النبي ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه.

١٤٧٩ - وعن ابن قُسيط والعُثْبِي: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا خلا المسجدُ جَسُّوا رُمانة الجُبْرِ التي تلي القُبر بَمَيَامِينِهِمْ، ثم استقبلوا القبلة يَدْعُونَ.

١٤٨٠ - وفي الموطأ - من رواية يحيى بن يحيى اللَّيْثِي - أنه كان يقفُ على

قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١ - وَعَنْدَ ابْنِ الْقَاسِمِ وَالْفُغَيْبِيِّ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١م - قَالَ مَالِكٌ - فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ -: يَقُولُ الْمُسْلِمُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

١٤٨١م - قَالَ فِي «الْمَبْسُوطِ»: وَيُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١م - قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي: وَعِنْدِي أَنَّهُ يَدْعُو لِلنَّبِيِّ ﷺ بِلَفْظِ الصَّلَاةِ، وَلِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمرَ مِنَ الْخِلَافِ.

١٤٨١م - وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: وَيَقُولُ إِذَا دَخَلَ مَسْجِدَ الرَّسُولِ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَسَلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، وَصَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ. اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَجَنَّتِكَ، وَاحْفَظْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ اقْصِدْ إِلَى الرُّوضَةِ - وَهِيَ مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ - فَارْكَعْ فِيهَا رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ وَقُوفِكَ بِالْقَبْرِ تُحْمَدُ اللَّهُ فِيهِمَا وَتَسْأَلُهُ تَمَامَ مَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ وَالْعَوْنُ عَلَيْهِ.

وَأِنْ كَانَتْ رَكَعَتَانِ فِي غَيْرِ الرُّوضَةِ أَجْزَأَنَّكَ، وَفِي الرُّوضَةِ أَفْضَلُ.

١٤٨٢ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ؛ وَمِنْبَرِي عَلَى تَرْعَةٍ مِنْ ثَرَعِ الْجَنَّةِ» [أحمد (٣٣٥/٥)].

ثُمَّ تَغْبُفُ بِالْقَبْرِ مُتَوَاضِعاً مُتَوَقِّراً، فَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَتُثْنِي بِمَا يَخْضُرُكَ، وَتُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَتَدْعُو لَهُمَا.

وَأَكْثَرُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَأْتِيَ مَسْجِدَ قُبَاءَ وَقُبُورَ الشَّهَدَاءِ.

وَقَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ: وَيُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِذَا دَخَلَ وَخَرَجَ - يَعْنِي فِي الْمَدِينَةِ - وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ: وَإِذَا خَرَجَ جَعَلَ آخِرَ عَهْدِهِ الْوُقُوفَ بِالْقَبْرِ، وَكَذَلِكَ مَنْ خَرَجَ مُسَافِراً.

١٤٨٣ - وَزَوَّيْ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجْتَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»..

١٤٨٤ - وفي رواية أخرى: «فليسلم» مكان: فليصل فيه، ويقول إذا خرج: «اللهم! إني أسألك من فضلك» [أبو داود (٤٦٥)، مسلم (٧١٣)].

١٤٨٥ - وفي رواية أخرى: «اللهم! احفظني من الشيطان الرجيم» [ابن ماجه (٧٧٣)].

١٤٨٥م - وعن محمد بن سيرين: كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد: صلّى الله وملائكته على محمد. السلام عليك أيها النبي! ورحمة الله وبركاته، باسم الله دخلنا، وباسم الله خرجنا، وعلى الله توكلنا. وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك.

١٤٨٦ - وعن فاطمة أيضاً: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال: «صلّى الله على محمد وسلم» [الترمذي (٣١٤)، أحمد (٢٨٢/٦)، (٢٨٣)]. ثم ذكر مثل حديث فاطمة قبل هذا.

١٤٨٧ - وفي رواية: حمد الله وسمّى، وصلّى على النبي ﷺ، وذكر مثله.

١٤٨٨ - وفي رواية: «باسم الله، والسلام على رسول الله» [ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٢٨٣/٦)].

١٤٨٩ - وعن غيرها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال: «اللهم! افتح لي أبواب رحمتك، ويسر لي أبواب رزقك».

١٤٩٠ - وعن أبي هريرة: «إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي ﷺ، وليقل: اللهم افتح لي...».

وقال مالك في «المبسوط»: وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبور؛ وإنما ذلك للغرباء.

وقال فيه أيضاً: لا بأس لمن قدم من سفر، أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلّي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر.

فقبل له: فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر؛ وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة.

فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتزكّه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها؛ ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ونكره إلا لمن جاء من سفر أو أراد.

قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا إليها أتوا الفقيه فسلموا قال: وفلك رأي.

قال الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة فقيمون بها لم يقصدوها من أجل الفقه والتسليم.

١٤٩١ - وقال عليه السلام: «اللهم! لا تجعل قبري وثناً يعبد» اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

١٤٩٢ - وقال: «لا تجعلوا قبري عبداً» (أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٣٦٧/٣)).

ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي - فيمن وقف بالفقه لا يلصق به، ولا يمشه، ولا ينف عنه طويلاً.

وفي «الغنية» يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد رسول الله ﷺ وأحب مواضع التفل فيه فصلن النبي ﷺ حيث العمود المخلوق.

وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف والتفل فيه للغرباء أحب إلي من التفل في البيوت.

فصل

فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب

سوى ما قدمناه، وفضله، وفضل الصلاة فيه، وفي مسجد مكة،

وذكر قبره ومنبره، وفضل سكنى الضيعة ومكة

قال الله تعالى: «الْمَسْجِدُ الْأَيْمَنُ عَلَى النَّبِيِّ أَيُّ يَوْمٍ أَحَبُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ...» (التوبة ١٠٨).

١٤٩٣ - روي أن النبي ﷺ سئل: أي مسجد هو؟ قال: هو مسجدي هذا (مسلم (١٣٩٨)).

وهو قول ابن المسيب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، ومالك بن أنس، وغيرهم.

١٤٩٤ - وعن ابن عباس أنه مسجد قباء.

١٤٩٥ - حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقرائتي عليه؛ قال: حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو نعيم الثمري، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن قاسم، حدثنا أبو داود، حدثنا مسدد، حدثنا صفوان، عن الزهري، عن

سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «لا تُشدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» [أبو داود (٢٠٣٣)، البخاري (١١٨٩)، مسلم (١٣٩٧)].

وقد تقدّمت الآثارُ في الصلوة والسلام على النبي ﷺ عند دخول المسجد. ١٤٩٦ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنّ النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذُ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» [أبو داود (٤٦٦)].

١٤٩٧ - وقال مالك - رحمه الله -: سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوتاً في المسجد، فدعا بصاحبه؛ فقال: «مَنْ أَنْتَ؟ قال: رجلٌ مِنْ ثَقِيفٍ. قال: لو كُنْتُ من هاتين القريتين لأدْبَنْتُكَ، إنّ مسجدنا هذا لا يُرْفَع فيه الصوت» [البخاري (٤٧٠)].

قال محمد بن مسلمة: لا يَنْبَغِي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت، ولا بشيء من الأدنى، وأن يُتَزَّهَ عَمَّا يُكْرَهُ.

قال القاضي: حكى ذلك كله القاضي إسماعيل في «مبسوطه» في باب فضل مسجد النبي ﷺ. والعلماء كلُّهم مُتَّفِقُونَ على أنّ حُكْمَ سائر المساجد هذا الحُكْم.

قال القاضي إسماعيل: وقال محمد بن مسلمة: ويكره في مسجد الرسول ﷺ الجَهْرُ على المصلين فيما يخلطُ عليهم صلاتهم، وليس مما يخصُّ به المساجد رفع الصوت، قد كُرهَ رفع الصوت بالتلبية في مساجد الجماعات إلّا المسجد الحرام ومسجد منى.

١٤٩٨ - وقال أبو هريرة، عنه عليه السلام: «صلاة في مسجدي هذا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فيما سواه، إلّا المسجد الحرام» [البخاري (١١٩٠)، مسلم (١٣٩٤)].

قال القاضي أبو الفضل: اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المُقَاصِلَة بين مكة والمدينة؛ فذهب مالك - في رواية أشهب عنه - وقال ابنُ نافع صاحبه، وجماعة أصحابه، إلى أنّ معنى الحديث أن الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة إلّا المسجد الحرام؛ فإنّ الصلاة في مسجد النبي ﷺ أفضل من الصلاة فيه بدون الألف.

١٤٩٩ - واحتجوا بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: صلاة في

المسجد الحرام خَيْرٌ من مئة صلاةٍ فيما سواه. فتأني فضيلةُ مسجدِ الرَّسُولِ ﷺ يتسنع مئة، وعلى غيره بألف.

وهذا مَبْنِيٌّ عَلَى تَفْضِيلِ الْمَدِينَةِ عَلَى مَكَّةَ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ؛ وهو قولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَمَالِكٍ، وَأَكْثَرِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وذهب أهلُ الكوفةِ ومكة إلى تفضيل مكة؛ وهو قولُ عطاءٍ، وابنِ وَهْبٍ وابنِ خَبِيبٍ من أصحابِ مالِكٍ، وحكاها السَّاجِي عن الشافعي؛ وخملوا الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره، وأنَّ الصلاةَ في المسجد الحرام أفضل.

١٥٠٠ - واحتجُّوا بحديثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عن النَّبِيِّ ﷺ بمثلِ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ وفيه: «وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِئَةِ صَلَاةٍ» [أحمد (٥/٤)].

وزوى قتادة مثله؛ فيأتي فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - عَلَى هَذَا - عَلَى الصَّلَاةِ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِمِئَةِ أَلْفٍ.

ولا خِلَافٌ أَنَّ مَوْضِعَ قَبْرِه أَفْضَلُ بِقَاعِ الْأَرْضِ. قال القاضي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي: الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَدِيثُ مُخَالَفَةُ حُكْمِ مَسْجِدِ مَكَّةَ لِسَائِرِ الْمَسَاجِدِ، وَلَا يَغْلَمُ مِنْهُ حُكْمُهَا مَعَ الْمَدِينَةِ.

وذهب الطُّخَاوِيُّ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّضْيِيلَ إِنَّمَا هُوَ فِي صَلَاةِ الْفَرَضِ. وذهب مُطَرِّفٌ - مِنْ أَصْحَابِنَا - إِلَى أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّافِلَةِ أَيْضاً؛ قَالَ: وَجُمُعَةٌ خَيْرٌ مِنْ جُمُعَةٍ، وَرَمَضَانٌ خَيْرٌ مِنْ رَمَضَانَ.

١٥٠١ - وقد ذكر عبدالرزاق في تفضيل رمضان بالمدينة وغيرها حديثاً نحوه.

١٥٠٢ - وقال - عليه السلام - «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِثْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ» [البخاري (١١٩٥)، مسلم (١٣٩٠)].

١٥٠٣ - ومثله عن أبي هُرَيْرَةَ - أَوْ أَبِي سَعِيدٍ - وَزَادَ: «وَمِثْبَرِي عَلَى حَوْضِي» [البخاري (١١٩٦)، مسلم (١٣٩١)].

١٥٠٤ - وفي حديث آخر: «مِثْبَرِي عَلَى تَرْعَةٍ مِنْ تَرْعِ الْجَنَّةِ». قال الطبري: فِيهِ مَغْنِيَانِ:

١٥٠٥ - أحدهما: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَيْتِ: بَيْتُ سُكْنَاهُ عَلَى الظَّاهِرِ، مَعَ أَنَّهُ زُيِّدَ مَا يَبِينُهُ: «بَيْنَ حُجْرَتِي وَمِثْبَرِي» [أحمد (٣٨٩/٣)].

١٥٠٦ - والثاني: أَنَّ الْبَيْتَ هَذَا الْقَبْرُ؛ وهو قولُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ فِي هَذَا

الحديث، كما رُوِيَ: «بين قبري ومِنبري» [أحمد (٦٤/٣)]. قال الطَّبْرِي: وإذا كان قَبْرُهُ فِي بَيْتِهِ اتَّفَقَتْ مَعَانِي الرِّوَايَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا جِلَافٌ؛ لِأَنَّ قَبْرَهُ فِي حُجْرَتِهِ، وَهُوَ بَيْتُهُ.

وقوله: «وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»: قِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ مَنْبَرُهُ بَعَيْنُهُ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا؛ وَهُوَ أَظْهَرُ.

والثَّانِي: أَنَّهُ يَكُونُ لَهُ هُنَاكَ مَنْبَرٌ.
والثَّالِثُ: أَنَّ قَصْدَ مَنْبَرِهِ وَالْحَضُورَ عِنْدَهُ لِمُلَازِمَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يُورَدُ الْحَوْضُ، وَيُوجِبُ الشَّرْبَ مِنْهُ، قَالَه الْبَاجِي.

وقوله: «رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ» يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مُوجِبٌ لَذَلِكَ، وَأَنَّ الدُّعَاءَ وَالصَّلَاةَ فِيهِ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ.

١٥٠٧ - كَمَا قِيلَ: «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السِّبْوَفِ» [البخاري (٢٨١٨)، مسلم (١٧٤٢)].

والثَّانِي: أَنَّ تِلْكَ الْبُقْعَةَ قَدْ يَنْقُلُهَا اللَّهُ فَتَكُونُ فِي الْجَنَّةِ بَعَيْنَهَا؛ قَالَه الدَّوْدِيُّ.

١٥٠٨ - وَرَوَى ابْنُ عَمْرٍو، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْمَدِينَةِ: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَانِهَا، وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيداً - أَوْ شَفِيعاً - يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [مسلم (١٣٧٧)].

١٥٠٩ - وَقَالَ فَيَمَنْ تَحَمَّلَ عَنِ الْمَدِينَةِ: «وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].

١٥١٠ - وَقَالَ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبْنَهَا، وَتَنْصَعُ طَيِّبَهَا» [البخاري (١٨٨٣)، مسلم (١٣٨٣)].

١٥١١ - وَقَالَ: «لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنَ الْمَدِينَةِ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْذَلَهَا اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ» [مسلم (١٣٦٣)].

١٥١٢ - وَرَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ حَاجِباً أَوْ مُتَمَرِّراً، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عَذَابَ».

١٥١٣ - وَفِي طَرِيقٍ آخَرَ: «بُعِثَ مِنَ الْأَمِينِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٥١٤ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلَنِيْمُتَ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا» [الترمذي (٣٩١٧)، ابن ماجه (٣١١٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَوَّ يَتَنِي وَضَعَ لِلنَّاسِ لَهْدَى سَكَّةً مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾
فِي مَكْنَتَا يَتَنِي مُقَامٌ زَوِيَّةٌ وَمَنْ دَخَلَ كَانَ مَأْمُومًا (الاعراب: ٩٦، ٩٧).

قال بعض المفسرين: ﴿مَأْمُومًا﴾ من النار. وقيل: كان يأمن من الطلب من
أحدث حدثاً خارجاً عن الحرم، ولجأ إليه في الحاملية؛ وهذا مثل قوله: ﴿وَأَن
جَعَلْنَا آلِيكَ مَثَلًا لِّلنَّاسِ وَأَنْتَ﴾ (الفرق: ١٢٥) على قول بعضهم.

وحكي أن قوماً أتوا سفود الحولاني بالمنشبر فأعلموه أن كُتامة قتلوا
رخلاً، وأضرموا عليه النار طول الليل. فلم تعمل فيه شيئاً وبقي أبيض البند،
فقال: لعله حج ثلاث حجج؟! قالوا: نعم. قال: حدثت أن من حج حججة أئني
فرضه، ومن حج ثابته دابن ربه، ومن حج ثلاث حجج حرم الله شجره وبشره
على النار.

١٥١٥ - ولما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مَرْجَأُ بَك مِنْ بَيْتٍ مَا
أَعْظَمَكَ! وَأَعْظَمَ خُرْمَتَكَ!» (الترمذي: ٢٠٣٢).

١٥١٦ - وفي الحديث، عنه عليه السلام: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ
الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْمِزَابِ».

١٥١٧ - وعنه عليه السلام: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ وَكَمَنْتَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَخَسِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمِينِ».

١٥١٨ - قال الفقيه القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: قرأت علي القاضي
الحافظ أبي علي رحمه الله، قلت له: حدثك أبو العباس الغنوي؟ قال: حدثنا
أبو أسامة: محمد بن أحمد بن محمد الهروي، حدثنا الحسن بن زئبق، سمعت
أبا الحسن: محمد بن الحسن بن راشد، سمعت أبا بكر: محمد بن إدريس،
سمعت الحميدي، قال: سمعت سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، قال: سمعت غفرو بن دينار
قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا دَعَا أَحَدٌ بِشَيْءٍ
فِي هَذَا الْمَلْتَزَمِ إِلَّا اسْتَجِبَ لَهُ».

قال ابن عباس: وأنا لما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا
من رسول الله ﷺ إِلَّا اسْتَجِبَ لِي.

وقال غفرو بن دينار: وأنا لما دعوت الله تعالى بشيء في هذا الملتزم منذ
سمعت هذا من ابن عباس إِلَّا اسْتَجِبَ لِي.

وقال سُفْيَانُ: وأنا لما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من
غفرو بن دينار إِلَّا اسْتَجِبَ لِي.

قال الحميدي: وأنا فما دعوتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من سُفيان إلا استجيب لي.

وقال محمد بن إدريس: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من الحميدي إلا استجيب لي.

وقال أبو الحسن: محمد بن الحسن: وأنا فما دعوتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من محمد بن إدريس إلا استجيب لي.

قال أبو أسامة: وما أذكر الحسن بن رَبيق قال فيه شيئاً: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من الحسن بن رَبيق إلا استجيب لي من أمر الدنيا، وأنا أرجو أن يُستجاب لي من أمر الآخرة.

قال العُدري: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من أبي أسامة إلا استجيب لي.

قال أبو علي: وأنا فقد دعوتُ الله فيه بأشياء كثيرة واستجيب لي بعضها، وأرجو من بَعَةِ فَضله أن يستجيب لي بقيتها.

قال القاضي أبو الفضل: قد ذكرنا بُدأً من هذه التُّكت في هذا الفضل وإن لم تكن من الباب، لتعلقها بالفضل الذي قبله جِزْصاً على تمام الفائدة؛ واللَّهُ الموفق للصواب برحمته.



القسم الثالث

فِيمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَجِيزُ فِي حَقِّهِ
أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَمْتَنِعُ أَوْ يَصِحُّ
مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَبِّئْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ نَنْظُرُ أَنْظُرْ أَنَّ يَوْمَكُورُ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠].
فمحمد ﷺ ومائر الأنبياء من البشر، أرسلوا إلى البشر، ولولا ذلك لما أطاع الناس مفاومتهم، والقبول عنهم، ومخاطبتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]؛ أي لما كان إلا في صورة البشر الذين يمكنكم مخاطبتهم ومخاطبتهم؛ إذ لا تطيقون مقاومة الملك، ومخاطبته، ورؤيته، إذا كان على صورته.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا لَّيَمُوتُنَّ مَطْمَئِينَ لَنَرْكَأَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ أي لا يمكن في سنة الله إرسال

الْمَلَكُ إِلَّا لِمَنْ هُوَ مِنْ جَنْسِهِ، أَوْ مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصْطَفَاهُ وَقَوَّاهُ عَلَى مَقَاوِمِهِ، كَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

فَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَمَسَائِطُ بَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ يُبَلِّغُونَهُمْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ بِمَا لَمْ يَغْلُمُوهُ مِنْ أَمْرِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَجَبَرُوتِهِ وَمَلَكُوتِهِ؛ فَظَوَاهِرُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ وَبَنِيَّتُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِأَوْصَافِ الْبَشَرِ، طَارِئٌ عَلَيْهَا مَا يَنْظُرُ عَلَى الْبَشَرِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَنَعَوَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَأَزْوَاجِهِمْ وَبِوَاطِنِهِمْ مُتَّصِفَةٌ بِأَعْلَى مِنْ أَوْصَافِ الْبَشَرِ، مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، مُتَشَبِّهَةٌ بِصِفَاتِ الْمَلَائِكَةِ، سَلِيمَةٌ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْآفَاتِ، لَا يَلْخَقُهَا غَالِبًا عَجْزُ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا ضَعْفُ الْإِنْسَانِيَةِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ بِوَاطِنِهِمْ خَالِصَةٌ لِلْبَشَرِيَّةِ كَظَوَاهِرِهِمْ لَمَّا أَطَاقُوا الْأَخْذَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، وَرَوْيَتِهِمْ لَهُمْ وَمَخَاطَبَتِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَمُخَالَطَتِهِمْ، كَمَا لَا يُطَبِّقُهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ.

وَلَوْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِنَعَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِخِلَافِ صِفَاتِ الْبَشَرِ، لَمَّا أَطَاقَ الْبَشَرُ وَمَنْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ مُخَالَطَتَهُمْ، كَمَا تَقْدَمُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: فَجَعَلُوا مِنْ جِهَةِ الْأَجْسَامِ وَالظُّوَاهِرِ مَعَ الْبَشَرِ، وَمِنْ جِهَةِ الْأَرْوَاحِ وَالْبِوَاطِنِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ.

١٥١٩ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَمْتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا؛ وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامُ، لَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ».

١٥٢٠ - وَكَمَا قَالَ: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

١٥٢١ - وَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيْنِي».

فَبِوَاطِنِهِمْ مَنْزَهَةٌ عَنِ الْآفَاتِ، مُطَهَّرَةٌ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْإِعْتِلَالَاتِ. وَهَذِهِ جَمَلَةٌ لَنْ يَكْتَفِي بِمُضْمُونِهَا كُلِّ ذِي هِمَّةٍ؛ بَلِ الْكَثْرُ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطٍ وَتَفْصِيلٍ عَلَى مَا نَأْتِي بِهِ بَعْدَ هَذَا الْبَابِ فِي الْبَابَيْنِ بَعْدَ اللَّهِ وَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.



الباب الأول

فِيمَا يَخْتَصُّ بِالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَلامِ فِي عِصْمَةِ نَبِيِّنَا
وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه : اعلم أن الطوائر من التعيرات والآفات
على أحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه ، أو على حوائثه بغير قصد واختيار ،
كالأمراض والأسقام ، أو تطرأ بقصد واختيار ، وكله هي الحقيقة عمل وفعل ، ولكن جرى
رسم المشايخ ينصبه إلى ثلاثة أنواع : عقد القلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح .
وجميع البشر نظراً عليهم الآفات والتعيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه
الوجوه كلها .

والنبي ﷺ - وإن كان من البشر ، وبحوز على جبلته ما يحوز على حيلة
البشر - فقد قامت البراهين الفاطمية ، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم ،
وتزويده عن كثير من الآفات التي نفع على الاختيار وعلى غير الاختيار ، كما
سئله - إن شاء الله - فيما يأتي به من التفاصيل .

فصل

فِي حَكْمِ عَقْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ نُبُوَّتِهِ

اعلم - منحا الله وإياك توفيقه - أن ما نعلق به بطريق التوحيد ، والعلم بالله
وصفاته ، والإيمان به ، وسما أوجي إليه ، فعلى غاية المعرفة ، ووضوح العلم
واليقين ، والانتفاء عن التحفل بشيء من ذلك ، أو الشك أو الزيب فيه ، والعصمة
من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين .

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه؛ فلا يُعترض على هذا بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء؛ فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته.

الوجه الثاني: أن إبراهيم - عليه السلام - إنما أراد اختبار منزلته عند ربه، وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربه؛ ويكون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَوْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ أي تصدق بمترلتك مني، وخلتك، واصطفائك؟.

الوجه الثالث: أنه سأل زيادةً يقين وقوة طمأنينة، وإن لم يكن في الأول شك؛ إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تفاضل في قوتها، وطريقتان الشكوك على الضروريات مُنتع؛ ومجوز في النظريات؛ فأراد الانتقال من النظر إلى الخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين؛ فليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بثور اليقين تمكناً في حاله.

الوجه الرابع: أنه لما احتج على المشركين بأن ربه يحيي ويميت طلب ذلك من ربه، ليصح احتجاجه عياناً.

الوجه الخامس: قول بعضهم: هو سؤال على طريق الأدب؛ المراد: أقدزني على إحياء الموتى، وقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ عن هذه الأهمية. الوجه السادس: أنه أرى من نفسه الشك، وما شك، لكن لجواب فيزداد قوته.

١٥٢٢ - وقول نبينا عليه السلام: «نحن أحن بالشك من إبراهيم»: نفى لأن يكون إبراهيم شك، وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بإبراهيم عليه السلام؛ أي نحن موقنون بالبغث، وإحياء الله الموتى؛ فلو شك إبراهيم لكنا أولى بالشك منه؛ إما على طريق الأدب، أو أن يريد أمتة الذين يجوز عليهم الشك، أو على طريق التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله، أو زيادة يقينه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥].

فاحذَر - ثَبَّتَ اللَّهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ - أَنْ يَخْطُرَ بِتَالِكَ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ،
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - أَوْ غَيْرِهِ - مِنْ إِبْطَاتِ شَكِّ النَّبِيِّ ﷺ قَبِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ
الْبَشَرِ، فَمِثْلُ هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٥٢٣ - بَلْ قَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَشْكُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَسْأَلْ.

وَنَحْوَهُ عَنِ ابْنِ خَبِيرٍ، وَالْحَسَنِ.

١٥٢٤ - وَحَكَى قَتَادَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»، وَعَامَّةُ

الْمُفَسِّرِينَ عَلَى هَذَا.

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْآيَةِ: فَقِيلَ: الْمُرَادُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِلشَّكِّ: ﴿إِن كُنْتُ
فِي شَكٍّ...﴾ الْآيَةُ (يُوسُفُ: ٩٤).

فَالْوَأْدُ: وَفِي السُّورَةِ تَفْصِيلُهَا مَا دُلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَصْغَدُ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي
يَتَوَفَّاكُمْ وَالْمِزَتْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يُوسُفُ: ١٠٤).

وقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْخُطَابِ الْعَرَبِ وَعَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا قَالَ: ﴿لَئِنْ أَفْرَكْتَ
لَيَجْطِئَنَّ عَمَلُكَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الرَّحْمَةُ: ١٦٥) الْخُطَابُ لَهُ، وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ (مُودُ: ١٠٩)
وَنَظِيرُهُ كَثِيرٌ.

قَالَ تَكْرُرُ بَيْنَ الْعَلَاءِ: أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ
فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (يُوسُفُ: ٩٥). وَهُوَ ﷺ كَانَ الْمُكَذِّبَ قَبِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ؛
فَكَيْفَ يَكُونُ مِمَّنْ يَكْذِبُ بِهِ؟

فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخُطَابِ غَيْرُهُ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ قَتَلَ يَوْمَ حَبْرَةَ﴾ (الْفُرْقَانُ: ٥٩) السَّامُورُ
هَـ هَـا هَـنَا غَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ، لِبَسَالِ النَّبِيِّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْخَبِيرُ الْمَسْئُولُ، لَا
الْمُسْتَخِيرَ السَّائِلَ.

وَقَالَ: إِنْ هَذَا الشَّكُّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ غَبَرَ النَّبِيِّ ﷺ بِسُؤَالِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ
الْكِتَابَ إِنَّمَا هُوَ قَبِمَا فَضَّلَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ، لَا قَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ
وَالشَّرِيعَةِ.

وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يَمُوتُونَ﴾ (الزَّحْرَفُ: ٢٥) الْمُرَادُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَالْخُطَابُ مُوَاجَهَةٌ
لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَهُ الْقُتَيْبِيُّ.

وقيل: المعنى سَلْنَا عَمَّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ؛ فُحْذِفَ الْخَافِضُ، وَتَمَّ الْكَلَامُ؛
ثم ابتداء الكلام: ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ [الزخرف: ٤٥] الآية إلى آخرها على
طريق الإنكار؛ أي ما جعلنا؛ حكاة مَكِّي.

وقيل: أمير النبي ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْأَنْبِيَاءَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَنْ ذَلِكَ؛ فَكَانَ أَشَدَّ
يَقِينًا مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى السُّؤَالِ.

١٥٢٥ - فُرُوِي أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَسْأَلُ؛ قَدْ اكْتَفَيْتُ»؛ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ.

وقيل: سَلْ أَسْمَ مَنْ أَرْسَلْنَا؛ هَلْ جَاؤُوهُمْ بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ؟ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ
مُجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَالضُّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ.

وَالْمُرَادُ بِهَذَا الَّذِي قَبْلَهُ إِعْلَامُهُ بِمَا يُعْتَبَرُ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ فِي
عِبَادَةِ غَيْرِهِ لِأَحَدٍ؛ رَدًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ مَاتَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُرَرْ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أَيِ فِي عِلْمِهِمْ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ
يُقَرِّبُوا بِذَلِكَ؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ شَكُّهُ فِيمَا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ آيَةِ.

وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَلَى مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ؛ أَيِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِمَنْ ائْتَرَى فِي
ذَلِكَ: لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْتَرِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ أَوَّلَ آيَةِ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغَى حَكْمًا
وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ مَاتَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُرَرْ مِنْ
رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَخَاطَبُ
بِذَلِكَ غَيْرَهُ.

وقيل: هو تقرير؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَأْتِ قُلْتَ لِلنَّاسِ
أَتُخَذُونِي وَإِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ.
وقيل: معناه ما كنت في شك فاسأل تَزِدُّ طُمَأْنِينَةً وَعِلْمًا إِلَى عِلْمِكَ،
وَيَقِينًا.

وقيل: إِنْ كُنْتَ تَشْكُ فِيمَا شَرَّفْنَاكَ وَفَضَّلْنَاكَ بِهِ فَسَلُّهُمْ عَنْ صِفَتِكَ فِي
الْكِتَابِ وَنَشْرِ فِضَائِلِكَ.

وَحُكِّي عَنْ أَبِي عُيَيْدَةَ أَنَّ الْمُرَادَ: إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ غَيْرِكَ فِيمَا أَنْزَلْنَاهُ.
فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْقَسَ الرُّسُلُ وَطَلَّتْ أَرْسُلُهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾

[يوسف: ١١٠] عَلَى قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ؟

قلنا: الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَظُنَّ ذَلِكَ

الرسول برنها؛ وإنما معنى ذلك أن الرسول لما استأنسوا ظنوا أن من وعدتهم النصر من أتباعهم كتبوهم؛ وعلى هذا أكثر المحققين.

وقيل: إن الضمير في «ظنوا» عائد على الأنبياء والأمم، لا على الأنبياء والرسول؛ وهو قول ابن عباس، والتخمين، وابن جبير، وجماعة من العلماء. وبهذا المعنى قرأ مجاهد «كَلْبُوا» - بالفتح؛ فلا تشغل بالك من شاة النصر سواء، مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟

١٥٢٥ م - وكذلك ما ورد في حديث السيرة، وفتناً الوحي، في قوله ﷺ لخديجة: «لقد خشيت على نفسي» (الحاري (٣)، مسلم (١٦٠)) ليس معناه الشك فيما أتاه الله بعد رؤية الملك؛ ولكن لقلّة خشي ألا تحبل فؤنه مقاومة الملك وأتباعه الوحي، فيخلع قلبه، أو نزفق نفسه.

وهذا على ما ورد في الصحيح: أنه قاله بعد لقائه الملك؛ أو يكون ذلك قبل لقاء الملك وإعلام الله تعالى له بالهزة لأول ما عرضت عليه من العجائب، وسلم عليه الحجز والشجر، وبدأته المنامات والنباتات؛ كما روي في بعض طرق هذا الحديث: إن ذلك كان أولاً في المنام، ثم أرى في اليقظة مثل ذلك؛ تأنيباً له عليه السلام؛ لتلا بفجاء الأمر مشاهدة ومشاهدة؛ فلا تخبطه لأول حالة نبوة البشيرة.

١٥٢٦ م - وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أول ما ندى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة؛ قالت: ثم خب إليه الخلاة؛ وقالت: إلى أن جاء الحق وهو في غار حراء. الحديث (الحاري (٣)، مسلم (١٦٠)).

١٥٢٧ م - وعن ابن عباس: مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة. يسمع الصوت، ويرى الصورة مع سبعين ولا يرى شيئاً؛ ونعماني سبى يوحى إليه (مسلم (١٢٣/٢٣٥٣)، أحمد (٣١٢/١)).

١٥٢٨ م - وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي ﷺ قال - وذكر جواره يعار جراً - قال: «فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلت: ما اقرأ؟» وذكر نحو حديث عائشة في عظه له وإفراجه إليه: «اقرأ باسم ربك...» (السورة ثلاثاً). قال: «فانصرف عني، وهبث من نومي كأنما صوّرت في قلبي، ولم يكن أبغض إلي من شاعر أو مجنون.

ثم قلت: لا تحدث عني قريش بهذا أبداً؛ لأعمدن إلى حالتي من الجبل فلا طرح نفسي منه، فلا تكتلها.

فبينما أنا عامدٌ للملك إذ سمعتُ مُنادياً ينادي من السماء: يا محمدا أنت رسولُ الله، وأنا جبريل، فرفعتُ رأسي فإذا جبريلُ على صورة رجل... وذكر الحديث.

فقد بين لك في هذا أن قوله لما قال، وقصده لما قصده، إنما كان قبل لقاء جبريلَ عليهما السلام، وقبل إعلامِ الله تعالى له بالنبوة، وإظهاره اصطفاؤه له بالرسالة.

١٥٢٩ - ومثله حديث عمرو بن شرحبيل أنه - عليه السلام - قال لخديجة رضي الله عنها: «إني إذا خلوتُ وخدي سمعتُ نداءً، وقد خشيتُ والله! أن يكونَ هذا لأمر».

١٥٣٠ - ومن رواية حماد بن سلمة أن النبي ﷺ قال لخديجة: «إني لأسمعُ صوتاً، وأرى ضوءاً، وأخشى أن يكونَ بي جنونٌ» [أحمد (٣١٢/١)].

١٥٣١ - وعلى هذا يتأولُ - لو صحَّ - قوله في بعض هذه الأحاديث: «إنَّ الأبعدَ شاعرٌ أو مجنونٌ» والألفاظُ يُفهم منها معاني الشكِّ في تصحيح ما رآه؛ وأنه كان كله في ابتداء أمره، وقبل لقاء الملك له، وإعلامِ الله أنه رسوله؛ فكيف وبعضُ هذه الألفاظ لا تصحُّ طُرُقها؟! وأما بعدَ إعلامِ الله تعالى له ولقائه الملك فلا يصحُّ فيه ريبٌ، ولا يجوز عليه شكٌّ فيما أُلقي إليه.

١٥٣٢ - وقد رَوَى ابنُ إسحاق عن شيوخه أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُرقى بمكة من العين قبل أن يُنزلَ عليه، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يُصيِّبه؛ فقالت له خديجة: أوجهُ إليك من يزقيك؟ قال: «أما الآن فلا».

١٥٣٣ - وحديث خديجة واختبارها أمرَ جبريل بكشف رأسها... الحديث إنما ذلك في حق خديجة لتتحقق صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأن الذي يأتيه ملك، ويزول الشكُّ عنها، لا أنها فعلت ذلك للنبي ﷺ وليختبر هو حاله بذلك. ١٥٣٤ - بل قد ورد في حديث عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أنَّ ورقة أمر خديجة أن تختبر الأمر بذلك.

١٥٣٥ - وفي حديث إسماعيل بن أبي حكيم أنها قالت لرسول الله ﷺ: «يا بنَّ عمٍّ! هل تستطيع أن تُخبرني بصاحبك إذا جاءك؟ قال: «نعم» فلما جاء جبريل أخبرها، فقالت له: اجلس إلى شِقِّي... وذكر الحديث إلى آخره؛ وفيه: فقالت: ما هذا شيطان! هذا الملك يابنُ عمٍّ فاثبت وأبشِر، وأمنت به.

فهذا يدل على أنها مُستثبنة بما فعلته لنفسها، ومستظهرة لإيمانها، لا للنبي ﷺ.

١٥٣٦ - وقول مغفر في فترة الوحي: «فحزن النبي ﷺ» - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مزاراً كي يتردئ من شواحق الجبال» [البخاري (٦٩٨٢)] لا يقدح في هذا الأصل، لقول مغفر عنه: فيما بلغنا، ولم يُسنده، ولا ذكر راويه، ولا من حدث به، ولا أن النبي ﷺ قاله؛ ولا يُعرف مثل هذا إلا من جهة النبي ﷺ، مع أنه قد يُحتمل على أنه كان أول الأمر كما ذكرناه؛ أو أنه فعل ذلك لما أخرجه من تكذيب من بلغه، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ بِالْكَافِرِينَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ يَمُرُّونَ إِلَىٰ كُلِّ عِزَّةٍ فَأَنْتُمْ فِيهَا كَاذِبُونَ﴾ [الكهف: ٦].

١٥٣٧ - ويصحح معنى هذا التأويل حديث زوارة شريك، عن عبد الله بن محمد بن غفيل، عن جابر بن عبد الله: أن المشركين لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في شأن النبي ﷺ، وافق رأيهم على أن يقولوا: إنه ساجر، اشتد ذلك عليه، وتزمل في ثيابه، وتدثر فيها؛ فأنه جبريل فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المزمل: ١] و ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾ [المدثر: ١].

أو خاف أن الفترة لأمر أو سبب منه، فخبني أن يكون عقوبة من ربه، ففعل ذلك بنفسه، ولم يرد بعد شرع بالنهي عن ذلك، فيغترض به.

ونحو هذا فزار يونس - عليه السلام - خشية تكذيب قومه له، لما وعدهم به من العذاب؛ وقول الله تعالى في يونس عليه السلام: ﴿فَطَلَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾ [الأنبياء: ٨٧] معناه أن لن نُضيق عليه.

قال مكِّي: طبع في رخصة الله وألاً يضيّق عليه مسلكه في خروجه.

وقيل: حسن ظنه بمولاه أنه لا يقضي عليه العقوبة.

وقيل: تقدّر عليه ما أصابه.

وقد قرئ: ﴿تَقْدِرُ عَلَيْهِ﴾ بالتشديد.

وقيل: نؤاخذ به بغضبه وذهابه.

وقال ابن زيد: معناه: أظن أن لن تقدر عليه؟ على الاستفهام.

ولا يليق أن يُظن بنبي أن يخجل صفة من صفات ربه.

وكذلك قوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] الصحيح: مُغَاضِبًا لقومه

لكفرهم؛ وهو قول ابن عباس، والضحاك، وغيرهما؛ لا لجزئه عز وجل إذ

مُغَاضِبَةُ اللَّهِ: مُغَاذَاةُ لَهُ؛ ومُغَاذَاةُ اللَّهِ: كَفَرُ لَا تَلِيْقُ بِالْمُؤْمِنِينَ، فكيف بالأنبياء!

وقيل: مُسْتَحْيَاً مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَسْمُوهُ بِالْكَذِبِ أَوْ يَقْتُلُوهُ، كما ورد في الخبر.
وقيل: مُغَاضِباً لِبَعْضِ الْمُلُوكِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى أَمْرِ أَمْرَةِ اللَّهِ بِهِ
عَلَى لِسَانِ نَبِيِّ آخَرٍ؛ فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: غَيْرِي أَقْوَى عَلَيْهِ مِنِّي؛ فَعَزَمَ عَلَيْهِ فَخَرَجَ
لِذَلِكَ مُغَاضِباً.

وقد رُوي عن ابن عباس: أَنَّ إِرْسَالَ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَنَبُوتَهُ إِنَّمَا
كَانَتْ بَعْدَ أَنْ نَبَذَهُ الْحَوْتُ، وَاسْتَدَلَّ مِنَ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَبَدَّلَ اللَّهُ إِلَهُهُ وَهُوَ سَفِيرٌ
﴿٧٥﴾ وَابْتَدَأَ عَلَيْهِمْ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿٧٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُكَ ﴿٧٧﴾﴾
[الصفات: ١٤٥ - ١٤٧].

وُاسْتَدَلَّ أَيْضاً بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ ثَمُودَ...﴾ [القلم: ٤٨] وَذَكَرَ
الْقِصَّةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَلَجَبْنَاهُ رِيًّا فَجَعَلْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠]؛ فَتَكُونُ هَذِهِ الْقِصَّةُ
إِذَا قِيلَ نُبُوتُهُ.

١٥٣٨ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لِيُغَاثَ عَلَى قَلْبِي،
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلَ مَرَّةٍ؟» [مسلم (٢٧٠٢)].

١٥٣٩ - وَفِي طَرِيقٍ آخَرَ: «فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [البخاري (٦٣٠٧)].
فَاخْتِزَ أَنْ يَقَعَ بِبَالِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغَيْنُ وَشَوْشَةً أَوْ زَيْباً وَقَعَ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ؛ بَلْ أَضَلَّ الْغَيْنُ فِي هَذَا: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ وَيُغْطِيهِ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ،
وَأَصْلُهُ مِنَ غَيْنِ السَّمَاءِ؛ وَهُوَ إِنْطَبَاقُ الْغَيْمِ عَلَيْهَا.
وَقَالَ غَيْرُهُ: وَالْغَيْنُ شَيْءٌ يُغْشَى الْقَلْبَ وَلَا يُغْطِيهِ كُلُّ التَّغْطِيَةِ كَالْغَيْمِ الرَّقِيقِ
الَّذِي يَغْرُضُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا يَمْنَعُ ضَوْءَ الشَّمْسِ.

وَكَذَلِكَ لَا يُفْهَمُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُغَاثُ عَلَى قَلْبِهِ مِثْلَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ
مَرَّةً فِي الْيَوْمِ؛ إِذْ لَيْسَ يَقْتَضِيهِ لَفْظُهُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ؛ وَهُوَ أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ؛ وَإِنَّمَا هَذَا
عَدَدٌ لِلِاسْتِغْفَارِ لَا لِلْغَيْنِ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهَذَا الْغَيْنِ إِشَارَةً إِلَى غَفَلَاتِ قَلْبِهِ،
وَفَتْرَاتِ نَفْسِهِ، وَسَهْوِهَا عَنْ مَدَامَةِ الذِّكْرِ وَمَشَاهِدَةِ الْحَقِّ، بِمَا كَانَ ﷺ دُفِعَ إِلَيْهِ
مِنْ مَقَاسَاةِ الْبَشَرِ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ، وَمُعَانَاةِ الْأَهْلِ، وَمُقَاوَمَةِ الْوَلِيِّ، وَالْعَدُوِّ،
وَمَصْلَحَةِ النَّفْسِ؛ وَكُلُّفُهُ مِنْ أَعْبَاءِ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَحَمْلِ الْأَمَانَةِ؛ وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا
فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، وَعِبَادَةِ خَالِقِهِ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ﷺ أَرْفَعَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً،
وَأَعْلَاهُمْ دَرَجَةً، وَأَتَمَّهُمْ بِهِ مَعْرِفَةً؛ وَكَانَتْ حَالُهُ عِنْدَ خُلُوصِ قَلْبِهِ، وَخُلُوقِ هِمَّتِهِ،
وَتَفَرُّدِهِ بِرَبِّهِ، وَإِقْبَالِهِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِ، وَمَقَامُهُ هُنَاكَ أَرْفَعَ حَالِيهِ، رَأَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

حال فترته عنها، وشغل به سواها، غصاً من غلي حاله، وحفظاً من رفيع مقامه؛
فاستغفر الله من ذلك.

وهذا أولي وجوه الحديث وأظهرها.

والى معنى ما أئمرنا به، مال إليه كثير من الناس، وحام حوله، فقارب ولم
يرف.

وقد قرئنا غامض معناه، وكشفنا للمستفيد فحياة؛ وهو مبني على جوار
الغترات، والغلطات، والشهو في غير طريق التلاح، على ما سباني.

ودعيت طائفة من أرباب القلوب، ومخبجة المنصورة بمن قال بظلمه
السي عليه السلام عن هذا جملة، وأحله أن يجوز عليه في حال منهو أو فتره إلى أن
معنى الحديث: ما بهم حاطرة، ويمن فخره من أمر أمته - عليه السلام -
لاهتمامهم بهم، وكثرة شغفه عليهم؛ فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون العبن - هنا - على قلبه: السكينة التي تنتعش؛ لقوله
تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ اللَّهِ مَكِينٌ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ١٤٠] ويكون استغفاره - عليه السلام -
عنده إظهاراً للعبودية والافتقار.

وقال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا تعريف لأنه يحلهم على الاستغفار.

وقال غيره: ويستشعرون الحذر، ولا يتركون إلى الأمن.

وقد يحتمل أن تكون هذه الإعالة حالة خلية وإعظام تغشى قلبه، فيستغفر
حبس شكر الله، وملازمة لعبوديته.

١٥٤٠ - كما قال في ملازمة العادة: «أفلا أكون غنياً شكوراً؟».

١٥٤١ - وعلى هذه الوجوه الأخيرة يحمل ما روي في بعض طرق هذا

الحديث عنه عليه السلام: «إنه ليفان على قلبي في اليوم أكثر من سبعين مرة،
فأستغفر الله»^(١).

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ
عَلَى الْهِنْدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَقُلْ مَا يَكْفُرُ بِكَ يَدِي يَوْمَ أُصْبِحُ بِكُ لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ١٤٦].

فاعلم أنه لا يلتصق في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا عليه السلام: فلا
تكون ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهندى. وفي آية نوح: لا تكون
ممن يجهل أن رزق الله حق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُلْ لِلْحَقِّ﴾ [هود: ١٤٥] إذ فيه

إثبات الجَهْل بصفة من صفات الله؛ وذلك لا يجوزُ على الأنبياء.

والمقصودُ وعظمتهم أَلَّا يَتَشَبَّهُوا في أمورهم بِسِمَاتِ الجاهِلين، كما قال:

﴿إِنِّي أُعْطِكَ﴾. وليس في آية منها دَلِيلٌ على كَوْنهم على تلك الصفة التي نهاهم الله

عن الكَوْنِ عليها؛ فكيف؟ وآية نوح قِيلَها: ﴿فَلَا تَكُنْ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

فَحُمِلَ ما بعدها على ما قبلها أَوَّلَى؛ لأنَّ مِثْلَ هذا قد يَحْتَاجُ إلى إِذْنٍ.

وقد تُجَوِّزُ إِبَاحَةُ السُّؤَالِ فيه ابتداءً؛ فنهاه الله أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا طَوَى عَنْهُ،

وَأَكْثَهُ مِنْ غَيْبِهِ مِنَ السَّبَبِ الْمُوجِبِ لِهَلَاكِ ابْنِهِ.

ثم أَكْمَلَ اللهُ تعالى نِعْمَتَهُ عليه بإعلامه ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ

عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ [هود: ٤٦]. حكى معناه مَكِّي.

كذلك أَمَرَ نَبِيُّنا - عليه السلام - في الآية الأخرى بالتزام الصَّبْرِ على إِعْرَاضِ

قومه؛ ولا يَخْرُجُ عند ذلك؛ فيقَارِبُ حَالِ الجاهِلِ بِشِدَّةِ التَحَسُّرِ. حكاه أبو بكر بن

مُورِك.

وقيل: معنى الخطاب لأمة محمد ﷺ؛ أي: فلا تكونوا من الجاهِلين.

حكاه أبو محمد مَكِّي؛ وقال: مثله في القرآن كثير.

فهذا الفضل وجب القول بِعِصْمَةِ الأنبياء منه بعد النبوة قطعاً.

فإن قلت: فإذا قُزِرَتْ عِصْمَتُهُمْ من هذا، وأنه لا يجوزُ عليهم شيء من

ذلك، فما معنى إذا وَعِيدَ اللهُ لِنَبِيِّنا ﷺ على ذلك إن فَعَلَهُ، وتحذيره منه،

كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا

مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَهَنَّاكَ لَفَدَّتْ وَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧١] إِذَا لَأَدْنَاكَ

ضَمَفَ الْحَيَاةَ وَضَمَفَ أَلَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وقوله: ﴿لَا تَدْنَا مِنْهُ بِالْبَيْنِ﴾ [الحاقة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَلَنْ نُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُعْذِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾

الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿أَتَى اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

فاغْلَمْ - وَفَقَّأَ اللهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّهُ ﷺ لا يَصُحُّ، ولا يجوزُ عليه، أَنْ لا يُبَلِّغَ،

وأن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك به ولا يتفول على الله ما لا يحب، أو يفترى عليه، أو يضل أو يختم على قلبه، أو يطبع الكافرين؛ لكن الله تعالى يسر أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين، وأن إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكانه ما بلغ.

فطُيِبَ نَفْسُهُ، وَفُؤِيَ قَلْبُهُ بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ كما قال لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦]؛ لِشِدَّةِ بَصَائِرِهِمْ فِي الْإِبْلَاحِ، وإظهار دين الله، ويُذهب عنهم خوف العدو المضعف للنفس. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَوْلُ عَيْنًا بِعَصِ الْأَقْوِيلِ﴾ [١١] لَأَمَدَّ يَدَهُ بِأَلْيَيْنِ [١٥] ثُمَّ لَقَلَبَهُ يَدَهُ الْوَيْنِ [١٦] [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وقوله: ﴿إِنَّا لَأَذْنُكَ مِنْغَفَ الْحَبْوَةِ وَضَعَفَ أَلَمَاتٍ﴾ [الإسراء: ٧٥] فمعناه: أن هذا جزاء من فعل هذا، وجزاؤك لو كنت بمن يفعل، وهو لا يفعله. وكذلك قوله: ﴿وَلَنْ تَقُوعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُصَلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمراد به غيره؛ كما قال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا أَلْوَيْتَ كَفَرُوا بِرُدُّكُمْ عَنْ أَفْعَائِكُمْ فَتَسْقِلُوا خَلْسِيرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْزِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] و ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِحَبْلِ أَنِ﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبهه، فالمراد به غيره وأن هذه حال من أشرك؛ والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿أَنِّي اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب: ١] فليس فيه أنه أطاعهم، والله ينهأ عما يشاء ويأمره بما يشاء؛ كما قال: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]. وما كان طردهم - عليه السلام - ولا كان من الظالمين.

فصل

في عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله تعالى وصفاته

وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون - عليهم السلام - قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والشك في شيء من ذلك؛

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتزويدهم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان؛ بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات الطاب السعادة، كما نبهنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا. ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبى واصطفي بمن عرف بكفر وإمراك قبل ذلك. ومُستند هذا الباب الثقل؛ وقد استدل بعضهم بأن القلوب تتغير عن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا - عليه السلام - بكل ما افترته، وغير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تغييراً لواحد منهم برفضه آلهته، وتقريره بذمه بتزك ما كان قد جامعهم عليه.

ولو كان هذا، لكانوا بذلك متبادرين، ويتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيم عما كان يعبد قبل أقطع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيم عن تزكهم آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قبل.

ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه؛ إذ لو كان لنقل، ولما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ آلِي كَاوًا عَلَيْهِ﴾... ﴿البقرة: ١٤٢﴾، كما حكاها الله عنهم.

وقد استدل القاضي القشيري على تزويدهم عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِنْ تَوَجَّوْا لَنَجْزِيَنَّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ آلِي كَاوًا عَلَيْهِ﴾... ﴿البقرة: ١٤٢﴾، كما حكاها الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحَكَمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]. قال: فطهره الله في الميثاق.

وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه، ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب. هذا ما لا يجوز إلا ملجئ. هذا معنى كلامه.

١٥٤٢ - وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشق قلبه صغيراً، واستخرج منه غلقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بماء وملكه جحمة وإيماناً، كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

ولا يشبه عليك بقول إبراهيم في الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾

[الأنعام: ٧٦] فإنه قد قيل: كان هذا في سنن الطقولية، وابتداء النظر والاستدلال؛ وقيل لزوم التكليف.

ودعِب معظم الخُدَّاق من العلماء المفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مُبَكِّناً، لقومه، ومستدلاً عليهم.

وقيل: معناه الاستفهام الوارد مؤرد الإنكار؛ والمراد: فهذا ربي؟^{١٩}
قال الزُّجَّاج: قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أي على قولكم؛ كما قال:
﴿أَبْنِ شُرَكَائِي﴾ [فصلت: ٤٧] أي عندكم.

ويدل على أنه لم يغذ شيئاً من ذلك، ولا أشرك قط بالله طرفة عين:
قول الله تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ [الشعراء: ٧٠].

ثم قال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَشْرَ وَأَنَا أَكُفُّمُ الْآفَكُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَنَّهُمْ
عَبَدُوا لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ﴾ ﴿٩١﴾ [الصافات: ٩١]؛ أي: من الشرك.

وقوله: ﴿وَلَحِثْنِي وَبَقِي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ يَدَايَ رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّامِينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

قيل: إنه إن لم يؤيِّدني الله بمعونته أكن مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم،
على معنى الإشفاق والحدَر؛ وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ
لَتَعَوَّذَنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ [إبراهيم: ١٣]. ثم قال بعد ذلك عن الرسل: ﴿فَقَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ عَاهَدْنَا اللَّهَ فِيهَا...﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فلا يُشْكِلُ
عليك لفظة العوذ، وأنها تفتضي أنهم إنما يعودون إلى ما كانوا فيه من ملتهم؛ فقد
تابي هذه اللفظة في كلام العرب لعير ما لبس له ابتداء بمعنى الصيرورة.

١٥٤٣ - كما جاء في حديث الجهنميين: «عَادُوا خُصْمًا» [بخاري (٦٥٦٠)،
مسلم (١٨٣)] ولم يكونوا قتل كذلك.

ومثله قول الشاعر:

بَلَكَ الْمَكَارِمَ لَا قُعْبَانَ مِنْ لَبَنِ شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدَ أَبْوَالَا
وما كانا قتل ذلك، كذلك.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿٧﴾ [الصحى: ٧]؛ فليس

هو من الضلال الذي هو الكفر؛ قيل: ضالاً عن الثبوة فهذا إليها؛ قاله الطبري.
وقيل: وجدك بين أهل الضلال، فعصمك من ذلك، وهذا للإيمان، وإلى
إرشادهم.

ونحوه عن السدي وغير واحد.

وقيل: ضالاً عن شريعتك التي لا تعرفها فهذا إليها.

والضلال ها هنا: التحير؛ ولهذا كان - عليه السلام - يخلو بغار جراء في
طلب ما يتوجه به إلى ربه، ويتشرع به حتى هداه إلى الإسلام، قال معناه
القشيري.

وقيل: لا تعرف الحق، فهذا إليه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا
لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]؛ قاله علي بن عيسى.

قال ابن عباس: لم تكن له ضلالة معصية.

وقيل: هدى؛ أي بين أمرك بالبراهين.

وقيل: وجدك ضالاً بين مكة والمدينة، فهذا إلى المدينة.

وقيل: المعنى: وجدك فهدى بك ضالاً.

وعن جعفر بن محمد: وجدك ضالاً عن محبتي لك في الأزل؛ أي: لا
تعرفها؛ فمنتت عليك بمعرفتي.

وقرأ الحسن بن علي: ووجدك ضالاً فهدى؛ أي اهتدى بك.

وقال ابن عطاء: ووجدك ضالاً، أي: موجباً لمعرفتي. والضال: المجهب؛

كما قال: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي محبتك القديمة؛ ولم
يريدوا ها هنا في الدين؛ إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.

ومثله عند هذا قوله: ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. أي: محبة

بيّنة.

وقال الجنيّد: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل عليك فهذا لبيانه؛ لقوله

تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقيل: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ لم يعرفك أحد بالنبوة حتى أظهرك، فهدى بك السعداء،

ولا أعلم أحداً قال من المفسرين ها هنا فيها: ضالاً عن الإيمان.

وكذلك في قصة موسى عليه السلام قوله: ﴿فَمَلَأْنَاهَا إِذَا وَكُنَّا مِنَ الصَّالِينَ﴾

[الشعراء: ٢٠] أي: من المخطئين الفاعلين شيئاً بغير قصد؛ قاله ابن عرفة.

وقال الأزهري: معناه من التائبين.

وقد قيل ذلك في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ أي ناسياً؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالجواب أن السمرقندي قال: معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان.

وقال بكر القاضي نحوه؛ قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام؛ قال: فكان ﷺ قبل مؤمناً بتوحيده؛ ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يذريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً؛ وهو أحسن وجوهه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] فاعلم أنه ليس بمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]؛ بل قد حكى أبو عبيد الهزوي أن معناه لمن الغافلين عن قصة يوسف؛ إذ لم تعلمها إلا بوحيها.

١٥٤٤ - وكذلك الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شيبة بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدتهم، فسمع الملكين خلفه، أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه. فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام؟ فلم يشهدهم بعد. فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جداً، وقال: هذا موضوع، أو شبيه بالموضوع.

وقال الدارقطني: يقال: إن عثمان وهم في إسناده. والحديث بالجملة منكّر غير متفق على إسناده؛ فلا يلتفت إليه. ١٥٤٥ - والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِضْتُ إِلَى الْأَصْنَامِ».

١٥٤٦ - وقوله في الحديث الآخر الذي رَوَّه أُمَ أَيْمَنَ حين كلمه عمه وآله في حضور بعض أعيادهم، وعزَّمُوا عليه فيه بعد كراهته لذلك؛ فخرج معهم، ورجع مزعوباً؛ فقال: «كَلِمَا ذَنُوتُ مِنْهَا مِنْ ضَمِّ تَمَثَّلَ لِي شَخْصٌ أَبْيَضٌ طَوِيلٌ يَصْبِحُ بِي: وَرَأَاكَ، لَا تَمَسَّهُ» فما شهد بغد لهم عبداً.

١٥٤٧ - وقوله - في قصة بَجِيرَا - حين استحلف النبي ﷺ باللَّاتِ

وَالْعَزَى، إِذْ لَقِيَهُ بِالشَّامِ فِي سَفَرِهِ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ صَبِيٌّ، وَرَأَى فِيهِ
عَلَامَاتِ النَّبُوءَةِ، فَاخْتَبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسْأَلْنِي بِهِمَا، فَوَاللَّهِ! مَا
أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بَغْضَهُمَا».

فَقَالَ لَهُ بِحَيْرَةٍ: فَبِاللَّهِ! إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ. فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَأَ
لَكَ».

وَكَذَلِكَ الْمَعْرُوفُ مِنْ سِيرَتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَوْفِيقُ اللَّهِ لَهُ أَنَّهُ كَانَ
قَبْلَ نَبُوَّتِهِ يَخَالِفُ الْمُشْرِكِينَ فِي وَقُوفِهِمْ بِمُزْدَلِفَةَ فِي الْحَجِّ؛ فَكَانَ يَقِفُ هُوَ بِعَرَفَةَ؛
لأنه كَانَ مَوْقِفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فصل

فِي أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَغْرِفَتِهِمْ بِبَغْضِ أُمُورِ الدُّنْيَا

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: قَدْ بَانَ بِمَا قَدَمْنَاهُ عَقُودُ الْأَنْبِيَاءِ فِي
التَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْوَحْيِ وَعِصْمَتِهِمْ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ.
فَأَمَّا مَا عَدَا هَذَا الْبَابَ مِنْ عَقُودِ قُلُوبِهِمْ فَجَمَاعُهَا أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ عِلْمًا وَبِقِيْنًا
عَلَى الْجُمْلَةِ، وَأَنَّهَا قَدْ احْتَوَتْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا مِمَّا لَا شَيْءَ
قُوَّةَ.

وَمَنْ طَالَعَ الْأَخْبَارَ، وَاعْتَنَى بِالْحَدِيثِ، وَتَأَمَّلَ مَا قُلْنَا مِنْ وَجْهِهِ.
وَقَدْ قَدَمْنَا مِنْهُ فِي حَقِّ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْبَابِ الرَّابِعِ أَوَّلَ قِسْمٍ مِنْ
هَذَا الْكِتَابِ مَا يُتَبَّهُ عَلَى مَا وَرَاءَهُ، إِلَّا أَنَّ أَحْوَالَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ تَخْتَلِفُ.
فَأَمَّا مَا تَعَلَّقَ مِنْهَا بِأُمُورِ الدُّنْيَا فَلَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ
مَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِبَعْضِهَا، أَوْ اعْتِقَادِهَا عَلَى خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَلَا وَضَعَ عَلَيْهِمْ
فِيهِ؛ إِذْ هِمَّتُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْآخِرَةِ وَأَنْبَاءُهَا، وَأَمْرُ الشَّرِيعَةِ وَقَوَانِينُهَا. وَأُمُورُ الدُّنْيَا
تُضَادُّهَا، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِينَ «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ
الْآخِرَةِ قَرُورٌ غَفْلُونَ» [الرُّوم: ٧].

كَمَا سَبَّيْنَاهُ هَذَا فِي الْبَابِ الثَّانِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يُقَالُ: إِنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوْدِي إِلَى الْغَفْلَةِ وَالْبَلَهَةِ، وَهُمْ الْمُنْتَزَّهُونَ
عَنْهُ؛ بَلْ قَدْ أُرْسِلُوا إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَقُلَّدُوا سِيَاسَتَهُمْ وَهَدَايَتَهُمْ، وَالنَّظَرَ فِي
مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ وَهَذَا لَا يَكُونُ مَعَ عَدَمِ الْعِلْمِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَأَحْوَالِ

الأنبياء وسيرهم في هذا الباب معلومة، ومعرفتهم بذلك كله مشهورة.

وأما إن كان هذا الغفد مما يتعلق بالدين فلا يصح من النبي ﷺ إلا العلم به، ولا يجوز عليه جهله جملة؛ لأنه لا يخلو أن يكون حصل عنده ذلك عن وحي من الله، فهو ما لا يصح الشك منه فيه - على ما قدمناه - فكيف الجهل؟ بل حصل له العلم اليقين. أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء، على القول بنجوير وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحققين.

١٥٤٨ - وعلى مقتضى حديث أم سلمة رضي الله عنها: «إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه شيء» [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)، أبو داود (٣٥٨٥)]. خرجه الثقات.

وكفصة أنرى بذر، والإذن للمتحلفين على رأي بعضهم، فلا يكون أيضاً ما يعتقد مما يثمره اجتهاده إلا حقاً وصحيحاً.

هذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه ممن أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد لا على القول بتضويب المجتهدين الذي هو الحق والصواب عندنا؛ ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد لعصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد في الشرعات؛ ولأن القول في تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع؛ ونظر النبي ﷺ واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء، ولم يشرع له قبل؛ هذا فيما عقد عليه قلبه ﷺ، فأما ما لم يغفد عليه قلبه من أمر التواري الشرعية؛ فقد كان لا يعلم منها أولاً إلا ما علمه الله - عز وجل - شيئاً فشيئاً حتى استقر علم جملة عنده؛ إما بوحي من الله، أو إذن له أن يشرع في ذلك، ويحكم بما أراه الله.

وقد كان يتطرأ الوحي في كثير منها؛ ولكنه لم يفت ﷺ حتى استقر علم جميعها عنده عليه السلام، وتقررت معارفها لديه على التحقيق، ورفع الشك والريب، وانتفاء الجهل.

وبالجملة فلا يصح منه الجهل بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه؛ إذ لا نصح ذغوته إلى ما لا يعلم.

وأما ما تعلق بعقده من ملكوت السموات والأرض، وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنی، وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراف الساعة، وأحوال السعادة والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لا يعلمه إلا بوحي - فعلى ما تقدم - من

أنه معصوم فيه، لا يأخذه فيما أعلم به شك ولا زنب؛ بل هو فيه على غاية اليقين.

١٥٤٩ - لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر؛ لقوله: «إني لا أعلم إلا ما علمني ربي».

١٥٥٠ - ولقوله: «ولا خطر على قلب بشر». «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين...» [السجدة: ١٧] [مسلم (٢٨٢٥)].

وقول موسى - عليه السلام - للخبزير: «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً» [الكهف: ٦٦].

١٥٥١ - وقوله ﷺ: «أسالك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم».

١٥٥٢ - وقوله: «أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» [أحمد (٣٩١/١)].

وقد قال الله تعالى: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله.

وهذا ما لا خفاء به، إذ معلوماته - تعالى - لا يحاط بها، ولا تنتهي لها. هذا حكم عقيد النبي ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمر الدينية.

فصل

فني إجماع الأمة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفائته منه

واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفائته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالسواوس.

١٥٥٣ - وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو علي - رحمه الله - قال: حدثنا أبو الفضل بن خير بن العذل، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره، حدثنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا إسماعيل الصفار، حدثنا عباس الثرقفي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة».

قالوا: وإياك؟ يا رسول الله! قال: «وإيائي؛ ولكنَّ اللهَ تعالى أعانني عليه فأسلم».

زاد غيره، عن مَنْصُور: «فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم (٢٨١٤)].

١٥٥٤ - وعن عائشة بمعناه [مسلم (٢٨١٥)].

روى: «فأسلم» بضم الميم؛ أي فأسلم أنا منه.

وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها.

وروي: «فأسلم» يعني: القرين، أنه انتقل من حال كفره إلى الإسلام؛ فصار لا يأمر إلا بخير، كالملك.

وهو ظاهر الحديث.

١٥٥٥ - ورواه بعضهم: «فأسلم».

قال القاضي أبو الفضل: فإذا كان هذا حُكْمُ شَيْطَانِهِ وَقَرِينِهِ الْمُسَلِّطِ عَلَى بَنِي آدَمَ، فكيف بمن بَعْدَ منه، ولم يلزَمْ صُحْبَتَهُ، ولا أَقْدِرَ عَلَى الدُّنُوِّ منه؟

وقد جاءت الآثارُ بِتَصَدِّي الشَّيَاطِينِ لَهُ فِي غَيْرِ مَوَاطِنَ؛ رَغْبَةً فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِمَاتَةِ نَفْسِهِ، وإِدْخَالِ شُغْلٍ عَلَيْهِ؛ إِذْ يَشُؤْنَ مِنْ إِغْوَانِهِ فَانْقَلَبُوا خَاسِرِينَ، كَتَعَرُّضِهِ لَهُ فِي صَلَاتِهِ؛ فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَسْرَهُ.

١٥٥٦ - ففي الصَّحَاحِ، قال أبو هريرة، عنه عليه السلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي - قال عبدالرزاق: فِي صُورَةِ هَرٍّ - فَشَدَّ عَلَيَّ يَقْطَعُ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَذَعَّنَهُ. وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوْثِقَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَذَكَّرْتُ قَوْلَ أَخِي سَلِيمَانَ: ﴿رَبِّ اغْزِزْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ (مَر: ٣٥) الْآيَةَ، فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِتًا».

١٥٥٧ - وفي حديث أَبِي الدُّرْدَاءِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَنِي بِشَهَابٍ مِنْ نَّارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِهِ» - وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ وَذَكَرَ تَعَوُّذَهُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَلَغَنَهُ لَهُ - «ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَخْذَهُ» وَذَكَرَ نَحْوَهُ؛ وَقَالَ: «لَأَصْبَحَ مُوْتَقًا يَتَلَاَعَبُ بِهِ وَلِذَلِكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ» [مسلم (٥٤٢)].

١٥٥٨ - وكذلك فِي حَدِيثِهِ فِي الْإِسْرَاءِ، وَطَلَبِ عِفْرِيتٍ لَهُ بِشُعْلَةٍ نَارٍ، فَعَلِمَهُ جَبْرِيلُ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ مِنْهُ. ذَكَرَهُ فِي الْمَوْطَأِ [أحمد (٤١٩/٣)].

١٥٥٩ - وَلَمَّا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَذَاهُ بِمَبَاشَرَتِهِ تَسَبَّبَ بِالتَّوَسُّطِ إِلَى عِذَاهُ؛ كَقَضِيَّتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ فِي الْإِسْتِمَارِ بِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَصَوُّرِهِ فِي صُورَةِ الشَّيْخِ النَّجْدِيِّ.

١٥٦٠ - وَمَرَّةً أُخْرَى فِي غَزْوَةِ يَوْمِ بَذْرِ فِي صُورَةِ سَرَّاقَةٍ بَنِ مَالِكٍ، وَهُوَ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٥٦١ - ومرة يُنذِرُ بشأنه عند بَيِّعَةِ الْعَقَبَةِ.

وَكُلُّ هَذَا فَقَدْ كَفَّاهُ اللَّهُ أَمْرَهُ، وَعَصَمَهُ ضَرُّهُ وَشَرُّهُ.

١٥٦٢ - وقد قال عليه السلام: «إِنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - كُفِّي مِنْ لَمْبِهِ،

فَجَاءَ لِيُطْعَمَ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتَيْهِ حِينَ وُلِدَ، فَطُعِنَ فِي الْحِجَابِ» [البخاري (٣٢٨٦)،

(٣٤٣١)، مسلم (٢٣٦٦)].

١٥٦٣ - وقال عليه السلام - حين لُدَّ فِي مَرْضِهِ، وقيل له: خَشِينَا أَنْ يَكُونَ

بِكَ ذَاتُ الْجَنْبِ - فقال: «إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُسَلِّطْهُ عَلَيَّ» [أحمد

(١١٨/٦)، البخاري (٤٤٥٨)، مسلم (٢٢١٣)].

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ

بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: إِنَّهَا رَاجِعَةٌ

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ﴾ أَيِ

يَسْتَحْفِظُكَ غَضَبُ يَحْمِلُكَ عَلَى تَرْكِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقيل: النَّزْعُ - هُنَا -: الْفَسَادُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزْعُ الشَّيْطَانُ

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] أَيِ: أَفْسَدَ. وقيل: بَاعَدَ.

وقيل: ﴿يَزْعُمُكَ﴾: يُغَيِّرُكَ وَيُحَرِّكُكَ. وَالنَّزْعُ: أَدْنَى الْوَسْوَاسَةِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ

تَعَالَى أَنَّهُ مَتَى تَحَرَّكَ عَلَيْهِ غَضَبٌ عَلَى عَدُوِّهِ، أَوْ زَامَ الشَّيْطَانُ مِنْ إغْرَائِهِ بِهِ وَخَوَاطِرِ

أَدَانِي وَسَاوِسِهِ، مَا لَمْ يُجْعَلْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَيْهِ، أَنْ يَسْتَعِذَّ مِنْهُ، فَيَكْفِيَ أَمْرَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ

سَبَبَ تَمَامِ عِصْمَتِهِ، إِذْ لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ بِأَكْثَرِ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُ، وَلَمْ يُجْعَلْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ.

وقد قيل في هذه الآية غَيْرُ هَذَا.

وكذلك لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَصَوَّرَ لَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ الْمَلِكِ، وَيُلْبَسَ عَلَيْهِ،

لَا فِي أَوَّلِ الرِّسَالَةِ وَلَا بَعْدَهَا.

وَالاعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ ذَلِيلُ الْمَعْجِزَةِ؛ بَلْ لَا يَشْكُ النَّبِيُّ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ

الْمَلِكُ وَرَسُولُهُ حَقِيقَةٌ، إِنَّمَا يَعْلَمُ ضَرُورَتِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ، أَوْ يَبْرَهَانُ يُظْهِرُهُ لَدَيْهِ،

لِيَتِمَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ

إِلَّا إِنَّا تَمَتَّعْنَا بِالْشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ

مَائِنُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

فاعلم أن للناس في معنى هذه الآية أقاويل، منها السهل والوعث، والسمين والعت؛ وأولى ما يقال فيها ما عليه الجمهور من المفسرين: أن (التمني) ها هنا: النلاوة، (والفاء الشيطان فيها) شغله بخواطر وأدكار من أمور الدنيا للثالي حتى يدخل عليه الوهم والسيان فيما تلاه، أو يذخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف، وسوء التأويل ما يزيله الله ويستخه، ويكشف لئسه، ويحكم آياته. وسيأتي الكلام على هذه الآية بعد بأشع من هذا إن شاء الله تعالى. وقد حكى السمرقندي إنكار قول من قال بتسلط الشيطان على ملك سليمان، وعلمته عليه، وأن مثل هذا لا يصح. وقد ذكرنا قصة سليمان مبينة بعد هذا، ومن قال: إن الجسد هو الولد الذي ولد له.

وقال أبو محمد: مكّي - في قصة أبوت - وقوله: ﴿إِنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِضَبِّ وَقَدَافٍ﴾ [ص: ٤١] - إنه لا يجوز لأحد أن يتناول أن الشيطان هو الذي أمره، وألقى الضر في بدنه، ولا يكون ذلك إلا بفعل الله وأمره، لينتلبهم وينتهم. قال مكّي: وقد قيل: إن الذي أصابه به الشيطان ما ونوس به إلى أهله. فإن قلت: فما معنى قوله تعالى - عن يوشع: ﴿وَمَا أَسْبِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] وقوله - عن يوسف: ﴿فَأَسَّسَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]. ١٥٦٤ - وقول نبينا - عليه السلام - حين نام عن الصلاة يوم الوادي: «إِنَّ هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ».

وقول موسى - عليه السلام - في وكثرته: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...﴾ ؟ الآية [القصاص: ١٥].

فاعلم أن هذا الكلام قد برز في جميع هذا على مورد مستمر كلام العرب في وصفهم كل فيح، من شخص، أو فعل، بالشيطان أو فعله؛ كما قال تعالى: ﴿طَلَفَهَا كَانَتْ رُؤُوسَ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: ٦٥].

١٥٦٥ - وقال - عليه السلام - «فليقاتله فإنما هو شيطان» [البخاري (٥٠٩)، مسلم (٥٠٥)].

وأيضاً فإن قول يوشع لا يلزمنا الجواب عنه؛ إذ لم يثبت له في ذلك الوقت نبوة مع موسى؛ كما حكى الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ...﴾ [الكهف: ٦٠].

والمزوي أنه إنما نبئ بعد موت موسى، وقيل: قبيل موته.
وقول موسى كان قبل نبوته بدليل القرآن.

وقصة يوسف أيضاً قد ذكر أنها كانت قبل نبوته.

وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [يوسف: ٤٢]
قولين: أحدهما:

أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه أحد صاحبي السجن، و (ربه): الملك؛
أي أنساه أن يذكر للملك شأن يوسف عليه السلام.

وأيضاً فإن مثل هذا من فعل الشيطان ليس فيه تسليط على يوسف - عليه
السلام - ويوشع بوساوس وتزغ؛ وإنما هو يشغل خواطرهما بأمر آخر،
وتذكيرهما من أمورهما ما ينسيهما ما نسيانه.

١٥٦٦ - وأما قوله - عليه السلام -: «إن هذا واد به شيطان». فليس فيه ذكر
تسلطه عليه، ولا وسوسة له.

١٥٦٧ - بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: «إن
الشيطان أتى بلالاً، فلم يزل يهذه كما يهذه الصبي حتى نام».

فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي الذي عرس به إنما كان على بلال
الموكل بكلاءة الفجر.

هذا إن جعلنا قوله: «إن هذا واد به شيطان» تنبيهاً على سبب النوم عن
الصلاة. وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرجيل عن الوادي، وعلة ترك الصلاة
به، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب؛ لبيانه،
وارتفاع إشكاله.

فصل

في صدق أقواله ﷺ في جميع أخواله

وأما أقواله - عليه السلام - فقامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على
صدقه، وأجمعت الأمة - فيما كان طريقه البلاغ - أنه معصوم فيه من الإخبار عن
شيء منها بخلاف ما هو به، لا قسداً وعمداً، ولا سهواً أو غلطاً.

أما تعمّد الخلف في ذلك فمُنتَفٍ، بدليل المعجزة القائمة مقام قول الله:
صَدَقَ فيما قال، اتفاقاً، وبإطباق أهل الملّة، إجماعاً.

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق

الإسفرائيني ومن قال بقوله. ومن جهة الإجماع فقط، وورود الشَّرْع بانتفاء ذلك، وعصمة النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة تُفَسِّها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى الدليل. أعني: دليل المعجزة. لا نُطوّل بذكره، فنخرج عن غَرْض الكتاب؛ بل نعتمد على ما وقع عليه - إجماع المسلمين - أنه لا يجوز عليه خُلْفٌ في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربّه، وما أوحاهُ إليه من وَحْيِهِ، لا على وَجْهِ الغُمد، ولا على غير غُمد، ولا في حالتي الرضا والسخط، والصحة والمرض.

١٥٦٨ - وفي حديث عبد الله بن عمرو: قلت: يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم». قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً» [أبو داود (٣٦٤٦)، أحمد (١٦٢/٢)].

ولنُزِد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بياناً؛ فنقول: إذا قامت المعجزة على صدقه، وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلغ عن الله إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى له: صدقت فيما تذكره عني؛ وهو يقول: إني رسول الله إليكم، لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل إليكم، ﴿وَمَا يَنطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (١)﴾ [النجم: ٣، ٤].
و ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]؛ فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خَبَرٌ بخلاف مُخْبِرِهِ على أي وجه كان. فلو جوزنا عليه الغلط والسَّهْو لما تميّز لنا من غيره، ولاختلط الحقُّ بالباطل؛ فالمعجزة مُشْتَمِلَةٌ على تصديقه جُمْلَةً واحدة من غير خصوص؛ فتنزيه النبي ﷺ عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً كما قال أبو إسحاق رضي الله عنه.

فصل

فِي رَدِّ الْمُؤَلَّفِ لِبُغْضِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَطَاعِينَ،

كَرَدِهِ لِقِصَّةِ الْغُرَانِيْقِ وَبُغْضِ الشُّبُهَةِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا الزَّائِفُونَ

وقد توجَّهت هنا لبعض الطاعنين سؤالات؛ منها:

١٥٦٩ - ما روي من أن النبي ﷺ لما قرأ سورة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْمَرَىٰ (١٨) وَمَنْزُةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ (١٩)﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] - قال: «تلك

الغرائبُ الغُلا، وإنْ شفاعتها لثُرْجى» ويروى: «ثُرْجى» وفي رواية: «إنْ شفاعتها لثُرْجى، وإنها لمع الغرائبُ الغُلا».

وفي رواية أخرى: «والغرائقةُ الغُلا، تلك للشفاعة ثُرْجى».

فلما ختم السورة، سجد ﷺ، وسجد المسلمون معه، والكُفَّارُ لما سمعوه أننى على ألفتهم.

وما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان تمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه.

وفي رواية أخرى: ألا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه؛ وذكر هذه القصة، وأن جبريل عليه السلام جاءه فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال له: ما جئتك بهاتين، فحزن لذلك النبي ﷺ، فأنزل الله - عز وجل - عليه تسلياً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِنَّا نَمُوتُ ۚ أَلَمْ يَلْقَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَبَنَسَخُ اللَّهُ مَا بَلَّغِيَ الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ ۚ وَإِنِّي لِلَّهِ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ آلِيَّتِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِنُفِرَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّنَا ۚ وَإِنَّا لَتَغْتَابُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ نَبُنْتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَتًّا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

فاعلم - وفقك الله - أن لنا في الكلام على مُشْكِل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله، والثاني على تسليمه. أما المأخذ الأول: فيكيفك أن هذا حديث لم يُخرجه أحدٌ من أهل الصحة، ولا زوَاهُ ثقةٌ بسندٍ سليم متصل؛ وإنما أولع به ويمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلفعون من الصحف كل صحيح وسقيم.

ولقد صدق القاضي بَكْرُ بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلِيَ الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك المُلْجِدُونَ مع ضعف ثقته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته؛ فقاتل يقول: إنه في الصلاة؛ وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة؛ وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنَّةٌ؛ وآخر يقول: بل حَدَّثَ نَفْسَهُ قَسْهًا؛ وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأئك؛ وآخر يقول: بل أَعْلَمَهُمُ الشيطان أن النبي ﷺ قرأها؛ فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: «والله! ما هكذا نزلت» إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

وَمَنْ خُكِبَتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ عَنْهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَالتَّابِعِينَ لَمْ يَسْتَدِهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا رَفَعَهَا إِلَى صَاحِبٍ؛ وَأَكْثَرُ الطَّرِيقِ عَنْهُمْ فِيهَا ضَعِيفَةٌ وَاهِيَةٌ، وَالْمَرْفُوعُ فِيهِ حَدِيثُ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ خُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ فِيمَا أَحْسَبُ - الشَّكَّ فِي الْحَدِيثِ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِمَكَّةَ . . . وَذَكَرَ الْقِصَّةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْبَزَّازُ: هَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُهُ يُزَوَّى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِسْنَادٍ مُنْصَلٍ بِجَوْرٍ ذَكَرَهُ إِلَّا هَذَا، وَلَمْ يُسَيِّدْهُ عَنْ شُعْبَةَ إِلَّا أُمَيَّةُ بْنُ خَالِدٍ، وَغَيْرُهُ يُزِيلُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ خُبَيْرٍ؛ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَقَدْ بَيَّنَّ لَكَ أَبُو بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا يَغْرِفُ مِنْ طَرِيقٍ بِجَوْرٍ ذَكَرَهُ سِوَى هَذَا. وَفِيهِ مِنَ الضَّعْفِ مَا تَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَعَ وَقُوعِ الشَّكِّ فِيهِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الَّذِي لَا يُوثَقُ بِهِ، وَلَا حَقِيقَةٌ مَعَهُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ الْكَلْبِيِّ فِيمَا لَا تَجُوزُ الرَّوَايَةُ عَنْهُ وَلَا ذِكْرُهُ لِقُوَّةِ ضَعْفِهِ وَكَذِبِهِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَزَّازُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٥٧٠ - وَالَّذِي مِنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿وَالْآخِرُ﴾ - وَهُوَ بِمَكَّةَ - فَسَجَدَ، وَسَجَدَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ. هَذَا نَوَهِيتُهُ مِنْ طَرِيقِ الثَّقَلِ، فَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فَقَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى عَصَمَتِهِ ﷺ وَمُزَاهَاةِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الرَّدْبَةِ؛ إِمَّا مِنْ تَعَنُّبِهِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا مِنْ مَذْحِ الْكَلِمَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَهُوَ كُفْرٌ؛ أَوْ أَنْ يَنْسُوَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَيُنْشِبُهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَتَّى يَجْعَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَيَعْتَقِدُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ مِنْهُ حَتَّى يُنْبِئَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ يَقُولُ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ عَمْدًا، وَذَلِكَ كُفْرٌ؛ أَوْ سَهْوًا، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

وَقَدْ قَرَّرْنَا بِالْبَرَهَانِ وَالْإِجْمَاعِ عَصَمَتَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ جَرَيَانِ الْكُفْرِ عَلَى قَلْبِهِ أَوْ لِسَانِهِ، لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا، أَوْ أَنْ يَنْشِبَهُ عَلَيْهِ مَا يُلْفِيهِ الْمَلَكُ مِمَّا يُلْفِي الشَّيْطَانُ، أَوْ يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، أَوْ أَنْ يَنْقُولَ عَلَى اللَّهِ، لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا، مَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصْرِ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَنُحَذِّرَنَّ بَنِيهِ بِالْبَيِّنِ ۖ ثُمَّ لَنُفَقِّنَنَّ بَنِيهِ الْوَيْبِ ۖ﴾ [الْحَاقَّةُ: ٤٤ - ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا لَدَدَقْتَكَ ضَعُفَ الْجَبْوَةِ وَضَعُفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧٥].

وَوَجْهٌ ثَانٍ: وَهُوَ اسْتِحَالَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ نَظَرًا وَعَرْفًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَوْ كَانَ - كَمَا زَوَى - لَكَانَ بَعِيدَ الْإِلْتِمَامِ لَكُونِهِ مُتَنَاقِضَ الْأَقْسَامِ، مُمْتَرِحَ الْمَذْحِ بِالذَّمِّ،

متخاذل التأليف والتظلم. ولَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَا مَنْ بَحْضَرْتَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،
وَصَنَادِيدِ الْمَشْرِكِينَ مِمَّنْ يَخْفَى عَلَيْهِ ذَلِكَ؛ وَهَذَا لَا يَخْفَى عَلَى أَدْنَى مَتَأَمِّلٍ، فَكَيْفَ
بِمَنْ رَجَحَ جُلْمَهُ، وَاتَّسَعَ فِي بَابِ الْبَيَانِ وَمَعْرِفَةِ فَصِيحِ الْكَلَامِ عِلْمُهُ؟!

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ: أَنَّهُ عُلِمَ مِنْ عَادَةِ الْمَنَافِقِينَ، وَمُعَانِدِي الْمَشْرِكِينَ، وَضَعْفَةِ
الْقُلُوبِ، وَالْجَهْلَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، نَفَورُهُمْ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ؛ وَتَخْلِيْطُ الْعَدُوِّ عَلَى
النَّبِيِّ ﷺ لِأَقْلٍ فِتْنَةٍ، وَتَعْيِيرِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، وَالشُّمَاتِ بِهِمُ الْفَيْئَةِ بَعْدَ الْفَيْئَةِ،
وَارْتِدَادُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ مِّمَّنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ لِأَدْنَى شُبْهَةٍ، وَلَمْ يَخْكِ أَحَدٌ فِي
هَذِهِ الْقِصَّةِ شَيْئًا سِوَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ الضَّعِيفَةِ الْأَصْلِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَوَجَدْتُ قَرِيشَ
بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الصُّوْلَةَ، وَلَأَقَامَتْ بِهَا الْيَهُودُ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةَ، كَمَا فَعَلُوا مَكَابِرَةً
فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ حَتَّى كَانَتْ فِي ذَلِكَ لِبَعْضِ الضَّعَفَاءِ رِذَّةٌ، وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ فِي
قِصَّةِ الْقِضْيَةِ؛ وَلَا فِتْنَةٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ لَوْ وَجَدْتُ، وَلَا تَشْغِيبَ لِلْمُعَادِي
حِينَئِذٍ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ لَوْ أَمَكَنْتُ؛ فَمَا رُوِيَ عَنْ مُعَانِدٍ فِيهَا كَلِمَةً، وَلَا عَنْ
مُسْلِمٍ بِسَبِيهَا بَنَتْ شَفَّةً؛ فَذَلَّ عَلَى بُطْلَانِهَا وَاجْتِنَاطِ أَصْلِهَا.

وَلَا شَكَّ فِي إِدْخَالِ بَعْضِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى بَعْضِ
مُعْظَمِي الْمُحَدِّثِينَ، لِيُلبَسَ بِهِ عَلَى ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَوَجْهٌ رَابِعٌ: ذَكَرَ الرُّوَاةُ لِهَذِهِ الْقِضْيَةِ أَنَّ فِيهَا نَزَلَتْ: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ
عَنِ النَّبِيِّ أَوْحِيًا إِلَيْكَ لِیَفْتَرِي عَلَيْنَا غَبِرٌ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ۖ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ
لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ۖ﴾ [الاسراء: ٧٣، ٧٤].

وَهَاتَانِ الْآيَتَانِ تَرُدُّانِ الْخَبَرَ الَّذِي رَوَاهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَادُوا
لَيَفْتِنُوهُ حَتَّى يَفْتَرِي، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ ثَبَّتَهُ لَكَادَ يَرْكَنُ إِلَيْهِمْ.

فَمُضْمُونُ هَذَا وَمَفْهُومُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ مِنْ أَنْ يَفْتَرِي، وَثَبَّتَهُ حَتَّى لَمْ
يَرْكَنْ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا؛ فَكَيْفَ كَثِيرًا؟! وَهُمْ يَزُورُونَ فِي أَخْبَارِهِمُ الْوَاهِمَةَ أَنَّهُ زَادَ
عَلَى الرُّكُونِ وَالْإِفْتِرَاءِ بِمَدْحِ آلِهِتِهِمْ، وَأَنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: افْتَرَيْتُ عَلَى اللَّهِ،
وَقُلْتُ مَا لَمْ يَقُلْ؛ وَهَذَا ضِدُّ مَفْهُومِ الْآيَةِ، وَهِيَ تُضْعِفُ الْحَدِيثَ لَوْ صَحَّ، فَكَيْفَ
وَلَا صِحَّةُ لَهُ؟!

وَهَذَا جِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ
لَهَمَّتْ خُلَافَتُكَ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ فِتْنَةٍ﴾
[النساء: ١١٣].

١٥٧١ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ «كَادَ» فَهُوَ مَا لَا يَكُونُ

أبدأ؛ قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ مَنَا بَرْقُوهٖ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣]؛ ولم يذهب، و ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]؛ ولم يفعل.

قال القشيري القاضي: ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مرّ بالهتهم أن يُقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل، ولا كان ليفعل.

قال ابن الأنباري: ما قارب الرسول ولا ركن.

وقد ذُكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر، ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله يؤدّ سفسافها؛ فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتنّ على رسوله بعصمته وتبنيته مما كاده به الكفار، وزاموا من فتنته؛ ومُرّادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ؛ وهو مفهوم الآية.

وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صحّ؛ وقد أعلنا الله من صحته؛ ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة؛ منها العتق والسمين؛ فمنها - ما رواه قتادة ومقاتل - أن النبي ﷺ أصابته سِنَّةٌ عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم.

وهذا لا يصحّ؛ إذ لا يجوز على النبيّ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العند والسهو.

وفي قول الكلبي: إن النبيّ ﷺ حدّث نفسه؛ فقال ذلك الشيطان على لسانه. وفي رواية ابن شهاب؛ عن أبي بكر بن عبد الرحمن؛ قال: وسّها؛ فلما أخبر بذلك قال: إنما ذلك من الشيطان.

وكلّ هذا لا يصحّ أن يقوله - عليه السلام - لا سهواً ولا قسداً، ولا يتقوله الشيطان على لسانه عليه السلام.

وقيل: لعل النبيّ ﷺ قاله في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَقِيٌّ﴾ [الأنعام: ٧٦] على أحد التأويلات. وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السكّت وبيان الفضل بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته.

وهذا ممكن مع بيان الفصل وقريّة تدلّ على المراد، وأنه ليس من المعتلّ، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر.

فلا يُعْتَرَضُ على هذا بما روي أنه كان في الصلاة؛ فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع.

والذي يَظْهَرُ وَيَتَرَجَّحُ في تأويله عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبي ﷺ كان - كما أمره ربه - يُرْتَلُ القرآنُ ترتيلاً، ويفضَّلُ الآيُ تفصيلاً في قراءته، كما رَوَاهُ الثقات عنه، فيمكن تَرصُّدُ الشيطانِ لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحَاكِياً نعمة النبي ﷺ بحيث يَسْمَعُهُ مَنْ دَنَا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفَّارِ، فَظَنُّوْهَا مِنْ قَوْلِ النبي ﷺ، وأشاعوها، ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين بحفظِ السورة قَبْلَ ذلك على ما أنزلها اللهُ تعالى وتحقُّقِهِمْ مِنْ حالِ النبي ﷺ في ذمِّ الأوثانِ وعيِّبِهَا على ما عُرِفَ مِنْهُ.

وقد حَكَى مُوسَى بنُ عُقْبَةَ في مَعَاذِرِهِ نحوَ هذا، وقال: إِنَّ المسلمين لم يسمعوها، وإنما أَلْقَى الشيطانُ ذلك في أَسْمَاعِ الْمُشْرِكِينَ وقلوبِهِمْ؛ ويكون ما رَوِي مِنْ حُزْنِ النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة، وسبب هذه الفتنه.

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِنَّا نَمُنُّ بِالَّذِي أَلْهَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْمَانَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

فمعنى ﴿نَمُنُّ﴾: تلا، قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٌ﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوة.

وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] أي يذهب، ويزيل اللبس به، ويُحْكِمُ آيَاتِهِ.

وقيل: معنى الآية: هو ما يَقَعُ للنبي ﷺ من السُّهُوِّ إذا قرأَ فَيَنْتَبِهَ لذلك وَيَزْجَعُ عَنْهُ.

وهذا نحوُ من قولِ الكلبي في الآية: إِنَّهُ حَدَّثَ نَفْسَهُ، وقال: ﴿إِنَّا نَمُنُّ﴾ أي: حَدَّثَ نَفْسَهُ.

وفي رواية أبي بكر بن عبد الرحمن نخوه.

وهذا السُّهُوُّ في القراءة إنما يَصِحُّ فيما ليس طريقه تَغْيِيرُ المعاني، وتبديل الألفاظ، وزيادة ما ليس من القرآن؛ بل السُّهُوُّ عن إسقاط آية منه أو كلمة؛ ولكنه لا يَقْرَأُ على هذا السهو؛ بل يُنَبِّهُ عليه، ويذكرُ به لِلْجِنِّ على ما سنذكره في حكم ما يجوزُ عليه من السهو وما لا يجوز.

ومما يظهر في تأويله أيضاً أَنَّ مجاهداً رَوَى هذه القصة: «والفرانقة الغلاء» فَإِنَّ سَلْمُنَا القصة قلنا: لا يَبْعُدُ أَنَّ هذا كان قُرْآنًا، والمراد بالفرانقة الغلاء، وَأَنَّ شفاعتهنَّ لَتُرْتَجَى؛ الملائكة على هذا التأويل وهذه الرواية.

وهذا فسر الكلبي (المرانفة) أنها الملائكة؛ وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم ورد عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ أَهْلَ الْأَيْمَنِ﴾ (الحج: ٢١)؛ فأنكر الله كل هذا من قولهم؛ ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأولوا المشركون على أن المراد بهذا الذكور الكهنة، وليس عليهم الشيطان ذلك، ورثته في قلوبهم وألفاظ إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما ميلاً للتيسر، كما نسخ كثير من القرآن وزفت تلاوته؛ وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة، وفي نسخه حكمة؛ ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ وما يضل به إلا الفاسقين، و﴿يُحْطَلْ مَا بَقِيَ النَّبْطُ وَنَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِهِمْ تَرْمِزُ وَالْقَابِلَةُ قُلُوبُهُمْ وَبِكَ الْغُلِيْبِينَ لَيْسَ شَيْءًا يَبْعِدُ ٢٢﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَتُؤْمَرُوا بِهِ فَتُحْجَ لَمْ قُلُوبُهُمْ وَلَهُ اللَّهُ لَهَاجُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَّا حَرِيطَ شَتِيرٍ ٢٣﴾ (الحج: ٥٣، ٥٤).

وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفار أن يأتي بشيء من دفعها فسيفوا إلى مذهبها بتلك الكلمتين ليحططوا في تلاوة النبي ﷺ، وشغبوا عليه على عاداتهم وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِمَا يَقُولُ الْفَرِيقَ وَالْقَوْمَ بِهِ لَعَلُّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ (الصافات: ٢٦).

ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لخبئه لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأن النبي ﷺ - قاله - فحزن لذلك من كذبهم وافتراءهم عليه، فسأله الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفَقْرُ النَّبْطُ فِي أُمِّيئِهِ...﴾ الآية (الحج: ٥٦) وبين للناس الحق في ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكم آياته، ودفع ما لبس به العدو، وكما ضمنه الله تعالى من قوله: ﴿إِنْ تَحْنُ رَكْلًا الذِّكْرَ وَإِنْ لَمْ تُحْطَبْ ٢٤﴾ (الحج: ٢٤).

ومن ذلك ما روي من فضة بونس - عليه السلام - أنه وعذ قومه بالعذاب عن ربه، فلما تابوا، كشف عنهم العذاب، فقال: لا أزعج إليهم كذباً أبداً، فذهب مفصلاً.

فاعلم - أكرمك الله - أنه ليس في خبر من الأحبار الواردة في هذا الباب أن يونس - عليه السلام - قال لهم: إن الله فطركم، وإنا فيه أنه دعا عليهم بالهلاك؛ والدعاء ليس بخير يُطلب صدقه من كذبه، لكنه قال لهم: إن العذاب مُصْحَكٌ وَفَتْ كَفَا وَكُنَا، فكان ذلك، كما قال؛ ثم رفع الله تعالى عنهم العذاب.

وَتَذَارِكُهُمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِينَةٌ ؕ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ بِآمَنَاتِهِمْ كِشْفَنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْغَزِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَيْنَا غِيَبًا﴾ [يونس: ٩٨].

١٥٧١م - وَرُوي فِي الْأَخْبَار أَنَّهُمْ رَأَوْا دَلِيلَ الْعَذَابِ وَمَخَابِلَهُ؛ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: غَشَاهُمُ الْعَذَابُ كَمَا يُغْشَى الثُّوبَ الْقَبْرِ.

١٥٧٢ - فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى مَا رُوي مِنْ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْحٍ كَانَ

يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا، وَصَارَ إِلَى قَرِيشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي كُنْتُ أَصْرَفَ مُحَمَّدًا حَيْثُ أُرِيدُ؛ كَانَ يُغْلِي عَلَيَّ «عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فَأَقُولُ أَوْ «عَلِيمٌ حَكِيمٌ» فيقول: «نَعَمْ؛ كُلُّ صَوَابٍ».

١٥٧٣ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: فيقول له النبي ﷺ: «اكتب كَذَا» فيقول: أكتب

كذا؟ فيقول: «اكتب كيف شئت». ويقول: «اكتب: عَلِيمًا حَكِيمًا» فيقول: أكتب سمياً بصيراً، فيقول له: «اكتب كيف شئت».

١٥٧٤ - وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَضْرَانِيًّا كَانَ يَكْتُبُ

لِلنَّبِيِّ ﷺ - بَعْدَ مَا أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ كَافِرًا، وَكَانَ يَقُولُ: مَا يَذَرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ [البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١)، أحمد (٣/ ١٢٠ - ١٢١)].

فَاعْلَمْ - ثَبَّتْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا جَعَلَ لِلشَّيْطَانِ وَتَلْبِيسِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ عَلَيْنَا وَلَا إِلَيْنَا سَبِيلًا - أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَوَّلًا لَا تُوقَعُ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ زُنْبًا؛ إِذْ هِيَ حِكَايَةُ عَمَّنْ ارْتَدَّ وَكَفَرَ بِاللَّهِ، وَنَحْنُ لَا نَقْبَلُ خَبَرَ الْمُسْلِمِ الْمُتَّهَمِ، فَكَيْفَ بِكَافِرٍ افْتَرَى هُوَ وَمِثْلَهُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟

وَالْعَجَبُ لِسَلِيمِ الْعَقْلِ يَشْغَلُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ سِرَّهُ، وَقَدْ صَدَرَتْ مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ، مُبْغِضٍ لِلدِّينِ، مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَمْ يَرُدَّ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا ذَكَرَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ شَاهَدَ مَا قَالَهُ وَافْتَرَاهُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

وَمَا وَقَعَ مِنْ ذِكْرِهَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَظَاهِرُ حِكَايَتِهَا؛ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ شَاهَدَهَا، وَلَعَلَّهُ حَكِيَ مَا سَمِعَ.

وَقَدْ غَلَّلَ الْبَرَّاءُ حَدِيثَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: رَوَاهُ ثَابِتٌ عَنْهُ، وَلَمْ يُتَابِعْ عَلَيْهِ؛ وَرَوَاهُ حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: وَأَظُنُّ حُمَيْدًا إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ ثَابِتٍ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - وَفَقَّهَ اللَّهُ -: وَلِهَذَا؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَمْ يَخْرُجْ أَهْلُ الصَّحِيحِ حَدِيثَ ثَابِتٍ وَلَا حُمَيْدٍ [مسلم (٢٧٨١)، أحمد (٣/ ١٢٠ - ١٢١)]. وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُقَيْعٍ عَنْ أَنَسٍ [البخاري (٣٦١٧)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي خَرَّجَهُ

أَهْلُ الصَّحَّةِ، وَذَكَرْنَاهُ، وَلَيْسَ فِيهِ عَنْ أَنَسٍ قَوْلُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ إِلَّا مِنْ حِكَايَتِهِ عَنِ الْمُزَنَّدِ النَّصْرَانِيِّ وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا كَانَ فِيهَا فَذَحٌ وَلَا تَوْهِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيمَا أَوْجَحِيَ إِلَيْهِ، وَلَا جَوَازٌ لِلنَّبِيَّانِ وَالْغُلَطِ عَلَيْهِ وَالتَّحْرِيفِ فِيمَا بُلَّغَهُ، وَلَا طَعْنٌ فِي نَظْمِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ - لَوْ ضَعُ - أَكْثَرُ مِنْ أَنَّ الْكَاتِبَ قَالَ لَهُ: عَلِيمٌ حَكِيمٌ - وَكُتِبَ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «كَذَلِكَ هُوَ»، فَسَبَقَهُ لِسَانُهُ أَوْ قَلَمُهُ لِكَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ مِمَّا نُزِّلَ عَلَى الرَّسُولِ قَبْلَ إِظْهَارِ الرَّسُولِ لَهَا؛ إِذْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا أَمْلَأَهُ الرَّسُولُ يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَيَقْتَضِي وَقُوعَهَا بِقُوَّةِ قُدْرَةِ الْكَاتِبِ عَلَى الْكَلَامِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَجُودَةِ جَسَدِهِ وَفِطْنَتِهِ، كَمَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ لِلْعَارِفِ إِذَا سَمِعَ وَلَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي جُمْلَةِ الْكَلَامِ، كَمَا لَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي آيَةٍ وَلَا سُورَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّ صَحَّ - : «كُلُّ ضَوَابٍ» فَقَدْ يَكُونُ هَذَا فِيمَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَقَاطِعِ الْآيِ وَجْهَانِ وَقَرَأَتَانِ أَنْزَلْنَا جَمِيعاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَلَى إِخْدَاهَا، وَتَوَضَّلَ الْكَاتِبُ بِفِطْنَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِمَقْتَضَى الْكَلَامِ إِلَى الْأُخْرَى، فَذَكَرَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَدَمْنَاهُ فَصَوَّبَهَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ ثُمَّ أَحْكَمَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحْكَمَ، وَنَسَخَ مَا نَسَخَ كَمَا قَدْ وَجَدَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَقَاطِعِ الْآيِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وَهَذِهِ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ، وَقَدْ قَرَأَ بَعْضُهُمْ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ: «فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وَلَيْسَتْ مِنَ الْمَصْحُفِ.

وَكَذَلِكَ كَلِمَاتٌ جَاءَتْ عَلَى وَجْهَيْنِ فِي غَيْرِ الْمَقَاطِعِ، قَرَأَ بِهِمَا مَعَا الْجُمْهُورُ، وَثَبَّتْنَا فِي الْمَصْحُفِ، مِثْلَ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى أَوْتَارِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وَ﴿تُنْشِرُهَا﴾.

وِ﴿يَقْضِ الْحَقُّ﴾ وَ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وَكُلُّ هَذَا لَا يَوْجِبُ زَيْناً، وَلَا يَتَسَبُّ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - غُلَطاً وَلَا وَغْماً.

وَقَدْ قَبِلَ: إِنْ هَذَا بِحَتْمٍ أَنْ يَكُونَ فِيمَا يَكْتُبُهُ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - الْكَاتِبُ إِلَى النَّاسِ غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَيَصِفُ اللَّهُ وَيُسَمِّيهِ فِي ذَلِكَ كَيْفَ يَشَاءُ.

فصل

فِي خَالِهِ ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيَا

هَذَا الْقَوْلُ فِيمَا طَرِيقُهُ الْبَلَاغُ، وَأَمَّا مَا لَيْسَ سَبِيلَهُ سَبِيلَ الْبَلَاغِ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا إِلَى الْأَحْكَامِ، وَلَا أَخْبَارِ الْمَعَادِ، وَلَا تُضَافُ إِلَى وَخِي؛ بَلْ فِي

أمور الدنيا وأحوال نفسه - فالذي يجبُ اغتِقَادُهُ تَثْبِيهُ النَّبِيِّ ﷺ - عن أن يَقَعَ خَبْرُهُ في شيءٍ من ذلك بخلاف مُخْبِرِهِ، لا عَمْدًا ولا سَهْوًا ولا غِلْطًا، وأنه معصومٌ مِن ذلك في حالِ رِضاه وفي سَخَطه، وجَدَه ومَرْجِه وصَحْته ومَرْضاه.

ودليلُ ذلك اتفاقُ السَّلَفِ وإجماعُهم عليه؛ وذلك أنا نَعْلَمُ مِن دينِ الصحابةِ وعاديتهم مُبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله، والثَّقَّةُ بجميع أخباره في أي باب كانت، وعن أي شيء وَقَعَتْ، وأنه لم يكن لهم توقُّف ولا تردُّد في شيء منها، ولا استِثْناء عن حاله عند ذلك؛ هل وقع فيها سَهْوٌ أم لا؟.

١٥٧٥ - ولما احتجَّ ابنُ أبي الحَقِيقِ اليهودي على عُمَر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسولِ الله - ﷺ - لهم، واحتجَّ عليه عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله ﷺ: «كيف بك إذا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ؟» فقال اليهودي: كانت هُزِيلَةٌ مِن أبي القاسم. فقال عُمَرُ: كَذَبْتَ، يا عدُوَّ الله! [البخاري (٢٧٣٠)].

وأيضاً فإنَّ أخبارَه وأثارَه وسيرَه وشمالَه مُغْتَنَى بها، مُسْتَفْضَى تفاصيلُها، ولم يَرَدْ في شيء منها استدراكه - عليه السلام - لغلطٍ في قولٍ قاله، أو اعترافه بوفهم في شيءٍ أخبر به.

١٥٧٦ - ولو كان ذلك لُنْقِلَ كما نُقِلَ من قصَّته - عليه السلام - في رجوعه - ﷺ - عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل - وكان ذلك رأياً لا خَبِراً.

١٥٧٧ - وَغَيْرُ ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب؛ كقوله ﷺ: «واللَّهِ! لا أحلفُ على يمين، فأرى غَيْرَها خيراً منها إلاَّ فَعَلْتُ الذي حَلَفْتُ عليه وكَفَرْتُ عن يميني» [البخاري (٦٦٢٣)، مسلم (١٦٤٩)].

١٥٧٨ - وقوله: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ...» الحديث [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)].

١٥٧٩ - وقوله: «اسْقِ يَا زَيْنِرُ! حَتَّى يَبْلُغَ الْمَاءُ الْجَذْرَ» [البخاري (٢٣٥٩)، مسلم (٢٣٥٧)] كما سَنُبَيِّنُ كُلَّ ما في هذا مِن مُشْكِلا ما في هذا الباب والذي بعده إن شاء الله، مع أشباهها.

وأيضاً فإنَّ الكَذِبَ متى عُرِفَ من أحدٍ، في شيءٍ من الأخبار، بخلاف ما هُوَ، على أي وجه كان، اسْتَرِيبَ بخبره، وأثَبَّهُ في حديثه، ولم يَقَعْ لقوله في النفوس موقع، ولهذا ما تَرَكَ المُحَدِّثُونَ والعلماءُ الحديثَ عَمَّنْ عُرِفَ بالنَّوْهَمِ والغَفْلَةِ وسوءِ الجَفْظِ، وكَثْرَةِ العَلْطِ، مع ثقته.

وأيضاً فإن تعمّد الكذب في أمور الدنيا معصية والإكثار منه كبيرة بإجماع،
منقط للمروءة.

وكل هذا مما ينزّه عنه مُصَبُّ النبوة؛ والمرء الواحد منه فيما يستنبغ
ويستغنى ويتبع مما يحل بصاحبها، ويؤذي بقاتلها لاحقة بذلك.

وأما فيما لا يقع هذا الموضع فإن عدّناها من الصفات فهل بحري على
حكمها في الخلاف فيها؟ مختلف فيه. والصواب ثبوت النبوة عن قلبه وكثيره،
سفهوه وغلبوه؛ إذ غلبت السوء البلاء والإعلام والنبيين، وتضيق ما جاء به
النبي ﷺ ونحوه شيء من هذا فادح في ذلك، ومشكك فيه، منافض للمعجزة؛
فلما قطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأبياء خلف في القول في وجوه من الوحوه،
لا بغضب ولا بغير فضد، ولا تسامح مع من سامح في نحوير ذلك عليهم حال
الشهر فيما ليس طريقه البلاء، نعم، وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة، ولا
الانسان به في أمورهم وأحوالهم؛ لأن ذلك كان يؤذي ويرث بهم ويضر القلوب
عن تصديقهم بعد.

ونظر إلى أحوال أهل عصر النبي ﷺ من فريش وغيرها من الأمم وسؤالهم
عن حاله في صدق لسانه، وما عُرِفُوا به من ذلك واعترفوا به مما عُرف، واتفق
أهل الثقل على عضمة نبينا ﷺ منه قتل وتعدّ، وقد ذكرنا من الآثار فيه في الباب
الثاني أول الكتاب ما يبين لك صحة ما أشرنا إليه.

فصل

في ردّ بغض الاعتراضات والشبه، كسفهوه ﷺ

في الصلاة، وقول إبراهيم: إني سقيم

١٥٨٠ - فإن قلت: فما معنى قوله - عليه السلام - في حديث الشهر الذي
حدثنا به الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر، قال: حدثنا القاضي أبو الأضغ بن
سهل، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو عبدالله بن المحار، حدثنا أبو عيسى،
حدثنا عبدالله، حدثنا يحيى، عن مالك، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان
مولي ابن أبي أحمد أنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: صلى
رسول الله ﷺ صلاة العصر، فسلم في ركعتين، فقام ذو البدين، فقال: يا
رسول الله! أقصرت الصلاة أم سبب؟ فقال رسول الله ﷺ: كل ذلك لم يكن؛
(المسلم ٩٩/٥٧٣).

١٥٨١ - وفي الرواية الأخرى: «ما قُصِرَتْ الصلاة، وما نُسِيتُ» [البخاري (٤٨٢، ١٢٢٩، ٦٠٥١)]. الحديث بقصته؛ فأخبره بِنُفي الحالتين، وأنها لم تكن؛ وقد كان أحد ذلك، كما قال ذو اليَدَيْن: قد كان بعض ذلك يا رسول الله! فاعلم - وفقنا الله وإياك - أنَّ للعلماء في ذلك أجوبة، بعضها بضدِّ الإنصاف؛ ومنها ما هو بِنِية التعسف والاعتساف؛ وما أنا أقول:

أما على القول بتجويز الوهم والغلط فيما ليس طريقه من القول البلاغ، وهو الذي زَيَّنَاهُ من القولَيْن - فلا اعتراض بهذا الحديث وشبهه.

وأما على مذهب مَنْ يَمْنَعُ السَّهْوَ والنسيان في أفعاله جملةً، ويرى أنه في مثل هذا عامدٌ لصورة النسيان لِيَسُنَّ، فهو صادقٌ في خبره؛ لأنه لم يَنْسَ ولا قُصِرَتْ، ولكنه على هذا القول تعمَّد هذا الفعل في هذه الصورة لِيَسُنَّ لِمَنْ اعْتَرَاهُ مثله؛ وهو قولٌ مرغوبٌ عنه، ونذكره في موضعه.

وأما على إحالة السَّهْوِ عليه في الأقوال وتجويز السَّهْوِ عليه فيما ليس طريقه القول - كما سنذكره - ففيه أجوبة.

منها: أنَّ النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره؛ أمَّا إنكارُ القُصْرِ فحقٌّ وصدقٌ باطنًا وظاهرًا. وأمَّا النسيانُ فأخبر - ﷺ - عن اعتقاده، وأنه لم يَنْسَ في ظنه؛ فكانه قصدَ الخبر بهذا عن ظنه وإن لم ينطق به؛ وهذا صدقٌ أيضًا.

ووجهٌ ثانٍ: أنَّ قوله: «ولم أنس» راجعٌ إلى السلام: أي إني سلمتُ قُصْدًا، وسهوتُ عن العدَدِ، أي لم أنسه في نفس السلام؛ وهذا محتملٌ؛ وفيه بُعدٌ.

ووجهٌ ثالثٌ: - وهو أبعدُها - ما ذهب إليه بعضهم، وإن احتمله اللفظُ من قوله: «كلُّ ذلك لم يكن»: أي لم يجتمع القُصْرُ والنسيان؛ بل كان أحدهما ومفهومُ اللفظِ خلافه، مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قوله: «ما قُصِرَتْ الصلاة وما نُسِيتُ».

هذا ما رأيتُ فيه لأثمتنا؛ وكلُّ من هذه الوجوه محتملٌ للفظ على بُعد بعضها، وتعسف الآخر منها.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: والذي أقول - ويظهر لي أنه أقرب من هذه الوجوه كلها -: أنَّ قوله ﷺ: «لم أنس» إنكارٌ للفظ الذي نفاه عن نفسه.

١٥٨٢ - وأنكره على غيره بقوله: «بئس ما لأحدكم أن يقول: نُسِيتُ آيةً كذا وكذا، ولكنه نُسي» [البخاري (٥٠٣٢)، مسلم (٧٩٠)].

١٥٨٣ - ويقول على بعض روايات الحديث الآخر: «لَسْتُ أَنسِي، ولكن

أَنْسَى. فلما قَالَ له السائل: أَقْصِرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ أَنْكَرَ قَضَرَهَا كَمَا كَانَ، وَنَسِيَانَهُ هُوَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وَإِنَّ كَانَ جَرَى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ نُسِيَ حَتَّى سَالَ غَيْرُهُ؛ فَتَحَقَّقَ أَنَّهُ نُسِيَ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِيَسُنَّ؛ فَقَوْلُهُ عَلَى هَذَا: «لَمْ أَتَسَّ وَلَمْ تُقْصِرْ» أَوْ «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» صِدْقٌ وَحَقٌّ؛ لَمْ تُقْصِرْ، وَلَمْ يَنْسَ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّهُ نُسِيَ.

وَوَجْهٌ آخَرٌ اسْتَنْزَعَهُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْمَشَايخِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْسَهُو وَلَا يَنْسَى؛ وَلِذَلِكَ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ النُّسْيَانَ؛ قَالَ: لِأَنَّ النُّسْيَانَ غَفْلَةٌ وَأَافَةٌ؛ وَالنُّسْهُوُ إِنَّمَا هُوَ شُغْلٌ بِالِإِيقَاتِ. فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْسَهُو فِي صَلَاتِهِ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهَا؛ وَكَانَ يَشْغَلُهُ عَنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ مَا فِي الصَّلَاةِ؛ شُغْلًا بِهَا، لَا غَفْلَةً عَنْهَا. فَهَذَا - إِنْ تَحَقَّقَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى - لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ: «مَا قُصِرَتْ الصَّلَاةُ» وَلَا نَسِيتُ خُلْفٌ فِي قَوْلِهِ.

وَعِنْدِي أَنَّ قَوْلَهُ: «مَا قُصِرَتْ الصَّلَاةُ وَمَا نَسِيتُ» بِمَعْنَى التَّزَكُّ الَّذِي هُوَ أَخَذَ وَجْهِي النُّسْيَانَ؛ أَرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: إِنِّي لَمْ أَسْلَمْ مِنْ زَكَاةٍ تَارِكًا لِإِكْمَالِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنِّي نَسِيتُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي.

١٥٨٤ - وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنِّي لَأَنْسَى، أَوْ أَنْسَى لِأَنْسُ».

١٥٨٥ - وَأَمَّا قِصَّةُ كَلِمَاتِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا كَذِبَاتُهُ الثَّلَاثُ [البخاري (٣٣٥٧)، مسلم (٢٣٧١)]، الْمَنْصُوصَةُ، فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا اثْنَتَانِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفافات: ٨٩] وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ قُلَّتٌ هَذَا بِهَاتِهِنَّ يَنْبِزُوهُ﴾ (١٧) قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا. [الأنبياء: ٦٢، ٦٣]. وَقَوْلُهُ لِلْمَلِكِ عَنْ زَوْجَتِهِ: «إِنِّهَا أَخْتِي» فَاعْلَمْ - أكرمك الله - أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا خَارِجَةٌ عَنِ الْكُذْبِ؛ لَا فِي الْقَضْدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ؛ وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْمَعَارِضِ الَّتِي فِيهَا مَدْرُوحَةٌ عَنِ الْكُذْبِ.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - فَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: سَأَسْقِمُ؛ أَيِ إِنْ كُلُّ مَخْلُوقٍ مَعْرُضٌ لِذَلِكَ، فَاعْتَذِرْ لِقَوْمِهِ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ إِلَى عِيدِهِمْ بِهَذَا.

وقيل: بل سَقِيمٌ بِمَا قُدِّرَ عَلَيَّ مِنَ الْمَوْتِ.

وقيل: سَقِيمٌ الْقَلْبُ بِمَا أَشَاهَدُهُ مِنْ كُفْرِكُمْ وَعِنَادِكُمْ.

وقيل: بل كَانَتْ الْحُمَى تَأْخُذُهُ عِنْدَ طُلُوعِ نَجْمٍ مَعْلُومٍ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ، قَالَ هَذَا،

اعْتَذَرَ بِعَادَتِهِ.

وكلُّ هذا ليس فيه كَذِبٌ؛ بل هو خَبَرٌ صحيحٌ صدق.

وقيل: بل عَرَضَ بسقمِ حجته عليهم، وَضَعَفَ ما أراد بيانه لهم مِنْ جهة النجوم التي كانوا يشتغلون بها، وأنه أثناء نظره في ذلك، وَقَبْلَ استقامةِ حجته عليهم في حال سَقَمٍ وَمَرَضٍ حال، مع أنه لم يشكْ هو ولا ضَعَفَ إيمانه، ولكنه ضَعَفَ في استدلاله عليهم وسقمِ نظره، كما يُقال: حُجَّةٌ سَقِيمَةٌ، ونَظَرٌ معلولٌ، حتى ألهمه الله باستدلاله وصحةِ حجته عليهم بالكوكب والشمس والقمر - ما نَصَّه الله تعالى - وقد قَدَّمنا بيانه.

وأما قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فإنه عَلَّقَ خَبْرَهُ بِشَرْطِ نطقه، كأنه قال: إِنْ كَانَ يَنْطِقُ فهو فَعَلَهُ على طريق التبكيت لقومه. وهذا صدقٌ أيضاً، ولا خُلْفٌ فيه.

وأما قوله: «أختي» فقد بَيَّن في الحديث، وقال: «فإنك أختي في الإسلام» وهو صدقٌ؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات: ١٠].

١٥٨٦ - فَإِنْ قُلْتَ: فهذا النبي ﷺ قد سَمَّاها كَذِبَات، وقال: «لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كَذِبَاتٍ».

١٥٨٧ - وقال في حديث الشفاعة: «ويذكر كذباته» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)] فمعناه: أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب - وإن كان حقاً في الباطن - إلا هذه الكلمات.

ولمَّا كان مفهومُ ظاهرها خلافَ باطنها أَسْفَقَ إبراهيم - عليه السلام - مِنْ مَوَازِنِهِ بها.

١٥٨٨ - وأما الحديث: «كان النبي ﷺ إذا أراد غَزْوَةً وَرَى بغيرها» [البخاري (٢٩٤٨)، مسلم (٥٤/٢٧٦٩)] فليس فيه خُلْفٌ في القَوْل؛ إنما هو سَتْرٌ مَقْصُودٌ، لئلا يأخذُ عدوه جَذْرَهُ؛ وَكَتَمَ وَجْهَ ذهابه بِذِكْرِ السَّوَالِ عَنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، والبحث عن أخباره والتَّغْرِيبِ بِذِكْرِهِ، لا أَنَّهُ يَقُولُ: تَجَهَّزُوا إِلَى غَزْوَةٍ كَذَا، أَوْ وَجْهَتُنَا إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا خِلَافَ مَقْصِدِهِ؛ فهذا لم يَكُنْ؛ والأوَّلُ ليس فيه خَبَرٌ يَدْخُلُهُ الخُلْفُ.

١٥٨٩ - فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قولِ موسى - عليه السلام - وقد سُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقال: أَنَا أَعْلَمُ؛ فَعَتِبَ اللهُ عَلَيْهِ ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ يَزِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ» الحديث [البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠)]؛ وفيه قال: «بَلْ عَبَدْنَا لِمَا مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ أَعْلَمُ مِنْكَ».

وهذا خَبَرٌ قد أَنبأ اللهُ أنه ليس كذلك.

١٥٩٠ - فاعلم أنه قد وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة، عن ابن عباس: «هل تعلم أحدا أعلم منك؟».

فإذا كان جوابه على علمه فهو خير حتى وصدق ولا خلف فيه ولا شبهة. وعلى الطريق الآخر فمن علمه على ظنه ومعتقديه، كما لو صرخ به: لأن حاله في النبوة والاصطفاء يقتضي ذلك؛ فيكون إخباره بذلك أيضاً عن اعتقاده وجوابه صدقاً لا خلف فيه.

وقد يريد بقوله: «أنا أعلم» بما تقتضيه وظائف النبوة من علوم التوحيد، وأمر الشريعة، وسباسة الأمة، ويكون الخبر أعلم منه بأمور آخر مما لا يعلمه أحد إلا بإعلام الله من علوم فيه؛ كالقصص المذكورة في خبرهما، فكان موسى عليه السلام أعلم على الجملة بما تقدم. وهذا أعلم على الخصوص بما أعلم به. ونقل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥).

وعتب الله ذلك عليه - فيما قاله العلماء - إنكار هذا القول عليه، لأنه لم يزد العلم إليه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (البقرة: ٣٢)، أو لأنه لم يرض قوله شراً، وذلك - والله أعلم - لئلا يقتدي به فيه من لم يبلغ كماله في تركية نفسه وغلو درجته من أمته؛ فيهلك لما تضمنه من مذبح الإنسان نفسه؛ ونورته تلك من الكبر والفخ والنعاطي والدعوى؛ وإن نرد عن هذه الرذائل الأسياء فغيرهم بمذخرة سيلها ودرك ليلها إلا من عصمة الله؛ فالتحفظ منها أولى لنفسه، ولتفتى به.

١٥٩١ - ولذا قال - عليه السلام - تحفظاً من مثل هذا مما قد أعلم به: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر».

وهذا الحديث إخذى صحيح القائمين بنبوة الخضر - عليه السلام - لقوله فيه: «أنا أعلم من موسى». ولا يكون الولي أعلم من النبي. بل الذي أعلم من الولي. فأما الأنبياء فيعاضلون في المعارف.

ويقوله: ﴿وَمَا قَالَتْ عَنْ أَمْرِ﴾ (الكهف: ٨٢)؛ فدل أنه بوحى. ومن قال: إنه ليس بنبي قال: يحتمل أن يكون فعله بامر نبي آخر.

وهذا بضعف؛ لأنه ما علمنا أنه كان في زمن موسى - عليه السلام - نبي غيره إلا آحاه هارون؛ وما نقل أحد من أهل الأخبار في ذلك شيئاً يعول عليه.

وإذا جعلنا: «أعلم منك» ليس على العموم؛ وإنما هو على الخصوص، وفي قضايا معينة - لم يخنح إلى إثبات نبوة الخضر؛ ولهذا قال بعض الشيوخ:

كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر أعلم فيما دُفِعَ إليه من موسى.

وقال آخر: إنما أُلْجِئَ موسى إلى الخضر للتأديب لا للتعليم.

فصل

فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال، ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام والاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد، وما قدمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون على عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْكِبَائِرِ الْمَوْثِقَاتِ. ومستند الجمهور في ذلك الإجماع الذي ذكرناه.

وهو مذهب القاضي أبي بكر؛ ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع؛ وهو قول الكافة، واختاره الأستاذ أبو إسحاق.

وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأنَّ كُلَّ ذَلِكَ تَقْتَضِي الْعِصْمَةَ مِنْهُ الْمَعْجُزَةُ، مع الإجماع على ذلك من الكافة.

والجمهور قائلون: بأنهم معصومون من ذلك من قِبَلِ اللَّهِ، معتصمون باختيارهم وكسبهم، إلا حُسيناً النجار؛ فإنه قال: لا قدرة لهم على المعاصي أصلاً.

وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء؛ وهو مذهب أبي جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين. وسورِدَ بَعْدَ هَذَا مَا احْتَجُّوا بِهِ.

وذهبت طائفة أخرى إلى الوقف، وقالوا: العقل لا يحيل وقوعها منهم؛ ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين.

وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلى عِصْمَتِهِمْ مِنَ الصَّغَائِرِ كِعِصْمَتِهِمْ مِنَ الْكِبَائِرِ؛ قالوا: لاختلاف الناس في الصغائر وتعيينها من الكبائر وإشكال ذلك، وقول ابن عباس وغيره: إِنَّ كُلَّ مَا عَصَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وإنه إنما سُمِّيَ منها الصَّغِيرَةُ بِالإضافة إلى ما هو أَكْبَرُ مِنْهُ؛ ومخالفة الباري في أيِّ أمرٍ كان، يجبُ كونه كبيرة.

قال القاضي أبو محمد: عَبْدُ الْوَهَّابِ: لا يمكن أن يُقال: إِنَّ فِي مَعَاصِي اللَّهِ صَغِيرَةً إِلَّا عَلَى مَعْنَى أَنَّهَا تُتَغَفَّرُ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، ولا يكون لها حُكْمٌ مَعَ ذَلِكَ،

بخلاف الكبائر إذا لم يُتَّب منها فلا يُحِطُها شيء. والمشيئة في العفو عنها إلى الله تعالى؛ وهو قول القاضي أبي بكر وجماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء. قال القاضي رحمه الله: وقال بعض أئمتنا: ولا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛ إذ يلحقها ذلك بالكبائر؛ ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الجِشْمَةِ، وأسقطت المروءة، وأوجبت الإزراء والخساسة؛ فهذا أيضاً مما يُعَصَّم عنه الأنبياء إجماعاً؛ لأن مثل هذه يحط منسبته المُتَّسِم به، ويُزري بصاحبه، ويُتَفَرِّق القلوب عنه؛ والأنبياء منزّهون عن ذلك. بل يلحق بهذا ما كان من قبيل المباح؛ فأدى إلى مثله؛ لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر.

وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم من مَوَاقِع المَكْرُوه قُضَاءً. وقد استدلل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امتثال أفعالهم، واتباع آثارهم وسيرهم مطلقاً. وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة من غير التزام قرينة، بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حُكْم ذلك. وحكى ابن خُوَيز مَنَازِدَ، وأبو الفرج عن مالك، التَّزَام ذلك وجوباً، وهو قول الأبهري وابن القُصَّار وأكثر أصحابنا. وقول أكثر أهل العراق، وابن سُرَيْج، والإسْطَخْرِي، وابن خَيْرَانَ من الشافعية. وأكثر الشافعية على أن ذلك نَذْب. وذهبت طائفة إلى الإباحة.

وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعُلِمَ به مَقْصِدُ الْقُرْبَةِ. وَمَنْ قَالَ بالإباحة في أفعاله لم يَقِيْد. قال: فلو جَوَّزْنَا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم؛ إذ ليس كلُّ فِعْلٍ من أفعاله يَتِمِّزُ مَقْصِدُهُ من الْقُرْبَةِ أو الإباحة، أو الحَظَرِ، أو المعصية. ولا يصح أن يُؤْمَر المرءُ بامتنال أمرٍ لعلَّه معصية. لا سيما على مَنْ يَرَى تقديم الفعل على القول إذا تعارضاً من الأصوليين.

ونزيدُ هذا حُجَّةً بأن نقول: مَنْ جَوَّز الصغائر وَمَنْ نَفَاها عن نَبِيَّنَا - عليه السلام - مُجْمِعُونَ على أنه لا يَقْرَأ على مُتَكَرِّرٍ مِنْ قولٍ، أو فِعْلٍ، وأنه متى رأى شيئاً، فسكت عنه - ﷺ - دَلَّ على جوازِهِ، فكيف يكون هذا حاله في حق غيره، ثم يجوز وقوعه منه في نفسه؟!!

وعلى هذا المآخذ تجب عصمتهم من مُواقعة المكروه، كما قيل. وإذ الحظر أو التذنب على الاقتداء بفعله يُتأني الزجر والنهي عن فعل المكروه. وأيضاً قد عُلم من دين الصحابة قطعاً الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف توجّهت، وفي كل فن كالاقتداء بأقواله.

١٥٩٢ - فقد تَبَدُّوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه [البخاري (٦٦٥١)، مسلم (٢٠٩١)].

١٥٩٣ - وخلعوا نعالهم حين خلع نعله [أبو داود (٦٥٠)].

١٥٩٤ - واحتجاجهم برؤية ابنِ عُمَرَ إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس [البخاري (١٤٥)، مسلم (٢٦٦)].

واحتجَّ غَيْرُ واحدٍ منهم في غير شيء مما بآئه العبادة أو العادة بقوله: رأيت النبي ﷺ - يفعله.

١٥٩٥ - وقال: «هَلَّا خَبَرْتِهَا أَنِّي أَقْبَلُ وَأَنَا صَائِمٌ».

١٥٩٦ - وقالت عائشة - محتجّة -: كنت أفعله أنا ورسولُ الله ﷺ [الترمذي (١٠٨)].

١٥٩٧ - وغَضِبَ - عليه السلام - على الذي أُخْبِرَ بمثل هذه عنه؛ فقال: يُحِلُّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مَا يَشَاءُ وَقَالَ: «إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِهِ».

والآثار في هذا أعظم من أَنْ تُحيطَ عليها، لكنه يُعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها، ولو جَوَّزُوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا، وَلْتَقَلَّ عنهم وظهر بَخْثُهُمْ عن ذلك، وَلَمَّا أَنْكَرَ - عليه السلام - على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم؛ إذ ليس فيها قَذْحٌ، بل هي مَأْذُونٌ فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلطة عليها، إلا أَنَّهُمْ بما خُصُّوا به من رَفِيعِ المنزلة، وشرَحَتْ له صدورهم من أنوار المعرفة، واضطُّقُوا به مِنْ تَعَلُّقِ الهمم بالله والدار الآخرة، لا يأخذون من المباحات إلا الضَّرُورَاتِ مما يَتَقَرَّوْنَ به على سُلُوكِ طريقهم، وصلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أَخَذَ على هذه السبيل التحق بطاعة، وصار قُرْبَةً، كما يَبَيِّنُ منه أَوَّلُ الكتابِ طرفاً في خصال نبينا عليه السلام؛ فبان لك عَظِيمُ فَضْلِ اللَّهِ على نبينا عليه السلام وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام. بأن جعل أفعالهم قُرْبَاتٍ وطاقاتٍ بعيدة عن وَجْهِ المخالفة ورسم المعصية.

فصل

في عظمة الأنبياء من المعاصي قبل النبوة

وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة؛ فمنعها قوم، وجورها آخرون. والصحيح - إن شاء الله - تزيههم من كل غيب، وعصمتهم من كل ما يوجب الزنب؛ فكيف والمسألة تصورها كالمُنتهع؛ فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع.

وقد اختلف الناس في حال نبينا - عليه السلام - قبل أن يوحى إليه؛ هل كان متبعاً لشرع قبله أم لا؟ فقال جماعة: لم يكن متبعاً لشيء؛ وهذا قول الجمهور؛ فالمعاصي على هذا القول غير موجودة ولا مغتبرة في حقه حينئذ؛ إذ الأحكام الشرعية إنما تتعلق بالأوامر والنواهي وتقرر الشريعة.

ثم اختلفت حجة الفائلين بهذه المقالة عليها؛ فذهب سيف السنة، ومفتدى فزق الأمة، القاضي أبو بكر إلى أن طريق العلم بذلك الثقل، وموارد الخبر من طريق السمع؛ وحجته أنه لو كان ذلك للثقل، ولما أمكن كنهه وسننه في العادة؛ إذ كان من مهم أمره؛ وأولى ما اهتبل به من سيرته، ولما فخر به أهل تلك الشريعة، ولا خجوا به عليه؛ ولم يؤثر شيء من ذلك جملة.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً؛ قالوا: لأنه ينبغي أن يكون متبعاً من عرف تابعاً؛ وبنوا هذا على التحسين والتفويض؛ وهي طريقة غير سديدة؛ واستناد ذلك إلى الثقل - كما تقدم للقاضي أبي بكر - أولى وأظهر.

وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام، وترك قطع الحكم عليه بشيء؛ في ذلك؛ إذ لم يحل أحد الوجهين منها العقل، ولا استنباط عندنا في أحدهما طريق الثقل؛ وهو مذهب أبي المعالي.

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان عاملاً بشرع من قبله؛ ثم اختلفوا هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عن ثبوتيه، وأخجم، وجسر بعضهم على التعيين وصنم.

ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يتبع؛ فقبل: نوح، وقبل: إبراهيم، وقبل: موسى، وقبل: عيسى صلوات الله عليهم. فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة.

والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، وأبعد ما ذهب إليه المعينين؛ إذ

لو كان شيء من ذلك لثِقِلَ كما قَدَّمنا، ولم يَخَفْ جملة؛ ولا حجة لهم في أن عيسى آخِرُ الأنبياء، فلزمت شريعته من جاء بعدها؛ إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ؛ ولا حجة أيضاً للآخرين في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَقِيقاً﴾ [النحل: ١٢٣]، ولا للآخرين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]، فتَحْمِلُ هذه الآية على اتِّباعهم في التوحيد؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهِدَهُمُ آفَكَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد سَمَّى الله تعالى فيهم مَنْ لم يُبْعَثْ، ولم يَكُنْ له شريعة تخصه؛ كيوسف بن يعقوب على قول مَنْ يقول: إنه ليس برسول.

وقد سَمَّى الله تعالى جماعة منهم في هذه الآية شرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها؛ فدل أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى. ويَعْدُ هذا؛ فهل يلزم مَنْ قال بمنع الاتِّباع هذا القول في سائر الأنبياء غير نبينا ﷺ، أو يخالفون بينهم؟

أما مَنْ مَنَعَ الاتِّباع عقلاً فيطرُدُ أضله في كلِّ رسولٍ بلا مزية. وأما مَنْ قال إلى الثقل فأينما تصوّر له وتقرّر اتَّبعه.

ومن قال بالوقف فعلى أضله، ومن قال بوجوب الاتِّباع لمن قبله يلتزمه بمساق حُجَّتِهِ في كل نبي.

فصل

في حُكْمِ السَّهْوِ وَالتَّنْسِيَانِ فِي الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ

هذا حُكْمُ ما تَكُونُ المخالفة فيه من الأعمال عن قَصْدٍ؛ وهو ما يسمَّى مَعْصِيَةً، ويدخل تحت التكليف. وأما ما يكون بغير قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ، كالسَّهْوِ، والتَّنْسِيَانِ في الوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ، مما تَقَرَّرَ الشَّرْعُ بعدم تعلُّق الخطاب به، وترك المؤاخذه عليه؛ فأحوالُ الأنبياء - عليهم السلام - في ترك المؤاخذه به، وكونه ليس بمَعْصِيَةٍ لهم مع أمهم سواء. ثم ذلك على نوعين: ما طريقه البلاغ، وتقرير الشَّرْعِ، وتعلُّق الأحكام، وتعليم الأمة بالفعل، وأخذهم باتِّباعه فيه، وما هو خارج عن هذا مما يختصُّ بنفسه.

أما الأول: فحُكْمُهُ عِنْدَ جماعة من العلماء حُكْمُ السَّهْوِ في القول في هذا الباب، وقد ذكرنا الاتفاق على امتناع ذلك في حق النبي ﷺ، وعِصْمَتِهِ مِنْ

جوازِهِ عَلَيْهِ قُضْدًا أَوْ سَهْوًا؛ وَكَذَلِكَ قَالُوا: الْأَفْعَالُ فِي هَذَا الْبَابِ لَا يَجُوزُ طَرُؤُ
الْمُخَالَفَةِ فِيهَا لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى الْقَوْلِ مِنْ جِهَةِ التَّبْلِيغِ وَالْإِدَاءِ،
وَطَرُؤُ هَذِهِ الْعَوَارِضُ عَلَيْهَا يُوجِبُ التَّشْكِيكَ، وَيُسَبِّبُ الْمَطَاعَنَ.

وَاعْتَذَرُوا عَنْ أَحَادِيثِ السَّهْوِ بِتَوَجُّهَاتٍ نَذَرُهَا بَعْدَ هَذَا. وَإِلَى هَذَا مَالُ أَبُو
إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي.

وَذَهَبَ الْأَكْثَرُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى أَنَّ الْمُخَالَفَةَ فِي الْأَفْعَالِ الْبَلَاغِيَةِ
وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَةِ - سَهْوًا وَعَنْ غَيْرِ قُضْدٍ مِنْهُ - جَائِزَةٌ عَلَيْهِ، كَمَا تَقَرَّرُ مِنْ أَحَادِيثِ
السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ؛ وَفَرَّقُوا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْأَقْوَالِ الْبَلَاغِيَةِ لِقِيَامِ الْمَعْجِزَةِ عَلَى
الصَّدَقِ فِي الْقَوْلِ، وَمُخَالَفَتِهِ ذَلِكَ يَنَاقِضُهَا.

وَأَمَّا السَّهْوُ فِي الْأَفْعَالِ فَغَيْرُ مُنَاقِضٍ لَهَا، وَلَا قَادِحٍ فِي النُّبُوَةِ، بَلْ غَلَطَاتُ
الْفِعْلِ وَغَفَلَاتُ الْقَلْبِ مِنْ سِمَاتِ الْبَشَرِ.

١٥٩٨ - كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أُتْسَى كَمَا تُتْسَوْنَ، فَإِذَا
نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» [الْبَخَارِيُّ (٤٠١)، مُسْلِمٌ (٥٧٢)].

١٥٩٩ - نَعَمْ، بَلْ حَالَةُ النِّسْيَانِ وَالسَّهْوِ - هُنَا - فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبَبٌ
إِفَادَةٍ عِلْمٍ، وَتَقْرِيرِ شَرْعٍ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأُنْسَى - أَوْ أُتْسَى -
لَأُنْسَ».

١٦٠٠ - بَلْ قَدْ رُوِيَ: «لَسْتُ أُتْسَى، وَلَكِنْ أُتْسَى لِأُنْسَ».

وَهَذِهِ الْحَالَةُ زِيَادَةٌ لَهُ فِي التَّبْلِيغِ، وَتِمَامٌ عَلَيْهِ فِي النِّعْمَةِ، بَعِيدَةٌ عَنْ سِمَاتِ
النُّقْصَانِ، وَاعْتِرَاضُ الطُّغْنِ؛ فَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِتَجْوِيزِ ذَلِكَ يَشْتَرِطُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقَرُّ
عَلَى السَّهْوِ وَالْغَلَطِ؛ بَلْ يَنْبَهُونَ عَلَيْهِ، وَيُعَرِّفُونَ حُكْمَهُ بِالْقَوْرِ - عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ -
وَهُوَ الصَّحِيحُ وَقَبْلَ انْقِرَاضِهِمْ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِينَ.

وَأَمَّا مَا لَيْسَ طَرِيقُهُ الْبَلَاغُ، وَلَا بَيَانُ الْأَحْكَامِ مِنْ أَعْمَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا
يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ أُمُورٍ دِينِيَّةٍ، وَأَذْكَارٍ قَلْبِيَّةٍ، مِمَّا لَمْ يَقْعُدْهُ لِيَتَّبِعْ فِيهِ، فَلَا أَكْثَرَ مِنْ طَبَقَاتِ
عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِ السَّهْوِ وَالْغَلَطِ عَلَيْهِ فِيهَا، وَلِحُوقِ الْفَتَرَاتِ، وَالْغَفَلَاتِ
بِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ بِمَا كُتِّفَهُ مِنْ مِقَاسَةِ الْخَلْقِ، وَسِيَاسَاتِ الْأُمَّةِ، وَمَعَانَاةِ الْأَهْلِ،
وَمُلَاحَظَةِ الْأَعْدَاءِ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ التَّكْرَارِ، وَلَا الْإِتِّصَالِ؛ بَلْ عَلَى
سَبِيلِ التَّدْوِيرِ.

١٦٠١ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لِيُغَاثَ عَلَى قَلْبِي، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

وَلَيْسَ فِي هَذَا شَيْءٌ يَخْطُ مِنْ رُتْبَتِهِ وَيُنَاقِضُ مَعْجِزَتَهُ.

وذهبت طائفة إلى مَنعِ السَّهْوِ، والنَّسيانِ، والغَفَلاتِ، والفَتَرَاتِ في حقِّه - عليه السلام - جملةً.

وهو مذهبُ جماعة المتصوِّفة وأصحابِ عِلْمِ القلوب والمقامات، ولهم في هذه الأحاديث مذاهبٌ نذكرها - إن شاء الله - بَعْدُ.

فصل

فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورِ

فِيهَا السَّهْوُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قد قدَّمنا في الفصول قبل هذا ما يجوزُ فيه عليه السَّهْوُ - عليه السلام - وما يمتنعُ، وأحلَّناه في الأخبارِ جملةً، وفي الأقوالِ الدينية قطعاً، وأجزَّنا وقوعه في الأفعالِ الدينية على الوَجْهِ الذي رُبَّناه، وأشرنا إلى ما ورد في ذلك؛ ونحن نَبْسُطُ القولَ فيه ها هنا - إن شاء الله - ونقول: الصحيح من الأحاديث الواردة في سَهْوِهِ - عليه السلام - في الصلاة ثلاثة أحاديث:

١٦٠٢ - أولها: حديث ذي اليَدَيْنِ في السلام من اثنتين.

١٦٠٣ - الثاني: حديث ابن بُحَيَّةَ في القيام من اثنتين [البخاري (٨٢٩)، مسلم (٥٧٠)].

١٦٠٤ - الثالث: حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى

الظَّهْرَ خَمْساً [البخاري (١٢٢٦)، مسلم (٩١/٥٧٢)].

وهذه الأحاديث مبنيةٌ على السَّهْوِ في الفِعْلِ الذي قرَّزناه، وحكمةُ اللَّهِ فيه لِيُسْتَنَّ به، إِذِ الْبَلَاغُ بالفعل أَجْلَى منه بالقول، وأَرْفَعُ للاحتمال؛ وشرطه أَنَّهُ لَا يُقَرَّرُ عَلَى السَّهْوِ؛ بَلْ يُشْعَرُ به ليرتفعَ الْإِتْيَاسُ، وتظهرَ فائدةُ الْحِكْمَةِ فيه كما قدمناه؛ وَإِنِ النِّسيانُ والسَّهْوُ في الفِعْلِ في حقِّه - عليه السلام - غيرُ مُضَادٍّ للمعجزة، ولا قَادِحٍ في التصديق.

١٦٠٥ - وقد قال عليه السلام: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنَسَى كَمَا تَنْسَوْنَ؛ فَإِذَا

نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي».

١٦٠٦ - وقال ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ فُلَاناً؛ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، كُنْتُ

أَسْقَطُهُنَّ» [البخاري (٥٠٣٨)، مسلم (٧٨٨)]، وَيُزَوَّى: «أَنْبَسَيْتُهُنَّ».

١٦٠٧ - وقال عليه السلام: «إِنِّي لَأَنْسَى - أَوْ أَنْسَى - لَأَنْسَى».

١٦٠٨ - قيل: هذا اللفظُ شَكٌّ مِنَ الرَّايِ. وقد روى: «إِنِّي لَا أَنْسَى،

وَلَكِنْ أَنَسَى لَأَنْسَى».

وذهب ابن نافع، وعيسى بن دينار أنه ليس بشك؛ وأن معناه التقسيم؛ أي أنسى أنا، أو يُنسني الله.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: يَحْتَمِلُ ما قلناه، أن يُريدَ إني أنسى في النِّقْطَةِ، وأنسى في النوم، أو أنسى على سبيل عادة البشر من الدُّهُولِ عن الشيء؛ والسُّهُو؛ أو أنسى مع إقبالي عليه وتفرُّغي له؛ فأضاف أخذ النسيانين إلى نفسه؛ إذ كان له بعض السبب فيه، ونفى الآخر عن نفسه؛ إذ هو فيه كالمضطر.

وذهبت طائفة من أصحاب المعاني والكلام على الحديث إلى أن النبي ﷺ كان يسهو في الصلاة ولا يتنس؛ لأن النسيان دُهُولٌ وَغَفْلَةٌ وآفَةٌ؛ قال: والنبي ﷺ مُنْزَعَةٌ عنها؛ والسُّهُو شُغْلٌ؛ فكان النبي - عليه السلام - يسهو في صلاته، ويشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة، شُغْلًا بها، لا غَفْلَةً عنها.

واحتج بقوله في الرواية الأخرى: «إني لا أنسى». وذهبت طائفة إلى منع هذا كله عنه، وقالوا: إن سهُوَه عليه السلام كان قصداً وَغَفْلاً لَيْسَ.

وهذا قول مرغوب عنه، مُتَنَاقِضُ المقاصد، ولا يُخْلِي منه بطلان؛ لأنه كيف يكون متعمداً ساهياً في حال؟! ولا حجة لهم في قولهم: إنه أمر بتعمد صورة النسيان لَيْسَ؛ لقوله عليه السلام: «إني لأنسى أو أنسى لأسن». وقد أثبت أحد الوصفين، ونفى مُنَاقِضَةَ التعمد والقصْد.

١٦٠٩ - وقال: «إنما أنا بشرٌ بفلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني».

وقد مَالَ إلى هذا عظيم من المحققين من أئمتنا، وهو أبو المظفر الإسفراييني، ولم يَرْتَضِهِ غَيْرُهُ منهم، ولا أَرْضِيهِ، ولا حجة لهاتين الطائفتين في قوله: «إني لا أنسى ولكن أنسى» إذ ليس فيه نفي حُكْمِ النسيان بالجملة، وإنما فيه نفي لَفْظِهِ وكراهة لَقْبِهِ.

١٦١٠ - كقوله: «بشئ ما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كذا، ولكنه نسي» أو نفي الغفلة وقلة الاهتمام بأمر الصلاة عن قلبه، لكن شُغْلَ بها عنها، ونسي بعضها ببعضها.

١٦١١ - كما ترك الصلاة يوم الخندق حتى خرج وقتها [البخاري (٢٩٣١)، مسلم (٦٢٧)]، وشُغِلَ بالتحريز من العدو عنها؛ فشُغِلَ بطاعة عن طاعة.

١٦١٢ - وقيل: إن الذي تُرِكَ يوم الخندق أربع صلوات: الظهر، والعصر،

والمغرب، والعشاء، وبه احتجَّ مَنْ دَهِبَ إِلَى جَوَازِ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ فِي الْحَرْبِ، إِذَا لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ أَدَائِهَا إِلَى وَقْتِ الْأَمْنِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّامِيِّينَ.

والصَّحِيحُ أَنَّ حُكْمَ صَلَاةِ الْخَوْفِ كَانَ بَعْدَ هَذَا، فَهُوَ نَاسِخٌ لَهُ.

١٦١٣ - فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِي نَوْمِهِ ﷺ عَنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْوَادِي.

١٦١٤ - وَقَدْ قَالَ: «إِنْ عَيْنِي تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي؟».

فَاعْلَمْ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ عَنْ ذَلِكَ أَجْوِبَةً.

مِنْهَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِأَنَّ هَذَا حُكْمُ قَلْبِهِ عِنْدَ نَوْمِهِ وَعَيْنِيهِ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ،

وَقَدْ يَنْدُرُ مِنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ، كَمَا يَنْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ خِلَافُ عَادَتِهِ.

١٦١٥ - وَيُصَحِّحُ هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْحَدِيثِ نَفْسُهُ:

«إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا».

١٦١٦ - وَقَوْلُ بِلَالٍ فِيهِ: مَا أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نَوْمَةً مِثْلَهَا قَطُّ [البخاري (٥٩٥)].

وَلَكِنْ مِثْلُ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهُ لِأَمْرِ يَرِيدُهُ اللَّهُ مِنْ إِثْبَاتِ حُكْمٍ، وَتَأْسِيسِ سُنَّةٍ، وَإِظْهَارِ شَرْعٍ.

١٦١٧ - وَكَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا يَقْظُنَا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ

يَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ».

الثَّانِي: أَنَّ قَلْبَهُ لَا يَسْتَغْرِقُهُ النَّوْمُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ الْحَدَثُ فِيهِ.

١٦١٨ - لَمَّا رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ مُحْرَسًا.

وَأَنَّهُ كَانَ يَنَامُ حَتَّى يَنْفُخَ، وَحَتَّى يُسْمِعَ غَطِيطَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ

[البخاري (١١٧)، مسلم (٧٦٣)].

١٦١٩ - وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورُ فِيهِ وَضُوْءُهُ عِنْدَ قِيَامِهِ مِنَ النَّوْمِ [البخاري

(٦٣١٦)، مسلم (١٨٢/٧٦٣)]، فِيهِ نَوْمُهُ مَعَ أَهْلِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ عَلَى وَضُوْئِهِ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمَجْرَدِ النَّوْمِ، إِذْ لَعَلَّ ذَلِكَ لِمَلَامَسَةِ الْأَهْلِ أَوْ لِحَدِيثِ آخَرَ، فَكَيْفَ

وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ نَفْسِهِ: ثُمَّ نَامَ حَتَّى سَمِعَتْ غَطِيطَهُ، ثُمَّ أَقْبَمَتِ الصَّلَاةَ فَصَلَّى

وَلَمْ يَتَوَضَّأْ؟

١٦٢٠ - وَقِيلَ: لَا يَنَامُ قَلْبُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يُوَحَّى إِلَيْهِ فِي النَّوْمِ، وَلَيْسَ فِي

قِصَّةِ الْوَادِي إِلَّا نَوْمٌ عَيْنِيٍّ عَنْ رُؤْيَا الشَّمْسِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الْقَلْبِ، وَقَدْ قَالَ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَوْ شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا فِي حِينٍ غَيْرِ هَذَا».

١٦٢١ - فَإِنْ قِيلَ: فَلَوْلَا عَادَتُهُ مِنْ اسْتِغْرَاقِ النَّوْمِ لَمَّا قَالَ لِبِلَالٍ: «اخْلُأْ لَنَا

الصُّبْحُ» [مسلم (٦٨٠)].

١٦٢٢ - فُقِيلَ فِي الْجَوَابِ: إِنَّهُ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - التَّغْلِيصُ بِالصُّبْحِ؛ وَمِرَاعَاةُ أَوَّلِ الْفَجْرِ لَا يَصُحُّ مِمَّنْ نَامَتْ عَيْنُهُ؛ إِذْ هُوَ ظَاهِرٌ يُذَكَّرُ بِالْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، فَوَكَّلْ بِلَاأَ بِمِرَاعَاةِ أَوَّلِهِ لِيُعْلِمَهُ بِذَلِكَ، كَمَا لَوْ شُغِلَ بِشُغْلٍ غَيْرِ النَّوْمِ عَنْ مِرَاعَاتِهِ.

١٦٢٣ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى نَهْيِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَنِ الْقَوْلِ: «نَسِيتُ».

١٦٢٤ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: «إِنِّي أَنَسَى كَمَا تَنَسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي».

١٦٢٥ - وَقَالَ: «لَقَدْ أَذَكَّرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةٌ كُنْتُ أَنَسِيْتُهَا».

فَاعْلَمْ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ؛ أَمَّا نَهْيُهُ عَنْ أَنْ يُقَالَ: «نَسِيتُ آيَةَ كَذَا» فَمَحْمُولٌ عَلَى مَا نُبِخَ فَعَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، أَيْ: إِنَّ الْغَفْلَةَ فِي هَذَا لَمْ تَكُنْ مِنْهُ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى اضْطَرَّهُ إِلَيْهَا لِيَنْمَحُوَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، وَمَا كَانَ مِنْ سَهْوٍ، أَوْ غَفْلَةٍ مِنْ قِبَلِهِ تَذَكَّرَهَا صَلَحَ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: أَنَسَى.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْهُ - ﷺ - عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِحْبَابِ فِي أَنَّهُ يُضَيَّفُ الْفِعْلُ إِلَى خَالِقِهِ، وَالْآخَرُ عَلَى طَرِيقِ الْجَوَازِ لِاِكْتِسَابِ الْعَبْدِ فِيهِ، وَإِسْقَاطِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَمَّا أَسْقَطَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ جَائِزٌ عَلَيْهِ بَعْدَ بَلَاغِ مَا أَمَرَ بِبَلَاغِهِ، وَتَوْصِيلِهِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، ثُمَّ يَسْتَذَكِّرُهَا مِنْ أَمْتِهِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - نَسَخَهُ وَمَخَوَهُ مِنَ الْقُلُوبِ وَتَرَكَ اسْتِذْكَارَهُ.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى النَّبِيُّ - ﷺ - مَا هَذَا سَبِيلُهُ كَرَّةً؛ وَيَجُوزُ أَنْ يُنْسِيَهُ مِنْهُ قَبْلَ الْبَلَاغِ مَا لَا يَغْتَرُّ نَظْمًا، وَلَا يَخْلُطُ حُكْمًا، مِمَّا لَا يَدْخُلُ خَلَلًا فِي الْخَبَرِ، ثُمَّ يَذْكُرُهُ إِثْبَاتًا، وَيَسْتَحِيلُ ذَوَامَ نَسْيَانِهِ لَهُ؛ لِحِفْظِ اللَّهِ كِتَابَهُ، وَتَكْلِيفِهِ بَلَاغَهُ.

فصل

فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَجَارَ عَلَيْهِمُ الصَّغَائِرَ وَالْكَلَامَ عَلَى مَا احْتَجُّوا بِهِ فِي ذَلِكَ

اعْلَمْ أَنَّ الْمَجُوزِينَ الصَّغَائِرَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَمَنْ شَائِعِهِمْ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِظَوَاهِرَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، إِنْ التَّزَمُوا ظَوَاهِرَهَا أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَى تَجْوِيزِ الْكِبَائِرِ وَخَرْقِ الْإِجْمَاعِ، وَمَا لَا يَقُولُ بِهِ مُسْلِمٌ، فَكَيْفَ وَكُلُّ مَا احْتَجُّوا بِهِ مِمَّا اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، وَتَقَابَلَتِ الْإِحْتِمَالَاتُ فِي مُقْتَضَاهُ، وَجَاءَتْ أَقْوِيلُ فِيهَا لِلْسَّلَفِ بِخِلَافِ مَا التَّزَمُوهُ مِنْ ذَلِكَ؟

فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به من ذلك قديماً، وقامت الحجة والدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تزكته، والمصيرُ إلى ما صَحَّ.

وما نحن نأخذُ في النظرِ فيها إن شاء الله:

فمن ذلك قوله تعالى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّد ﷺ:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَدْرَكَ ۝ أَلَيْسَ أَفْقَصَ ظَهْرَكَ ۝﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وقوله: ﴿عَمَّا أَثَبَّ اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ...﴾ الآية [التوبة: ٤٣].

وقوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٨]

[الأضال: ٦٨].

وقوله: ﴿يَسِّرْ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَحْمَقُ ۝﴾ الآية [عبس: ١، ٢].

وما قصَّ عليه من قصصٍ غيره من الأنبياء؛ كقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

[طه: ١٢١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا بَلَاءًا جَمَلًا لَمْ يَشْكُرَا فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وقوله - عنه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف: ٢٣].

وقوله - عن يونس: ﴿سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧].

وما ذكر من قصته وقصة داود؛ وقوله: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا

وَأَنَابَ ۝﴾ [٢٤] فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ۝﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

وقوله - عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفَى وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية [يوسف: ٢٤] وما

قصَّ من قصته مع إخوته.

وقوله - عن موسى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾

[القصص: ١٥].

١٦٢٦ - وقول النبي ﷺ - في دعائه: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما

أَخَّرْتُ، وما أَسْرَزْتُ وما أَهْلَنْتُ» [مسلم (٧٧١)] ونحوه من أذعيته. عليه السلام.

١٦٢٧ - وذكر الأنبياء في الموقفِ ذُنُوبَهُمْ، في حديث الشفاعة.

١٦٢٨ - وقوله: «إِنَّهُ لَيُغَاثُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

١٦٢٩ - وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفر الله، وأنوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وقوله تعالى - عن نوح: «وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ» [هود: ٤٧] وقد كان الله - عز وجل - قال له: «وَلَا تُحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» [هود: ٣٧].

وقال - عن إبراهيم: «وَالَّذِي أَلْمَعَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ» (٨٧) الآية [الشعراء: ٨٢].

وقوله - عن موسى: «بَقِيَ لِيكَ» [الأعراف: ١٤٣].
وقوله: «وَلَقَدْ قَتَلْنَا شُعَيْنًا...» الآيات [ص: ٣٤] إلى ما أشبه هذه الظواهر.

قال القاضي رحمه الله:
فأما احتجاجهم بقوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ٧] فهذا قد اختلف فيه المفسرون؛ ف قيل: المراد ما كان قبل النبوة وبغدها.
وقيل: المراد ما وقع لك من ذنب وما لم يقع. أعلمه أنه مغفور له.
وقيل: المتقدم ما كان قبل النبوة، والمتأخر: عَصَمْتُكَ بَعْدَهَا، حكاه أحمد بن نصر.

وقيل: المراد بذلك أمته عليه السلام.
وقيل: المراد ما كان عن سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ، وتأويل. حكاه الطبري رحمه الله، واختاره الفُثَيْرِي.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ» لأبيك آدم، «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمتك؛ حكاه السُّقُوتِي والسُّلَمِي عن ابن عطاء.

وبمثله والذي قبله يتأول قوله: «وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» [محمد: ١٩] قال مكِّي: مخاطبة النبي ﷺ - ها هنا - هي مخاطبة لأمته.

وقيل: إن النبي ﷺ - لما أُمِرَ أَنْ يَقُولَ: «وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» [الأحقاف: ٩] - سُرَّ بِذَلِكَ الْكَفَارُ لِعَنِهِمْ اللَّهُ؛ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» الآية [الفتح: ٧] وبمآل المؤمنين في الآية الأخرى بعدها؛ قاله ابن عباس؛ فمَقْصِدُ الْآيَةِ: إِنَّكَ مَغْفُورٌ لَكَ، غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بِذَنْبٍ تَذَنَّبَ أَنْ لَوْ كَانَ. قال بعضهم: المَغْفِرَةُ هَا هُنَا: تَبَرُّتُهُ مِنَ الْعُيُوبِ.

وأما قوله: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزَرَكَ» (٢) أَلَيْسَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) [الشرح: ٣، ٢]؛

فقيل: ما سلف مِنْ ذَنْبِكَ قَبْلَ النبوة؟ وهو قولُ ابْنِ زَيْدٍ، والحسن، ومعنى قول قتادة.

وقيل: معناه أَنَّهُ حَفِظَ قَبْلَ نبوّته منها، وعَصِمَ؛ ولولا ذلك لَأَثْقَلَتْ ظَهْرُهُ؛ حكى معناه السمرقندي.

وقيل: المرادُ بذلك ما أَثْقَلَ ظَهْرُهُ مِنْ أَغْبَاءِ الرِّسَالَةِ حَتَّى بَلَغَهَا؛ حكاه الماوردي، والسلمي.

وقيل: حَطَطْنَا عَنْكَ ثِقَلَ أَيَّامِ الجاهلية؛ حكاه مكي.

وقيل: ثَقُلَ شُغْلُ سِرِّكَ وَخَيْرَتِكَ وَطَلَبُ شَرِيعَتِكَ حَتَّى شَرَعْنَا ذَلِكَ لَكَ، حكى معناه القشيري.

وقيل معناه: خَفَّفْنَا عَلَيْكَ مَا حَمَلْتَ بِحِفْظِنَا لِمَا اسْتَحِفَّتْ، وَحَفِظَ عَلَيْكَ.

ومعنى «أَفْقَضَ ظَهْرَكَ» أَي: كَادَ يَنْقُضُهُ؛ فيكون المعنى على مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ لِمَا قَبْلَ النبوة اهتمامَ النبي - ﷺ - بِأُمُورٍ فَعَلَهَا قَبْلَ نبوّته، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ النبوة؛ فَعَذَّاهَا أَوْزَارًا، وَثَقَلَتْ عَلَيْهِ، وَأَشْفَقَ مِنْهَا.

أَوْ يَكُونُ الْوَضْعُ عِصْمَةُ اللَّهِ لَهُ وَكِفَايَتُهُ مِنْ ذُنُوبٍ لَوْ كَانَتْ لَأَثْقَضَتْ ظَهْرَهُ.

أَوْ يَكُونُ مِنْ ثِقَلِ الرِّسَالَةِ؛ أَوْ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِ وَشُغِلَ قَلْبُهُ مِنْ أُمُورِ الجاهلية، وإعلامُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِحِفْظِ مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ وَحْيِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهْزَةٍ» [التوبة: ٤٣] فَأَمَرَ لَمْ يَتَقَدَّمَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - نَهْيٌ فَيَعْدُ مَعْصِيَةً، وَلَا عَذَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ مَعْصِيَةً؛ بَلْ لَمْ يَعِدْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مُعَاتَبَةً، وَغَلَطُوا مَنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ؛ قَالَ يَفْطَوْنَهُ: وَقَدْ حَاشَا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ؛ بَلْ كَانَ مُخَيَّرًا فِي أَمْرَيْنِ؛ قَالُوا: وَقَدْ كَانَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا شَاءَ فِيمَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ فِيهِ وَحْيٌ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» [النور: ٦٢]. فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِمَا لَمْ يَطْلُغْ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّهِمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذِنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا، وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيمَا فَعَلَ، وَلَيْسَ «عَفَا» - هُنَا - بِمَعْنَى غَفَرَ.

١٦٢٠ - بَلْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَفَا اللَّهُ لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ» [الترمذي (٦٢٠)، أَبُو دَاوُدَ (١٥٧٤)، النَّسَائِيُّ (٣٧/٥)، ابْنُ مَاجَهَ (١٧٩٠)]. وَلَمْ تَجِبْ عَلَيْهِمْ قَطُّ؛ أَي لَمْ يُلْزَمْكُمْ ذَلِكَ.

ونحوه للْقَشِيرِيِّ؛ قال: وإنما يقول: العفو لا يكون إلا عَنْ ذَنْبٍ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ كَلَامَ الْعَرَبِ؛ قال: ومعنى ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي: لم يُلْزِمَكَ ذَنْبًا.

قال الدَّوْدِيُّ: رُوِيَ أَنَّهَا تَكْرِمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقال مكي: هو استفتاحُ كلام؛ مثل: أعزك الله! وأكرمك الله!

وحكى السمرقندي أنَّ معناه: عافاك الله.

وأما قوله في أسارى بذر: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْخِرَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. فليس فيه أيضاً إلزامٌ ذَنْبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ بل فيه بَيَانٌ مَا خُصَّ بِهِ وَفُضِّلَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَا كَانَ هَذَا لِنَبِيِّ غَيْرِكَ.

١٦٣١ - كما قال ﷺ: «أَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَجْعَلْ لِنَبِيِّ قَبْلِي».

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

قيل: الْمَعْنَى بِالْخُطَابِ لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَجَرَّدَ غَرَضُهُ لِعَرَضِ الدُّنْيَا وَخَذَهُ فِيهَا، وَالِاسْتِخْثَارِ مِنْهَا؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ؛ بَلْ قَدْ رُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَذَرٍ، وَاشْتَغَلَ النَّاسُ بِالسَّلْبِ وَجَمَعَ الْغَنَائِمَ عَنِ الْقِتَالِ؛ حَتَّى خَشِيَ عُمَرُ أَنْ يَغْلُظَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٨﴾ [الأنفال: ٦٨]؛ فَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ؛ فَقِيلَ: مَعْنَاهَا: لَوْلَا أَنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنْ لَا أُعَذِّبَ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ النَّهْيِ لِعَذِّبْتُمْ. فهذا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الْأَسْرَى مَعْصِيَةً.

وقيل: الْمَعْنَى: لَوْلَا إِيْمَانُكُمْ بِالْقُرْآنِ - وَهُوَ الْكِتَابُ السَّابِقُ - فَاسْتَوْجَبْتُمْ بِهِ الصَّفْحَ لِعُقُوبَتِكُمْ عَلَى الْغَنَائِمِ.

ويزَادُ هَذَا الْقَوْلُ تَفْسِيرًا وَبَيَانًا بِأَنْ يَقَالَ: لَوْلَا مَا كُتِبَ مُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ، وَكُتِبَ مِنْ أَجْلِ لَكُمْ الْغَنَائِمُ لِعُقُوبَتِكُمْ، كَمَا عُوقِبَ مَنْ تَعَدَّى.

وقيل: لَوْلَا أَنَّهُ سَبَقَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّهَا حَلَالٌ لَكُمْ لِعُقُوبَتِكُمْ.

فهذا كُلُّهُ يَنْفِي الذَّنْبَ وَالْمَعْصِيَةَ؛ لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا أُجِلَّ لَهُ يَعْصِرُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

١٦٣٢ - وقيل: بل كان - عليه السلام - قد خَيَّرَ في ذلك؛ وقد رُوي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي - ﷺ - يوم بدر، فقال: خَيَّرَ أصحابك في الأسارى، إن شأؤوا القتل، وإن شأؤوا الفداء، على أن يُقتل منهم في العام المُقبل مثلهم. فقالوا: الفداء ويُقتل مِنّا [الترمذي (١٥٦٧)].

وهذا دليل على صحة ما قلناه، وأنهم لم يفعلوا إلا ما أُذِنَ لهم فيه؛ ولكن بعضهم مَالَ إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلحَ غيره من الإِثْنانِ والقتل؛ فعَوَّبُوا على ذلك، ويُنَّ لهم ضَعْفُ اختيارهم وتصويبُ اختيارِ غيرهم؛ وكلهم غَيَّرَ عَصَاةً ولا مُذْنِبِينَ؛ وإلى نحو هذا أشار الطبري.

١٦٣٣ - وقوله - عليه السلام - في هذه القضية: «لو نزل من السماء عَذَابٌ ما نجا منه إلا عُمَرُ» إشارة إلى هذا من تصويب رأيه، ورأي مَنْ أَخَذَ بِمَا أَخَذَهُ، في إعزازِ الدين، وإظهار كلمته، وإبادةِ عَدُوِّهِ، وأنَّ هذه القضية لو استوجبت عذاباً نجا منه عمر ومثله، وعَيَّنَ عُمَرُ لأنه أولُ من أشار بقتلهم؛ ولكن الله لم يَقْدِرْ عليهم في ذلك عذاباً لِحَلِّهِ لهم فيما سبق.

وقال الداودي: الخَبَرُ بهذا لا يثبت، ولو ثبت لما جاز أن يُظَنَّ أَنَّ النبي - ﷺ - حَكَمَ بما لا نَصَّ فيه، ولا دليل من نَصٍّ، ولا جُعِلَ الأمرُ إليه فيه؛ وقد نَزَّهَهُ اللهُ تعالى عن ذلك.

وقال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه - عليه السلام - في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلالِ الغنائم والفداء؛ وقد كان قَبْلَ هذا فادراً في سريةِ عبدالله بن جحش التي قُتِلَ فيها ابنُ الحَضْرَمِيِّ بالحَكَمِ بن كَيْسَانَ وصاحبه، فما عَتَبَ اللهُ ذلك عليهم؛ وذلك قَبْلَ بدر بأكثر من عام.

فهذا كله يدلُّ على أن فِعْلَ النبي - ﷺ - في شأنِ الأسرى كان على تأويلٍ ونَصِيرَةٍ، وعلى ما تقدَّم قَبْلَ مثله؛ فلم يَنْكِره اللهُ تعالى عليهم، لكن الله تعالى أَرَادَ - لعظمِ أمرِ بدر وكثرةِ أسراها - والله أعلم - إظهارَ نعمته، وتأكيدِ مِثْبَتِهِ، بتعريفهم ما كتبه في اللُّوحِ المحفوظ من حِلِّ ذلك لهم، لا على وَجْهِ عِتَابٍ وإنكارٍ أو تَذْنِيبٍ. هذا معنى كلامه.

وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ① أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ② [عبس: ١، ٢].

فليس فيه إثباتُ ذَنْبٍ له عليه السلام، بل إعلامُ الله - عز وجل - أن ذلك

الْمُتَّصِدِي لَهُ مَمْنٌ لَا يَتَزَكَّى، وَأَنَّ الصُّوَابَ وَالْأَوَّلَى كَانَ - لَوْ كُشِفَ لَكَ حَالُ
الرُّجُلَيْنِ - الْإِقْبَالُ عَلَى الْأَعْمَى.

وفعل النبي - ﷺ - لِمَا فَعَلَ، وَتَصَدِيهِ لَذَلِكَ الْكَافِرِ، كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَبْلِيغًا
عَنْهُ وَامْتِلَافًا لَهُ، كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، لَا مَعْصِيَةَ، وَلَا مَخَالَفَةَ لَهُ.

وَمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ ذَلِكَ إِعْلَامٌ بِحَالِ الرُّجُلَيْنِ وَتَوْهِينُ أَمْرِ
الْكَافِرِ عِنْدَهُ وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ﴾ [عس: ٧].
وقيل: أَرَادَ بـ «عَبَسَ»، وَ «تَوَلَّى» - الْكَافِرَ الَّذِي كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ أَبُو
نَمَامٍ.

وَأَمَّا قِصَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بَعْدَ
قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَّاهُكُمْ
عَنِ يَدِكُمَا الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وَتَصْرِيحُهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ بِالْمَعْصِيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] أَيْ جَهِلَ.

وقيل أخطأ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ بِعُذْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ
قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]؛ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَسِيَ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ
لَهُ، وَمَا عَهِدَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِوَجِكَ...﴾ [طه: ١١٧].

وقيل: نَسِيَ ذَلِكَ بِمَا أَظْهَرَ لَهُمَا إِبْلِيسَ مِنَ الشَّفَقَةِ، وَالْمِيلِ إِلَيْهِمَا، وَالتَّضَحُّجِ
لَهُمَا.

وقال ابن عباس: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ.
وقيل: لَمْ يَقْصِدِ الْمَخَالَفَةَ اسْتِحْلَالًا لَهَا، وَلَكِنَّهُمَا اغْتَرَّا بِخَلْفِ إِبْلِيسَ لَهُمَا:
﴿إِنِّي لَكُمَا لَيْنٌ أَلَيِّصِيكَ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ وَتَوَهَّمَا أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلِفُ بِاللَّهِ حَاشَاءً.

وقد رُوِيَ عُذْرُ آدَمَ عَنْ ذَلِكَ بِمِثْلِ هَذَا فِي بَعْضِ الْأَثَارِ.
وقال ابن جُبَيْرٍ: حَلَفَ بِاللَّهِ لَهُمَا حَتَّى غَرَّهُمَا؛ وَالْمُؤْمِنُ يُخْدَعُ.
وقد قيل: نَسِيَ، وَلَمْ يَنْبِرِ الْمَخَالَفَةَ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾
[طه: ١١٥] أَيْ قُضْدًا لِلْمَخَالَفَةِ.

وَأَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ عَلَى أَنَّ الْغَرَمَ - هَا هُنَا - الْخَرْمُ وَالصَّبْرُ.
وقيل: كَانَ عِنْدَ أَكْلِهِ سَكْرَانًا؛ وَهَذَا فِيهِ ضَعْفٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -
وَصَفَّ خَمْرَ الْجَنَّةِ أَنَّهَا لَا تُسَكَّرُ؛ فَإِذَا كَانَ نَاسِيًا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً؛ وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ
مُلْبَسًا عَلَيْهِ غَالِطًا؛ إِذِ الْإِتِّفَاقُ عَلَى خُرُوجِ النَّاسِيِ وَالسَّاهِيِ عَنْ حُكْمِ التَّكْلِيفِ.

وقال الشيخ أبو بكر بن فورك وغيره: إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ لَجَّ بِهٖ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٣٢﴾ [طه: ١٧١، ١٧٢] فذكر أن الاجتهاد والهداية كانا بعد العصيان.

وقيل: بل أكلها متاولاً، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهى عنها؛ لأنه تأول نهى الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس؛ ولهذا قيل: إنما كانت التوبة من ترك التحفظ، لا من المخالفة.

وقيل: تأول أن الله لم ينهه عنها نهى تحريم. فإن قيل: فعلى كل حال فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٧١] وقال: ﴿قَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٧٢].

١٦٣٤ - وقوله في حديث الشفاعة - ويذكر ذنبه -: «واني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت» فسيأتي الجواب عنه وعن أشباهه مجملًا آخر هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

وأما قصة يونس فقد مضى الكلام على بعضها آنفاً؛ وليس في قصة يونس نص على ذنب؛ وإنما فيه: ﴿أَبَىٰ﴾ [الصافات: ١٤٠] و ﴿ذَهَبَ مُغْنِيًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد تكلمنا عليه.

وقيل: إنما نقم الله عليه خروجه عن قومه فاراً من نزول العذاب. وقيل: بل لما وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال: واللّه لا ألقاهم بوجه كذاب أبداً.

وقيل: بل كانوا يقتلون من كذب فخاف ذلك. وقيل: ضعف عن حمل أعباء الرسالة. وقد تقدّم الكلام أنه لم يكذبهم. وهذا كله ليس فيه نص على معصية إلا على قول مرغوب عنه.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَىٰ إِلَىٰ آلِهَاتِهِ الْمَشْعُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠] قال المفسرون: تباعد.

وأما قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فالظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ وهذا اعتراف منه عند بعضهم بذنبه؛ فلما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه، أو لضعفه عما حمّله، أو لدعائه بالعذاب على قومه، وقد دعا نوح بهلاك قومه فلم يؤخذ.

وقال الواسطي في معناه: نزه ربه عن الظلم، وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً. وقيل: هذا مثل قول آدم وخواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾

[الأعراف: ٢٣]؛ إذ كانا السبب في وَضْعهما غير الموضع الذي أنزِلَا فيه؛
وَإِخْرَاجهما من الجَنَّةِ، وَإِنزَالهما إلى الأرض.

١٦٣٥ - وأما قصة داود - عليه السلام - فلا يجبُ أَنْ يُلْتَفَتَ إلى ما سَطَرَهُ
فيها الإخباريون عن أهل الكتاب الذين بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا؛ ونقله بَعْضُ المفسرين. ولم
ينصُ اللَّهُ على شيء من ذلك، ولا وردَ في حديث صحيح. والذي نصَّ اللَّهُ عليه
قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالُ جَبَّكَ إِنَّ يَعْجَظُ وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ الْخُلَاطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].
وقوله فيه: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

فمعنى ﴿فَتَنَّهُ﴾ أي: اختبرناه. و ﴿أَوَّابٌ﴾: قال قتادة: مُطِيع.

وهذا التفسير أولى.

١٦٣٦، ١٦٣٧ - وقال ابن عباس، وابن مسعود: ما زاد داودُ على أن قال
للرجل: انزِلْ لي عن امرأتك وَأَكْبِلْنِيهَا؛ فعاتبه اللَّهُ على ذلك، ونبّهه عليه، وأنكر
عليه شُغْلَه بالدنيا، وهذا الذي ينبغي أَنْ يَعُولَ عليه من أمره عليه السلام.

وقد قيل: خطبها على خطبته.

وقيل: بل أحبَّ بقلبه أَنْ يُسْتَشْهَدَ.

وحكى السمرقندي أَنَّ ذَنْبَه الذي استغفر منه قوله لأَخِي الخُضَمَيْنِ: ﴿لَقَدْ
ظَلَمَكَ سُؤَالُ جَبَّكَ﴾ [ص: ٢٤]، فظلمَهُ بقول خُضَمِيهِ.

وقيل: بل لِمَا خَسِيَّ عَلَى نَفْسِهِ، وَظَنَّ مِنَ الْفِتْنَةِ بما بَسِطَ له مِنَ الْمُلْكِ
وَالدُّنْيَا.

وإلى نَفْيِ ما أَضِيفَ في الأخبارِ إلى داود من ذلك، ذَهَبَ أحمدُ بن نصر،
وأبو تمام، وغيرهما من المحققين.

وقال الدَّوْدِيُّ: ليس في قصة داود وأورِيَّا خَبَرٌ يَثْبُتُ؛ ولا يظُنُّ بنبي محبة
قَتْلِ مُسْلِمٍ.

وقيل: إِنَّ الخُضَمَيْنِ اللَّذَيْنِ اختصما إليه رجلان في نِتَاجِ غَنَمٍ، على ظاهر
الآية.

وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعثُّب، وأما إخوته فلم
تَثْبُتْ نبوتهم فَيَلْزَمَ الكلامُ على أفعالهم. وذكُرَ الأسبابُ وعُدَّهم في القرآن عند ذِكْرِ
الأنبياء ليس صريحاً في كونهم من أهل الأنبياء.

قال المفسرون: يريد من نبيء من أبناء الأسباط.

وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا ييوسف ما فعلوه صغار الأسنان؛ ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به؛ ولهذا قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْنَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] وإن ثبت لهم نبوة فبغد هذا، والله أعلم.

وأما قول الله تعالى فيه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

[يوسف: ٢٤].

١٦٢٨ - فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمحدثين أن هم النفس لا يؤاخذ

به العبد، وليس سيئة لقوله - عليه السلام - عن ربه: «إذا هم عبدي بسيئة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة» [البخاري (٦٤٩١، ٧٥٠١)، مسلم (١٢٩، ١٣١)]، فلا معصية حيثئذ ليوسف في همّه إذا.

وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإنّ همّ - إذا وُطِنَ عليه النفس - سيئة. وأما ما لم تُوطِن عليه النفس من همومها وخَوَاطِرِها فهو المعفو عنه.

وهذا هو الحق؛ فيكون - إن شاء الله - همّ يوسف من هذا؛ ويكون قوله:

﴿وَمَا أَزِيحُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٥٣﴾

[يوسف: ٥٣].

أي ما أبرئتها من هذا الهمّ؛ أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكّي قبل وبرّى، فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة، أن يوسف لم يهّم، وأن الكلام فيه تقديم وتأخير؛ أي: ولقد همّت به؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها؛ وقد قال الله تبارك وتعالى - عن المرأة -: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَيْتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...﴾ [يوسف: ٢٣].

قيل في ﴿رَبِّي﴾: الله تعالى، وقيل: المَلِك.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: بزجرها ووعظها.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: غمها امتناعه عنها.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: نظر إليها.

وقيل: همّ بضربها ودفعها.

وقيل: هذا كله كان قبل نبوته عليه السلام.

وفد ذكر بعضهم: ما زال النساء يملن إلى يوسف مبل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيب النبوة؛ فشعلت هيبته كل من رآه عن حُسنه.

وأما خبر موسى - عليه السلام - مع قتيبه الذي وكره فقد نص الله تعالى أنه من غدوه، وقال: كان من القبط الذين على دين فرعون.

ودليل السورة في هذا كله أنه قبل نبوة موسى عليه السلام.

وقال قتادة: وكره بالعصا، ولم يتعمد قتله، فعلى هذا لا معصية في ذلك.

وقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...﴾ [الفصل: ١٥]. وقوله: ﴿طَلَعْتُ لَنَسِي

فَأَغْفِرْ لِي﴾ [الفصل: ١٦] قال ابن جرير: قال ذلك من أجل أنه لا يسعي لنسي أن يقتل حتى يؤمر.

وقال النقاش: لم يقتله عن عمد مريداً للقتل، وإنما وكره وكرهه يريد بها دفع ظلمه، قال: وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة، وهو مقتضى التلاوة.

وقوله تعالى - في قصته: ﴿وَوَسَّكَ فُتُورًا﴾ [طه: ٤٠]، أي ابتليتك ابتلاء بعد

ابتلاء. قيل: في هذه القصة وما جرى له مع فرعون. وقيل: إلفاؤه في التابوت والبنم، وغير ذلك.

وقيل: معناه أخلصناك إخلاصاً، قاله ابن جرير ومجاهد؛ من قولهم: فشت

الفضة في النار، إذا خلصتها. وأصل الفضة معنى: الاختيار، وإظهار ما بطن، إلا أنه استعمل في غزف الشرع في اختيار أدى إلى ما يكره.

١٦٣٩ - وكذلك ما زوي في الخير الصحيح؛ من أن ملك الموت جاءه

فأطم عينه ففأها. الحديث [الخاري (١٣٣٩)، مسلم (١٥٨/٢٣٧٢)].

ليس فيه ما يخكم به على موسى - عليه السلام - بالتعدي وفعل ما لا يجب

له، إذ هو ظاهر الأمر، بين الوجه، جائر الفعل، لأن موسى دافع عن نفسه من

آتاء لإثلافها، وقد نُصِّر له في صورة آدمي، فلا يمكن أنه علم حينئذ أنه ملك

الموت، فدافعه عن نفسه مدافعة أدت إلى دهاب عين تلك الصورة التي تصوّر له

فيها ملك الموت امتحاناً من الله - عز وجل - لموسى، فلما جاءه بغد،

وأعلمه الله - عز وجل - أنه رسوله إليه استسلم.

وللمتقدمين والمتأخرين على هذا الحديث أجوبة هذا أسدّها عندي، وهو

ناول شيخنا الإمام أبي عبدالله المازري.

وقد ناوله - قديماً - ابن عائشة، وغيره على صكه ولطمه بالحجة، وفقه

عَيْنِ حَجَّتِهِ، وهو كلامٌ مستعملٌ في هذا الباب؛ معروف في اللغة.
وأما قصة سليمانَ وما حكى فيها أهلُ التفاسير من ذنبه وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]؛ فمعناه ابتليناه: أي اختبرناه.

١٦٤٠ - وابتلاؤه: ما حكى عن النبي ﷺ أنه قال: «الْأَطْوَفُ اللَّيْلَةَ عَلَى مَثَلِ امْرَأَةٍ - أَوْ تَسْعَ وَتَسْعِينَ - كُلُّهُنَّ يَأْتِينَ بِفَارِسٍ، يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ. فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ».

قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

قال أصحابُ المعاني: والشَّقُّ: هو الجسدُ الذي أُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ حِينَ غُرِضَ عَلَيْهِ، وهو عقوبته ومُخْتَتِهِ.

وقيل: بل مات. فَأُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيِّتًا.

وقيل: ذَنْبُهُ: حِرْضُهُ عَلَى ذَلِكَ وَتَمَنِّيهِ.

وقيل: لأنه لم يَسْتَشِنْ لِمَا اسْتَعْرَفَهُ مِنَ الْحِرْصِ، وغلب عليه من التَّمَنِّيِ.
وقيل: عقوبته أَنْ سَلِبَ مُلْكُهُ، وَذَنْبُهُ: أَنْ أَحَبَّ بَقْلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لِأَخْتَانِهِ عَلَى خَصْمِهِمْ.

وقيل: أَوْخِذَ بِذَنْبٍ قَارَفَهُ بَعْضُ نَسَائِهِ. وَلَا يَصِحُّ مَا نَقَلَهُ الْإِخْبَارِيُّونَ مِنْ خَرَافَاتِهِمْ: مِنْ تَشْبِيهِ الشَّيْطَانِ بِهِ، وَتَسْلُطِهِ عَلَى مُلْكِهِ، وَتَصَرُّفِهِ فِي أُمْتِهِ بِالْجَوْرِ فِي حُكْمِهِ؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يُسَلِّطُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا؛ وَقَدْ عُصِمَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ مِثْلِهِ.
وإِنْ سُئِلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ سُلَيْمَانٌ فِي الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؟ فَعَنَتْهُ أَجْوِبَةٌ:

١٦٤١ - أحدهما: مَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَقُولَهَا [مُسْلِم (١٦٥٤)، الْبُخَارِيُّ (٥٢٤٢)]، وَذَلِكَ لِيَتَّقُذَ مَرَاؤُ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ صَاحِبَهُ وَشَغِلَ عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَقَبَّ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَدَائِي﴾ [ص: ٣٥]. لَمْ يَفْعَلْ هَذَا سُلَيْمَانٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - غَيْرَةً عَلَى الدُّنْيَا وَلَا نَفَاسَةً بِهَا؛ وَلَكِنْ مَقْصِدُهُ فِي ذَلِكَ - عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ - أَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِ أَحَدٌ كَمَا سَلَّطَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ الَّذِي سَلَبَهُ إِلَيْهِ مُدَّةَ امْتِحَانِهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ.

وقيل: بل أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ فَضِيلَةٌ، وَخَاصَّةٌ يَخْتَصُّ بِهَا كَاخْتِصَاصِ

غيره من أنبياء الله ورسوله بخواص منه .

وقيل: ليكون ذلك دليلاً وحجةً على نبوته؛ كإلانة الحديد لأبيه داود عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى، واختصاص محمد ﷺ بالشفاعة، ونحو هذا.

وأما قصة نوح - عليه السلام - فظاهرة العذر، وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر اللفظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]؛ فطلب مقتضى هذا اللفظ، وأراد علم ما طوي عنه من ذلك؛ لا أنه شك في وعد الله تعالى فبين الله عليه أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره، وعمله الذي هو غير صالح؛ وقد أعلمه أنه مفرق الذين ظلموا، ونهاه عن مخاطبته فيهم؛ فأرجذ بهذا التأويل، وعتب عليه، وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه؛ وكان نوح - فيما حكاه النقاش - لا يعلم بكفر ابنه.

وقيل في الآية غير هذا؛ وكل هذا لا يقضي على نوح بمعصية سوى ما ذكرناه من تأويله وإقدامه بالسؤال فيما لم يؤذن له فيه، ولا نهي عنه.

١٦٤٢ - وما زوي في الصحيح: من أن نبياً قرضته نملة فحرق قرية النمل، فأوحى الله إليه: أن قرضتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟! [البخاري (٣٠١٩)، مسلم (٢٢٤١)]. فليس في هذا الحديث أن هذا الذي أتى معصية؛ بل فعل ما رآه مصلحة وصواباً بقتل من يؤذي جنسه، ويمنع المنفعة بما أباح الله.

ألا ترى أن هذا النبي كان نازلاً تحت الشجرة، فلما أدته النملة تحول بزخله عنها مخافة تكرار الأذى عليه؟ وليس فيما أوحى الله - عز وجل - إليه ما يوجب عليه معصية؛ بل نذبه إلى احتمال الصبر وترك الشفهي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ إذ ظاهر فعله إنما كان لأجل أنها أدته هو في خاصته؛ فكان انتقاماً لنفسه، وقطع مضرّة يتوقعها من بقية النمل هناك؛ ولم يأت في كل هذا أمراً نهي عنه، فيغضى به، ولا نص فيما أوحى الله إليه بذلك، ولا بالتوبة ولا بالاستغفار منه. والله أعلم.

١٦٤٣ - فإن قيل: فما معنى قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ما من أحد إلا ألم بلبس أو كاد إلا يحيى بن زكريا» [أحمد (٢٥٤/١)، (٢٩٢)] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فالجواب عنه: كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصد وعن سهو وعفلة.

فصل

فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ

فَإِنْ قُلْتُ: فَإِذَا نَفِثَ عَنْهُمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ بِمَا ذَكَرْتَهُ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَفْسَرِينَ وَتَأْوِيلِ الْمُحَقِّقِينَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ وَبُكَائِهِمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَإِشْفَائِهِمْ وَهَلْ يُشْفَقُ وَيَتَابُ وَيُسْتَغْفَرُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ عَظِيمٍ؟

فَاعْلَمْ - وَقَفُّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ دَرَجَةَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الرَّفْعَةِ، وَالْعُلُوِّ، وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَسُتَيْهِ فِي عِبَادِهِ، وَعِظَمِ سُلْطَانِهِ، وَقُوَّةِ بَطْنِيهِ، فِيمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْخَوْفِ مِنْهُ جُلٌّ جَلَّالُهُ، وَالْإِشْفَاقِ مِنَ الْمُوَاخَذَةِ بِمَا لَا يُوَاخِذُ بِهِ غَيْرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ - فِي تَصَرُّفِهِمْ بِأُمُورٍ لَمْ يَنْهَوْا عَنْهَا، وَلَا أَمَرُوا بِهَا؛ ثُمَّ أُوجِدُوا عَلَيْهَا، وَعَوِّتُوا بِسَبَبِهَا، أَوْ حُذِرُوا مِنَ الْمُوَاخَذَةِ بِهَا، وَأَتَوْهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ، أَوِ السَّهْوِ، أَوْ تَرْيُدٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْمُبَاحَةِ - خَائِفُونَ وَجُلُونَ، وَهِيَ ذُنُوبٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى عَلَيَّ مَنْصِبِهِمْ، وَمَعَاصٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كِمَالِ طَاعَتِهِمْ، لَا أَنَّهُمْ كَذُنُوبٍ غَيْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ مَأْخُوذٌ مِنَ الشَّيْءِ الدُّنْيِيِّ الرَّذْلِ، وَمِنْهُ ذَنْبُ كُلِّ شَيْءٍ، أَي: آخِرُهُ. وَأَذْنَابُ النَّاسِ: رِذَالُهُمْ، فَكَأَنَّ هَذِهِ أَذْنَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَسْوَأُ مَا يَجْرِي مِنْ أَحْوَالِهِمْ لِتَطْهِيرِهِمْ، وَتَنْزِيهِهِمْ، وَعِمَارَةِ بَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالذِّكْرِ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، وَالْخَشْيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِعْظَامِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَغَيْرِهِمْ يَتَلَوَّثُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَالْقَبَائِحِ، وَالْفَوَاحِشِ مَا تَكُونُ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِ هَذِهِ الْهَنَاتُ فِي حَقِّهِ كَالْحَسَنَاتِ، كَمَا قِيلَ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، أَي يَرَوْنَهَا بِالإِضَافَةِ إِلَى عَلَيَّ أَحْوَالِهِمْ كَالسَّيِّئَاتِ.

وَكَذَلِكَ الْعِصْيَانُ: التَّرُكُ وَالْمُخَالَفَةُ؛ فَعَلَى مَقْتَضَى اللَّفْظَةِ كَيْفَمَا كَانَتْ مِنْ سَهْوٍ أَوْ تَأْوِيلٍ فِيهَا مُخَالَفَةٌ وَتَرْكٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَغَوَى﴾ أَي: جَهَلَ أَنَّ يَلْكَ الشَّجَرَةَ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا؛ وَالْعَنَى: الْجَهْلُ.

وَقِيلَ: أَخْطَأَ مَا طَلَبَ مِنَ الْخُلُودِ، إِذْ أَكَلَهَا، وَخَابَتْ أُمْنِيَّتُهُ. وَهَذَا يَوْسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ أُوجِدَ بِقَوْلِهِ لِأَحَدِ صَاحِبَيْ السَّجَنِ:

﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَلَسَنُ السَّابِقُونَ ذِكْرَ رَبِّي. فَلَيْتَ فِي السَّابِقِينَ يَضَعُ سِينِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قبل: أنسي يوسف ذكر الله.

وقيل: أنسي صاحبه أن يذكره لسببه الملك.

١٦٤٤ - قال السيوطي: «لولا كلمة يوسف - عليه السلام - ما لبث في

السجن ما لبث».

قال مالك بن دينار: لما قال ذلك يوسف قبل له: اتخذت من دوني وكيلاً ١٩ لأطيل حبسك. فقال: يا رب! أنسى قلبي كثرة الهوى.

وقال بعضهم: يؤاخذ الأنبياء بمناقيل الذر، لمكانتهم عنده، ويجاوز عن سائر الخلق لقلة مبالاة بهم في أضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

وقد قال المحتج للفرقة الأولى على سباق ما قلناه: إذا كان الأنبياء يؤاخذون بهذا مما لا يؤاخذ به غيرهم من السهو والنسيان، وما ذكرته، وحالهم أرفع فحالهم إذا في هذا أسوأ حالاً من غيرهم.

فاعلم - أكرمك الله - أننا لا نثبت لك المؤاخذه في هذا على حد مؤاخذه غيرهم؛ بل نقول: إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا، ليكون ذلك زيادة في درجاتهم؛ وينتلون بذلك، ليكون استنعارهم له سبباً لمنمأة رتبهم، كما قال: ﴿ثُمَّ لَنُنَازِلَنَّ رَبَّهُمُ الْغَابِ وَالصُّبْحِ﴾ [طه: ١٢٢].

وقال لداود: ﴿فَقَرَأَ لَهُ ذَلِكَ إِنَّكَ وَإِنَّا لَمِنَ الْوَالِقِينَ وَحَسَنَ مَقَابٍ﴾ [ص: ٢٥].

وقال بعد قول موسى: ﴿ثُمَّ إِنِّي لَأَمْلِكُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٤] وقال بعد ذكر فتنة سليمان وإسنائه: ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ فَجَرَى بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَمَّارٌ ٣١﴾ وَالسَّابِقُونَ كُلُّ سَلَوٍ وَعَوَّاسٍ ٣٢ ﴿وَأَخْرَجْنَا مُضْرِبِينَ فِي الْأَصْغَادِ ٣٣﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْنِكْ بِمِغْرِ حِسَابٍ ٣٤ ﴿وَإِنَّا لَمِنَ الْوَالِقِينَ وَحَسَنَ مَقَابٍ ٣٥﴾ [ص: ٣٦ - ٤٠].

وقال بعض المتكلمين: زلأت الأنبياء في الظاهر زلأت، وفي الحقيقة زلّف وكرامات، وأشار إلى نحو ما قدمناه.

وايضاً فلينبه غيرهم من البشر منهم، أو ممن ليس في درجاتهم بمواخذتهم بذلك، فيستفجروا الحذر؛ ويعتقدوا المحاسبة ليلتزموا الشكر على النعم، ويعبدوا

الصَّبْرُ عَلَى الْمَحَنِّ بِمِلَاحِظَةِ مَا وَقَعَ بِأَهْلِ هَذَا النَّصَابِ الرَّفِيعِ الْمَعْصُومِ؛ فَكَيْفَ بَيْنَ سِوَاهُمْ؟ وَلِهَذَا قَالَ صَالِحُ الْمُزَيَّ: ذَكَرْتُ دَاوُدَ بَسْطَةً لِلتَّوَابِينَ.
 قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: لَمْ يَكُنْ مَا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ قِصَّةِ صَاحِبِ الْخُوفِ نَقْصًا لَهُ، وَلَكِنْ اسْتِزَادَةً مِنْ نَبِيَّتِنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ.
 وَأَيْضًا فَيُقَالُ لَهُمْ: فَإِنَّكُمْ، وَمَنْ وَافَقَكُمْ، تَقُولُونَ بِغُفْرَانِ الصَّغَائِرِ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ.

وَلَا خِلَافَ فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكِبَائِرِ، فَمَا جَوَزْتُمْ مِنْ وَقُوعِ الصَّغَائِرِ عَلَيْهِمْ هِيَ مَغْفُورَةٌ عَلَى هَذَا، فَمَا مَعْنَى الْمُواخَاذَةِ بِهَا إِذَا عِنْدَكُمْ وَخُوفُ الْأَنْبِيَاءِ وَتَوْبَتُهُمْ مِنْهَا، وَهِيَ مَغْفُورَةٌ لَهُمْ لَوْ كَانَتْ؟

فَمَا أَجَابُوا بِهِ فَهُوَ جَوَابُنَا عَنْ الْمُواخَاذَةِ بِأَفْعَالِ السُّهُوِّ وَالتَّأْوِيلِ.
 وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ كَثْرَةَ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوْبَتِهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى وَجْهِ مِلَازِمَةِ الْخُضُوعِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَالاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيرِ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعْمِهِ.
 ١٦٤٥ - كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ أَمِنَ مِنَ الْمُواخَاذَةِ مِمَّا تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»

١٦٤٦ - وَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَاكُمُ لِلَّهِ، وَأَعْلَمُكُمْ بِمَا أَتَّقِي» [البخاري (٥٠٦٣)].
 قَالَ الْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ الْمَحَاسِبِيُّ: خُوفُ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ خُوفٌ إِعْظَامٍ وَتَعَبُّدٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا.

وَقِيلَ: فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقْتَدَى بِهِمْ، وَتَسْتَنَّى بِهِمْ أُمَّمُهُمْ.
 ١٦٤٧ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَعْنَى آخَرَ لَطِيفًا أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ اسْتِدْعَاءُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فَأَحْدَاثُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الِاسْتِغْفَارَ وَالْأُوبَةَ وَالتَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ فِي كُلِّ جِيلٍ اسْتِدْعَاءٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالِاسْتِغْفَارُ فِيهِ أَيْضًا مَعْنَى التَّوْبَةِ، وَقَدْ قَالَ - اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - بَعْدَ أَنْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ: ﴿لَقَدْ تَابَكَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ١١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوَّامِينَ﴾ [النصر: ٣].

فصل

في فوائد القول بعصمة الأنبياء

قد استبان لك أيها الناظر! بما قررناه، ما هو الحق من عصمته - عليه السلام - عن الجهل بالله، وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة، بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقيلها منعاً ونقلاً، ولا شيء مما قرره من أمور الشريعة، وأذاه عن ربه من الوحي قطعاً عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول - منذ نبأه الله وأرسله - فضداً أو غير فضيد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، ونظراً وبرهاناً، وتزبيحه عنه قبل النبوة قطعاً، وتزبيحه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيفاً، وعن استدامة الشهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالته؛ من رضا وغضب، وجد ومزح؛ فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، ونشد عليه يد الضمين، وتقدير هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها. فإن من جهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز له، أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه، لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا يتزهد عما لا يجب أن يضاف إليه، فتهلك من حيث لا يدرى، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار؛ إذ ظن الباطل به؛ واعتقاده ما لا يجوز عليه - ﷺ - يخل بصاحبه دار البوار.

١٦٤٨ - ولهذا ما أخطأ النبي - عليه السلام - على الرجلين اللذين رأياه ليلاً، وهو مغتكف في المسجد مع صفيّة، فقال لهما: «إنها صفيّة». ثم قال لهما: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ وإني خشيت أن يثلب في قلوبكما شيئاً فتهلكا» [البخاري (٢٠٣٥)، مسلم (٢١٧٥)].

هذه - أكرمك الله - إحدى فوائد ما تكلمنا عليه من هذه الفصول؛ ولعل جاهلاً لا يعلم بجهله إذا سمع شيئاً منها يرى أن الكلام فيها جملة من فضول العلم، وأن السكوت أولى. وقد استبان لك أنه متعين للفائدة التي ذكرناها.

وفائدة ثانية يضطر إليها في أصول الفقه، ويبنى عليها مسائل لا تنعذ من الفقه، ويتخلص بها من تشبيب مختلفي الفقهاء في عذبة منها؛ وهي: الحكم في أقوال النبي ﷺ وأفعاله؛ وهو باب عظيم، وأصل كبير من أصول الفقه؛ ولا بد من بنائه على صدق النبي ﷺ في إخباره وبلاغه؛ وأنه لا يجوز عليه الشهو فيه، وعصمته من الكبائر والمخالفة في أفعاله عمداً؛ وبحسب اختلافهم في وقوع الصغائر، وقع خلاف

في امثال الفِعل، بَسَطَ بَيَانَهُ فِي كُتُبِ ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ فَلَا نَطُولُ بِهِ.

وفائدة ثالثة: يحتاج إليها الحاكم والمفتي فيمن أضاف إلى النبي ﷺ شيئاً من هذه الأمور، ووصفه بها؛ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ وَمَا يَمْتَنِعُ، وَمَا وَقَعَ الإجماع فيه والخلاف، كيف يصمّم في الفتيا في ذلك؛ وَمِنْ أَيْنَ يَذَرِي؟ هل ما قاله فيه نَقْصٌ أو مَذْحٌ؟ فإِذَا أَنْ يَجْتَرِيءَ عَلَى سَفْكِ دَمِ مُسْلِمٍ حَرَامٍ، أَوْ يُسْقِطَ حَقّاً، أَوْ يُضَيِّعَ حُرْمَةَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولسبيل هذا ما قد اختلف فيه أربابُ الأصول، وأئمةُ العلماء، والمحققين في عصمة الملائكة.

فصل

فِي الْقَوْلِ فِي عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

أجمع المسلمون على أَنَّ الملائكة مؤمنون فضلاء؛ واتفق أئمةُ المسلمين أَنَّ حُكْمَ المرسلين منهم حُكْمُ النبيين سواء في العِصْمَةِ كما ذكرنا عِصْمَتَهُمْ مِنْهُ، وَأَنَّهُمْ فِي دَرَجَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَحَقُوقِهِمْ، وَالتَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ لِلْأَنْبِيَاءِ كَالْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْأُمَمِ. واختلفوا في غير المرسلين منهم؛ فذهبت طائفة إلى عِصْمَةِ جَمِيعِهِمْ عَنِ الْمَعَاصِي؛ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

ويقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٤) ﴿وَلَا لَنَحْنُ الضَّالُّونَ﴾ (١٦٥) ﴿وَلَا لَنَحْنُ الضَّالُّونَ﴾ (١٦٦) [الصفات: ١٦٤-١٦٦].

ويقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠) [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ويقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (١٦٥) [الأعراف: ٢٠٦].

ويقوله: ﴿كَرِّمٌ مَرَّةً﴾ (١١) [عبس: ١٦] و ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَرُونَ﴾ (٧٦) [الواقعة: ٧٩] ونحوه من الآيات.

وذهبت طائفة إلى أَنَّ هذا خصوصٌ للمرسلين منهم والمُقرَّبِينَ. واحتجوا بأشياء ذكرها أهلُ الأخبارِ والتفاسير، نحنُ نذكرها - إن شاء الله - بعد؛ وَنُبَيِّنُ الْوَجْهَ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَالصَّوَابُ: عِصْمَةُ جَمِيعِهِمْ، وَتَنْزِيهِ جَنَابِهِمُ الرَّفِيعَ عَنِ

جميع ما يحط من رزنتهم ومنزلتهم عن جليل بمقدارهم.

ورأيت بعض شيوخنا أشار إلى أن لا حاجة للفتية بالكلام في بعضهم، وأنا أقول: إن للكلام في ذلك ما للكلام في عصمة الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها، سوى فائدة الكلام في الأقوال والأفعال، فهي ساقطة ها هنا.

١٦٤٩ - فمما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت (أحمد (١٣٤/٢))، وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقله المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما واتلاتهما.

فاغلب - وفقك الله - أن هذه الأخبار لم يروى منها شيء لا صميم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في شيء يؤخذ بقياس.

والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر بعضهم قول بعضي، وأنكر أيضاً ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره. وهذه الأخبار من كتب اليهود واقتراعتهم، كما نضه الله - تعالى - أول الآيات من اقتراعتهم بذلك على سليمان - عليه السلام - ونكفهم إياه.

وقد الطوت الفضة على شمع عظيمة. وما نحن نحبر في ذلك ما يكيف عن غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله.

فاختلف أولاً في هاروت وماروت، هل هما ملكان أو إنسيان؟ وهل هما المراء بالملكين أم لا؟ وهل القراء ملكين أو ملكين يفتح اللام، أو بكسرهما أو بهما جميعاً؟ وهل «ما» في قوله: «وَمَا أَرَأَيْتَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ» (البقرة: ١٠٢). «وَمَا يَلْمِزَانِ مِنْ آدَمَ» (البقرة: ١٠٢) نافية أو موجبة؟

فأكثر المفسرين قالوا: إن الله تعالى افتحن الناس بالملكين لتعليم السخر وتبيينه، وأن عمله كفر فمن تعلمه كفر، ومن تركه آمن، قال الله تعالى حكاية عنهما: «إِنَّمَا نَحْنُ بَشَرٌ فَبَشِّرْهُمَا بِمَا كُفَرُوا» (البقرة: ١٠٢). وتعليمهما للناس له تعليم إلهي، أي بقولان لمن جاء يطلب تعلمه: لا تفعلوا كذا، فإنه يفرق بين المرء وزوجه؛ ولا تتحللوا بكذا؛ فإنه سخر، فلا تكفروا.

فعلى هذا: ففعل الملكين طاعة، ونصرتهم بما أمرا به ليس بمعصية؛ وهي لغيرهما فتنة.

ودوى ابن وهب، عن - خالد بن أبي عمران - أنه ذكر عنده هاروت وماروت، وأنها يعلمان السخر، فقال: نحن نترفعهما عن هذا.

فقرأ بعضهم: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فقال خالد: لم يُنزل عليهما.

فهذا خالد - على جلالته وعلمه - نزههما عن تعليم السّخر الذي قد ذكّر غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشرطة أن يُبينّا أنه كفر، وأنه امتحان من الله تعالى وابتلاء؛ فكيف لا نُنزههما عن كبائر المعاصي والكُفر المذكورة في تلك الأخبار؟

وقول خالد: لم يُنزل: يريد أن «ما» نافية؛ وهو قول ابن عباس؛ قال مكّي: وتقدير الكلام: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢] يريد بالسّخر الذي افتعلته عليه الشياطين، واتبعتم في ذلك اليهود.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال مكّي: هما جبريل وميكائيل: ادّعى اليهود عليهما المجيء به، كما ادّعى على سليمان، فأكذبهم الله تعالى بقوله في ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قيل: هما رجلان تعلّما.

قال الحسن: هاروت وماروت علجان من أهل بابل؛ وقرأ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ - بكسر اللام، وتكون «ما» إيجاباً على هذا.

وكذلك قراءة عبدالرحمن بن أبيزى: بكسر اللام. ولكنه قال: الملكان هنا: داود وسليمان وتكون «ما» نفيّاً على ما تقدّم.

وقيل: كانا ملكين من بني إسرائيل، فمسخهما الله، حكاة السمرقندي. والقراءة بكسر اللام شاذّة؛ فَمَحْجِلُ الآية - على تقدير أبي محمد: مكّي - حسن، ينزه الملائكة، ويذهب الرجس عنهم، ويظهرهم تطهيراً.

وقد وصفهم الله بأنهم مُطَهَّرُونَ، وكَرَامٌ بَرَّة، ولا يَغْضُونَ الله ما أمرهم. ومما يذكرونه قصة إبليس، وأنه كان من الملائكة ورئياً فيهم، ومن خُرَانِ الجنة... إلى آخر ما حكوه، وأنه استثناه من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] وهذا أيضاً لم يُتَّفَقْ عليه؛ بل الأكثر يُنْفَوْنَ ذلك، وأنه أبو الجن، كما أن آدم أبو الإنس؛ وهو قول الحسن، وقتادة، وابن زيد.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا؛ والاستثناء من غير الجنس شائع، في كلام العرب سائع؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ يَدٌ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

وَمِمَّا زَوَّاهُ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ خَلَقًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَصَوْا اللَّهَ فُحِرِّقُوا، وَأَمَرُوا أَنْ
يَسْجُدُوا لِآدَمَ فَأَبَوْا فُحِرِّقُوا، ثُمَّ آخَرُونَ كَذَلِكَ؛ حَتَّى سَجَدَ لَهُ مَنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى
إِلَّا إِبْلِيسَ، فِي أَخْبَارٍ، لَا أَصْلَ لَهَا، تَرُدُّهَا صِحَاحُ الْأَخْبَارِ، فَلَا يُشْتَغَلُ بِهَا. وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.



الباب الثاني من القسم الثالث

فِيمَا يَخْصُهُمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيَظُرُّ عَلَيْهِمْ مِنْ
الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ

قد قَدَّمْنَا أَنَّهُ - عليه السلام - وسائر الأنبياء والرسل مِنَ الْبَشَرِ، وَأَنَّ جِسْمَهُ،
وظَاهِرَهُ خَالِصٌ لِلْبَشَرِ، يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ الْآفَاتِ وَالتَّغْيِيرَاتِ، وَالْآلَامِ وَالْأَسْقَامِ،
وَتَجَرُّعِ كَأْسِ الْجَمَامِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْبَشَرِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ بِنَقِصَةٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ
إِنَّمَا يَسْمَى نَاقِصًا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ أَتَمُّ مِنْهُ وَأَكْمَلُ مِنْ نَوْعِهِ؛ وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ
تَعَالَى عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ: ﴿فِيهَا مَحَبَّةٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]،
وَخَلَقَ جَمِيعَ الْبَشَرِ بِمَذْرَجَةِ الْغَيْرَةِ: فَقَدْ مَرَضَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاشْتَكَى،
وَأَصَابَهُ الْحَرُّ وَالْقُرُّ، وَأَدْرَكَهُ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَلَحَقَهُ الْغَضَبُ وَالضَّجَرُ، وَنَالَ
الْإِعْيَاءُ وَالتَّعَبُ، وَمَسَّهُ الضَّعْفُ وَالْكِبَرُ، وَسَقَطَ فَجَحِشَ شِقُّهُ [البخاري (٨٠٥)]، مُسَلِّمٌ
[٤١١]، وَشَجَّهَ الْكَفَّارُ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ، وَسَقَى السُّمَّ، وَسُحِرَ، وَتَدَاوَى - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - وَاحْتَجَمَ، وَتَنَشَّرَ، وَتَعَوَّدَ، ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ فَتَوَفَّى ﷺ، وَلَحِقَ بِالرَّفِيقِ
الْأَعْلَى، وَتَخَلَّصَ مِنْ دَارِ الْإِمْتِحَانِ وَالْبَلَاةِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا سِمَاتُ الْبَشَرِ الَّتِي لَا
مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهَا؛ وَأَصَابَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَقَتِلُوا قَتْلًا.

وَرُمُوا فِي النَّارِ، وَنُشِرُوا بِالنَّاشِيرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ
الْأَوْقَاتِ. وَمِنْهُمْ مَنْ غَصَمَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا غَصَمَ بَعْدُ نَبِيَّنَا - ﷺ - مِنَ
النَّاسِ؛ فَلَمَّا لَمْ يَكْفِ نَبِيَّنَا رَبُّهُ يَدَ ابْنِ قَيْمَةِ يَوْمِ أَحُدَ، وَلَا حَاجَةَ عَنْ عُيُونِ عِدَائِهِ
عِنْدَ دَعْوَتِهِ أَهْلَ الطَّائِفِ؛ فَلَقْدَ أَخَذَ عَلَى عُيُونِ قُرَيْشٍ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى ثَوْرٍ،
وَأَمْسَكَ عَنْهُ سَيْفَ غَوَزَتْ، وَحَجَرَ أَبِي جَهْلٍ، وَقَرَسَ سَرَّاقَةً؛ وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ مِنْ

مِخْر ابن الأَعْصَمِ فَلَقَدْ وَقَاهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، مِنْ سُمْ الْيَهُودِيَّةِ.

وهكذا سائر أنبيائه، مُتَلَى، وَمُعَافَى؛ وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ حِكْمَتِهِ، لِتُظْهِرَ شَرَفَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، وَيُبَيِّنَ أَمْرَهُمْ، وَيَنْصَحَ كَلِمَتَهُ فِيهِمْ، وَلِيُحَقِّقَ بِإِمْحَانِهِمْ بَشَرِيَّتَهُمْ، وَيَرْفَعَ الْإِنْسَانَ عَنْ أَهْلِ الضَّعْفِ فِيهِمْ، لِئَلَّا يَضِلُّوا بِمَا يَظْهَرُ مِنَ الْعَجَائِبِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، ضَلَالِ النَّصَارَى بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِيَكُونَ فِي مُحِبِّهِمْ تَسْلِيَةً لِأُمَمِهِمْ، وَوَفُورَ لَأُجُورِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: وَهَذِهِ الطَّوَارِيقُ وَالتَّغْيِيرَاتُ الْمَذْكُورَةُ إِنَّمَا تَخْتَصُّ بِأَجْسَادِهِمُ الْبَشَرِيَّةَ الْمَقْصُودَ بِهَا مَقَاوِمُ الْبَشَرِ، وَمَعَانَاةُ بَنِي آدَمَ لِمُشَاكَلَةِ الْجَنَسِ.

وَأَمَّا بَوَاطِنُهُمْ: فَمَنْزَعَةٌ عَالِيَةً عَنْ ذَلِكَ، مَعْصُومَةٌ مِنْهُ، مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى وَالْمَلَائِكَةِ لِأَخْلَاقِهَا عَنْهُمْ، وَتَلْقِيهَا الْوَحْيَ مِنْهُمْ.

١٦٥٠ - قَالَ: وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ عَيْنِي تَامَانٌ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

١٦٥١ - وَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ نَظْمًا لِرَبِّي وَسَقِيْنِي».

١٦٥٢ - وَقَالَ: «لَسْتُ أَنْسَى، وَلَكِنْ أُنْسَى، لِنِسْنَتِي بِي».

فَأَخْبَرَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ سِرَّهُ وَبَاطِنَهُ وَرُوحَهُ بِخِلَافِ جِسْمِهِ وَظَاهِرِهِ، وَأَنَّ الْآفَاتِ الَّتِي تَحُلُّ ظَاهِرَهُ مِنْ ضَعْفٍ وَجُوعٍ، وَسَهَرٍ وَتَوَمٍّ، لَا يَخْلُ مِنْهَا شَيْءٌ بِاطْنِهِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ فِي حُكْمِ الْبَاطِنِ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ إِذَا تَامَ اسْتَغْرَقَ النَّوْمُ جِسْمَهُ وَقَلْبَهُ.

١٦٥٣ - وَهُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي تَوَمِّهِ حَاضِرُ الْقَلْبِ كَمَا هُوَ فِي يَقْظَتِهِ، حَتَّى قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَنَارِ أَنَّهُ كَانَ مُحْرُوساً مِنَ الْحَدَثِ فِي تَوَمِّهِ لِكُونَ قَلْبِهِ يَقْظَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

١٦٥٤ - وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ إِذَا جَاعَ ضَعْفٌ لَذَلِكَ جِسْمِهِ، وَخَارَتْ قُوَّتُهُ، فَهَظَلَتْ بِالْكَلْبَةِ جَمَلَتُهُ، وَهُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغْتَرِيهِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ بِخِلَافِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ نَظْمًا لِرَبِّي وَسَقِيْنِي».

وَكَذَلِكَ أَقُولُ: إِنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ مِنْ وَصَبٍ وَمَرَضٍ، وَمِخْرٍ وَعَرَضٍ، وَغَضَبٍ، لَمْ يَخِرْ عَلَى بَاطِنِهِ مَا يَخْلُ بِهِ، وَلَا قَاضٍ مِنْهُ عَلَى لِسَانِهِ وَحَوَارِجِهِ مَا لَا يَلْبُسُ بِهِ، كَمَا يَغْتَرِي غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ مِمَّا تَأْخُذُ بَعْدَ فِي بَيَانِهِ.

فصل

في الرَّدِّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي حَدِيثِ السُّخْرِ

١٦٥٥ - فَإِنْ قُلْتُ: فَقَدْ جَاءَتْ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُجِّرَ
كما حدثنا الشيخ أبو محمد العتّابي بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا حاتم بن محمد،
حدثنا أبو الحسن: علي بن خلف، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن
يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عبيد بن إسماعيل، قال: حدثنا أبو أسامة، عن
هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سُجِّرَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ - حتى إنه ليُخَيَّلَ إليه أنه فعل الشيء وما فعله [البخاري (٥٧٦٦)، مسلم
(٢١٨٩)].

١٦٥٦ - وفي رواية أخرى: حتى كان يخيل إليه أنه كان يأتي النساء ولا
يأتيهن... الحديث [البخاري (٥٧٦٥)].
وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور فكيف حال النبي ﷺ في
ذلك وكيف جاز عليه، وهو معصوم؟!

فاغْلَمْ - وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ - أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ طَعَنَتْ
فِيهِ الْمُلْحِدَةُ، وَتَذَرَعَتْ بِهِ - لِسُخْفِ عَقُولِهَا وَتَلَيُّسِهَا عَلَى أَمْثَالِهَا - إِلَى التَّشْكِيكِ
فِي الشَّرْعِ؛ وَقَدْ نَزَّ اللَّهُ الشَّرْعَ وَالنَّبِيُّ عَمَّا يُدْخِلُ فِي أَمْرِهِ لِبَسَاءٍ، وَإِنَّمَا السُّخْرُ
مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَعَارِضٌ مِنَ الْعِلَلِ، تَجَوُّزٌ عَلَيْهِ كَأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ مِمَّا لَا يُتَكَّرُ
وَلَا يَقْدَحُ فِي ثُبُوتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا مَا
يُدْخِلُ عَلَيْهِ دَاخِلَةً فِي شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ، أَوْ يَقْدَحُ فِي صِدْقِهِ؛ لِقِيَامِ
الدَّلِيلِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى عِصْمَتِهِ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا هَذَا فِيمَا يَجَوُّزُ طُرُوزُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ
دُنْيَاهُ الَّتِي لَمْ يُنْعَثْ بِسَبَبِهَا، وَلَا قُضِلَ مِنْ أَجْلِهَا؛ وَهُوَ فِيهَا عَرَضَةٌ لِلْأَقَاتِ كَسَائِرِ
الْبَشَرِ؛ فَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يُخَيَّلَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِهَا مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، ثُمَّ يَنْجَلِي عَنْهُ، كَمَا
كَانَ.

١٦٥٧ - وَأَيْضاً فَقَدْ فَسَّرَ هَذَا الْفَضْلُ الْحَدِيثَ الْآخَرَ مِنْ قَوْلِهِ: «حَتَّى يُخَيَّلَ
إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيهِنَّ». وَقَدْ قَالَ سَفِيَانٌ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السُّخْرِ
[البخاري (٥٧٦٥)].

وَلَمْ يَأْتِ فِي خَبَرٍ مِنْهَا أَنَّهُ نُقِلَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، قَوْلٌ بِخِلَافِ مَا كَانَ أَخْبَرَ أَنَّهُ

فعله ولم يفعله؛ وإنما كانت خواطر وتخيلات.

وقد قيل: إن المراد بالحديث أنه كان يتخيل الشيء أنه فعله، وما فعله، لكنه تخيل لا يعتقد صحته، لتكون - بحمد الله - اعتقاداته كلها على السداد، وأقواله على الصحة.

١٦٥٨ - هذا ما وقعت عليه لأمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث مع ما أوضحناه من معنى كلامهم، وزدناه بياناً من تلويحاتهم. وكل وجه منها مقيم؛ لكنه قد ظهر لي في الحديث تأويل أجلى وأبعد من مطاعن ذوي الأضاليل، يستفاد من نفس الحديث؛ وهو أن عبدالرزاق قد روى هذا الحديث، عن ابن المسيب، وعروة بن الزبير، وقال فيه عنهما: سخر يهود بني زريق رسول الله ﷺ، فجعلوه في بئر حتى كاد رسول الله ﷺ أن ينكر بصره؛ ثم ذله الله على ما صنعوا فاستخرجه من البئر.

وروي نحوه، عن الواقدي، وعن عبدالرحمن بن كعب، وعمر بن الحكم. ١٦٥٩ - وذكر عن عطاء الخراساني، عن يحيى بن يغمر: حُبِس رسول الله ﷺ عن عائشة سنة، فبينما هو نائم أتاه ملكان، فقعدا أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه... الحديث. ١٦٦٠ - قال عبدالرزاق: حُبِس رسول الله ﷺ عن عائشة خاصة سنة حتى أنكر بصره.

١٦٦١ - وروي محمد بن سعد، عن ابن عباس: مَرَضَ رسول الله ﷺ، فحُبِسَ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان... وذكر القصة. فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السخر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه، لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر في بصره، وحسنه عن وطء نسائه، وطعامه، وأضعف جسمه وأمراضه؛ ويكون معنى قوله: «يتخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن» أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عاداته القدرة على النساء؛ فإذا ذنا منهن أصابته أخذة السخر فلم يقدر على إتيانهن كما يعترى من أخذ واغترض.

ولعله لمثل هذا أشار سُفْيَان بقوله: وهذا أشد ما يكون من السخر [البخاري (٥٧٦٥)]. ويكون قول عائشة في الرواية الأخرى: «إنه ليتخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، أو ما فعله» من باب ما اختل من بصره، كما ذكر في الحديث؛ فيظن أنه رأى شخصاً من بعض أزواجه، أو شاهد فعلاً من غيره، ولم يكن على ما

يُخِيلُ إِلَيْهِ، لَمَّا أَصَابَهُ فِي بَصَرِهِ وَضَعْفِ نَظَرِهِ، لَا لَشَيْءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ فِي مَيزِهِ.
وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيمَا ذُكِرَ مِنْ إصَابَةِ السَّخْرِ لَهُ، وَتَأْثِيرِهِ فِيهِ، مَا
يُدْخِلُ لَبْسًا، وَلَا يَجِدُ بِهِ الْمَلْحَدُ الْمَعْتَرِضُ أُنْسًا.

فصل

فِي أَحْوَالِهِ ﷺ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا

هَذِهِ حَالُهُ فِي جِسْمِهِ، فَأَمَّا أَحْوَالُهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَنَحْنُ نَسْبِرُهَا عَلَى أَسْلُوبِهَا
الْمَتَقَدِّمِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِالْعَقْدِ وَالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

١٦٦٢ - أَمَّا الْعَقْدُ مِنْهَا فَقَدْ يَغْتَقِدُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا الشَّيْءَ عَلَى وَجْهِ وَيُظْهِرُ
خِلَافَهُ، أَوْ يَكُونُ مِنْهُ عَلَى شَكٍّ أَوْ ظَنٍّ بِخِلَافِ أُمُورِ الشَّرْعِ؛ كَمَا حَدَّثَنَا أَبُو بَخْرٍ:
سُفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَغَيْرُ وَاحِدٍ سَمَاعًا وَقِرَاءَةً؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ: أَحْمَدُ بْنُ
عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا ابْنُ
سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرُّومِيِّ، وَعَبَّاسُ الْعَنْبَرِيِّ وَأَحْمَدُ
الْمَعْقَرِيُّ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو
النَّجَاشِيِّ؛ قَالَ حَدَّثَنَا رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ؛ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ
يَأْتِرُونَ التَّخْلُ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَضْغُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ
تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا؛ فَتَرَكُوهُ، فَتَقَصَّصْتُ؛ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا
أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»
[مسلم (٢٣٦٢)].

١٦٦٣ - وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» [مسلم (٢٣٦٣)].
١٦٦٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تَوَاضَعُونَ بِالظَّنِّ» [مسلم
(٢٣٦١)].

١٦٦٥ - وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَةِ الْخَرْصِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ
نَفْسِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَخْطِئُ وَأُصِيبُ».

وَهَذَا عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فِيمَا قَالَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَظَنَّهُ مِنْ
أَحْوَالِهَا، لَا مَا قَالَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَاجْتِهَادَهُ فِي شَرْعِ شَرَعَهُ؛ أَوْ سُنَّةِ سُنَّهَا.

١٦٦٦ - وَكَمَا حَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا نَزَلَ بِأَذْنِ مِيَاهِ
بَذَرٍ، قَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْدَرِ: أَهَذَا مَنْزِلُ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ، أَمْ هُوَ

الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «لا، بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: فإنه ليس بمنزل، انهض حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فشرله، ثم نَعُوزَ ما وراءه من القلب؛ فنشرب ولا يشربون.

فقال: «أشربت بالرأي»، وفعل ما قاله.

وقد قال له الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

١٦٦٧ - وأراد مصالحةً بغضِ عدوه على ثلث ثَمَرِ المدينة، فاستشار الأنصار. فلما أخبروه برأيهم رجع عنه.

فمثل هذا واشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة، ولا اعتقادها، ولا تعليمها، يجوزُ عليه فيها ما ذكرناه؛ إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطّة؛ وإنما هي أمورٌ اعتياديةٌ يعرفها من جربها، وجعلها همّة، وشغل بها نفسه، والشيء مشحون القلب بمعرفة الزبوية؛ ملأَن الجوانح بالعلوم الشرعية، مُقَيِّد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكونُ في بعض الأمور، ويجوز في النادر وفيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤدّن بالبله والعفلة.

وقد تواتر بالنقل عنه - عليه السلام - من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها، وسياسة فرق أهلها ما هو معجزٌ في البشر، مما قد نبهنا عليه في باب معجزاته - عليه السلام - من هذا الكتاب.

فصل

في ما يُعتقد في أمور أحكام البشر

الجارية على يديه ﷺ وقضائاهم

١٦٦٨ - وأما ما يُعتقد في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضائاهم، ومعرفة المحق من المُنْظَل، وعلم المُنْضَلح من المُفْسِد، فهذه السبيل؛ لقوله عليه السلام: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فاقضي له على نحو ما أسمع؛ فمن قضيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذ منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار» [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٦٩ - حدثنا الفقيه أبو الوليد رحمه الله؛ حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عمر، حدثنا أبو محمد، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سُفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن زَيْب

بنت أم سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ... الحديث [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٧٠ - وفي رواية الزهري، عن عروة، قال: «فلعل بعضكم أن يكون أبلع من بعض، فأخسب أنه صادق فأقضي له» [البخاري (٢٤٥٨)، مسلم (٥/١٧١٣)].

وتجزي أحكامه - عليه السلام - على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحالف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العقاص والوكاء، مع مقتضى حكمة الله في ذلك؛ فإنه تعالى - لو شاء - لأطلعنا على سرائر عباد، ومخبآت ضمائر أمت؛ فتولّى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجة إلى اعتراف، أو بيّنة، أو يمين أو شبهة؛ ولكن لما أمر الله أئمة باتّباعه والافتداء به في أحواله وأفعاله وأقواله، وقضاياه، وسيّره؛ وكان هذا لو كان ممّا يختص بعلمه ويؤثّره الله به، لم يكن للأمة سبيل إلى الافتداء به في شيء من ذلك، ولا قامت حجة بقضية من قضاياه لأحد في شريعته؛ لأننا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية لحكمه هو إذا في ذلك بالمكنون من إعلام الله له بما أطلعنا عليه من سرائرهم؛ وهذا ما لا تعلمه الأمة؛ فأجّزى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي فيها هو وغيره من البشر؛ ليتم اقتداء أئمة به في تعيين قضاياه، وتنزيل أحكامه، ويأتون ما أتوا من ذلك على علم ويقين من سنّته، إذ البيان بالفعل أوّقع منه بالقول، وأزّفع لاحتمال اللفظ، وتأويل المتأول؛ وكان حكمه على الظاهر أجلى في البيان، وأوضح في وجوه الأحكام، وأكثر فائدة لموجبات الشاجر والخصام، وليفتدي بذلك كله حكّام أئمة، ويستوثق بما يؤثّر عنه، ويتنصّط قانون شريعته، وطّي ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثّر به ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) إِلَّا مَن ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ [الجن: ٢٦، ٢٧] فيعلمه منه بما شاء، ويستأثر بما شاء، ولا يقدح هذا في نبوته، ولا يقصم عروّة من عصمته.

فصل

في أقواله ﷺ الدنيوية من إخباره عن أحواله، وأحوال غيره، وما فعله، أو يفعله

وأما أقواله الدنيوية: من إخباره عن أحواله، وأحوال غيره، وما يفعله، وما فعله - فقد قدّمنا - أن الخلف فيها مُنتبِع عليه في كلّ حال، وعلى أي وجه كان من عند أو سهو، أو صحة، أو مرض، أو رضا، أو غضب، وأنه معصوم منه ﷺ.

هذا فيما طريقه الخبر المخض مما يدخله الصدق والكذب؛ فأما المعارض، الموهوم ظاهرها خلاف باطنها، فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لقصد المصلحة.

١٦٧١ - كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو جذرة.

وكما روي من فمازحته ودعابته لبسط أمته، وتطبيب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيده في تخييرهم وصحبهم، ومصرة نفوسهم.

١٦٧٢ - كقوله عليه السلام: «لأخجلنك على ابن الناقة» [أبو داود (٤٩٩٨)،

أحمد (٢٦٧/٣)].

١٦٧٣ - وقوله - للمرأة التي سألته عن زوجها: «أهو الذي بعينه بياض؟».

وهذا كله صدق؛ لأن كل جمل ابن ناقة، وكل إنسان بعينه بياض.

١٦٧٤ - وقد قال عليه السلام: «إني لأمزح، ولا أقول إلا حقاً» [الترمذي

(١٩٩٠)، أحمد (٣٤٠/٢)].

هذا كله فيما باب الخبر؛ فأما ما باب غبر الخبر فيما صورته صورة الأمر والنهي في الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضاً، ولا يجوز عليه أن يأمر أحداً بشيء أو ينهى أحداً عن شيء وهو يظن خلافه.

١٦٧٥ - وقد قال عليه السلام: «ما كان لني أن تكون له خاتنة الأعين» [أبو

داود (٢٦٨٣)، النسائي (١٠٦/٧)]. فكيف أن تكون له خيانة قلب؟!

فإن قلت: فما معنى إذا قوله تعالى في قصة زيد: ﴿وَإِذْ قَوْلُ لَيْلَىٰ أُنْصِمَ إِلَهُهُ عَلَيْهُ وَأَنْصَمَتَ عَلَيْهِ أَمِيكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخَوِّي فِي نَفْسِكَ مَا إِلَهُ مُبْدِيهِ وَتَخِى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب: ٣٧].

فاعلم - أكرمك الله - ولا تستغرب في تزويه النبي - عليه السلام - عن هذا الظاهر وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب إطلاقه إياها، كما ذكر عن جماعة من المفسرين.

١٦٧٦ - وأضح ما في هذا القول ما حكاه أهل التفسير، عن علي بن

الحسين رضي الله عنهما، أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكها إليه زيد قال له: ﴿أَمِيكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الاحزاب: ٣٧] وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

١٦٧٧ - وروى نحوه غمرو بن فائد، عن الزهري، قال: نزل جبريل على

النبي ﷺ يُعَلِّمُهُ أَنَّ اللَّهَ يَزْوَجُهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ؛ فذلِكَ الَّذِي أَخْفَى فِي نَفْسِهِ. وَيُصَحِّحُ هَذَا قَوْلَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أَيْ: لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تَزْوَجَهَا.

وَيُوضِّحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُبَيِّدْ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهَا غَيْرَ زَوْاجِهِ إِيَّاهَا، فَدَلَّ أَنَّهُ الَّذِي أَخْفَاهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِمَّا كَانَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وقوله تعالى في آخر هذه القصة في بقية الآيات: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَرَجٌ فِي الْأَمْرِ. قَالَ الطَّبْرِيُّ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُؤْتِمَّ نَبِيَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيمَا أَحَلَّ لَهُ مِثَالَ فِعْلِهِ لِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أَيْ مِنَ النَّبِيِّينَ فِيمَا أَحَلَّ لَهُمْ.

١٦٧٨ - وَلَوْ كَانَ - عَلَى مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ قَتَادَةَ - مِنْ وَقْعِهَا مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا أَعْجَبَتْهُ، وَمَحَبَّتِهِ طَلَاقَ زَيْنَدٍ لَهَا لَكَانَ فِيهِ أَعْظَمُ الْحَرَجِ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ مَدَّةِ غَيْبَتِهِ لِمَا نُهِيَ عَنْهُ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَكَانَ هَذَا نَفْسَ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ الَّذِي لَا يَرْضَاهُ، وَلَا يَتَّسِمُ بِهِ الْأَتْقِيَاءُ، فَكَيْفَ سَيُذَّ الْمُرْسَلِينَ؟
قَالَ الْمُشِيرِيُّ: وَهَذَا إِقْدَامٌ عَظِيمٌ مِنْ قَائِلِهِ، وَقَلَّةٌ مَعْرِفَةٌ بِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَبِقُضْلِهِ.

وكيف يقال: رَأَاهَا فَأَعْجَبَتْهُ؟ وَهِيَ: بِنْتُ عَمَّتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مِنْذُ وِلْدَتِ، وَلَا كَانَ النِّسَاءُ يَخْتَجِبْنَ مِنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، هَذَا وَهُوَ زَوْجُهَا لَزَيْنَدٍ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ طَلَاقَ زَيْنَدٍ لَهَا، وَتَزْوِيجَ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهَا؛ لِإِزَالَةِ حُزْمِهِ التَّيَسُّتِيِّ، وَإِبْطَالِ سُنَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ...﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿لَكَئِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَرْوَاحِهِمْ﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٣٧].
وَنَحْوُهُ لَا بِنَ فُورَكَ.

وقال أبو الليث السمرقندي: فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْفَائِدَةُ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَزَيْنَدٍ بِإِمْسَاكِهَا؟ فَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ نَبِيَّهُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ، فَهَاءُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ طَلَاقِهَا؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمَا أَلْفَةً؛ وَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ - ﷺ - مَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَيْنَدَ حَتَّى النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَ النَّاسِ: يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً ابْنِيهِ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِزَوَاجِهَا لِيَبَاحِ مِثْلُ

ذلك لأتمته، كما قال تعالى: ﴿لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ عَلَيْهِمْ إِذَا قَصَوْا مِنْهُمْ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد قيل: كان أمره ليزيد بإمساكها قمعاً للشهوة، ورداً للنفس عن هواها. وهذا القول إذا جوزنا عليه - عليه السلام - أنه رآها فجأة واستحسنها. فمثل هذا لا تُكره فيه، لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه الحسن، ونظرة الفجأة مغفوة عنها؛ ثم قمع نفسه عنها، وأمر زيدا بإمساكها؛ وإنما تُتكر تلك الزيادات التي في القصة. والتعويل والأولى ما ذكرناه عن علي بن الحسين، وحكاة السمرقندي؛ وهو قول ابن عطاء، وصححه واستحبه القاضي الفشيخي. وعليه عول أبو بكر بن فوزك، وقال: إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير؛ قال: والنبى ﷺ منزهة عن استعمال الثفاق في ذلك، وإظهار خلاف ما في نفسه، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ إِيَّاهُ فَصَّ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقال: ومن ظن ذلك بالنبى ﷺ فقد أخطأ.

قال: وليس معنى الخشية - هنا -: الخوف؛ وإنما معناه: الاستحياء؛ أي: يستحي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه.

وأن خشيته - عليه السلام - من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيهم على المسلمين بقولهم: تزوج محمد زوجة ابنه، بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان؛ فعته الله - عز وجل - على هذا، ونزهة عن الالتفات إليهم فيما أحله له، كما عته على مزاغة رضا أزواجه في سورة التحريم بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ مَا كُنَّ تَفْعَلُ لَكَ تَفْهِيمٌ وَأَرْوَاهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] وكذلك قوله له هنا: ﴿وَنَحْنُ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

١٦٧٩، ١٦٨٠ - وقد روي عن الحسن البصري وعائشة: لو كنتم رسول الله ﷺ - شيئاً مما نزل عليه كنتم هذه الآية [مسلم (٢٨٨/١٧٧)، الترمذي (٣٢٠٨)] لما فيها من غنّه وإبداء ما أخفاه.

فصل

في شرح حديث الوصية في مرضه ﷺ

١٦٨١ - فإن قلت: قد تقررت عصمته - عليه السلام - في جميع أقواله وأحواله، وأنه لا يصح منه فيها خلل ولا اضطراب، في غمده ولا سهوه، ولا صحة ولا مرض، ولا جد ولا مزح، ولا رضاء ولا غضب. ولكن ما معنى

الحديث في وصيته - عليه السلام - الذي حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله؛ قال: حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو الهيثم، وأبو إسحاق؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا عبد الرزاق بن همام، حدثنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله، عن ابن عباس؛ قال: لَمَّا حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بعده» [البخاري (٤٤٣٢)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

فقال بعضهم: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ... الحديث.
١٦٨٢ - وفي رواية: «اتنوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً» فتنازعوا، فقالوا: ماله؟ أهجر؟ استفهموه؛ فقال: «دعوني، فإن الذي أنا فيه خير» [البخاري (٣١٦٨، ٤٤٣١)، مسلم (٢٠/١٦٣٧)].

١٦٨٣ - وفي بعض طرقه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَهْجُرُ؟ [مسلم (٢١/١٦٣٧)].
١٦٨٤ - وفي رواية: هَجَرَ [البخاري (٣٠٥٣)]. وَيُرْوَى: أَهْجَرَ؟ وَيُرْوَى: أَهْجَرَا؟

١٦٨٥ - وفيه: فقال عمر: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ، وعندنا كتابُ اللَّهِ، حَسْبُنَا. وَكَثُرَ اللَّعَطُ؛ فقال: «قوموا عني» [البخاري (١١٤)].

١٦٨٦ - وفي رواية: واختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قَرَّبُوا لَهُ يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كتاباً. ومنهم من يقول ما قال عمر [البخاري (٧٣٦٦)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

قال أنمتنا في هذا الحديث: النبي - ﷺ - غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وما يَكُونُ مِنْ عَوَارِضِهَا مِنْ شِدَّةٍ وَجَعٍ، وَعَشْيٍ، وَنَحْوِهِ مِمَّا يَطْرَأُ عَلَى جِسْمِهِ، مَعْصُومٌ أَنْ يَكُونَ مِنْه مِنَ الْقَوْلِ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مَا يَطْعَنُ فِي مُعْجَزَتِهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى فسادٍ في شريعته من هَذْيَانٍ، أو اختلالٍ في كلام.

وعلى هذا لا يَصِحُّ ظَاهِرُ رِوَايَةٍ مَنْ رَوَى فِي الْحَدِيثِ: «هَجَرَ» إِذْ مَعْنَاهُ: هَذَى. يُقَالُ: هَجَرَ هَجْرًا، إِذَا هَذَى. وَأَهْجَرَ هَجْرًا: إِذَا أَفْحَشَ؛ وَأَهْجَرَ: تَغْلِيظٌ هَجَرَ؛ وَإِنَّمَا الْأَصَحُّ وَالْأَوَّلَى: «أَهْجَرَ؟» عَلَى طَرِيقِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ: لَا يَكْتُبُ...

١٦٨٧ - وهكذا رَوَيْنَا فِيهِ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» مِنْ رِوَايَةِ جَمِيعِ الرُّوَاةِ فِي حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ الْمَتَقَدِّمِ.

١٦٨٨ - وفي حديث محمد بن سلام، عن ابن عُيَيْنَةَ [السخاري (٣١٦٨)]، وكذا ضَبْطَةُ الْأَصْبَلِيِّ بخطه في كتابه، وغيره من هذه الطرق.

١٦٨٩ - وكذا زُوَيْنَاهُ عن مسلم في حديث سُفْيَانَ [مسلم (٢٦١/١٦٣٧)]، وعن غيره.

وقد تُحْمَلُ عليه رواية من رواه «هجر؟» على حَذْفِ الْفِ الاستفهام؛ والتقدير: «أهجر؟» أو أن يُحْمَلَ قولُ القائل: «هجر» أو «أهجر» دهشة من قائل ذلك، وحيرة لعظيم ما شاهد من حال الرسول ﷺ، وشدة وجعه؛ وهول المقام الذي اختلف فيه عليه، والأمر الذي هم بالكتاب فيه، حتى لم يَضِطْ هذا القائل لفظه، وأخرى الهَجَرُ مُجَرًى شِدَّةَ الْوَجَعِ؛ لا أنه اعتقد أنه يجوزُ عليه الهَجَرُ، كما حملهم الإشفاقُ على جِراسَتِهِ؛ والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ونحو هذا.

١٦٩٠ - وأما على رواية: «أهجر؟» وهي رواية أبي إسحاق المُسْتَمْلِي في الصحيح في حديث ابن جُبَيْر، عن ابن عباس، من رواية قُتَيْبَةَ [السخاري (٤٤٣١)] - فقد يكون هذا راجعاً إلى المختلفين عنده ﷺ، ومحاطة لهم من بعضهم لبعض؛ أي جِئْتُمْ باختلافكم على رسول الله ﷺ وبين يديه - هَجَرًا وَمُنْكَرًا من القول؟

والهَجَرُ: بضم الهاء: الفُحْشُ في المنطق.

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث اختلافاً كثيراً، وكيف اختلف الصحابة بعد أمره لهم - عليه السلام - أن يأتوه بالكتاب، فقال بعضهم: أوامر النبي ﷺ يفهم إيجابها، من نذرها، من إيجابها بقرائن، فلعله قد ظهر من قرائن قوله - عليه السلام - لبعضهم ما فهموا أنه لم يكن منه عَزْمَةٌ، بل أَمْرٌ رَدٌّ إِلَى اخْتِبَارِهِمْ أو اخْتِبَارِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِ وبعضهم لم يفهم ذلك، فقال: استفهموه، فلما اختلفوا كف عنه، إذ لم يكن عَزْمَةٌ، ولما رأوه من صواب رأي غمروا.

ثم هؤلاء قالوا: ويكون امتناعُ عُمَرَ إما إشفاقاً على النبي ﷺ من تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب، وأن تدخل عليه مشقة من ذلك، كما قال: إن النبي ﷺ اشتد به الوجع.

وقيل: خشي عُمَرُ أن يكتب أموراً يعجزون عنها فيحصلون في الحرج بالمخالفة، ورأى أن الأرفق بالامة في تلك الأمور سعة الاجتهاد، وحكم النظر، وطلب الصواب؛ فيكون المصيب والمخطئ مأجوراً.

وقد عَلِمَ عُمَرُ تَقَرَّرَ الشَّرْعَ، وتَأَسَّسَ الْجِلَّةَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَلَيْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ وَبَيْنَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

١٦٩١ - وقوله عليه السلام: «أَوْصِيَكُمْ بكتاب الله وعِزَّتِي» [مسلم (٢٤٠٨)].

وقولُ عُمَرَ: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» رَدٌّ عَلَى مَنْ نَارَاعَهُ، لَا عَلَى أَمْرِ

النَّبِيِّ ﷺ.

وقد قيل: إِنَّ عُمَرَ خَشِيَ تَطَرُّقَ الْمُنَافِقِينَ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِمَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ فِي الْخُلُوءِ، وَأَنْ يَتَقَوْلُوا فِي ذَلِكَ الْأَقَاوِيلَ، كَادَعَاءِ الرَّافِضَةِ الْوَصِيَّةَ لِعَلِيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمَشُورَةِ وَالِاخْتِبَارِ. هَلْ يَتَفَقُونَ عَلَى ذَلِكَ أَمْ يَخْتَلِفُونَ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا تَرَكَهُ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: إِنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - كَانَ مُجِيباً فِي هَذَا الْكِتَابِ لِمَا طُلِبَ مِنْهُ؛ لَا أَنَّهُ ابْتَدَأَ بِالْأَمْرِ بِهِ؛ بَلْ اقْتَضَاهُ مِنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ؛ فَأَجَابَ رَغْبَتَهُمْ، وَكَرِهَ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ لِلْعِلَلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

١٦٩٢ - وَاسْتَدِلَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَةِ بِقَوْلِ الْعَبَّاسِ لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فِينَا عَلِمْنَاهُ؛ وَكَرَاهَةَ عَلِيٍّ هَذَا، وَقَوْلِهِ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ... الْحَدِيثُ [البخاري (٤٤٤٧)].

١٦٩٣ - وَاسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ: «دَعُونِي؛ فَإِنَّ الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ» أَي: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنْ إِرسَالِ الْأَمْرِ، وَتَرْكِكُمْ وَكِتَابِ اللَّهِ، وَأَنْ تَدْعُونِي مِمَّا طَلَبْتُمْ. وَذَكَرَ أَنَّ الَّذِي طُلِبَ كِتَابُهُ أَمْرُ الْخِلَافَةِ بَعْدَهُ، وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ.

فصل

فِي شَرْحِ حَدِيثٍ: أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَنَتْهُ أَوْ سَبَبَتْهُ
أَوْ جَلَدَتْهُ فَأَجَعَلَهَا كَفَّارَةً، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ

١٦٩٤ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهَ حَدِيثِهِ أَيْضاً الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ الْفَقِيه أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِي بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ الْفَارَسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ سَالِمِ مَوْلَى النَّضْرِيِّينَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْداً لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، فَأَيُّمَا

مؤمن آذيت، أو سببت، أو جلدته، فاجعلها له كفارةً وقربةً، تُقرنه بها إليك يوم القيامة» [مسلم (٩١/٢٦٠١)، البخاري (٦٣٦١)].

١٦٩٥ - وفي رواية: «فأَيُّما أحدٍ دعوت عليه دعوة» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٦ - وفي رواية: «ليس لها بأهل» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٧ - وفي رواية: «فأَيُّما رجل من المسلمين سببت، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له زكاةً، وصلاةً، ورحمةً» [مسلم (٨٩/٢٦٠١)].

وكيف يصح أن يلغى النبي ﷺ - من لا يستحق اللغى، ويسب من لا يستحق السب، ويجلد من لا يستحق الجلد، أو يفعل مثل ذلك عند الغضب، وهو معصوم من هذا كله؟

فاعلم - شرح الله صدرك - أن قوله ﷺ أولاً: «ليس لها بأهل» أي: عندك يا رب في باطن أمره؛ فإن حكمه - عليه السلام - على الظاهر، كما قال، وللحكمة التي ذكرناها، فحكم - عليه السلام - بجلده، أو آذيه بسبه، أو لغته، بما اقتضاه عنده حال ظاهره؛ ثم دعا عليه الصلاة والسلام لشقيقته ﷺ على أمته، ورحمته لهم، ورأفته عليهم التي وصفه الله بها، وحذره أن يتقبل الله فيمن دغا عليه دغوته - أن يجعل دعاؤه ولغته وسبه له رحمة؛ فهو معنى قوله: «ليس لها بأهل»؛ لا أنه - عليه السلام - يحمله الغضب، ويستقره الضجر لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مسلم.

وهذا معنى صحيح، ولا يفهم من قوله: «أغضب كما يغضب البشر» أن الغضب حمله على ما لا يجب فعله؛ بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حملة على معاقبته بلغته أو سبه؛ وأنه مما كان يحتمل ويجوز عفو عنه، أو كان مما خير بين المعاقبة فيه أو العفو عنه.

وقد يحتمل أنه خرج منه ذلك، بمخرج الإشفاق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدي حدود الله تعالى.

وقد يخمل ما ورد من دعائه هذا، ومن دعواته على غير واحد في غير موطن، على غير العقد والقصد؛ بل بما جرت به عادة العرب؛ وليس المراد بها الإجابة.

١٦٩٨ - كقوله عليه السلام: «قربت يمينك» [أحمد (٨١/٣)، البخاري (١٣٠)،

مسلم (٣١٠)].

١٦٩٩ - و «لا أشبع الله بطنك» [مسلم (٢٦٠٤)].

١٧٠٠ - و «عَفَرْتُ حَلْفِي» [البخاري (١٥٦١)، مسلم (١٢٨/١٢١١)] وغيرها من دعواته عليه السلام.

١٧٠١ - وقد وَرَدَ فِي صِفَتِهِ - فِي غَيْرِ حَدِيثٍ - أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ فَحَاشًا.

١٧٠٢ - وَقَالَ أَنَسٌ: لَمْ يَكُنْ سَبَّابًا، وَلَا فَاخِشًا، وَلَا لَعَانًا؛ وَكَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَغْتَبَةِ: «مَا لَهُ قَرَبٌ جَبِيئُهُ؟» [البخاري (٦٠٣١، ٦٠٤٦)].

فَيَكُونُ حَمْلُ الْحَدِيثِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ ثُمَّ أَشْفَقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ مُوَافَقَةِ أَمْثَالِهَا إِبَاجَةً، فَعَاهَدَ رَبَّهُ، كَمَا قَالُ فِي الْحَدِيثِ، أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لِلْمَقُولِ لَهُ زَكَاةً، وَرَحْمَةً، وَفُرْجَةً.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَى الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِ، وَتَأْنِيْسًا لَهُ؛ لِثَلَا يُلْحَقَهُ مِنْ اسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ مِنْ لَعْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقْبُلُ دَعَائِهِ، مَا يَحْمِلُهُ عَلَى التَّيَاسِ وَالْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سُؤْلًا مِنْهُ لِرَبِّهِ - عِزٍّ وَجَلٍّ - لِمَنْ جَلَدَهُ، أَوْ سَبَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَيُوجِبُهُ صَحِيحٌ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لَهُ كَفَّارَةً لِمَا أَصَابَهُ، وَتَمْجِيةً لِمَا اجْتَرَمَ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَقُوبَتَهُ لَهُ فِي الدُّنْيَا سَبَبَ الْعَفْوِ وَالْعُفْرَانِ.

١٧٠٣ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرُ: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَمُوقِبٌ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» [البخاري (١٨)، مسلم (١٧٠٩)].

١٧٠٤ - فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى حَدِيثِ الزُّبَيْرِ وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ - حِينَ تَخَاصُمِهِ مَعَ الْأَنْصَارِيِّ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ -: «اسْقِي يَا زُبَيْرُ! حَتَّى يَبْلُغَ الْمَاءُ الْكَعْبَيْنِ». فَقَالَ لَهُ الْأَنْصَارِيُّ: أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَتَلُونَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ؛ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِي يَا زُبَيْرُ! ثُمَّ احْبِسْ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَذَرَ...» الْحَدِيثُ.

فَالْجَوَابُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنْزَعٌ أَنْ يَقَعَ بِنَفْسِ مُسْلِمٍ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَمْرٌ يُرِيبُ؛ وَلَكِنَّهُ ﷺ نَدَبَ الزُّبَيْرَ أَوَّلًا إِلَى الْاِقْتِصَارِ عَلَى بَعْضِ حَقِّهِ عَلَى طَرِيقِ التَّوَسُّطِ، وَالصُّلْحِ، فَلَمَّا لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ الْآخَرُ، وَلَجَّ، وَقَالَ مَا لَا يَجِبُ، اسْتَوْفَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ.

وَلِهَذَا تَرَجَّمَ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: بَابُ: إِذَا أَشَارَ الْإِمَامُ بِالصُّلْحِ فَأَبَى حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْحُكْمِ الْبَيِّنِ [البخاري (٣٠٩/٥) فتح].

١٧٠٥ - وَذَكَرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: فَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُئِذٍ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ [البخاري (٢٧٠٨)].

وقد جعل المسلمون هذا الحديث أضلاً في قضيته .

١٧٠٦ - وفيه الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه، وأنه - وإن نهى أن يقضي القاضي وهو غضبان [البخاري (٧١٥٨)، مسلم (١٧١٧)] - فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء، لكونه فيهما معصوماً. وغضب النبي ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه، كما جاء في الحديث الصحيح. ١٧٠٧ - وكذلك الحديث في إفادته عكاشة من نفسه لم يكن لتعد حمله الغضب عليه؛ بل وقع في الحديث نفسه أن عكاشة قال له: وضربتني بالقضيب، فلا أدري أعمداً، أم أردت ضرب الناقة؟ فقال النبي ﷺ: «أعبدك بالله، يا عكاشة! أن يتعمدك رسول الله ﷺ».

١٧٠٨ - وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابي حين طلب - عليه السلام - الاقتصاد منه، فقال الأعرابي: قد عفوت عنك. وكان النبي ﷺ قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقته مرة بعد مرة، والنبي ﷺ ينهأ ويقول له: «تذكر حاجتك» وهو يأبى؛ فضربه - عليه السلام - بعد أن نهأ ثلاث مرات. وهذا منه - عليه السلام - لمن لم يقف عند نهيه صواب، وموضع أذب، لكنه - عليه السلام - أشفق إذ كان حق نفسه من الأمر حتى عفا عنه. ١٧٠٩ - وأما حديث سواد بن عمرو: أتيت النبي - ﷺ - وأنا متخلق فقال عليه الصلاة والسلام: «وزم! وزم! خط، خط» وغشيني بقضيب كان في يده في بطني فأوجعني. قلت: القصاص، يا رسول الله! فكشف لي عن بطنه - ﷺ - فأبى القصاص.

وإنما كان ضربه - عليه السلام - لمُنكر رآه به؛ ولعله لم يرد بضربه بالقضيب إلا تنبيهه، فلما كان منه إيجاع لم يقصده طلب التحلل منه على ما قدمناه.

فصل

فِي أَنَّ عَامَّةَ أَعْمَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ، وَالزُّدُّ عَلَى بَغْضِ الشُّبْهِ

وأما أفعاله - عليه السلام - الدُّنْيَوِيَّةُ فحُكْمُهُ فِيهَا مِنْ تَوْفِي الْمَعَاصِي والمَكْرُوِهَاتِ مَا قَدْ قَدَمْنَاهُ، وَمِنْ جَوَازِ السُّهُوِّ وَالْغَلْطِ فِي بَعْضِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ. وَكُلُّهُ غَيْرُ قَادِحٍ فِي نُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. بَلَى، إِنَّ هَذَا فِيهَا عَلَى التُّدْوَرِّ؛ إِذْ عَامَّةُ أَعْمَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالصَّوَابِ، بَلْ أَكْثَرُهَا أَوْ كُلُّهَا جَارِيَةٌ مَجْرَى الْعِبَادَاتِ

وَالْقُرْبَ عَلَى مَا بَيَّنَّا؛ إِذْ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَأْخُذُ مِنْهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا ضُرُورَتَهُ، وَمَا يُقِيمُ بِهِ رَمَقَ جَسَمِهِ، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ ذَاتُهُ الَّتِي بِهَا يَغْبُذُ رَبُّهُ، وَيُقِيمُ شَرِيعَتَهُ، وَيُسَوِّسُ أَمَّتَهُ، وَمَا كَانَ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ قَبِيْنٌ مَعْرُوفٍ يَضُنُّهُ، أَوْ يَرْيُوسُغُهُ، أَوْ كَلَامَ حَسَنِ يَقُولُهُ أَوْ يَسْمَعُهُ، أَوْ تَأْلُفَ شَارِدٍ، أَوْ قَهْرَ مُعَانِدٍ، أَوْ مُدَارَاةَ حَاسِدٍ؛ وَكُلُّ هَذَا لِاجْتِاقِ بَصَالِحِ أَعْمَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُنْتَظِمٍ فِي زَاكِي وَظَانِفِ عِبَادَاتِهِ؛ وَقَدْ كَانَ يُخَالِفُ فِي أَعْمَالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَيُعِذُّ لِلْأُمُورِ أَشْبَاهَهَا، فَيَرْكَبُ فِي تَصَرُّفِهِ - لَمَّا قُرْبُ - الْحِمَارَ، وَفِي أَسْفَارِهِ الْبَعِيدَةِ الرَّاحِلَةَ، وَيَرْكَبُ الْبَغْلَةَ فِي مَعَارِكِ الْحَرْبِ، دَلِيلًا عَلَى الثَّبَاتِ، وَيَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيُعِذُّهَا لِيَوْمِ الْفَزَعِ وَاجَابَةِ الصَّارِخِ.

وَكَذَلِكَ فِي لِبَاسِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ بِحَسَبِ اعْتِبَارِ مَصَالِحِهِ، وَمَصَالِحِ أَمَّتِهِ. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْفِعْلَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، مُسَاعِدَةً لِأَمَّتِهِ، وَسِيَاسَةً وَكَرَاهِيَةً لِخِلَافِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَرَى غَيْرَهُ خَيْرًا مِنْهُ، كَمَا يَتْرُكُ الْفِعْلَ أَبَدًا؛ وَقَدْ يَرَى فِعْلَهُ خَيْرًا مِنْهُ. وَقَدْ يَفْعَلُ هَذَا فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ مِمَّا لَهُ الْخَيْرَةُ فِي أَحَدٍ وَجْهِهِ، كَخُرُوجِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ لِأُحَدٍ، وَكَانَ مَذْهَبُهُ التَّحَصُّنَ بِهَا.

١٧١٠ - وَتَرْكُهُ قَتْلَ الْمَنَافِقِينَ، وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ مَوَالِفَةً لْغَيْرِهِمْ، وَرِعَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَابَتِهِمْ، وَكَرَاهَةً لِأَنَّهُ يَقُولُ النَّاسُ: إِنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

١٧١١ - وَتَرْكُهُ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، مِرَاعَاةً لِقُلُوبِ قُرَيْشٍ، وَتَعْظِيمَهُمْ لِتَغْيِيرِهَا، وَحَذَرًا مِنْ نِفَارِ قُلُوبِهِمْ لِلذَلِكَ، وَتَحْرِيكَ مُتَقَدِّمِ عَدَاوَتِهِمْ لِلَّذِينَ وَأَهْلَهُ؛ فَقَالَ لِعَائِشَةَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَوْلَا جِذْنَانِ قَوْمِي بِالْكَفْرِ لَا تَمُنَّمْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» [البخاري (١٥٨٥)، مسلم (١٣٣٣)].

١٧١٢ - وَيَفْعَلُ الْفِعْلَ ثُمَّ يَتْرُكُهُ؛ لِكَوْنِ غَيْرِهِ خَيْرًا مِنْهُ؛ كَانْتِقَالِهِ مِنْ أَذْنَى مِيَاهٍ يَذَرُ إِلَى أَقْرَبِهَا لِلْعَدُوِّ مِنْ قُرَيْشٍ.

١٧١٣ - وَقَوْلُهُ: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَذْبَرْتُ مَا سَقَتْ الْهَدْيُ» [البخاري (٧٢٢٩)، مسلم (١٥/١٢١١)].

وَيَسْطُ وَجْهَهُ لِلْعَدُوِّ الْكَافِرِ رَجَاءً اسْتِثْلَافِهِ.

١٧١٤ - وَيَصْبِرُ لِلْجَاهِلِ، وَيَقُولُ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ» [البخاري (٢١٣١)، مسلم (٢٥٩١)]. وَيَبْذُلُ لَهُ الرِّغَائِبَ لِيَحْبَبَ إِلَيْهِ شَرِيعَتَهُ وَدِينَ رَبِّهِ.

ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته، وتَسَمَّت في ملته، حتى لا يبدو منه شيء من أطرافه، وحتى كأن على رؤوس جلسائه الطير؛ وتحدث مع جلسائه بحديث أولهم، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويضحك مما يضحكون منه؛ قد وسع الناس بشره وغذله، لا يستفزه العصب، ولا يقصر عن الحق، ولا ينطن على جلسائه.

١٧١٥ - يقول: «ما كان لنبي أن تكون له خاتنة الأغنياء».

١٧١٦ - فإن قلت: فما معنى قوله لعائشة رضي الله عنها في الدّاخل عليه: «بئس ابن العشيرة» فلما دخل عليه، الآن له القول، وضحك معه، فلما سأله عن ذلك قال: «إن من شرار الناس من اتقاء الناس لشره».

وكيف جاز أن يظهر له خلاف ما ينطن، ويقول في ظهره ما قال؟ فالجواب عن ذلك: أن فعله - عليه السلام - كان استتلاً لمثله، وتطبيياً لنفسه؛ ليتمكن إيمانه، ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام.

ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج من حدّ مداراة الدنيا إلى السياسة الدنيئة.

وقد كان النبي يستألفهم بأموال الله العريضة، فكيف بالكلمة اللبّة؟
١٧١٧ - وعن صفوان: لقد أعطاني وهو أبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار أحبّ الخلق إليّ [مسلم (٢٣١٣)].

١٧١٨ - وقوله فيه: «بئس ابن العشيرة» هو غير غيبة؛ بل هو تعريف ما علمه منه لمن لم يعلم، ليخذر حاله، ويخترز منه، ولا يوثق بجانبه كل الثقة، ولا سيما وكان مطاعاً متبوعاً في قومه.

ومثل هذا إذا كان لضرورة، ودفع مضرة، لم يكن بغيبة، بل كان جائزاً، بل واجباً في بعض الأحيان كعادة المحدثين في تجريح الرواة، والمزكين في الشهود.

١٧١٩ - فإن قيل: فما معنى المفضل الوارد في حديث بريزة من قوله ﷺ لعائشة؛ وقد أخبرته أن موالي بريزة أبوا بيعها إلا أن يكون لهم الولاء؛ فقال لها عليه السلام: «اشترىها واشترط ليهم الولاء» ففعلت، ثم قام خطيباً، فقال: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟ كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل» [البخاري (٢١٦٨)، مسلم (١٥٠٤)] والنبي - ﷺ - قد أمرها بالشرط لهم، وعليه باعوا،

ولولاه - واللَّهُ أعلم - لما باعوها من عائشة، كما لم يبيعوها قَبْلَ حتى شرطوا ذلك عليها؛ ثم أبطله - عليه السلام - وهو قد حرَّم الغِشَّ والخديعة؟! فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُتَرَّةٌ عن ذلك مما يَقَعُ في بال الجاهل من هذا، ولتَنزيه النبي - عليه السلام - عن ذلك ما قد أنكر قوم هذه الزيادة في الرواية قوله: «اشترطي لهم الولاء» إذ ليست في أكثر طرق الحديث؛ ومع ثباتها فلا اعتراض بها؛ إذ يَقَعُ «لهم» بمعنى «عليهم»؛ قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَلْفَنَّهُ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: عليهم.

وقال: ﴿وَلِإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. أي: فعلها.

فعلى هذا يكون معناه: اشترطي عليهم الولاء لك، ويكون قيام النبي ﷺ ووعظُهُ لما سلف لهم من شرط الولاء لأنفسهم قَبْلَ ذلك. وَجْه ثانٍ: أَنَّ قَوْلَهُ عليه السلام: «اشترطي لهم الولاء»، ليس على معنى الأمر، لكن على معنى التسوية والإعلام بأنَّ شَرْطَهُ لهم لا يَنْفَعُهُمْ بعد بيان النبي ﷺ لهم قَبْلَ: أَنَّ الولاء لِمَنْ أَعْتَقَ؛ فكأنه قال: اشترطي أو لا تَشترطي، فإنه شَرْطٌ غَيْرُ نافع.

وإلى هذا ذهب الدَّوْدِيُّ وَغَيْرُهُ؛ وتوبيخ النبي ﷺ لهم؛ وتقريعهم على ذلك يَدُلُّ على عِلْمِهِمْ به قَبْلَ هذا.

الْوَجْه الثالث: أَنَّ معنى قوله: «اشترطي لهم الولاء» أي: أظهرى لهم حُكْمَهُ، ويُنْبِي عندهم سُنَّتَهُ أَنَّ الولاء إنما هو لِمَنْ أَعْتَقَ. ثم بعد هذا قام هو ﷺ مَبِينًا ذلك وَمَوْثِقًا على مخالفة ما تقدَّم مِنْهُ فيه.

فإن قيل: فما معنى فِعْلِ يوسف - عليه السلام - بأخيه؛ إذ جعل السَّقَايَةَ في رَحْلِهِ، وأَخَذَهُ باسم سَرِقَتِهَا، وما جَرَى على إخوته في ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]؛ ولم يَسْرِقُوا؟

فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ الآيةَ تَدُلُّ على أَنَّ فِعْلَ يوسف كان عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَنُفِقُ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإذا كان كذلك فلا اعتراض به، كان فيه ما فيه.

وأيضاً فإنَّ يوسف كان أَعْلَمَ أَخَاهُ به: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِشْ﴾ الآية [يوسف: ٦٩] فكان ما جَرَى عليه بعد هذا من وفقه ورغْبَتِهِ، وعلى يقين من عَقْبِي الخَيْرِ له به، وإزاحة السُّوءِ عنه والمَضَرَّةَ بذلك.

وأما قوله: ﴿إِنْتَهَا أَلَيْسَ إِنَّكُمْ لَسَرُوفُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فليس من كلام يوسف ولا من قوله، فيلزم عليه جواب لِحَلْ شُبْهِهِ. ولعل قائله إن حُسْنَ له التأويل كائناً من كان ظَنُّ على صورة الحال ذلك. وقد قيل: قال ذلك لفعلهم قَبْلُ بيوسف وبتبعهم له. وقبل غير هذا. ولا يلزم أن يَقُولَ الأنبياء ما لم يأت أنهم قالوه، حتى يُطْلَبَ الخلاص منه، ولا يلزم الاعتذار عن زلات غيرهم.

فصل

فِي الْحِكْمَةِ فِي إِجْرَاءِ الْأَمْرَاضِ وَشِدَّتِهَا عَلَيْهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ

فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشِدَّتِهَا عليه، وعلى جميع الأنبياء عليهم السلام؟ وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء، وامتحانهم بما امْتَحَنُوا به كأيوب، ويعقوب، ودانيال، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وإبراهيم، ويوسف، وغيرهم، صلوات الله عليهم، وهم خيرته من خلقه وأَحَبَّاهُ وَأَصْفِيَاهُ؟ فاعلم - وفقك الله - أن أفعال الله تعالى كلها غَدَلٌ، وكلماته جميعها صدق لا مُبْدَلٌ لكلماته، يَنْتَلِي عِبَادَهُ، كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

و ﴿لِنَتْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٧].

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَلِنَتْلُوَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مَكْرَ وَالْفَاضِلِينَ وَيَتْلُوا لِقَابَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمَّا بَقِيَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْفَاضِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فامتحانه - عز وجل - إياهم بضروب البحن زيادة في مكانتهم، ورفعته في درجاتهم، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكر والتسليم، والتوكل، والتفويض، والدعاء، والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رَحْمَةِ الْمُتَمَتِّحِينَ، والشفقة على الْمُتَبَلِّغِينَ، وتذكرة لغيرهم، وموعظة لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم؟ ويسئلوا في البحن بما جرى عليهم، ويقتدوا بهم في الصبر، ومخو لِهَنَاتِ فِرْطَتِ مِنْهُمْ، أو غفلات سلفت لهم، ليتفوا الله تعالى طيبين مُهْذَبِينَ؛ وليكون أجْزَمَ أَكْمَلِ، وثوابهم أَوْفَرَ وَأَجْزَلَ.

١٧٢٠ - حدثنا القاضي أبو علي الحافظ، حدثنا أبو الحسين الضبرقي وأبو

الفضل بن خيرون؛ قالوا: حدثنا أبو يَغْلَى البَغْدَادِيُّ، حدثنا أبو علي السُّجِّي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى التُّرْمِذِيُّ، حدثنا قُتَيْبَةُ، حدثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَلَا أَمْثَلُ، يُنْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرُحْ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خُطْبَةٌ» [التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٨)، ابْنُ مَاجَهَ (٤٠٢٣)].

وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَلَبَّيْتَ أَفْءَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ فَقَالَهُمْ اللَّهُ تَوَابٌ لِّلْدُنْيَا وَحَسَنَ تَوَابٍ لِّلْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

١٧٢١ - وعن أبي هريرة [التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٩)]: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِي نَفْسِهِ، وَوَلَدِهِ، وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ، وَمَا عَلَيْهِ خُطْبَةٌ».

١٧٢٢ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمَسَكَ عَنْهُ بِذُنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٦)].

١٧٢٣ - وفي حديث آخر: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ لِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ». وحكى السَّمَرَقَنْدِيُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَ بَلَاؤُهُ أَشَدَّ كُنِيَ يَتَبَيَّنُ فَضْلُهُ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ؛ كَمَا رُوِيَ عَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: يَا بَنِي! الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ يُخْتَبَرَانِ بِالنَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يُخْتَبَرُ بِالْبَلَاءِ.

وقد حُكِيَ: أَنَّ ابْتِلَاءَ يَعْقُوبَ بِيُوسُفَ كَانَ سَبَبَهُ التَّفَاتِهِ فِي صَلَاتِهِ إِلَيْهِ، وَيُوسُفَ نَائِمٌ مُحِبٌّ لَهُ.

١٧٢٤ - وقيل: بَلِ اجْتَمَعَ يَوْمًا هُوَ وَابْنُهُ يُوسُفُ عَلَى أَكْخَلٍ حَمَلٍ مُّشَوِيٍّ، وَهُمَا يَضْحَكَانِ، وَكَانَ لَهُمَا جَارٌ يَتِيمٌ، فَشَمَّ رِيخَهُ وَاشْتَهَاهُ وَيَكِي، وَيَكُتُّ جَذَّةً لَهُ عَجُوزٌ لَبِكَائِهِ، وَبَيْنَهُمَا جِدَارٌ، وَلَا عَلِمَ عِنْدَ يَعْقُوبَ وَابْنِهِ؛ فَغَوَّبَ يَعْقُوبُ بِالْبَكَاءِ أَسْفًا عَلَى يُوسُفَ إِلَى أَنْ سَأَلَتْ خَدَقَتَاهُ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ. فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ كَانَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، وَيَأْمُرُ مُنَادِيًا يَنَادِي عَلَى سَطْحِهِ: أَلَا مَنْ كَانَ مُقْطِرًا فَلْيَتَغَدَّ عِنْدَ آلِ يَعْقُوبَ.

وَعُوقِبَ يُوسُفَ بِالْمُحَنَةِ الَّتِي نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهَا. ١٧٢٥ - وَرُوِيَ عَنِ اللَّيْثِ أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ أَيُّوبَ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ أَهْلِ قَرِيَّتِهِ عَلَى

ملِكهم، فكلّموه في ظلمه، وأغلظوا له إلا أيوب، فإنه رَفَقَ به مخافةً على رَزَعِه، فعاقبه الله تعالى ببلائه.

ومحنة سليمان لما ذكرناه من تبيته في كؤن الحق في جهة أصهاره؛ أو للعمل بالمعصية في داره، ولا عِلْمَ عنده.

١٧٢٦ - وهذه فائدة شدة المرض والوجع بالنبي ﷺ؛ قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ [البخاري (٥٦٤٦)، مسلم (٢٥٧٠)].

١٧٢٧ - وعن عبد الله: رأيت النبي ﷺ في مرضه، بوعك وُعكاً شديداً، فقلت: إنك لتوعك وُعكاً شديداً! قال: «أجل، إني أوعك كما بوعك رجلان منكم». قلت: ذلك أن لك الآخر مرتين؟ قال: «أجل، ذلك كذلك» [البخاري (٥٦٤٨)، مسلم (٢٥٧١)].

١٧٢٨ - وفي حديث أبي سعيد أن رجلاً وضع يده على النبي ﷺ فقال: والله! ما أطبق أضغ يدي عليك من شدة خماك. فقال النبي ﷺ: «إنا مغشور الأتبياء بضاعف لنا البلاء، إن كان النبي لينتلى بالفمّل حتى يقتله، وإن كان النبي لينتلى بالفقر، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء» [ابن ماجه (٤٠٢٤)].

١٧٢٩ - وعن أنس، عن النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» [الترمذي (٢٣٩٦)، ابن ماجه (٤٠٣١)].

١٧٣٠، ١٧٣١ - وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُحْزَرْ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]: إن المسلم يخزى بمصائب الدنيا، فتكون له كفارة. وزوي هذا عن عائشة [أحمد (٦٥/٦٦)، وأبي بكر [الترمذي (٣٠٣٩)، ومجاهد].

١٧٣٢ - وقال أبو هريرة، عنه عليه السلام: «مَنْ يُرِدِ اللهَ به خيراً يُصِبْ منه» [البخاري (٥٦٤٥)].

١٧٣٣ - وقال في رواية عائشة: «ما من مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المسلم إلا يُكَفِّرَ الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها» [البخاري (٥٦٤٠)، مسلم (٤٩/٢٥٧٢)].

١٧٣٤ - وقال في رواية أبي سعيد: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها» [البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣)].

١٧٣٥ - وفي حديث ابن مسعود: «ما من مسلم يُصِيبه أذى إلا حاث الله

عنه خطاياء كما تحاث وَرَقُ الشَّجَرِ [البخاري (٥٦٤٧)، مسلم (٢٥٧١)].

وحكمة أخرى أودعها الله في الأمراض لأجسامهم، وتعاقب الأوجاع عليها وشدتها عند مماتهم، لتضعف قوى نفوسهم، فيسهل خروجها عند قبضهم، وتخف عليهم مؤنة النزح، وشدة السكرات بتقدم المرض، ويضعف الجسم والتفكير كذلك.

١٧٣٦ - وهذا خلاف موت الفجاءة وأخذه، كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين، والصعوبة والسهولة. وقد قال عليه السلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ خَامَةِ الزَّرْعِ تَفْتِيثُ الرِّيحِ هَكَذَا. وَهَكَذَا» [البخاري (٥٦٤٣)، مسلم (٢٨٠٩)].

١٧٣٧ - وفي رواية أبي هريرة عنه: «مَنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تَكْفُوْهَا؛ فَإِذَا سَكَتَتْ اعْتَدَلَتْ؛ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكْفَأُ بِالْبَلَاءِ. وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ، صَمَاءٌ مَعْتَدِلَةٌ حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ» [البخاري (٧٤٦٦)، مسلم (٢٨٠٩)].

معناه: أَنَّ الْمُؤْمِنَ مُرَزَّأً، مُصَابٌ بِالْبَلَاءِ وَالْأَمْرَاضِ، رَاضٍ بِتَصْرِيفِهِ مِنْ أُنْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى مُنْطَاعٌ لِّذَلِكَ، لِيَنْ الْجَانِبَ بِرِضَاهِ وَقَلَّةِ سَخَطِهِ، كَطَاعَةِ خَامَةِ الزَّرْعِ وَانْقِيَادِهَا لِلرِّيَّاحِ، وَتَمَاسِكِهَا لِهَبُوبِهَا وَتَرْنَحِهَا مِنْ حَيْثُ مَا أَتَتْهَا؛ فَإِذَا أَزَاحَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِ رِيَّاحَ الْبَلَاءِ، وَاعْتَدَلَ صَحِيحاً كَمَا اعْتَدَلَتْ خَامَةُ الزَّرْعِ عِنْدَ سُكُونِ رِيَّاحِ الْجَوِّ، رَجَعَ إِلَى شُكْرِ رَبِّهِ وَمَعْرِفَةِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ بِرَفْعِ بَلَاءِهِ، مُنْتَظِراً رَحْمَتَهُ وَثَوَابَهُ عَلَيْهِ.

فإذا كان بهذه السبيل لم يصعب عليه مَرَضُ الْمَوْتِ، وَلَا نَزْوُلُهُ، وَلَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ سَكَرَاتُهُ وَنَزْعُهُ، لِعَادَتِهِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآلَامِ، وَمَعْرِفَةِ مَا لَهُ فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ، وَتَوَطُّيْنِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ وَرِقَّتِهَا وَضَعْفِهَا بِتَوَالِي الْمَرَضِ أَوْ شِدَّتِهِ، وَالْكَافِرُ بِخِلَافِ هَذَا: مُعَافَى فِي غَالِبِ حَالِهِ، مُمْتَنِعٌ بِصِحَّةِ جِسْمِهِ، كَالْأَرْزَةِ الصَّمَاءِ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ هَلَاكَهُ قَصَمَهُ لَحِينُهُ عَلَى غِرَّةٍ، وَأَخَذَهُ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ لُطْفٍ وَلَا رَفْقٍ؛ فَكَانَ مَوْتُهُ أَشَدَّ عَلَيْهِ حَسْرَةً، وَمَقَاسَةً نَزْعِهِ مَعَ قُوَّةِ نَفْسِهِ وَصِحَّةِ جِسْمِهِ أَشَدَّ أَلَمًا وَعَذَابًا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ كَانْجِعَافِ الْأَرْزَةِ. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَاخَذْتُهُمْ بَئْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وكذلك عادة الله تعالى في أعدائه، كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَفَقْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فجأ جميعهم بالموت، على حال غتو وعقلية، وصنحهم به، على غير استعداد بعتة؛ ولهذا ما كره السلف موت الفجأة.

١٧٣٨ - ومنه في حديث إبراهيم: كانوا بكرهون أخذة كأخذة الأسف. أي: الغضب، يريد: موت الفجأة.

وحكمة ثالثة: أن الأمراض تدير الممات، ويقدر شدتها شدة الخوف من نزول الموت؛ فاستعد من أصابته، وعلم تعافدها له، للقاء ربه، ويغرض عن دار الدنيا الكثيرة الأكاد ويكون قلته معلفاً بالمعاد، فيتصل من كل ما يخشى يتاعته من قبل الله، وقيل العباد، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، ويظهر فيما يحتاج إليه من وصية فيمن يحلفه أو أمر بهده.

١٧٣٩ - وهذا تبيناً - عليه السلام - المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فد طلب التصل في مرضه ممن كان له عليه مال أو حق في بدن، وأفاد من نفسه وماله، وأمكن من الفصا من، على ما ورد في حديث الفضل.

١٧٤٠ - وحديث الوفاة.

١٧٤١ - وأوصى بالتقليل بعده: كتاب الله، وعثرته [مسلم (٢٤٠٨)].

١٧٤٢ - وبالأتصار عينته [البخاري (٣٧٩٩)، مسلم (٢٥١٠)].

١٧٤٣ - ودعا إلى كتب كتاب لثلا تصل أمته بعده؛ إما في النص على الخلافة، أو الله أعلم بمراده. ثم رأى الإمساك عنه أفضل وخيراً. وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين.

وهذا كله يخرمه غالباً الكفار، لإملاء الله لهم، ليزدادوا إنماً وليستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾ (٨) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِبَةً وَلَا إِلَيْكَ آهِلُهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٩) [يس: ٤٩، ٥٠].

١٧٤٤ - ولذلك قال - عليه السلام - في رجل مات فجأة: «سبحان الله!

كانه على غضب، المحروم من خرم وصيته» [ابن ماجه (٢٧٠٠)].

١٧٤٥ - وقال: «موت الفجأة راحة للمؤمن، وأخلّة أسف للكافر أو

الفاجر» [أحمد (١٣٦/٦)].

١٧٤٦ - وذلك لأن الموت يأتي المؤمن، وهو غالباً مستعد له منتظراً

لحلولة؛ فهان أمره عليه كيف ما جاء، وأفضى إلى راحته من نصب الدنيا وأفاه؛ كما قال عليه السلام: «فستريح وفستراخ منه» [البخاري (٦٥١٢)، مسلم (٩٥٠)].

ونأني الكافر والفاجر منبته على غير استعداد، ولا أهية، ولا مقدمات منيرة

مُزْعَجَةٍ ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾
[الأنبياء: ٤٠]؛ فكان الموت أشدَّ شيءٍ عليه.

١٧٤٧ - وفراق الدنيا أفظع أمرٍ صدمه، وأكبره شيء له؛ وإلى هذا
المعنى أشار - عليه السلام - بقوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ
كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».



القسم الرابع

في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه
أو سببه عليه الصلاة والسلام

قال الفاسي أبو الفضل رضي الله عنه: قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعين له من بر وتوفير، وتعظيم وإكرام؛ وبحسب هذا حرم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل متنفذه من المسلمين وسأله؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحراب: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاحَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحراب: ٥٣].

وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَعَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَتَقُولُوا نَحْنُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وذلك أن اليهود - لعنهم الله - كانوا يقولون: راعينا، يا محمدا أي أزعنا سماعك، واسمع منا، وعرضون بالكلمة، يريدون: الرعونة؛ فهي الله المؤمنين عن التشبه بهم، وقطع التريعة بشيء المؤمنين عنها، لنلا يتوصل بها الكافر والمناقب إلى سببه، والاستهزاء به.

وفيل: بل لما فيها من مشاركة اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى: اسمع لا سمعت.

وقيل: بل لما فيها من قِلَّةِ الأدب، وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى: ازغنا نزعك؛ فثهوا عن ذلك؛ إذ مضمونه أنهم لا يزعونه إلا برعايته لهم، وهو - عليه السلام - واجب الرعاية بكل حال.

١٧٤٨ - وهذا هو - عليه السلام - قد نهى عن التكني بكنيته، فقال: «تَسْمُوا بِاسْمِي، وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي»؛ صِيَانَةً لِنَفْسِهِ، وَحِمَايَةً عَنْ أَذَاهُ.

١٧٤٩ - إِذْ كَانَ ﷺ اسْتَجَابَ لِرَجُلٍ نَادَى: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَمْ أَغْنِكَ، إِنَّمَا غَنَيْتَ فَلَانًا [البخاري (٣٥٣٧)، مسلم (٢١٣١)]؛ فَنَهَى حَيْثُذَ عَنْ التَّكْنِي بِكُنْيَتِهِ لِثَلَا يَتَأَذَى بِإِجَابَةِ دَعْوَةِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَذْعُهُ، وَيَجِدَ بِذَلِكَ الْمَنَافِقُونَ وَالْمُسْتَهْزِئُونَ ذَرْبَةً إِلَى أَذَاهُ وَالْإِزْرَاءِ بِهِ فَيَنَادُونَهُ، فَإِذَا التَفَتَ قَالُوا: إِنَّمَا أَرَدْنَا هَذَا - لِسِوَاهُ - تَغْنِيًا لَهُ، وَاسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِ عَلَى عَادَةِ الْمُجَانِّ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ، فَحَمَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَمَى أَذَاهُ بِكُلِّ وَجْهِ؛ فَحَمَلَ مُحَقِّقُو الْعِلْمَاءِ نَهْيَهُ عَنْ هَذَا عَلَى مَدَّةِ حَيَاتِهِ، وَأَجَاوَزُوهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَارْتِفَاعِ الْعِلَّةِ.

وللناس في هذا الحديث مذاهب ليس هذا موضعها؛ وما ذكرناه هو مذهب الجمهور، والصواب إن شاء الله. وإن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل التذنب والاستحباب، لا على التحريم؛ ولذلك لم يَنْهَ عَنْ اسْمِهِ؛ لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ اللَّهُ مَنَعَ مِنْ نَدَائِهِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ وَإِنَّمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَدْعُونَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَيَا نَبِيَّ اللَّهِ! ﷺ، وَقَدْ يَدْعُونَهُ بِكُنْيَتِهِ أَبَا الْقَاسِمِ! بَعْضُهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ.

١٧٥٠ - وَقَدْ رَوَى أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا يَدُلُّ عَلَى كِرَاهَةِ التَّسْمِي بِاسْمِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ؛ إِذَا لَمْ يُوقَّرْ، فَقَالَ: «تَسْمُونُ أَوْلَادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعَنُونَهُمْ؟!».

١٧٥١ - وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ: لَا يُسَمَّى أَحَدٌ مِنْكُمْ بِاسْمِ النَّبِيِّ ﷺ، حَكَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِي.

١٧٥٢ - وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، وَرَجُلٌ يَسْبُهُ، وَيَقُولُ لَهُ: فَعَلَ اللَّهُ بِكَ، يَا مُحَمَّدًا! وَصَنَعَ. فَقَالَ عُمَرُ لابن أخيه مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ بِنِ الْخَطَّابِ: لَا أَرَى مُحَمَّدًا ﷺ يُسَبُّ بِكَ؛ وَاللَّهِ! لَا تُدْعَى مُحَمَّدًا مَا دُمْتُ حَيًّا؛ وَسَمَاءُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ.

١٧٥٣ - وَأَرَادَ أَنْ يَمْنَعَ أَنْ يُسَمَّى أَحَدٌ بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ إِكْرَامًا لَهُمْ بِذَلِكَ، وَغَيْرَ أَسْمَاءِ جَمَاعَةٍ تَسْمُوا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ أَمْسَكَ.

والصواب خلافه وجوازه بغده عليه السلام، بدليل إطباق الصحابة على ذلك.

١٧٥٤ - وقد سُمِّي جماعة منهم ابنه محمداً، وكناه بأبي القاسم.

١٧٥٥ - وزوي أن النبي ﷺ أذن في ذلك لعلي رضي الله عنه (أبو داود (٤٩٦٧)، الترمذي (٢٨٤٣)).

١٧٥٦ - وقد أخبر عليه السلام أن ذلك اسم المهدي وكُنْيته (أبو داود (٤٩٨٢)، الترمذي (٢٢٣٠)).

١٧٥٧ وحتى ١٧٥٩ - وقد سُمِّي به النبي ﷺ محمد بن طلحة، ومحمد بن عمرو بن خزم، ومحمد بن ثابت بن قيس، وغير واحد.

١٧٦٠ - وقال: «ما ضرَّ أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة؟».

وقد فصلت الكلام في هذا القسم على بابين كما قدمناه.



الباب الأول

في بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام -
سَبٌّ، أَوْ نَقْصٌ، مِنْ تَغْرِیْضٍ أَوْ نَصٍّ

اعْلَمْ - وَقَفْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنْ جَمِيعَ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ أَلْحَقَ بِهِ نَقْصًا فِي نَفْسِهِ، أَوْ نَسَبِهِ، أَوْ دِينِهِ، أَوْ خُصْلَةٍ مِنْ خِصَالِهِ، أَوْ عَرَضَ بِهِ، أَوْ شَبَّهَهُ بِشَيْءٍ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ لَهُ، أَوْ الْإِزْرَاءِ عَلَيْهِ، أَوْ التَّصْغِيرِ لَشَأْنِهِ، أَوْ الْغَضِّ مِنْهُ، وَالْعَيْبِ لَهُ؛ فَهُوَ سَابٌّ لَهُ؛ وَالْحُكْمُ فِيهِ حُكْمُ السَّابِّ، يُقْتَلُ كَمَا تُبَيِّتُهُ، وَلَا نَسْتَشْنِي فَضْلًا مِنْ فُضُولِ هَذَا الْبَابِ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ، وَلَا نَمْتَرِي فِيهِ تَصْرِيحًا كَانَ أَوْ تَلْوِيحًا.

وكَذَلِكَ مَنْ لَعَنَهُ أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، أَوْ تَمَتَّى مَضَرَّةً لَهُ، أَوْ نَسَبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِهِ عَلَى طَرِيقِ الذَّمِّ أَوْ الْعَيْبِ فِي جِهَتِهِ الْعَزِيزَةِ بِسُخْفٍ مِنَ الْكَلَامِ وَمُجَرٍّ، وَمُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٍ، أَوْ غَيْرَهُ بِشَيْءٍ بِمَا جَرَى مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِخْنَةِ عَلَيْهِ، أَوْ غَمَصَهُ بِبَعْضِ الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ الْجَائِزَةِ وَالْمَعْهُودَةِ لَدَيْهِ.

وهذا كله إجماعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَثَمَةِ الْفُتُوَى مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَى هَلُمِّ جَزَاءٍ.

وقال أبو بكر بن المنذر: أَجْمَعَ عَوَامُّ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ يُقْتَلُ؛ وَيَمُنَّ قَالِ ذَلِكَ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.

قال القاضي أبو الفضل: وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ.

وبمثلته قال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلم، لكنهم قالوا: هي ردة.

وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك.

وحكى الطبري مثله، عن أبي حنيفة، وأصحابه، فمن تنقضه عليه السلام، أو برىء منه، أو كذبه.

وقال سُخُونُ فِيمَنْ سَبَّ ذَلِكَ رَدَّةٌ كَالرَّذَّةِ.

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته ونكفيره، وهل قُتِلَ خَذًا أو كُفْرًا كما سَبَّيْتُهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا فِي اسْتَبَاحَةِ ذِمَّةِ بَيْنِ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ وَسَلَفِ الْأُئِمَّةِ وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى قَتْلِهِ وَنَكْفِيرِهِ، وَأَشَارَ بَعْضُ الظَّاهِرَةِ - وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ: عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْفَارِسِيِّ - إِلَى الْخِلَافِ فِي نَكْفِيرِ الْمُنْتَقِصِ بِهِ وَالْمَعْرُوفِ مَا قَدْ مَاءَ.

قال محمد بن سُخُونُ: أجمع العلماء أن شتم النبي ﷺ المنتقض له كافر. والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله له، وحُكْمُهُ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْقَتْلُ، وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِهِ وَعَذَابِهِ كَفَر.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة لقوله - عن النبي ﷺ -: صَاحِبُكُمْ.

وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتلهم إذا كان مسلماً.

وقال ابن القاسم، عن مالك، في «كتاب ابن سُخُون» و«المبسوط» و«الغنية»، وحكاة مطرف، عن مالك، في «كتاب ابن حبيب»: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قُتِلَ، وَلَمْ يُسْتَب.

قال ابن القاسم في «الغنية»: مَنْ سَبَّ أَوْ شَتَمَ أَوْ عَابَ أَوْ تَنَقَّصَ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَحُكْمُهُ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْقَتْلُ كَالرُّنْدِيقِ وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيرَهُ وَبَرَّهَ. وَفِي «المبسوط» عن عثمان بن كنانة: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قُتِلَ، أَوْ ضَلَبَ خَبًا، وَلَمْ يُسْتَب، وَالْإِمَامُ مُجَبَّرٌ فِي صَلْبِهِ حَيًّا أَوْ قَتْلًا.

ومن رواية أبي المفضل، وابن أبي أويس: صَمَغْنَا مَالِكًا يَقُولُ: مَنْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَوْ شَتَمَهُ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ تَنَقَّصَهُ، قُتِلَ - مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا - وَلَا يُسْتَب.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَب.

وقال أَصْبَحَ: يُقْتَلُ على كل حالٍ أَسْرَ ذلك أو أَظْهَرُهُ؛ ولا يُسْتَتَابُ؛ لأنَّ توبته لا تعرف.

وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ من مسلم أو كافرٍ قُتِلَ ولم يُسْتَبَّ.

وحكى الطبريُّ فيه مثله، عن أَشْهَبَ، عن مالك.

ورَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عن مالك: مَنْ قال: إِنَّ رِداءَ النَّبِيِّ ﷺ - ويروى: زَرَّ النَّبِيَّ ﷺ - وَسَبَّحَ؛ أَرَادَ بِهِ عَيْنَهُ: قُتِلَ.

وقال بعضُ علمائنا: أَجْمَعَ العلماءُ على أَنَّ من دعا على نبيٍّ من الأنبياء بالويلِ، أو بشيءٍ من المكروه أنه يقتل بلا استتابة.

وَأَفْتَى أَبُو الْحَسَنِ الْقَابِسِيُّ فيمن قال في النَّبِيِّ ﷺ: الْحَمَالُ؛ يَتِيمُ أَبِي طَالِبٍ - بِالْقَتْلِ.

وَأَفْتَى أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ بِقَتْلِ رَجُلٍ سَمِعَ قَوْمًا يَتَذَكَّرُونَ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ مَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ وَاللَّخِيَةِ؛ فقال لهم: تريدون تعرفون صِفَتَهُ؟ هي في صِفَةِ هَذَا الْمَارِّ فِي خَلْقِهِ وَلَحِيَّتِهِ. قال: ولا تُقْبَلُ توبته.

وقد كَذَبَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وليس يخرج ذلك من قلبِ سليم الإيمان.

وقال أحمد بن أبي سليمان - صاحبُ سُخُنُونَ -: مَنْ قال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان أسودَّ يُقْتَلُ.

وقال في رَجُلٍ قيل له: لا، وحقُّ رسولِ الله! فقال: فعل الله برسولِ الله كذا وكذا، وذكر كلاماً قبيحاً؛ ف قيل له: ما تقول؟ يا عَدُوَّ الله! فقال أَشَدُّ من كلامه الأول؛ ثم قال: إنما أردتُ برسولِ الله العُقْرَب. فقال ابنُ أبي سليمان الذي سأله: اشْهَدْ عليه وأنا شريكك يُرِيدُ: في قَتْلِهِ وَثَوَابِ ذلك.

قال حبيب بن الربيع: لأنَّ ادِّعَاءَهُ التَّأْوِيلَ في لَفْظِ صُرَاحٍ لا يُقْبَلُ؛ لأنَّه امتهان؛ وهو غَيْرُ مُعَزَّزٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولا مُؤَقَّرٌ له؛ فوجب إباحةُ دَمِهِ.

وَأَفْتَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّابٍ - في عَشَّارٍ؛ قال لرجل: أَدَّ، واشكُ إلى النَّبِيِّ ﷺ؛ وقال: إِنْ سَأَلْتُ أَوْ جَهِلْتُ، فقد جَهِلَ وسأل النَّبِيَّ ﷺ - بِالْقَتْلِ.

وَأَفْتَى فقهَاءُ الْأَنْدَلُسِ بِقَتْلِ ابْنِ حَاتِمِ الْمُتَّقِفِ الطَّلِيْطَلِيِّ وَصَلَبِهِ بما شهد عليه به من استخفافه بحق النَّبِيِّ ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وَخَتَنَ حَيْدَرَهُ، وزغمه أَنَّ رُؤْسَهُ لم يكن قَصْدًا؛ ولو قَدَّر على الطيِّيات أكلها، إلى أَشْبَاءِ لهذا.

وَأَفْتَى فقهَاءُ الْقَيْرَوَانِ وَأَصْحَابُ سُخُنُونَ بِقَتْلِ إِبْرَاهِيمَ الْفَزَارِيِّ، وكان شاعراً

مُتَقَنِّناً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ، وَكَانَ مِمَّنْ يَخْضُرُ مَجْلِسَ الْقَاضِي أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ طَالِبٍ لِلْمَنَاطَرَةِ، فَرُفِعَتْ عَلَيْهِ أُمُورٌ مُنْكَرَةٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الْإِسْتِهْزَاءِ بِاللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَاحْضَرُ لَهُ الْقَاضِي يَحْيَى بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَصَلَبِهِ؛ فَطُعِنَ بِالسَّكِينِ، وَصَلَبَ مُنْكَسَأً؛ ثُمَّ أُنْزِلَ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ.

وَحَكَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَتْ خَشِيعَتُهُ، وَرَأَتْ عَنْهَا الْأَيْدِي اسْتَدَارَتْ، وَحَوَلَتْهُ عَنِ الْقَيْلَةِ؛ فَكَانَ آيَةً لِلْجَمِيعِ، وَكَبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ كُلُّ فَوْلَعٍ فِي ذِمَّتِهِ؛ فَقَالَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٧٦١ - وَذَكَرَ حَدِيثًا عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُلَاحِظُ الْكَلْبُ فِي دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ».

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَرَاتِ: مَنْ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَزِمَ يُسْتَتَابُ، فَإِنَّ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؛ لِأَنَّهُ تَقْصُّصٌ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي خَاصَّتِهِ، إِذْ هُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَقِينُ مِنْ عَصَمَتِهِ.

وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ رُبِيعٍ الْقُرَوِيُّ: مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ أَنَّ مَنْ قَالَ فِيهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا فِيهِ تَقْصُّصٌ، قُتِلَ ذُونُ اسْتِتَابَةٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَنَابٍ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مُوجِبَانِ أَنَّ مَنْ قَصَدَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَذَى أَوْ تَقْصُّصٍ، مَعْرُضاً أَوْ مَصْرُحاً - وَإِنْ قُلَّ - فَقُتِلَ وَاجِبٌ. فَهَذَا الْبَابُ كُلُّهُ مِمَّا عَدَّهُ الْعُلَمَاءُ سَبًّا وَتَقْصُّصاً يَجِبُ قَتْلُ قَائِلِهِ، لَمْ يَخْتَلَفْ فِي ذَلِكَ مُتَقَدِّمُهُمْ وَلَا مُتَأَخِّرُهُمْ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي حَكْمِ قَتْلِهِ عَلَى مَا أَشْرَحْنَا إِلَيْهِ وَنَبِّئْتُهُ بَعْدَ أَيْضاً. إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَكَذَلِكَ أَقُولُ: خُكْمُ مَنْ غَمَصَهُ أَوْ غَبَّرَهُ بِرِعَابَةِ الْغَنَمِ، أَوْ السَّهْوِ، أَوْ النِّسْيَانِ، أَوْ السَّخْرِ، أَوْ مَا أَصَابَهُ مِنْ جُرُوحٍ أَوْ هَزِيمَةٍ لِبَعْضِ جِيوشِهِ، أَوْ أَذَى مِنْ عَدُوِّهِ، أَوْ شِدَّةٍ مِنْ رَمِيهِ، أَوْ بِالْمِيلِ إِلَى نِسَائِهِ؛ فَخُكْمُ هَذَا كُلِّهِ - لِمَنْ قَصَدَ بِهِ تَقْصُّصَهُ - الْقَتْلُ.

فصل

فِي الْخُبَّةِ فِي إِنْجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ أَوْ عَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فَمِنْ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ لُغَةُ اللَّهِ لِمُؤَدِّيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقِرَائَتُهُ تَعَالَى أَدَاهُ بِأَدَاهِ، وَلَا خِلَافَ فِي قَتْلِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ، وَأَنَّ اللَّغْنَ إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُ مَنْ هُوَ كَافِرٌ، وَخُكْمُ الْكَافِرِ الْقَتْلُ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ وَأَمَدَ لَكُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال - في قاتل المؤمنين مثل ذلك؛ فَمِنْ لَعْنَتِهِ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ؛ بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونَتِ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا فَنَبِيلاً ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال في - الْمُحَارِبِينَ، وذكر عقوبتهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد بَقِيَ الْقَتْلُ بمعنى اللُّغْن؛ قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لِّلْمُرْصُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الذاريات: ١٠] أي لعنهم الله. و ﴿فَنَلَّهَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ﴾ [المنافقون: ٤] أي: لعنهم الله؛ ولأنه فَرَّقَ بَيْنَ إِذَا هُمَا وَأَذَى الْمُؤْمِنِينَ؛ فقال في أذى المؤمنين ما دُونَ الْقَتْلِ؛ مِنَ الضَّرْبِ وَالتَّكَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ أَحْصَوْا بُهْتَانَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٨]. وَكَانَ حُكْمُ مَنْ يُؤْذِي اللَّهَ وَنَبِيَّهُ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ؛ وهو القتل. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فسلب اسم الإيمان عَمَّنْ وَجَدَ فِي صَدْرِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَائِهِ، وَلَمْ يَسْلَمْ لَهُ؛ وَمَنْ تَقَضَّه فَقَدْ نَاقَضَ هَذَا.

وقال الله تعالى: ﴿يَبْتَغِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجرات: ٢]. وَلَا يُخْبِطُ الْعَمَلُ إِلَّا الْكُفْرَ، وَالْكَافِرُ يُقْتَلُ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ...﴾ [المجادلة: ٨]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَنَسِيَ الْمَصِيرَ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٧﴾﴾ لَا تَقْنَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ إِن تَقَفْ عَنْ مَا لَقُوا مِنْكُمْ تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال أهل التفسير: ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بِقَوْلِكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ.

١٧٦٢ - وأما الأناز فحدثنا الشيخ أبو عبد الله: أحمد بن محمد بن علي بن

عن الشيخ أبي قز الهروي إجازة، قال: حدثنا أبو الحسن الدارقطني، وأبو غمر بن
حيوة، قالوا: حدثنا محمد بن نوح، حدثنا عبدالعزيز بن محمد بن الحسن بن
زيادة، حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر، عن علي بن موسى، عن أبيه، عن
جده، عن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن الحسين بن علي، عن أبيه،
أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فَاقْتُلُوهُ، وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

١٧٦٣ - وفي الحديث الصحيح: أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف.

وقوله: «مَنْ لَكَبَّ بِنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري (٥٢١٠)، مسلم
(١٨٠١)]. ووجه إليه من قتله غيلة دون دعوة، بخلاف غيره من المشركين وعُمل
قتله بأذاه له، فدل أن قتله إياه لغير الإضرار، بل للأذى.

١٧٦٤ - وكذلك قتل أبا رافع، قال البراء: وكان يؤذي رسول الله ﷺ،

ونعين عليه [البخاري (٤٠٣٩)].

١٧٦٥ - وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل، وجاريتيه اللتين كانتا معه

نُعَيَّانَ بِسَبِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

١٧٦٦ - وفي حديث آخر أن رجلاً كان يسبُّه عليه السلام، فقال: «مَنْ

يَكْفِبْنِي عَنْوِي؟» فقال خالد: أنا، يا رسول الله! فبعثه ﷺ فقتله.

وكذلك قتل جماعة ممن كانوا يؤذونه من الكفار ويسبونه كالنضر بن
الحارث، وعقبة بن أبي معيط.

وعهد بقتل جماعة منهم قبل الفتح وبغده، فقتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل
القدرة عليه.

١٧٦٧ - وقد روى البراء، عن ابن عباس - أن عقبة بن أبي معيط نادى: ما

مفسر فريش! مالي أقتل من بينكم صبراً؟ فقال له ﷺ: «بِكُفْرِكَ وَافْتِرَاكِ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

١٧٦٨ - وذكر عبد الرزاق أن النبي ﷺ سبَّه رجل، فقال: «مَنْ يَكْفِبْنِي

عَنْوِي؟» فقال الزبير: أنا، فبارزه فقتله الزبير.

١٧٦٩ - وروى أيضاً أن امرأة كانت تسبُّه عليه السلام، فقال: «مَنْ يَكْفِبْنِي

عَنْوِي؟» فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها.

١٧٧٠ - وروى أن رجلاً كذب على النبي ﷺ، فبعث غليلاً والزبير إليه

ليقتلوه.

١٧٧١ - وَرَوَى ابْنُ قَانِعٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ فِيكَ قَوْلًا قَبِيحًا فَقَتَلْتُهُ! فَلَمْ يَشُقْ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

١٧٧٢ - وَبَلَغَ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ - أَمِيرَ الْيَمَنِ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ امْرَأَةً هُنَاكَ فِي الرَّدَةِ غُنَّتْ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَطَعَ يَدَهَا، وَنَزَعَ ثِيْبَهَا، فَبَلَغَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: لَوْلَا مَا فَعَلْتَ لَأَمَرْتُكَ بِقَتْلِهَا، لِأَنَّ حَدَّ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ بِشِبْهِ الْحُدُودِ.

١٧٧٣ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَجَبَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَطَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ لِي بِهَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهَا: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَهَضَّ فَقَتَلَهَا، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَا يَنْتَظِعُ فِيهَا عَتْرَانٍ».

١٧٧٤ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمٌّ وَلَدِ تَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْتَزِجُرُ، فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقْعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتُسْتَمِهُ، فَقَتَلَهَا، وَأَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَأَهْدَرَ دَمَهَا [أَبُو دَاوُدَ (٤٣٦١)، النَّسَائِيُّ (١٠٧-١٠٨)].

١٧٧٥ - وَفِي حَدِيثٍ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ: كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَغَضِبَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَحَكَى الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ - وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ: أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ - وَقَدْ أَغْلَظَ لِرَجُلٍ فَرَدُّ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ! دَغْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ: اجْلِسْ، فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَبُو دَاوُدَ (٤٣٦٣)، النَّسَائِيُّ (١٠٩/٧، ١١١)، أَحْمَدُ (١٠/١)].

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ نَصْرٍ: وَلَمْ يَخَالَفْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَاسْتَدَلَّ الْأَثَمَةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَغْضَبَ النَّبِيَّ ﷺ بِكُلِّ مَا أَغْضَبَهُ، أَوْ آذَاهُ أَوْ سَبَّهُ. وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَامِلِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ اسْتَشَارَهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ سَبَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَيْهِ: إِنَّهُ لَا يَجِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِسَبِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلًا سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ حَلَّ دَمُهُ.

وَسَأَلَ الرَّشِيدُ مَالِكًا فِي رَجُلٍ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ فَهَاءَ الْعِرَاقِ أَقْتَوْهُ بِجَلْدِهِ، فَغَضِبَ لَذَلِكَ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا بَقَاءُ الْأُمَّةِ بَعْدَ شَتْمِ نَبِيِّهَا! مَنْ شَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ يُجْلَدُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ، رَوَاهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ أَصْحَابِ فَتَاوَى مَالِكٍ، وَمَوْئِلَفِي أَخْبَارِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَا أَدْرِي مَنْ

هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر؟ وقد ذكرنا مذهب العرافيين بقتله، ولعلمهم ممن لم يشهر بعلم، أو من لا يوثق بقنواه، أو يميل به هواه، أو يكون ما قاله يختم على غير السب، فيكون الخلاف هل هو سب أو غير سب؟ أو يكون رجوع وتاب عن سبه، فلم يقتله لمالك على أضله، وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه.

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أن من تنقصه - عليه السلام - أو سبه فقد ظهرت علامة مرض قلبه، ونبرهان بر طويته وكفره، ولهذا حكم له كثير من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وقول الثوري، وأبي حنيفة، والكوفيين.

والقول الآخر: أنه دليل على الكفر، فيقتل حداً، وإن لم يخكم له بالكفر إلا أن يكون متنادياً على قوله، غير منكر له، ولا مقلع عنه، فهذا كافر، وقوله: أما صريح كفر الكاذب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذم، فاعتراه بها ونزك توبته عنها دليل استيخال له لذلك، وهو كفر أيضاً، فهذا كافر بلا خلاف، قال الله تعالى في مثله: ﴿يَجْلُوفُونَكَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كُفَّةً الْكُفْرَ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقاً لئحس شر من الحمير.

وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل محمد إلا كقول القاتل: سمن كليلك يأكلك وأجفة يتغلك، ولئن رجعنا إلى المدينة لئخرجن الأعر من هنا الأذل.

١٧٧٦ - وقد قيل: إن قاتل مثل هذا، إن كان مستنيراً به إن حكمه حكم الزنديق يقتل، ولأنه قد غير دينه، وقد قال عليه السلام: «من غير دينه فاضربوا عنقه» [البخاري (٣٠١٧)] ولأن لحكم النبي ﷺ في الخزمية مريئة على أمته، وسأ الحز من أمته يحد، فكانت العقوبة لمن سبه - عليه السلام - القتل، لعظيم قدره، وشعوب منزلته على غيره.

فصل

في أسباب عفوه ﷺ عن بغض من آذاه

١٧٧٧ - فإن قلت: فلم لم يقتل النبي ﷺ اليهودي الذي قال له: السام عليكم [البخاري (٦٩٢٦)]، وهذا دعاء عليه.

١٧٧٨ - ولا قَتَلَ الْآخَرَ الَّذِي قَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، وقد تَأَذَّى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، وقال: «قد أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ» [البخاري (٣١٥٠)، مسلم (١٠٦٢)] ولا قتل المنافقين الذين كانوا يُؤذُونَهُ فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ؟

١٧٧٩ - فاعلم - وَقَفْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنْ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ النَّاسَ، وَيُمِيلُ قُلُوبَهُمْ إِلَيْهِ وَإِلَى مُحَبَّتِهِ وَيَحْبِبُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَزِينَتَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَدَارِيهِمْ، ويقول لأصحابه: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُنْفِرِينَ» [البخاري (٢٢٠)].

١٧٨٠ - ويقول: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنْفِرُوا» [البخاري (٦١٢٥)، مسلم (١٧٣٤)].

١٧٨١ - ويقول: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

وكان ﷺ يُدَارِي الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُجَمِّلُ صُخْبَتَهُمْ، وَيُغْضِي عَلَيْهِمْ، وَيَحْتَمِلُ مِنْ أَذَاهُمْ، وَيَصْبِرُ عَلَى جَفَائِهِمْ مَا لَا يَجُوزُ لَنَا الْيَوْمَ الصَّبْرُ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُزِفُّهُمْ بِالْعَطَاءِ وَالْإِحْسَانِ، وَبِذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَلْقٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [المائدة: ١٣].
وقال تعالى: «أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» [فصلت: ٣٤].

وذلك لحاجة النَّاسِ لِلتَّأْلَفِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ، وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ كُلَّهُ قَتَلَ مَنْ أَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، كَفِغْلُهُ بَابِنِ حَظَلٍ، وَمَنْ عَهْدَ بِقَتْلِهِ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَمَنْ أَمَكَنَهُ قَتْلُهُ غِيْلَةً مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ غَلْبَةً يَمُنُّ لَمْ يَنْظُمْنَاهُ قَبْلُ سِلْكَ صُخْبَتِهِ، وَالْإِنْخِرَاطُ فِي جُمْلَةِ مُظْهِرِي الْإِيمَانِ لَهُ يَمُنُّ كَانَ يُؤْذِيهِ، كَابِنِ الْأَشْرَفِ، وَأَبِي رَافِعٍ، وَالتَّضَرُّرِ، وَغُفَّةٍ.

وكذلك نَذَرَ دَمَ جَمَاعَةٍ سِوَاهُمْ، كَكُفْبِ بْنِ زَهِيرٍ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمَا مَنْ أَذَاهُ حَتَّى أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَقَوْهُ مُسْلِمِينَ.

وَبَوَاطِنُ الْمُنَافِقِينَ مُسْتَبْرَأَةٌ، وَحُكْمُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الظَّاهِرِ، وَأَكْثَرُ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا كَانَ يَقُولُهَا الْقَائِلُ مِنْهُمْ خُفْيَةً، وَمَعَ أَمَثَالِهِ الْكُفَّارِ وَيَحْلِفُونَ عَلَيْهَا إِذَا نُمِيتَ، وَيَنْكُرُونَهَا، وَ«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» [التوبة: ٧٤]، وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ هَذَا يَطْمَعُ فِي قِيَّتِهِمْ، وَرَجَوْعِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَوْبَتِهِمْ، فَيَصْبِرُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى هَتَاتِهِمْ وَجَفَوْتِهِمْ، كَمَا صَبَرَ

أولوا العزم من الرُّسل حتى فاء كثير منهم باطناً، كما فاء ظاهراً، وأخلص سبراً
كما أظهر جهراً، وتقع اللُّة بغد بكثير منهم، وقام منهم للدين وُراء وأعاون
وَحَمَاء وأنصار كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بغض أئمتنا رحمهم اللُّة عن هذا السؤال وقال: لعله لم يثبت
عنده - عليه السلام - من أقوالهم ما رفع، وإتما نقله الواحد، ومن لم يصل رتبة
الشهادة في هذا الباب، من صبي، أو غبيد، أو امرأة، والدماء لا تستباح إلا
بغذلين.

١٧٨٢ - وعلى هذا يخمل أمر اليهود في السلام، وأنهم لوأ به ألسنتهم،
ولم يبيئوه، ألا ترى كيف نتهت عليه عائشة، ولو كان صرح بذلك لم تنفرد
بعلمه، ولهذا نبه النبي ﷺ أصحابه على فعلهم، وفلة صدقهم في سلامهم،
وخبائثهم في ذلك، لبأ بالسنتهم، وطغناً في الدين، فقال: «إن اليهود إذا سلم
أحدكم فإنما يقول: السام عليكم، فقولوا: عليكم».

وكذلك قال بعض أصحابنا البيهقيين: إن النبي ﷺ لم يقتل المنافقين
بعلمه فيهم، ولم يأت أنه قامت بيته على بقاتهم، فلذلك تركهم.

وأيضاً فإن الأمر كان سبراً وباطناً، وظاهرهم الإسلام والإيمان، وإن كان من
أهل الذمة بالعهد والجوار، والسام قريب عهدهم بالإسلام، ولم يتميز بغد
الخيث من الطيب.

وقد شاغ عن المذكورين في العرب كون من ينهم بالتفافي من جملة
المؤمنين وصحابة سيد المرسلين، وأنصار الدين يحكم ظاهريهم، فلو قتلهم
النبي ﷺ لفاقهم وما يندز منهم، وعلمه بما أسروا في أنفسهم لوجد المتفر
ما يقول، ولازنا الشارد، وأزحف المعائد، وارتاع من صحبة النبي ﷺ،
والدخول في الإسلام غير واحد، ولزعم الزاعم وطعن العدو الظالم - أن القتل
إنما كان للعداوة وطلب أخذ الثرة.

١٧٨٣ - وقد رأيت معنى ما حرزته منسوباً إلى مالك بن أنس رحمه الله
ولهذا قال عليه السلام: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

١٧٨٤ - وقال: «أولئك الذين نهاني اللُّة عن قتلهم».

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الرنا والقنل وشبهه،
لظهورها واستواء الناس في علمها.

وقد قال محمد بن المَوَاز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي ﷺ،
وقاله القاضي أبو الحسن بن القَصَّار.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمْ ثَرْ يَكْفِيهِمُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثَمَّ لَا يُمْكِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ۝١٦﴾ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ لَكُمْ تَبْدِيلًا ۝١٧﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

قال: معناه إذا أظهروا النفاق.

وحكى محمد بن مسلمة في «المبسوط» عن زيد بن أسلم في قوله تعالى:
﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. أنها نَسَخَتْ ما
كان قَبْلَهَا.

وقال بعض مشايخنا: لعلَّ القائل: هذه قسمة ما أريد بها وَجْهُ اللَّهِ. وقوله:
- اغْدِلْ - لم يفهم النبي ﷺ منه الطَّغْنُ عليه، والتهمة له، وإنما رآها مِنْ وَجْهِ
الغَلَطِ في الرأْي، وأمور الدنيا، والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سبًّا،
ورأى من الأذى الذي له العفو عنه، والضبرُ عليه، فلذلك لم يعاقبه.

وكذلك يُقَالُ في اليهود قالوا: السَّامُ عليك. ليس فيه صريحُ سَبٍّ ولا دعاء
إلا بما لا بُدَّ مِنْهُ من الموت الذي لا بُدَّ من لحاقه جميعَ البَشَرِ.

وقيل: بل المراد: تَسَامُونَ دينكم. والسَّامُ والسَّامَةُ: المَلَالُ.

وهذا دعاء على سامةِ الذين ليس بصريح سَبٍّ، ولهذا تَرَجَّم البخاري على
هذا الحديث: «باب: إذا عَرَّضَ الذَّمُّيُّ أو غَيَّرَهُ بسبِّ النبي ﷺ».

قال بعض علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسبِّ، وإنما هو تعريض بالأذى.

قال القاضي أبو الفضل: قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الأذى والسبَّ في حقه - عليه السلام -
سواء.

وقال القاضي أبو محمد بن نَصْر مُجِيباً عن هذا الحديث ببعض ما تقدَّم،
ثم قال: ولم يذكُر في هذا الحديث: هل كان هذا اليهوديُّ من أهلِ العَهْدِ والذمة
أو الحرب؟

ولا يتركُ مُوجِبُ الأدلة للأمر المُخْتَمَل.

والأولَى في ذلك كله والأظهرُ مِنْ هذه الوجوه مَقْصِدُ الاستتلافِ والمدارة
على الدين لعلهم يؤمنون.

ولهذا تَرَجَّم البخاري على حديثِ القِسْمة والخوارج: «باب: مَنْ ترك قتالَ

الخوارج للتألف ولئلا ينفّر الناس عنه، ولما ذكرنا معناه عن مالك بن أنس، وفرزناه قبل.

وقد صبر لهم عليه السلام على سيّره وسنّه، وهو أعظم من سنّه إلى أن نصّره الله تعالى عليهم، وأذن له في قتل من حبه منهم، وإنزالهم من صباصبهم، وقذف في قلوبهم الرّغبت، وكتب على من شاء منهم الجلاء، وأخرجهم من ديارهم، وخرّب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

١٧٨٥ - وكاشفهم بالسّب، فقال: «يا إخوة القردة والخنازير».

وحكّم فيهم سيوف المسلمين، وأجلّاهم من جوارهم وأورنهم أرضهم وديارهم وأموالهم، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

١٧٨٦ - فإن قلت: فقد جاء في الحديث الصحيح، عن عائشة رضي الله عنها أنه - عليه السلام - ما انتقم لنفسه في شيء قط يؤتى إليه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لها.


فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم ممن سنّه، أو آذاه، أو كذبه، فإن هذه من حرّمات الله التي انتقم لها، وإنما يكون ما لا ينتقم له فيما تعلّق بسوء أدب، أو معاملة، من القول، والقعل، بالنفس والمال، مما لم يفيض فاعله به آذاه، لكن مما خيلت عليه الأعراب من الحقاء، والجهل، أو خيل عليه البشر من الغفلة.


١٧٨٧ - كجند الأعرابي بإزاره [البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧)] حتى أثر في عقه.

١٧٨٨ - وكرفع صوت الآخر عنده.

١٧٨٩ - وكجند الأعرابي شراهه منه قرصه التي شهد فيها خزيمة.

١٧٩٠ - ولما كان من تظاهر زوجته عليه [البخاري (٤٩١٤)، مسلم (١٤٧٩)]، وأشباه هذا مما يخصن الصّفح عنه.

وقد قال بعض علمائنا: إن أدى الشّيء  حرام، لا يجوز فعل مباح ولا غيره. وأما غيره من الناس فيجوز فعل مباح ممّا يجوز للإنسان فعله، وإن نادى به غيره. واحتج بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحراب: ٥٧].

١٧٩١ - ويقول - عليه السلام - في حديث فاطمة: «إنها بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإنّي لا أحرم ما أحلّ الله، ولكن لا تجتمع ابنة رسول الله 

وابنة عدو الله عند رجل أبدأه أو يكون هذا مما آذاه به كافرٌ وجاء بعد ذلك إسلامه، كَعَفْوِهِ عن اليهودي الذي سَحَرَهُ، وعن الأعرابي الذي أراد قَتْلَهُ، وعن اليهودية التي سَمَّتُهُ، وقد قيل: قتلها.

ومثل هذا مما يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين، فصفح عنهم رجاء استئلافهم واستئلاف غيرهم بهم كما قرزناه قبل، وبالله التوفيق.

فصل

في حكم من تنقص النبي ﷺ غير قاصد للسب والإزراء ولا مُعْتَقِدَ لَهُ

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: تقدم الكلام في قتل القاصد لسبه والإزراء به، وغَمَصِهِ بأي وجه كان من مُمكنٍ أو محالٍ، فهذا وجهٌ بين لا إشكال فيه.

والوجه الثاني: لاجئ به في البيان والجلاء، وهو أن يكون القائل لما قال في جهته - عليه السلام - غير قاصد للسب والإزراء، ولا معتقد له ولكنه تكلم في جهته - عليه السلام - بكلمة الكُفْرِ: من لَغِنِهِ، أو سَبِهِ، أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه إليه، أو نفي ما يجب له، مما هو في حقه عليه السلام نقيصة، مثل أن ينسب إليه إثباتٌ كبيرة، أو مداينة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس، أو يُغَضُّ من مرتبته، أو شرف نسبه، أو وفور علمه أو زُهدِهِ، أو يكذب بما اشتهر من أمورٍ أخبر بها - عليه السلام - وتواتر الخبر بها عنه، عن قَصْدٍ لردِّ خبره، أو يأتي بسفهٍ من القول، وقبيح من الكلام، ونوع من السب في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمد دمه، ولم يقصد سبه، إما لجهالة حملته على ما قاله، أو لضجر أو سُكْرٍ اضطره إليه، أو قلة مراقبة، وضبط للسانه، وعَجْزُهُ، وتهور في كلامه، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول: القتل دون تلغثم، إذ لا يُعَذَّرُ أحدٌ في الكُفْرِ بالجهالة، ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه، إذ كان عقله في فطرته سليماً، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزهد عن رسول الله ﷺ الذي قدمناه.

وقال محمد بن سُخْنُون في المأسور يسب النبي ﷺ في أيدي العدو: يُقْتَل، إلا أن يُعْلَمَ تنصُّرُهُ أو إكراهه.

وعن أبي محمد بن أبي زيد: لا يُغْدَرُ بدغوى زَلَلِ اللسانِ في مثلِ هذا.
وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن شتم النبي ﷺ في سكره: يُقتل، لأنه يُظنُّ
به أنه يَعْتَقِدُ هذا وَيَفْعَلُهُ في صَحْوِهِ.

وأيضاً فإنه حَدٌّ لا يُسْقِطُهُ السُّكْرُ، كالقَذْفِ، والقتلِ، وسائر الحدودِ، لأنه
أدخله على نفسه، لأنَّ مَنْ شَرِبَ الخمرَ على عِلْمٍ مِنْ زوالِ غِفلته بها، وإثباتِ ما
يُنْكَرُ منه، فهو كالعابِدِ لما يَكُونُ بِسَبِيهِ.

وعلى هذا أَلَزَمْنَا الطَّلَاقَ والعَتَاقَ، والقِصَاصَ والحدودَ.

١٧٩٢ - ولا يُغْتَرَضُ على هذا بحديث حمزة، وقوله للنبي ﷺ: وهل أنتم
إلا عبيدٌ لأبي؟ [البخاري (٢٣٧٥)، مسلم (١٩٧٩)].

قال: فعرف النبي ﷺ أنه ثَمَلٌ فانصرف وتركه، لأنَّ الخمرَ كانت حينئذٍ
غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، فلم يَكُنْ في جناباتها إثمٌ، وكان حُكْمُ ما يحدثُ عنها مَغْفُوراً عنه كما
يحدثُ من النومِ، وشربِ الدواءِ المأمونِ.

فصل

في حُكْمِ مَنْ تَنَقَّضَ النَّبِيُّ ﷺ قَاصِداً لِذَلِكَ

الوجه الثالث: أنْ يَقْصِدَ إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به، أو يَنْفِي نبوته، أو
رسالته، أو وجوده، أو يكْفُرَ به، انتقل بقوله ذلك إلى دين آخر غير مِلَّتِهِ أم لا،
فهذا كافرٌ بإجماع، يجبُ قَتْلُهُ، ثم يُنْظَرُ، فإن كان مُضْراً بِذلك كان حُكْمُهُ أَشْبَهَ
بِحُكْمِ المرتدِّ، وقوي الخلاف في استتابته.

وعلى القول الآخر: لا يُسْقِطُ القَتْلُ عند توبته لِحقِّ النبي ﷺ، إن كان
ذكره بنقيصة فيما قاله مِنْ كَذِبٍ أو غيره، وإن كان مُسْتَتِراً بِذلك فحُكْمُهُ حُكْمُ
الزنديق لا تُسْقِطُ قَتْلُهُ التوبةُ عندنا كما سنبينه.

قال أبو حنيفة وأصحابه: مَنْ بَرِيَءٌ مِنْ مُحَمَّدٍ، أو كَذَّبَ به، فهو مُرْتَدٌّ
حَلَالٌ الدَّمُ إِلَّا إِنْ رَجَعَ.

وقال ابن القاسم في المسلم إذا قال: إنَّ محمداً ليس بنبيٍّ، أو لم يُرْسَلْ،
أو لم يُنْزَلْ عليه قرآنٌ، وإنما هو شيءٌ تقوله: يُقْتَلُ.

قال: وَمَنْ كَفَرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْكَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فهو بمنزلة المرتدِّ،
وكذلك مَنْ أَعْلَنَ بِتَكْذِيبِهِ، إنه كالمرتدِّ يُسْتَتَابُ.

وكذلك قال، فيمن تنبأ وزعم أنه يوحى إليه. وقاله سُحنون.

قال ابن القاسم: دعا إلى ذلك سِرّاً كان أو جَهْراً.
 قال أَصْبَغُ: وهو كالمُرْتَدِّ، لأنه قد كفر بكتاب الله مع الفِرْزَةِ على الله.
 قال أَشْهَبُ في يهودي تنبأ أو زعم أنه أُرْسِلَ إلى الناس أو قال: بعد نبيكم
 نبي: إنه يُسْتَنَابُ إن كان مُغْلَباً بذلك، فإن تاب وإلا قُتِلَ.
 ١٧٩٣ - وذلك لأنه مَكْذَبٌ للنبي ﷺ في قوله: «لا نبي بعدي» [البخاري
 (٤٤١٦)، مسلم (٢٤٠٤)] مُفْتَرٍ على الله تعالى في دَعْوَاهُ عليه للرسالة والنبوة.
 وقال محمد بن سُخْتُون: مَنْ شَكَّ في حَرْفٍ مما جاء به محمد ﷺ عن الله
 فهو كافر جاحدٌ.

وقال: مَنْ كَذَبَ النبي ﷺ كان حُكْمُهُ عند الأئمة القَتْلُ.
 وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سُخْتُون، مَنْ قال: إِنَّ النبي ﷺ أَسُودُ
 قُتِلَ، فإنه لم يكن - عليه السلام - بِأَسُودَ.
 وقال نحوه أبو عثمان الحَذَاد، قال: لو قال: إنه مات قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِجِي، أو
 إنه كان يَتَأَهَّرَتْ ولم يكن بِيَتَّهَمَةً قُتِلَ، لَأَنَّ هذا نَفْيٌ.
 قال حبيب بن ربيع: تَبْدِيلُ صِفَتِهِ وَمَوَاضِعِهِ كُفْرٌ، والمَظْهَرُ له كافر، وفيه
 الاستتابة، والمُسِيرُ له زِنْدِيقٌ، يُقْتَلُ دُونَ اسْتِتَابَتِهِ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلَاماً يَخْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الْكَلَامِ بِمُجْمَلٍ، وَيُلْفِظُ مِنَ الْقَوْلِ بِمُشْكَلٍ يُمْكِنُ
 حَمْلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ يَتَرَدَّدُ فِي الْمُرَادِ بِهِ مِنْ سَلَامَتِهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ أَوْ
 شَرِّهِ، فَمَا هُنَا مُتَرَدَّدُ النَّظَرِ وَخِيَرَةُ الْعِبَرِ، وَمِزْجَةُ اخْتِلَافِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَوَقْفَةُ اسْتِبْرَاءِ
 الْمُقْلَدِينَ «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» [الأنفال: ٤٢]
 فَمِنْهُمْ مَنْ غَلَبَ حُرْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَمَى جَمْعَ عِرْضِهِ، فَجَسَرَ عَلَى الْقَتْلِ، وَمِنْهُمْ
 مَنْ عَظَّمَ حُرْمَةَ الْقَتْلِ وَالْدَّمِ، وَذَرَأَ الْحَدَّ بِالشُّبْهَةِ لِاحْتِمَالِ الْقَوْلِ.
 وقد اختلف أئممتنا في رَجُلٍ أَغْضَبَهُ غَرِيمُهُ، فَقَالَ لَهُ: صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ
 مُحَمَّدٍ، فَقَالَ لَهُ الطَّالِبُ: لَا صَلَّيْ اللَّهُ عَلَى مَنْ صَلَّيَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لِسُخْتُون: هَلْ
 هُوَ كَمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ شَتَمَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، إِذَا كَانَ
 عَلَى مَا وَصَفَتْ مِنَ الْعُضْبِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُضْمِراً الشَّتْمَ.
 وقال أبو إسحاق البَرْقِيُّ، وَأَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ: لَا يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا شَتَمَ

الناس، وهذا نحو قول سخئون، لأنه لم يغذزة بالعصب في شتم النبي ﷺ، ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينة ندل على شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم، ولا مقدمة يحتمل عليها كلامه، بل القرينة ندل على أن مرادة الناس غير هؤلاء، لأجل قول الآخر له: صل على النبي محمد، فحمل قوله وسه لمن يصلي عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غصه.

هذا معنى قول سخئون، وهو مطابق لعلة صاحبه.

وذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيره في مثل هذا إلى القتل وتوقف أبو الحسن القاسمي في قتل رجل قال: كل صاحب فئذني قزنان، ولو كان نبيا مرسلًا، فأمر بشده بالقبود والتصديق عليه حتى تستفهم البينة عن جملة الفاظه، وما يدل على مقصده، هل أراد أصحاب الفئادق الآن؟ فمعلوم أنه ليس فيهم نبي مرسل، فيكون أمره أخف.

قال: ولكن ظاهر لفظة العموم لكل صاحب فئذني من المتقدمين والمتأخرين. وقد كان فيمن تقدم من الأنبياء والرسل من اكتسب المال.

قال: ودم المسلم لا يقدّم عليه إلا بأمر بين. وما ترد إليه التأويلات لا ند من إمعان النظر فيه. هذا معنى كلامه.

وخكي عن أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله - فيمن قال لعن الله العرب، ولعن الله بني إسرائيل، ولعن الله بني آدم، وذكر أنه لم يرد الأنبياء، وإنما أردت الظالمين منهم، أن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان.

وكذلك أفنى، فيمن قال لعن الله من حرّم الضنكر، وقال: لم أعلم من حرّمه.

١٧٩٤ - وفيمن لعن حديث: «لا يبيع حاضر لباد» ولعن من جاء به، أنه إن كان يُعذّر بالجهل وعدم معرفة السّن فعلية الأدب الوجيع، وذلك أن هذا لم يقصد بظاهر حاله سب الله ولا سب رسوله، وإنما لعن من حرّمه من الناس على نحو فتوى سخئون وأصحابه في المسألة المتقدمة.

ومثل هذا ما يخري في كلام سقهاء الناس من قول بعضهم لبعض: بائن ألف خنزير! وابن منه كلب! وشبهه من فحش القول.

ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آياته وأحذاده جماعة من الأنبياء، ولعل بعض هذا العدد منقطع إلى آدم عليه السلام، فيبني الرجز عنه، ونبيين ما جهل فأنله منه، وشدة الأدب فيه.

ولو علم أنه قصد سب من في آياته من الأنبياء على علم القتل.

وقد يضيّق القول في نحو هذا لو قال لرجل هاشمي: لعن الله بني هاشم وقال: أردت الظالمين منهم، أو قال لرجل من ذرية النبي عليه السلام قولاً قبيحاً في آبائه، أو من نسبه، أو ولده على علم منه أنه من ذرية النبي عليه السلام، ولم يكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بغض آبائه، وإخراج النبي عليه السلام ممن سبه منهم.

وقد رأيت لأبي موسى: - عيسى بن مئاس - فيمن قال لرجل: لعنك الله إلى آدم عليه السلام... أنه إن ثبت ذلك عليه قتل.

وقد كان اختلف شيوخنّا فيمن قال لشاهد شهيد عليه شيء ثم قال له: أنتهمني؟ فقال له الآخر: الأنبياء يثهمون، فكيف أنت؟! فكان شيوخنّا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله، ليشاعة ظاهر اللفظ.

وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاختمال اللفظ عنده أن يكون خبراً عن أنهمهم من الكفار.

وأنتى فيها قاضي قرطبة أبو عبدالله بن الحاج بنحو هذا. وشدد القاضي أبو محمد تصفيده، وأطال سجنه، ثم استخلفه بغد على تكذيب ما شهده به عليه، إذ دخل في شهادة بغض من شهد عليه وهن، ثم أطلقه.

وشاهدت شيوخنّا القاضي أبا عبدالله: محمد بن عيسى أيام قضائه أتني برجل هاتر رجلاً اسمه محمد ثم قصد إلى كلب، فصره برجله، وقال له: قم يا محمد! فأنكر الرجل أن يكون قال ذلك، وشهد عليه لفي من الناس، فأمر به إلى السجن، وتقصى عن حاله، وهل يصحب من يستراب بدينه من الناس، أم لا؟ فلما لم يجد ما يقوي الرية باعتقاده ضربه بالسوط وأطلقه.

فصل

في حكم من لم يقصد نقصاً، ولم يذكر عيباً ولا سباً. بل قال قولاً على مقصد الترفيع لنفسه، أو لغيره، أو على سبيل التثليل وعدم التوقير لنبية، أو على قصد الهزل والتثدير

الوجه الخامس: ألا يقصد نقصاً، ولا يذكر عيباً ولا سباً، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه، أو يستشهد ببعض أحواله ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل، والحجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبه به، أو عند

هَضِيمَةً نَالَتْهُ، أَوْ غَضَاضَةً لِحَقَّتْهُ، لَيْسَ عَلَى طَرِيقِ النَّاسِي وَطَرِيقِ التَّحْقِيقِ، بَلْ عَلَى مَقْصِدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ أَوْ لْغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَغَدَمِ التَّوْقِيرِ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ عَلَى قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ بِقَوْلِهِ، كَقَوْلِ الْقَاتِلِ: إِنْ قِيلَ فِي السَّوَاءِ فَقَدْ قِيلَ فِي النَّبِيِّ، وَإِنْ كُذِّبَتْ فَقَدْ كُذِّبَ الْأَنْبِيَاءُ، أَوْ إِنْ أُذْنِبَتْ فَقَدْ أُذْنِبُوا، أَوْ أَنَا أَسْلَمْتُ مِنَ السَّنَةِ النَّاسِ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ، أَوْ قَدْ صَبَرْتُ كَمَا صَبَرَ أَوْلَاؤُا الْعَزَمِ، أَوْ كَصَبَرِ أَيُّوبَ، أَوْ قَدْ صَبَرَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنِ عَدَاةِ، وَخَلَمْتُ عَلَى أَكْثَرِ مَا صَبَرْتُ، وَكَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَذَارَكُهَا اللَّـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ
ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول، المتساهلين في الكلام، كقول المَعْرِي:

كُنْتُ مُوسَى وَاقِفُهُ بَنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمَا مِنْ فَقِيرٍ
على أَنَّ آخَرَ الْبَيْتِ شَدِيدٌ عِنْدَ تَدْبِيرِهِ، وَدَاخِلٌ فِي بَابِ الْإِزْرَاءِ وَالتَّحْقِيرِ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَفْضِيلِ حَالِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ.
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ أَيْضًا:

لَوْلَا انْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَا: مُحَمَّدٌ مِنْ أَبِيهِ بِدِيلٍ
هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جَبْرِيْلُ
فَصَدَّرَ الْبَيْتَ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْفَصْلِ شَدِيدٌ لِتَشْبِيهِهِ غَيْرَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فَضْلِهِ بِالنَّبِيِّ، وَالْعَجْزُ مُحْتَمَلٌ لَوْجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ تَقْصُتُ الْمَدْحَ، وَالْآخَرُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْهَا. وَهَذَا أَشَدُّ.
وَنَحْوُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

وَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاثُهُ صَفَّقْتُ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبْرِيْلٍ
وقول الآخر من أهل العصر:

فَرَّ مِنَ الْخُلْدِ وَاسْتَجَارَ بِنَا فَصَبَّرَ اللَّـهُ قُلُوبَ رِضْوَانٍ
وَكَقَوْلِ حَسَّانِ الْمُصْبِصِيِّ - مِنْ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ - فِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
الْمَعْرُوفِ بِالْمُعْتَمِدِ، وَوَزِيرِهِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ زَيْدُونَ:

كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَبُو بَكْرِ الرِّضَا وَحَسَّانَ حَسَّانُ وَأَنْتَ مُحَمَّدُ

إلى أمثال هذا وإنما كثُرنا بشاهدها مع استِثْقَالنا حكايتها لتعريف أمثلتها، ولتساهل كثير من الناس في ولوج هذا الباب الضنك، واستخفافهم فادح هذا العيب، وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. لا سيما الشعراء. وأشدّهم فيه تصرّحاً، وللسان تَصْرِيحاً ابنُ هانئ الأندلسي، وابن سليمان المَعَرِّي، بل قد خرج كثير من كلامهما إلى حد الاستخفاف والتقصّص وصريح الكُفْرِ.

وقد أجبنا عنه أولاً، وغرضنا الآن الكلام في هذا الفضل الذي سقنا أمثلته، فإن هذه كلها وإن لم تتضمّن سبّاً، ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصاً ولا عيباً، ولست أعني عَجْزِي بَيِّنِي المَعَرِّي، ولا قصد قائلها إزراءً وغَضاً، فما وقر النبوة، ولا عظم الرسالة، ولا عزّز حُرمة الاصطفاء، ولا عزّز حُظوة الكرامة، حتى شبه من شبه في كرامة نالها، أو مَعَرَّة قَصَد الانتفاء منها، أو ضَرَبَ مَثَل لتطبيب مجلسه، أو إغلاؤه في وصف لتحسين كلامه بمن عظم الله خطره، وشرف قدره، وألزم توقيره وبرّه، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوت عنده.

فحقّ هذا - إن دُرِيَ عنه القتل - الأدب والسجُن وقوة تعزيره بحسب شُعْبة مقال، ومقتضى قُبْح ما نطق به، ومألوف عادته لمثله، أو ندوره، وقرينة كلامه، أو ندمه على ما سبق منه، ولم يزل المتقدمون يُنكرون مثلاً هذا ممن جاء به، وقد أنكر الرشيد على أبي نُوَاس قوله:

فإن يك باقي سِخْرِ فرعونَ فيكم فإن عصا موسى يكفّ خَصِيب
وقال له: يا بن اللُخْثاء، أنت المستهزئ بعصا موسى عليه السلام! وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته.

وذكر القُتَيْبِي أن مما أُجِذَ عليه أيضاً، وكُفِّرَ فيه، أو قارب، قوله في محمد الأمين وتشيّبه إياه بالنبي ﷺ حيث قال:

تَنَارَعَ الْأَخْمَدَانِ الشُّبْنَةَ فَاشْتَبَهَا خَلْقاً وَخُلُقاً كَمَا قَدْ الشَّرَاكِانِ
وقد أنكروا عليه أيضاً قوله:

كَيْفَ لَا يُذْنِبُكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ نَفَرِهِ
لأنّ حقّ الرسول عليه السلام وموجب تعظيمه وإنافة منزلته أن يُضَافَ إليه، ولا يُضَاف.

فالحكم في أمثال هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا
إمام مذهبنا مالك بن أنس رحمه الله وأصحابه.

ففي «النوادر» - من رواية ابن أبي مريم عنه - في رجل عَيَّرَ رجلاً بالفقر،
فقال: تُعَيِّرُنِي بِالْفَقْرِ وَقَدْ رَعَى النَّبِيُّ ﷺ الْعَنَمَ؟ فقال مالك: قد عَرَضَ بِذِكْرِ
النَّبِيِّ ﷺ في غير موضعه، أرى أن يؤذَّب، قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا
عُوتِبُوا أَنْ يَقُولُوا: قد أخطأت الأنبياء قبلنا.

وقال عمر بن عبدالعزيز لرجل: انظر لنا كاتباً يكون أبوه غريباً. فقال كاتب
له: قد كان أبو النبي كافراً، فقال: جعلت هذا مثلاً؟ فعزله، وقال: لا يكتب لي
أبداً.

وقد كره سُخْنُونُ أَنْ يَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عند التعجب إلا على طريق
الثواب والاحتساب، توفيراً له وتعظيماً، كما أمرنا الله سبحانه.

وسئل - القابسي - عن رجل قال لرجل قبيح: كانه وجهٌ كبير، ولرجل
عَبُوس: كانه وجهٌ ملك الغضبان، فقال: أي شيء أراد بهذا؟ وتكبر أخذ فتأني
القَبْرِ، وهما مَلَكَانِ، فما الذي أراد؟ أَرَوُعَ دخل عليه حين رآه من وجهه، أم
عافَ النظر إليه لدمامة خلقه؟ فَإِنْ كان هذا فهو شديد، لأنه جرى مَجْرَى التحقير
والتّهوين، فهو أشدُّ عقوبةً، وليس فيه تصريحٌ بالسبِّ لِلْمَلِكِ، وإنما السبُّ واقعٌ
على المخاطب. وفي الأدب بالسُّوْطِ والسجن نكالٌ للسفهاء، قال: وأما ذاكِرُ
مَالِكِ خازِنِ النارِ فقد جفا الذي ذكره عندما أنكر حاله من عبوس الآخر إلا أن
يكونَ المُعْبَسُ لَهُ يَدٌ فَيَزِيهُبُ بِعَبْسَتِهِ، فيشبهه القاتل بمالك خازن النار على طريق
الذم لهذا في فعله، ولزومه في ظلمه صفةً مالك، المَلِكُ المُطِيعُ لربِّه في فعله،
فيقول: كانه لِلَّهِ يَغْضَبُ غَضَبَ مَالِكِ، فيكون أخف، وما كان ينبغي له التعرُّضُ
لمثل هذا، ولو كان أَتْنَى على العُبُوسِ بعَبْسَتِهِ، واحتج بصفة مالك كان أشدَّ،
فيعاقب المعاقبة الشديدة، وليس في هذا ذمٌ لِلْمَلِكِ، ولو قصد ذمه لقتل.

وقال - أبو الحسن أيضاً - في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئاً، فقال
له الرجل: اسكُتْ، فإنك أُمِّيٌّ. فقال الشاب: أليس قد كان النبي ﷺ أُمِّيًّا فشنع
عليه مقالُه، وكَفَرَه الناسُ، وأشفقَ الشابُّ ممَّا قال، وأظهر الندم عليه، فقال أبو
الحسن: أمَّا إطلاقُ الكُفْرِ عليه فخطأ لكنه مخطىء في استشهاده بصفة النبي ﷺ،
وكون النبي أُمِّيًّا آيةٌ له، وكونُ هذا أُمِّيًّا نقيصةٌ فيه وجهالةٌ.

ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي ﷺ، لكنه إذا استغفر وتاب، واعترف

ولجأ إلى الله فيترك، لأنَّ قوله لا ينتهي إلى حدِّ القتل، وما طريقه الأدب فطوُّع فاعله بالندم عليه يوجب الكفَّ عنه.

ونزلت أيضاً مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور رحمه الله في رجل تنقَّصه آخر بشيء، فقال له: إنما تريد تَقْصِي بقولك، وأنا بَشِّرُ، وجميع البشر يلحقهم النقص حتى النبي ﷺ، فأفتاه بإطالة سجنه، وإيجاع أديه، إذ لم يقصد السب، وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله.

فصل

في حكم القائل والحاكي لهذا الكلام عن غيره

الوجه السادس: أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره، وآثراً له عن سيواه، فهذا يُنظر في صورة حكايته وقرينة مقالته، ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوب، والندب، والكراهة، والتحريم، فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام بقوله، والتنفير منه، والتجريح له، فهذا مما يتبغى امتثاله، ويحمد فاعله، وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقص على قائله، والفتيا بما يلزمه.

وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكي عنه، فإن كان القائل لذلك ممن تصدى لأن يؤخذ عنه العلم، أو رواية الحديث، أو يقطع بحكمه أو بشهادته، أو فتياه في الحقوق، وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفير للناس عنه، والشهادة عليه بما قاله، ووجب على من بلغه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره، وبيان كفره، وفساد قوله، لقطع ضرره عن المسلمين، وقياماً بحق سيّد المرسلين، وكذلك إن كان ممن يعظ العامة، أو يؤدب الصبيان، فإن من هذه سريره لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم، فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي ﷺ، ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي ﷺ واجب، وحماية عرضه متعين، ونضرته عن الأذى، حياً وميتاً، مستحق على كل مؤمن، لكنه إذا قام بهذا من ظهر به الحق، وفصلت به القضية، وبان به الأمر، سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة عليه وعضد التحذير منه.

وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث، فكيف بمثل هذا؟

وقد سئل أبو محمد بن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى يسعه ألا يؤدي شهادته؟ قال: إن رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد. وكذلك إن علم أن الحاكم لا يرى القتل بما شهد به، ويرى الاستنابة والأدب فليشهد، ويلزمه ذلك.

وأما الإباحة لحكاية قوله لعبير هذين المفسدين، فلا أرى لها مذخلاً في هذا الباب، فليس التفكه بعرض النبي ﷺ، والتمضمض بسوء ذكره لأحد لا ذاكراً ولا أنثى لغیر غرض شرعي بمباح.

وأما للأغراض المتقدمة فمتردد بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى الله تعالى مقالات المفتزين عليه، وعلى رسله، في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه، والرد عليهم بما تلاه الله علينا في مُحْكَم كتابه.

وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي ﷺ الصحبة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس، وينقضوا شبهها عليهم. وإن كان ورد لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا على الحارث بن أسيد، فقد صنع أحمد مثله في رده على الجهمية والقائلين بالمخلوق.

هذه الوجوه السائغة للحكاية عنها، فأما من ذكرها على غير هذا: من حكاية سبه والإرءاء بمنصبه على وجه الحكايات، والأسماء، والطرف، وأحاديث الناس، ومقالاتهم في العت والسمن، ومضاحك المجان، ونوادر السفهاء، والخوض في قيل وقال، وما لا يغني - فكل هذا ممنوع، وبغضه أشد في المنع والعقوبة من بعض، فما كان من قائله الحاكي له على غير قصد أو معرفة بمقدار ما حكاه، أو لم يكن ذلك عادته، أو لم يكن الكلام من الشاعة حيث هو، ولم يظهر على حاكبه استحسانه واستضوائه، رُجز عن ذلك، ونهي عن العودة إليه، وإن قوم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن كان لفظه من الشاعة حيث هو كان الأدب أشد.

وقد حكى أن رجلاً سأل مالكا عن يقول: القرآن مخلوق. فقال مالك: كافر فاقتلوه. فقال: إنما حكيته عن غيري. فقال مالك: إنما سمعناه منك. وهذا من مالك على طريق الزجر والتغليظ، بدليل أنه لم يقد قتل. وإن اتهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه، ونسبه إلى غيره، أو كانت

تلك عادة له، أو ظهر استخسانه لذلك، أو كان مولعاً بمثلها، والاستخفاف له، أو التحفظ لمثلها، وطلبه، ورواية أشعاره عليه السلام، وسبه، فحكم هذا حكم الساب نفسه، يواخذ بقوله، ولا ينفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتله، ويعجل إلى الهاوية أمه.

وقد قال أبو عبيد: القاسم بن سلام - فيمن حفظ شطر بيت مما هجى به النبي ﷺ: فهو كافر.

وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجى به النبي عليه السلام، وكتابه وقراءته، وتركه متى وجد دون مخور. ورجم الله أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم، فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير متباعدة، على نحو الوجوه الأول، ليروا تمة الله من قائلها، وأخذ المقتري عليه بذنبه. وهذا أبو عبيد: القاسم بن سلام - رحمه الله - قد تحرى مما اضطر إلى الاستشهاد به من أهاجي أشعار العرب في كتبه، فكفى عن اسم المهجو بوزن اسمه، استبراء لدينه، وتحفظاً من المشاركة في ذم أحد بروايته أو نشره، فكيف بمن يتطرق إلى عرض سيد البشر والمرسلين ﷺ؟!

فصل

في حكم ذكر ما يجوز على النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، على طريق المذاكرة والتغليم

الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز على النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر بعض ما امتحن به، وصبر في ذات الله عليه وعلى شدته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداء حاله وسيرته، وما لقى من يؤس زمينه، ومر عليه من معاناة عيشته، كل ذلك على طريق الرواية، ومذاكرة العلم، ومعرفة ما صح من العصمة للأنبياء، - وما يجوز عليهم - فهذا فن خارج عن هذه الفنون الستة، إذ ليس فيه غمض ولا نقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا في ظاهر اللفظ، ولا في مقصد اللفظ، لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفهماء طلبة الدين ممن يفهم مقاصده. ويحققون فوائده، ويحبب ذلك من عساه لا يفقه، أو يخشى به فتنه، فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف - عليه السلام - لئلا

انطوت عليه من تلك القصص لضغف معرفته، ونقص عقولهن وإدراكهن.

١٧٩٥ - فقد قال - عليه السلام - مُخْبِرًا عن نفسه باستجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله، وقال: «ما مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَى الْغَنَمَ» [البخاري (٢٢٦٢)، (٣٤٠٦)، مسلم (٢٠٥٠)].

وأخبرنا الله تعالى بذلك عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وهذا لَا غَضَاضَةَ فِيهِ جَمَلَةٌ وَاحِدَةٌ لِمَنْ ذَكَرَهُ عَلَى وَجْهِهِ، بِخِلَافِ مَنْ قَصَدَ بِهِ الْغَضَاضَةَ وَالتَّحْقِيرَ، بَلْ كَانَتْ عَادَةً جَمِيعِ الْعَرَبِ.

نعم، فِي ذَلِكَ لِلْأَنْبِيَاءِ حِكْمَةٌ بِالْعَمَّةِ، وَتَذْرِيجٌ لِلَّهِ تَعَالَى لَهُمْ إِلَى كِرَامَتِهِ، وَتَدْرِيبٌ بِرِعَابَتِهَا لِسِيَاسَةِ أُمَمِهِمْ مِنْ خَلِيقَتِهِ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي الْأَزَلِ، وَمَتَقَدِّمُ الْعِلْمِ.

وكذلك قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ بِتَمَنِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَغَبَلَتُهُ عَلَى طَرِيقِ الْمَنَّةِ عَلَيْهِ، وَالتَّعْرِيفِ بِكَرَامَتِهِ لَهُ، فَذَكَرَ الذَّاكِرُ لَهَا عَلَى وَجْهِ تَعْرِيفِ حَالِهِ، وَالْخَبَرِ عَنْ مُبْنَدَتِهِ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ مَنَحِ اللَّهِ قِبَلَهُ، وَعَظِيمِ مَنَّتِهِ عِنْدَهُ لَيْسَ فِيهِ غَضَاضَةٌ، بَلْ فِيهِ ذِلَالَةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصَحَّةِ دَعْوَتِهِ، إِذْ أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا عَلَى صِنَادِيدِ الْعَرَبِ، وَمِنْ نَاوَاهُ مِنَ أَشْرَافِهِمْ، شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَمَّ أَمْرُهُ حَتَّى قَهَرَهُمْ، وَتَمَكَّنَ مِنْ مَلِكٍ مَقَالِيدِهِمْ، وَاسْتَبَاحَهُ مَمَالِكُ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرِهِمْ، بِإِظْهَارِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَتَأْيِيدِهِ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَإِمْدَادِهِ بِالْمَلَائِكَةِ الْمُسَوِّمِينَ، وَلَوْ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَام - ابْنُ مَلِكٍ أَوْ ذَا أَشْيَاعٍ مُتَقَدِّمِينَ لَحَسِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَالِ أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لظهوره، وَفَقْتَضَى غُلُوَّهُ.

١٧٩٦ - ولهذا قَالَ هِرْقُلُ - حِينَ سَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ عَنْهُ -:

هَلْ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالَ: لَا ثُمَّ قَالَ: فَلَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ لَقُلْنَا: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكَ أَبِيهِ، وَإِذِ الْيَتَمُ مِنْ صِفَتِهِ وَإِحْدَى عِلَامَاتِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

وكذا وَقَعَ ذِكْرُهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - فِي كِتَابِ أَرْمِينَا، وَبِهَذَا وَصَفَهُ ابْنُ ذِي يَزَنَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَنَجِيرَا لِأَبِي طَالِبٍ.

وكذلك إِذَا وَصِفَ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ كَمَا - وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ - فَهِيَ مِذْحَةٌ لَهُ وَفَضِيلَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ، وَقَاعِدَةٌ مُعْجِزَتُهُ، إِذْ مُعْجِزَتُهُ الْعَظُمَى مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِنَّمَا هِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِطَرِيقِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، مَعَ مَا مُنَحَ بِهِ ﷺ، وَفُضِّلَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ.

وجودٌ بمثل ذلك في رَجُلٍ، لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يُدارِس، ولا لُقِن، مُقتضى العَجَب، ومُنتهى العَبْر، ومعجزة البشر.

وليس في ذلك نَقِيصَةٌ، إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها، غَيْرُ مُرادَةٍ في نفسها فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الوسطة والسبب.

والأَمِيَّة في غيره نَقِيصَةٌ، لأنها سبب الجهالة، وعُنوانُ الغَبَاوَةِ، فسبحان مَنْ بَيَّنَّ أَمْرَهُ من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه مَحْطَةٌ من سِوَاهُ، وجعل حياته فيما فيه هلاكٌ من غَدَاهُ، هذا شقُّ قَلْبِهِ، وإخراجُ حُشَوَتِهِ، كان تمامَ حياته، وغايةَ قُوَّةِ نَفْسِهِ، وثباتَ رُؤْبِهِ، وهو فيمن سِوَاهُ مُنْتَهَى هَلَاكِهِ، وَخَتَمَ مَوْتِهِ وَفَنَائِهِ، وَهَلُمَّ جَزْأً، إلى سائر ما رُوِيَ له من أخباره ومسيره، وتقلُّبه من الدنيا، ومن الملبس، والمطعم، والمركب، وتواضعه ومهنته نفسه في أموره، وخدمة بيته زُهداً، ورغبة عن الدنيا، وتسوية بين خَيْرِها وَخَطِيرِها، لسرعة فناءِ أمورها، وتقلبِ أحوالها، كلُّ هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرنا، فمن أورد شيئاً منها مؤرِّدُهُ، أو قَصْدُ بها مَقْصِدُهُ كان حسناً، وَمَنْ أورد ذلك على غير وجهه، وعَلِمَ منه بذلك سوءَ قَصْدِهِ لَحَقَّ بالفصول التي قدمناها.

وكذلك ما ورد من أخباره وأخبارِ سائر الأنبياء - عليهم السلام - في الأحاديث مما في ظاهره إشكالٌ يقتضي أموراً لا تليقُ بهم بحالٍ، وتحتاج إلى تأويلٍ، وتَرْدُّدٍ احتمالٍ، فلا يجبُ أَنْ يُتَحَدَّثَ منها إلا بالصحيح، ولا يُرَوَى منها إلا المعلومُ الثابت.

فَرَجَمَ اللَّهُ مالِكاً، فلقد كرهَ التحدُّثَ بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى، وقال: ما يذغو الناس إلى التحدُّثِ بمثل هذا؟ فقبل له: إِنَّ ابْنَ عَجْلَانَ يحدثُ بها، فقال: لم يكن من الفُفَّهَاءِ، وليت الناس وافقوه على تركِ الحديثِ بها، وساعدوه على طَيِّها، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَيْسَ تَحْتَهُ عَمَلٌ.

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ من السُّلَفِ، بل عنهم على الجملة، أنهم كانوا يكرهون الكلامَ فيما ليس تحتَهُ عَمَلٌ، - والنبي ﷺ - أوردوا على قوم غَرَبَ يفهمون كلامَ الغَرَبِ على وجهه، وتصرفاتهم في حقيقته وَمَجَازِهِ، واستعارته وبليغه وإيجازه، فلم تُكُنْ في حَقِّهم مشكلةً، ثم جاء مَنْ غَلَبَتْ عليه العُجْمَةُ، وداخَلَتْهُ الأَمِيَّةُ، فلا يكادُ يفهمُ مِنْ مقاصدِ العرب إلا نَصْها وضريحها، ولا يتحقق بإشاراتها إلى غَرَضِ الإيجازِ، وَوَحْيِها وتبليغها، وتلويحها دون تصريحها، فتفرقوا

في تأويلها أو حملها على ظاهرها شذّر مذرّ، فمهم من آمن به، ومنهم من كفر. فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث، فواجب ألا يذكّر منها شيء في حق الله سبحانه ولا في حق أنبيائه، ولا يتحدّث بها، ولا يتكلّف الكلام على معانيها. والصواب - والله أعلم - طرّحها، وترك الاشتغال بها إلا أن تذكّر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المقادير، واهية الإسناد.

وقد أنكر الأشباح - رحمهم الله - على أبي بكر بن فورك نكلفت في «مشكله» الكلام على أحاديث ضعيفة موضوعة لا أصل لها، أو منقولة عن أهل الكتاب الذين يلبسون الحق بالباطل كان يكفبه طرّحها، ويغنيه عن الكلام عليها التيسر على ضعفها، إذ المفصود بالكلام على مشكل ما فيه إزالة اللبس بها. واجتثاثها من أصلها، وطرّحها، أكشف للفساد وأشفى للفس.

فصل

في الأدب اللازم عند ذكر أخباره ﷺ

ومما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي - عليه السلام - وما لا يجوز، والذاكر من حالاته ما قدمناه في الفصل قبل هذا على طريق المذاكرة والتعليل أن يلتزم في كلامه عند ذكره عليه السلام، وذكر تلك الأحوال الواجب من توقيره وتعظيمه، ويرافق حال لسانه، ولا يهمله، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره، فإذا ذكر ما فاسد من الشذائد ظهر عليه الإشقاق والارتماض، والغبط على عدوه، ومودة القداء للنبي ﷺ لو قدر عليه، والتضرع له لو أمكنه.

وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلّم على محاري أعماله وأقواله - عليه السلام - تحرّى أحسن اللفظ، وأدب العبارة على ما أمكنه، واجتنب بشيع ذلك، وهجر من العبارة ما يفتيح، كلفظة الجهل والكذب والمعصية، فإذا تكلّم في الأقوال قال: هل يجوز عليه الخلف في القول والإخبار بخلاف ما وقع سهواً أو غلطاً؟ أو نخوه من العبارة، ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة.

وإذا تكلّم على العلم قال: هل يجوز ألا يعلم إلا ما علم؟ وهل يمكن ألا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه؟ ولا يقول: يجهل، لفتح اللفظ وشاعته.

وإذا تكلّم في الأفعال قال: هل تجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي وموافقة بعض الصغائر؟ فهو أولى وأدب من قوله: هل يجوز أن

يَغْصِي، أو يُذْنِب أو يفعلَ كذا وكذا، من أنواعِ المعاصي؟ فهذا من حق توقيره عليه السلام، وما يجبُ له من تَغْزِيرٍ وإعظام.

وقد رأيتُ بعضَ العلماءِ لم يتحفَظْ من هذا، فقُبِّحَ منه، ولم أَسْتَضَوِّبْ عبارته فيه.

ووجدتُ بعضَ الحائرينَ قَوْلَه لأجلِ تَرْكِ تحفِظِه في العبارة، ما لم يَقُلْهُ، وشَتَّعَ عليه بما يَلْبَأُ، ويُكْفِرُ قائله.

وإذا كانَ مِثْلُ هذا بينَ الناسِ مستَعْمَلاً في آدابِهِم، وحُسْنِ مُعَاشَرَتِهِم، وخطابِهِم، فاستعماله في حقِّه - عليهم السلام - أوجب، والتزامه أكد.

فجودةُ العبارةِ تُقْبِحُ الشَّيْءَ أو تُحَسِّنُه، وتحريرُها وتهذيبُها تُعْظِمُ الأَمْرَ أو تهوئُه.

١٧٩٧ - ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا» [البخاري (٥٧٦٧)، مسلم (٨٦٩)].

فأما ما أوردَه على جهةِ التَّفْيِي عنه والتَّزْيِي له، فلا حَرَجَ في تسريحِ العبارة، وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوزُ عليه الكَذِبُ جُمْلَةً، ولا إتيانُ الكبائرِ بوجِه، ولا الجورُ في الحُكْمِ على حال، ولكن مع هذا يجبُ ظهورُ توقيره وتعظيمه وتعزيزه عند ذِكره مجرداً، فكيف عند ذِكرٍ مِثْلِ هذا؟!.

وقد كانَ السَّلَفُ تظهروا عليهم حالاتٌ شديدةٌ عند مجردِ ذِكره، كما قدَّمناه في القسمِ الثاني.

وقد كانَ بعضهم يلتزمُ مِثْلَ ذلك عند تلاوةِ آي من القرآن، حكى اللهُ تعالى فيها مَقَالَ عِدَاءه، وَمَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ، وافترى عليه الكَذِبَ، فكان يخفضُ بها صوتَه إعظاماً لربِّه، وإجلالاً له، وإشفاقاً من التشبُّه بَمَنْ كفر به.



الباب الثاني

في حُكْم سَابِّهِ وَشَائِنِهِ وَمُتَنَقِّصِهِ وَمُؤْذِيهِ وَعُقُوبَتِهِ
وَذِكْرِ اسْتِغْنَابَتِهِ وَوَرَائَتِهِ

قال القاضي - رحمه الله -: قد قدمنا ما هو سبٌّ وأذى في حقه عليه السلام، وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك وقاتله، أو تخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وفرزنا الخجج عليه.

وبعد: فاعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه، وقول السلف وجمهور العلماء قتلُه حدًّا لا كُفْرًا إن أظهر التوبة منه، ولهذا لا تُقيل عندهم توبته، ولا تنفعه استغاثته، ولا فينته كما قدمناه قبل، وحكمه حُكْم الزنديق، ومبسر الكفر في هذا القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء نائبًا من قبل نفسه، لأنه حدٌ وجب، لا تُسقطه التوبة كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله: إذا أقر بالسب، وتاب منه، وأظهر التوبة قُتل بالسب، لأنه هو حده.

وقال أبو محمد بن أبي زيد في مثله: وأما ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه. وقال ابن سحنون: من شتم النبي ﷺ من الموحدين، ثم تاب عن ذلك لم تُرل توبته عنه القتل.

وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء نائبًا، فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين:

قال: من شيوخنا من قال: أقتله بإقراره، لأنه كان يقدر على سنن نفسه، فلما اعترف جفنا أنه خشي الظهور عليه فبادر لذلك.

ومنهم من قال: أَقْبِلْ تَوْبَتَهُ، لَأَنِّي أَسْتَدِلُّ عَلَى صِحَّتِهَا بِمَجِيئِهِ، فَكَأَنَّا وَقَفْنَا عَلَى بَاطِنِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَسْرَتَهُ الْيَبْتَةُ.

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: وهذا قول أَضْبَحَ، ومَسْأَلَةُ سَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَقْوَى، لَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا الْخِلَافُ عَلَى الْأَصْلِ الْمَتَقَدِّمِ، لَأَنَّهُ حَقٌّ مُتَعَلِّقٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأَمْتِهِ بِسَبِّهِ، لَا تَسْقِطُهُ التَّوْبَةُ كَسَائِرِ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ. وَالرُّنْدِيْقِيُّ إِذَا تَابَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَعِنْدَ مَالِكٍ، وَاللَّيْثِ، وَإِسْحَاقَ، وَأَحْمَدَ، لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وعند الشافعي تُقْبَلُ.

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.

وحكى ابن المنذر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يُسْتَتَابُ.

قال محمد بن سَخْنُون: وَلَمْ يَزَلِ الْقَتْلُ عَنِ الْمُسْلِمِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ سَبِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَأَنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ شَيْئاً حَدَّهُ عِنْدَنَا الْقَتْلُ، لَا عَفْوٌ فِيهِ لِأَحَدٍ، كَالرُّنْدِيْقِيِّ، لَأَنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ ظَاهِرٍ إِلَى ظَاهِرٍ.

وقال القاضي - أبو محمد بن نصر - مُتَحْتِجاً لِسُقُوطِ اعْتِبَارِ تَوْبَتِهِ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَشْهُورِ الْقَوْلِ بِاسْتِثْنَائِهِ أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَشَرٌ، وَالْبَشَرُ جُنْسٌ تَلْحَقُهُمُ الْمَعْرَةُ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ اللَّهُ بِنَبَوْتِهِ تَعَالَى، وَالْبَارِئُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَزَوِّةٌ عَنْ جَمِيعِ الْمَعَائِبِ قَطْعاً، وَلَيْسَ مِنْ جُنْسٍ مَنْ تَلْحَقُ الْمَعْرَةُ بِجُنْسِهِ، وَلَيْسَ سَبُّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَالْإِرْتِدَادِ الْمَقْبُولِ فِيهِ التَّوْبَةُ، لِأَنَّ الْإِرْتِدَادَ مَعْنَى يَنْفَرِدُ بِهِ الْمُرْتَدُّ لَا حَقٌّ فِيهِ لغيرِهِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، فَقَبِلَتْ تَوْبَتُهُ. وَمَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ تَعَلَّقَ فِيهِ وَبِهِ حَقٌّ الْآدَمِيِّ، فَكَانَ كَالْمُرْتَدِّ يَفْتُلُّ حِينَ ارْتِدَادِهِ أَوْ يَقْذِفُ، فَإِنْ تَوْبَتَهُ لَا تُسْقِطُ عَنْهُ حَدَّ الْقَتْلِ وَالْقَذْفِ.

وأيضاً فَإِنَّ تَوْبَةَ الْمُرْتَدِّ إِذَا قُبِلَتْ لَا تُسْقِطُ ذَنْبَهُ مِنْ زِنَا، وَشَرْبٍ، وَسُرْقَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُقْتَلْ سَابُّ النَّبِيِّ ﷺ لِكُفْرِهِ، لَكِنْ لِمَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ حُرْمَتِهِ، وَزَوَالِ الْمَعْرَةِ بِهِ وَذَلِكَ لَا تُسْقِطُهُ التَّوْبَةُ.

قال القاضي أبو الفضل: يَرِيدُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِأَنَّ سَبَّهُ لَمْ يَكُنْ بِكَلِمَةٍ تَقْتَضِي الْكُفْرَ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى الْإِزْرَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ، أَوْ لِأَنَّ بِتَوْبَتِهِ وَإِظْهَارِ إِنْابَتِهِ لَهُ ارْتِفَاعٌ عَنْهُ اسْمُ الْكُفْرِ ظَاهِراً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِسِرِّرَتِهِ، وَبِقِي حُكْمِ السَّبِّ عَلَيْهِ.

وقال أبو عمران الفاسي: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ قُتِلَ، وَلَمْ يُسْتَتَبْ، لِأَنَّ السَّبَّ مِنْ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ الَّتِي لَا تَسْقِطُ عَنْ الْمُرْتَدِّ.

وكلامُ شيوخنا هؤلاء مبنيٌّ على القول بقتله، حدّاً لا كُفراً، وهو يحتاج إلى تفصيل.
وأما على رواية الوليد بن مسلم، عن مالك، ومن وافقه على ذلك ممن ذكرناه وقال به من أهل العلم، فقد صرّحوا أنه ردّة، قالوا: ويستتاب منها، فإن تاب ترك ونكّل، وإن أبى قُتل، فحكم له بحكم المرتد مطلقاً في هذا الوجه.
والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه، ونحن نبسط الكلام فيه، فنقول: من لم يَرِدْ ردّة فهو يوجبُ القتل فيه حدّاً، وإنما نقول ذلك مع فضلين: إما مع إنكاره ما شهد عليه به وإظهاره الإفلاج والتوبة عنه، فنقتله حدّاً لثبات كلمة الكفر عليه في حق النبي ﷺ، وتخفيره ما عظم الله من حقه، وأخيراً حكمه في ميراثه، وغير ذلك - حكم الزنديق -، إذا ظهر عليه وأكبر، أو تاب.
فإن قيل: فكيف تثبتون عليه الكفر، ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابها؟

قلنا: نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل، فلا نقطع عليه بذلك، لإقراره بالتوحيد والنبوّة، وإنكاره ما شهد عليه به، أو رغبه أن ذلك كان منه وهلاً ومعصية، وأنه مُفْلِعٌ عن ذلك، نادى عليه، ولا يمتنع إثبات بغض أحكام الكفر على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه، كقتل تارك الصلاة.
وأما من علم أنه سيّء - عليه السلام - مُعْتَدِلاً لاستحلاله، فلا شك في كفره بذلك.
وكذلك إن كان سيّء في نفسه كفر، كتكذيبه أو تكفيره أو تحوه، فهذا ما لا إشكال فيه، ويُقتل - وإن تاب منه - لأننا لا نقبل توبته، ونقتله بعد التوبة حدّاً، لقوله، ومتقدم كفره، وأمره بغد إلى الله المطلع على صحة إفلاعه، العالم بسرّه.
وكذلك من لم يظهر التوبة، واعترف بما شهد به عليه، وصمم عليه فهذا كافر بقوله، واستحلاله هناك خزيمة الله وخزيمة رسوله ﷺ بقتل كافر بلا خلاف.
فعلى هذه التفصيلات خذ كلام العلماء، ونزل مختلف عبارتهم في الاحتجاج عليها، وآخر اختلافهم في الموارنة وغيرها على ترتيبها بتخصُّص لك مقاصدهم إن شاء الله تعالى.

فصل

في استتابة المرتد

إذا قلنا بالاستتابة حيث تصح، فالاختلاف فيها على الاختلاف في توبة المرتد، إذ لا فرق.

وقد اختلف السلف في وجوبها وصورتها ومذتها، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرتد يُستتاب.

وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة، ولم ينكره واحد منهم، وهو قول عثمان، وعلي، وابن مسعود، وبه قال عطاء بن أبي رباح، والنخعي، والثوري، والأوزاعي، ومالك، وأصحابه، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي.

وذهب طاووس ومحمد بن الحسن وعبيد بن جُمير، والحسن في - إحدى الروايتين عنه - أنه لا يُستتاب، وقاله عبدالعزيز بن أبي سلمة، وذكره عن معاذ، وأنكره سُخْنُون عن معاذ، وحكاه الطحاوي عن أبي يوسف، وهو قول أهل الظاهر، قالوا: وتنفعه توبته عند الله.

١٧٩٨ - ولكن لا يُذَرَأ القتلُ عنه، لقوله ﷺ: «مَنْ بَدَلَ دِينَهُ فَأَقْتُلُوهُ»

[البخاري (٣٠١٧)].

وحكى أيضاً عن عطاء قال: إن كان مِمَّنْ وَلِدَ في الإسلام لم يُستتب، ويُستتاب الإسلامي.

وجمهور العلماء على أن المرتد والمرتدة في ذلك سواء.

وروي عن علي رضي الله عنه: لا تُقْتَل المرتدة، وتُسْرِق، وقاله عطاء، وقَتَادَة.

وروي عن ابن عباس: لا تُقْتَل النساء بالردة، وبه قال أبو حنيفة.

قال مالك: والحر، والعبد، والذَّكْر، والأنثى في ذلك سواء.

وأما مُذَتَّهَا: فمذهب الجمهور، وروي عن عُمر، أنه يُستتاب ثلاثة أيام يُخْبَس فيها، وقد اختلف فيه عن عُمر، وهو أَخَذَ قَوْلِي الشافعي، وقول أحمد، وإسحاق، واستحسنه مالك، وقال: لا يأتي الاستظهار إلا بخير، وليس عليه جماعة الناس.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زَيْد: يريد في الاستيناء ثلاثاً.

وقال مالك أيضاً: الذي أَخَذَ به في المرتد قول عُمر: يُخْبَس ثلاثة أيام، ويُعْرَض عليه كل يوم، فإن تاب وإلا قُتِل.

وقال أبو الحسن بن القصار: في تأخيره ثلاثاً روايتان عن مالك: هل ذلك واجب أو مستحب؟ واستحسن الاستتابة والاستيناء ثلاثاً أصحاب الرأي.

وروي عن أبي بكر الصديق أنه استتاب في خلافته امرأة فلم تَتُب فقتلها، وقاله الشافعي مرة، فقال: إن لم يَتُب قُتِل مَكَانَهُ، واستحسنه المُرْزِي.

وقال الزهري: يُدْعَى إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبى قُتِل.

وزُوي عن علي رضي الله عنه: يُستتاب شهرين.

وقال النخعي: يُستتاب أبداً، وبه أخذ الثوري ما رُجيت نَوْتُهُ.

وحكى ابن القصار عن أبي حنيفة: أنه يُستتاب ثلاث مراتب في ثلاثة أيام،

أو ثلاث جمع، كل يوم أو كل جمعة مرة.

وفي كتاب محمد، عن ابن القاسم: يُدعى المرْتَدُّ إلى الإسلام ثلاث

مرّات، فإن أبى ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

واختلف على هذا، هل يُهْدَدُ، أو يُشَدَّد عليه أيام الاستتابة لينوب أم لا؟ فقال

مالك: ما علمت في الاستتابة تجوعاً ولا تَغْطِشاً، ويُؤتى من الطعام بما لا يضره.

وقال أصبغ: يخوَّف أيام الاستتابة بالقتل، ويُغْرَض عليه الإسلام.

وفي كتاب أبي الحسن الطائفي: يوعَظ في تلك الأيام، ويذكَّر بالجنة،

ويخوَّف بالنار.

قال أصبغ: وأُتي المواضع خمس فيها من السجون مع الناس أو وحده إذا استوثق منه

سواء، ويُوقَف ماله إذا خيف أن يُنْقَلَه على المسلمين، ويُطْعَم منه، ويُسقى.

وكذلك يُستتاب أبداً كلما رجع وارتد.

١٧٩٩ - وقد استتاب النبي ﷺ تَبَّهَانَ الذي ارتد أربع مراتب أو خمساً.

وقال ابن وهب، عن مالك: يُستتاب أبداً كلما رجع، وهو قول الشافعي،

وأحمد، وقاله ابن القاسم.

وقال إسحاق: يُقتل في الرابعة.

وقال أصحاب الرأي: إن لم يثبت في الرابعة قُتِل دون استثنائه وإن تاب

ضُرِب ضرباً وجيعاً، ولا يخرج من السجن حتى يظهر عليه خشوعُ التوبة.

قال ابن المنذر: ولا تُعلم أحداً أوجب على المرتد في المرة الأولى أدباً إذا

رجع. وهو على مذهب مالك والشافعي والكوفي.

فصل

في حكم المرتد إذا اشتبه ازدياده

قال القاضي رحمه الله: هذا حكم من ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوته من

إقرار، أو عدول لم يُدْفَع فيهم، فأما من لم تتم الشهادة عليه إنما شهد عليه

الواحد، أو اللّيف من الناس، أو ثبت قوله لكن احتمل ولم يكن ضريحاً،

وكذلك إن تاب - على القول بقبول توبته - فهذا يذراً عنه القتل، وينسلط عليه

اجتهاد الإمام بقدر شهرته حاله، وقوة الشهادة عليه، وضعفها، وكثرة السماع عنه، وصورة حاله من التهمة في الدين، والتبذير بالسفوة والمجون، فمن قوي أمره أذاقه من شديد النكال ومن الضيق في السجن، والشدة في القيود إلى الغاية التي هي منتهى طاقته بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يُقْعِدُهُ عن صلاته، وهو حُكْمُ كُلِّ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ، ولكن وَقَفَ عَنْ قَتْلِهِ لِمَعْنَى أَوْجَبِهِ، وتُرْبِصَ بِهِ لِإِشْكَالِ وَعَائِقِ اقْتِضَاءِ أَمْرِهِ، وحالات الشدة في نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله.

وقد رَوَى الْوَلِيدُ، عَنْ مَالِكٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ أَنَّهَا رِدَّةٌ، فَإِذَا تَابَ نُكِّلَ. ولمالك في «العُتْبِيَّة» وكتاب محمد، من رواية أشهب: إذا تَابَ الْمُرْتَدُّ فَلَا عِقَابَ عَلَيْهِ. وقاله سُخْنُون.

وأفتى أبو عبدالله بن عتاب فيمن سب النبي ﷺ - فشهد عليه شاهدان عدل أحدهما - بالأدب الموجه، والتككيل، والسجن الطويل حتى تظهر توبته. وقال القاسي في مثل هذا: ومن كان أَقْصَى أَمْرُهُ الْقَتْلُ فَعَائِقُ عَائِقُ عَنْ ذَلِكَ أَشْكَلُ فِي الْقَتْلِ، لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يُطْلَقَ مِنَ السَّجْنِ، وَلَكِنْ يُسْتَطَالُ سَجْنُهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَدَةِ مَا عَسَى أَنْ يُقِيمَ، وَيُخْمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَيْدِ مَا يُطِيقُ. وقال في مثله بمن أشكل أمره: يُشَدُّ فِي الْقِيُودِ شَدًّا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ فِي السَّجْنِ حَتَّى يُفْظَرَ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ.

وقال في مسألة أخرى مثلها: وَلَا تُهْرَاقَ الدَّمَاءُ إِلَّا بِالْأَمْرِ الْوَاضِحِ، وَفِي الْأَدَبِ بِالسُّوْطِ وَالسَّجْنِ نَكَالٌ لِلْسَفَهَاءِ، وَيَعَاقَبُ عَقُوبَةً شَدِيدَةً، فَأَمَّا إِنْ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ سِوَى شَاهِدَيْنِ، فَأُثْبِتَ مِنْ عَدَاوَتِهِمَا أَوْ جَرْحَتِهِمَا مَا أَسْقَطُهُمَا عَنْهُ، وَلَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمَا فَأَمْرُهُ أَخْفَ لِسُقُوطِ الْحُكْمِ عَنْهُ، وَكَانَهُ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ، وَيَكُونُ الشَّاهِدَانِ مِنْ أَهْلِ التَّبَرُّيزِ، فَاسْقَطُهُمَا بَعْدَاوَةً، فَهُوَ - وَإِنْ لَمْ يَنْقُذِ الْحُكْمُ عَلَيْهِ بِشَهَادَتِهِمَا - فَلَا يَدْفَعُ الظُّلْمَ صِدْقَهُمَا، وَلِلْحَاكِمِ هُنَا فِي تَنْكِيلِهِ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

فِي حُكْمِ الذَّمِّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ ﷺ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ

قال القاضي أبو الفضل: هَذَا حُكْمُ الْمُسْلِمِ، فَأَمَّا الذَّمُّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ فَلَا خِلَافَ عِنْدَنَا

في قتله إن لم يُسلم، لأننا لم نُعطه الدِّمَّةَ والعهد على هذا، وهو قول عامة العلماء، إلا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة، فإتيم قالوا: لا يُقتل ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يذَّاب ويعزَّز.

واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَكَرِهَ أُنتَهُمْ مِنْ قَبْلِ مَهْدِيهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَهْلَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَمِنَ لَكُمْ وَلَا لَهُمْ يَتَنَفَّسُونَ﴾ (التوبة: ١٧).

ونستدل أيضاً عليه بقتل النبي ﷺ لابن الأشرف، وأتباعه، ولأننا لم نعاينهم، ولم نُعطهم الدِّمَّةَ على هذا، ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الدِّمَّة، فقد نقضوا فتنهم، وصاروا كفاراً أهل حرب يُقتلون لكفرهم.

وأيضاً فإن فتنهم لا تُنقِطُ حدود الإسلام عنهم، من القطع في سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك خلافاً عندهم فكذلك سبهم للنبي ﷺ يُقتلون به.

ووردت لأصحابنا ظواهر تفضي الحلاف إذا ذكره الذمي بالوجه الذي كفر به، مستقفاً عليها من كلام ابن القاسم وابن سخون بعد.

وحكي أبو المصعب الحلاف فيها عن أصحابه المنين.

واختلفوا إذا سبَّ ثم أسلم، فقبل: يُنقِطُ إسلامه قتله، لأن الإسلام يُجب ما قبله، بخلاف المسلم إذا سبَّ ثم تاب، لأننا نعلم باطية الكافر في نفسه له، وننقصه بقلبه، لكننا منعاه من إظهاره، فلم يرقنا ما أظهره إلا مخالفة للأمر، ونقضاً للعهد، فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ مَنَعُوا يُعْطَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨).

والمسلم بخلافه، إذ كان طئنا بباطنه حكم ظاهره، وخلاف ما بدا منه الآن، فلم لقبيل بعد رجوعه، ولا استئنا إلى باطنه، إذ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لم يُنقِطها شيء.

وقبل: لا يسقط إسلام الذمي السبَّ قتله، لأنه حق للنبي ﷺ وجب عليه القتل لانتهاك حرمة، وقضيه إلحاق النجاسة والمعزة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يُنقِطه، كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه: من قتل، أو قذف، أو سرقة. وإذا كنا لا نقبل نوبة المسلم فإن لا نقبل نوبة الكافر أولى.

وقال مالك في كتاب ابن حبيب، و «المبسوط»، وابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبدالحكم، وأضبع - فيمن شتم نبينا عليه السلام - من أهل الذمة، أو أحداً من الأنبياء - عليهم السلام - قُتل إلا أن يُسلم، وقاله ابن القاسم في «العتية»، وعند محمد، وابن سحنون.

وقال سحنون وأضبع: لا يقال له: أسلم، ولا: لا تُسلم، ولكن إن أسلم فذلك له توبة.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء، من مسلم أو كافر قُتل ولم يُستب. وروى لنا عن مالك: إلا أن يُسلم الكافر.

وقد روى ابن وهب، عن ابن عمر، أن راهباً تناول النبي ﷺ! فقال ابن عمر: فهلاً قتلتموه!

وروى عيسى، - عن ابن القاسم - في ذمي قال: إن محمداً لم يُرسل إلينا، إنما أُرسل إليكم، وإنما نبينا موسى أو عيسى، أو نحو هذا: لا شيء عليهم، لأن الله تعالى أقرهم على مثله.

وأما إن سبه، فقال: ليس بنبي، أو لم يُرسل، أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء نقوله أو نحو هذا فيقتل.

وقال ابن القاسم: وإذا قال النصراني: ديننا خير من دينكم، إنما دينكم دين الحمير، ونحو هذا من الكلام القبيح، أو سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: كذلك يُعطىكم الله، ففي هذا الأدب الموجه، والسجن الطويل.

قال: وأما إن شتم النبي ﷺ شتماً يُعرف فإنه يُقتل إلا أن يُسلم، قاله مالك غير مرة، ولم يقل: يُستاب.

قال ابن القاسم: ومحمل قوله عندي إن أسلم طائعاً. وقال ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم - في اليهودي يقول للمؤذن، إذا تشهد: كذبت - يعاقب أيضاً العقوبة الموجهة مع السجن الطويل.

وفي «النوادر» من رواية سحنون عنه: من شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يُسلم.

قال محمد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلته في سب النبي - عليه السلام - ومن دينه سبه وتكذيبه؟! قيل: لأننا لم نُعطهم العهد على ذلك، ولا على قتلنا،

وأخذ أموالنا، فإذا قُتل واحداً منا قُتلناه، وإن كان من دينه استحلّاه فكَذلك إظهاره لسبِّ نبينا عليه السلام.

قال سخون: كما لو بذل لنا أهل الحزب الجزية على إقرارهم على سبه لم يَجْز لنا ذلك في قول قاتل من المسلمين.

كذلك ينتقص عهد من سب منهم، ويحل لنا دفعه، وكما لم يُحصن الإسلام من سبه من القتل، كذلك لا تُحصن الذمة.

قال القاضي أبو الفضل: ما ذكره ابن سخون عن نفسه، وعن أبيه، مخالف لقول ابن القاسم فيما حُفِّ عَقوبتهم فيه بما به كَفَرُوا، فتأمله.

ويدل على أنه خلاف ما روي عن المدنيين في ذلك، فحكى أبو المصعب الزهري، قال: أُتِيتُ بنُصْراني قال: والذي اصطفى عيسى على محمداً فاختلف علي فيه، فضرِبته حتى قتلته، أو عاش يوماً وليلة، وأمرت من جز برجله، وطُرح على مُزيلة، فأكلته الكلاب.

ومثل أبو المصعب عن نصراني قال: عيسى خلق محمداً؟ فقال: يُقتل. وقال ابن القاسم: سألنا مالكا عن نصراني بمصر شهد عليه أنه قال: مسكين محمداً! يجبركم أنه في الجنة، ما له لم يُلْقَ نفسه إذ كانت الكلاب تأكل ساقية لو قتلوه استراح منه الناس.

قال مالك: أرى أن تُضْرَبَ عُنُقُهُ.

قال: ولقد كُذِّبَ ألاً أتكلم فيها بشيء، ثم رأيت أنه لا يسعني الصنث.

قال ابن كنانة في «المبسوطة»: من شتم النبي ﷺ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أن يُحْرِقَهُ بالنار، وإن شاء قتله ثم حرق جثته، وإن شاء أحرقه بالنار حياً إذا نهافتوا في سبه عليه السلام.

وقد كُتِبَ إلى مالك من مِصر - وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة، قال: فأمرني مالك، فكتبت بأن يُقتل، وأن تُضْرَبَ عُنُقُهُ، فكتبت، ثم قلت: يا أبا عبد الله! وأكتب: ثم يُحرق بالنار؟ فقال: إنه لحقيق بذلك، وما أولاه به!

فكتبت بين يدي بين يديه، فما أنكره ولا عابه، وتقدت الصحيفة بذلك فقتل وحرق.

وأفتى غبيد الله بن يحيى، وابنُ لبابة في جماعة سلف أصحابنا الأندلسيين بقتل نصرانية استهلت بتفني الربوبية، وثبوت عيسى لله وتكذيب محمد في النبوة، ويقول إسلامها ودره القتل عنها به.

وبه قال غَيْرُ واحدٍ من المتأخرين منهم القابسي، وابن الكاتب، وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه: مَنْ سَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ، قُتِلَ وَلَا يُسْتَأْب. والقاضي أبو محمد - في الذمِّي يَسُبُّ رِوَايَتَيْنِ فِي دَرْءِ الْقَتْلِ عَنْهُ بِإِسْلَامِهِ.

وقال ابن سَخْنُون: وَحَدُّ الْقَذْفِ وَثَبْنُهُ مِنْ حَقِّقِ الْعِبَادِ لَا يُسْقِطُهُ عَنْ الذَّمِّي إِسْلَامُهُ، وَإِنَّمَا يَسْقُطُ عَنْهُ بِإِسْلَامِهِ حَدُّهُ اللَّهُ. فَأَمَّا حَدُّ الْقَذْفِ فَحَقٌّ لِلْعِبَادِ هُوَ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ لِنَبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَوْجِبَ عَلَى الذَّمِّي إِذَا قَذَفَ النَّبِيَّ ﷺ ثُمَّ أَسْلَمَ حَدُّ الْقَذْفِ. وَلَكِنْ انْظُرْ مَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِ؟ هَلْ حَدُّ الْقَذْفِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الْقَتْلُ لِرِيَاضَةِ حُرْمَةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَلَى غَيْرِهِ؟ أَمْ هَلْ يَسْقُطُ الْقَتْلُ بِإِسْلَامِهِ، وَيُحَدُّ ثَمَانِينَ؟ فَتَأَمَّلْهُ.

فصل

فِي مِيرَاثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ وَغَسْلِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ

اختلف العلماء في ميراثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فذهب سَخْنُون إلى أنه لجماعة المسلمين من قبل: أَنَّ شَتْمَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَام - كُفْرٌ شَبَهُ كُفْرَ الزُّنْدَقَةِ.

قال أَصْبَغُ: ميراثه لورثته من المسلمين إِنْ كَانَ مُسْتَسِرّاً بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُظْهِراً لَهُ، مُسْتَهْلاً بِهِ، فَمِيرَاثُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَا يُسْتَأْب. وقال أبو الحسن القابسي: إِنْ قُتِلَ وَهُوَ مُنَكِّرٌ لِلشَّهَادَةِ عَلَيْهِ فَالْحُكْمُ فِي مِيرَاثِهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ إِقْرَارِهِ - يَعْنِي لورثته -، وَالْقَتْلُ حَدٌّ ثَبَتَ عَلَيْهِ لَيْسَ مِنَ الْمِيرَاثِ فِي شَيْءٍ.

وكذلك لو أَقْرَأَ بِالسَّبِّ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ لَقُتِلَ، إِذْ هُوَ حَدٌّ. وَحُكْمُهُ فِي مِيرَاثِهِ، وَسَائِرِ أَحْكَامِهِ، حُكْمُ الْإِسْلَامِ.

ولو أَقْرَأَ بِالسَّبِّ، وَتَمَادَى عَلَيْهِ، وَأَبَى التَّوْبَةَ مِنْهُ، فَقُتِلَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ كَافِراً، وَمِيرَاثُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَغْتَسَلُ وَلَا يَكْفَنُ وَلَا يَصَلَّى عَلَيْهِ وَتُسْتَرُّ عَوْرَتُهُ، وَيُوَارَى كَمَا يُفْعَلُ بِالْكَفَّارِ.

وقول الشيخ أبي الحسن في المَجاهِر المنمَادي على ذلك، بينَ لا يمكن
الخلاف فيه، لأنه كافر مرتدٌ غَيَّرَ نَائبَ ولا مَفْلُح.
وهو مثل قول أَضْيَع، وكذلك قال: ابن سَحنون في الرُّنديق بنمَادي على
قوله.

ومثله لابن القاسم في «الغُنيَّة».

ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كُفره مثله.
قال ابن القاسم: وحكمه حُكْمُ المرتد لا يرثه ورثته من المسلمين، ولا من
أهل الدين الذي ارتد إليه، ولا نجورٌ وصاياهُ ولا عتقهُ، وقال ذلك أيضاً أَضْيَعُ:
فُتِلَ على ذلك، أو مات عليه.

وقال أبو محمد بن أبي ريد: وإنما يُخْتَلَفُ في ميراث الرُّنديق الذي يستهلُّ
بالنوبة، فلا تُقْبَلُ منه، فأما المُنمَادي على الكفر والارتداد فلا خلاف أنه لا
يورث.

وقال - أبو محمد - فيمن سبَّ الله تعالى ثم مات ولم تُعَذَّلْ عليه بيعة، أو
لم تُقْبَلْ: إنه يصلَّى عليه.

وروى أَضْيَعُ، عن ابن القاسم، في كتاب ابن حبيب فيمن كَذَّبَ
برسول الله ﷺ أو أعلن ديناً مما يُفَارِقُ به الإسلام، أن ميراثه للمسلمين.
وقال - يقول مالك -: إن ميراث المرتد للمسلمين، ولا ثِرة ورثته ربيعة،
والشافعي، وأبو نؤير، وابن أبي ليلى، واختلف فيه عن أحمد.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وابن المسيب،
والحسن، والشعبي، وغمر بن عبد العزيز، والحكم، والأوزاعي، والليث،
واسحاق، وأبو حنيفة: يرثه ورثته من المسلمين.

وقبل ذلك فيما كسبه قبل ارتداده، وما يكسبه في الارتداد للمسلمين.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: ونُقِصِلُ أبي الحسن في باقي جوابه
حسنٌ بين، وهو على رأي أَضْيَعُ، وخلاف قول سَحنون، واختلافهما على قولني
مالك في ميراث الرُّنديق، فمرة ورثته من المسلمين، سواء قامت عليه بذلك
بينة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

وفاله أَضْيَعُ، ومحمد بن مسلمة، وغَيْرُ واحدٍ من أصحابه، لأنه أظهر
الإسلام بابتكاره أو توبته، وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد
رسول الله ﷺ.

وَوَي - ابْنُ نَافِعٍ عَنْهُ فِي «الْعُتْبِيَّةِ» وَكَتَابِ مُحَمَّدٍ - أَنَّ مِيرَاثَهُ لَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ مَالَهُ تَبَعَ لِدَمِهِ.

وَقَالَ بِهِ أَيْضاً جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ أَشْهَبُ، وَالْمَغِيرَةُ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ، وَشُخْنُونٌ.

وَذَهَبَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي «الْعُتْبِيَّةِ» إِلَى أَنَّهُ إِنْ اعْتَرَفَ بِمَا شَهِدَ عَلَيْهِ بِهِ وَتَابَ فَقُتِلَ فَلَا يُورَثُ. وَإِنْ لَمْ يُعْرِزْ حَتَّى قُتِلَ أَوْ مَاتَ وَرِثَ.

قَالَ: وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَسَرَ كُفْرًا فَإِنَّهُمْ يَتَوَارَثُونَ بِوَرَاثَةِ الْإِسْلَامِ.

وَسُئِلَ أَبُو الْقَاسِمِ بِنُ الْكَاتِبِ عَنِ النَّضْرَانِيِّ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَيُقْتَلُ، هَلْ يَرُثُهُ أَهْلُ دِينِهِ أَمْ الْمُسْلِمُونَ؟

فَأَجَابَ: إِنَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عَلَى جِهَةِ الْمِيرَاثِ، لِأَنَّهُ لَا تَوَارَثَ بَيْنَ أَهْلِ مِلَّتَيْنِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ مِنْ قِتْنِهِمْ، لِنَقْضِهِ الْعَهْدِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ وَاخْتِصَارُهُ.



الباب الثالث

في حُكْم مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ وَكُتُبَهُ
وَأَلَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ

قال الفاضي - رحمه الله تعالى -

لا خلاف أن سبَّ الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم. واختلف في استتابه، فقال ابن القاسم في «المسوط» وفي كتاب ابن سَخُون، ومحمد، ورواه ابن القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى: مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَتَبْ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بِإِثْبَاتِهِ إِلَى دِينِ دَانَ بِهِ، وَأُظْهِرَهُ، فَيُسْتَتَبْ، وَإِنْ لَمْ يُظْهِرَهُ لَمْ يُسْتَتَبْ.

وقال - في «المسوط» - مُطْرَفٌ، وعبد الملك مثله.

وقال المخرومي، ومحمد بن مَسْلَمَةَ، وابن أبي حارم: لا يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالسَّبِّ حَتَّى يُسْتَتَبَ.

وكذلك اليهودي والنَّصْرَانِي، فَإِنْ نَابُوا قِيلَ لَهُمْ نَوَيْتَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِبُوا قُتِلُوا، وَلَا يَذُّ مِنَ الْإِسْتِتابَةِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ كَالرَّذَةِ، وَهُوَ الَّذِي حَكَاهُ الْقَاضِي ابْنُ نَصْرِ عَنْ الْمَذْهَبِ.

وأفتى أبو محمد بن أبي زَيْد - فيما خُكِى عَنْهُ - فِي رَجُلٍ لَعَنَ رَجُلًا وَلَعَنَ اللَّهَ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَلْعَنَ الشَّيْطَانَ فَرُلَ لِسَانِي، فَقَالَ: يُقْتَلُ بِظَاهِرِ كُفْرِهِ، وَلَا يَقْبَلُ عُذْرُهُ.

وأما فيما بينَهُ وبينَ اللَّهِ تَعَالَى فَمَعْدُورٌ.

واختلف فقهاء قُرطُبة في مسألة هَارُونَ بْنِ حَبِيبٍ أَخِي عَبْدِ الْمَلِكِ الْفَقِيهِ،

وكان ضيق الصدر، كثير التبرم، وكان قد شهد عليه بشهادتين، منها أنه قال عند استقلاله من مرض: لقيت في مرضي هذا ما لو قتل أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله.

فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله، وأن مضمّن قوله تجويز الله تعالى وتظلم منه، والتعريض فيه كال تصريح.

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه، إلا أن القاضي رأى عليه التثقيب في الحبس، والشدة في الأدب، لاحتمال كلامه، وصرفه إلى التشكي.

فوجه من قال في سب الله تعالى بالاستتابة: إنه كفر وردة مخصصة لم يتعلق بها حق لغير الله، فأشبهه قضاة الكفر بغير سب الله، وإظهار الانتقال من دين إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

ووجه ترك استتابة: أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قبل اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا هو معتقد له، إذ لا يتساهل في هذا أحد، فحكم له بحكم الزنديق، ولم تقبل توبته، وإذا انتقل من دين إلى آخر، وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه خلع ربة الإسلام من عنقه، بخلاف الأول المتمسك به، وحكم هذا حكم المرتد: يستتاب على مشهور مذاهب أكثر العلماء وهو مذهب مالك، وأصحابه، على ما بيناه قبل، وذكرنا الخلاف في فضوله.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ
عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالْاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي
إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ

وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق السب ولا الردة وقضاة الكفر، ولكن على طريق التأويل، والاجتهاد، والخطأ المفضي إلى الهوى والبدعة، من تشبيهه، أو نعت بجارحة، أو نفي صفة كمال، فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقده.

واختلف قول مالك وأصحابه في ذلك، ولم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة، وأنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، وإنما اختلفوا في المنفرد منهم، فأكثروا

قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم، وترك قتلهم، والمبالغة في عقوبتهم، وإطالة سجنهم، حتى يظهر إقلاهم، ونستبين توبتهم، كما فعل عمر رضي الله عنه بصبيغ.

وهذا قول محمد بن الموز في الخوارج، وعبد الملك بن الماجشون، وقول سخنون في جميع أهل الأهواء، وبه فسر قول مالك في الموطأ، وما رواه عن عمر بن عبدالعزيز، وجده، وعمه، من قولهم في القدرية: يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا.

وقال عيسى، عن ابن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية، والقدرية، وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف، لتأويل كتاب الله عز وجل: يستتابون أظهروا ذلك أو أسروه. فإن تابوا وإلا قتلوا، وميراثهم لورثتهم. وقال مثله أيضاً ابن القاسم في «كتاب محمد» في أهل القدر وغيرهم، قال: واستتابتهم أن يقال لهم: اتركوا ما أنتم عليه.

ومثله له في «المبسوط» في الإباضية والقدرية وسائر أهل البدع، قال: وهم مسلمون، وإنما قتلوا لرأيهم السيئ، وبهذا عمل عمر بن عبدالعزيز. قال ابن القاسم: من قال: إن الله لم يكلم موسى تكليماً استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى تكفيرهم وتكفير أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة.

وقد زوي أيضاً عن سخنون مثله فيمن قال: ليس لله كلام، إنه كافر. واختلفت الروايات عن مالك، فأطلق في رواية الشاميين: أبي منهر، ومروان بن محمد الطاطري الكفر عليهم، وقد شووز في زواج القدرية، فقال: لا تزوجه، قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [الفرقة: ٢٢١]. وروي عنه أيضاً أنه قال: أهل الأهواء كلهم كفار.

وقال: من وصف شيئاً من ذات الله تعالى، وأشار إلى شيء من جسده: يد، أو سماع، أو بصير، قطع ذلك منه، لأنه شبه الله بنفسه. وقال: فيمن قال: القرآن مخلوق -: كافر فاقتلوه.

وقال أيضاً -: في رواية ابن نافع -: يجلد، ويؤجج ضرباً، ويختبئ حتى يثوب.

وفي رواية بشر بن بكر التميمي عنه: يقتل ولا تقبل توبته.

قال القاضي أبو عبدالله البرنكاني، والقاضي أبو عبدالله الششتري من أئمة العراقيين من أصحابنا: جوابه مُخْتَلَفٌ، يُقْتَلُ الْمُسْتَبْصِرُ الداعية. وعلى هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة الصلاة خلفهم. وحكى ابن المنذر، عن الشافعي: لا يستأب القدرى.

وأكثر أقوال السلف تكفيرهم، ومن قال به: الليث بن سعد، وابن عيينة، وابن لهيعة، وزوي عنهم ذلك فيمن قال بخلق القرآن، وقاله أيضاً ابن المبارك، والأودي، ووكيع، وحفص بن غياث، وأبو إسحاق الفزاري، وهشيم، وعلي بن عاصم في آخرين، وهو من قول أكثر المحدثين، والفقهاء، والمتكلمين فيهم، وفي الخوارج، والقدرية، وأهل الأهواء المضلة، وأصحاب البدع المتأولين، وهو قول أحمد بن حنبل، وكذلك قالوا في الواقعة والشاكة في هذه الأصول.

ومن روي عنه معنى القول الآخر بترك تكفيرهم: علي بن أبي طالب، وابن عمر، والحسن البصري، وهو رأي جماعة من الفقهاء، والنظار، والمتكلمين، واحتجوا بتورث الصحابة والتابعين ورثة أهل خروءاء، ومن عُرف بالقدري ممن مات منهم، ودفعهم في مقابر المسلمين، وجزي أحكام الإسلام عليهم.

قال إسماعيل القاضي: وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل البدع: «يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا» لأنه من الفساد في الأرض، كما قال في المحارب: «إِنْ رَأَى الْإِمَامُ قَتْلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْ، قَتَلَهُ، وَفَسَادُ الْمُحَارِبِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْأَمْوَالِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَدْخُلُ أَيْضاً فِي أَمْرِ الدِّينِ مِنْ سَبِيلِ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ. وَفَسَادُ أَهْلِ الْبِدْعِ مُعْظَمُهُ عَلَى الدِّينِ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا بِمَا يُلْقُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَدَاوَةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ».

فصل

في تحقيق القول في إكفار المتأولين

قد ذكرنا مذاهب السلف في إكفار أصحاب البدع والأهواء المتأولين، ممن قال قولاً، يؤذيه مساقفه إلى كفر، وهو إذا وقف عليه لا يقول بما يؤذيه قوله إليه. وعلى اختلافهم، اختلف الفقهاء والمتكلمون في ذلك، فمنهم من صوب التكفير الذي قال به الجمهور من السلف، ومنهم من أباه ولم ير إخراجهم من سواد المؤمنين، وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين، وقالوا: هم فساق عصاة ضالّون، ونوارثهم من المسلمين، ونحكم لهم بأحكامهم، ولهذا قال سحنون: لا

إعادة على مَنْ صَلَّى خَلْفَهُمْ في وقت، ولا غيره قال: وهو قول جميع أصحاب مالك مثل: المغيرة، وابن كنانة، وأشب، قال: لأنه مُسلم، وذنبه لم يخرج من الإسلام.

واضطرب آخرون في ذلك، ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضده واختلاف قَوْلِي مالك في ذلك، وتوقفه عن إعادة الصلاة خَلْفَهُمْ منه وإلى نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق، وقال: إنها من المغوصات، إذ القوم لم يُضَرِّحُوا باسم الكفر، وإنما قالوا قولاً يُؤدِّي إليه.

واضطرب قوله في المسألة على نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس حتى قال في بعض كلامه: إنهم على رأي مَنْ كفرهم بالتأويل لا تجلُّ مُناكحتهم، ولا أكلُ ذَبَانِحِهِمْ، ولا الصلاة على ميتهم.

ويختلف في موارثهم على الخلاف في ميراث المرتد.

وقال أيضاً: نورث ميتهم ورثتهم من المسلمين، ولا نورثهم هم من المسلمين، وأكثر مثيله إلى ترك التكفير بالمال، وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري، وأكثر قوله ترك التكفير، وأن الكفر خصلة واحدة، وهو الجهل بوجود الباري عز وجل.

وقال مرة: مَنْ اعتقد أن الله جنس، أو المسيح، أو بعض مَنْ يلقاه في الطرق، فليس بعارِف به، وهو كافر.

ولمثل هذا ذهب أبو المعالي رحمه الله في أجوبته لأبي محمد: عبد الحق، وكان سألَه عن المسألة، فاعتذر له بأن العلط فيها يَضْعُب، لأن إدخال كافر في الملة، أو إخراج مسلم منها، عظيم في الدين.

وقال غيرهما من المحققين: الذي يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل، فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك بخمسة، من دم مسلم واحد.

١٨٠٠ - وقد قال عليه السلام: «إذا قالوها - يعني الشهادة - فقد عضموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحائبهم على الله».

فالمعضمة مقطوع بها مع الشهادة، ولا ترتفع ويستباح جلاؤها إلا بقاطع، ولا قاطع من شرع، ولا قياس عليه.

١٨٠١ - والفاظ الأحاديث الواردة في الباب معرضة للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية، وقوله: «لا سَهَمَ لهم في الإسلام».

١٨٠٢ - وتسميته الرافضة بالشرك، وإطلاق اللُغْنَةِ عليهم، وكذلك في الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء والبدع، فقد يَخْتَجُّ بها مَنْ يَقُولُ بالكُفْرِ، وقد يجِبُ الْآخَرُ عنها بأنه قد وردَ مِثْلُ هذه الألفاظ في الحديث في غير الكُفْرِ على طريق التغليظ، وكُفِّرَ دون كُفِّرَ، وإشراكٌ دون إشراكٍ.

وقد ورد مِثْلُهُ: في الرِّبَا، وعقوبِ الوالدين، والزَّوْجِ، والزُّوْرِ، وغير معصية.

وإذا كان محتملاً للأمرين فلا يُقْطَعُ على أحدهما إلا بدليل قاطع. ولا دليل. ١٨٠٣ - وقوله في الخوارج: «هم من شرِّ البرِّية» [مسلم (١٨٠٣)] وهذه صِفَةُ الْكُفَّارِ.

١٨٠٤ - وقال: «شَرُّ قَبِيلٍ تَحْتَ أَيْدِمِ السَّمَاءِ، طُوَيْى لَمَنْ قَتَلَهُمْ، أَوْ قَتَلُوهُ».

١٨٠٥ - وقال: «فَإِذَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ قَتْلَ عَادٍ» [مسلم (١٠٦٤)، (١٠٦٦)، البخاري (٥٠٥٧)].

وظاهرُ هذا الكُفْرُ، لا سِيَّما مع تشبيههم بعادٍ، فَيَخْتَجُّ به مَنْ يَرَى تكفيرهم، فيقول له الْآخَرُ: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِمْ لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم.

١٨٠٦ - بدليله من الحديث نَفْسُهُ: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ» [مسلم (١٠٦٤)] فَقَتَلَهُمْ هَا هُنَا حَدٌّ لَا كُفْرَ.

وَذَكَرَ عَادٍ تَشْبِيهً لِلْقَتْلِ وَحِلَّهُ، لا للمقتول، وليس كُلُّ مَنْ حُكِمَ بِقَتْلِهِ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ.

١٨٠٧ - ويعارضُهُ بقول خالدٍ في الحديث: دَغْنِي أَضْرِبْ عُقَّةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «لَعَلَّهُ يُصَلِّي» [البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٠٦٤/١٤٤)].

١٨٠٨ - فَإِنْ احْتَجُّوا بقوله عليه السلام: «يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» [البخاري (٥٠٥٨)، مسلم (١٠٦٤/١٤٣)]، فَأَخْبِرْ أَنَّ الْإِيمَانَ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ.

١٨٠٩ - وكذلك قوله: «يَمُرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ عَلَى فُوقِهِ» [البخاري (٧٥٦٢)، مسلم (١٠٦٤/١٤٨)].

١٨١٠ - ويقولُ: «سَبَقَ الْفَرْثُ وَالذَّمُّ» [البخاري (٣٦١٠)، مسلم (١٠٦٤/١٤٨)] يدلُّ على أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنَ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ.

أجابه الآخرون: إِنَّ مَعْنَى «لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» أَي لَا يَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ

بقلوبهم، ولا تشرح له صدورهم، ولا تعمل به جوارحهم.

١٨١١ - وعارضوهم بقوله: «وينماری في الفوق» [البحاري (٦٩٣١)، مسلم

(١٤٧/١٠٦٤)].

وهذا يقتضي التشكك في حاله.

١٨١٢ - وإن احتجوا بقول أبي سعيد الخدري في هذا الحديث: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «يخرج في هذه الأمة» [البحاري (٦٩٣١)، مسلم (١٤٧/١٠٦٤)]

ولم يقل: من هذه الأمة، وتخير أبي سعيد الرواية، وإتقانه اللفظ.

١٨١٣ - أجابهم الآخرون: بأن العبارة: بـ «في» لا تقتضي تصريحاً بكونهم

من غير الأمة، بخلاف لفظة «من» التي هي للتعبير وكونهم من الأمة مع أنه قد

زوي عن علي، وأبي ذر، وأبي أمامة وغيرهم في هذا الحديث: «يخرج من

أمتي» [مسلم (١٥٦/١٠٦٦)].

١٨١٤ - و«سيكون من أمتي» [مسلم (١٠٦٧)]، وحروف المعاني مشتركة،

فلا تعويل على إخراجهم من الأمة بـ «في»، ولا على إدخالهم فيها بـ «من»، لكن

أبا سعيد - رضي الله عنه - أجاز ما شاء في التبيين الذي نبه عليه. وهذا مما يدل

على سعة فقه الصحابة، وتحققهم للمعاني، واستنباطها من الألفاظ، وتحريرهم

لها، ونوqهم في الرواية.

هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة. ولغيرهم من الفرق فيها مقالات كثيرة

مضطربة سخيفة، أقربها قول جهن ومحمد بن شبيب: إن الكفر بالله الجهل به،

لا يكفر أحد بغير ذلك.

وقال أبو الهذيل: إن كل متأول كان تأويله تشبيهاً لله بخلقه، وتجويراً له في

فعله، وتكديماً لغيره فهو كافر، وكل من أثبت شيئاً قديماً لا يقال له: الله، فهو

كافر.

وقال بعض المتكلمين: إن كان ممن عرف الأضل، وبنى عليه، وكان فيما

هو من أوصاف الله فهو كافر، وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق، إلا أن يكون

ممن لم يعرف الأضل فهو مخطيء غير كافر.

وذهب غيب الله بن الحسن العنبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول

الدين فيما كان غرضه للتأويل، وفارق في ذلك فرق الأمة، إذ أجمعوا سواء على

أن الحق في أصول الدين في واحد، والمخطيء فيه آثم عاصي فاسق. وإنما

الخلاف في تكفيره.

وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني مثل قول عبيد الله عن داود الأصبهاني، قال: وحكى قومٌ عنهما أنهما قالا ذلك في كلِّ مَنْ عَلِمَ الله سبحانه من حاله استغراق الوُسْع في طلب الحقِّ من أهلِ مِلَّتِنَا أو من غيرهم.

وقال نَحْوُ هذا القول: الجاحظُ، وثُمَّامَةُ، في أنَّ كثيراً من العامة والنساء والبله ومقلدة النصارى واليهود وغيرهم لا حُجَّةَ لَهُ عليهم، إذ لم تكن لهم طِبَاعٌ يمكن معها الاستدلالُ.

وقد نحا الغزالي قريباً من هذا المنحى في كتاب «الفرقة».

وقائلُ هذا كله كافرٌ بالإجماع على كُفْرِ مَنْ لَمْ يكفر أحدًا من النصارى واليهود، وكُلُّ مَنْ فارقَ دينَ المسلمين، أو وقف في تكفيرهم، أو شكَّ.

قال القاضي أبو بكر: لأنَّ التوقيف والإجماع على كُفْرِهِمْ، فَمَنْ وقف في ذلك فقد كَذَّبَ النصَّ، والتوقيف، أو شكَّ فيه. والتكذيب أو الشكُّ فيه لا يَقَعُ إلا من كافر.

فصل

في بيان ما هو من المقالات كُفْرٌ، وما يتوقف أو يختلف فيه، وما ليس بكُفْرٍ

اعلم أنَّ تحقيق هذا الفصل، وكشف اللبس فيه، مَوْرَدُهُ الشَّرْعُ، ولا مجال للعقل فيه، والفضلُ البينُ في هذا أنَّ كلَّ مقالةٍ صرَّحت بنفي الرُّبُوبِيَّةِ، أو الوُحْدَانِيَّةِ، أو عبادةِ أحدٍ غير الله، أو مع الله - فهي كُفْرٌ -، كمقالةِ الدَّهْرِيَّةِ، وسائرِ فرقِ أصحابِ الاثنيِّين من الديَّسانية، والمَانَوِيَّةِ، وأشباههم من الصابئين، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشمس، أو القمر، أو النجوم، أو النار، أو أحدٍ غيرِ الله، مِنْ مُشْرِكِي العرب، وأهلِ الهند، والصِّين، والسُّودان، وغيرهم مِمَّنْ لا يَزْجَعُ إلى كتاب.

وكذلك القرامِطَةُ، وأصحابُ الحلُول، والتناسُخ من الباطنية، والطَّيَّارة من الروافض، والجناحية والبيانية والغرابية.

وكذلك من اعترفَ بِإِلَهِيَّةِ الله ووحدانيته، ولكنه اعتقد أنه غير حيٍّ، أو غير قديم، وأنه مُخَدَّثٌ أو مصوَّر، أو ادَّعى له ولَدًا، أو صاحبةً، أو والدًا، أو أنه متولَّدٌ مِنْ شيءٍ، أو كائنٌ عنه، أو أنَّ معه في الأزل شيئاً قديماً غيرَه، أو أنَّ ثَمَّ صانِعاً للعالمِ سِوَاهُ، أو مُدَبِّرًا غيره، فذلك كله كُفْرٌ بإجماع المسلمين، كقول

الإلهيين من الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعين، وكذلك من ادعى مجالسة الله،
والغروج إليه، ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص، كقول بغض المتصوفة،
والباطنية، والنصارى، والقرامطة.

وكذلك يُقطع على كُفْر مَنْ قال بقدّم العالم، أو بقائه، أو شك في ذلك
على مذهب بعض الفلاسفة، والذهرية، أو قال بتناسخ الأزواح، وانتقالها أبد
الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعيمها فيها بحسب زكائها وخبيثها. وكذلك من
اعترف بالإلهية والوحدانية، ولكنه جحد النبوة من أصلها عموماً، أو نبوة نبينا
- عليه السلام - خصوصاً، أو أحداً من الأنبياء الذين نصّ الله عليهم بعد علمه
بذلك، فهو كافر بلا ريب: كالبrahمة، ومعظم اليهود، والأروسيّة من النصارى،
والغرابية من الروافض الرأسمين أنّ عليّاً رضي الله عنه كان المبعوث إليه جبريل،
والمعطلة، والقرامطة، والإسماعيلية والغنبرية من الرافضة، وإن كان بعض هؤلاء
قد أشركوا في كُفْر آخر مع مَنْ قبلهم.

وكذلك مَنْ دَانَ بالوحدانية، وصحّة النبوة، ونبوة نبينا عليه السلام، ولكن
جوز على الأنبياء الكذب فيما أتوا به، ادعى في ذلك المصلحة بزعمه أو لم
يدعها فهو كافر بإجماع، كالمفلسفين، وبعض الباطنية والروافض وغلاة
المتصوفة، وأصحاب الإباحة فإن هؤلاء زعموا أنّ ظواهر الشّرع، وأكثر ما جاءت
به الرسل من الأخبار عما كان، ويكون، من أمور الآخرة، والحشر، والقيامة
والبعث والنشور والجنة والنار، ليس منها شيء على مقتضى لفظها، ومفهوم
خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم
التصريح لفضور أفهامهم، فمضمون مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر
والنواهي، وتكذيب الرسل، والارتياب فيما أتوا به.

وكذلك مَنْ أضاف إلى نبينا ﷺ تعمّد الكذب فيما بلغه أو أخبر به، أو
شك في صدقه، أو سبه، أو قال: إنّه لم يبلغ، أو استخف به، أو بأحد من
الأنبياء، أو أزرى عليهم، أو آذاهم، أو قتل نبياً، أو حاربه، فهو كافر بإجماع.

وكذلك نُكفّر مَنْ ذهب مذهب بعض القدماء في أنّ في كلّ جنس من
الحيوان نذيراً، أو نبياً من القردة والخنازير والطيور والدواب والذود ويحتج
بقوله تعالى: ﴿وَأَن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. إذ ذلك يؤدّي إلى أن
يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة. وفيه من الإزراء على هذا
المنصب المنيف ما فيه، مع إجماع المسلمين على خلافه وتكذيب قائله.

وكذلك نُكْفَرُ من اعترف من الأصول الصحيحة بِمَا تقدم، ونبوة نبينا عليه السلام، ولكن قال: كان أسود، أو مات قبل أن يَلْتَحِي، أو ليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي، لأنَّ وَصْفَهُ بغير صفاته المعلومة ﷺ نَفْيٌ له، وتكذيبٌ به.

وكذلك مَنْ ادَّعى نبوة أحدٍ مع نبينا - عليه السلام - أو بعده، كالعيسوية من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب، وكالخرموية القائلين بتواتر الرُّسل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة عليٍّ للنبي ﷺ في الرسالة وبعده، وكذلك كلُّ إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة، وكالبريغية والبيانية منهم القائلين بنبوة بزيغ وبيانٍ وأشباه هؤلاء. أو من ادَّعى النبوة لنفسه، أو جَوَزَ اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مَرَاتِبِهَا، كالفلاسفة وغلالة المتصوفة.

وكذلك من ادَّعى منهم أنه يُوحى إليه وإن لم يدَّع النبوة، أو أنه يَصْعَدُ إلى السماء ويدخل الجنة، ويأكل من ثمارها، ويعانق الحور العين، فهؤلاء كلُّهم كفارٌ مكذبون للنبي ﷺ، لأنه أخبر - عليه السلام - أنه خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأخبر أيضاً عن الله تعالى أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل إلى كافَّة الناس.

وأجمعت الأمة على حَمَلِ هذا الكلام على ظاهره، وأنَّ مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص، فلا شك في كُفْرِ هؤلاء الطوائف كلها قطعاً، إجماعاً وسمعاً.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كلِّ مَنْ دافَعَ نَصَّ الكتاب، أو خصَّ حديثاً مُجمِعاً على نقله، مقطوعاً به، مُجمِعاً على حَمَلِهِ على ظاهره، كتكفير الخوارج بإبطال الرُّجم، ولهذا نكفَرُ مَنْ دانَّ بغير مِلَّةِ المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شكَّ، أو صَحَّح مذهبهم، وإن أظهرَ مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كلِّ مذهب سِوَاهُ، فهو كافرٌ بإظهار ما أظهره من خلاف ذلك.

وكذلك تَقَطَّعَ بتكفير كلِّ قائل قال قولاً يَتَوَصَّلُ به إلى تَضْلِيلِ الأمة، وتكفير جميع الصحابة، كقول الكَمِيلِيَّةِ من الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد النبي ﷺ، إذ لم تُقدِّم عليّاً، وكُفِّرَتْ عليّاً، إذ لم يتقدَّم ويطلب حَقُّه في التقديم، فهؤلاء قد كفروا من وجوه، لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها، إذ قد انقطع نقلُها ونَقْلُ القرآن، إذ نَاقَلُوهُ كَفَرَةً على زَعْمِهِمْ، وإلى هذا - والله أعلم - أشار مالكٌ في أحدِ قَوْلَيْهِ بِقَتْلِ مَنْ كَفَرَ الصحابة.

ثم كفروا مِنْ وَجْهِ آخَرٍ بِسَبِّهِمْ النبي ﷺ على مُقتضى قولهم وزَعْمِهِمْ أنه

عهد إلى علي رضي الله عنه وهو يعلم أنه يكفر بعده - على قولهم - لغنة الله عليهم، وصلى الله على رسوله محمد وآله.

وكذلك نُكُفِّر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يضدِّر إلا من كافر، وإن كان صاحبه مُضْرَحاً بالإسلام مع فعله ذلك الفعل، كالسجود للضَّم، أو للشَّمْس، والقمر، والصليب، والنار، والسَّغْي إلى الكنائس والبيع مع أهلها والتَّزْيِين بزيهم من شدِّ الزَّناهير، وفحص الرؤوس، فقد أجمع المسلمون أنَّ هذا الفعل لا يوجد إلا من كافر، وأنَّ هذه الأفعال علامة على الكفر، وإنَّ صُرِّح فاعلها بالإسلام.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من استحلَّ القتل، أو شرب الخمر أو الزَّنا مما حرم الله تعالى بعد علمه بتحريمه، كأصحاب الإباحة من القرامطة، وبعض غلاة المتصوفة.

وكذلك نَفُطَع بتكفير كل من كذب وأنكر قاعدة من قواعد الشَّرْع، وما عُرِف يقيناً بالنقل المتواتر من فعل الرسول ﷺ، ووقع الإجماع المتصل عليه، كمن أنكر وجوب الخمس الصلوات، أو عدَّ زكاتها وسجدها، ويقول: إنما أوجب الله علينا في كتابه الصلاة على الجملة، وكونها خمساً، وعلى هذه الصفات والشروط لا أعلمه، إذ لم يرد فيه في القرآن نصُّ جلي، والخبر به عن الرسول ﷺ خبر واحد.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير من قال من الخوارج: إن الصلاة طرقي النهار، وعلى تكفير الباطنية في قولهم: إن الفرائض أسماء رجال أمرؤا بولايتهم، والخبائث والمحارم أسماء رجال أمرؤا بالبراءة منهم.

وقول بعض المتصوفة: إنَّ العبادة وطول المُجاهدة إذا صَفَّت نفوسهم أَفْضَتْ بهم إلى إسقاطها، وإباحة كل شيء لهم، ورفع عهد الشرائع عنهم.

وكذلك إنَّ أنكر مُكَبِّر مكة، أو البيت، أو المسجد الحرام، أو صفة الحج، أو قال: الحجُّ واجب في القرآن، واستفحال القيلة كذلك، ولكن كونه على هذه الهيئة المتعارفة، وأنَّ تلك البُقعة هي مكة، والبيت، والمسجد الحرام، لا أدري هل هي تلك أو غيرها؟ ولعل الناقلين عن النبي ﷺ أنَّ النبي ﷺ فسرها بهذه التفاسير غلطوا أو وهموا، فهذا ومثله لا مزية في تكفيره إنَّ كان مقنَّ يُظنُّ به علم ذلك، وممن خالط المسلمين، وامنذت صحبتهم لهم، إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام، فيقال له: سيئلك أن نسأل عن هذا الذي لم تعلمه بغد كافة المسلمين، فلا تجد بينهم خلافاً، كافة عن كافة، إلى معاصري الرسول ﷺ - أن

هذه الأمور كما قيل لك، وأن تلك البقعة هي مكة، والبيت الذي فيها هو الكعبة، والقبلة التي صلى لها الرسول ﷺ والمسلمون، وحجّوا إليها، وطافوا بها، وأن تلك الأفعال هي صفات عبادة الحج، والمراد به، وهي التي فعلها النبي ﷺ والمسلمون، وأن صفات الصلوات المذكورة هي التي فعل النبي ﷺ، وشرح مُراد الله بذلك، وأبان حدودها، فيقع لك العلم كما وقع لهم، ولا ترتأ بذلك بعد، والمُرتأب في ذلك، أو المُنكر - بعد البحث وصُحبة المسلمين - كافر باتفاق، لا يُعذر بقوله: لا أدري، ولا يُصدق فيه، بل ظاهره التستر عن التكذيب، إذ لا يمكن أنه لا يدري.

وأيضاً فإنه إذا جوّز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك، وأجمعوا أنه قول الرسول - عليه السلام - وفعله وتفسير مُراد الله به - أدخل الاستربة في جميع الشريعة -، إذ هم الناقلون لها وللقرآن، وانحلت عرى الإسلام كزة، ومن قال هذا فهو كافر.

وكذلك من أنكر القرآن، أو خرفاً منه، أو غير شيئاً منه، أو زاد فيه، كفعل الباطنية والإسماعيلية، أو من زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ، أو ليس فيه حجة ولا مُعجزة، كقول هشام القوطي، ومُعمر البصري: إنه لا يدل على الله، ولا حجة فيه لرَسُوله، ولا يدل على ثواب ولا عقاب، ولا حُكم، ولا محالة في كفرهما بهذا القول، أو من قال بقولهما.

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي ﷺ حجة له، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله، لمخالفتهم الإجماع والثقل المتواتر عن النبي ﷺ باحتجاجه بهذا كله، وتصريح القرآن به.

وكذلك من أنكر شيئاً ممّا نصّ فيه القرآن - بعد علمه - أنه من القرآن الذي في أيدي الناس، ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلاً به، ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره إمّا بأنه لم يسمع النقل عنده، ولا بلغه العلم به، أو لتجويز الوهم على ناقله، فنكفّره بالطريقين المتقدمين، لأنه مكذب للقرآن، مكذب للنبي ﷺ، لكنه تَسرّ بدعواه.

وكذلك من أنكر الجنة، أو النار، أو البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع، للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار، والحشر والنشر، والثواب والعقاب - معنى غير ظاهره -، وإنها لذات رُوحانية، ومَعانٍ باطنية، كقول النصارى،

والفلاسفة، والباطنية، وبعض المتصوفة، وزعمهم أن معنى القيامة الموت أو فناء
مخض، وانتقاض هيئة الأفلاك، وتحليل العالم، كقول بعض الفلاسفة.

وكذلك نقطع بنكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء
عليهم السلام. فأما من أنكر ما عُرف بالتواتر من الأخبار، والسير، والبلاد التي
لا ترجع إلى إبطال شريعة، ولا تقضي إلى إنكار قاعدة من الدين، كإنكار غزوة
تبوك، أو مؤتة، أو وجود أبي بكر، وعمر، أو قتل عثمان أو خلافة علي، مما
عُلم بالثقل ضرورة، وليس في إنكاره جحد شريعة، فلا سبيل إلى تكفيره بجحد
ذلك، وإنكاره وقوع العلم له، إذ ليس في ذلك أكثر من المباهنة، كإنكار هشام
وعباد وقعة الجمل، ومحاربة علي من خالفه.

فأما إن ضعف ذلك من أجل تهمة الناقلين، ووهم المسلمين أجمع، فنكفروه
بذلك لسريانه إلى إبطال الشريعة.

فأما من أنكر الإجماع المجرد، الذي ليس طريقه الثقل المتواتر عن الشارع،
فأكثر المتكلمين من الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير كل من خالف
الإجماع، أعني: الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموماً.

وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَىٰ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

١٨١٥ - وقوله عليه السلام: «من خالف الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة
الإسلام من عنقه».

وحكوا الإجماع على تكفير من خالف الإجماع.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع الذي
يختص بنقله العلماء، وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع
الكائن عن نظري، كتكفير النظام بإنكاره الإجماع، لأنه بقوله هذا مخالف إجماع
السلف على احتجاجهم به، خارق للإجماع.

قال القاضي أبو بكر: القول عندي أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده،
والإيمان بالله هو العلم بوجوده، وأنه لا يكفر أحد بقول ولا رأي إلا أن يكون
هو الجهل بالله، فإن عصي بقول أو فعل نض الله ورسوله عليه أو أجمع
المسلمون، أنه لا يوجد إلا بمن كافر، أو يقوم دليل على ذلك، فقد كفر، ليس
لأجل قوله أو فعله، لكن لما يقارنه من الكفر، فالكفر بالله لا يكون إلا بأحد
ثلاثة أمور: أحدها: الجهل بالله تعالى. والثاني: أن يأتي فعلاً أو يقول قولاً

يُخْبِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ يُجْمَعُ الْمُسْلِمُونَ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، وَالْمَشْيِ إِلَى الْكِنَائِسِ بِالتَّزَامِ الزُّنَّارِ مَعَ أَصْحَابِهَا فِي أَعْيَادِهِمْ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَوْلُ أَوْ الْفِعْلُ لَا يُمْكِنُ مَعَهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

قال: فهذانِ الضَّرْبَانِ، وإن لم يكونا جَهْلًا بِاللَّهِ، فَهُمَا عَلِمَ أَنَّ فاعِلَهُمَا كَافِرٌ مُتَسَلِّخٌ مِنَ الْإِيمَانِ، فَأَمَّا مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الذَّاتِيَّةِ، أَوْ جَحَدَهَا مُسْتَبْصِرًا فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: لَيْسَ بَعَالِمٍ، وَلَا قَادِرٍ، وَلَا مَرِيدٍ، وَلَا مُتَكَلِّمٍ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْوَاجِبَةِ لَهُ تَعَالَى، فَقَدْ نَصَّ أَثْمَنًا عَلَى الْإِجْمَاعِ عَلَى كُفْرِ مَنْ نَفَى عَنْهُ تَعَالَى الْوُصْفَ بِهَا، وَأَعْرَاهُ عَنْهَا.

وعلى هذا حَمِلَ قَوْلُ سَخْنُونٍ: مَنْ قَالَ: «لَيْسَ لِلَّهِ كَلَامٌ، فَهُوَ كَافِرٌ» وَهُوَ لَا يُكْفَرُ الْمَتَأَوَّلِينَ كَمَا قَدَمْنَاهُ.

فَأَمَّا مَنْ جَهِلَ صِفَةً مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَا هُنَا، فَكَفَرَهُ بَعْضُهُمْ، وَخُكِىَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَغَيْرِهِ، وَقَالَ بِهِ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ مَرَّةً، وَتَوَقَّفَ فِيهِ مَرَّةً.

وذهبت طائفةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا لَا يَخْرُجُهُ عَنْ حَدِّ الْإِيمَانِ، وَلَا عَنْ اسْمِهِ، وَإِلَيْهِ رَجَعَ الْأَشْعَرِيُّ، قَالَ: لِأَنَّهُ لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ اعْتِقَادًا يَقْطَعُ بِصَوَابِهِ، وَيَرَاهُ دِينًا وَشَرْعًا، وَإِنَّمَا نَكَّرَ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ مَقَالَه حَقٌّ.

١٨١٦ - وَاحْتَجَّ هَؤُلَاءِ بِحَدِيثِ السَّوْدَاءِ [مُسْلِمٌ (٥٣٧)]، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا طَلَبَ مِنْهَا التَّوْحِيدَ لَا غَيْرَ.

١٨١٧ - وَبِحَدِيثِ الْقَاتِلِ: «لَيْسَ قَدَرُ اللَّهِ عَلَيَّ» [الْبُخَارِيُّ (٧٥٠٦)]، مُسْلِمٌ (٢٧٥٦).

١٨١٨ - وَفِي رَوَايَةٍ فِيهِ: «لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ» [أَحْمَدُ (٥/٥)] ثُمَّ قَالَ: «فَقَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

قَالُوا: وَلَوْ بُوْحَتْ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنِ الصِّفَاتِ، وَكُوشِفُوا عَنْهَا، لَمَّا وَجَدَ مَنْ يَغْلَمُهَا إِلَّا الْأَقْلَ.

وَقَدْ أَجَابَ الْآخَرُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِوُجُوهٍ، مِنْهَا: أَنَّ «قَدَرَ» بِمَعْنَى قَدَرٍ، وَلَا يَكُونُ شَكُّهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى إِحْيَائِهِ، بَلْ فِي نَفْسِ الْبَغْثِ الَّذِي لَا يَغْلَمُ إِلَّا بِشَرْعٍ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ وَرَدَ عَنْهُمْ بِهِ شَرْعٌ يَقْطَعُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الشَّكُّ فِيهِ حَيْثُ كَفَرًا.

فَأَمَّا مَا لَمْ يَرِذْ بِهِ شَرْعٌ فَهُوَ مِنْ مُجَوِّزَاتِ الْعُقُولِ، أَوْ يَكُونُ «قَدَرَ» بِمَعْنَى

صَبَقَ، ويكون ما فعله بنفسه إزراء عليها، وَغَضِباً لِعُضَيَاتِهَا.

وقيل: إنما قاله وهو غَبِرَ عاقل لكلامه، ولا ضابط للفظه مما استولى عليه من الجرع، والخشية التي أذهت له، فلم يؤاخذ به.

وقيل: كان هذا في رَمَن الفترة، وحيث يقع مُجَرَّد التوحيد.

وقيل: بل هذا من مجاز كلام العرب الذي صورته الشك، ومعناه التحقيق، وهو يسمى تجاهل العارف، وله أمثلة في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿لَمَّا بَدَأْنَا أََوَّلَ خَلْقٍ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَوْ يَبَاكُم لَمَّا هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

فأما من أثبت الوصف، ونفى الصفة، فقال: أقول: عالم، ولكن لا علم له، ومنكلم ولكن لا كلام له. وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة. فمن قال بالمآل لما يؤذيه إليه قوله، ويسوقه إليه مذهبه - كفره - لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم، إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم، فكانهم صرخوا عنده بما أدى إليه قولهم.

وهكذا عند هذا سائر فرق أهل التأويل من المشبهة والقدريّة وغيرهم.

ومن لم ير أخذهم بمآل قولهم، ولا ألزمهم موجب مذهبهم، لم ير إكفارهم، قال: لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا: لا نقول لبس بعالم، ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر، بل نقول: إن قولنا لا يؤول إليه على ما أصلناه.

فعلى هذين المآخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل، وإذا فهنته انضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك.

والصواب ترك إكفارهم، والإعراض عن الحتم عليهم بالخسران، وإجراء حكم الإسلام عليهم في فصاصهم ووراثاتهم، وملاكحانهم، وديانهم، والصلاة عليهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وسائر معاملاتهم، لكنهم يُغْلَطُ عليهم بوجع الأدب، وشديد الزجر والهجر، حتى يزجفوا عن بدعتهم.

وهذه كانت سيرة الصّدر من السلف الأول قبهم، فقد كان نشأ على زمن الصحابة وبغدهم في التابعين من قال بهذه الأقوال من القدر، ورأي الخوارج، والاعتزال، فما أراحوا لهم قبرا، ولا قطعوا لأحد منهم ميراثا، لكنهم هجروهم وأدّبواهم بالضرب، والثقي، والقنل على قدر أحوالهم، لأنهم فساق، ضالّ، غصاة، أصحاب كباثر عند المحققين وأهل السنة ممن لم يقل بكفرهم منهم،

خلافاً لِمَنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمَوْقُوفُ لِلصَّوَابِ.

قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوَعْدِ والرُّؤْيَةِ، والمخلوقِ، وَخَلْقِ الأفعالِ، وَبَقَاءِ الأَعْرَاضِ، والتَّوَلُّدِ، وشَبْهِهَا مِنَ الدَّقَائِقِ، فَالْمَنْعُ فِي إِكْفَارِ المتأولِينَ فِيهَا أَوْضَحُ، إِذْ لَيْسَ فِي الجَهْلِ بِشَيْءٍ مِنْهَا جَهْلٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا أَجْمَعُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِكْفَارِ مَنْ جَهَلَ شَيْئاً مِنْهَا.

وقد قَدَّمْنَا فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ مِنَ الْكَلَامِ وَصُورَةَ الْخِلَافِ فِي هَذَا مَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ - هَا هُنَا - بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

فصل

فِي حُكْمِ الذَّمِّ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى

هَذَا حُكْمُ الْمُسْلِمِ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الذَّمِّيُّ قُرُوبِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِي ذَمِّيِّ تَنَاوُلِ مِنْ حُزْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ دِينِهِ، وَحَاجٌّ فِيهِ، فَخَرَجَ ابْنُ عُمَرَ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ فَطَلَبَهُ فَهَرَبَ.

وقال مالك، فِي كِتَابِ ابْنِ حَبِيبٍ وَ «المبسوطة» وابن القاسم فِي «المبسوط» وَكِتَابِ مُحَمَّدٍ، وَابْنِ سَخْنُونٍ: مَنْ شَتَمَ اللَّهَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرُوا قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَتَبْ.

قال ابن القاسم: إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. قال فِي «المبسوطة»: طَوْعاً.

قال أَصْبَحُ: لِأَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي بِهِ كَفَرُوا هُوَ دِينُهُمْ، وَعَلَيْهِ عُوْهُدُوا مِنْ دَعْوَى الصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ.

وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا مِنَ الْفِرْيَةِ وَالشَّتْمِ فَلَمْ يُعَاهَدُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ نَقْضٌ لِلْعَهْدِ.

قال ابن القاسم فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ: وَمَنْ شَتَمَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الأديانِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذُكِرَ فِي كِتَابِهِ قُتِلَ، إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وقال المخزومي فِي «المبسوطة» وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ، وَابْنُ أَبِي حَازِمٍ: لَا يُقْتَلُ، حَتَّى يُسْتَتَبَ، مُسْلِماً كَانَ أَوْ كَافِراً، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وقال مُطَرِّفٌ وَعَبْدُ الْمَلِكِ مِثْلَ قَوْلِ مَالِكٍ.

وقال أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ: مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى - بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرَ - قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وقد ذَكَرْنَا قَوْلَ ابْنِ الْجَلَّابِ قَبْلَ، وَذَكَرْنَا قَوْلَ عُيَيْدِ اللَّهِ، وَابْنِ لُبَابَةَ، وَشَيْخِ

الأندلسيين في النصرانية، وفُتِيَاهُمْ بِقَتْلِهَا لِسَبِّهَا - بِالْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَتْ بِهِ - الله تعالى، ولِلنَّبِيِّ ﷺ .

وإجماعهم على ذلك، وهو نَحْوُ الْقَوْلِ الْآخِرِ فِيمَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُمْ بِالْوَجْهِ الَّذِي كَفَر بِهِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ سَبِّ اللَّهِ وَسَبِّ نَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَأَنَّا عَاهَدْنَاهُمْ عَلَى الْآلِ يُظَاهِرُوا لَنَا شَيْئاً مِنْ كُفْرِهِمْ، وَالْأَ يَسْمَعُونَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، فَمَتَى فَعَلُوا شَيْئاً مِنْهُ فَهُوَ نَقَضَ لِعَهْدِهِمْ .

واختلف العلماء في الدَّمِيِّ إِذَا تَرَنَّدَ، فَقَالَ مَالِكٌ، وَمُطَرِّفٌ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ، وَأَصْبَغٌ: لَا يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ كُفْرٍ إِلَى كُفْرٍ .
وقال عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْمَاجِشُونَ: يُقْتَلُ لِأَنَّهُ دِينَ لَا يُقَرُّ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا تُوْخَذُ عَلَيْهِ جَزِيَّةٌ . قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: وَلَا أَعْلَمُ مَنْ قَالَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ غَيْرِهِ .

فصل

فِي حُكْمِ الْمُفْتَرِي الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ أَوْ خَالِقَهُ

هَذَا حُكْمٌ مَنْ صَرَخَ بِسَبِّهِ وَإِضَافَةٍ لَهُ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، فَأَمَّا مُفْتَرِي الْكَذِبِ عَلَيْهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ، أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خَالِقَهُ، أَوْ رَبَّهُ، أَوْ قَالَ: لَيْسَ لِي رَبٌّ، أَوْ الْمَتَكَلِّمُ بِمَا لَا يُغْفَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي سُكْرِهِ، أَوْ غَمْرَةٍ جُنُونِهِ، فَلَا خِلَافَ فِي كُفْرٍ قَائِلٍ ذَلِكَ وَمُدَّعِيهِ مَعَ سَلَامَةِ عَقْلِهِ كَمَا قَدِمْنَا، لَكِنَّهُ تَقَبَّلَ تَوْبَتَهُ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَتَنَفَّعَ إِنْابَتُهُ، وَتَنَجَّيَ مِنَ الْقَتْلِ فَيَتَنَبَّهُ، لَكِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ عَظِيمِ النَّكَالِ، وَلَا يُرْفَقُ عَنْ شَدِيدِ الْعِقَابِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ زَجْراً لِمِثْلِهِ عَنْ قَوْلِهِ، وَلَهُ عَنِ الْعَوْدَةِ لِكُفْرِهِ أَوْ جَهْلِهِ، إِلَّا مَنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَعُرفَ اسْتِهَانَتُهُ بِمَا أَتَى بِهِ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى سُوءِ طَوْبَتِهِ، وَكَذِبِ تَوْبَتِهِ، وَصَارَ كَالزُّنْدِيقِ الَّذِي لَا تَأْمَنُ بَاطِنُهُ، وَلَا تُقْبَلُ رُجُوعُهُ، وَحُكْمُ السُّكْرَانِ فِي ذَلِكَ حُكْمُ الصَّاجِحِ .

وَأَمَّا الْمَجْنُونُ وَالْمَغْمُورُ فَمَا عَلِمَ أَنَّهُ قَالَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ غَمْرَتِهِ، وَذَهَابَ مَيِّزُهُ بِالْكَلِيَّةِ فَلَا نَظَرَ فِيهِ، وَمَا فَعَلَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ مَيِّزِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَقْلُهُ وَسَقَطَ تَكْلِيفُهُ أَذْبَ عَلَى ذَلِكَ لِيُنْزَجَرَ عَنْهُ، كَمَا يُوْذَبُ عَلَى قَبَاحِ الْأَفْعَالِ، وَيُوْأَلَى أَذْبَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَنْكَفَّ عَنْهُ، كَمَا تُوْذَبُ الْبَهِيمَةُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ حَتَّى تُرَاضَ .
وَقَدْ حَرَّقَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ ادَّعَى لَهُ الْإِلَهِيَّةَ، وَقَدْ قَتَلَ

عبد الملك بن مَرْوَانَ الحَارِثَ الْمُتَنَبِّئَةَ وصلبه، وفعل ذلك غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الخلفاء والملوك بِأَسْبَاهِهِمْ.

وأجمع علماء وقتهم على صَوَابِ فِعْلِهِمْ، والمخالف في ذلك مِنْ كُفَرِهِمْ كَافِرٌ.
وأجمع فقهاء بَغْدَادَ - أيامَ المقتدر - من المالكية، وقَاضِي قُضَاتِهَا أَبُو عُمَرَ المالكِي على قَتْلِ الحَلَاجِ وَصَلْبِهِ، لِدَعْوَاهُ الإلهِيَّةِ، والقولِ بالحُلُولِ، وقوله: أنا الحقُّ، مع تَمَسُّكِهِ فِي الظَّاهِرِ بِالشَّرِيعَةِ، ولم يَقْبَلُوا تَوْبَتَهُ.
وكذلك حكموا فِي ابْنِ أَبِي العَزَاقِرِ - وكان على نحو من مذهب الحَلَاجِ - بعد هذا أيامَ الرَاضِي بالله، وقَاضِي قُضَاةِ بَغْدَادِ يَوْمَئِذٍ أَبُو الحُسَيْنِ بنِ أَبِي عَمْرِو المالكِي.

وقال ابنُ عبد الحَكَمِ فِي «المبسوط»: مَنْ تَنَبَّأ قُتِلَ.
وقال أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: مَنْ جَحَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُهُ أَوْ رَبُّهُ، أَوْ قَالَ: لَيْسَ لِي رَبٌّ، فَهُوَ مُرْتَدٌّ.
وقال ابنُ القَاسِمِ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ، وَابْنُ حَبِيبٍ فِي «العُنَيْنِيَّةِ» - فِيمَنْ تَنَبَّأَ - يُسْتَنَابُ، أَسْرَ ذَلِكَ، أَوْ أَعْلَنَهُ، وَهُوَ كَالْمُرْتَدِّ.
وبِهِ قَالَ سَخْنُونُ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ أَشْهَبُ فِي يَهُودِيَّةِ تَنَبَّأَ، وَادَّعَى أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَيْنَا: إِنْ كَانَ مُغْلِنًا بِذَلِكَ اسْتَبِيبَ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا قُتِلَ.
وقال أَبُو مُحَمَّدٍ بنِ أَبِي زَيْدٍ - فِيمَنْ لَعَنَ بَارِئَهُ، وَادَّعَى أَنَّ لِسَانَهُ زَلٌّ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَعَنَ الشَّيْطَانَ -: يُقْتَلُ بِكُفْرِهِ، وَلَا يُقْبَلُ عُذْرُهُ.
وهذا على القولِ الآخرِ مِنْ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.
وقال أَبُو الحَسَنِ القَاسِمِيُّ - فِي سَكْرَانٍ، قَالَ: أَنَا اللهُ، أَنَا اللهُ -: إِنْ تَابَ أَدَّبَ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ طَوَّلَبَ مَطَالِبَةَ الزُّنْدِيقِ، لِأَنَّ هَذَا كُفْرُ الْمُتَلَاعِينَ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ، وَسُخْفِ اللَّفْظِ،
مِمَّنْ لَمْ يَضْبِطْ كَلَامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَقْتَضِي
الاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ

وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ وَسُخْفِ اللَّفْظِ مِمَّنْ لَمْ يَضْبِطْ كَلَامَهُ وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ بِمَا يَقْتَضِي الاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ، أَوْ تَمَثَّلَ فِي بَعْضِ

الاشياء ببعض ما عظم الله من ملكوته، أو نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلا في حق خالقه غير قاصد للكفر والاستخفاف، ولا عامد للإلحاد به، فإن تكرّر هذا منه، وعُرف به، دُلّ على تُلَاعِبِهِ بدينه، واستخفافه بحُرْمَةِ رَبِّهِ، وجهله بعظيم عزّته وكبريائه، وهذا كفر لا مزية فيه.

وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتقصّ لربه.

وقد أفتى ابن حبيب، وأصبغ بن خليل من فقهاء قُرطبة بقتل المعروف بابن أخيه عجب، وكان خرج يوماً، فأخذهُ المَطَرُ، فقال بدأ الخَزَارُ يرش جلوده. وكان بعض الفقهاء بها: أبو زيد صاحب «الثمانية»، وعبدالأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى، قد توقّفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب.

وأفتى بمثله القاضي حينئذ موسى بن زياد، فقال ابن حبيب: دمه في غنقي، أَيْشَتُم رُبَّ عَبْدَنَاهُ، ثم لا تَنْتَصِرُ لَهُ؟! إِنَّا إِذَا لَعِبَيْدُ سَوْءٍ، وما نحن له بعبادين، ويكى، ورفع المجلس إلى الأمير بها: عبد الرحمن بن الحكم الأموي. وكانت عجب - عمّة هذا المطلوب - مِنْ حظاياه، وأُعْلِمَ باختلاف الفقهاء، فخرج الإذد من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه، وأمر بقتل المذكور فقتل، وضُلب بحضرة الفقيهين، وعُزِلَ القاضي لثُهمته بالمداينة في هذه القصة، ووثق ببقية الفقهاء وسبهم.

وأما من صدرت عنه مِنْ ذلك الهنّة الواحدة والفلتة الشاردة - ما لم يكن تنقّصاً وإزاء - فيعاقب عليها ويؤدّب بِقَدْرِ مقتضاها، وشُنْعِ معناها، وصورة حال قائلها، وشرح سببها ومقارنها.

وقد سُئل ابن القاسم رحمه الله عن رجل نادى رجلاً باسمه، فأجابه: لَيْتَكَ، اللهم! لَيْتَكَ.

فقال: إِنْ كَانَ جاهلاً، أو قاله على وَجْهِ سَفَهٍ فلا شيء عليه.

قال القاضي أبو الفضل: وشرح قَوْلُهُ أَنَّهُ لَا قَتْلَ عَلَيْهِ، والجاهل يُزَجَرُ وَيُعْلَمُ، والسفيه يُؤدّب، ولو قالها على اعتقاد إنزاله مَنزِلَةً رَبِّهِ لكفر. هذا مُقْتَضَى قَوْلِهِ.

وقد أسرف كثير من سُخفاء الشعراء ومُتَهميهم في هذا الباب، واستخفوا عظيم هذه الحرمة، فأتوا من ذلك بما تُنَزِّهُ كِتَابُنَا وَلِسَانُنَا وَأَفْلَامُنَا عَنْ ذِكْرِهِ، ولولا أَنَّا قَصَدْنَا نَصَّ مسائل حكيانها لَمَا ذَكَرْنَا شَيْئاً مما يثقل ذكره علينا مما حكيانه في هذه الفصول.

وأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليط اللسان، كقول بعض الأعراب:

رَبِّ الْعِبَادِ مَا لَنَا وَمَا لَكَ قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا فَمَا بَدَا لَكَ
أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْغَيْثَ لَا أَبَا لَكَ

في أشباه لهذا من كلام الجهال.
ومن لم يَقْوَمَهُ ثِقَافُ تَأْدِيبِ الشَّرِيعَةِ وَالْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَلَّمَا يَصُدِّرُ إِلَّا
مِنْ جَاهِلٍ، يَجِبُ تَعْلِيمُهُ، وَزَجْرُهُ، وَالْإِغْلَاطُ لَهُ عَنِ الْعُودَةِ إِلَى مِثْلِهِ.
قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الْخَطَّابِيُّ: وَهَذَا تَهَوُّرٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مُنْزَعٌ
عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا.

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: لِيُعْظَمَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَقُولَ: أَخْزَى اللَّهُ الْكَلْبَ، وَقَعَلَ بِهِ كَذَا وَكَذَا.
قَالَ: وَكَانَ بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ مَشَائِخِنَا قَلَّمَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا فِيمَا
يَتَّصِلُ بِطَاعَتِهِ. وَكَانَ يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ: جُزَيْتَ خَيْرًا. وَقَلَّمَا يَقُولُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا،
إِعْظَامًا لِاسْمِهِ تَعَالَى أَنْ يُمْتَهَنَ فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ.

وَحَدَّثَنَا الثَّقَلَةُ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ الشَّاشِيَّ كَانَ يَعْيبُ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ كَثْرَةَ
خَوْضِهِمْ فِيهِ تَعَالَى، وَفِي ذِكْرِ صِفَاتِهِ، إِجْلَالًا لِاسْمِهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: هَؤُلَاءِ
يَتَمَنَّدُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَيَنْزِلُ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ تَنْزِيلُهُ فِي بَابِ سَابِّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْوَجْهِ
الَّتِي فَضَّلْنَاهَا. وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ

وَاسْتَخَفَّ بِهِمْ

وَحُكْمُ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَاسْتَخَفَّ
بِهِمْ، أَوْ كَذَّبَهُمْ فِيمَا أَتَوْا بِهِ، أَوْ أَنْكَرَهُمْ أَوْ جَحَدَهُمْ، حُكْمُ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
عَلَى مَسَاقٍ مَا قَدَمْنَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُوا نَحْنُ مُبْتِغِينَ وَنَكْفُرُ بِبَعْضِ مَا يُبْعَثُ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا مَا مَكَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿مَنْ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ مَّامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال مالك في كتاب ابن حبيب، ومحمد، وقاله ابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبدالحكم، وأصبغ، وسخون - فيمن شتم الأنبياء أو أحدا منهم أو تنقصه -: قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَبْتَب. وَمَنْ سَبَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسَلَّمَ. وَرَوَى سَخُونُ، عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ: مَنْ سَبَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كُفِّرَ ضَرْبُ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُسَلَّمَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ فِي هَذَا الْأَصْلِ.

وقال القاضي بقَرْطَبَةَ سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ فِي بَعْضِ أَجَوِبَتِهِ: مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى، وَمَلَائِكَتَهُ قُتِلَ.

وقال سَخُونُ: مَنْ شَتَمَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَعَلِيهِ الْقَتْلُ. وَفِي «التَّوَادِرِ» عَنْ مَالِكٍ فِيمَنْ قَالَ: إِنَّ جَبْرِيلَ أَخْطَأَ بِالْوَحْيِ، وَإِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: اسْتَشْيِبَ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وَنَحْوَهُ عَنْ سَخُونٍ وَهَذَا قَوْلُ الْغُرَابِيَّةِ مِنَ الرُّوَافِضِ، سَمُّوا بِذَلِكَ لِقَوْلِهِمْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشْبَهَ بَعْلِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ.

وقال أبو حنيفة وأصحابه على أضْلِهِمْ: مَنْ كَذَّبَ بِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ تَنَقَّصَ أَحَدًا مِنْهُمْ، أَوْ بَرَى مِنْهُ فَهُوَ مُرْتَدٌّ.

وقال أبو الحسن الْقَاسِمِيُّ - فِي الَّذِي قَالَ لِآخِرٍ -: كَانَ وَجْهُ مَالِكِ الْغَضْبَانِ: لَوْ عُرِفَ أَنَّهُ قَصَدَ ذِمَّ الْمَلِكِ قُتِلَ.

قال القاضي أَبُو الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا كُلُّهُ فِيمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِمْ بِمَا قُلْنَا عَلَى جُفْلَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، أَوْ عَلَى مُعَيَّنٍ مِّمَّنْ حَقَّقْنَا كَوْنَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ مِمَّنْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ حَقَّقْنَا عِلْمَهُ بِالْخَيْرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَالْمَشْهُورِ الْمُتَقَيِّ عَلَيْهِ بِالْإِجْمَاعِ الْقَاطِعِ، كَجَبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَمَالِكِ، وَخَزَنَةِ الْجَنَّةِ، وَجَهَنَّمَ، وَالزَّيْنَانِيَّةِ، وَحَمَلَةِ الْغَرَضِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ سُمِّيَ فِيهِ مِنْ

الأنبياء، وكعزرائيل، وإسرافيل والحَفْظَة، ورضوان، ومُنْكَر، وَتَكْبِير من الملائكة المتَّفَق على قَبُولِ الْخَبَرِ بهما، فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَثْبُتِ الْأَخْبَارُ بِتَغْيِينِهِ وَلَا وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَى كَوْنِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْأَنْبِيَاءِ، كَهَارُوتَ وَمَارُوتَ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَالْخَضِرَ، وَلُقْمَانَ، وَذِي الْقُرْنَيْنِ، وَمَرْيَمَ، وَأَسِيَةَ، وَخَالِدَ بْنِ سَنَانَ الْمَذْكُورِ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَهْلُ الرُّسِّ، وَرَزَادَشْتُ الَّذِي تَدْعِي الْمَجُوسُ وَالْمُؤَرِّخُونَ نَبُوَّتَهُ، فَلَيْسَ الْحُكْمُ فِي سَابِقِهِمْ، وَالْكَافِرُ بِهِمْ، كَالْحُكْمِ فِيْمَنْ قَدَّمْنَا، إِذْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُمْ تِلْكَ الْحُزْمَةُ، وَلَكِنْ يُزَجَرُ مَنْ تَنَقَّصَهُمْ وَأَذَاهُمْ، وَيُؤَدَّبُ بِقَدْرِ حَالِ الْمَقُولِ فِيهِ، لَا سِيَّيَمَا مَنْ عُرِفَتْ صِدْقِيَّتُهُ، وَفَضْلُهُ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ تَثْبُتْ نَبُوَّتُهُ.

وَأَمَّا إِنْكَارُ نَبوتِهِمْ، أَوْ كَوْنُ الْآخَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ لِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ زَجَرَ عَنِ الْخَوْضِ فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنْ عَادَ أَذْبَ، إِذْ لَيْسَ لَهُمُ الْكَلَامُ فِي مِثْلِ هَذَا.

وَقَدْ كَرِهَ السَّلَفُ الْكَلَامَ فِي مِثْلِ هَذَا مِمَّا لَيْسَ تَحْتَهُ عَمَلٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، فَكَيْفَ لِلْعَامَةِ؟

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا

وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا، أَوْ جَحَدَهُ، أَوْ حَرَفَهُ مِنْهُ، أَوْ آيَةً، أَوْ كَذَّبَ بِهِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ مِمَّا صُرِّحَ بِهِ فِيهِ مِنْ حُكْمٍ، أَوْ خَبَرٍ، أَوْ أَثْبَتَ مَا نَفَاهُ، أَوْ نَفَى مَا أَثْبَتَهُ، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِذَلِكَ أَوْ شَكٍّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِإِجْمَاعٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَكَتَبْنَا عَرِيضٌ ۖ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤١﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

١٨١٩ - حَدَّثَنَا الْفَقِيهُ أَبُو الْوَلِيدِ: هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٣)، أَحْمَدُ (٤٢٤/٢)]، تَوَوَّلَ بِمَعْنَى الشَّكِّ، وَيَمَعْنَى الْجِدَالِ.

١٨٢٠ - وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «مَنْ جَحَدَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ حُلَّ ضَرْبُ عُنُقِهِ» [ابن ماجة (٢٥٣٩)]، وكذلك إِنْ جَحَدَ التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَكُتِبَ لِلَّهِ الْمِيزَةُ، أَوْ كَفَرَ بِهَا، أَوْ لَعَنَهَا، أَوْ سَبَّهَا، أَوْ اسْتَحَفَّ بِهَا فَهُوَ كَافِرٌ.

وقد أجمع المسلمون أَنَّ الْقُرْآنَ الْمُنْلَوَّ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصْحَفِ الَّذِي بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا جَمَعَهُ الدُّقَّتَانِ مِنْ أَوَّلِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْقَافَةِ: ٢﴾ إِلَى آخِرِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقَلِيِّ﴾ ﴿الْقَلْقَلِ: ١﴾. أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَوَحْيُهُ الْمَنْزُورُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا فِيهِ حَقٌّ، وَأَنَّ مَنْ نَقَصَ مِنْهُ حَرْفًا قَاصِدًا لِلذِّكْرِ، أَوْ بَدَّلَهُ بِحَرْفٍ آخَرَ مَكَانَهُ، أَوْ زَادَ فِيهِ حَرْفًا مِمَّا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ الْمَصْحَفُ الَّذِي وَقَعَ الْإِحْمَاعُ عَلَيْهِ، وَأَجْمَعَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَامِدًا لِكُلِّ هَذَا، أَنَّهُ كَافِرٌ.

ولهذا رأى مالك قُتِلَ مِنْ سَبِّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْفَرِيزَةِ، لِأَنَّهُ خَالَفَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ قُتِلَ، أَيْ لِأَنَّهُ كَذَّبَ بِمَا فِيهِ. وقال ابن القاسم: مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ مُوسَى تَكْلِيمًا يَقْتُلُ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ.

وقال محمد بن سَخْنُونٍ - فِيمَنْ قَالَ: الْمَعْوِذَاتُ لَيْسَتْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -: يُضْرَبُ عُنُقُهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ.

وكذلك كُلُّ مَنْ كَذَّبَ بِحَرْفٍ مِنْهُ. قَالَ: وَكَذَلِكَ إِنْ شَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَشَهِدَ آخَرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، لِأَنَّهُمَا اجْتَمَعَا عَلَى أَنَّهُ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ.

وقال أَبُو عَثْمَانَ بْنُ الْحَدَّادِ: جَمِيعُ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّوْحِيدَ مُتَعَفِّقُونَ أَنَّ الْجَحْدَ لِحَرْفٍ مِنَ التَّنْزِيلِ كُفْرٌ.

وكان أَبُو الْعَالِيَةِ إِذَا قَرَأَ عِنْدَهُ رَجُلٌ لَمْ يَقُلْ لَهُ: لَيْسَ كَمَا قَرَأْتَ، وَيَقُولُ: أَمَّا أَنَا فَأَقْرَأُ كَذَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: أَرَاهُ سَمِعَ أَنَّهُ مِنْ كَفَرٍ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلَّهُ.

١٨٢٠م - وقال عبد الله بن مسعود: مَنْ كَفَرَ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلَّهُ.

وقال أَصْبَغُ بْنُ الْقُرْجِ: مَنْ كَذَّبَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَذَّبَ بِهِ كُلَّهُ. وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ.

وقد - سئل القابسي - عمن خاصم يهودياً، فحلف له بالتوراة، فقال له الآخر: لعن الله التوراة، فشهد عليه بذلك شاهداً، ثم شهد آخر أنه سأل عن القضية فقال: إنما لعنتُ توراة اليهود، فقال أبو الحسن: الشاهد الواحد لا يُوجب القتل، والثاني علّق الأمر بصفة تحمل التأويل، إذ لعله لا يرى اليهود متمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتخريفهم.

ولو اتفق الشاهدان على لعن التوراة مجزئاً لضاق التأويل.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ - أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد رضي الله عنهما - لقراءته وإقرائه بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه، والتوبة منه سجلاً، أشهد فيه بذلك على نفسه في مجلس الوزير أبي علي بن مقلّة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره.

وأفتى - أبو محمد بن أبي زَيْد بالأدب - فيمن قال لصبي: لعن الله معلّمك وما علّمك. وقال: أردت سوء الأدب، ولم أريد القرآن. قال أبو محمد: وأما من لعن المصحف فإنه يُقتل.

فصل

وَسَبُّ آلِ بَيْتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -

وَتَقْضُصُهُمْ حَرَامٌ مَلْعُونٌ فَاعِلُهُ

١٨٢١ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا أبو الحسين الصيرفي، وأبو الفضل العدل قالا: حدثنا أبو يغلي، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا عبيدة بن أبي ربيعة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن مفضل، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّٰهُ اللّٰهُ فِي أَصْحَابِي، اللّٰهُ اللّٰهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَخَلَّوْهُمْ غَرْضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحْبَبَهُمْ فَبِحُبِّي أَحْبَبَهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبْغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللّٰهُ، وَمَنْ آذَى اللّٰهُ يُوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ» [الترمذي (٣٨٦٢)].

١٨٢٢ - وقال عليه السلام: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللّٰهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللّٰهُ مِنْهُ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا».

١٨٢٣ - وقال عليه السلام: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَإِنَّهُ يَجِيءُ قَوْمٌ فِي آخِرِ

الزَّمانَ يَسُبُّونَ أَصْحَابِي فَلَا تُصَلُّوا عَلَيْهِمْ، وَلَا تُصَلُّوا مَعَهُمْ، وَلَا تَتَاكَبُوا مَعَهُمْ، وَلَا تَجَالِسُوا مَعَهُمْ، وَإِنْ مَرَضُوا فَلَا تُعَوِّدُوهُمْ».

١٨٢٤ - وعنه عليه السلام: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

١٨٢٥ - وقد أَعْلَمَ النَّبِيُّ - عليه السلام - أَنَّ سَبَّهُمْ وَأَذَاهُمْ يُؤْذِيهِ، وَأَذَى النَّبِيِّ ﷺ حَرَامٌ، فَقَالَ: «لَا تُؤْذُونِي فِي أَصْحَابِي، وَمَنْ أَذَاهُمْ فَقَدْ أَذَانِي».

١٨٢٦ - وقال لبعض نسائه: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ» [البخاري (٢٥٨١)].

١٨٢٧ - وقال في فاطمة: «بِضْعَةٍ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا أَذَاهَا، وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي».

وقد اختلف العلماء في هذا، فمشهور مذهب مالك في ذلك: الاجتهاد والأدب الموزع: قال مالك رحمه الله: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَهُ أَدَبٌ.

وقال أيضاً: مَنْ شَتَمَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فَإِنْ قَالَ: كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ وَكُفْرٍ قُتِلَ، وَإِنْ شَتَمَهُمْ بِغَيْرِ هَذَا مِنْ مُشَاتِمَةِ النَّاسِ نَكَلًا شَدِيدًا.

وقال ابن حبيب: مَنْ غَلَا مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى بُغْضِ عِثْمَانَ وَالْبِرَاءَةِ مِنْهُ أَدَبٌ أَدْبًا شَدِيدًا، وَمَنْ زَادَ إِلَى بُغْضِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ أَشَدُّ، وَيَكْرُرُ ضَرْبُهُ، وَيُطَالُ سِجْنُهُ حَتَّى يَمُوتَ وَلَا يُلْغَ بِهِ الْقَتْلُ إِلَّا فِي سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ.

وقال سخنون: مَنْ كَفَّرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَلِيًّا، أَوْ عِثْمَانَ، أَوْ غَيْرَهُمَا، يُوجِبُ ضَرْبًا.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْد، عَنْ سَخْنُونٍ: مَنْ قَالَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعِثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَكُفْرٍ قُتِلَ. وَمَنْ شَتَمَ غَيْرَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ بِمِثْلِ هَذَا نُكِّلَ النَّكَالُ الشَّدِيدُ.

ورَوَى عَنْ مَالِكٍ: مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ جُلِدَ، وَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ، قِيلَ لَهُ: لِمَ؟ قَالَ: مَنْ رَمَاهَا فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ.

وقال ابن شعبان عنه: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، فَمَنْ عَادَ لِمِثْلِهِ فَقَدْ كَفَرَ.

وحكى أبو الحسن الصَّقَلِيُّ: أَنَّ الْقَاضِي أَبَا بَكْرٍ بْنُ الطَّيِّبِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مَا نَسَبَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ سَبَّحَ نَفْسَهُ لِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ...﴾ [الأنبياء: ٢٦] فِي آيٍ كَثِيرَةٍ.

وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] سَبَّحَ نَفْسَهُ فِي تَزْيِيهِهَا مِنَ السَّوِّءِ، كَمَا سَبَّحَ نَفْسَهُ فِي تَبَرُّثِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ السَّوِّءِ.

وهذا يشهد لقول مالك في قتل مَنْ سَبَّ عائشة.

ومعنى هذا - والله أعلم - أَنَّ الله تعالى لَمَّا عَظَّمَ سَبَّهَا كَمَا عَظَّمَ سَبَّهُ، وَكَانَ سَبُّهَا سَبًّا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَرَنَ سَبَّ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَذَاهُ بِأَذَاهُ تَعَالَى، وَكَانَ حُكْمُ مُؤْذِيهِ تَعَالَى - الْقَتْلُ -، وَكَانَ مُؤْذِي نَبِيِّهِ كَذَلِكَ، كَمَا قَدَمْنَاهُ.

وَسَمَّ رَجُلٌ عَائِشَةَ بِالْكُوفَةِ، فَقَدَّمَ إِلَى مُوسَى بْنِ عِيسَى الْعَبَّاسِيِّ الْهَاشِمِيِّ فَقَالَ: مَنْ حَضَرَ هَذَا؟ فَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى: أَنَا، فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ، وَحُلِقَ رَأْسُهُ، وَأُسْلِمَ لِلْحَجَّامِينَ.

١٨٢٨ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ نَذَرَ قَطْعَ لِسَانِ عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، إِذْ شَتَمَ الْمُقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ الْكَنْدِيِّ فَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: دَعُونِي أَقْطَعُ لِسَانَهُ حَتَّى لَا يَشْتَمَ أَحَدٌ بَعْدَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٨٢٩ - وَرَوَى أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أُنْبِيَ بِأَعْرَابِيِّ يَهْجُو الْأَنْصَارَ، فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ لَهُ صَحْبَةً لَكَفَيْتُكُمْوهُ.

قال مالك: مَنْ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفِيءِ حَقٌّ، قَدْ قَسَمَ اللَّهُ الْفِيءَ فِي ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ فَقَالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وهؤلاء هم الأنصار.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فمن تَنَقَّصَهُمْ فَلَا حَقَّ لَهُ فِي فَيءِ الْمُسْلِمِينَ.

وفي كتاب ابن شُعْبَانَ: مَنْ قَالَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ ابْنُ زَانِيَةٍ، وَأُمُّهُ مُسْلِمَةٌ، خُذْ عِنْدَ بَعْضِ أَصْحَابِنَا حَدِيثَيْنِ: حَدًّا لَهُ، وَحَدًّا لِأُمِّهِ، وَلَا أَجْعَلْهُ كَقَاذِفِ الْجَمَاعَةِ فِي كَلِمَةٍ لِفَضْلِ هَذَا عَلَى غَيْرِهِ.

١٨٣٠ - ولقوله عليه السلام: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاجْلِدُوهُ».

قال: وَمَنْ قَذَفَ أُمَّ أَحَدِهِمْ، وَهِيَ كَافِرَةٌ، حُدَّ حَدُّ الْفِرْيَةِ، لِأَنَّهُ سَبَّ لَهُ، فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ هَذَا الصَّحَابِي حَيًّا قَامَ بِمَا يَجِبُ لَهُ، وَإِلَّا فَمَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ قَبُولُ قِيَامِهِ، قَالَ: وَلَيْسَ هَذَا كَحَقْوِ غَيْرِ الصَّحَابَةِ لِحُزْمَةِ هَؤُلَاءِ بِنَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَوْ سَمِعَهُ الْإِمَامُ، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ، كَانَ وَلِيُّ الْقِيَامِ بِهِ، قَالَ: وَمَنْ سَبَّ غَيْرَ عَائِشَةَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَفِيهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ بِسَبِّ خَلِيلَتِهِ.

وَالْآخَرُ: أَنَّهَا كَسَائِرِ الصَّحَابَةِ، يُجْلَدُ حَدُّ الْمُفْتَرِي، قَالَ: وَبِالْأَوَّلِ أَقُولُ. وروى أبو مُضْعَب، عن مالك: مَنْ انتسب إلى بيتِ النَّبِيِّ ﷺ: يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيعًا، وَيُشْهَرُ، وَيُخْبَسُ طَوِيلًا حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُهُ، لِأَنَّهُ اسْتَخْفَافَ بِحَقِّ الرِّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَفْتَى أَبُو الْمُطَرِّفِ الشَّعْبِيُّ - فَفَقِيهُ مَالِقَةَ - فِي رَجُلٍ أَنْكَرَ تَحْلِيفَ امْرَأَةٍ بِاللَّيْلِ، وَقَالَ: لَوْ كَانَتْ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ مَا حُلِفْتُ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَصَوَّبَ قَوْلَهُ بَعْضُ الْمُتَسِمِينَ بِالْفَقْهِ، فَقَالَ أَبُو الْمُطَرِّفِ: ذَكَرْتُ هَذَا لِابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ فِي مِثْلِ هَذَا يُوجِبُ عَلَيْهِ الضَّرْبَ الشَّدِيدَ، وَالسَّجْنَ الطَوِيلَ، وَالْفَقِيهُ الَّذِي صَوَّبَ قَوْلَهُ هُوَ أَحَقُّ بِاسْمِ الْفِسْقِ مِنْ اسْمِ الْفَقْهِ، فَيَتَقَدَّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَيُزَجَرُ، وَلَا تُقْبَلُ فَتْوَاهُ، وَلَا شَهَادَتُهُ، وَهِيَ جُزْءَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ، وَيَبْغَضُ فِي اللَّهِ.

وقال أبو عِمْرَانٍ - فِي رَجُلٍ قَالَ: لَوْ شَهِدَ عَلِيٌّ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقَ -: إِنَّهُ إِنْ كَانَ أَرَادَ أَنْ شَهِدْتَهُ فِي مِثْلِ هَذَا، لَا يَجُوزُ فِيهِ الشَّاهِدُ الْوَاحِدُ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَرَادَ غَيْرَ هَذَا، فَيُضْرَبُ ضَرْبًا يَبْلُغُ بِهِ حَدُّ الْمَوْتِ. وَذَكَرُوهَا رَوَايَةً.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: هُنَا انْتَهَى الْقَوْلُ بِنَا فِيمَا حَرَّزْنَاهُ، وَانْتَجَزَ الْغَرَضُ الَّذِي انْتَحَيْنَاهُ وَاسْتَوْفِيَ الشَّرْطُ الَّذِي شَرَطْنَاهُ، مِمَّا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ قِسْمٍ مِنْهُ لِلْمُرِيدِ مَقْنَعٌ، وَفِي كُلِّ بَابٍ مَتَهَجٌ إِلَى بُغْيَتِهِ وَمَتَرَعٌ.

وقد سَفَرْتُ فِيهِ عَنْ نُكَبَتِ تَسْتَعْرَبُ وَتُسْتَبَدَعُ، وَتَرْغَعُ فِي مَشَارِبٍ مِنَ التَّحْقِيقِ لَمْ يورَدَ لَهَا قَبْلُ فِي أَكْثَرِ التَّنَاصِيفِ مَشْرَعٌ، وَأَوْدَعْتُهُ غَيْرَ مَا فَضَّلْتُ، وَدَثْتُ لَوْ وَجَدْتُ مَنْ يَسْطُرُ قَبْلِي الْكَلَامَ فِيهِ، أَوْ مُقْتَدِي يَفِيدُنِيهِ عَنْ كِتَابِهِ أَوْ فِيهِ، لِأَكْتَفِي بِمَا أَرَوِيهِ عَمَّا أَرَوِيهِ.

وإلى الله تعالى جَزِيلُ الصُّرَاعَةِ فِي الْجَمَّةِ بِقَبُولِ مَا مِنْهُ لَوَجْهِهِ، وَالْعَفْوِ عَمَّا تَخَلَّلَهُ مِنْ تَزْيِينٍ وَتَضَعٍ لغيره، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا ذَلِكَ بِجَمِيلِ كَرَمِهِ وَعَفْوِهِ، لِمَا أَوْدَعْنَاهُ

من شَرَفٍ مُضْطَفَاه، وَأَمِينٍ وَخِيهِ، وَأَشْهَرْنَا بِهِ جَفَوْنَا لَتَتَّبِعَ فَضَائِلَهُ، وَأَغْمَلْنَا فِيهِ خَوَاطِرَنَا مِنْ إِبْرَازِ خَصَائِصِهِ وَوَسَائِلِهِ، وَيَخِيْمِي أَعْرَاضَنَا عَنْ نَارِهِ الْمُوقَدَةِ لِحِمَايَتِنَا كَرِيمَ عِزِّهِ، وَيَجْعَلُنَا مِثْلَ لَا يُدَادُ إِذَا ذِيدَ الْمُبْدَلُ عَنْ حَوْضِهِ، وَيَجْعَلُهُ لَنَا وَلِمَنْ تَهَمُّ بِاِكْتِسَابِهِ، وَاِكْتِسَابِهِ سَبِيًّا يَصِلُنَا بِأَسْبَابِهِ، وَذَخِيرَةً نَجُذُّهَا ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] نُحَوِّزُ بِهَا رِضَاءَهُ، وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَيَخْضُنَا بِخُصِيصَى زُمرَةَ نَبِيَّتِنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَاعَتِهِ، وَيَحْشُرُنَا فِي الرُّعِيلِ الْأَوَّلِ، وَأَهْلِ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، مِنْ أَهْلِ شِفَاعَتِهِ، وَنَحْمَدُهُ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنْ جَمْعِهِ وَأَلْهَمَ، وَفَتَحَ الْبَصِيرَةَ لِذِكِّ حَقَائِقِ مَا أَوْدَعْنَاهُ وَفَهَّمَ، وَنَسْتَعِيْذُهُ - جَلَّ اسْمُهُ - مِنْ دَعَاءِ لَا يُسْمَعُ، وَعِلْمِ لَا يَنْفَعُ، وَعَمَلِ لَا يُزْقَعُ، فَهُوَ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَخِيْبُ مَنْ أَمَلَهُ، وَلَا يَنْتَصِرُ مَنْ خَذَلَهُ، وَلَا يَزُدُّ دَعْوَةَ الْقَاصِدِينَ، وَلَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ووقع الفراغ منه آخر النهار، يوم الاثنين، الثاني عشر من رجب الفرد سنة (٧٤٤) في المدرسة القِيَمَازِيَّةِ رَحِمَ اللَّهُ وَاقِفَهَا، عَلَى يَدَيِ أَوْعَفِ خَلْقِ اللَّهِ جِرْمًا، وَأَكْثَرَهُمْ جُرْمًا، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ رَمْضَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَاجِّ الْحَنْفِيِّ الرَّومِيِّ الْمَلِيفِدُونِيِّ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَثْوَاهُمْ، وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!



فهرس الأحاديث والآثار^(١)

(مرتب على رقم الحديث)

حرف الألف

- اتنوني أكتب لكم كتاباً: ١٦٨٢
 آتي باب الحنة: ٥٠٩
 أؤخر عن أمني لعل الله يتوب عليهم: ٢٣٩
 آخركم موتاً في النار: ٩٨٥
 أذنت النبي ﷺ بالجن شجرة: ٧٤٥
 أمين: ١٤٢٣
 الآن استرح: ١٥٦
 الآن يا عمر: ١١٩٦
 آية الإيمان حب الأنصار: ١٢٣٦
 أبمحمد تفعل هذا؟: ٢
 أبشر فوالله لا يخزيك الله: ٢٥٥ (ث)
 أبيض مُشرب: ٣٧٧
 أتاني جبريل فقال إن ربي: ٩
 أتاني جبريل فقال قُلْتُ مشارق: ٣٩٠
 أتاني ملك فقال لي أنت قُتْم: ٦٣١
 اتق الله حيثما كنت: ١١٥
 أتيت بالبراق: ٤٣٢
 أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه،
 أزيز: ٣٤٣
 أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم: ٤٦٢

- اثبت أحد: ٧٨٣
 اثبت فإنما عليك نبي وصديق: ١٠٣٧
 أجل إني أوعك: ١٧٢٧
 أجل ذلك كذلك: ١٧٢٧
 اجلس فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله:
 ١٧٧٥ (ث)
 اجلسي يا أم فلان: ٢٦٠
 اجمل الناس من بعيد: ٥٩
 أجوع يوماً وأشبع يوماً: ٣١٥
 أحب حبيك هوياً ما: ١١٧
 أحب الله من أحب حبيناً: ١٢٨٢
 أحب الصلاة إلى الله صلاة داود: ٣٦٤
 أحبيه فإني أحبه: ١٢٣٥
 أحنت إليك: ٢٢٩
 احصب وجوها: ٨٠٠
 احفظ علي ميصأتك: ٧٠٤
 احفظوني في أصحابي: ١٣١٨
 أجلت لي الغنائم: ١٦٣١
 أخبرني هذه الذراع: ٨٢٤
 اختار دار البقاء: ٧٧١
 اخترت المفرة: ٤٣٢

(١) رمزنا للأثر بالحرف (ث).

أخذ النبي ﷺ كَفًّا من حصَى فسبَّح: ٧٧٥

ادع ثلاثين من أشراف الأنصار: ٧١٣

ادع سبعين: ٧١٣

ادع ستين: ٧١٣

ادع عشرة: ٧٢٩

ادن فقاتل: ١٠٦٨

إذا أحب الله عبداً ابتلاه: ١٧٢٣

إذا أراد الله بعبده الخير عجل: ١٧٢٢

إذا أراد الله رحمة بأمّة قبض: ٧

إذا تقارب الزمان لم تكدر رؤيا: ١٠٧٥

إذا تكفّى ويغفر ذنبك: ١٤١٤

إذا دخل أحدكم إلى المسجد فليصل على

النبي ﷺ: ١٤٩٠

إذا دخل أهل النار النار: ٥٦٤ (ث)

إذا دخلت المسجد فصل على النبي ﷺ:

١٤٨٣

إذا ذكر أصحابي فأمسكوا: ١٣٠٠، ١٣٠٧

إذا ذكرت ذكرت معي: ٩

إذا رأيتم آية فاسجدوا: ١٢٩٧

إذا سمعتم المؤذن فقولوا: ١٤٠٢، ٥٩٦

إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله: ١٣٥٩

إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات: ١٣٨١

إذا مشى مشى مجتمعاً: ٢٩٧

إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه: ١١٤٥

إذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد: ١٨٠٥

إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها: ٣٨٢

أذهب: ٧٢٥

أذهبوا بها إلى بيت فلانة: ٢٤٤

أذهبوا فأنتم الطلقاء: ١٨٢

أذهبي فإننا لم نأخذ من مالك شيئاً: ٧٠٥

أذود الناس عنه بعضاتي: ٦٣٢

أرأيت إن دعوت هذا العذق؟: ٧٥٢

ارجع: ٧٥٢

ارجع كما جئت: ٧٥٠

ارجعي: ٧٤٩

ارحموا من في الأرض: ٧٢٩

أردفني النبي ﷺ خلفه: ٦٧

أرفع: ٧٢٣، ٧٣٥

أرفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة:

٨٢١

أرقبوا محمداً في أهل بيته: ١٢٨٠ (ث)

أركب أمامي: ٢١٧

أرم به: ٨٣٩

أرني آية لا أبالي من كذبي بعدها: ٧٥١

أريث ما تلقى أمي من بعدي: ٥٦٢

أسألك بكل اسم هو لك: ١٥٥٢

أسألك بأسمائك الحسنی: ١٥٥١

استتاب رسول الله ﷺ تبهان: ١٧٩٩

أستحي من الله أن أطأ ترية: ١٣٢٨ (ث)

اسق يا زبير: ١٥٧٩

اسق يا زبير حتى يبلغ الكعبين: ١٧٠٤

اسق يا زبير ثم احبس حتى: ١٧٠٤

أسلم تسلم: ١١٠

أشدت غضب الله على قوم: ١٤٧١، ١٤٩١

أشترتها واشترطي لهم الولاية: ١٧١٩

أشرب: ٧٠٨

أشرت بالرأي: ١٦٦٦

أشفي أو عافه: ٨٥٢

أشكل العينين: ٣٧٩

أشكّبت دُرْد: ١٠٩٦

أشهدوا: ٦٧٣

أصحابي كالنجوم: ١٣٠٢

أصدق الناس لهجة: ٢٨٥

أصل كل داء البردة: ١٠٧٦

أصليت يا علي؟: ٦٨٤

أصنع كما رأيث رسول الله ﷺ يصنع: ١١٧٠

(ث)

أضرب به: ٩١٠

اطلبوا من معه فضل ماء: ٦٩٢

أطمع أن أكون أعظم الأنبياء: ٥٠٧

الاعتصام بالسنة نجاة: ١١٦٧ (ث)

أعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مئة من

النعم: ٢٢٨

أعطيت خمسا لم يعطهن: ٣٩٤

اعفوا عن مبيتهم: ١٣١٧

أعوذ بالله العظيم: ١٤٩٦

أعنيك بالله يا عكاشة أن يتعمدك: ١٧٠٧

اغد عليّ يا عم مع ولدك: ١٢٧٨

اغفر لي ما قدمت: ١٦٢٧

أفضالة؟: ١٠٦٩

أفضل هذه الأمة أكثرها نساء: ١٤١ (ث)

أفلا أكون عبداً شكوراً؟: ٣٣١، ٣٣٢

٣٣٣، ٦٣٨، ١٦٤٥

أفلح وجهك: ٨٧١

اقتدوا بالذنين من بعدي: ١٣٠١

اقرأ فقلت: ما أقرأ؟: ١٥٢٨

اقعد فاشرب: ٧٣٢

أقول كما قال أخي يوسف: ١٨٢

اكتب عليماً حكيماً: ١٥٧٣

اكتب كذا: ١٥٧٣

اكتب كيف شئت: ١٥٧٣

أكثروا عليّ الصلاة يوم الجمعة: ١٤٤٣

أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة:

١٤٣٧ (ث)

أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الزهراء:

١٤٤٥

أكلأ لنا الصبح: ١٦٢١

أكلك الأسد: ٨٨٨

إلى الأقبال العابلة: ٩٨

ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله:

١١٨٩

ال شما عليّ بإذن الله: ٧٣٨

الحقي بضاجتيك: ٧٣٨

ألتي الدواة وحرّف القلم: ١٠٩٣

الذي أنا عليه اليوم وأصحابي: ١١٦١

الله: ١٧٤

الله عز وجل: ١٠٥٠

الله في أصحابي: ١٢٣٣، ١٣٠٤،

١٨٢١

اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً: ٣٠٨

اللهم اجعل صلواتك: ١٣٩٤، ١٤٥٧ (ث)

اللهم اجعل منك على فلان صلوات

قوم: ١٤٦٢ (ث)

اللهم أجعله حجاً لا رياء فيه: ٢٦٣

اللهم احفظني من الشيطان الرجيم: ١٤٨٥

اللهم أرني آية: ٧٤٨

اللهم اغفر له، اللهم ارحمه: ١٣٣٨

اللهم اغفر لي ذنوبي: ١٣٧١، ١٤٨٣،

١٤٨٤

اللهم افتح لي أبواب رحمتك: ١٤٨٩

اللهم أكثر ماله وولده: ٨٦١

اللهم اكفني بما شئت: ١٠٥٤

اللهم إن كان كاذباً فلا تبارك: ٨٩٢

اللهم إنما محمد بشر يغضب: ١٦٩٤

اللهم إنه كان في طاعتك: ٦٨٤

اللهم إني أحبه فأحب من يحبه: ١٢٣١

اللهم إني أحبهما فأحبهما: ١٢٣٠، ١٢٧٩

اللهم إني أسألك أن تصلي عليّ محمد:

١٣٦٨ (ث)

اللهم إني أسألك رحمة من عندك: ١١٩

اللهم إني أسألك الفوز في القضاء: ١١٩

اللهم إني أسألك من فضلك: ١٤٨٤

اللهم إني أسألك وأتوجه إليك: ٨٤٣

اللهم اهْدِ قومي: ١٧١، ١٧٢

اللهم بارك عليّ محمد: ١٣٩١

اللهم بارك في شعره وبشره: ٨٧١

اللهم بارك لهم في محضها: ٩٧
 اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي: ٤٢٥
 اللهم دَاحِي المدحوات: ١٣٩٢ (ث)
 اللهم رَبِّ هذه الدعوة التامة: ١٤١٦
 اللهم سَلِّطْ عليه كَلْباً من كلابك: ٨٨٧
 اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى: ١٤٥٣
 اللهم صَلِّ على محمد: ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٩٠، ١٤٥٤
 اللهم صَلِّ على محمد وأزواجه: ١٤٥٩
 اللهم فقهه في الدين: ٨٧٣
 اللهم نَوِّزْ له: ٨٨٢
 اللهم هؤلاء أهل بيتي: ١٢٧٣
 اللهم هؤلاء أهلي: ١٢٧٤
 اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد: ١٤٧١، ١٤٩١
 ألم أر البرمة فيها لحم؟: ١٣٥
 ألم يَأْنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله: ١٨٤
 أنا أعلم: ١٥٨٩
 أنا أفرس بالخيال منك: ١٠٩٠
 أنا أقتلك إن شاء الله: ٢٠٧
 أنا أكرم الأولين والآخرين: ٣٨٩
 أنا أكرم ولد آدم: ٣٨٨، ٦٣٥
 أنا أمان لأصحابي: ٣٤
 أنا أمنة لأصحابي: ٦٤٩
 أنا أول من تنشق عنه الأرض: ٦٤١
 أنا أول من تغلق الأرض عن جمجمته: ٥٨٩
 أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا: ٤٩٩، ٥٠٠
 أنا أول الناس يشفع: ٥٠٥
 أنا حامل لواء الحمد: ٥٠٤
 أنا دعوة أبي إبراهيم: ٤١٤
 أنا سيد الناس يوم القيامة: ٥٠٦
 أنا سيد ولد آدم: ٥٠٢، ٥٠٣، ١٥٩١
 أنا العاقب: ٦٢٠
 أنا قَيِّمٌ: ٦٢٣

أنا محمد النبي الأمي: ٤٠٥
 أنا محمد وأحمد: ٦٢٦
 أنا النبي لا كذب: ١٩٩
 أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك: ٢٤٣
 أنا ولي كل مؤمن: ٦٤٣
 أنا وهو إلى غير هذا أحوج: ١٨١
 الأنبياء ثم الأمثل: ١٧٢٠
 أنت حبيب الرحمن: ٥٤٧
 أنت قَتْمٌ: ٦٣١
 أَنْتَ مع من أحببت: ١١٩٨
 أنتم أعلم بأمور دنياكم: ١٦٦٣
 أنزل الله عليّ أمانتين لأمتي: ٣٣
 أنشدكم الله أهل بيتي: ١٢٧٠
 انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ: ٦٧٣
 انطلق به فإنه سيضيء لك: ٩٠٩
 انطلق وقل لهم: ٧٣٩
 انظر ما تقول: ١٢٤٥
 انتقادي عليّ ياذن الله: ٧٣٨
 إِنَّ أَحَبَّتِ أَقَمْتُ عندي مكرمة: ٢٥١
 أَنْ تشهد أن لا إله إلا الله: ١١٤١
 أَنْ تغفو عن ظلمك: ٦٤٥
 إِنَّ شَتَّ أَرَدَكَ إلى الحائط: ٧٧١
 إِنَّ كَانَ النبي لِيَتَلَى بالقمل: ١٧٢٨
 إِنَّ كَانَتِ الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ: ٢٧٤
 إِنَّ كُنْتُ تحبني فأعِدْ للفقير تجفافاً: ١٢٤٥
 إِنَّ كُنَّا آل محمد لنمكث شهراً: ٣١٧
 إِنَّ آل أبي ليسوا لي بأولياء: ٢٤٨
 إِنَّ الأبعد شاعر أول مجنون: ١٥٣١
 إِنَّ ابني هذا سيد: ١٠٢٧
 إِنَّ أبوليك قد أسلمنا: ٨٣٥
 إِنَّ أَحَبَّكم إليّ: ١١١
 إِنَّ أَحْسَنَ الحديث كتاب الله: ١١٥٦
 إِنَّ أَحْسَنَ الهدى هدى محمد ﷺ: ٢٩٨

إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها : ٨١٨
 إن الله اختار أصحابي : ١٣٠٨
 إن الله اختار خلقه : ١٣٠
 إن الله اصطفى من ولد إبراهيم : ١٢٩ ، ٣٨٧
 إن الله أنزل هذا القرآن أمراً : ٦٧٠
 إن الله تعالى يدخل العبد الجنة بالسَّيِّئِ : ١١٦٩
 إن الله خلق الخلق فجعلني : ١٢٨
 إن الله فضل محمداً على : ٤١٣ (ث)
 إن الله نظر إلى قلوب العباد : ٤٣٠ (ث)
 إن الله قضى أرواحنا : ١٦١٥ ، ١٦٢٠
 إن الله قد حبس عن مكة : ٤١١
 إن الله قسم الخلق : ٣٨٥
 إن الله يأمر بالعدل : ٦٥٦
 إن الله يحب من عباده الرحماء : ٦٢٨
 إن الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً : ٦٥٥
 إن أول زمرة يدخلون الجنة : ٣٤٩
 إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم :
 ١٤٢٦
 إن بني إسرائيل افترقوا : ١١٦١
 إن جبريل أتاني فقال : ١٤٢٣
 إن جبريل عليه السلام حملني : ٤٥٩
 إن جبريل ناداني فقال : ١٤٠٥
 إن الحمد لله نحمده : ٦٥٢
 إنَّ الدين النصيحة : ١٢٤٨
 إن الزمان قد استدار : ١٠٨٥
 إن الشيطان أتني بلالاً : ١٥٦٧
 إن شيطاناً تعلَّت المارحة : ١١١٢
 إن الشيطان عرض لي : ١٥٥٦
 إن الشيطان يجري من ابن آدم : ١٦٤٨
 إن عدو الله إبليس جاءني بشهاب : ١٥٥٧
 إن عظم الحزاء مع عظم البلاء : ١٧٢٩
 إن عيسى عليه السلام كُفِّي من لمبسه : ١٥٦٢
 إن عيني تمامان ولا ينام قلبي : ١٣٩ ، ١٦١٣ ،
 ١٦٥٠

إن الفقر إلى من يجني منكم أسرع : ١٢٤٤
 إن القرآن صعب مستصعب : ٦٦٤
 إن لكم فراعها ووهاطها : ٩٦
 إن للنساء أثقالاً : ٦١٦
 إن لله ملائكة سياحين : ١٤٣٥
 إن من البيات لسحراً : ١٧٩٧
 إن من شرار الناس من اتقاء الناس : ١٧١٤
 إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا : ٥٥٣ (ث)
 أن النبي ﷺ أتني بالراق : ٢ ، ٣٩١
 أن النبي ﷺ صلى الظهر خمساً : ١٦٠٤
 أن النبي ﷺ قرأ والنجم : ١٥٧٠
 أن النبي ﷺ كانت روحه نوراً : ١٣١
 أن نبياً فرصته ليلة : ١٦٤٢
 أن نصرانيّاً كان يكتب للنبي ﷺ بعد ما
 أسلم : ١٥٧٤
 إنَّ هذا الأعرابي قال ما قال : ٢٢٩
 إنَّ هذا الأمر بدأ نبوة : ٩٩٤
 إن هذا بكى لما فقد من الذكر : ٧٦٧
 إن هذا وإد به شيطان : ١٥٦٦ ، ١٥٦٤
 إن اليهود إذا سلّم أحدهم : ١٧٨٢
 إنّا كما إذا حمي البأس اتقينا برسول الله : ٢٠٣
 إنا معشر الأنبياء بضاعف لما البلاء : ١٧٢٨
 إنك نجده يصيد القفر : ١٠٤٣
 إنك حجر لا تنفع ولا تضر : ١١٧٩ (ث)
 إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي : ٢٢٩
 إنكم تختصمون إليّ : ١٥٧٨
 إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل : ٢٧٥
 إنما أنا بشر : ١٦٦٢ ، ١٦٦٥ ، ١٦٦٨ ،
 ١٦٦٩
 إنما أنا بشر أنسى كما تنسون : ١٥٩٨ ،
 ١٦٠٥
 إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون : ١٦٠٩
 إنما أنا عبد : ١٣٨ ، ٢٥٨
 إنما ظننت ظناً : ١٦٦٤

إني لأستغفر الله وأتوب إليه : ١٦٢٩
إني لأسمع صوتاً وأرى ضوءاً : ١٥٣٠
إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ :

٧٧٨

إني لأمنح ولا أقول إلا حقاً : ١٦٧٤
إني لأنسى أو أنسى لأنسى : ١٥٨٤ ، ١٥٩٩ ، ١٦٠٧

إني لأنظر من ورائي : ٨٤

إني لا أعلم إلا ما علمني ربي : ١٥٤٩

إني لا أنسى، ولكن أنسى لأنسى : ١٦٠٨

إني لست كهيتكم : ١٥٢١ ، ١٦٥١

إني لقائم المقام المحمود : ٥٥٩

إني لم أبعث لعناً : ١٧١

إني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت : ١٦٣٤

أما ترضى أن تعيش حميداً؟ : ١٢٥٢

أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى : ٥٠٨

أما الآن فلا : ١٥٣٢

إما أن تركب وإما أن تصرف : ٢١٧

أما أنا فلا أكل متكاً : ١٣٦

أمتي الحمادون لله : ٢٠

أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا : ١١٣٩ ، ١١٤٠

أملكها وما أراك : ٨١٨

أهو الذي بعينه بياض؟ : ١٦٧٣

أوصاني النبي ﷺ لا يغسله غيري : ٧٧

أوصيكم بكتاب الله وعترتي : ١٦٩١

أولئك الذين نهاني الله قد قتلهم : ١٧٨٣

أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ

صلاة : ١٤١١

أول ما بدىء به رسول الله من الوحي : ١٥٢٦

أيما رجل سبته أو لعنته : ٢٣٧

أيما رجل من المسلمين سبته : ١٦٩٧

أيما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرقوا : ١٤٢٧

أيها الناس احفظوني في أصحابي : ١٣١٤

إنما كان فراشه الذي ينام عليه آدمياً : ٣٢٤

إنما الكريم بن الكريم : ٣٦٠

إنما المدينة كالكير : ١٥١٠

إنه شكا كثرة العمل : ٨٠٧

إنه صلى بالأنبياء : ٤٤٧

إنه مسح خده : ٦٤

إنه لموصوف في التوراة : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ (ث)

إنه ليعنان علي قلبي : ١٥٣٨ ، ١٥٤١

١٦٢٨ ، ١٦٠١

إنه من أهل النار : ٩٨٤

إنها استأذنت أن تسلم عليّ : ٧٤٤

إنها أمة مرحومة : ٦٢٧

إنها بضعة مني : ١٢٣٤ ، ١٦٤٨ ، ١٧٩١

إنها كانت تأتينا أيام خديجة : ٢٤٧

إنها من الشيطان : ١٥٦٣

إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين : ٢٥٠

إنهما في أمتي يوم القيامة : ٥٠٨

إنني اتخذتك خليلاً : ٥٤٧ (قدسي)

إنني إذا خلوت وحدي سمعت نداء : ١٥٢٩

إنني أرى ما لا ترون : ٣٢٩

إنني أنسى كما تنسون : ١٦٢٣

إنني إنما أقضي بينكم برأيي : ١٥٤٨

إنني تارك فيكم ما إن أخذتم به : ١٢٧١

إنني عبدالله وخاتم النبيين : ٤١٢

إنني عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة :

٣١٥

إنني فرط لكم : ٤٠٤

إنني قد نهيت عن التعري : ١١٢٠

إنني لأبصر من قفاي : ٨٥

إنني لأخشاكم لله : ١٥٩٧

إنني لأراكم من وراء ظهري : ٨١ ، ٨٢

إنني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة : ٣٤٦

إنني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة : ٣٤٥

أيها الناس اذكروا الله: ١٤١٤

أيها الناس إن الله غفر لأهل بدر: ١٣١٤

أيها الناس إني راضٍ عن أبي بكر: ١٣١٤

أيها الناس إني راضٍ عن عمر: ١٣١٤

حرف الباء

بش ابن العشرة: ١٧١٨ ، ١٧١٦

بش خطيب القوم أنت: ١١

بش ما لأحدكم أن يقول نسيث: ١٥٨٢ ، ١٦١٠

باسم الله والسلام على رسول الله: ١٤٨٨

بيت المقدس: ٩٦٦

البخيل كل البخيل الذي: ١٤٢٤

بشرني - يعني ربه - أول من يدخل الجنة:

٤٠٨

بضعة مني يؤذيني ما آذاها: ١٨٢٧

بعث إلى الأحمر والأسود: ٤٠١

بعث بين يدي الساعة: ٤٠٦

بعث لأنتم مكارم الأخلاق: ١٥٩

بعث من خير قرون بني آدم: ١٢٧

بغضت إلي الأصنام: ١٥٤٥

بقيت أنا وأنت: ٧٣٢

بكفرك وافترائك على رسول الله ﷺ: ١٧٦٧

بكم؟: ٦٥٣

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم: ٢٣٨

بل عبد لنا بمجمع البحرين: ١٥٨٩

بل هو نعمان وماؤه طيب: ٩٠٢

بمحمد تفعل هذا؟: ٣٩١

بمحمد وأصحابه: ١٥ (ث)

بني الدين على النظافة: ٦٢

بهذا أمرت: ١٩٥

بيد أبي من قرش: ١٢٥

بين حجرتي ومنبري: ١٥٠٥

بين قبري ومنبري: ١٥٠٦

بينما أنا أسير في الجنة: ٥٩٨

بينما أنا نائم: ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٩

بينما راع يرعى غنماً: ٧٩٤

بينما أنا قاعد ذات يوم: ٤٤٨

حرف التاء

تسني مدينة بين دجلة ودجيل: ١٠٣٩

تحلقوا عشرة عشرة: ٧٣٥

تدرك خاتك: ١٧٠٨

تربت يمينك: ١٦٩٨

تسموا باسمي: ١٧٤٨

تسمون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم؟: ١٧٥٠

تشهد أن لا إله إلا الله وحده: ٧٣٦

تطلق هذه الظية: ٨١٢

تعالني يا شجرة: ٧٤٦

تقدم يا مصعب: ١١٠٩

تلك العزى: ١١١١

تلك الغرائق العلى: ١٥٦٩

تلك الملائكة لو دنا لاختطفته: ١٠٦٧

تناكحوا تناسلوا: ١٤٢

تمام عيناى ولا ينام قلبي: ١٥٢٠

حرف الثاء

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: ١١٩٥

ثم انطلق بي حتى أتيت بيذرة المتهنى: ٤٣٩

ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن

جانبها: ٤٦٥

ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى: ٤٣٨

حرف الجيم

جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر: ١٦٣٢

جاء الحق وزهق الباطل: ٧٨٩

جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد:

٧٩٠

جاءت الراجفة: ١٤١٤

جليل المشاش: ٣٨١

الجنة تحت ظلال السيوف: ١٥٠٧

حرف الحاء

حبب إليّ من دنياكم: ١٤٥، ٣٠٢
حُبِّسَ رسول الله ﷺ عن عائشة سنة:
١٦٥٩، ١٦٦٠

حجابه النور: ٤٨٩

حُلُو المنطق، قُضِل، لا نزر ولا هذر: ١٢٦

حم تنزيل من الرحمن الرحيم: ٦٦٧

حمي الوطيس: ١٢٠

جَمِيزُ رأس العرب: ١٠٨٤

حوضي مسيرة شهر: ٥١٠

حياتي خير لكم: ٦

حيثما كنتم فصلوا عليّ: ١٤٣٩

حرف الخاء

خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين: ٢٢١
(ث)

خذ ما جئت به: ٧٢٩

خُفِّفَ على داود القرآن: ٣٦٣

الخلافة في قريش: ٩٨٧

خير الأمور أوسطها: ١١٦

خير الحجامة يوم سبع عشرة: ١٠٧٩

خير ما تداويتم به السعوط: ١٠٧٨

خيركم قرني: ١٠٠١

خَيْرُ أصحابك في الأسارى: ١٦٣٢

خَيْرُ بين أن يكون نبياً ملكاً: ٢٥٦

خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة: ٥٦٠

حرف الدال

الدعاء بين الصلاتين لا يرد: ١٣٦٦

دعوني فإن الذي أنا فيه خير: ١٦٨٢، ١٦٩٣

الدنيا دار من لا دار له: ٣١٦

حرف الذال

ذاك إبراهيم: ٢٧٠، ٦١٤

ذاك جبريل لو دنا لأخذه: ١٠٦٣

ذو الوجهين لا يكون: ١١٣

حرف الراء

رأى جبريل عليه السلام: ١٠٩٧

الرؤيا ثلاث: ١٠٧٤

رأيت ربي: ٤٨٣

رأيت الماء يغور بين أصابعه: ٦٩٥

رأيت الماء ينبع من بين أصابعه: ٦٨٦

رأيت موسى فإذا هو ضَرْبٌ: ٣٥٠

رأيت النبي ﷺ وأنا غلام: ٢٥٢ (ث)

رأيت نوراً: ٤٨٨

رأيت بفؤادي: ٤٨٢

الراحمون يرحمهم الرحمن: ٦٢٩

رجل ولد عشرة: ١٠٨٢

رحم الله عبداً قال خيراً: ١٠٩

رحم الله فلاناً لقد أذكرني: ١٦٠٦

ردوه بما لهُ فَإِنَّ وِطَانَهُ: ٣٢٥

رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم: ١٣٦٩،

١٤٢٢

حرف الزاي

زَن وَأَزْجَح: ٢٧٦

زواياه سواء: ١٠٨٦

زُويت لي الأرض: ٦٦١، ٩٦٤

حرف السين

سبحان الله كأنه على غضب: ١٧٤٤

سبحان ذي الجبروت: ٣٤٠

سبق القرئ والدم: ١٨١٠

سُجِرَ رسول الله ﷺ: ١٦٥٥

سَحَرَ يهودُ بني زريق رسول الله ﷺ: ١٦٥٨

السعيد من وعظ بغيره: ١٢٣

سَلَّ عما بدا لك: ١٥٤٧

سل عنك: ١٠١

السلام عليك يا رسول الله: ٧٧٧، ٧٧٩

سلوا زوجته عنه: ٩٨٦

سَنَّة سَنَة: ١٠٩٤

سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد:
١٠٤٠

سيكون من أمتي: ١٨١٤

حرف الشين

شَرُّ قَبِيلٍ تحت أديم السماء: ١٨٠٤
شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله: ٥٦١

حرف الصاد

صاحب الشيء أحق بشيئه: ٢٧٦

صدق: ٧٩٤

صدقَ بارك الله فيك: ١٣٤

الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب: ١٤٢١
(ث)

صلاة في المسجد الحرام خير من مئة صلاة:
١٤٩٩(ث)

صلاة في مسجدي هذا خير: ١٤٩٨

صلى الله على محمد وسلم: ١٤٨٦

صلى الله وملائكته على محمد: ١٤٨٥ (ث)

صلى رسول الله ﷺ حتى انْتَفَخَتْ قدماه:
٣٣٠

صلوا على أنبياء الله ورسله: ١٤٥٢

صلوا واجتهدوا في الدعاء: ١٣٩١

صليت ليلة أسري بي في مقدم المسجد:
٤٦٠

حرف الضاد

ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد:
١٠١٧

ضع القلم على أذنك: ١٠٩١

ضع يدك على الذي تألم من جسدك: ٩٤٢

ضعه وادع لي فلاناً: ٧٣٥

حرف الطاء

طوله - أي الحوض - ما بين عُمان إلى أَيْلَةَ: ٥١١

حرف الظاء

الظلم ظلمات يوم القيامة: ١١٨

حرف العين

عادوا حُملاً: ١٥٤٣

عبدى أحمد المختار: ٢٠

عجل هذا: ١٣٥٩

عد إلى غنمك تجدها بوفرها: ٧٩٥

عَدَّهْنٌ في يدي جبريل: ١٣٨٩

عرج بي جبريل: ٤٩٦

عرض عليّ أمتي فلم يَخْفَ عليّ التابع: ٤٠٠

عسى أن يقوم مقاماً يسرك يا عمر: ١٠٤٢

عطش الناس يوم الحديدية: ٦٩٣ (ث)

عفا الله لكم عن صدقة الخيل: ١٦٣٠

عَفَرَى حَلَقَى: ١٦٩٩

العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل: ١١٥٧

عليك بالرفق: ٢٤٢

عمران بيت المقدس خرابٌ يثرب: ١٠٤٨

عمل قليل في سُنَّةٍ خير: ١١٥٨

عملٌ قليل في سُنَّةٍ خير: ١١٦٦ (ث)

حرف الفين

غزا رسول الله ﷺ غزوة وذكر حنيئاً: ٢٢٨

غسلت النبي ﷺ فذهبت أنظر: ٦٩

حرف الفاء

فَأَنَّنِي به: ٧٢٩

فإذا أحببتك كنت سمعه: ٥٥١ (قدسي)

فإذا أخرجت منه: ١٠٣٢

فإذا قالوها عصموا مني دماءهم: ١٨٠٠

فإنَّ اليد العليا هي المنطية: ١٠٠

فإنما عليك نبيٌّ أو صديق: ٧٨٤

فارقني جبريل وانقطعَت الأصوات عني:

٤٩٥، ٤٩١

فَانْطَلَقَ قَتَوَضاً: ٨٤٣

فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ: ١٥٢٨

فُرجٌ سقفٌ بيتي وأنا بمكة: ٤٣٥، ٤٦١

فَسُحْقاً فُسْحَقاً: ١١٨٥

فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ : ١٥٢
 فَعَلِيكُمْ بَسْتِي وَسَنَةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ : ١١٥٠
 فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ : ١٨١٨
 فَقَالَ الْمَلَكُ : اللَّهُ أَكْبَرُ : ٤٩٣
 فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ : ١٦٧٠
 فَلْيَزَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي : ١١٨٥
 فَلْيَقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ : ١٥٦٥
 فَمَا زِلْتُ أَحَبَّ الدُّبَّاءِ مِنْ يَوْمَنْدُ : ١٢٣٨ (ث)
 فَمَنْ أَنَا ؟ : ٧٩٣
 فِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ : ١٠٨٠

حرف القاف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِنِّي مَنَزَلٌ عَلَيْكَ : ٦٧٢
 قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِآيَةٍ : ٣٤٢
 قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا : ٩٣٩
 قَدْ أَوْدَى مُوسَى بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصِيرٍ : ١٧٧٨
 قَدْ سَمِعْتَ كَلَامَكُمْ وَعَجِبَكُمْ : ٥٤٦
 قَدْ فَعَلْتُ : ٧٧١
 قَدْ وَلَدْتُهُ نَظِيفًا مَا بِهِ قَذَرٌ : ٧٥ (ث)
 قَدِمُوا قَرِيشًا وَلَا تَقْدِمُوها : ١٢٨٥
 الْقُرْآنُ صَعِبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ : ١١٥٤
 قُلْ لَتُنكَلُ الشَّجَرَةُ : ٧٣٧
 قُلْ لَّهُنَّ يَغْتَرِفْنَ : ٧٢٩
 قُمْ فَحَدِّثْنَهُمْ : ٧٩٤
 قُولُوا : اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ : ١٣٨٤
 ١٣٨٥
 قَوْمُوا عَنِّي : ١٦٨٥

حرف الكاف

كَأَحْسَنَ مَا أَنْتَ رَءِىَ مِنْ أَذْمِ الرِّجَالِ : ٣٥٣
 كَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا كَانَ عَلَى صَفَقٍ : ١٣٣
 كَانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ : ٥٥
 كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَعُونَ بَابَهُ
 بِالْأَظْفِيرِ : ١٢٦٦

كَانَ أَوْسَعُ النَّاسِ صَدْرًا : ٢١٦
 كَانَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : ٢٢٧
 كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ : ١٥٨ ، ٥٥٢ ، ١٢٤٢
 كَانَ دَائِمَ الْبِشْرِ : ٢١٨ ، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا : ١٦٠ ، ١٦١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ
 احْتَبَى : ٢٩٢
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَعَا لِرَجُلٍ أَدْرَكَتْ
 دَعْوَتُهُ : ٨٦٠
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَضِبَ : ٢٠١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ يَرَى مِنْ
 خَلْفِهِ : ٧٩
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِذْرَاءِ : ٢٠٨
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ : ٢١٨ ، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخْمًا مَفْخَمًا : ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ بِقَرْفٍ أَحَدٍ : ٢٧٩
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا
 عَلَى ذِكْرِ : ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ : ٣٤٤ ، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤَلِّفُهُمْ : ٢١٨
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ : ٢٤١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْدُثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادِ
 أَحْصَاهُ : ٣٠١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إِلَّا : ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُبُ الْحِمَارَ : ٢٦١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبَسُهَا : ٨٩٨
 كَانَ سَكُوتُهُ عَلَى أَرْبَعٍ : عَلَى الْحِلْمِ : ٣٠٠ ، ١/٣٧٤
 كَانَ ﷺ قَدْ وُلِدَ مَخْتُونًا : ٧٤

كان ﷺ بيت هو وأهله الليالي: ٣٢٢

كان ﷺ بنام أحياناً على سرير مرمول: ٣٢٦

كان عمل رسول الله ﷺ ديمة: ٣٣٤

كان عندنا داجن فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ فرّ وثبت: ٧٩٢

كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً: ٣٢٥

كان في بيته في مهنة أهله: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣

كان في كلام رسول الله ﷺ تنزيل: ٢٩٩

كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته: ٢٢٥

كان محروماً: ١٦١٨

كان المسجد مسقوفاً على جذوع النخل: ٧٦٣ (ث)

كان موسى رجلاً خيئاً: ٣٥٩

كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير: ١٨٨

كان النبي ﷺ أحسن الناس: ٢٠٥

كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها: ١٥٨٨

كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجليه: ٢٩

كان النبي ﷺ أوفر الناس: ٢٩١

كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لعيد: ١٩٧

كان النبي ﷺ يخرس: ١٠٤٩

كان النبي ﷺ يرى في الظلمة: ٨٦

كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد: ١٣٥١، ١٣٥٢

كان - أي: رجل - يبغيض عثمان فأبغضه الله: ١٣١٦

كان يجيب من دعاه: ٢١٩

كان يدعى إلى خير الشعر: ٢٦٢

كان يدور على نساته في الساعة من الليل: ١٤٧

كان يشهد على المشركين مشاهدتهم: ١٥٤٤

كان يصوم حتى نقول لا يفطر: ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٧

كان يقبل الهدية: ٢٢٠

كانوا يكرهون أخذة كأخذة الأسب: ١٧٣٨

كذبتني قومي: ٢٣

كذلك كن: ٨٩٠

كفى بقوم حمفاً: ١١٩٠

كل يمينك: ٨٨٦

كل أمني يدخلون الجنة إلا: ١١٤٦

كل تقى: ١٤٥٦

كل الحلال بطع عليها المؤمن: ١٦٧

كل دعاء محجوب دون السماء فإذا: ١٣٦٧

كل ذلك لم يكن: ١٥٨٠

كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون: ١٥٧١ (ث)

كل نبي أعطي سبعة نجيء: ٤١٠

كلكم أنى على ربه: ٤٤١م

كلما دنوت منها من صنم تمثّل لي شخص: ١٥٤٦

كلّ وأطعمن من غشيك: ٧٣٤

كلوا باسم الله: ٨٣٢

كمثل من بنى داراً: ١١٤٨

كنت أفعله أنا ورسول الله ﷺ: ١٥٩٦ (ث)

كنت أول الأنبياء في الحلق: ٣٢، ٦٣٧، ٦٣٩

كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً: ٣٣٩

كنا زهاء ثلاث مئة: ٦٨٧ (ث)

كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن سمع نسيجه: ٧٧٤

كيف بك إذا أخرجت من خير: ١٥٧٥

كيف بك إذا أخرجت منه: ١٠٣٢

كيف بك إذا البست سوارى كسرى: ١٠٣٨

حرف اللام

لأحملك على ابن الناقة: ١٦٧٢

لأشعن يوم القيامة: ٥٩٠

لأصبح موثقاً بتلاعب به: ١٥٥٧

لا طوفن الليلة على مئة امرأة: ١٥٠، ١٦٤٠
 لئن قدر الله عليّ: ١٨١٧
 لا: ٨٢٢
 لا أسأل قد اكتفيت: ١٥٢٥
 لا استطعت: ٨٨٦
 لا أشيع الله بطنك: ١٦٩٩
 لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته: ١١٥٢، ١١٨٨
 لا أقول إن أحداً أفضل منه: ٦١٥
 لا بل مثل الشمس والقمر: ٥٨
 لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة: ١٦٦٦
 لا تؤذوني في أصحابي: ١٨٢٥
 لا تؤذيني في عائشة: ١٢٨٦، ١٨٢٦
 لا تبرح بارك الله فيك: ٨١٩
 لا تتخذوا بيتي عبداً: ١٤٤٢
 لا تتخذوهم غرضاً بعدي: ١٨٢١
 لا تجعلوا قبري عبداً: ١٤٩٢
 لا تجعلوني كفدح الراكب: ١٣٦٤
 لا تحزن إن الله معنا: ١٠٦٢
 لا تخيروني على موسى: ٢٦٨، ٦١٠
 لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين: ٩٦٦
 لا تسألني بهما: ١٥٤٧
 لا تسبوا أصحابي: ١٣٠٥، ١٨٢٢، ١٨٢٣
 لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: ١٤٩٥
 لا تطروني كما أطرت النصارى: ٢٥٩
 لا تفضلوا بين الأنبياء: ٢٦٧، ٦٠٩
 لا تفضلوني على يونس بن متى: ٢٦٦
 لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان: ١٠٤١
 لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل: ١٠٠٠
 لا تقوموا كما تقوم الأعاجم: ٢٥٧
 لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله: ١٢٢٥
 لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم: ١٠٩٢
 لا خير في صحبة من لا يرى لك: ١٠٥

لا سهم لهم في الإسلام: ١٨٠١
 لا صلاة لمن لم يصلّ عليّ: ١٣٥٦
 لا نبّي بعدي: ١٧٩٣
 لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه: ١٠٠٢
 لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه: ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٧
 لا بيع حاضر لباد: ١٧٩٤
 لا يبلغني أحد منكم عن أحد: ٢٣٠
 لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه: ١٧٧، ١٧٨١
 لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه: ١٤٣١
 لا يحبك إلا مؤمن: ١٢٧٦
 لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها: ١٥١١
 لا يخلق على كثرة الرد: ٦٦٩
 لا يزال أهل الغرب ظاهرين: ٩٦٥
 لا يسمّى أحد باسم النبي ﷺ: ١٧٥١ (ث)
 لا يصبر على لأوائها وشذتها أحد إلا: ١٥٠٨
 لا يفضض الله فاك: ٨٧٢
 لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد: ١٣١٥
 لا يقول أنا خير من يونس بن متى: ٦١٣
 لا يقول أحدكم ما شاء الله وشاء فلان: ١٠
 لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين: ١٢١
 لا يلع الكلب في دم مسلم: ١٧٦١
 لا يتطحن فيها عتران: ١٧٧٣
 ليك: ٢٢٢
 ليك اللهم ربي وسعديك: ١٣٩٣ (ث)
 ليك وسعديك والخير في يدك: ٥٦٣
 لست أنسى ولكن أنسى: ١٥٨٣، ١٦٠٠، ١٦٥٢
 لست كهتكم: ١٦٥٤
 لعلك تخلف حتى يتفزع: ١٠٢٨
 لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً: ١٦٦٢
 لعله كان يتكلم بما لا يعنيه: ١١٢

لعله يصلي: ١٨٠٧

لعلي أضل الله: ١٨١٨

لعن الله زوارات القصور: ١٤٦٧

لقد أذكّرني كذا وكذا آية: ١٦٢٥

لقد أوتيت مزماراً من مزامير: ١٤٥٨

لقد بقي من أجله ثلاث: ١٨١

لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر

جناحه: ٩٤١ (ث)

لقد خشيت على نفسي: ١٥٢٥

لقد رأيته في الجحيم: ٤٦٣

لقد قف شعري مما قلت: ٤٧٢ (ث)

لقد كان الأنبياء قبلي يتلى أحدهم بالفقر: ٣٧١

لقد كنا نسمع نسيح الطعام: ٧٧٣

لقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد:

٣١٤ (ث)

لقيت جبريل فقال لي إني أشرك: ١٤٠٦

لكل نبي دعوة دعا بها: ٥٩٢

لكل نبي دعوة مستجابة: ٥٩٣

لكل نبي دعوة يدعو بها: ٥٩١

لكن رسول الله ﷺ لم يقر: ١٩٩

له ولكتابه ولرسوله: ١٢٤٨

لم أره بعيني: ٤٩٠

لم أكن أضع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد:

١١٧١ (ث)

لم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله: ١٦٦

لم يبعث الله نبياً من آدم فص بعده: ٣٠ (ث)

لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل: ١٥٢٣ (ث)

لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ١٥٨٦

لم يكن بالمطعم: ٣٨٠

لم يكن سبأياً: ١٧٠٢

لم يكن فحاشاً: ١٧٠١

لم يكن النبي ﷺ فاحشاً: ٢١١

لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا:

٧٨٠

لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا

عرف أنه سلكه من طيه: ٦٦

لم يحتلّ جوف النبي ﷺ سبعاً قط: ١٣٤،

٣٢٧

لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان جاء

جبريل: ٤٤٩

لما استقبلني جبريل بالرسالة: ٧٧٩

لما أسري بي إلى السماء: ٤٢٧

لما تجلّى الله لموسى: ٩٢

لما خلق الله آدم أهبطني: ٣٩٢

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة: ٦٥٠ (ث)

لما نشأت بعصت إليّ الأوثان: ١٦٥

لن تُراع لن تُراع: ١٨٠

لن تُراعوا: ٢٠٥

لن تشكّي وجع بطنك: ٧٣

لن تصيبه النار: ٧١

لن يؤمن أحدكم حتى أكون: ١١٩٦

لن يزال هذا الأمر في قريش: ٩٨٨

لو استقبلت من أمري: ١٧١٣

لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد: ٧٣٧

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً: ٣٢٨،

١٦٤٧

لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه: ١٢٩٠ (ث)

لو شاء الله لأيقظنا: ١٦١٧

لو قلتم له يغسل هذا: ٢١٠

لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً: ١٦٧٩، ١٦٨٠

(ث)

لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي: ٥٤٣، ٥٥٠

لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك: ١٤٩٧

(ث)

لو كنا مئة ألف لكفانا: ٦٩٣ (ث)

لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك:

٢٣١

لو لم تكلمه لأكلتم منه: ٧٠٩

لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر:
١٦٣٣

لي خمسة أسماء: ٦١٧

لي عشرة أسماء: ٦٢١، ٦٢٢

لي في القرآن سبعة أسماء: ٦٢٤

ليس بالأبيض الأنهي: ٣٧٦

ليس بالطويل الممقط: ٣٧٥

ليس بفيض ولا غليظ: ٦٤٦

ليلة الغار أمر الله شجرة فنبئت: ٨١٠

حرف الميم

ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي:
٤٥٨

ما أشك ولا أسأل: ١٥٢٤

ما أعددت لها: ١١٩٨

ما أعظمك وأعظم حرمتك: ١٥١٥

ما أكل رسول الله ﷺ على خوان: ٣٢٣

ما انتقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه:
٢٢٤

ما انتقم لنفسه: ١٦٨٦

ما بال أقوام ينتزهون عن الشيء أصنعه?:
١١٥٣

ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا?: ٢٠٩

ما بالك?: ١٢٠٦

ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبياً إلا: ٣٥٤

ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه: ٣٥٧

ما بين بيتي ومنبري روضة: ١٥٠٢

ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني
رسول الله: ٨٠٦

ما بين المشرق والمغرب قبلة: ١٠٨٩

ما بين منبري وقبري روضة: ١٤٨٢

ما ترك إلا سلاحه وبقلة: ٣١٣

ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً: ٣١٢

ما تصنعون?: ١٦٦٢

ما تقولون أني فاعل لكم?: ١٨٢

ما جلس قوم مجلساً ثم تفرقوا: ١٤٣٠

ما حاجتك?: ٨١٢

ما حاجني رسول الله ﷺ منذ أسلمت: ٢٢٣

ما حملك على ما صنعت?: ٨٢١

ما خيّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار
أيسرهما: ١٧٠، ٢٨٧، ٢٤٠

ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم: ١٥١٨

ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ: ٩٤

ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ:
٢٢٦

ما رأيت أشجع من رسول الله ﷺ: ٢٠٢

ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلماً:
١٧٩

ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ: ٥٨

ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط: ٧٦، ٢١٥

ما رأيت من ذي لمة في خلق حمراء أحسن
من رسول الله ﷺ: ٥٦

ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على
رسول الله ﷺ: ١٧٢٦

ما زاد داود على أن قال للرجل:
١٦٣٦، ١٦٣٧ (ث)

ما زالت أكلة خيبر تعادني: ٨٢٩

ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر: ٨٦٨ (ث)

ما سئل النبي ﷺ عن شيء فقال لا: ١٨٥،
١٨٦، ١٨٧

ما شئت وإن زدت فهو خير: ١٤١٤

ما شبع آل رسول الله ﷺ من خبز بر: ٣١١

ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً:
٣٠٩

ما شمت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب
من ريح رسول الله ﷺ: ٦٣

ما ضر أحدكم أن يكون في بيتي محمد:
٤٢٩، ١٧٦٠

ما عندي شيء ولكن ابتغ علي: ١٩٥

ما غرث على امرأة ما عرت على
خديجة: ٢٤٥ (ث)

ما فرستم لي الليلة؟: ٣٢٥

ما فقدت جسد رسول الله ﷺ: ٤٥٠ (ث)

ما فقد جسده: ٤٧١ (ث)

ما فُصِّرَتْ وما نُسِبَتْ: ١٥٨١

ما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ:
١٢١١ (ث)

ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ:
٢٢٢

ما كان لله لسلطك على ذلك: ٨٢٢

ما كان لي أن تكون له خاتمة الأعين: ١٦٧٥

ما كنت تحدث به نفسك: ١٠٦٩

ما لقي رسول الله ﷺ كنيةً إلا كان أول من
بضر: ٢٠٦

ما لمست يده امرأة قط: ٢٨٤

ما لهُ؟ تربت جيبه: ١٧٠٢

ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطني: ١٣٢،
١٠٨١

ما من أحد إلا أَلَمَ بذنب: ١٦٤٣

ما من أحد يدعو الله تعالى عند الركن: ١٥١٦

ما من أحد يسلم عليَّ إلا: ١٤٣٣

ما من الأنبياء إلا أعطي من الآيات: ١١٣٨

ما من مسلم يصيبه أدى: ١٧٣٥

ما من مصيبة نصيب المسلم: ١٧٣٣

ما من لي إلا وقد رعى الغنم: ١٧٩٥

ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي: ٤٠٩

ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن:
١٥٥٣

ما هلك امرؤ عرف قدره: ١٠٧

ما هممت بشيء مما كان في أهل الجاهلية:
٢٩٠

ما يزال البلاء بالمؤمن: ١٧٢١

ما يسرني أن لي أخداً ذهباً: ١٥٥

ما يصيب المؤمن من نصب: ١٧٣٤

ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس:
٦٠٨، ٦٠٧

مات حنط أنفه: ١٢١

المال مال الله: ١٧٨

المنمك يستي عند فساد أممي: ١١٦٠

مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام: ١٣٠٣

مثل الكافر كمثل الأزرّة: ١٧٣٧

مثل المؤمن مثل خامة الزرع: ١٧٣٦

مثلي ومثل ما بعني الله به كمثل رجل:
١١٤٧

مثلي ومثل هذا مثل رجل: ٢٢٩

المحروم من حرم وصيته: ١٧٤٤

المرء مع من أحب: ١٠٤، ١١٩٩

المرء في القرآن كمر: ١٨١٩

مرحاً بالي الصالح: ٤٣٧

مرحاً بك من بيت: ١٥١٥

مرض رسول الله ﷺ فحيس عن النساء:
١٦٦١

مستريح ومستراح منه: ١٧٤٦

المستشار مؤتمن: ١٠٨

مسجدي هذا: ١٤٩٣

المسلمون تنكأ دماؤهم: ١٠٢

المعدة حوض البدن: ١٠٧٧

معرفة آل محمد ﷺ براءة من النار: ١٢٧٢

المعرفة رأس مالي: ٣٤٧

مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة بسمع

الصوت: ١٥٢٧

من أحب العرب فبحي أحبهم: ١٢٣٧

من أحب عمر فقد أحبني: ١٣٠٩

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه: ١٧٤٧

من أحبني كان معي في الجنة: ١٢٠٧

من أحبني وأحبَّ هذين وأباهما: ١٢٠٤،
١٢٨٣

من أحبهما فقد أحبني: ١٢٣٢

من أحدث فيها حدثاً: ١٣٣٢

من أحيا سنة من ستي قد أُميتت: ١١٦٣

من أحيا ستي فقد أحياني: ١١٦٢

من أدخل في أمرنا ما ليس فيه فهو رد: ١١٨٧
مَنْ استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها:
١٥١٤

مِنْ أَشدَّ أمتي لي حباً يكونون بعدي: ١٢٠٨

من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب: ١٧٠٣

من أطاعني دخل الجنة: ١١٤٦

من أطاعني فقد أطاع الله: ١١٤٤

من اقتدى بي فهو مني: ١١٥٥

من أنا؟: ٨٣٣، ٨٣٤

من أهان قريشاً أهانه الله: ١٢٨٤

مَنْ بذل دينه فاقتلوه: ١٧٩٨

من بقي من قرابتها؟: ٢٥٤

من تعبد؟: ٧٩٣

من تقرب مني شبراً: ٤٩٨ (قدسي)

من جحد آية من كتاب الله: ١٨٢٠

من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي
علي: ١٤٢٩

من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد
كذب: ٤٧٢ (ث)

من حفظني في أصحابي كنت له حافظاً: ١٣١٩

من حفظني في أصحابي ورد علي الحوض:
١٣٢٠

من حلف على منبري كاذباً: ١٣٣٤

من خالف الجماعة قيد شبر: ١٨١٥

من ذكرْتُ عنده فلم يصل علي: ١٤٢٥

من رآه بديهة هابه: ٦١، ١٢٤٦

من رغب عن ستي فليس مني: ١١٨٦

من زار قبري وجبت له شفاعتي: ١٤٦٣،
١٤٦٩

من زارني بعد موتي فكأنما: ١٤٦٥

من زارني في المدينة محتسباً: ١٤٦٤

من سئل عن علم فكتمه: ١

من سب أصحابي فاجلدوه: ١٨٣٠

من سب أصحابي فاضربوه: ١٧٦٢، ١٨٢٤

من سب أصحابي فعليه لعنة الله: ١٣٠٦

من سب نبياً فاقتلوه: ١٧٦٢

من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى: ١٣٩٠

من سلّم عليّ عشرأ: ١٤١٨

من شاء فليخذلني: ١٠٥٥

من صلى خلف المقام ركعتين: ١٥١٧

من صلى صلاة لم يصل فيها علي: ١٣٥٧

من صلى عليّ صلاة: ١٤٠٣، ١٤١٣

من صلى عليّ عند قبري سمعته: ١٤٣٤

من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة:
١٤١٢، ١٣٨٠

مَنْ غيّر دينه فاضربوا عنقه: ١٧٧٦

مِنْ فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك
طاعته: ١٣ (ث)

مَنْ قال اللهم صل على محمد: ١٤١٠

مَنْ قال أنا خير من يونس فقد كذب: ٦١٢

من قال حين يسمع المؤذن وأنا أشهد: ١٤١٧

من قال حين يسمع النداء اللهم رب: ١٤١٦

مَنْ كان ذا طولٍ فليتزوج: ١٤٤

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل
الحمام: ١١٨٤

من كفر بأية من القرآن فقد كفر به كله:
١٨٢٠ م (ث)

من كنت مولاه فعليّ مولاه: ٦٤٤، ١٢٧٥

مَنْ لَكِبَ بين الأشرف؟: ١٧٦٣

مَنْ لي بها؟: ١٧٧٣

من مات في أحد الحرمين حاجاً: ١٥١٢

من نبي إلى نبي: ٥ (ث)

من نسي الصلاة عليّ نسي طريق الجنة:
١٤٢٨

هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نينا: ١٢٨٩
(ث)

هكذا نفعل بالعلماء: ١٢٨٩ (ث)

هل ؟ «يعني مكاناً لحاجة رسول الله ﷺ»: ٧٣٩

هل أصابك من هذه الرحمة ؟: ٨

هل ترى من تخل أو حجارة ؟: ٧٣٩

هل نعلم أحداً أعلم منك ؟: ١٥٩٠

هل في آياته من ملك ؟: ١٧٩٦ (ث)

هل كنتم تنهمونه بالكذب ؟: ٢٨٢ (ث)

هل لك إلى خير ؟: ٧٣٦

هل معكم شيء تبعونه ؟: ٦٥٣

هل من شيء ؟: ٧٢٩

هل من وضوء ؟: ٧٠٦

هلاك أمني على يد أعلموه من فريش: ١٠٠٣

هلا خيرتها أني أقبل وأنا صائم ؟: ١٥٩٥

هلا شفقت عن قلبه: ١١٤٢

هلك رسول الله ﷺ ولم يشيع هو: ٣١٨

٣٢١

هلك المتطعون: ١١٩١

هلموا أكتب كتاباً لن تضلوا بعده: ١٦٨١

هم من شر الرية: ١٨٠٣

هو المقام الذي اشفع لأمني فيه: ٥٥٨

هو بهر في الجنة: ٦٠٥

هو عليك: ١٥٤، ٢٧٥

هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ: ٤٥٦ (ث)

هي بنت محمد وأحمد: ٦٢٥

هي الشفاعة: ٥٥٤

حرف الواو

وادم بين الروح والجسد: ٣٨٦

وأكسى حلة من حلل الجنة: ٥٠١

والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل:

١٢٧٧

والذي نفسي بيده لا يقولها رجل: ٦٦٢

من يرد الله به خيراً يصب منه: ١٧٣٢

من يكفيني عدوي ؟: ١٧٦٦، ١٧٦٨، ١٧٦٩

من يمنعك مني ؟: ١٧٤

منبري على نزع: ١٥٠٤

منهوس العقب: ٣٨٤ (ث)

موت الفجاءة، راحة للمؤمن: ١٧٤٥

حرف النون

الناس كأسنان المشط: ١٠٣

الناس معادن: ١٠٦

نام حتى شجع له غطيط: ٧٨

نحن الآخرون السابقون: ٦٤٠

نحن أحق بالشك من إبراهيم: ٢٦٨، ١٥٢٢

نسباً وصهراً وحساً: ٤

نصرت بالرعب: ٤٠٢

نصفه فضاء ونصفه نازل: ١٩٨

نعم: ١٥٦٨، ٧٤٧

نعم أنا دعوة أبي إبراهيم: ٤١٤

نعم فإنني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً:

١٥٦٨

نعم كل صواب: ١٥٧٢

نغم موضع الحمام هذا: ١٠٨٨

نعم وأرد عليهم: ١٤٤٤

نغمة الجحش، من أنت ؟: ١١١٠

نهيهم عن زيارة القصور فزوروها: ١٤٦٨

نور أنى أراه ؟: ٤٨٧، ٤٨٨

نوراني أراه: ٤٨٧

حرف الهاء

هاجئت لموت مافق: ١٠١٦

هذا أطيب وأظهر: ١٤٨، ١٤٩

هذا تفعله الأعاجم يملوكها: ٢٧٦

هذا عمي وصنو أبي: ١٢٧٨

هذا ممن فضي نحبه: ١٢٦٤

هذه الشجرة تعالي يا شجرة: ٧٤٦

هذه الشجرة السمرة: ٧٣٦

والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله: ١٦٤٠
والذي نفسي بيده لو لم ألترمه لم يزل: ٧٦٨
والله إني لأمين في السماء: ٢٧٩
والله لا أحلف على يمين فأرى: ١٥٧٧
والله ما هو بكاهن: ٦٥٨ (ث)
والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا: ٦٥٧
(ث)

وإنَّ الحسنة بعشر أمثالها: ١٠٨٧
وأنا أشبه ولد إبراهيم به: ٣٥٢
وأنتم اليوم خير منكم يومئذ: ٩٥٥
وإتاني، ولكن الله تعالى أعانني: ١٥٥٣،
١٥٥٤

وتفعلين؟: ٨١٢
وجدنا فرسك بحرأ: ٨٩٣
والجراءة والجبن غرائز: ١٦٨
وجعلت قرة عيني في الصلاة: ١٤٦
وجعلتك فاتحاً وخاتماً: ٦٣٦ (قدسي)
ورسّ ورسّ! خطّ خطّ: ١٧٠٩
والسلام كما قد علمتم: ١٣٨٨
الوسيلة أعلى درجة في الجنة: ٥٩٧
وصلاة في المسجد الحرام أفضل من: ١٥٠٠
وكذلك الأنبياء تنام أعينهم: ٣٦١
وكل ضلالة في النار: ١١٥١
ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس: ٦١١
ولا خطر على قلب بشر: ١٥٥٠
ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر: ٥٤٩
وما يمنني وإنما أنزل القرآن بلساني: ١٢٤
وما يمنني وقد خرج جبريل أنفأ: ١٤١٥
والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون: ١٥٠٩
ويتماري في الفوق: ١٨١١
ويحك فمن يعدل إن لم أعدل: ١٧٣، ٢٨٦
ويحك يا أبا سفيان: ١٨٤
ويذكر كذباته: ١٥٨٧
ويؤاخذ منك يا أعرابي: ١٧٨

ويكرر الهرج: ١٠٩٥

ويل لك من الناس: ٧٢

ويل للعرب من شر قد اقترب: ٩٦٣

ويل للناس منك: ٩٨٣

حرف الياء

يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمداً: ١١٦٤
(ث)

يا إخوة القردة والخنازير: ١٧٨٥

يا أعرابي! أين تريد؟: ٧٣٦

يا أيها الناس انصرفوا عني: ١٠٤٩

يا بني! إن قدرت أن تصبح وتمسي: ١٢٢٤

يا بني! وذلك من ستي: ١٢٢٤

يا جابر! قل لهذه الشجرة: ٧٣٨

يا جابر! نادِ الوضوء: ٦٩٥

يا جبريل! إن الدنيا دار من لا دار له: ٣١٦

يا رب! علمت أن لا مخافة عليّ: ٧٥٠

يا رسول الله! لأنت أحب إليّ من

أهلي: ١٢٠٥ (ث)

يا ضبّ: ٧٩٣

يا عائشة! أو ما علمت أن الأرض تبتلع: ٦٨

يا عائشة! مالي وللدنيا: ٣٢٧

يا عباد الله: الخشب تحنّ: ٧٧٢ (ث)

يا فتى! لقد شققت عليّ: ٢٤٣

يا فلانة أجبي بإذن الله: ٨٣٥

يا محمداً! إن الله يأمرك أن تصل من قطعك:

١٦٩

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل: ١٥٢٨

يا مسكينة عليك السكينة: ١٥٣

يا معشر أهل الإيمان: ٤٣١

يتلأأ وجهه تلالو القمر: ٦٠

يجمع الله الأولين والآخرين: ٥٠٦، ٥٧١

يجمع الله الناس في صعيد واحد: ٥٦٣

يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي:

٥٥٥

يخرج في هذه الأمة : ١٨١٢

يخرج من أمني : ١٨١٣

يخرج من النار من كان في قلبه : ١١٤٣

يخطو نكفراً : ٢٩٦

يسيفه عضو منه إلى الجنة : ١٠٣٦

يسروا ولا تعسروا : ١٧٨٠

يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف : ٩٧٦

يقتلون أهل الإسلام : ١٨٠٦

يقروون القرآن لا يجاوز حناجرهم : ١٨٠٨

يكون في ثقب كذاب ومبير : ٩٨٩

يمخذ الحيار نفسه : ٧٨٨

يمرفون من الدين : ١٨٠٩

ينزل رُثنا إلى السماء الدنيا : ٤٩٧

يوشك أن يكثر فيكم العجم : ٩٩٩

يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة : ٦٩٩

يوضع للأنباء منابر يجلسون عليها : ٥٨٨

يوم الأربعاء : ٦٨٥

فهرس الأشعار

رقم الصفحة

الباء

- ٢٧٦ ولما رأينا رسم من لم يدع لنا
٢٧٦ نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة



- ٤٢٢ فإن يك باقي سحر فرعون فيكم

التاء

- ٢٧٦ يا دار خير المرسلين ومن به
٢٧٦ عندي لأجلك لوعة وصبابة
٢٧٦ وعلي عهد إن ملأت محاجري



- ٢٧٧ لأعفرن مصون شبيبي بينها
٢٧٧ لولا العوادي والأعادي زرتها
٢٧٧ لكن سأمدي من حفيل تحيتي
٢٧٧ أزكى من المسك المفتق نفحة
٢٧٧ وتخصه بزواكي الصلوات

الدال

- ١٤٦ وشق له من اسمه ليجله



- ٤٢١ كأن أبا بكر أبو بكر الرضا
٤٢١ لو لا انقطاع الوحي بعد محمد
٤٢١ لم يأت به برسالة جبريل

أنا في أمة تداركها الله ٤٢١ غريب كصالح في ثمود

الراء

لو لم تكن فيه آيات مبينة ١٥٤ لكان منظره يُثنيك بالخبر

علي محمد صلاة الأبرار ٢٥١ صلى عليه الطيبون الأخيار

قد كنت قواماً بكأ بالأسحار ٢٥١ يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل نجمفني وحببي الدار



كنت موسى وافئة بنت شعيب ٤٢١ غير أن ليس فيكما من فقير



كيف لا بدنيك من أمل ٤٢٢ من رسول الله من لفه

العين

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ٢٤٢ هذا لعمرى في الفياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ٢٤٢ إن المحب لمن يحب مطيع

القاف

من قبلها طبت في الغلال وفي ١٠٠ مسنود حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر أد ١٠١ ت ولا مضعة ولا علق

بل نطفة تركب السفين وقد أل ١٠١ حم نيراً وأهله الغرق

تنقل من صالح إلى رحم ١٠١ إذا مضى عالم بدا طسق

حتى احتوى بينك المهيم من ١٥٠ و ١٠١ خندق عليها تحنها التطق

وأنت لما ولدت أشرفت الـ ١٠١ أرض وضأت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي التـ ١٠١ نور وسبل الرشاد نخترق

الكاف

رب العباد ما لنا وما لكا ٤٦٢ قد كنت تسفينا فما بدا لكا

أنزل علينا الغيث لا أبا لكا

اللام

قد تحللت مسلك الروح متي ١٣٠ وبذا ضفي الخليل خليلا

فإذا ما نطقك كنت حديثي ١٣٠ وإذا ما سكك كنت الغليلا



تلك المكارم لا فعبان من لبس ٣٢١ شيا يما فعادا بعد أبوالا

لولا انقطاع الوحي بعد محمد
هو مثله في الفضل إلا أنه

قلنا محمد من أبيه بديل
لم يأت به برسالة جبريل

الصيم

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر
وإذا المطي بنا بلغن محمداً
قُرئنا من خير من وطىء الثرى
ولها علينا حرمة وذمام

قمر تقطع دونه الأوهام
فظهورهن على الرجال حرام
٢٧٦
٢٧٦
٢٧٦

النون

تنازع الأحمدان الشبهة فاشتبهها
خُلِقاً وُخِلِقاً كما قُدَّ الشراكان



وإذا ما رفعت راياته
صَفَّقت بين جناحي جبرين



فر من الخلد واستجار بنا
فصبر الله قلب رضوان

٤٢١

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الصفحة	الموضوع
٥	ترجمة المؤلف
٧	مقدمة المصنف
١١	القسم الأول في تَعْظِيمِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى لِقَدْرِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى قَوْلًا وَفِعْلًا
١٣	الباب الأول في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عَظِيمَ قَدْرِهِ لَدَيْهِ
١٣	الفصل الأول فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن ...
	الفصل الثاني في وصفه له تعالى بالشهادة وما يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الثَّناء
١٩	والكَرامة
٢١	الفصل الثالث فيما وَرَدَ في خُطْبَاهِ إِثَاءَ مُورِدِ الْمَلَأَطَفَةِ وَالْمَبْرَةِ
٢٣	الفصل الرابع في قُسمِهِ تَعَالَى بِعَظِيمِ قَدْرِهِ
٢٦	الفصل الخامس في قُسمِهِ - تعالى حُدُّهُ - له، لِيَحَقُقَ مَكَانَتُهُ عِنْدَهُ
	الفصل السادس في ما وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي جَهَنَّمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُورِدِ
٣٠	الشَّقَقَةِ وَالْإِكْرَامِ
	الفصل السابع في ما أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ
٣١	وَشَرِيفِ مَقَرِّهِ عَلَى الْأَنْبياءِ وَخُطْوَةِ رُكْبَتَيْهِ
	الفصل الثامن في إِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى خَلْقَهُ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ وَوَلَانَتِهِ لَهُ وَرَفْعِهِ
٣٣	الْعَذَابِ بِسَبِيهِ
٣٥	الفصل التاسع في ما تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ الْفَتْحِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ﷻ

الفصل العاشر في ما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه
ومكانته عنده وما خصه الله به من ذلك سوى ما انتظم فيما ذكرناه
قَبْلُ

٣٧

الباب الثاني في تكميل الله تعالى له المعايين خلقاً وخلقاً، وقرائه جميع
الفضائل الدينية والذنبية فيه نَسَقاً

٤٠

فصل في اجتماع خصال الجلال والكمال في نبيتنا محمد ﷺ

٤١

فصل في صفاته الخلقية ﷺ

٤٢

فصل في نظافته ﷺ وطيب ريقه وعرقه ودمه

٤٤

فصل في وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال

٤٦

حركاته ﷺ

٤٨

فصل في فصاحة لسانه، وبلاغة قوله ﷺ

٥١

فصل في شرف نسبه ﷺ وكرم بلده ومنشئه

٥٢

فصل فيما كان التمدح والكمال بقلته

٥٤

فصل فيما التمدح بكثرتيه

٥٧

فصل فيما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه

٥٩

فصل في حسن خلقه ﷺ

٦٢

فصل في نباهة عقله ﷺ

٦٣

فصل في حلمه واختماله وعفوه وصبره ﷺ

٦٦

فصل في جوده وكرمه وسخائه وسماحيته ﷺ

٦٨

فصل في شجاعته وتجدته ﷺ

٧٠

فصل في حيائه وإغضائه ﷺ

٧١

فصل في حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلي

٧٣

فصل في شفقتيه ورحمته ﷺ ورأفته لجميع الخلي

٧٥

فصل في خلقه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصله الرحم

٧٧

فصل في تواضعه ﷺ

٧٩

فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجه

- ٨١ فصل في وقاره ﷺ وصحته وتؤدته ومروءته وحسن هديه
- ٨٢ فصل في زهده ﷺ في الدنيا
- ٨٤ فصل في خوفه ﷺ من ربه، وطاعته له، وشدة عبادته
- فصل في صفات الأنبياء والرسل من كمال الخلق وحسن الخلق
- ٨٦ وشرف النسب
- ٩١ فصل في حديث هند بن أبي هالة وعلي بن أبي طالب في شمائله ﷺ ..
- ٩٥ فصل في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله
- الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه
- ٩٩ ومثله، وما خصه به في الدارين من كرامته عليه السلام
- الفصل الأول فيما ورد بذكر مكانته عند ربه، والاضطفاء، ورفعته الذكر
- والتفضيل وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة
- ٩٩ اسمه الطيب
- فصل في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة
- الأنبياء والغروج به إلى ميدرة المتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى ..
- ١٠٦ فصل في حقيقة الإسراء، هل كان بالروح أم بالروح والجسد
- ١١٢ فصل في إنطال حجج من قال: إنها نوم
- ١١٥ فصل في رؤيته ﷺ لربه عز وجل واختلاف السلف فيها
- ١١٧ فصل في ما ورد في قصة الإسراء من محتاجاته ﷺ لله تعالى وكلامه
- ١٢٢ معه
- ١٢٣ فصل في ما ورد من الدنو والقرب لبنة الإسراء
- ١٢٥ فصل في ذكر تفضيله يوم القيامة بخصوص الكرامة
- ١٢٧ فصل في تفضيله بالمحبة والخلة
- ١٣١ فصل في تفضيله بالشقاعة والمقام المحمود
- ١٣٧ فصل في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفعة والكثرة والقصيلة ...
- ١٣٨ فصل في معنى الأحاديث الواردة بنهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء
- ١٤٠ فصل في أسمائه عليه السلام وما تضمنته من تفضيله

فصل في تشریف اللہ تعالیٰ لہ بما سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَا ۱۴۵

فصل في أن ذات اللہ تعالیٰ لا تُشْبِهُ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَصِفَاتِهِ تَعَالَى لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ۱۵۱

الباب الرابع فيما أظهره اللہ تعالیٰ على يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَشَرَفَهُ بِهِ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ ۱۵۳

فصل في النبوة والرسالة والوحي ۱۵۵

فصل في مُعْجَزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجَزَةِ ۱۵۷

فصل في إعجاز القرآن ۱۵۹

فصل ۱۶۳

فصل ۱۶۵

فصل ۱۶۷

فصل في آيات وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ ۱۶۸

فصل في الرزقة التي تَلَحَّقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْبَةِ الَّتِي تَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ بِلَاوَتِهِ ۱۶۹

فصل في كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ ۱۷۱

فصل في وُجُوهٍ أُخْرَى فِي إِعْجَازِهِ مِنْهَا لَا يَمْلَهُ قَارِئُهُ ۱۷۲

فصل في انشِقَاقِ الْقَمَرِ وَحِسِّ الشَّمْسِ ۱۷۵

فصل في نَجْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكْثِيرِهِ بِبَرَكَتِهِ ۱۷۷

فصل في تَعْجِيزِ الْمَاءِ بِبَرَكَتِهِ ﷺ، وَانْبِعَاجِهِ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ ۱۷۹

فصل وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِبَرَكَتِهِ وَدُعَائِهِ ۱۸۱

فصل في كلام الشجرة وشهادتها لهُ بِالنُّبُوَّةِ وَإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ ۱۸۵

فصل في قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذَعِ ۱۸۸

فصل في مُعْجَزَاتٍ أُخْرَى لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي سَائِرِ الْجَمَادَاتِ كَتَسْنِيحِ الطَّعَامِ وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ ۱۸۹

- ١٩٢ فصل في الآيات في ضرر الخيوانات
- فصل في إخباء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له
- ١٩٦ بالشوة ﷺ
- ١٩٩ فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات
- ٢٠١ فصل في إجابة دُعائه ﷺ
- ٢٠٤ فصل في كراماته وبركاته وانقلاب الأغنياء له فيما لمسه أو باشره
- ٢٠٨ فصل في ما أطلع عليه من الغيوب
- ٢١٥ فصل في عظمة الله تعالى له من الناس وكفايته من آذاه
- ٢٢٠ فصل في معجزاته ﷺ فيما جمع الله له من المعارف والعلوم
- ٢٢٤ فصل في أخباره ﷺ مع الملانكة والجن ورؤيته كثير من أصحابه لهم
- ٢٢٦ فصل في إخبار الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب عن صفته وصفة أمته
- ٢٢٧ فصل في الآيات التي ظهرت عند مولده ﷺ
- ٢٢٩ فصل في أن معجزات نبينا محمد ﷺ أظهر من سائر معجزات الرسل
- ٢٣٥ القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام
- ٢٣٧ الباب الأول في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته
- ٢٣٩ فصل في وجوب طاعته ﷺ
- ٢٤١ فصل في وجوب اتباعه وامتناله سنته والافتداء بهديه
- فصل في ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والافتداء بهديه
- ٢٤٤ وسيرته ﷺ
- ٢٤٦ فصل في أن مخالفة أمره ﷺ وتبديل سنته ضلال وبدعة
- ٢٤٨ الباب الثاني في لزوم محبته عليه السلام
- ٢٤٩ فصل في ثواب محبته ﷺ
- ٢٥٠ فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له
- ٢٥٢ فصل في علامة محبته عليه السلام
- ٢٥٥ فصل في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها
- ٢٥٧ فصل في وجوب مناصحته عليه السلام

٢٦٠	الباب الثالث في تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَوُجُوبِ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ
٢٦٢	فصل في عَادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعْظِيمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِجْلَالِهِ وَتَوْقِيرِهِ
٢٦٤	فصل فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ
٢٦٦	فصل فِي سِيَرَةِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ
٢٦٨	فصل وَمِنْ تَوْقِيرِهِ ﷺ وَبِرِّهِ، بِرُّ آلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: أَزْوَاجِهِ، كَمَا حَضَّ عَلَيْهِ ﷺ، وَسَلَكَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
٢٧١	فصل
٢٧٥	فصل وَمِنْ إِعْظَامِهِ وَإِكْبَارِهِ إِعْظَامُ جَمِيعِ أَسْبَابِهِ، وَإِكْرَامُ مَشَاهِدِهِ وَأَمْكَنَتِهِ مِنْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَاهِدِهِ، وَمَا لَمَسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ عُرفَ بِهِ
٢٧٨	الباب الرابع فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ وَقَرَضِ ذَلِكَ وَقَضَائِهِ
٢٧٩	فصل فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ
٢٨١	فصل فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَبِرْغَبٌ
٢٨٥	فصل فِي كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ
٢٨٩	فصل فِي فَضِيلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ
٢٩١	فصل فِي ذَمِّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِثْمِهِ
٢٩٢	فصل فِي تَخْصِيصِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِتَبْلِيغِ صَلَاةٍ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنْ الْأَنَامِ
٢٩٤	فصل فِي الْاِخْتِلَافِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
٢٩٦	فصل فِي حُكْمِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَضِيلَةِ مَنْ زَارَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُسَلَّمُ وَيَدْعُو لَهُ
٣٠١	فصل فِيمَا يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَدَبِ سِوَى مَا قَدْ مَنَّا، وَفَضْلِهِ، وَفَضْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ، وَفِي مَسْجِدِ مَكَّةَ، وَذِكْرِ قَبْرِهِ وَمَنْبَرِهِ، وَفَضْلِ سُكْنَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ

القسم الثالث فِيمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا

يَفْتَنُغُ أَوْ يَصِحُّ مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ ٣٠٧

الباب الأول فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَلَامِ فِي عِصْمَةِ نَبِيِّنَا وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ

صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ ٣٠٩

فصل فِي حُكْمِ عَقْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ بُتُوهِ ٣٠٩

فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الثَّبُوتِ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ ٣١٩

فصل فِي أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِبَعْضِ
أُمُورِ الدُّنْيَا ٣٢٤

فصل فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكُفَاتِيهِ مِنْهُ ٣٢٦

فصل فِي صِدْقِ أَقْوَالِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ٣٣٠

فصل فِي رَدِّ الْمُؤَلَّفِ لِبَعْضِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَطَاعِنِ، كَرَدِّهِ لِقِصَّةِ الْغَرَانِيقِ
وَبَعْضِ الشُّبُهَةِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا الزَّائِعُونَ ٣٣١

فصل فِي حَالِهِ ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيَا ٣٣٩

فصل فِي رَدِّ بَعْضِ الْاِغْتِرَاضَاتِ وَالشُّبُهَةِ، كَسَهْوِهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، وَقَوْلِ
إِبْرَاهِيمَ إِنِّي سَقِيمٌ ٣٤١

فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ ٣٤٦

فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَ الثَّبُوتِ ٣٤٩

فصل فِي حُكْمِ السَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ فِي الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ ٣٥٠

فصل فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورِ فِيهَا السَّهْوُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٥٢

فصل فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَجَارَ عَلَيْهِمُ الصَّغَائِرَ وَالْكَلَامَ عَلَى مَا احْتَجُّوا بِهِ فِي ذَلِكَ

فصل فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ
وَالْحَدِيثِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ ٣٦٨

فصل فِي فَوَائِدِ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ٣٧١

فصل فِي الْقَوْلِ فِي عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ٣٧٢

الباب الثاني من القسم الثالث فِيمَا يَخْتَصُّهُمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيُظَرَأُ عَلَيْهِمْ مِنَ
الْمَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ ٣٧٦

- ٣٧٨ فصل في الرَّدِّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي حَدِيثِ السُّخْرِ
- ٣٨٠ فصل في أَحْوَالِهِ ﷺ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا
- ٣٨١ فصل في مَا يُعْتَقَدُ فِي أُمُورِ أَحْكَامِ الْبَشَرِ الْجَارِيَةِ عَلَى يَدَيْهِ ﷺ وَقَضَايَاهُمْ
- فصل في أَقْوَالِهِ ﷺ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا
- ٣٨٢ فَعَلَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ
- فصل فِي شَرْحِ حَدِيثِ الْوَصِيَّةِ فِي مَرَضِهِ ﷺ
- ٣٨٥ فصل فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذِنَتْهُ أَوْ سَبَّيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا كَفَّارَةً،
- وأَحَادِيثَ أُخَرَ
- ٣٨٨ فصل فِي أَنَّ عَامَّةَ أَفْعَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ، وَالرَّدُّ عَلَى بَعْضِ الشُّبُهَةِ
- ٣٩١ فصل فِي الْحِكْمَةِ فِي إِجْرَاءِ الْأَمْرَاضِ وَشِدَّتِهَا عَلَيْهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ
- ٣٩٥ الْقِسْمِ الرَّابِعِ فِي تَصَرُّفِهِ وَجُودِهِ الْأَحْكَامِ فِيمَنْ تَنَقَّضَتْ أَوْ سَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ٤٠١ الْبَابُ الْأَوَّلُ فِي بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَبٌّ، أَوْ تَقْصُرُ، مِنْ
- ٤٠٤ تَغْرِيفٍ أَوْ نَصٍّ
- فصل فِي الْحُجَّةِ فِي إِنْجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ أَوْ عَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٤٠٧ فصل فِي أَسْبَابِ عَفْوِهِ ﷺ عَنْ بَعْضِ مَنْ آذَاهُ
- ٤١١ فصل فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرَ قَاصِدٍ لِلْسَّبِّ وَالْإِزْرَاءِ وَلَا مُعْتَقِدٍ
- ٤١٦ لَهُ
- فصل فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِدًا لِذَلِكَ
- ٤١٧ فصل فِي حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلَامًا يَحْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ
- ٤١٨ فصل فِي حُكْمِ مَنْ لَمْ يَقْصِدْ نَقْصًا، وَلَمْ يَذْكُرْ عَيْنًا وَلَا سَبًّا. بَلْ قَالَ قَوْلًا
- عَلَى مَقْصِدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ، أَوْ لْغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّنْثِيلِ وَعَدَمِ التَّوْقِيرِ
- ٤٢٠ لِنَبِيِّهِ، أَوْ عَلَى قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ
- فصل فِي حُكْمِ الْقَائِلِ وَالْحَاكِي لِهَذَا الْكَلَامِ عَنْ غَيْرِهِ
- ٤٢٤ فصل فِي حُكْمِ ذِكْرِ مَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ يُخْتَلَفُ فِي جَوَازِهِ عَلَيْهِ،
- ٤٢٦ عَلَى طَرِيقِ الْمَذَاكِرَةِ وَالتَّعْلِيمِ
- فصل فِي الْأَدَبِ اللَّازِمِ عِنْدَ ذِكْرِ أَخْبَارِهِ ﷺ
- ٤٢٩

٤٣١	الباب الثاني في حُكْم سَائِهِ وَشَانِيهِ وَمُتَّقَصِهِ وَمُؤْذِيهِ وَعَقُوبَتِهِ وَذِكْرِ اسْتِنَابَتِهِ وَوَرَائَتِهِ ...
٤٣٣	فصل في اسْتِنَابَةِ الْمُزْتَدِّ
٤٣٥	فصل في حُكْم الْمُزْتَدِّ إِذَا اشْتَبَهَ ارْتِدَادُهُ
٤٣٦	فصل في حُكْم الذَّمِّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ ﷺ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَّرَ بِهِ
٤٤٠	فصل في مِيزَاتٍ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ وَعَسَلِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ
٤٤٣	الباب الثالث في حُكْم مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ وَكُتُبَهُ وَآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ
٤٤٤	فصل في حُكْم مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالْاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ
٤٤٦	فصل في تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِي إِكْفَارِ الْمُتَأَوِّلِينَ
٤٥٠	فصل في بَيَانِ مَا هُوَ مِنَ الْمَقَالَاتِ كُفْرٌ، وَمَا يُتَوَقَّفُ أَوْ يُخْتَلَفُ فِيهِ، وَمَا لَيْسَ بِكُفْرٍ
٤٥٨	فصل في حُكْم الذَّمِّ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى
٤٥٩	فصل في حُكْم الْمُفْتَرِيِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِادْعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِيِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ أَوْ خَالِقَهُ
٤٦٠	فصل في حُكْم مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ، وَسُخِفِ اللَّفْظِ، يَمُنُّ لَمْ يَضْبِطْ كَلَامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَقْتَضِي الاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ
٤٦٢	فصل في حُكْم مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيََاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَاسْتَحَفَّ بِهِمْ ...
٤٦٤	فصل في حُكْم مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا
٤٦٦	فصل وَسَبَّ آلِ بَيْتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَنَقُّصُهُمْ حَرَامٌ مُلْعُونٌ فَاعِلُهُ
٤٧١	فهرس الأحاديث والآثار
٤٩٠	فهرس الأشعار
٤٩٣	فهرس الموضوعات